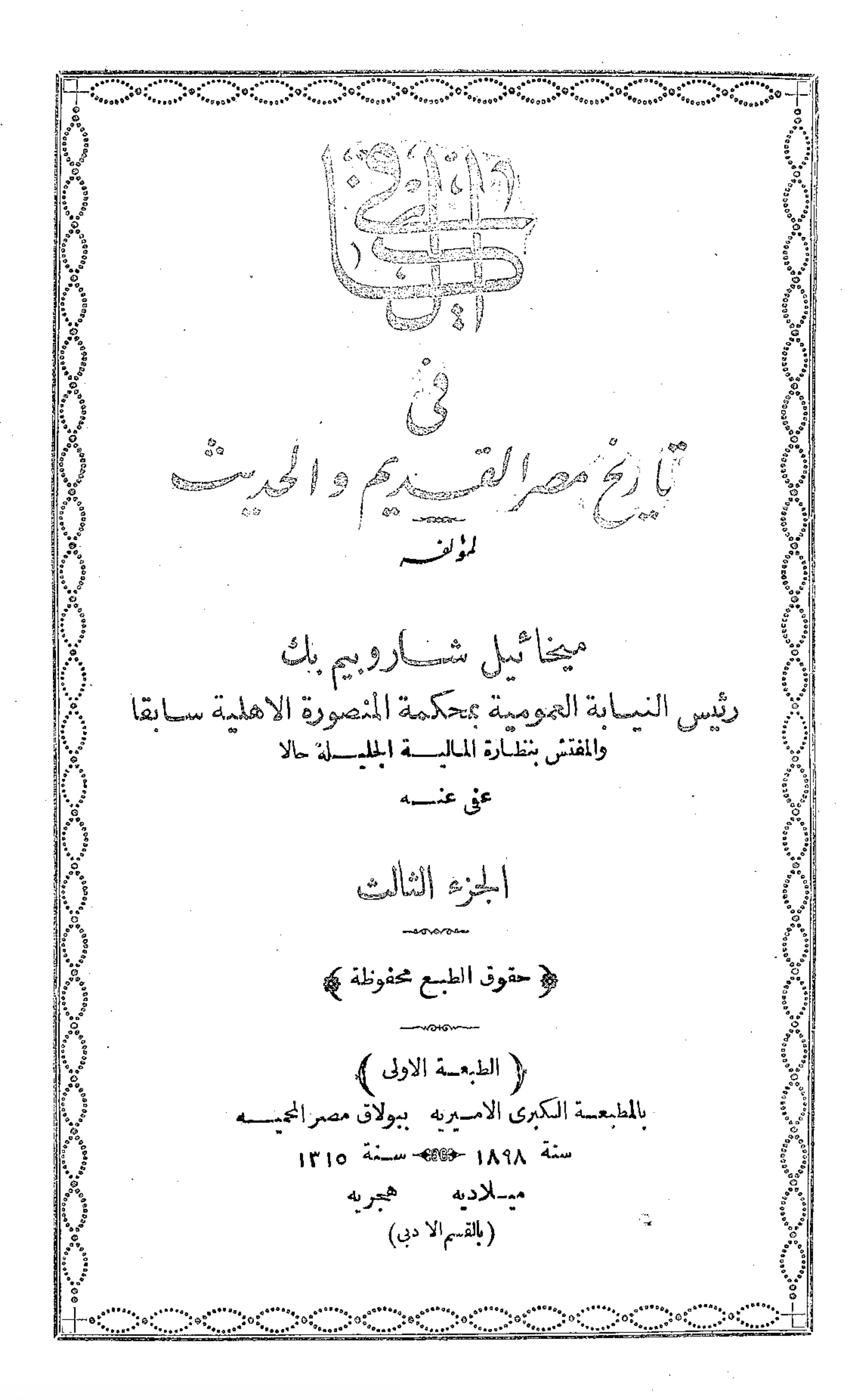


الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بنظارة المالية الجليلة حالا

عفى عنه

الجزء الثالث

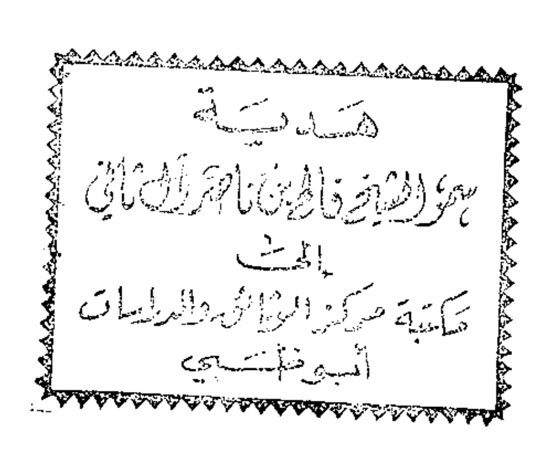
(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميه

سنة ١٨٩٨ سنة ١٣١٥

ميلاديه هجريه

(بالقسم الادبى)


هدية
سمو الشيخ فالح بن ناصر آل ثاني
إلى
مكتبة مركز الوثائق والدراسات
أبوظبي

(فهـــــرست)

الجـــــزء الثالث

من

(تاريخ الكافي)

(فهرس الجـــــزء الثالث من تاريخ الكافى)

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿تمت﴾



الجـــــزء الثـــالث

(المقالة الســابعة)

(فيمن هم الترك وفى نسبهم وفيمن تفرع عنهم من الممالك والامم الى ظهور ملوك آل عثمان)

اعلم أن الترك أمة من أقدم الأمم وأعظمها وقد اجتمعت كلمة أكثر المؤرخين من عرب وأعجام على أنهم من ولد يافث بن نوح وأبوهـم ترك هو الذى سماه هيرودتس المؤرخ باسم ترجيشاوس وجاء فى التوراة باسم توجرما

قال ابن الاثير والترك من ولد تيرش أوطيراش بن يافث وقيـل أيضا ان ترك هـذا انما هو من ولد طوج بن أفريدون ينتهى الى جومرت أوكيومرت ويرجع الى تيرش بن يافث ابن نوح قال * قال ابن خلدون وينسبهم العرب الى غامور بن سويل بن يافث وهو غلط لان غامور مصحف من كومر أوجومر فأبدل العرب الكاف غينا فصارت غامور وجومر هذا من ولد توجرما وقال مؤرخو التتر المغول بل هـم من ولد تتر ومغول وهـما أخوان من نسل ترك ابن يافث وهم لايقصدون بذلك الاعلاء شرف عائلتهم اه وقد ذكر هيرودتس المؤرخ وبلنيوس وبمبونيوس ميـلا اسم الترك قديما وذكروا أيضا فى مواضع أخر باسم توغريوس فصحفه الكتاب وأهل النقل الى أمورغيوس ويقال ان بلنيوس سماهم أيضا تربى وسماهم بمبونيوس باسم بربى وكان البزانطيون أى الروم المشارقة يسمونهم باسم فرس أوانغرد يعنى المجر قال بعض الكتاب مع أنه لم يكن بين الترك والفرس قرابة ولا بين الفرس والمجر * قال العلامة البستانى صاحب دائرة المعارف ما محصله وقد خرجت من جبال التابى قبائل تركية وتفرقت فى أنحاء آسية العليا التى هى الآن تركستان فسماها الصينيون باسم توكو كما سمى الفرس بلاد تركستان باسم توران فكان لفظ ترك أو تورانية اسما جنسيا للقبائل المتوحشة وصارت كلمة توران عنـد جماعة اليونان بلفظ تيران ومعناها طاغية أوعات اه وقـد ورد فى بعض الروايات ان أغورخان بن قراخان هو الذى أسس بفتوحاته وشرائعـه دولة الترك وشيد ركن

تمدنها وان أوغورخان هذا كان معاصرا للخليل ابراهيم عليه السلام وانه ترك عبادة الاصنام ولاذ الى عبادة أصح منها ثم ركب على أخيه فقاتله قتالا دينيا ومازالت الحرب قائمة بينهما زهاء سبعين سنة وهو يقاتل أخاه حتى ظفر به وهزمه شر هزيمة فخضع له حينئذ سائر تركستان وهو القسم الممتد من ارتلاز وسيرام الى بخارى وخلف أوغورخان هذا ستة بنين فلما مات اقتسموا المملكة بينهم وكان لكل واحد منهم أربعة أولاد فكانوا آباء أربع وعشرين قبيلة تركية فسكن منهم ثلاثة فى تركستان ولم يلبثوا أن اكتسحوا كل البلاد الواقعة بين جيحون وسيحون وتقدموا نحو جنا القلعة والطونة وعاثوا وأفسدوا فكانوا يلقبون بالمدمرين قال بعض الكتاب وقد سمى بعضهم هذه الامة بالتتار أيضا ولكن التتار فرع منهم وقال آخرون ان من الترك أهم فروع العائلة التورانية وآخرون يقولون ان اسمهم مرادف للتورانية وزعم بعضهم أنهم من الامة الايرانية مع أن المتأخرين تحققوا أن لااتصال لهم بهذه الامة البتة وكان أول ظهورهم فى آسية الشمالية والوسطى بين رعاة الطونة والتتر الذين أكثروا من شن الغارة على الصينيين عدة قرون قبل الميلاد المسيحى وبعده وفى القرن السادس ظهرت طائفة منهم أيضا فى آسية وأصلها على مايقال من البلاد المسماة الآن تركستان فوطئت بساط السلام آونة ثم عادت فجددت حروبها مع أهل الصين شرقا وأهل فارس جنوبا ولما كانوا كلهم أخلاطا مؤلفين من لفيف قبائل متباينة فى الاخلاق والعادات ميالة بالطبع الى الغزو والغارات جافية متوحشة لم تتفق لهم كلمة وانفصمت عروة اتحادهم فتفرقوا فى تلك الانحاء الواسعة واستوطنوها على ماهم عليه من الخشونة فكان ذلك داعيا لضعفهم ولما كانت سنة أربع وأربعين وسبعمائة للميلاد المسيحى استظهرت على مملكتهم أمة منهم يقال لهم الويغور قال بعض أهل التحقيق وهم أول قبيلة تركية استعملت لغة مكتتبة وكانوا أولا بوذيين فتمجسوا على مذهب زرادشت ثم أسلموا فى القرن التاسع والعاشر * هذا ما كان من أمرهم فى الشرق * أما ما كان من أمرهم فى الغرب فانهم فى أواسط القرن التاسع انحطوا وتضعضعوا وسادت عليهم طائفة القرغيز وهى طائفة منهم وقيل بل هى من التتر فلما ظهر جنكيزخان الذى كان على يديه انحطاط دولتهم فى آسية الوسطى أيضا واذلالها صارت من هذا الحين سائر الدول القائمة بتلك الانحاء وفى جهة العراق وماوراءها أيضا من الممالك الاسلامية تترية بعد أن كانت تركية بيد السلاجقة وغيرهم ومازالوا على هذه الحال الى موت تيمورلنك فظهروا فى ممالكه واستولوا على أرمينية ومابين النهرين ولبثوا هكذا الى أواسط القرن السادس عشر للميلاد حتى قام عليهم الصوفية وطردوهم وظهرت فى تلك الايام الازبكية وهى أمة يقال انها بقايا الويغور كانت نازلة فى جنوبى تركستان الصينية تحت جبال تيان شان فاستولت على تركستان الشرقية وما جاورها من المدن والبلدان الى حدود الفرات ولم يمض عليها قرن أوبعض قرن حتى استظهرت عليها أمة أخرى تركية تعرف بالتركمان * قال أصحاب التاريخ وليس للترك بقية مهمة الآن الا الازبكية والتركمان المقيمون

الآن فى مواطنهم القديمة

واعلم أن أشهر الدول التركية التى ملكت بلاد الاسلام والروم مما وراء النهر وخراسان هم بنو ساسان وقد ملكوا زهاء مائة وسبعين سنة وكان انقراضهم فى سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة وبنو سبكتكين وهم المعروفون بالدولة الغزنوية لاتخاذهم مدينة غزنة قاعدة لملكتهم وقد ملكوا بلاد السامانية وكانت مدة ملكهم مائة واثنتين وسبعين سنة ثم انقرضوا فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة للهجرة ثم نشأت الدولة السلجوقية فكانت مدة ملكهم مائة وأربعين سنة ابتداؤها من سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة وهى أعظم دولهم وأوسعها كلمة ثم تفرع منها عدة دول أخرى منها الدولة الخوارزمية التى قام على رأسها خوارزم شاه وهذه قد ملكت ماوراءالنهر بعد السلاجقة وكانت مدة ملكها مائة وثمانيا وثلاثين سنة وانتهاؤها سنة ثمان وعشرين وستمائة للهجرة وقد ملك حلب والشام فرع من هذه الدولة أيضا يعرف بدولة تتش بن الب ارسلان وكان أولهم أتسزبن أبق ملك حوالى سنة أربعمائة وثمان وستين وما زالوا الى أن انقرضوا على يدى تمرتاش بن ايلغازى سنة ست عشرة وخمسمائة ومنهم أيضابنو أرتق ملوك ماردين وديار بكر وأولهم أرتق بن أكسب ولكنهم لم يلبثوا أن انقرضوا على يدى هولاكو سنة سبعين وسبعمائة للهجرة ومنهم الاتابكية ملوك حلب والشام وأولهم قسيم الدولة آق سنقر مملوك السلطان ملكشاه تولى الملك فى صدر سنة اثنتين وثمانين وستمائة للهجرة ومنهم دولة بنى طغتكين بالشام وأولهم طغتكين أحد رجال تتش ابن ألب ارسلان ملك فى القرن الخامس ثم انقرض ملكهم بعد أواسط القرن السادس ومنهم فرع آخر ملك فى بلاد الروم وأولهم قطلمش تولى الملك فى أواسط القرن الخامس ثم انقرضوا بظهور الدولة العثمانية وذلك حوالى سنة تسع وتسعين وستمائة للهجرة أى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف ميلادية

(المقالة الثامنة)

(فى تأسيس الدولة العثمانية وفى ظهور ملوكها الى مجىء السلطان سليم الى ديار مصر واستخلاصها من أيدى المماليك الشراكسة المعروفين بدولة المماليك الثانية)

قد علمت مما تقدم كيف اجتمعت كلمة بعض أصحاب التاريخ على أن ترك الذى هو جد الاتراك هو من ولد يافث بن نوح عليه السلام ثم هم يقولون أيضا بان أوغز بن قراخان الذى هو من ولد ترك هذا كان ملكا جليل القدر عظيم الشوكة تسلط على بعض البلاد فى أيام الخليل ابراهيم عليه السلام وتصرف فيها فكانت تركستان التى هى توران داخلة تحت سلطانه قالوا وانقسمت مملكة أوغز هذا بعد موته الى خانيات منها ثلاثة ويقال لها الاسهم الثلاثة فاختصت بالاوغز الشرقى الى حدود الصين ثم ثلاثة أخرى ويقال لها الحاطمة احداها

خانيـة الجبال والثانية خانيـة البحر والثالثة خانية السماء أوخانية القبة الزرقاء ومن هذه الخانيـة نشأ سـبط كابى الذى جاء منه آل عثمان فلما كانت سنة خمسمائة للهجرة أى سنة ست ومائة وألف للميـلاد شبت نيران الحروب بين أسباط تلك الخانيات واشتدت وعلا لهيبها فأبادت لفيفهم أوكادت ومزقت من بقى منهم كل ممزق فسار أحـد أولاد كابى المـذكور الى ماهان واستوطنها فاجتمع حوله بعض بقايا تلك الاسـباط وخضعوالكلمته ولبث ماشاء الله ثم مات عن عدة بنين منهم كابى ألب وكان عظيما مهيبا ثم مات كابى ألب المذكور عن ابن اسمه سليمـان وكان سليمـان هـذا مغازيا حسن التدبير مهيبامطاع الكلمة فلما كان حوالى سـنة احـدى وعشرين وستمـائة للهجرة أى حوالى الجيـل الثالث عشر للميـلاد قدم جنكيزخان سلطان المغل فى عسكر جرار ونزل على خراسان وضـيق عليها حتى أخضعها فلم يطق سليمـان شاه ابن كابى ألب المذكور الصبر على ذلك وكان مقيما بمـاهان كما تقدم فرحل عنها على رأس خمسين ألفا من قومه الى أرزنجان وخلاط من بلاد الارمن ولبث مهاجرا سبع سنين حتى طرق السلاجقة الغز خراسان وخوارزم وفتحوها فلما علم بذلك قفل بمن كان معـه الى بلده فبينمـا هو يجتـاز الفرات عند جعبر اذ غرق فحزن عليه قومه وبنوا له قـبرا يقـال انه باق الى يومنا هذا يعرف بترك مزارى وخلف سليمـان شاه المذكور أربعة بنين وهم سغور زنكى وكونطغدى وارطغريل ومعناه المستقيم وكوندز فانقسموا مع من كان معهم من القوم بعد دفن سليمـان شـاه وافترقت كلمتهم فنهم من شاء العود الى الوطن ومنهم من فضل الغربة والنزول على بعض الجهات الغربيـة وهؤلاء قد انضم اليهـم الاميرارطغريل والامير كوندز وكانوا زهاء أربعمـائة عشيرة فيها أربعمـائة وأربعــة وأربعون فارسا مدججين بالسلاح فساروا فى طريقهم قاصدين الجهات الغربية وبينماهم على هـذا الحال اذ رأوا فى طريقهم جيشين يقتتلان قتالا عنيفا وكان أحدهما قليل العدد والعدد وكان هـذا الجيش الضعيف للسلطان علاء الدين السلجوقى من ولد ملكشاه بن قلج أرسلان والثانى من المغل الذين هم أعداء الترك فمال الامير ارطغريل بقومه الى معاونة جيش السلطان علاء الدين وانضم اليه فاشتد القتال بين الفريقين شـدة بالغة وما زالوا يقاتلون حتى دارت الدائرة على المغل وتم النصر للسلاجقة وجاء الخبر بذلك الى السلطان علاء الدين ففرح واستدعى اليه الامير ارطغريل وأحسن لقاءه وأدناه من مجلسـه وخلع عليه وعلى أخيه كوندز وأنزلهما وقومهما بمراعى نومانية وأرمينية أوبجبال قراجاطاغ عند أنقرة وأخلص ارطغريل فى خدمة السلطان علاء الدين وبالغ فى طاعته وقاتل معه فى حروبه المتتابعة مع الروم والمغل وأبلى فى كل منها بلاء حسنا فأقطعه ايالة عظيمة واقعة بين بلاده وبلاد الروم يقال لها سلطانية فنزل فيها بجماعة ممن لاذوا به وأحسن السيرة فى أهلها فعلت كلمته فلما كان حوالى سنة سبعمائة للهجرة أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ميلادية مات ارطغريل وقيل بل كانت وفاته حوالى سنة تسع وتسعين وسبعمائة للهجرة أى سنة ست وتسعين وثلثمائة وألف ميلادية بعد أن تغلب على قوطاهية وأخذها من الروم سنة ثمانين وستمائة هجرية أى سنة

احدى وثمانين ومائتين وألف ميلادية وفى قول بعض المؤرخين من المتقدمين ومنهم المؤرخ جورجى فرانزس الرومى المولود بمدينة القسطنطينية ان أصل الدولة العثمانية آت عن ملوك الروم بالسلالة وملوك الفرس بالكلالة * قال بعد كلام فلما كانت سنة ثلاثين ومائة وألف ميلادية خرج الامبراطور يوحنا كونيوس امبراطور الروم ومعه ابن أخيه أوغسطس المدعو يوحنا أيضا لقتال الملوك السلجوقيين فقاتلهم أياما حتى تغلب على كثير من قلاعهم وحصونهم وأقام على هذا الحال حتى نفدت الذخيرة أوكادت وعز القوت فى تلك الاصقاع الباردة ومات أكثر دواب الحمل والخيل من قلة العلف فخاف الامبراطور شر العاقبة اذا ظل على هذا الحال وجعل يدبر حيلة للخلاص ورسم بتوزيع مابقى من الخيل على أعظم فرسانه وأشدهم بأساوهم من طوائف الروم والايطاليان وجعل يجول بين الصفوف وينتقى منهم من يتوسم فيه سمة الفتوة والشجاعة فبينما هو على هذا الحال اذ رأى بين الصفوف فارسا من الطليان حسن الشكل أعجبه منظره فنظر الى ابن أخيه أوغسطس وقال له ادفع فرسك الى هذا الشاب ليمتطيه فاستعظم أوغسطس هذا الامر فشدد عليه الامبراطور فى ذلك فترجل أوغسطس عن فرسه وهو يتميز غيظا ودفعه الى الشاب وسار من ساعته مغضبا قاصدا ملك العجم فلما علم ملك العجم بقدومه وما وقع له مع عمه فرح به وأحسن لقاءه وقربه اليه ورفع منزلته فدان أوغسطس بدين الاسلام فزوجه ملك العجم بابنته وأقطعهما بلادا كثيرة وأجزل عطاءهما وكان أوغسطس هذا شابا جميلا رقيق الشمائل عارفا بعلوم اليونان ولغة العرب مهذبا طلق الوجه كريما مقداما لين الجانب فلقبه الفرس بالشلبى وأحبه الناس كثيرا ومالوا اليه بقلوبهم فعلت كلمته وطارت شهرته وعمت مهابته سائر مدن آسية وولدت له زوجته ولدا فسماه سليمان وهذبه وعلمه العربية واليونانية وبالغ فى تهذيبه فترعرع وشب على مكارم الاخلاق وأحسن الطباع فأحبته الرعية ومالت اليه فلما مات أبوه تولى مكانه وسار فى قومه سيرة حسنة وكان ميالا الى الفتح والجهاد فاستولى على الكثير من البلدان وضم الى مملكته كثيرا من مملكة الروم المجاورة لبلاده فاتسع نطاق مملكته وارتفعت كلمته وطار صيته فى الآفاق قال فكان أوغسطس هذا الذى هو يوحنا جدا للامير ارطغريل خان الذى هو أبو الامير عثمان رأس ملوك آل عثمان * وأوهم بعض أهل التاريخ من المتأخرين ومنهم ادواردس فوكوك الذى ترجم تاريخ أبى الفرج الملطى الى اللاطينية وجعله هدية لكرلوس الثانى ملك الانكليز عام ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية أى عام ثمان وخمسين وألف هجرية فقال بعد كلام * ولم يتسن لاصحاب التاريخ الى الآن معرفة شئ حقيقى عن سليمان شاه جد آل عثمان ولا الى من ينتهى نسبهم وحاصل مانقلوه من أخباره هو أنه لما تغلب جنكيزخان ملك التتر على أكثر البلاد ودان له أكثر مدن آسية خرج سليمان شاه المذكور حوالى سنة احدى عشرة وستمائة للهجرة فى نفر من قومه وسار الى تخت الدولة السلجوقية وكان معه أربعة بنين وهم سنقورزنكى وكدنطغدى وارطغريل وكوندز فبينما هم يعبرون

الفرات

الفرات اذغرق سليمان شاه المذكور فافترق بنوه واختلفت كلمتهم فذهب اثنان منهم وهم سنقور زنكى وكدنطغدى ببعض القوم الى الجهة الجنوبية من الفرات وسار ارطغريل بك وكوندز مع من بقى الى تخت السلطان علاء الدين السلجوقى صاحب قونية ونزلوا فى جواره فأحلهم محلا رحبا وأقطعهم قرجيطاغ فما زالوا بها حتى مات ارطغريل حوالى سنة سبع وثمانين وستمائة هجرية أى سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف ميلادية اه وقال العلامة ابن خلدون بعد كلام طويل والظاهر أن ملوك بنى عثمان كانت الى هذا العصر من أعقاب على بك وعلى بك صهر محمد بك أحد أمراء التركمان من بنى جق أو أقاربه يعنى أعقاب أقاربه قال ويشهد بذلك اتصال هذه الامارة فيهم يعنى الامارة على التركمان مدة هذه المائة سنة قال فلما اضمحل التتر من بلاد الروم واستقر بنو ارتنا بسيواس وأعمالها غلب هؤلاء التركمان على ماوراء الدروب الى خليج القسطنطينية ونزل ملكهم مدينة برصا من تلك الناحية وكان يسمى ارخان بن عثمان جق فاتخذها دارا لملكهم ولم يفارق الخيام الى القصور وانما ينزل فى خيامه فى بسيطها وضواحيها الى أن قال اه

قلت ومع اجتماع كلمة بعضهم على أن الترك انما هم من ولد يافث بن نوح عليه السلام واختلاف السواد الاعظم منهم فيمن هو جد آل عثمان الاول فقد عادوا بعد تأويل وتعليل الى القول بأن سليمان شاه هو رأس هذه العائلة العظيمة التى دوخت بحروبها وغاراتها المتتابعة ثلاثة أرباع المعمور من الارض وقلبت تخت الممالك العظيمة وأبادت الكثير من الامم والشعوب الذين قاموا فى وجهها فاستولت على ممالك الدولة العباسية وعلى بعض مملكة الدولة الغزنوية لآل سبكتكين والدولة السلجوقية فى الروم وفى كرمان والشام ودولة المماليك فى مصر والشام ودولة الاتابكية فى الموصل ثم الفرنجة فى بعض مدن الشام وقارة أوروبا وجزائر العرب وجزء عظيم من قارة افريقية وجزائر بحر الروم وغيرها مما هو باق بعضه فى حوزتها الى يومنا هذا وانه بموت سليمان شاه المذكور ظهرت كلمة ابنه ارطغريل واتسعت شهرته ودوّخ أكثر البلدان المجاورة لولايته الصغيرة التى أقطعه اياها علاء الدين ومازال على دأبه من الغزو والجهاد وتوسيع أرجاء مملكته كل أيام حياته حتى مات فى سنة ثمانين وستمائة هجرية أى سنة احدى وثمانين ومائتين وألف ميلادية فكانت مدة تصرفه فى هذه الامارة زهاء اثنتين وخمسين سنة بالتبعية لسلاطين قونية السلجوقيين

وبموته قام بعده ولده الامير عثمان وكان يقال له عثمان جق كما رواه ابن خلدون فحذا حذو أبيه فى الغزو والجهاد ولبث يقاتل الروم ويهاجم بلادهم حتى استخلص من أيديهم بلادا كثيرة ووقعت هيبته فى قلوبهم وخافوه فأرسل اليه سلطان السلجوقيين منشورا ولواء أبيض وطبولا إعلانا بامارته وولايته على تلك الاصقاع ولقبه بالغازى فعلت من ذلك الحين كلمته وكبرت مهابته وأحسن السياسة والتدبير ومازال مثابرا على الغزو والجهاد وفتح

البلدان وتدويخ المدن حتى أحس بزوال الدولة السلجوقية ورأى من اختلال أحوالها وزوال هيبة القيصرية الرومية وضعضعة أمورها بسبب الخلاف الواقع فى أمر الدين بن جماعة المسيحيين مادفعه الى طلب الملك ومال به الى جانب الظهور والاستبداد بملك السلجوقيين فجعل حينئذ يمهد الاسباب ويأتى على كل أمر منها من أقرب الابواب حتى قدر الله بانقراض الدولة السلجوقية فى سنة تسع وتسعين وستمائة هجرية أى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف ميلادية واندرست معالمها من الاناطولى ولم يبق أحد من سلاطينها واستقل كل من كان تحت حكمها من الامراء وتقاسموا البلاد فاختص الامير عثمان المذكور بجزء من مملكة بروسة وخطب له فى بعض أعمالها ولما استقرت به الامارة أحسن السياسة ورتب أمور البلاد على مافيه المصلحة ثم تجرد للغزو وفتح المدن والامصار وكان شهما جليل القدر عارفا بفنون الحروب والقتال ففتح الفتوحات العظيمة بنفسه وعلى يدى ولده أورخان بك وأخذ كثيرا من مدن القياصرة فكبرت مملكته واتسعت أرجاؤها وظهرت وعرفت من ذلك الحين بالدولة العثمانية ثم نقل تخت مملكته هذه الى مدينة ينى شهر وأقام بها على أحسن مايكون من الصولة والبأس حتى مات فى سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألف ميلادية وكان كريما عالى الهمة أبىّ النفس جوادا قيل ولذلك لم يترك بعد موته شيأ لامن الاموال ولامن النفائس التى جمعها فى غزواته وفتوحاته الكثيرة ولم يوجد عنده الابعض الملبوس ومسبحة كانت أعز شئ لديه وكانت مدة ملكه خمسا وعشرين سنة وقيل بل سبعا وعشرين

وقام بالامر بعده ولده أورخان الغازى تولى السلطنة فى السنة التى مات فيها أبوه سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف ميلادية فأحسن التدبير ونظم الامور وعدل فى الرعية فاجتمعت القلوب على محبته وولى أخاه علاء الدين الوزارة فقام بها خير قيام وأخذ فى تنظيم الامور وسن القوانين واعلاء شأن المملكة وكان الغازى أورخان المذكور محبا للغزو والفتح كأبيه ميالا لتوسيع نطاق المملكة ففتح مدينة بروسة وبالغ فى تحسينها بالمبانى الفاخرة والآثار العجيبة ثم نقل كرسى مملكته اليها ولم تقعده كثرة حروبه عن تنظيم عسكره وترتيبهم على أسلوب جديد بعد أن كانوا فى أيام أبيه أخلاطا من فرسان التركمان وغيرهم فانشأ وجاق الانكشارية ورتبه وأحسن ترتيبه فكان له عونا على كثرة الفتوح والمغازى وهابه الملوك وبلغت شهرته مبلغا عظيما ولكن عاد أولئك الانكشارية بعد قليل فصاروا أعداء لمن تولى السلطنة فكان السلطان لايأتى أمرا الاباشارتهم ولا يعمل عملا الابرضا كبارهم فتبدل خيرهم شرا ونفعهم ضرا وكثرتهم وبالا ومازالوا على هذا الحال من التصرف فى معظم الامور واختصاصهم بالرياسة والسياسة حتى أذلهم السلطان محمد الثانى ومزق شملهم وفرق كلمتهم وشردهم تشريدا * ولما دانت للسلطان أورخان الامور عمد الى غزو بلاد اليونان فجهز عليها جيشا عظيما للغاية وقاتلها

ففتح

ففتح مدنها وبلدانها وأحسن معاملة أهلها فمالت الى محبته القلوب واجتمعت على طاعته الخواطر وسار فى غزواته يرافقه الاقبال حتى بلغ خليج القسطنطينية وبوغاز كاليبولى وكانت الامبراطورية الرومية فى هذا الحين آخذة فى الانحطاط الى حضيض الدمار لاسيما بعد أن ضعضعتها الحروب الداخلية التى سببتها فتنة يوحنا كاتا كوزين نائب الامبراطور يوحنا باليولوغوس ووصيه * وتحرير الخبر بالايجاز أنه لما كثر عبث كاتا كوزين المذكور بأمور الدولة وأساء التصرف أبغضه الناس بغضا شديدا وهمّ الروم بخلعه فلما آنس منهم ذلك راسل آل عثمان واستمدّهم فأمدّوه وقويت عزيمة الترك على التوغل فى وسط أوروبا فغزوا وفتحوا عدة مدن منها وكثيرا من القلاع والحصون واستولوا عليها وتصرفوا فيها وسار الامير سليمان أكبر أولاد السلطان أورخان فاجتاز بوغاز شنق قلعه فى سنة ستين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وألف ميلادية وفتح مدينة غاليبولى التى هى مفتاح القسطنطينية ثم اخترمته المنية فحزن عليه أبوه حزنا عظيما وأفرط فى البكاء والنحيب فمات غما فى السنة التى مات فيها ولده أى سنة اثنتين وستين وسبعمائة هجرية

فقام بالامر بعده ولده السلطان مراد الاول وكان شجاعا مهيبا مغازيا فلما استقرت به السلطنة عمد الى فتح أدرنه ففتحها وسار الى الصرب والبلغار فأخضعهما وكانت بلاد الاناطولى لم تزل مستقلة فى حكمها تابعة لبعض الامراء من الترك يتصرفون فى حكمها كما يشاؤن فحاربهم وأخضعهم وأدخلهم تحت طاعته وزوّج ابنه الامير بايزيد بابنة أمير كرميان تزلفا الى ولاة آسية الصغرى وتقربا منهم ليتسنى له بذلك ضم بلادهم الى أملاكه ففاز بذلك وضم الى بلاده مقاطعة كرميان وغيرها من مدن آسية الصغرى واستولى على مدينة كوتاهيا وكان أمير كرميان وهبها لابنته يوم زفافها ثم سار بعسكره بعد ذلك للحمل على مقاطعتى مقدونية وبلاد الارنؤد فأخضع كثيرا من مدنهما واستفحل أمره واتسعت كلمته وتهيب منه جميع الامراء المجاورين له فنهض أهل الصرب والقلاخ وأهل دلماطيا والمجر والبلغار وتحالفوا على قتاله وايقافه عند حده وخرجوا فى جيش جرار فركب عليهم وقاتلهم جميعا وهزمهم وشتت شملهم وأبلى فيهم بلاء حسنا وبينما هو يغدو ويروح فى ساحة القتال ويكر بجواده اذ وثب عليه جندى من البلغار كان بين جثث القتلى وطعنه بخنجر فى أحشائه فمات لحينه فتقهقرت عساكره وانكفوا عن القتال * قال بعض أصحاب التاريخ وهذا القرن هو الدور الاول للدولة العثمانية فانها فى مدة المائة سنة هذه قد عظم أمرها وتمكنت وثبتت أركانها وظهرت فى مظهر الدول الكبار بعد أن كانت امارة صغيرة ولم يتم لها هذا الا بمحافظة سلاطينها على وصية الغازى عثمان قالوا وذلك أنه لما حضرته الوفاة دعا اليه ولده أورخان وأوصاه بوصايا ثلاث فقال له يا بنى تمسك فى كل أمورك بالشريعة الغراء وشاور فى المهمات أهل الرأى والدهاء * وأعط كل ذى حق حقه من التكريم والانعام لاسيما العلماء الاعلام الذين هم دعائم الدين مصداقا لقول صاحب الشريعة خير الناس من ينفع الناس * وتنبه لما هو أعظم من ذلك

وهو التعظيم لاوامر الله والرأفة بعباد الله واطلب خير النتائج من اعلاء كلمة الله والغزو لوجه الله فانك خليفتي من بعدي اه قالوا فكانت هذه الوصية سنة مرعية بين سلاطين آل عثمان يتلقاها الخلف عن السلف والملك لله يؤتيه من يشاء

ولما مات السلطان مراد الاول قام بالامر بعده ولده السلطان بايزيد الاول في السنة التي مات فيها والده وكان بطلا مقداما عارفا بفنون الحرب والقتال وضروب السياسة ميالا الى الغزو والجهاد فلما استقرت به السلطنة عمد الى اخضاع ما بقي من الممالك الصغيرة التي كانت الى هذا الحين مستقلة في الاناطولي فدوّخها وأخضعها لسلطانه ثم سار في عسكر جرار الى ايالات مقدونية والبلغار والروم ايلي ففتحها وأدخلها تحت طاعته فكبر أمره وعظمت هيبته ودانت له الامور فلما أنس من الايام النصر تهيأ لفتح القسطنطينية واخضاع ممالك الفرنجة فزحف بجيش كبير الى نواحي أوروبا واستولى على مدينة سالونيك وشن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيوش الفرنجة في موقعة هائلة ثم سار الى القسطنطينية فحاصرها وكان امبراطورها يومئذ مانوئيل فخاف وهاله كثرة عساكر السلطان بايزيد فأرسل الى من جاوره من الملوك يطلب منهم المدد على قتال الترك فخاف السلطان بايزيد من اتحادهم وخشي عاقبة أمرهم فعقد مع الروم صلحا لعشر سنين وأن يعطوا له في كل سنة ثلاثين ألف ريال وأن يجعل في القسطنطينية قاضيا من المسلمين ويبني فيها مسجدا ثم رحل عن القسطنطينية ولبث قليلا حتى تبين من الفرص أنفعها فعاد الى حصارها وشدد في الحصار ولم يراع ميثاقا ولا عهدا وبينما هو يراسل الرمي على أسوارها وحصونها اذ جاءته الاخبار بركوب تيمورلنك بعسكره الى بلاده وفتح الكثير منها وضمها الى سلطنة التتار فاضطرب السلطان بايزيد من ذلك واستعظمه جدا ورحل عن القسطنطينية ليدفع تيمورلنك عن بلاده فالتقى الفريقان عند مدينة أنقره واقتتلا قتالا عنيفا يوما كاملا وقد مات في ذلك اليوم خلق كثير جدا حتى خاضت الخيول في الدماء ثم انكشفت المعمعة عن نصرة تيمورلنك وهزيمة السلطان بايزيد وسقوطه في قبضة تيمورلنك فسجنه في قفص من الحديد وما زال في سجنه هذا الى أن مات سنة خمس وثمانمائة هجرية أي نحو سنة احدى وأربعمائة وألف ميلادية * قال بعض كتاب الاخبار وكان قد تغلب السلطان بايزيد في آخر أيامه هوى النفس فتهافت على ما لا يليق من الاسراف والتبذير والاسترسال في اللهو والخلاعة وغير ذلك من دواعي التأخر فاغتنم تيمورلنك هذه الفرصة وسار على مملكة بايزيد في سبعمائة ألف مقاتل فقابله السلطان بايزيد وقاتله فوقع في يده أسيرا وفرح ملوك أوروبا بسقوط السلطان بايزيد في قبضة تيمورلنك فرحا عظيما وأرسلوا الى تيمورلنك رسائل التهاني فكان ممن أرسل ذلك شارلس الثالث ملك الفرنسيس فرد عليه تيمورلنك ردا حسنا جدا وأوصاه خيرا بمن يقدم الى بلاد الفرنسيس من تجار الفرس كما أنه ضمن لتجار الفرنسيس الذين يقدمون على بلاد فارس كمال الراحة والرفاهية

(مطلب

(مطلب)

(ماجرى بعد موت السلطان بايزيد من الاختلال)

ولما مات السلطان بايزيد كاد يختل نظام الملك اذ قامت الفتنة بين أولاده واستبد كل واحد منهم بقسم من مملكة أبيه فتجزأت المملكة الى عدة امارات صغيرة وجرى عليها ماجرى لدولة آل سلجوق وخرجت عن الطاعة فى خلال هذه الفتنة ولايات البلغار والصرب والفلاخ واستمر النزاع بين أولاد السلطان بايزيد زهاء احدى عشرة سنة وكان أحد أولاد بايزيد المدعو عيسى قد استبد بحكم البلاد الواقعة على مقربة من أنقرة وسينوب والبحر الاسود فوثب عليه أخوه محمد وقتله بعد حروب يطول شرحها واستولى على جميع تلك الاصقاع وسار بلا منازع من اخوته الى آسية الصغرى واستخلص أخاه موسى وكان فى أسر تيمورلنك وسيره فى جيش عظيم الى قارة أوروبا لقتال أخيه سليمان فلم يقو عليه بل انهزم أمامه وعاد الى آسية مدحورا ثم أصلح حال جيوشه وعاد بهم مرة ثانية لقتال أخيه سليمان المذكور فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا شديدا فقتل سليمان خارج أسوار مدينة أدرنة وتم الظفر للسلطان محمد * وكان آل عثمان لما اشتد الخصام بين أولاد السلطان بايزيد وعمت الفتنة واستفحل أمرها اختاروا الامير سليمان هذا سلطانا عليهم فى مملكة أبيه التى بقارة أوروبا فبايعوه بالسلطنة وولوه أمورهم ولكنه كان ضعيف الرأى سيئ التصرف منهمكا فى الملاذ مولعا بالملاهى والفجور خمل الفكر فلم تطل سلطنته حيث مات فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة هجرية أى نحو سنة عشر وأربعمائة وألف ميلادية * ولما تم الظفر لموسى المذكور سار بمن معه من العساكر وركب على بلاد الصرب وعاقب أهلها على خروجهم وتمردهم وقاتل سمسون ملك المجر حيث أنجد أهل الصرب عليه وكاد يظفر به فظهر من هذا الحين نبله وعلت كلمته واتسعت شهرته فداخله الطمع وطمحت نفسه الى الاستقلال بالملك والخروج عن طاعة أخيه السلطان محمد وأخذ جميع بلاد أبيه التى بقارة أوروبا وسار بعسكره لحصار القسطنطينية فحاصرها وضيق عليها ليفتحها ويجعلها تحت ملكه فأحس السلطان محمد بما وراء ذلك وخشى العاقبة وأتت اليه رسل قيصر الروم تشكو من فعال أخيه موسى وتستنجده فسار الى القسطنطينية فى جيش عظيم جدا وقاتل أخاه فكانت الحرب بينهما سجالا ثم تقوى السلطان محمد بعسكره فزحزح الامير موسى عن القسطنطينية وتحالف السلطان محمد مع قيصر الروم وأمير الصرب على اذلال الامير موسى وتمزيق شمل من معه من الجنود فأعملوا الفتنة وبثوا الدسائس بين عسكر الامير موسى حتى نفرت منه قلوب الجند وخانه كبار القواد ثم ركب عليه السلطان محمد بعسكره وانتصر عليه نصرة عظيمة وفر موسى هاربا فتبعه فارس من فرسان أخيه محمد وقتله واحتز رأسه وأتى به الى أخيه وذلك سنة ست عشرة وثمانمائة

هجرية أى نحو سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية وفى رواية أنه قتل بين يدى أخيه صبرا

(فصل)

(فى استقلال السلطان محمد الغازى بالملك)

ولما مات الامير موسى انفرد محمد بالسلطنة على مابقى من ملك آل عثمان و بايعه الناس كافة فكان هو الخامس من ملوك آل عثمان على المتفق عليه عند أصحاب التاريخ وقد عرف عندهم بالسلطان محمد چلبى الغازى وكان ملكا جليل القدر واسع المعرفة حليما فصفت له الايام ودانت له الامور وجاءت اليه رسل ملوك الفرنجة برسائل التهانى والتبريك فأكرمهم وأحسن وفادتهم وأخذ يمهد الامور ويدبر أحوال المملكة فعقد الصلح مع الاجانب وقوى معهم روابط المودّة والاتحاد وحافظ على محالفة مانوئيل قيصر الروم الذى لولاه لخيف على ملك آل عثمان من الدمار وردّ اليه جميع ماأخذه أسلافه من القلاع والحصون الرومية فمالت اليه الخواطر واجتمعت على محبته القلوب وعلت كلمته وكان عادلا ذا شفقة على الرعية موفقا فى غزواته ونقل كرسى مملكته الى مدينة أدرنة وأنشأ السفن البحرية وجعل لها جنودا يقاتلون على ظهور تلك السفن وأعاد رونق السلطنة الى ما كان عليه بعد أن كاد يتولاها الدمار بأسباب غارات تيمورلنك * وظهر فى أيامه رجل اسمه بدر الدين من كبار علماء زمانه وكان متوليا القضاء فى عسكر الأمير موسى أخى السلطان محمد فلما انهزم عسكر الامير موسى وتفرق شملهم حكم على بدر الدين القاضى المذكور بملازمة مدينة ازنيك فلبث بها حينا ثم هرب منها واختفى خبره أياما ثم ظهر يدعو الى مذهبه وهو المساواة بين الناس على اختلاف طبقاتهم فى الاموال والمتاع وعدم التفريق فى ذلك بين الغنى والفقير والمسلم والمسيحى فتبعه خلق عظيم من المسلمين والمسيحيين وكان يقول ان الناس جميعا اخوة لاب واحد وأم واحدة فذاع خبره وكثرت أحزابه ولبى دعوته القاصى والدانى وخيف على بهجة الدولة العثمانية من الزوال بسبب دعوته فسير اليه السلطان محمد جيشا عظيما ومقدمه ابن أمير البلغار الذى كان أسلم وتولى العمالة على مدينة سمسون فخرج عليه أحد زعماء مذهب بدر الدين المذكور فى جيش كبير وقاتله وهزم عسكره شر هزيمة وقبض على ابن أمير البلغار وقتله فلما جاء الخبر بذلك الى السلطان محمد اضطرب واستعظم هذا الامر جدا وجمع جيشا عظيما وجعل رئيسه الوزير الاول بايزيد فسار بايزيد لقتال ذلك الزعيم فلاقاه على مقربة من ازمير وكان بدر الدين قد سار الى بلاد مقدونية فاقتتلت عساكر الوزير مع عساكر بدر الدين واشتد القتال بين الفريقين وانكشف عن هزيمة عسكر بدر الدين وسقوط مقدمهم المدعو مصطفى فى قبضة الوزير فأمر

بقتله

بقتله فقتلوه بين يديه وقتلوا عددا كثيرا ممن كانوا معه وسيروا من يقبض على بدر الدين فى بلاد مقدونية فتحرز بدر الدين وكانت بينهم وبينه وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها ثم قبض عليه وقتل شنقا فى سنة عشرين وثمانمائة هجرية أى سنة سبع عشرة وأربعمائة وألف ميلادية بعد استصدار فتوى فى شأن ذلك قال عمر فى تاريخه ونص الفتوى من أتاكم وأمركم جميعا على رجل يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه * فسكنت بقتله الفتنة وزالت أسبابها واطمأنت قلوب الناس وبقى السلطان محمد عزيزا مهيبا محبوبا مطاعا الى أن أدركته الوفاة سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى سنة احدى وعشرين وأربعمائة وألف ميلادية * قال بعض كتاب الاخبار والسلطان محمد هذا أول من أرسل الهدية الى أمير مكة قدرا من الذهب فى كل عام للنفقة على فقراء مكة والمدينة وهى التى يطلق عليها اسم الصرة الآن ولكنها لم تكن تبلغ ما بلغته الآن وقال آخرون ان السلطان سليم الاول هو أول من أرسل الصرة المذكورة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بعد فتح الديار المصرية وازالة دولة الجراكسة الثانية والقول الاول هو الذى عليه المعول

وبموت السلطان محمد چلبى قام بالامر بعده ﴿ولده السلطان مراد الثانى﴾ بويع له بالملك سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة احدى وعشرين وأربعمائة وألف ميلادية وعمره يومئذ ثمان عشرة سنة فلما استقرت به السلطنة قام بتدبيرها أحسن قيام ووسع نطاقها وأبرم صلحا مع أمير القرمان وقرر اتفاقا مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات وتفرغ لتدويخ من عصى وخرج عن الطاعة من ولايات آسية فلم يتم له ذلك حتى جاءته رسل مانوئيل قيصر الروم فى طلب العهد منه على أن لايحارب القيصرية الرومية بوجه ما وأن يسير الى القسطنطينية اثنين من أولاد السلطان محمد الغازى رهينة على وفاء العهد فان أبى ذلك أطلق القيصر سراح الامير مصطفى بن السلطان بايزيد وكان الامير مصطفى المذكور قد اختفى خبره ولم يوقف له على أثر بعد واقعة أنقرة التى أسر فيها أبوه السلطان بايزيد الاول ثم ظهر فى أيام السلطان محمد الغازى عقب واقعة بدر الدين الخارجى وطالب أخاه السلطان محمد بالملك وأعانه على ذلك أمير القلاخ تعظيما للفتنة واضراما لنارها فأغار الامير مصطفى المذكور على اقليم تساليا من أملاك اليونان فطاردته جنود أخيه السلطان محمد ففر الى سلانيك وكانت قد عادت الى مملكة الروم مع غيرها من بعض الايالات التى أرجعها السلطان محمد الى قيصر الروم ونزل على عاملها مستجيرا فأجاره وطلبه السلطان محمد فلم يجبه قيصر الى ذلك ووعد أنه يبقيه عنده ولا يفك سراحه ما دام السلطان على قيد الحياة فقبل السلطان منه ذلك ورتب لاخيه شيأ فى كل سنة فلبث فى جوار قيصر حتى سير قيصر رسله الى السلطان مراد فى طلب ذلك العهد فامتنع السلطان مراد من اجابة قيصر الى ماطلب فسير قيصر الامير مصطفى المذكور ومعه عشر مراكب حربية فأتى بها وحاصر مدينة جاليبولى وضيق عليها فاستسلمت وامتنعت عليه قلعتها فأحاطها بطائفة من العسكر ليمنع عنها المدد وسار بمن بقى معه يريد أدرنه فسير

اليه السلطان مراد جيشا عظيما ومقدمه وزيره بايزيد فلما التقى الجمعان برز الامير مصطفى أمام صفوف ابن أخيه السلطان مراد ونادى على العسكر وخطب فيهم وقال انه هو أولى بالملك وأحق بالسلطنة من ابن أخيه واستنهض العسكر الى نصرته فلبت الجيوش دعوته وقاموا لنصرته وقبض جماعة منهم على بايزيد وزير السلطان وقتله ثم سار الامير مصطفى للقاء السلطان وكان السلطان متحصنا مع عسكره عند نهر صغير فلم يقترب الامير مصطفى من ذلك المكان حتى وقعت الفتنة بين عسكره وخانه بعض قواده وتركه أغلب العسكر فكر راجعا الى جاليبولى ولم يدخلها حتى قبض عليه بعض أتباع السلطان وأتوا به اليه فأمر به فقتلوه شنقا * ولما سكنت الفتنة بموت الامير مصطفى عمد السلطان مراد الى الانتقام من قيصر الروم فسار الى حصار القسطنطينية بجيش جرار وحاصرها وضيق عليها أياما ثم عاد عنها مدحورا لقيام الفتنة وخروج بعض الايالات عن طاعته وما زال يراقب الفرص حتى مات مانوئيل قيصر وخلفه على سرير الملك يوحنا باليولوغوس فراسل يوحنا المذكور فى دفع مبلغ من المال فى كل عام جزية وأن يسلم اليه جميع البلاد التابعة للقسطنطينية ويستثنى من ذلك القسطنطينية وضواحيها أوأنه يتأهب لقتاله فقبل يوحنا هذه الشروط وسلم الى السلطان مراد جميع القلاع والحصون التى كانت الى هذا الحين فى حيازة الروم على سواحل البحر الاسود وسواحل الروم ايلى ومملكتى مقدونية وتساليا ثم ركب بعد ذلك بعسكره واستخلص أيضا جميع المدن والبلدان التى هى داخل برزخ كورنثوس ومازال يتقدم فى غزواته حتى توغل فى بلاد المورة وضم أكثرها الى أملاكه * ولما شاع بين ملوك أورو باخبر فتوحات آل عثمان ومثابرة ملوكهم على الغزو والجهاد خافوا من سقوط القسطنطينية فى قبضة الترك ومن زحفهم على بقية الممالك المسيحية فنهض عند ذلك أوجينيوس البابا وشرع فى عقد محالفة بين ممالك الفرنجة على مقاومة الترك ومنعهم وقام لادسلاس ملك بولونيا والمجر وأخذ على نفسه مقاومة الترك وجيش لذلك جيشا عظيما ومقدمه يوحنا هودياس القائد الشهير وانضم الى هذا الجيش جمهور من الحربيين والمتطوعة من الفرنسيس والجرمانيين وساروا للقاء الترك فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا عنيفا ظفر فيه يوحنا فى معركتين عظيمتين واستظهر على الترك فخشى السلطان مراد شر العاقبة وعمد الى المصالحة فتقررت القاعدة على أن ينسحب السلطان مراد بمن بقى من جيوشه فانسحب راجعا الى كرسى مملكته فلما سكنت الفتن وزالت أسباب القلاقل خلع السلطان نفسه عن الملك وتنازل عنه لولده محمد فبايعه الناس وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق ولقبوه بالفاتح واعتكف السلطان مراد عن الناس واعتزلهم والتزم العبادة والتهجد فلما علم لادسلاس صاحب بلونيا والمجر بخبره خالف العهد ونبذ الهدنة ظهريا وتقدم بعساكره لقتال الترك وحبب الى ملك القرمان شن الغارة عليهم أيضا ليقعوا بين نارين فتقدم عند ذلك كبار الدولة الى السلطان مراد فى رجوعه الى منصب السلطنة لرد العدو عن البلاد فعاد الى المنصب وجيش جيشا عظيما وساربه لقتال

الاعداء فالتقى الفريقان عنـد مدينة وارنه واقتتلا قتالا عنيفا وثبتت جيوش المسيحيين أمام عسكر الترك واشتد القتال شدة بالغة وجرى الدم بين الصفوف مجرى الماء * قال بعض كتاب الاخبار وكانت العساكر المسيحية قليلة فى هـذه الواقعة لانفصال المحاربين من الفرنسيس والالمان عنهم بعـد نصرتهـم الاولى وكان لادسـلاس فى حومة القتال ينادى على العساكر ويحرضهم ويستنهض هممهـم ويكر بين المواكب وصفوف الترك كأنه الأسـد الضارى حتى أصابه سهم فسقط ميتا وذاع خبر موته بين جنوده ففترت هممهم وتفرق شملهم فهمّ مقدمهم هوديباس بجمع شتاتهم والرجوع بهم الى ساحة القتال فلم يفلح وقد أعمل فيهم الترك القتل بحد السيف فكانت قتلاهم زهاء عشرة آلاف فى هـذه الواقعة الهائلة على مارواه بعض أصحاب التاريخ وعاد السـلطان مراد بعد هذه الواقعة وراية النصر تخفق على رأسـه وتنازل عن السلطنة ثانيـة لولده وعكف على العبادة فلم ترض بذلك جماعـة الانكشارية وأبوا الاعوده الى المنصب فعاد اليه كـرها ثم لم يلبث أن جيش جيشا عظيما وساربه الى بلاد الارنؤد ليضمها الى مملكتـه وكان ممن تولى الحكم على شئ من تلك البـلاد باتوريث أميراسمـه يوحنا كاتريو فلما علم بقدوم السلطان مراد بجيوشه وتحقق أنلا قبـل له على رده راسله فى أمر الصلح وعاهده على دفع الجزية فأجابه السلطان الى ذلك وعاهـده وأبقاه على مابيده من البلاد وأخذ أولاده الاربعـة رهينة عنده فاختلط ثلاثة منهـم بمماليك السلطان حتى صاروا لايمتازون عنهم فى شئ والتزم رابعهم وهو أصغرهـم واسمه جورج بخدمة باب السلطان وما زال حتى تقدم وارتقى المناصب العالية لشجاعته وبأسه وذكائه ثم أسلم بعد ذلك وتجرد للغزو والجهاد وعرف باسم اسكندر بك فكانت له مواقع هائلة وحروب عظيمة فى خـدمة الترك قال بعض كتاب الاخبار ثم عاد بعد ذلك فندم على مافرط منه من قتال المسيحيين وارتد الى دينه وتعصب وصار من أكبر أعـداء المسلمين وأشـد المبغضين لآل عثمان فحرض الاهالى على الخروج وشق عصا الطاعة فكان من وراء ذلك من الحوادث والخطوب مالا محـل لذكره هنا وركب أيضا السلطان مراد على قسطنطين صاحب المورة وباقى الاقاليم المتاخمة لتلك البلاد فدوخهـم وأخضعهم لملكه ورتب عليهم الجزية وجرت بسبب ذلك حروب هائلة كثيرة بينه وبين الارنؤد والمجر وما زال يغزو ويفتح البلاد حتى أصابته سكتة فمات فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة احدى وخمسين وأربعمائة وألف ودفن بمدينة بورسه

فقام بالامر بعده ولده ((السلطان محمد الثانى)) بايعه أهل الدولة فى اليوم الذى مات فيه أبوه فكان سابع سلاطين آل عثمان قال أصحاب التاريخ وهو من أعظمهم همة وأعلاهم قدرا وكان بطلا مقـداما شجاعا قوى الجنان موصوفا بالمغازى والحروب وكان أبوه السلطان مراد قد أوصاه قبل موته أنلا يغمد له سيفا ولا يبطل له جهادا حتى يفتح مدينة القسطنطينية فجيش جيشا عظيما وأخذ يتأهب لحصارها وكان نظام القيصرية الرومية فى هـذا الحين على

شفا جرف هار بسبب المنافسات الدينيـة ولذلك أصبحت القيصرية فى غاية الضعف فزالت هيبتها وانحطت عظمتها فلم يبق للقيصر من السلطنة الا مجرد الرسوم والعادات البسيطة *
قال بعض كتاب الاخبار وبلغ من خلل أحوال الامبراطورية الرومية وانحطاط قدرها أنه لما وردت الاخبار الى القسطنطينية بان السلطان محمد الثانى ابتنى قلعـة بوغاز كسـن وكان قد ابتناها لغرض سـد خليج القسطنطينية على سفن الامبراطورية والتضييق عليها خاف الروم واضـطربت أحوالهم وعقدوا للمذاكرة فى ذلك مجلسا كبيرا فى كنيسة أياصوفيه فلما اجتمعوا أخـذوا يتزاحمون ويتقدم بعضهم على بعض فى الجلوس ولم يراعوا درجات بعضهم فأدى بهم ذلك الى السباب والملاكمة وانفرط عقد اجتماعهم ولم يعملوا عملا يذكر اه

وكان الامبراطور على القسطنطينية يومئذ قسطنطين دراغايس بن ايمانوئيل فأرسل الى السلطان محمد رسلا يستعطفونه ويستميلونه الى تقرير قاعدة للصلح فطردهم السلطان ولم يسمع كلامهم وأخذ فى التأهب والاستعداد ورسم ببناء الحصون والقلاع على شاطئ بوغاز القسطنطينية فزاد خوف قسطنطين وهاله الامر جدا وأرسـل الى السلطان سـفراء آخرين يقول على أيديهـم ان ماوراء بناء هـذه القـلاع الا القتال واضرام نارالحـرب فان لم تراع ما كان بين بلادى وبلادك من العهود والمواثيق وتقرر بيننا قاعـدة للصلح فذلك اليك وقـد فوضت أمرى الى الله فان هـداك سبحانه وعطف قلبك كان ذلك غاية المراد وان كان قـد قضى لك بفتح القسطنطينية فلا مفر مما قـدره وقضاه والا فلا أسـلم فيها وفىّ لسان ينطق فلما وصلت رسـله وقالوا للسلطان مقالتـه لم يلتفت لقولهم وشـدد فى بناء الحصون والقلاع وبالغ فى التأهب والاستعداد فكتب قسطنطين الى دول الفرنجة يطلب منهم المعونة والاسعاف ويستحثهم على نصرته وأقسم أنه ينجز لهم ما وعدهم به أسلافه من ضم الكنيسة الشرقية الى الكنيسة الغربية فسر البابا بذلك سرورا عظيما وسير اليـه نجدة عظيمة من طوائف الفرنجـة فاغضبت فعال قسطنطين جماعة الروم لكراهتهم ضم كنيستهم الشرقيـة الى الكنيسـة الرومانية لما بين الفريقـين من العـداوة القـديمة والشحناء المستمرة ونقموا على امبراطورهم وتفرقوا عنه وخذلوه وفضلوا سقوط المدينة فى أيدى المسلمين على خلاصها وضم الكنيستين الى بعضهما وقال الدوق نوتاراس كبير وزراء القسطنطينية يومئذ جهارا أحب الىّ أن أرى فى هذه المدينة بريد القسطنطينية تاج السلطان محمد من أن أرى فيها اكليل البابا ثم تخـلى أكثرهم عن حماية أسوار المدينة وتفرقوا عنها فلم يبق منهم الا نحو عشرة آلاف بين روم وفرنجة وبينماهم على هذا الحال من فتور الهمة واختلاف الكلمة وتفرق الرعية عن راعيها اذ أقبل السلطان محمد فى مائتين وستين ألفا من المقاتلين وذلك فى سـنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية أى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية ومعه عمارة حربية مؤلفة من ثلاثمائة سفينة كبيرة فنزل بجيوشه على أسوار المدينة وحاصرها من جميع الجهات وأرسـل

الى

الى قيصر يطلب اليه أن يسلم البلد تحت شروط كلها شدة واهانة فأبى قسطنطين وصمم على القتال جهد الاستطاعة فغضب السلطان محمد لذلك وأمر فشددوا فى الحصار وجاءت الاخبار الى قسطنطين بعزم السلطان محمد على الهجوم على الاسوار وأخذ المدينة عنوة فى يوم كذا فهاله الامر جدا وجمع اليه خواصه وكبار قومه ومن كان عليهم معتمده من الروم وشكى اليهم حاله و بالغ فى الشكوى وبكى وانتحب وعظم البلوى فبكوا جميعا لبكائه وأقسموا على الذب والدفاع واقتحام نار الوغى حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ثم قاموا وتعانقوا وقبل بعضهم بعضا قبلة الوداع وطلعوا على الاسوار وتحصنوا فيها وكذلك فعل قسطنطين وكان ممن لبى دعوة قسطنطين وقام لنصرته على المسلمين أهالى جنوه فسيروا لنجدته عمارة بحرية ومقدمها الامير جوستنيانى فأتى بها يريد الدخول الى مياه القسطنطينية فعارضته السفن التركية فاقتتلوا قتالا عنيفا وانتصر جوستنيانى نصرة عظيمة فدخل المينا غانما فاستعظم السلطان هذا الامر جدا وصمم على ادخال مراكبه الى المينا أيضا ومحاصرة المدينة برا وبحرا قال بعض الكتاب وفكر كثيرا فى هذا الامر فخطر على باله أن ينقل المراكب على البر حتى تجتاز السلاسل الحديد الموضوعة على مضيق البوغاز فمهد لذلك طريقا على البرطوله فرسخان وقيل أكثر وغطاه بالخشب وصب عليه الزيت والدهن ونقل عليه فى ليلة واحدة أكثر من سبعين سفينة * قلت ولعل فى ذلك مبالغة * ولما حل الاجل المعهود هجم عساكر المسلمين على الاسوار هجمة الاسود وكانوا زهاء مائة وخمسين ألفا من الابطال المشهود لهم فلقيهم الروم بقلوب مطمئنة واشتبك القتال وحمى الوطيس فخرت الابطال من فوق الاسوار وكان قسطنطين قائما مابين النارين ينادى على الروم بالتجلد والثبات واعمال السيف فى أعناق الاعداء وهو يقاتل قتال الابطال والمسلمون يندفعون على الاسوار من كل فج عميق فلما أيس قسطنطين من الظفر وأيقن بالغلبة وسقوط المدينة فى أيدى المسلمين نزع عنه أسلحته المذهبة وألقى بنفسه بين صفوف المسلمين فقطعوه بحد السيف ولم يعلموا من هو فلما شاع بين من بقى على الاسوار من الروم خبر موت قسطنطين انفشلوا فظفر بهم المسلمون وتغلبوا على الاسوار وأخذوها ثم اقتحموا المدينة وأعملوا فى أهلها السيف ودخلوا كنيسة القديسة صوفية وقد كان فيها بطرق القسطنطينية يصلى وحوله خلق عظيم وقتلوا من فيها بحد السيف ولم يبقوا على أحد ونهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا مافى المدينة من الابنية العظيمة والآثار الفاخرة وأحرقوا جميع مكاتبها فكان عدد ما أكلته نار الحريق منها مائة ألف مجلد وعشرين ألفا

ورأى السلطان محمد من أبنية القسطنطينية ومراسيها ومنتزهاتها ماحبب اليه نقل كرسى مملكته اليها فنزح الروم عنها فرارا من الترك وكادت تخلو من السكان فرسم لكل من عاد اليها من الروم أن يبقى على دينه وعاداته ولا يتعرض له أحد بسوء فلم يأت اليها الا القليل بل كثر النازحون منها لاسيما بعد اقامة الأذان والصلاة فى كنيسة أياصوفية وتبديل حالها

فهال السلطان هذا الامر واستعظمه وأتى اليها بكثير من أهل القرى والضواحى ثم أقام للروم بطركا ليجتمعوا حوله وسلم له عصا البطريكية وخاتمها كما كانت تفعل القياصرة فى سالف الازمان وقسم مافى المدينة من الكنائس بين النصارى والمسلمين وجعل لكل فريق منهم حدا لايتعداه وفرض على النصارى قدرا من المال يقومون به الى الخزينة السلطانية فى كل عام قال بعض كتاب الاخبار وبقى الحال على ذلك زهاء ستين سنة حتى جاء السلطان سليم الاول فنسخه وسيرهم على ماأراد

ولما استقامت للسلطان محمد الأمور بعد فتح القسطنطينية عمد الى فتح جزيرة رودس فسير الى أهلها يتهددهم ويطلب منهم الجزية وكان عظيمهم يومئذ يوحنا دواستيلك فأرسل اليه يوحنا يقول كف عنا فوالله ان فرسان رودس لم يأخذوها الا بسيوفهم ومعونة الله سبحانه وتعالى ولم تطأ أرجلهم أرضها بعناية أحد من ملوك الارض فلن نسلم لك فيها وفينا رمق * وعرض للسلطان محمد بعد ذلك ماشغله عنها فوجه عنايته الى فتح الصرب فسار اليها فى جيش عظيم وتوغل فى جوفها فقام عند ذلك البابا كالستوس الثالث يستنهض جميع ملوك المسيحية على قتال المسلمين ويحضهم على استخلاص البلاد من أيديهم ويحثهم على الجهاد فى سبيل الله وجاءت الاخبار بذلك الى السلطان محمد فسار فى مائة ألف وخمسين ألفا من الجند المدربة وحاصر مدينة بلغراد وضيق عليها برا وبحرا حتى كادت تسقط فى يديه وطارت الاخبار بذلك الى الآفاق فأخذت حمية الدين أحد رهبان القديس فرنسيس فطاف يحث النصارى ويحضهم على الجهاد واستخلاص بلغراد من أيدى المسلمين وأكثر من التطواف والحض والمناداة فاجتمع حوله زهاء أربعين ألفا من الجنود النمساوية فسار بهم الى القائد هونيادس الشهير قائد الجيوش المجرية وجعله المقدم عليهم فسار بهم هونيادس وقاتل السلطان محمد قتالا عنيفا للغاية فانتصر عليه وأتلف سفنه الحربية وأغرق أكثرها فلبث السلطان محمد يهاجم المدينة أربعين يوما فلم ينل منها ورجع بمن بقى من عسكره وقد مات منهم خلق عظيم وأصابت هونيادس قائد العساكر المسيحية بعد نصرته جراحات بليغة فاعتل ومات بها بعد انسحاب السلطان محمد بعسكره فلما علم السلطان بموته فرح وسير وزيره محمد باشا الى فتحها فحاصرها ولبث يقاتل عليها سنة ونصف سنة حتى تم له النصر وسقطت فى يده فخسرت بذلك استقلالها وأصبح حكمها حكم بقية المدن التى وقعت فى قبضة العثمانيين

مطلب
قيام البابا كالستوس الثالث وحثه المسيحيين على قتال السلطان محمد

ولما كانت سنة احدى وستين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة ست وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وفتحها بعد حروب هائلة وضمها الى أملاكه واتفق فى هذه الاثناء ان وقع الخلاف مابين الملك توما والملك دمتريوس باليولوغوس أخى قيصر الروم بشأن مملكة المورة التى كانا يحكمانها بالاشتراك معا ويدفعان عنها الخراج

مطلب
زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وما كان من وراء ذلك

السلطان محمد واشتد بينهما الخصام واستفحل أمره فقامت الحرب بينهما على ساق فظفر توما بدمتريوس وهزمه فاستنجد دمتريوس بالسلطان محمد وطلب منه المدد وزوجه بابنته ليستميله اليه فلبى لذلك دعوته وأنجده على توما وسير اليه جيشا ضخما فهرب توما بعد انهزامه شر هزيمة وخلا الجو لدمتريوس فجعل يتصرف فى الامور ولكن لم تكد تستقر به الراحة بعد تلك الحروب الهائلة حتى داخل السلطان الطمع ومالت نفسه الى ضم مملكة دمتريوس الى بلاده فركب على دمتريوس بخيله ورجله وقبض عليه ونفاه الى احدى الديارات واستولى على بلاد المورة الا بعض الحصون التى كان سلمها توما الى البابا وأهل البندقية قبل فراره من وجه دمتريوس * ولم تأت سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية أى سنة احدى وستين وأربعمائة وألف ميلادية الا وقد زالت آثار السلطنة المشرقية العظيمة ولم يبق منها سوى مملكة طرابزون فعمد السلطان محمد فى تلك السنة الى أخذها وضمها الى مملكته وجيش جيشا وسار به اليها وقاتلها حتى أخضعها لحكمه ودخلت فى عداد ممالكه ثم سار منها فأخذ ولاية سنوب وجاء بصاحبها داود كومونين أسيرا الى القسطنطينية ومثل به شر تمثيل ثم أمر فقتلوه صبرا وكان قد اتهمه بمكاتبة ملك فارس والتألب معه وقتل كذلك أولاده بين يديه وكانوا ثمانية وعاد الى القسطنطينية ظافرا غانما * ثم جيش بعد قليل جيشا عظيما وسار به لقتال أمير الفلاخ وكان سبب ذلك تعدى بعض أهالى الفلاخ على جماعة من التجار العثمانية النازلين هنالك فلما علم صاحب الفلاخ بحضوره أرسل اليه رسلا فى طلب الصلح وقيامه بدفع جزية فى كل سنة قدرها عشرة آلاف دوكاوان يصادق على جميع الشروط التى تقررت فى معاهدة سنة ست وتسعين وسبعمائة هجرية أى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وألف ميلادية مابين السلطان بايزيد وأمير الفلاخ يومئذ فقبل السلطان محمد الثانى بذلك وانسحب بجميع جيوشه وكان هذا القول من أمير الفلاخ خدعة ليتمكن من عقد محالفة مع ملك المجر على قتال الترك فلما تم له ماأراد وعلم السلطان بالخبر سير اليه رسولين يسألانه فى ذلك فقبض عليهما وقتلهما ثم لم يلبث ان زحف فى جيش عظيم وأغار على بلاد بلغاريا التى هى من أملاك آل عثمان فعاث فيها وأفسد وخرب وأحرق وعاد بخمس وعشرين ألف أسير فسير اليه السلطان رسلا فى طلب فك الاسرى والرجوع الى الطاعة وعدم مخالفة العهد فلما مثلوا بين يديه قيل انه أمرهم بخلع عمائمهم عن رؤسهم اجلالا له وتعظيما فأبوا ذلك فأمر بأن تسمر عمائمهم على رؤسهم بمسامير من حديد ففعلوا بهم ذلك وهم بين يديه وجاءت الاخبار الى السلطان بما وقع لرسله فكاد يتميز غيظا ونادى فى جنده بالتأهب ثم خرج فى مائة ألف لقتال أمير الفلاخ ومازال حتى اخترق جوف بلاده ووصل الى مدينة بخارست عاصمة مملكته بعد أن هزمه شر هزيمة ومزق شمل عسكره فهرب صاحب الفلاخ ونزل على ملك المجر مستجيرا فنادى السلطان

محمد بخلعه من منصب الامارة وأقام أخاه راوول مكانه وكان راوول هذا قد تربى فى حضانة السلطان محمد والسلطان به ثقة فصارت بذلك بلاد الفلاخ تابعة لأملاك السلطنة العثمانية

مطلب تدويخ بلاد البوسنا وأخذها عنوة

وركب فى سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية أى سنة اثنتين وستين وأربعمائة وألف ميلادية على البوسنا لامتناع أميرها عن دفع الجزية فحاربه وانتصر عليه وقتله هو وولده بعد قتال عنيف للغاية فدانت له بقتله جميع بلاد البشناق وكبر الامر على صاحب المجر فهم باستخلاص البوسنا من أيدى العثمانيين وخرج فى عسكر عظيم فركب عليه السلطان فى جيش جرار وهزمه وفرق شمل عساكره فعاد خائبا وشدد السلطان على أهل البوسنا فسلبهم جميع ما كان لهم من الامتيازات والحقوق وأدخل فى الصفوف الانكشارية زهاء ثلاثين ألفا من شبان البوسنا وشدد على كبار أهلها وأشرافهم فتدين أكثرهم بالدين الاسلامى وصارت البلاد ولاية كبقية الولايات الداخلة فى حكم آل عثمان * ولما كانت سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث وستين وأربعمائة وألف ميلادية ابتدأ الخلاف بين العثمانيين وأهل البنادقة وكان سبب هذا الخلاف ان عظيما من العثمانيين هرب الى ناحية كورون التابعة للبنادقة فطلب فلم يسلموا فيه وامتنعوا وقالوا انه تنصر واعتنق الدين المسيحى فلا يحل اعتباره عبدا رقيقا وكان فى نفس السلطان أن يشن الغارة على جميع أعمال البندقية ويضمها الى أملاكه فاتخذ ذلك حجة للقتال وجيش جيشا عظيما وسار به فى سنة خمس وسبعين وثمانمائة هجرية ونزل على جزيرة اغريوز المعروفة أيضا بارجوس بريد قتالها فقاتله أهلها قتالا عنيفا وأرسلوا يستنجدون حكومتهم فسيرت لنجدتهم عمارة عظيمة فوصلت الى بلاد المورة وأنزلت الى البر من بها من الجنود والمقاتلة فتقوت بهم عزائم سكانها وثاروا معهم على من كان عندهم من عسكر السلطان فأجلوهم عن البلاد ثم رمموا ما كان تهدم من أسوار برزخ كورنثيه وحاصروا مدينة كورنثية واستخلصوا مدينة اغريوز فاستعظم السلطان هذا الامر وأكبره جدا وزحف فى زهاء ثمانين ألفا فخاف أهل البندقية وسقط فى أيديهم وتركوا البرزخ المذكور ورجعوا القهقرى فوصل السلطان بعسكره ودخل البلاد بعد قتال خفيف واسترجع كل ما أخذوه وأرجع الامور الى سابق مجراها

واشتد بغض أمم أوربا للعثمانيين وكرهوا جوارهم فقام البابابيوس الثانى يدعو المسيحيين الى قتال المسلمين ويستحثهم على نصرة الدين ومحو آثار العثمانيين من قارة أوربا وأكثر أتباعه من النداء والتحريض فهاجت الخواطر وامتلأت القلوب بغضا فقام صاحب البانيا بعسكر جرار وشن الغارة على المملكة العثمانية وقاتل العثمانيين قتال الابطال فخرب وأحرق وأهلك الحرث والنسل وأراق الدماء الكثيرة وما زال يقاتل حتى أدركته المنية فمات

سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية حتف أنفه وقد كان من أشد خصوم العثمانيين وألد أعداء سلاطين آل عثمان حاربهم خمسا وعشرين سنة لايغمد له فيها سيف ولا ينثنى له عزم ولم يقو السلطان محمد على قمعه وادخاله تحت الطاعة * وسير السلطان بعد ذلك بقليل عمارة حربية لفتح مينا آق كرمان ففتحتها وأقلعت السفن تريد مصاب نهر الدانوب لاعادة الكرة على بلاد البغدان وأخذها فلاقته العساكر البغدانية وفى مقدمها الامير اصطفن الرابع صاحب البغدان عند نهر الدانوب فاجتاز السلطان النهر فلم تقف امامه عساكر اصطفن وتقهقروا خديعة ومكرا ولم يقاتلوا السلطان فتبعهم السلطان بعساكره وساق خلفهم بخيله ورجله حتى دخلوا فى غابة كثيفة للغاية لاتعرف مفاوزها فلم يمهلهم اصطفن المذكور حتى انقض عليهم بعسكره وقهرهم وأعمل فيهم القتل بحد السيف ففر السلطان ونجا وتمزق شمل من بقى من عسكره وانتصر اصطفن فى هذه الموقعة نصرة عظيمة وكان ذلك فى سنة احدى وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ست وسبعين وأربعمائة وألف ميلادية ففرح المسيحيون بنصرة اصطفن فرحا عظيما وسير اليه البابا رسولا يهنئه بالنصر ويقول له ان البابا قد سماه من هذا اليوم بطل النصرانية وحامى حمى الديانة المسيحية

مطلب
فيما أصاب عسكر السلطان فى بلاد البغدان وفى هزيمتهم

مطلب
حصار سفن السلطان لرودس والرجوع عنها

وجهز فى سنة خمس وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ثمانين وأربعمائة وألف ميلادية عمارة أخرى عظيمة وعليها مائة ألف مقاتل وشئ كثير من الذخيرة ومعدات الحرب وسيرها مع ميشطس باشا أحد العائلة الباليولوغية الامبراطورية الرومية وكان قد اعتنق الدين الاسلامى بعد فتح القسطنطينية فسار بها الى جزيرة رودس وحاصرها وضيق عليها وأقام تحت أسوارها تسعين يوما فلم ينل منها فجاءه الامر بالارتحال عنها فارتحل ولم يقدر الله للسلطان محمد قتالها بعد ذلك * قال أصحاب التاريخ ولما وصلت عمارة السلطان محمد الى جزيرة رودس كان صاحبها قد تمكن من ابرام صلح مع سلطان مصر وباى تونس بعد ان وقعت الحرب بينهما وبينه أياما كثيرة ليتفرغ بذلك الى دفع غارات العثمانيين عن الجزيرة التى هى مقر رهبنة القديس يوحنا الاورشليمى فحاصرتها عمارة السلطان محمد حصارا تاما ومنعت عنها المدد وضيقت عليها من كل جانب ووالت الرمى عليها بالمكاحل فكان أهلها يصلحون فى الليل ماتخربه المدافع من أسوارها فى النهار فطال حصارها تسعين يوما وفى كل يوم يهجم العثمانيون على الاسوار فلم تنل منها وقد قتل منهم خلق كثير للغاية فلم يبق الا القليل وجاء مرسوم السلطان برفع الحصار والارتحال عنها فارتحلوا وما زال السلطان محمد على قدم الغزو والجهاد لا ينكف عن القتال وتدويخ البلاد حتى أدركته المنية وهو سائر بعسكر جرار لقتال ملك فارس مات فى مدينة ازنكميد فى سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة احدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية

مطلب
وفات السلطان محمد وولاية ابنه بايزيد

فى سلخ ربيع الاول وله من العمر ثلاث وخمسون سنة فكانت مدة سلطنته احدى وثلاثين سنة قال أصحاب التاريخ وله الفعال المأثورة فى داخل بلاده فهو الذى دعا الحكومة العثمانية بالباب العالى وقسم هيئتها الى أربعة أقسام وهى الوزير وقاضى عسكر والدفتردار والنيشانجى أى كاتب سر السلطان ورتب وظائف الجند على أسلوب جديد فجعل لطائفة الانكشارية كبيرا سماه الاغا وسلمه حراسة القسطنطينية وضبط أحوالها الداخلية وآخر لاصحاب المكاحل وآخر لما تحتاجه الجيوش من الذخيرة والمؤنة ومعدات الحرب واهتم بترتيب وظائف القضاء وسن القوانين النظامية المناسبة للزمان والمكان * وأعقب ولدين وهما بايزيد وجم فبايع الناس بايزيد بالسلطنة فى اليوم الذى مات فيه أبوه وهو الرابع من ربيع الاول سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة احدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فأخذت له البيعة العامة فى خلال سنة ست وثمانين هجرية وكان سلطانا جليل القدر عالما شاعرا لبيبا مواظبا على العلم حسن السيرة * قال أصحاب التاريخ لما مات السلطان أبو الفتح محمد وكان أكبر أولاده بايزيد وولى عهده من بعده مقيما باماسيا يحكمها من قبل أبيه أخفى الوزير قرمانى محمد باشا خبر موت السلطان حتى يأتى ابنه بايزيد المذكور ولكنه لما كان بينه وبين أصغر أولاد السلطان مودة ومحبة أكيدة وكان يفضله على بقية اخوته سير اليه سرا من يعلمه بخبر موت أبيه ويستقدمه على عجل ليسلمه مقاليد السلطنة قبل أخيه بايزيد فشاع خبر ذلك بين الناس وعلم به جماعة الانكشارية فثاروا على الوزير وقتلوه وعاثوا يومئذ فى المدينة وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وولوا الامير كركود ابن السلطان بايزيد السلطنة مكان أبيه حتى يأتى أبوه فلما كان الثالث عشر من ربيع الاول وصل الرسول الى بايزيد وأعلمه بخبر موت أبيه فركب فى اليوم الثانى فى أربعة آلاف وسار مجدا فدخل مدينة القسطنطينية بعد مسير مائة فرسخ وستين فرسخا فى تسعة أيام فخرج أمراء الدولة وكبارها وأعيانها للقائه ودخل المدينة فى أبهة وجلالة عظيمة للغاية وأخذ فى مباشرة الامور * أما الامير جم فانه لما وصل اليه الخبر بموت أبيه ركب من فوره فى جماعة من أصحابه وسار قاصدا مدينة بروسة فمانعه من دخولها من كان بها من المرابطين فقاتلهم بمن معه وانتصر عليهم نصرة عظيمة ودخلها عنوة وأقام بها ولم يستقر به المقام حتى جاءه أخوه السلطان بايزيد فى جيش عظيم وقاتله وقهره وساق خلفه بخيله ورجله حتى أوصله الى تخوم ديار مصر فلما رجع ظافرا منصورا سأله الانكشارية أن يبيح لهم بروسة لينتقموا منها فلم يوافقهم على ذلك ولكنه خاف عاقبة أمرهم فأقطع كل رجل منهم قرشين

وأقام جم بمصر ماشاء ثم عاد الى حلب واتحد مع الامير قاسم بك آخر سلالة أمراء القرمان على قتال أخيه بايزيد فلم ينالا شيأ فراسل أخاه فى طلب الصلح بشرط أن يقطعه بعض الولايات ليقيم بها فلم يقبل بايزيد منه ذلك فخاف جم العاقبة وسار الى جزيرة رودس

وطلب الى رئيس رهبنة القديس يوحنا الاورشليمي أن يساعده على أخيه بايزيد فقبله عنده وأنزله منزلا رحبا فجاءت وفود السلطان بايزيد الى رئيس الرهبنة وكلموه فى أمر جم المذكور وانه ان بقى عندهم بالجزيرة تحت الحفظ تعهد لهم السلطان بعدم مس استقلال جزيرتهم مدة حياته وأن يحمل لهم فى كل سنة مبلغا من المال قدره خمسة وأربعون ألف دوكا فقبل الرئيس ذلك ووفى بالوعد فلم يمكن جما من الخروج ولم يسمح له بالذهاب الى ملك المجر ولا امبراطور الالمان وقد كان كل منهما يطلبه ليتخذه واسطة لتذليل السلطان بايزيد واذهاب هيبته وسيره الى مدينة نيس ليبقى بها محجورا عليه لايفارقها ثم نقله الى شمبرى وجعل بعد ذلك ينتقل من بلد الى آخر من بلدان فرنسا زهاء سبع سنوات فلما كانت سنة خمس وتسعين وثمانمائة هجرية بعثه رئيس رهبنة القديس يوحنا الى البابا نوسان الثامن ليبقى عنده فراسل البابا السلطان بايزيد فى أمره وطلب اليه أن يبعث بالمال الذى كان يحمل فى كل سنة الى رئيس رهبنة القديس يوحنا فأجابه السلطان الى ماطلب وظل الامر على ذلك حتى مات البابا نوسان وقام بعده البابا اسكندر بورجا واشتغل السلطان بايزيد بماجاءه من أخبار اغارات شارل الثامن ملك الفرنسيس على بلاد ايطاليا وعقده النية على فتح القسطنطينية وقد اشتدت رغبة شارل فى ذلك فبعث البعوث الى بلاد مقدونية واليونان لاضرام نار الفتنة والخروج على السلطان بايزيد فلما علم ملك نابولى وجمهورية البنادقة بما ينويه شارل خافوا من تعاظم شأن دولة الفرنسيس واستفحال أمرها وأرسلوا الى السلطان بايزيد يحذرونه شر العاقبة ويحثونه على الاخذ بأسباب التأنى والحزامة وأن يسير الى بلاد ايطاليا طائفة من عسكره ليصد بها جيوش ملك الفرنسيس فأحس شارل بذلك وأكبره فسار الى مدينة رومة وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وطلب من البابا اسكندر أن يسلمه جما أخا السلطان بايزيد فلم ير بدا من تسليمه فسار جم مع جيوش الفرنسيس حيث ساروا حتى أدركته المنية فى مدينة نابولى فدفنوه فى بلدة من بلاد ايطاليا ثم نقل الى مقابر أجداده بمدينة بروسه

مطلب
وتاقت نفس السلطان بايزيد الى فتح الديار المصرية

وتاقت نفس السلطان بايزيد الى فتح الديار المصرية وضمها الى أملاكه فسار فى جيش عظيم لقتال سلطانها فالتقيا جهة القرمان واقتتلا قتالا شديدا فلم يفلح السلطان بايزيد وراسلهما باى تونس بالكف عن القتال بدعوى انه لايصح قيام الحرب بين ملكين مسلمين فتقررت بين الفريقين قاعدة للصلح وعاد السلطان بايزيد بعسكره وعادت كذلك العساكر المصرية وبينما هو يغزو ويحارب ويفتح المدن والامصار والتوفيق ملازمه اذ قامت الفتنة داخل بلاده بخروج اثنين من أولاده عن طاعته واضرامهم نار الحرب قال بعض كتاب الاخبار وقد كان له ثمانية أولاد ذكور مات منهم خمسة فى حداثتهم وعاش ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم وكان كركود مولعا بالعلوم والآداب ميالا لمخالطة العلماء والأدباء فكانت العساكر لاتميل اليه لهذا السبب وكان الثانى عاقلا رزينا محبوبا من الامراء والاعيان موقرا

عنـد كبير الوزراء مكرما وكان الثالث ميالا للغزوات والحروب فكانت طوائف الجنود والانكشارية تحبه وتجتمع عنـد كلمته ولذلك ولى السـلطان بايزيد كلا منهم منصـبا يليق بحاله فولى الامير كركود احدى الولايات البعيدة وولى الامير أحمد ولاية اماسيا وولى الامير سليما ولاية طرابزون فلم يقبل الامير سليم هذا المنصب واستصغره وسار من طرابزون الى كافا وسـير منها رسلا الى أبيـه يطلب اعطاءه احدى الولايات الكبرى من مملكته التى فى أوروبا فاسـتعظم السلطان ذلك وأكبره ولم يجبـه الى ماطلب ورد الرسل كما حضروا فكبر الامر على الامير سـليم وركب فى جيش من التتار وسار لقتال أبيـه فأرسـل أبوه كذلك جيشا لارهابه فلم يرعو واشتد فى التأهب والاسـتعداد لاضرام نار الوغى فخشى السلطان شر العاقبة وأجابه الى ماطلب وعقـد له الولاية على مدينتى ودين وسمندرية فداخل نفس الامير كركود من ذلك ماداخلها وأغار على ولاية صاروخان وجعلها له مقرا حتى لايكون بعيدا عن تخت مملكة أبيه عند الحاجة

مطلب
خروج الامير سليم على أبيه السلطان بايزيد فى طلب الملك

ولم يستقر بالامير سليم المقام فى سمندرية حتى تاقت نفســه الى ارتقاء منصب السلطنة والانفراد بالملك فسار من سمنـدرية فى جيش الى أدرنه واستقربها ونادى بسـلطنته عليها وطير الاخبار بذلك الى الآفاق فلما وصل الخبر الى السلطان بايزيد هاله جدا وأغضبه فسير جيشا لاخضاع الامير سليم وارجاعه الى الطاعة فقاتله فانتصرت عساكر السلطان بايزيد وفر الامير سليم الى بلاد القرم واختـفى وتفـرق من كان معـه من العساكر والاحزاب ولما تم للسلطان بايزيد النصر على ابنه سليم سـير جيشا آخر لقتال ولده كركود بصاروخان فخرج كركود لقتال عسكر أبيه فالتقى الجمعان واقتتلا فانهزم أصحاب كركود شرهزيمة واختفى كركود حتى كان من أمره ماسـيذكر فى محله * ولم يكد يتم الظفر للسلطان حتى قامت طوائف الانكشارية على قدم وساق وسألوه العفو عن ولده الامير سليم وارجاعـه الى ولاية سمندرية فطاولهم فأكثروا من الالحاح وشددوا وارهبوا وهددوا وما زالوا حتى أجابهـم السلطان الى ماطلبوا وسـير الى الامير سليم فرمان الرضا والولاية على سمندرية كما كان فظهر الامير سـليم عند ذلك من مخبئه وسار فى نفر يريد سمندرية فخرج للقائه جماعة من الانكشارية وساروا فى ركابه وعرجوا به الى القسطنطينية ودخلوها فى كبكبة وضجة زائدة ومازالوا على ماهم عليه من الجلبة والصياح حتى صاروا تحت قصر السلطان بايزيد وسيروا اليه جماعة يطلبون اليه خلع نفســه والتنازل لولده الامير سليم عن الملك وأكثروا من النـداء والصياح وشددوا فى الطلب فاجتمع الناس وكثر الزحام وعلت الضوضاء وعم الخوف سائر من فى المدينـة واشتد الهرج فخاف السلطان بايزيد شر العاقبة وأجابهم الى ماطلبوا وخلع نفسه فى اليوم الثامن من صفر سنة ثمان عشرة وتسعمائة هجرية أى سـنة اثنتى عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ سبع وستون سنة

وفى

وفى رواية انه لما قامت الفتنة فى داخلية البلاد بخروج اثنين من أولاده عن طاعته أمر بقتلهما فقتلا فكثرت لذلك القلاقل وعلت كلمة الانكشارية فعاهدوا الامير سليما بالملك وكلموه فى أمر السلطنة فاجتاز بوغاز القسطنطينية لاستخلاص الملك من أبيه فحاربه أبوه وهزمه فهرب الى بلاد القرم وأقام بها ثم قصد القسطنطينية ثانية فى جيش وجرى بينه وبين أبيه وقائع كثيرة فلما اشتد الحال بالسلطان بايزيد خلع نفسه من السلطنة وعهد بها الى ابنه سليم المذكور وسار الى أدرنة فدس له ابنه من سقاه السم خوفا من رجوعه الى دست السلطنة فلما مات بايعوا بعده السلطان سليما البيعة العامة واستقرت به السلطنة فقبض على أخويه أحمد وكركود وقتلهما ومثل بهما ليخلوله الجو ثم سار لقتال ملك فارس ثم كان ما كان من انتشاب الحرب بينه وبين السلطان قانصوه الغورى صاحب مصر وتغلغله بعساكره فى داخل البلاد حتى وطئت خيله القاهرة وتصرفه فى الامور بعد ان بدد شمل عساكر الملك الاشرف طومان باى وظنه موت الاشرف مع من قتل من الامراء والاجناد والمماليك فى الواقعة التى حصلت عند الريدانية كما مر بك بيان هذا كله فى محله

(المقالة التاسعة وفيها فصول)

(الفصل الاول)

(فيما جرى بعد دخول السلطان سليم القاهرة وفى سلطنته على ديار مصر ولبسه شعار الخلافة)

لما استقر بالسلطان سليم المقام بالقاهرة بعد انتصاره على السلطان الملك الاشرف طومان باى ومن معه من كبار الامراء والمماليك وتبديد شملهم وإعمال السيف فيمن بقى منهم ظن موت السلطان الملك الاشرف وان قد دانت له البلاد فعمد الى ترتيب الامور وتقرير قواعدها ورسم فى يوم الثلاثاء رابع المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بتقليد بعض أصحابه المناصب العالية وأمر ونهى وقضى يومه هذا فى أنس وصفاء وهو لايعتقد الاهلاك الاشرف فما أذن لوقت العشاء من ليلة الاربعاء حتى أطبقت عساكر الاشرف على السلطان سليم من كل جانب والاشرف ينادى فيهم بالحل وإعمال السيف وأن لايبقوا أحدا فاندفعت عساكر الاشرف على عساكر السلطان اندفاع الوحوش الضوارى وأعملوا فيهم السيف

وقتلوا منهـم خلقا كثيرا وأحرقوا بعض خيامهـم وبحثوا عن السلطان سـليم فلم يقفوا له على أثر من شدة الظلام وهرع العامـة وعياق بولاق من النوتية وغيرهـم وأحاطوا بخيام عسـكر السـلطان وصاروا يرجمون بالمقالع وفيها الحجارة وكثر الصياح وعلت الاصوات واشـتدت الجلبة واسـتمروا على هـذا الحال الليـل كله حتى مطلع الفجر فتمزق عساكر السـلطان سليم كل ممزق وتفـرقوا فى الشوارع والحارات يريدون النجاة وذهب فـريق منهم الى ناحية النصرية فلاقاهم الامير عيلان الدوادار الكبير عند الميدان وقاتلهم قتـالا عنيفا ومازال حتى اسـترد منهـم الطريق من رأس الجـزيرة الوسـطى الى قنطرة باب البحر والى قنطرة قديدار واسـتمر القتال بين الفريقـين من مطلع الفجر الى مابعـد الغروب واشتدت عـزائم الجرا كسـة وقويت قلوبهم فالحشوا فى قتـل العثمانيين وأخرجوهـم من جميع الاماكن التى كانوا مختفين بها وجعلوا يحتزون رؤسهم كما فعلوا هم بهم عند الريدانية وكانوا يأتون بالرؤس بين يدى السلطان الملك الاشرف وهو يسـتحث المـماليك على القتال والاخذ بالثـار وأصبحوا يوم الاربعاء الخـامس من المحـرم والقتال قائم عـلى ساق بين الفريقين والمناداة من السـلطان الملك الاشرف متواصـلة بالقبض على كل من يجـدونه من عساكر السـلطان سليم فجد الناس كافة فى طلبهم والقبض على من يجـدونه منهم فكان يوما شره مستطير * ورتب السلطان سليم من بقى من عسكره ونادى فيهـم بالقتال فقويت قلوبهم وصدموا المماليك عنـد بولاق وجزيرة الفيل صدمة قوية للغاية فاجلوهم عنهما وأخـذوهما وهجـموا على زاوية الشيخ عماد الدين بالنصرية وقبضوا على من كان بهـا من المـماليك الشرا كسـة وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية وقتلوا جماعـة كثيرة من العامـة والنساء والاطفال والشيوخ وأجلوا من بقى من المماليك عن النصرية فتوجهوا الى قناطر السـباع ونزل الاشرف طومان باى الى جامع شـيخون بالصليبة وأخذ يجمع من تفـرق من عسكره ثم رسم بحفر خندق فى راس الصـليبة وآخر عنـد قناطر السـباع وآخر عند راس الرميلة وآخر عند جامع ابن طولون وآخر عند جزيرة البقر ورسم باحراق خان الخليلى فنعه بعض الامراء من ذلك ثم قسم عساكره الى أربع طوائف طائفة تقاتل عند قناطر السباع وطائفة عند الرميلة وطائفة عند جامع ابن طولون وطائفة عند راس الصليبة ولكن قد كان الخوف استولى على قلوب عساكره ففـترت هممهم وكبر خوفهم لمنابرة عسكر السلطان سليم على القتال وكان القتلى من الفريقين مطروحين فى الطرق من بولاق الى قنطرة السباع والى الرميلة والى تحت قلعة الجبل وبقى الحـال على هذا الوصف الى يوم السبت ثامن المحرم فـلم يشعر السلطان الملك الاشرف الا وقد اختفى من بقى من أصحابه ولم يبق معه فى ساحة القتال الابعض العبيد الرماة والمماليك السلطانية وقليل من الامراء * فلما رأى أنه مأخوذ لامحالة ترك القتال وهرب الى بركة الحبش وشاع الخبر بفراره فانقض عسكر السلطان سليم على الصليبة وأحرقوا جميع البيوت التى حولها من درب ابن عبد العزيز وقتلوا كثيرا من العامة وأفحشوا

فى القتل والنهب والاحراق وعاثوا فى البيوت والمساجد والاضرحة سعيا وراء المماليك فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه فى الحال وفعلوا بالجامع الازهر مالا يحسن وكذلك فعلوا بجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغيرهما من الجوامع فكانت الكلاب من كثرة الرمم تنهش فيها نهشا وتمزقها تمزيقا وكان المنظر مدهشا مريعا جدا والناس فى شاغل عن دفن تلك الجثث لانتشار عسكر السلطان سليم فى الحارات وقتلهم كل من يجدونه فى طريقهم

ورسم السلطان سليم بالمناداة فى العسكر بالكف عن القتل واراقة الدماء فانكفوا وعاد السلطان الى خيمته فى الجزيرة الوسطى واشتغل الناس بدفن الموتى فكانوا لايكادون يميزون بعضهم عن بعض وانتشر البكاء والعويل فى مصر والقاهرة وقامت المآتم ببعض البيوتات الكبيرة فكان الخطب عظيما والمصاب شديدا * وأخذ السلطان سليم بمشورة أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله العباسى وعمل بقوله فظهرت كلمة الخليفة يومئذ وعظمت شوكته ووقف فى دهليزه الامراء من المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشروات فرارا من عسكر السلطان سليم وكذلك المخدرات من النساء وأصحاب البيوتات العالية ونزلت عنده خونده ابنة الامير آق بردى زوجة السلطان الملك الاشرف طومان باى وقد فرض عليها السلطان سليم مبلغا من المال غرامة فلم تقدر على وفائه واستغاثت بالخليفة على استرضاء السلطان فاخذ يتطلف به حتى تجاوز عن شئ منه وألزمت بايفاء الباقى وما زال الحال فى شدة والناس فى خوف ماعليه من مزيد حتى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم نادى منادى السلطان سليم بالامان لجميع من بقى من الامراء المقدمين وأمراء الطبلخانات وأمراء العشراوات والمباشرين وأصحاب الوظائف الديوانية فخرجوا من مخبئهم وأتوا الى معسكر السلطان فأمنهم ورسم لهم بالذهاب الى مدرسة الغورى فلما اجتمعوا بها جاءت طائفة من العساكر العثمانية واحاطت بالمدرسة فتخوف الامراء من ذلك وظنوا الغدر بهم ثم رسم لهم بعد أيام بالصعود الى قلعة الجبل فصعدوا اليها والجند تحرسهم فاقاموا بها تحت طلب السلطان فلما كان يوم الخميس عشرى المحرم صعد السلطان الى القلعة فى موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والطبول والزمور وطوائف الجند من المماليك الذين كانوا مع خير بيك والغزالى والعساكر العثمانية ومر من الصليبة فانطلق العامة بالدعاء له

ولما استقر به المقام رتب من قومه كشافا على الغربية والشرقية ونظر فى بعض المهمات من الامور وقيد بعض المأمورين بمساحة الشرقية وكشف مافيها من اقطاعات المماليك الشراكسة وغير ذلك من الرزق والاوقاف وكذلك فعل بالغربية والمنوفية وجميع الجهات القبلية واحتجب عن الناس بالقلعة ولم يجلس على الدكة السلطانية للنظر فى الظلامات كما كانت تفعل ملوك مصر وسلاطينها قبله * وبينما هو على هذا الحال اذ جاءت الاخبار من الاقاليم القبلية بظهور السلطان الملك الاشرف طومان باى ومعه جموع كثيرة من المماليك والغلمان السود والعربان والعامة والكثير من الخيل والدواب والاسلحة وانه عازم على المجئ

الى القاهـرة ليقاتل السلطان سليما ويجليه عن البلاد وشاع هـذا الخبر بين الناس وتأكد بوصول مكاتبة من الاشرف الى السلطان سليم يقول له فيها

وبعـد فان شئت أن أجعـل الخطبة باسمك وكذلك السكة وأكون نائبا عنـك بمصر وأحمـل اليك فى كل سنة الخراج حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا فارحل عن مصر الى الصالحية أنت وعسكرك وصن دماء المسلمين بيننا ولا تحمل وزر اراقة دماء الشيوخ والنساء والاطفال بغـير سابق ذنب والا فاخرج للقائى بعسكرك فى الجـيزة والله سبحانه يعطى النصر لمن يشاء

فلما وقف السلطان سليم على مافى المكاتبـة جمع اليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الاربعة وجماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة يمين الى الملك الاشرف وكتبه بخطه ووقع عليها ثم تكلموا فى الامر طويلا فوقع الاتفاق بينهم على تسيير الخليفة والقضاة الاربعة الى الاشرف بذلك اليمين وخلع السلطان سليم على القضاة و أمرهـم بالتأهب للسفر فنزلوا من عنده على ذلك اما الخليفة فانه امتنع عن السفر فرسم السلطان بتسيير دواداره بدلا عنه فسافروا ولما صاروا على مقربة من البهنسا خرج عليهم جماعة من الشراكسة وقبضوا عليهم وسلبوا ما كان معهـم من متاع وسلاح وهدايا وخيول وجمال وغـير ذلك وقتلوهـم فـلم ينج منهـم سوى القضاة الاربعة ودوادار السلطان ورجعوا الى القـاهرة وهـم فى أسوإ حال فلما عـلم السلطان سليم بما جرى لهم أمر فنقلوا معسكره من الجزيرة الوسطى الى بركة الحبش ونزل فى يوم السبت حادى عشر صفر من قلعة الجبل ومعه الجم الغفير من العساكر والمباشرين والغلمان ورماة البنادق وقـد أشيع خـبر انحدار عسكر الاشرف طومان باى من البهنسا الى ترسه بالجـيزه فرسم السـلطان بعمل سـقائل على النيل بناحيـة طرا ومصر القديمة و بولاق لعبور العساكر عند الاقتضاء وأخذ فى التأهب والاستعداد وقد ظهرت عليه وعلى جميع قومه عـلامات الاضطراب وخاف الناس كثيرا لاسيما وهـم لم يتناسوا ماحـل بهم باسباب الوقائع التى وقعت بالصليبة والناصرية وغيرهما

ولما كان يوم الاربعاء ثانى شهر ربيع الثانى أمر السلطان سـليم بجئ بجميع الامراء الذين كانوا بقلعة الجبل وقد كانوا ظهروا بأمان من السلطان كما تقدم القول فانزلوهم مكبلين بالحديد والجنـد من حولهم الى بركة الحبش فلما مثلوا بين يدى السلطان أخـبرهم بما فعله الملك الأشرف بالقضاة والدوادار وامتناعه من الصلح بعـد ان طلبه وأكثر من تأنيبهـم وتوبيخهم ثم أمر بضرب أعناقهـم جميعا فضربوا أعناقهم بين يديه وكانت عـدتهم أربعة وخمسـين أمـيرا مابـين مقـدمى ألوف وأمراء طبلخانات وعشروات وغـير ذلك وألقوا جثثهم للكلاب فكانت نساؤهـم تسعى فى أخذها بدفع شئ من المال الى الموكلين بالعمـل ثم قام السـلطان سليم من ساعته الى بركة الحبش وعـبر النيل بعسكره الى الجـيزة فجاءته الاخبار بوصول عسكر الاشرف الى المناوات فأقام بالجيزة الى يوم الخميس عاشر ربيع الثانى فظهرت طلائع عسكر الاشرف ولاقتها عساكر السلطان عند المناوات وقيل بل عنـد وردان

فالتحم القتال بين الفريقين واشتد وحمى الوطيس والتقت السنابك بالسنابك والرماح بالرماح والصفاح بالصفاح فاستظهر المماليك على عساكر السلطان وقتلوا منهم خلقا كثيرا وساقوهم حتى ألقى أكثرهم بأنفسهم الى النيل فماتوا غرقا وكاد يتم النصر للاشرف طومان باى وعسكره وجموعه فجاءت فى وسط هذه الشدة لعساكر السلطان نجدة من أصحاب البنادق ورموا بالبنادق على المماليك واصلوا الرمى بشدة حتى ردوهم ومازالوا بهم حتى فرقوا جمعهم ومزقوا شملهم وعادت الهزيمة عليهم فولوا الادبار وولى الاشرف مهزوما يريد قرية من أعلى تروجة اسمها البوطة فلما تم للسلطان سليم النصر عاد الى القاهرة ودخلت عساكره ومعهم العدد الكثير من رؤس القتلى وهم فى كبكبة عظيمة ثم نودى بالزينة فزينت البلد ثلاثة أيام والناس مع ذلك فى شاغل بما سيكون من وراء ذلك لعلمهم بما هو عليه الاشرف من البسالة والجلد على الحروب * أما الاشرف فانه نزل بقرية البوطة فأقام بها ثلاثة أيام وهو متحرز فى نفر من أصحابه ثم حضر اليه الشيخ حسن بن مرعى وشكر ابن أخيه مشايخ عربان البحيرة وكان بين المذكور وبين الاشرف صداقة قديمة فدعاه حسن للضيافة وألح عليه فى ذلك فركن اليه الاشرف ونزل عنده فلما استقر به المقام طلب مصحفا ووضعه بين يدى حسن واستحلفه عليه هو وابن أخيه انهما لايخونانه ولا يغدرانه ولا يدلان عليه ولا يخبران بخبره أحدا ولا يسعيان ضده عند السلطان سليم فحلفا على ذلك ثلاثا فطاب قلب الملك الاشرف وسكن جاشه وبات ليلته وأصبح وقد أحاط العربان بالمكان الذى هو فيه وأحدقوا به من كل جانب فخاف من كان معه من الغلمان والمماليك وتفرقوا عنه وأرسل ابن مرعى المذكور الى السلطان سليم يعلمه بالقبض على الاشرف ففرح السلطان بذلك فرحا عظيما وسير طائفة من عسكره فقبضوا عليه وقيدوه بالحديد وأتوا به بين يدى السلطان وهو فى زى العربان فقام له السلطان اجلالا وعاتبه ثم أشار الى بعض الواقفين من أصحابه فخرجوا بالاشرف من حضرته وأدخلوه فى خيمة أعدت له وأقاموا حولها الحرس من الغلمان الرماة والانكشارية فلبث الى يوم الاثنين ثانى عشرى ربيع الآخر نحو سبعة عشر يوما والاخبار عنه بين الناس كل يوم فى شان * فلما كان يوم الاثنين المذكور أركبوه على اكديش بعد ان عبروا به النيل من انبابه الى بولاق وهو مكبل بالحديد فى زى العربان الهوارة وامامه زهاء الاربعمائة من العثمانيين وساروا من سوق مرجوش ومروا به من القاهرة فتسابق الناس لرؤيته وهم فى دعاء له وصياح وجلبة عظيمة وكان يحييهم بلطفه المعهود وهو لايدرى أين هو ذاهب فلما جاؤا به عند باب زويلة وقفوا له وأنزلوه عن الاكديش وارخوا حبالا قد نصبوها له على السبيل الذى هناك ووقفت حوله العساكر بالسيوف فلما رأى مافعلوه قال أو أنتم قاتلىّ اليوم قالوا بلى فتبسم والتفت الى من حوله من جمهور الناس وقال وهو ثابت الجنان راسخ القلب اقرؤا لى الفاتحة ياخوانى ثلاثا واعفوا عما فرط منى فضج الناس وارتفعت أصواتهم بالبكاء والنحيب

مطلب
قتل السلطان الملك الاشرف طومان باى

وعلت الضوضاء وارتفعت أصوات النساء من أعالي البيوت والتفت الاشرف الى الجلاد وقال
له تقدم وافعل ماشئت فالله ولى الامر فتقدّم الجلاد ووضع الحبل فى عنق الاشرف وجذبه
فانقطع الحبل وسقط الاشرف فضج الناس وصاحوا وولولوا فرفعوه ثانيا فانقطع الحبل
فاشتد صياح الناس وعلت أصواتهم بالبكاء ففارقته روحه فبكاه الناس بكاء مرّا وكان عند
ذلك مكشوف الرأس وعليه ثياب من الجوخ الاحمر وفوقها ملوطة وفى رجليه سراويل
من جوخ أزرق ثم تركوا جثته معلقة ثلاثة أيام حتى فسدت وانتنت فانزلوها وساروا بها
الى مدرسة عمه السلطان الغورى فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى الحوش الذى
خلف المدرسة رحمه الله برحمته الواسعة * قال أهل التاريخ وقد كان شابا حسن الوجه
لايتجاوز الرابعة والاربعين من العمر بطلا مقداما حازما تولى النيابة فى الغيبة لما خرج
عمه السلطان الغورى الى قتال السلطان سليم بحلب فاحسن التدبير وأمن السبيل ودفع
المظالم وأبطل الاحداثات والبدع وكان محبا للرعية شفوقا كثير البر والاحسان وقورا * قال
بعض كتاب الاخبار ولما جهز لقتال السلطان سليم حبب اليه بعض الامراء أن يجبى
الاموال من الرزق والاقطاعات معجلا لنفقة الحرب فقال لا ولا أجعلها نقطة سوداء فى
صحيفة أعمالى وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما اذ كانت ولايته فى الرابع
عشر من رمضان وهروبه فى التاسع والعشرين من ذى الحجة وهى كلها حروب وكروب
وخطوب * روى أنه لما كثر ظلم مماليك الغورى وزاد عبثهم بأمور الرعية وكثر فسادهم
فى الارض أبغضهم الناس جدا وضجوا الى الله يطلبون الخلاص واتفق أن رجلا من خيار
الناس رأى جنديا من عسكر الغورى أخذ متاعا من دلال ولم يرضه فى قيمته فتبعه الدلال
يطالبه بحقه وهو ممتنع فقال الدلال بينى وبينك شرع الله فضربه الجندى بدبوس شج رأسه
وسقط مغشيا عليه فرفع الرجل يديه الى السماء وقال الهى أنت أعلم بما تفعل هذه الفئة
فاحكم فأنت خير الحاكين ثم نام فى تلك الليلة وهو حزين مما رأى فرأى فى منامه أن
ملائكة نزلت من السماء وبايديهم مكانس وهم يكنسون الشراكسة كنسا فاستيقظ مدهوشا
واذا بقارئ يقرأ قوله تعالى فانتقمنا منهم فاغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا باياتنا وكانوا عنها
غافلين * فعلم الرجل أن الله يأخذهم أخذا وبيلا فلم يمض الا القليل من الايام حتى قدم
السلطان سليم وبدد شملهم وأباد سلطانهم ومزقهم أيدى سبا فزالت بموت الاشرف طومان
باى دولة الشراكسة المعروفة فى عرف أصحاب التاريخ بالدولة الثانية فكانت مدة تصرفهم
مائة سنة واحدى وعشرين سنة وجملة سلاطينهم اثنان وعشرون سلطانا أولهم برقوق
وآخرهم الاشرف طومان باى

ولما دانت الامور للسلطان سليم بموت الاشرف أخذ يرتب أمور البلاد على مايشاء فجعل
ادارة البلاد ثلاث طبقات وجعل فى كل طبقة منها رئيسا وجميعهم طوع أمر وزير الديوان

الكبير ورتب هذا الديوان من الوالى المنتدب من قبل السلطنة على البلاد ومن بكوات سبع وجاقات عسكرية وخص الوالى المذكور بتبليغ الاوامر السلطانية الى الديوان وحماية البلاد وتوصيل الخراج الى الخزينة السلطانية وفصل الخصومات بين أرباب الديوان وبعضهم وايقاف كل عند حده وخص أرباب الديوان بنقض أوامر الوالى عند الحاجة وخلعه من المنصب عند الضرورة والتصديق على مايصدر منه من المراسيم الديوانية المتعلقة بامور البلاد وقسم البلاد القبلية والبحرية الى أربع وعشرين مديرية وولى جماعة من المماليك عليها فكان عليهم جمع الخراج وجباية الاموال ورد العربان عند خروجهم عن الطاعة وقيد هؤلاء الحكام ولم يطلق لهم العمل الا بمشورة أرباب الديوان العالى ولقب أحدهم المقيم بالقاهرة بشيخ البلد * ثم قسم الخراج الذى يتحصل فى كل سنة الى ثلاثة أقسام الاول لمرتبات الجند من المشاة والفرسان والثانى لحاجات الحرمين والثالث للخزينة السلطانية وأقام من المرابطين لحراسة البلاد عشرين ألفا من المشاة واثنى عشر ألفا من الفرسان وجعل مقدمهم خير الدين أغا الانكشارى ورسم له بملازمة قلعة الجبل وعدم البراح منها * قال بعض كتاب الاخبار ولم يلتفت الى تحسين أحوال الرعية ولا نظر فى رفع تلك المضار السائدة على أهل البلاد ولا خفف عنهم شيأ مما أتت به الحروب المتوالية والخطوب المتراكمة فكان هذا كله أكبر الاسباب التى آلت بهذا النظام الى الزوال و بشوكة السلطنة العثمانية الى الضعف والذبول على توالى الايام * ثم انتقل بخيامه من الجزيرة الوسطى الى الروضة وابتنى له كشكا فوق قاعات المقياس وهو مشرف على النيل والروضة والمقياس فكان يجلس فيه محتجبا الا عن بعض خواصه وكبار دولته ثم نزل من ذلك الكشك وسكن فى دار الاشرف طومان باى التى خلف حمام العراقى المطل على بركة الفيل وكان سبب ذلك ان بعض الانكشارية تآمروا على قتله فأحس بذلك ونزل من الروضة وسكن فى الدار المذكورة وأمر فقبضوا عليهم و كانوا كثيرين واعملوا فيهم القتل والتفريق والشنق على أبواب القاهرة كباب زويلة و باب النصر و باب الفتوح حتى أفناهم

وجاءت الاخبار الى السلطان سليم بتأهب ملك فارس لقتاله ورد ماأخذ من أملاكه فاهمه هذا الامر جدا وأخذ يتأهب للخروج من مصر الى الشام فعرض جميع الخزائن وحواصل الحكومة وأخرج مافيها من سلاح ومتاع وكراع وغير ذلك ونقل جميع التحف والنفائس التى بالديوان الكبير بقلعة الجبل وكذلك التى كانت فى قاعة البيسارية والدهيشة وغيرهما وجمع جميع الكتب التى كانت فى خزائن المدارس على اختلافها وخاف أن يترك أمير المؤمنين المتوكل على الله فى منصب الخلافة فتطمع نفسه فى السلطنة فقبض عليه ليحمله معه الى القسطنطينية وقيل بل أمره بالشخوص اليها فخرج يوم الثلاثاء عاشر جمادى الاولى وخرج معه ابنا عمه خليل وهما أبو بكر وأحمد وخرج معه أيضا الناصرى محمد العلائى على بن خاص بيك صهر الخليفة وكذلك الشرفى يونس ابن الاتابكى سودون

وقبل خروج الخليفة نزع السلطان سليم منه الخلافة قهرا ولبس شعارها فى محفل حافل فخرجت فى هذا اليوم الخلافة من بنى العباس الى آل عثمان وزالت عنهم كما زال الملك من ديار مصر بزوال دولة الغورى فسبحان من بيده تصاريف الامور وهو المعز المذل يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء انه على كل شئ قدير

وتأهب السلطان للرحيل عن مصر فسيرامامه الى القسطنطينية من أولاد الملوك والسلاطين الذين كانوا بديار مصر وكبار الامراء والقضاة ونواب القضاة والشهود والعدول والمباشرين والكتاب من القبطة وهم المعلم بانوب كاتب الخزينة السلطانية والمعلم يوحنا الصغير والمعلم أبو المكارم وغيرهم وكثير من الاعيان وكبار التجار وأرباب الصنائع من مثل المهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والمرخمين وصغار الفعلة فساروا بهم فى يوم الجمعة سابع عشر رجب الفرد الى الاسكندرية ثم الى القسطنطينية وأنزلوا معهم شيأ كثيرا من الرخام والعمد مما أنزلوه من قلعة الجبل والقاعات الكبرى وأخذوه من بيوت الامراء والاعيان من القاهرة ومصر القديمة وكانت شيأ كثيرا جدا * قال بعض كتاب الاخبار كان عدد من خرج من الامراء وأولاد الملوك والقضاة وغيرهم زهاء ألف وثمانمائة وقيل بل أكثر من ذلك جدا فكانت شدة عظيمة للغاية * ولما كان يوم الخميس ثالث عشرى شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة خرج السلطان سليم يريد الرحيل الى القسطنطينية فسار من بيت الاشرف ومرّ من الصليبة الى الرميلة وهو فى موكب وجلالة وامامه العساكر والاجناد من المشاة والفرسان وطوائف الامراء وكبار الجند وعدة جنائب حربية والامير خير بيك نائب مصر وجان بردى الغزالى وكان السلطان راكبا على بغلة قيل انها كانت للسلطان الغورى كان يركبها فى الاسفار وحوله جماعة الوزراء وبينهم يونس باشا والدفتردار فسار بموكبه على السور ومرّ بتربة الاشرف قايتباى ووقف امام القبر لحظة لطيفة ثم مرّ من بين المقابر الى تربة العادل التى بالفضاء واستمر على ذلك حتى نزل بالمخيم الذى نصبوه له ببركة الحج ولم تعلم العامة بخروجه فى ذلك اليوم فلم تقف للقائه والدعاء اليه كعادتهم فى مثل هذه المواكب * ثم سار من بركة الحج الى الخانقاه السرياقوسية قال بعض كتاب الاخبار ولما وضع رجله بالركاب يريد المسير تقدم اليه خير بيك بمفاتيح البلد فردها عليه وقال له وليتك اياها الى ان تموت بها فشاوره على أن أبناء الشراكسة يريدون الدخول فى خدمة الاجناد فأجابه الى ذلك فشاوره أيضا فى ابقاء أوقاف الشراكسة وهى نحو عشرة قراريط من أرض مصر فأجابه بابقائها على ما كانت عليه فأستاء وزيره وقال فنى مالنا وعسكرنا ونسلمهم بلادهم وندخلهم فى عسكرنا ونبقى أوقافهم يستعينون بها علينا * قال فغضب السلطان وقال أين الجلاد فضرب عنق الوزير ووضع رجله الثانية فى الركاب وسار * قلت ويقال ان لقتل الوزير المذكور سببا آخر * ولما نزل السلطان الخانقاه لاطفوه وسألوه عن سبب قتل الوزير فقال عاهدناهم

مطلب
خروج السلطان سليم من مصر الى مقر سلطنته بالقسطنطينية

على

على انهم ان ملكونا بلادهم أبقيناها لهم وجعلناهم عليها فهل يجمل بنا ان نخون العهد
واذا أدخلنا أبناءهم فى جندنا فهم مسلمون أولاد مسلمين واما أرضهم فأصلها ملك الفاتحين
ومنهم من أوقف ومنهم من قامت ذريته من بعده فهل يجوز لنا أن ننازع الملاك فى
أملاكهم وانما أزالت الوزير كراهة ان يغير علىّ اعتقادى بتكرار كلامه

وسار من الخانقاه يريد بلبيس فلما صار على مقربة منها أصابه مرض حال بينه وبين
ركوب دابته فأرسل الى الامير خير بك يطلب منه ان يجهل بارسال محفة فأرسلها
اليه فركبها وسار الى الشام لقتال ملك فارس فأقام هناك أشهرا وقد اشتدت به علته
فسار الى القسطنطينية فكانت مدة اقامته بمصر ثمانية أشهر الا أياما وكان من يوم
قتاله للسلطان الملك الاشرف قانصوه الغورى فى مرج دابق الى قيامه من القاهرة سنة
واحدة وشهر واحد وقد تملك فى هذه المدة من الفرات الى مصر والعراقين وما حولهما * قال
بعض كتاب الاخبار وكان دخول السلطان سليم بجيوشه الى مصر من أكبر الضربات على
البلاد وأهلها فقد هلك بسببه العدد العديد من الرجال والنساء والاطفال حتى الدواب
وتخرب الكثير من المساكن والشوارع والحارات وكسدت التجارة وتعطلت الصناعة حتى
بطل منها خمسون صنعة من أعظم الصنائع وأشرفها وزالت منها الخلافة كما زالت السلطنة
وأصبحت ايالة تابعة لدار السلطنة العثمانية

ولما ارتحل السلطان بعسكره الى القسطنطينية اشتد به المرض وظهرت فى ظهره قرحة
عظيمة عجز الاطباء عن علاجها فكانت توضع الدجاجة فى قرحته هذه فتذوب وشوهدت
معاليق أكباده من خلف وما زال يشتد به المرض حتى مات سنة ست وعشرين وتسعمائة
فكانت مدة سلطنته تسع سنين فتولى الملك بعده ولده السلطان سليمان

(الفصل الثانى)

(فى سلطنة السلطان سليمان ابن السلطان سليم)

ثم قام بالامر بعده ولده السلطان سليمان بويع له بالملك يوم موت أبيه سنة ست
وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة تسع عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وعمره يومئذ ست
وعشرون سنة فكان عاشر ملوك آل عثمان وكان يوم مات أبوه مقيما باقليم صارخان فأخفى
الوزراء خبر موت السلطان سليم حتى يحضر خوفا من قيام الانكشارية واضرام نار الفتنة
فلما جاءه الخبر بموت أبيه سار الى القسطنطينية فدخلها فى سادس عشر شوّال وكانت
طوائف الانكشارية فى انتظار قدومه فلما رأوه صاحوا بأصوات التهليل وطالبوه بالعطايا
حسب العادة فطيب خواطرهم ووعدهم بالاحسان وفى غد ذلك اليوم أغدق عليهم من إنعامه

وطير الخبر بخلافتـه الى الآفاق وراسل جميع العمال والولاة وأمراء مكة والمدينة فى أمر الحكم بين الناس بالعـدل فكان يستهل رسائله بآية * إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم

مطلب
نظر السلطان الى ترتيب الدواوين والمجالس وتنظيم الاحكام الشرعية وتقرير قاعدة لذلك بديار مصر

وعلم السلطان سليمان بما كان من اخلاص خيربك فى خدمة أبيه السلطان سليم فأعجبه ذلك ونظر الى مصر نظرة الراغب فى فلاحها فأخـذ فى تقرير أمورها على أحسـن القواعـد ورتب فيها ديوانين ينظران فى مصالح الرعية ويفصلان فى الخصومات فكان إذا انعقد هـذان الديوانان جلس الوالى خلف ستار المنبر ليسمع ماتدور عليـه رحى الحـديث بعـد أن يرسم الكتخدا والدفتردار بذلك فاذا تمت مباحثات المجلس رفع الكتخدا والدفـتردار ماسـتقر عليه الرأى الى الوالى فيرسم بتنفيذه بلا نقض ولا ابرام فيقضـيه الكتخدا مع الدفتردار * ويختص الديوان الكبير من هـذين الديوانين برؤية أهـم الامور التى لاعـلاقة لها بدار السلطنة العثمانيـة فكان لذلك يتألف من أغـوات الوجاقات الست والدفـترداريين والرزنامجيـين والنواب فى جميع وجاقات العساكر وأمير الحاج وقاضى القضاة والمشايخ والعلماء والاشراف وأصحاب الفتوى الأربعـة والأئمـة الاربعة * وكان لايجتمع الافى المهمات من الامور ولا يصح اجتماعـه الابناء على طلب الوالى وكانت تأتى اليـه المراسيم السلطانيـة على يد الوالى * وأما الديوان الثانى فكان ينعـقد كل يوم فى بيت الوالى من الكتخدا والدفـتردار والاغا وكبار وجاق المتفرقـة ونائب من كل وجاق فينظر فى الاعمال وما تحتاج اليه البلاد من الامور النافعـة * ورسم السلطان بأن يكون مقر الوالى بقلعـة الجبل وان لاتزيد ولايته عن سنة واحـدة ثم تعطى لغـيره ممن يقع الاختيـار عليه ورسم أيضا بابطال بعض المكوس والمغارم وأزال بعض العوائد والرسوم وهيأ الحصون ومهـد المسالك وزاد فى نظام الجند فأنشأ وجاقا سابعا ممـن بقى من المماليـك الشراكسـة ورتب لكل وجاق ديوانا ينظر فى شـؤنه ويتألف هـذا الديوان من كبار الوجاق وافراد من ضـباطه وكان لكل منهم لباس مخصوص وعلامة مخصوصـة تدل على مرتبته ووظيفته وكان عدد جنـد هـذه الوجاقات كلهـا عشرين ألفا وربما زادوا أو نقصوا وكان لوجاق الانكشارية الافضلية على سائر الوجاقات وكبيره مقدم على جميع كبارهم وله الكلمة النافذة عليهم فى كل حال وهم يجلونه ولا يخالفون له أمرا

مطلب
تقرير الامير خير بك على عمالة مصر وماجرى له

ولما أتم نظام الامور على ماأراد أقر خـير بك على عمالة البـلاد واجاز له التصرف فى الامور بما فيـه المصلحة وان يعـدل فى الرعيـة ولا يحدث شيأ من المغارم والمكوس فجعل خيربك يتصرف تصرف الملوك والسلاطين وبدت منه دلائل الجفاء والشدة * قال بعض كتاب الاخبار ثم لم يلبث ان طغى وظلم وأخذ الناس بالشـبهات وأساء الى طوائف الجند فأبغضوه وتربصوا به الشر فلما أحس منهم بذلك أخذ فى تدبير الحيلة وجمـع اليـه من بقى من طوائف المماليك الشراكسة وقربهم اليه وأدنى كبارهم منه وأباح لهم ركوب الخيل وحمل السـلاح وقد كان ذلك محرما عليهم منذ دخول السلطان سليم القاهرة بعسكره ورسم فنادوا بذلك فى

القاهرة

القاهرة ومصر القديمة وسوق السلاح وقلعة الجبل فشق هذا الامر على طوائف الجند وأحسوا بما وراء ذلك من الخيبة انهم ظلوا متقاعسين فقاموا قومة رجل واحد وسيروا طائفة منهم فوقفوا لخير بك فى حوش الديوان وكلموه فى ذلك وأغلظوا عليه فى القول ومنعوه من الدخول الى بيته وسبوه وهمّ بعضهم بقتله فأفلت منهم وانزوى فى بيته فعاثوا فى قلعة الجبل وأزعجوا من فيها وتطاولت أيديهم الى النهب وثاروا على خير الدين نائب القلعة وهموا بقتله فأغلق دونهم الابواب واختفى منهم فى ذلك اليوم فنزلوا الى المدينة وتفرقوا وهم حاقدون على خير بك ناقمون عليه واشتدوا على الرعية فصاروا يشوشون على جميع الخلق بلا فرق ولاتمييز حتى على السوقة والباعة وكانوا يأخذون مافى البيوت من الابواب والشبابيك وخشب الاسقف للوقود وكان اذا احتاج أحدهم الى وقود للحريق ذهب الى أقرب البيوت لبيته وأخذ منه مايحتاجه ليومه أوليومه وغده على مرأى من صاحب البيت حتى أخذوا جميع مافى الاماكن التى فى زقاق الكحل والسطاحى والتى فى الجسر وحكر الشامى والازبكية من الاخشاب وكانوا يبيعون مافضل منهم بأبخس الاثمان *قال بعض كتاب الاخبار فضج الناس وعجوا واجتمع أصحاب البيوت وتبعهم العامة وساروا الى بيت قاضى القضاة العثمانى وشكوا اليه من فعال أولئك الجند وصاحوا واستغاثوا وقالوا مايحل ذلك يامولانا فشق الامر على القاضى وركب من ساعته وسار الى بيت الامير قايتباى الدويدار وأخذه وسار الى خير بك بمقره وأعلماه بالخبر وأغلظ القاضى فى القول وهدد خير بك ان لم ينشط الى العمل فجمع خير بك كبار الجند واختيارية الوجاقات وكلمهم فى ذلك فطيبوا خاطره وهوّنوا عليه الامر وطلبوا منه ان يمنع فتح الحوانيت ليلا فأمر فنادوا بذلك فكانت السوقة تقفل الحوانيت قبل غروب الشمس

واتفق فى هذه الاثناء ان جاء رسول من دار السلطنة فى طلب بعض الامراء المصريين وعدد من العساكر الشاهانية يعنى الانكشارية والاصبهانية نجدة ففرح خير بك بذلك ونادى فى العسكر بالتأهب للرحيل فغضبوا وظنوها خدعة من خير بك وأبوا الرحيل وزادوا فى الافساد والاضرار بخلق الله فكانوا كلما أكثروا فيهم المناداة زادوا تمردا وطغيانا ثم خرج منهم جماعة الى الشرقية وآخرون الى الغربية فعاثوا وأفسدوا وأحرقوا الحرث والنسل وانضم منهم جماعة أيضا الى بعض العربان وقطعوا السبل على المارة واختفى منهم جماعة بالقاهرة ومصر القديمة فشدد خير بك فى التفتيش عليهم وقبض على جماعة منهم وسجنهم فى قلعة الجبل و رسم لرسول دار السلطنة بالتأهب للسفر معهم بلا ابطاء فلما كانت الليلة التى قبضوا فى نهارها عليهم اجتمع جميع الذين كانوا فى القلعة منهم بالحوش وكسروا باب القلعة ونزلوا منها ليلا الى مصر القديمة و ركبوا بعض السفن التى وجدوها هنالك وساروا الى الصعيد متفرقين فخشى خير بك شر العاقبة و رسم للامير قايتباى الدويدار بالخروج خلفهم بخيله ورجله وان يقتل كل من لقيه منهم فى الطريق بغير معاودة فقام قايتباى ومعه

الامير جانم الجزاوى والامير على العثمانى وعبروا النيل الى الجيزة فلبثوا بها يومهم حتى تكامل خروج عسكرهم ثم ساروا الى ناحية الميمون بالقرب من جزيرة عدى فالتقوا هنالك مع الانكشارية فقاتلوهم قتالا عنيفا وانتصر الامير قايتباى عليهم نصرة عظيمة وحرق مراكبهم وقتل منهم خلقا كثيرا بالمكاحل والبنادق وقبضوا على من بقى منهم وحزوا رؤس كبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وعادوا الى القاهرة ففرح خيربك بذلك ورسم لوالى القاهرة برفع تلك الرؤس على أبواب المدينة فلم يمكنه كبار الانكشارية من ذلك وكادت الفتنة تقوم بالقاهرة* وخاف من بقى من الانكشارية والاصبهانية وانكمشوا وأطاعوا وخرج منهم طائفة كبيرة مع رسول دار السلطنة الى الريدانية ثم رحلوا عنها بعد أيام الى الشام مع بعض الامراء المصريين الذين جاءهم الطلب فكانت هذه الوقعة أول فتن الانكشارية بعد أن تسلموا حراسة البلاد والذب عنها*ولما ظهرت الفتنة على النحو المذكور ضعفت شوكة خيربك وكادت هيبته تزول وطمع العربان فى البلاد وخرج حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة فى طائفة كبيرة من قومه وانضم الى جماعة من عربان الشرقية وغيرهم وعاثوا فى بلاد البحيرة وأفسدوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا وقطعوا السبل على المارة وسار بهم ابن مرعى المذكور يريد القاهرة ووردت الاخبار بذلك الى خيربك فاضطرب ونزل من قلعة الجبل الى الميدان وعرض جميع المماليك الشراكسة والعساكر العثمانية واختار منهم جماعة وسيرهم مع الامير قايتباى الدويدار والامير خورشد كبير العثمانيين وكانت الامور قد ضاقت جدا على أهالى الشرقية والغربية واتسع نطاق الفتنة واستفحل أمر الفساد وفعل أولئك الناس بالقرى مالا يطاق من الجور وظهر عبد الدائم بن بقر واخوته وهو من زعماء عربان الشرقية فعاث أيضا وأفسد وخرب بلادا كثيرة من الشرقية والغربية وعمت الفتنة البر والبحر فكبر خوف الامير خيربك وشدد على قايتباى الدويدار وخورشد بالقيام الى البحيرة أولا وقطع شأفة ابن مرعى وأصحابه فجدوا السير فلما أحس ابن مرعى بقدومهم وعلم أن لاقبل له على قتالهم أرسل أخاه شكرا الى الامير خيربك يطلب له الامان فكتب اليه خيربك يؤمنه وبعث اليه صورة يمين يحلفه على يدى القاضى فخر الدين بن عوض وأرسل اليه كذلك قفطان حرير مخمل وخلع على أخيه شكر خلعة أخرى وكتب الى الامير قايتباى أن يتربص بعساكره فتربصوا فى المكان الذى أدركهم فيه الخبر وجاء حسن بن مرعى صحبة القاضى فخر الدين بن عوض وصعد الى قلعة الجبل فأكرم خيربك لقاءه وخلع عليه خلعة سنية ثم أنزله فى موكب حافل وعادت الامور فى البحيرة والغربية الى سابق مجراها واطمأنت قلوب الرعية وتحول قايتباى بمن معه من العساكر نحو الشرقية فلما علم بقدومه عبد الدائم بن بقر زعيم العصاة بها أرسل الى خيربك يطلب الامان فأجابه الى ذلك وأرسل يستقدمه فحضر الى القاهرة ومعه جماعة من العربان وحضر معه أبوه أحمد بن بقر فلما مثل بين يدى خيربك أكرم لقاءه ولقاء أبيه وهم أن يخلع عليهما ويقرر عبد الدائم المذكور على شياخة عربان

الشرقية

الشرقية فقال أبوه ان أنت فعلت ذلك أيها الامير جلبت على أهل الشرقيــة و بالا ومكنت ولدى هــذا من رقاب الابرياء وزدت نار الفتنــة اضراما فعجب خــير بك بكلامــه وأمر فى الحال فقبضوا على عبــد الدائم وكبلوه بالحــديد وقبضوا على جميع من جاؤا معــه من أصحابه وسلموهم الى خــير الدين بك نائب القلعــة ففــرح الناس بذلك فرحا لا يوصف لاسيما أهــل الشرقيــة والغربية واطمأنت قلوب الخلق و زالت عنهم المخاوف ثم بعد أيام قلائل أخرجوا من أولئك العربان عدة أشخاص وأماتوهم شنقا بعضهم على قنطرة الحاجب وبعضهم على رأس الحسينية وبعضهم عند باب النصر وقتلوا آخرين بغير ذلك أيضا *وأما حسن بن مرعى شيخ عربان الغربيــة فانه بعــد ان خلع عليه خلعة الرضا وأعاده الى الغربيــة معززا لم يلبث بها الا قليلا حتى دس خيربك الى اينال السيفى طراباى كاشف الغربية بأن يقتله مع أخيه شكر فأخذ اينال المذكور يكاتب ابن مرعى و يتودد اليــه ويظهر له غاية الاخلاص والمودة حتى أمن جانبه ومال اليه ثم أدب له مأدبة عظيمة فى بلدة قريبة من دمنهور ودعاه اليها مع أخيه شكر فأجابا دعوته وأتيا اليــه فأحسن لقاءهما و بالغ فى الترحيب بهــما حتى حضر الطعام فأكلوا جميعا ثم انتقلوا الى مجلس الشراب فشربوا فبينماهم كذلك اذ خرج على حســن وأخيه جماعة من المماليك الشراكسة من مكان كانوا مختفين به وعاجلوهما بضرب السيوف واحتزوا رأسيهما فأرسل بهما اينال الكاشف الى خيربك ففرح ورسم لوالى القاهرة برفعهما على باب النصر فرفعهما وتزاحم النــاس لمشاهــدتهما *قال بعض كتاب الاخبار وحســن ابن مرعى هــذا هو الذى غدر بالسلطان الملك الاشرف طومان باى وقبض عليه وسلمــه الى السلطان سليم واتفق انه لما سار حسن المذكور الى مأدبة الكاشف اينال السيفى كان راكبا على فرس السلطان الملك الاشرف التى كان أخــذها يوم سلمه الى جنــد السلطان سليم بعد أن أقسم انه لا يخونه ولا يدس عليه فلما احتز المماليك رأســه ورأس أخيه شكر ربطوهما فى عنق ذلك الفــرس ودخلوا بهما القاهرة على هــذه الصورة فعد ذلك من النوادر العجيبة فى بابها

وفرح خــير بك بموت ابن مرعى وعده من أكبر أســباب الظفر وبث العيون والارصاد حول جماعة العربان فى البحيرة والغربية والشرقية وشدد فى ذلك فانكمشوا وخافوا وتمكن كاشف المنوفيــة من قتل شيخ العرب على الاسمر بن أبى الشوارب فاختفى من بقى من كبار العربان وأصحاب الكلمة فيهــم وسلكت بعض الطرق التى قطعها العربان واطمأنت قلوب الناس ولكن لم تطل هذه الايام حتى عاد عربان السوالم الى الخروج بالشرقية وكاد يستفحل أمرهم وعاد الناس الى التخوف فاعمــل اياس كاشف الشرقيــة الحيلة للقبض على مشايخهم وما زال يتقرب منهــم ويتودد اليهم حتى اســتدعاهم الى مأدبة أعدها لهم فركــنوا اليه واطمأنت من قبله قلوبهم وأتوا اليه فأكرم لقاءهم وأحسن وفادتهم ولم يقضوا معــه يومهم حتى قبض عليهم وقتلهم وسلخ جلودهم وحشاها بالتبن وأرســل يعلم الامير خــير بك بالخبر

فسير اليه خير بك طائفة من الانكشارية والاصبهانية والجراكسة فأحاطوا بمنازل عربان السوالم وقتلوا من وجدوه بها من الشيوخ والنساء والاطفال وغنموا مافيها من الخيل والابل والاغنام والاماء والعبيد والملبوس والمفروش وقبضوا على الشيخ نجم شيخ عربان العائد لاتهامه بامداد عرب السوالم وأتوا برؤس من قتلوا مع جلود المشايخ الى القاهرة فتفرق من بقي وطلع جماعة الى الجبال * ونزل جماعة الى الصالحية فأحرقوها وأحرقوا ماجاورها من القرى والكفور وقتلوا ونهبوا أخذا بالثار واشتدت الفتنة وعمت جميع انحاء الشرقية فولى خير بك اخا نجم شيخ عربان العائد شيخا بدل أخيه نجم وجهز لقتال السوالم طائفة من الانكشارية والاصبهانية وأخرى من المماليك الشراكسة وطائفة من الرماة بالبنادق وبعض المكاحل وكان لما قبضوا على نجم شيخ عربان العائد قام أيضا اصحابه وعاثوا فى بلاد الشرقية وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وانحدروا حتى أتوا على رأس المطرية فكانوا يقبضون على المارة ويسلبون مايجدونه معهم فلما وصلت العساكر الى الشرقية هرب من بقي من السوالم وأطاع من كبارهم من لم يهرب وسلموا بأنفسهم الى اياس كاشف الشرقية فنزل بهم الى القاهرة ودخل بهم على الامير خير بك فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضا وأقرهم على المشيخة بشرط الطاعة وحسن الولاء والاخلاص فى خدمة الدولة فأطاعوا

ورسم خير بك بشنق شيخ العرب أبو الشوارب فشنق ومعه آخرون من كبار العربان ثم عاد فعفا عن نجم شيخ العائد وأفرج عنه وولاه المشيخة ثانية وأطلق آخرين من كبار السوالم وكان الحامل له على ذلك ماورد اليه من الاخبار بخروج جان بردى الغزالى والى الشام عن طاعة السلطان واستقلاله بملك الشام واتخاذه لنفسه شعار السلطنة وانه قد خضع له جميع الولاة والعمال وقبلوا الارض بين يديه وزينت له جميع المدن والبلدان أياما ثلاثة فلقب نفسه بالملك الاشرف أبي الفتوح وكتب الى جميع الولاة يستحثهم على تجنيد الجند واعداد آلات الحرب لقتال خير بك بمصر وأخذ البلاد منه وضمها الى الشام كما كانت على عهد من سلف من الملوك والسلاطين * وكان الحامل له على قتال خير بك انه لما هم بالخروج وشق عصا طاعة السلطان راسل خير بك فى ذلك وحبب اليه الخروج وألح عليه فى الطلب وهون عليه الامر فخدعه خير بك وسير كتب الغزالى الى السلطان وعلم الغزالى بخبر ذلك فأكبره وأعظمه جدا وتجرد لقتال خير بك فخاف خير بك من هذه الاخبار وخشى سوء العاقبة فاطلق لذلك من أطلقهم من مشايخ وكبار العربان الذين كانوا فى السجون وعاهدهم وأمدهم بالاسلحة والكراع ورسم لهم بقتال جان بردى الغزالى فى طريقه قبل أن يصل الى الديار المصرية فخرج منهم جماعة وساروا الى الشام لمنع الغزالى ولومه وكان الغزالى قد جمع اليه جموعا كثيرة من الاكراد وعربان جبل حوران ونابلس وعربان بنى عطا وبنى عطية وغيرهم من طوائف العربان وخرج من دمشق فى جيش عظيم للغاية وجموع كثيرة جدا يريد الديار المصرية فاهتم الامير خير بك لذلك وعرض العساكر والاجناد وجمع

مطلب
خروج الغزالى والى الشام عن طاعة السلطان وعزمه على الزحف على مصر وضمها الى الشام

طوائف الانكشارية والاصبهانية والكمالية المماليك الشراكسة وغيرهم ممن شاء الدخول في خدمة الدولة وجماعة كثيرة من المغاربة والروم أصحاب الحرف والصنائع وأكثر من جمع السلاح وانشاء المركبات والعجلات لجر المكاحل ونادى في هذه الجموع والاجناد بالتأهب والاستعداد

وبينما كان خيربك يجند الجنود ويكثر من جمع السلاح كانت رسل الغزالي تأتي الى مصر بالرسائل الى بعض الامراء من الروم وبعض التجار والجواسيس تنقل من أخبار خيربك الى الغزالي كل ماوصلوا الى معرفته فأحس خيربك بذلك وشدد ومنع من دخول الاغراب الى القاهرة الابعد البحث والتنقيب عن أحوالهم وقبض على بعض الروم من تجار خان الخليلي وأمر بقتلهم فقتلوا تحت قلعة الجبل بتهمة نقل الاخبار وكان من أمره أنه اذا نقل اليه أن أحد الناس مهما كانت درجته ذكر الغزالي في مجلس أو تكلم عن زحفه على ديار مصر أو عن استقلاله بملك الشام أمر بصلبه على أحد أبواب القاهرة ثم أمر بالقاء جثته للكلاب فتنهشها فخاف الناس جدا وانكمشوا وقل خروجهم الى الاسواق وجلوسهم على الحوانيت *وجاءت الاخبار بوصول طلائع لموم الغزالي الى اقطيا فجرد خيربك لقتالهم طائفة من الاصبهانية وأخرى من الكمالية فساروا من الريدانية الى بلبيس ومنها الى الصالحية فافسدوا في طريقهم وعاثوا ونهبوا الكثير من الضياع وعلى الخصوص ما كان منها حول بلبيس والصالحية وأخذوا مافيها من الشعير والسمن والطيور وأذاقوا أهل البلاد مرارة الجور وانقطع الوارد من الديار الشامية وسدت المسالك في وجوه أصحاب التجارة فانكفوا وانقطعت العلائق مع أهل الشام وكتب خيربك بتحرير الخبر الى دار السلطنة فاهتم السلطان بأمر الغزالي وجند لقتاله الجنود وسيرها على قدم السرعة ومقدمها الوزير فرحات باشا فلاقته العساكر السلطانية عند حلب الشهباء وكان الغزالي محاصرا لها فقاتلته قتالا عنيفا أياما كثيرة ثم انتصرت عليه ومزقت شمل جنوده ففر وسار بريد الشام وقد كسر جسر الرستين فتبعته العساكر السلطانية وقاتلته خارج دمشق قتالا شديدا أياما مات فيه خلق كثير قيل عشرة آلاف وقيل أكثر من ذلك وضيق عليه العساكر السلطانية وسدوا عليه المسالك حتى قبضوا عليه وقتلوه ذبحا كذبح الشاة وأخذوا رأسه مع رؤس كثير من كبار قومه وأرسلوها الى دار السلطنة *قال بعض الكتاب وكان الغزالي هذا من مماليك الاشرف قايتباي اشتراه وأعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك السلطانية ثم استخدمه الامير تغري بردي الاستادار شادا على ضيعة له بالشرقية يقال لها منية غزال فنسب اليها وقيل له جان بردي الغزالي مضافا لاسم تلك الضيعة ثم ان الاشرف قايتباي قرره جمدارا وجعله في كشف الشرقية ثم صار أمير عشرة في آخر دولة الناصر محمد بن قايتباي ثم تولى محتسبا للقاهرة في دولة السلطان الغوري ثم ولاه في حجوبية الحجاب بمدينة حلب فخرج اليها من يومه ثم نقله السلطان الملك الغوري الى نيابة صفد وذلك سنة سبع عشرة وتسعمائة ثم الى

مطلب
قتل الغزالي وارسال رأسه الى دار السلطنة

نيابة حماة فلبث بها حتى كان ما كان بين الغورى والسلطان سليم فانضم الغزالى بعسكره الى جيوش السلطان سليم فولاه السلطان سليم الشام وجعل له التحدّث على الشام وحماة وحمص وصيدا وبيروت و بيت المقدس ورملة والكرك وغير ذلك من الاعمال الشامية فلما استقر به هذا المنصب تاقت نفسه الى الاستقلال بملك الشام فصار يجند الجنود ويكثر من المعدات وآلات الحرب وضم اليه الكثير من عربان حوران ونابلس والكرك وغيرهم واستمال كثيرا من المماليك الجراكسة ممن كانوا فى خدمة الدولة فى مصر فساروا اليه ولحقوا بعسكره ولحق به أيضا كثير من الاكراد والتركمان ومازال حتى بلغت جنوده اثنى عشر ألف مقاتل و بينهم كثير من الرماة بالبنادق فزحف بهم يريد فتح المدن والامصار وألبس نفسه شعار السلطنة وتلقب بالملك الاشرف أبى الفتوح وضرب السكة باسمه وخطب له على المنابر فى دمشق وغيرها من المدن قيل خطب له بدمشق جمعتين * وكان طائشا عديم الرأى غير بصير بعواقب الامور كثير الاخذ بالشبهات كبير البطش وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وسبعة أشهر الا أياما ولقد صدق من قال

والنفس لاتنتهى عن نيل مرتبة * حتى تروم الذى من دونه العطب

ولما جاءت الاخبار بزوال ملك الغزالى وسقوطه فى قبضة العساكر السلطانية وقتله فرح الامير خيربك فرحا عظيما اذ لم يكن عنده من الجنود ومعدات القتال مايقوى معه على مبارزة جموع الغزالى وجيوشه المنظمة لاسيما وقد كانت الفتنة ضاربة بين كبار جند خيربك و رؤساء عسكره وكان كلما أخرج طائفة وسيرها لقتال الخوارج عاثت فى البلاد وأهلكت الحرث والنسل وفعلت مالاتفعله جنود العدو اذا احتلت البلاد عنوة وكان يخاف جدا من طوائف المماليك الشراكسه حيث تحقق له أن بعض كبارهم مالوا عنه وانضموا الى دعوة الغزالى وانهم يراقبون الفرص ويتأهبون للخروج عند أول سبب * وعادت المواصلات التجارية مابين مصر والشام بعد موت الغزالى وجاءت قوافل التجارة باصناف البضائع على اختلافها وزالت وحشة الناس وسكنت خواطرهم بعد الخوف و زاد اطمئنانهم بوصول الاخبار من دار السلطنة بان السلطان سليمان أجاز لمن كان أحضرهم أبوه من الامراء المصريين والقضاة ونواب القضاة والشهود والعدول والمعتبرين والتجار وأرباب الحرف والصنائع من المصريين يوم خروجه من مصر بعد فتحها أن يعودوا الى أوطانهم فلم تكن الا أيام بعد ذلك حتى حضر منهم من لم تخترمه المنية قال بعض كتاب الاخبار وقد ذاقوا الذل ألوانا وأصبح الاعيان والمباشرون منهم لايملكون شروى نقير حيث نفدت أموالهم * وجاءت أيضا خاتون سلطانة عمة السلطان سليمان ومعها ولدها الامير مصطفى تريد الحج الى بيت الله الحرام وكان حضورها فى كبكبة زائدة وخدم وحشم وكثير من الخصيان فقوبلت بغاية الاحتفاء والاحتفال وسار الامير خيربك وجميع الامراء وكبار المماليك فى ركابها حتى نزلت فى بيت مطل على بركة

الفيل

الفيل و رتبت لها وخدمها المآكل والمشارب ووقف على بابها بعض الحجاب وزارها نساء الامراء وقدمن لها التحف والهدايا النفيسة فلما خرج المحمل خرجت مرافقة له فى هودج وامامه الخدم والحشم وبالغ أمير الحاج فى تنظيم الركب وسير امامه المركبات وعليها المكاحل والمدافع النحاس وأنفقت السلطانة فى الحرمين أموالا عظيمة وشيأ كثيرا من الاقمشة والغلال وتصدقت على الفقراء ونزلاء التكايا وكثر فى هذا الحين افساد الانكشارية والاصبهانية بأسباب عدم صرف جماكيهم وتأخير مرتباتهم فنزعوا الى الثورة وتعرضوا لخيربك فى طريقه وتحت القلعة وخاطبوه ببذئ القول وفحش الكلام وأقسموا أنهم ينهبون المدينة إن هو أصر على ايقاف صرف جماكيهم ومرتباتهم ووقف جماعة منهم على أبواب الامراء يهددونهم ان لم يكلموا خيربك فى ذلك فكلموه وحذروه شر العاقبة فصرف لهم بعض المال على قدر الحاجة واعتذر بقلة ذات اليد وعجز المباشرين عن جباية الاموال وتعذر البيع والشراء وكساد الحال وبوار الكثير من المزارع وتشرد أصحابها بسبب فعال العساكر وعبثهم بالبلاد ثم شدد على المباشرين وطالبهم بالمال فانبثوا فى البلاد وطلبوا قسط الخراج معجلا قبل وفاء النيل وزرع الاراضى وضيقوا على أهل البلاد وبالغوا فى التشديد وقد كان متحصل خراج مصر فى هذه الدولة أى دولة السلطان سليمان على ماقاله بعض الكتاب ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ذهبا ومن الغلال ستمائة ألف اردب منها ثلثمائة ألف قمحا وثلثمائة ألف شعيرا وفولا وغير ذلك فى كل سنة ﴿قلت﴾ وكان خراج مصر على عهد المقوقس عظيم القبطة على مارواه تقى الدين فى خططه مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار وكانت مساحة أرضها على عهد الفراعنة مائة ألف ألف فدان وثمانين ألف ألف فدان تزرع غير البور وبلغ خراج مصر على عهد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى السرح فى صدر الاسلام اثنى عشر ألف ألف دينار وفى أيام أحمد بن طولون أربعة آلاف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار غير مايتحصل من المكوس والغلال * وجبى خراجها فى الدولة الاخشيدية فكان ألفى ألف ألف دينار وجبى خراجها فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فكان اثنى عشر ألف ألف دينار ﴿قلت﴾ وهو اليوم عشرة آلاف ألف ألف وخمسمائة ألف وبضع مئات ذهبا أى جنيها * وكانت جوامك ومرتبات العساكر فى ذلك الحين درجات بعضها فوق بعض فكانت جمكية الاصبهانية منهم ستين دينارا وخمسين وأربعين وثلاثين وعشرين فى كل شهر والانكشارية مابين خمسة عشر واثنى عشر دينارا فى كل شهر والصوباشية ثلاثين دينارا فى كل شهر والكمالية مابين اثنى عشر وعشرة دنانير فى كل شهر والمماليك الشراكسة سبعة دنانير فى كل شهر هذا عدا مرتبات الامراء وكبار الجند وعظمائهم وكانت هذه الجوامك والمرتبات لاتصرف الامن خراج الشرقية والغربية والبحيرة والاقاليم القبلية فقط دون الاموال الخارجة من الثغور كثغر الاسكندرية ودمياط ورشيد والبرلس وعبدة

مطلب
كم كان خراج مصر فى دولة السلطان سليمان وما بعده إلى هذا الحين

وغيرها فانها كانت تحمل الى خزائن السلطان مباشرة فلا يأخذ الوالى منها شيأ حتى ولا للجهاد والغزو وكانت أيضا بعض المغارم والمكوس تحمل كذلك الى خزينة السلطان فلا يأخذ الوالى منها شيأ وسرى ذلك الى ما كان مقررا على الرزق والاقطاعات والارزاق الاحباسية والاوقاف وترك الاموات من طوائف الترك والمماليك الشراكسة ثم تعدى ذلك أيضا الى ما كان مقررا لنواب القضاة والشهود على عقود الانكحة فقيدوا به قاضيا مخصوصا اسمه القسام فضرب على عقد البكر ستين نصفا والثيب ثلاثين نصفا كانت تحمل الى الخزينة السلطانية

مطلب
إبطال السلطان سليمان لقضاة المذاهب الاربعة

ولما كانت سنة ثمان وعشرين وتسعمائة رسم السلطان سليمن بابطال قضاة المذاهب الاربعة من التصرف فى القضاء بديار مصر وتسليم جميع الاحكام الشرعية لقاض واحد من قضاة الروم وان تبطل وظائف سائر النواب والشهود وأن لا يبقى سوى أربعة من النواب لكل مذهب نائب لاغير ولكل نائب منهم اثنان من الشهود لاغير وانهم يكونون جميعا بالمدرسة الصالحية فلا يصح بعد ذلك لاحد أن يوقف وقفا أو يعقد عقدا أو يكتب وصية أو عتقا أو اجارة أو حجة أو غير ذلك من الامور الشرعية حتى تعرض على قاضى العسكر المذكور ونودى فى القاهرة ومصر القديمة بذلك فاضطربت أحوال الناس كافة وانكمش جميع القضاة والنواب والشهود وصاروا يتوقعون حضور قاضى العسكر المذكور فى كل يوم فلما كان يوم الاثنين عاشر رجب من السنة أى سنة ثمان وعشرين وتسعمائة قدم الى القاهرة القاضى المذكور واسمه سيدى چلبى فاوكبوا له موكبا حافلا وساروا به حتى أنزلوه فى بيت الامير جانم مصيفة الكائن خلف المدرسة الغورية فلما استقر به المقام قدم عليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة المالكى محيى الدين الدميرى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى وكان قاضى قضاة الحنفى مريضا فى هذا الحين فلم يحضر قال بعض كتاب الاخبار فلما دخلوا عليه لم يجلهم ولم يقم لقدومهم وكان شيخا مسنا أبيض اللحية طويل القامة على عينه سحابة فصيح اللسان يحسن العربية جيدا فكلمهم ساعة ثم انصرفوا فلما كان اليوم الثانى نزل الامير خيربك من قلعة الجبل الى الميدان وجلس بالمصطبة وجلس معه الامراء العثمانيون والامير قايتباى الداودار ثم حضر القاضى المشار اليه وبين يديه المرسوم السلطانى فقرئ المرسوم بحضرة من ذكروا وهو يتضمن تسليم زمام جميع الاحكام الشرعية فى المذاهب الاربعة اليه وأن يكون القائم على جميع الامور الشرعية على اختلافها ثم كان منه بعد ذلك ان رتب جميع الامور التى تتعلق بالاحكام والقضاة فاقام قاضيا للحنفية من الروم يحكم بالنيابة عنه وجعل مقره بالمدرسة الصالحية وأقام آخر للحكم على مذهب الامام الشافعى بالنيابة عنه وأقام لكل قاض من الروم نائبا من قضاة مصر فجعل القاضى شهاب الدين بن شيرين الحنفى نائبا عن القاضى صلاح الدين العثمانى وجعل القاضى شمس الدين محمد الحلبى الشافعى نائبا عن القاضى فتح الله العثمانى وجعل القاضى أبا الفتح الوفائى أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه

والمرجع

مطلب
ماتقرر من الرسوم على التركات لبيت المال وما أحدث من الاحداثات

والمرجع فى جميع الاحكام الى قاضى العسكر المشار اليه ثم رسم بأن لايبقى مع كل نائب من هؤلاء الاربعة سوى شاهدين اثنين وأبطل سائر النواب والشهود ورسم للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية بأنهم اذا وقفوا امامه يأخذون بأيديهم العصى فاجتمع منهم بالمدرسة زهاء الستين ثم أقام أيضا شخصا من الروم للتحدث على التركات سماه ((القسام)) فضرب على كل تركة الخمس لبيت المال مع وجود الورثة من الذكور والاناث وشدد فى طلب ذلك ونودى فى القاهرة ومصر القديمة بذلك وبأن لايعقد أحد من الشهود قاطبة عقدا ولايكتب وصية ولا اجارة ولا مبايعة ولا شيأ من الامور الشرعية الا فى المدرسة الصالحية وشدد فى السير على مقتضى الشريعة والعمل بموجب السنة وعامل الغنى والفقير والجليل والحقير على السواء فهابه الناس كافة وخافه الامراء والكبراء حتى اذا كان لاحد من العامة فى ذمة أحدهم شئ بادر الى ارضائه وتلطف فى معاملته خوفا من الشكوى *ورسم فنادوا فى القاهرة ومصر القديمة بأن لاتخرج امرأة الى الاسواق الا العجائز منهن ومن خالفت تضرب وتربط من شعرها بذنب اكديش ويطاف بها فى القاهرة ومصر فخاف النساء خوفا عظيما وانكمشن ولم يخرجن *واتفق انه صعد الى قلعة الجبل يوما فوجد بعض النسوة يتحدثن مع جماعة من العسكر الاصبهانية فى وسط السوق فعز عليه هذا الامر وكلم الامير خيربك فى ذلك فرسم الامير خيربك بأن لاتخرج امرأة من بيتها ولا تركب على حمار مكارى وكل مكارى أركب امرأة شنق من يومه فخاف المكارية وبارت حرفتهم فباعوا حميرهم قاطبة واشتروا بدلها أكاديش وشدوها فصارت النساء يركبن عليها وتحتهن الطنافس والمكارى يقود لجام الاكديش كما يفعل المكارية بالقسطنطينية *ورسم القاضى أيضا بمسح أطيان الاقاليم القبلية وترتيب سائر الرزق الاحباسية على قاعدة نظمها هو لذلك وقيد بهذا العمل القاضى فخر الدين ابن عوض فسار الى الصعيد ومعه جماعات المساحين والقياسين وطوائف الكتاب والمباشرين فجعل يدخل كل مايجده من أطيان الرزق الاحباسية فى المساحة العمومية وحبس غلاتها ومنع أصحابها من أخذ شئ منها فاضطربت أحوال أصحابها ووقفوا الى الامير خيربك فى طريقه يشكون له مما يفعله القاضى فخر الدين بن عوض وأبرز اليه بعضهم مكاتيبهم بتلك الرزق وبعضهم أبرز مبعاتهم فأخذها منهم وصرفهم خائبين ورسم بادخال رزقهم فى أطيان الذخيرة قال بعض أهل التاريخ ولم يكن ليتعرض لهذه الرزق قط أحد من سلاطين مصر ولا أخرج منها شيأ عن أصحابها منذ أنشأها الامام الليث بن سعد فانه هو الذى دون الاحباس وأنشأ لها فى أيامه ديوانا يختص بها دون ديوان الجيش واستمر ذلك باقيا بعد الامام الليث حتى قام القاضى فخر الدين بن عوض المذكور فنقضه وهو على جهات البر والاحسان

قلت ومن هذا الحين زالت ولاية الاحكام الشرعية أيضا عن قضاة مصر الاربعة كزوال الخلافة والسلطنة عنها وآلت الى قضاة الروم يتناوبها الواحد بعد الواحد فيولى ويعزل من القضاة والنواب والشهود من يشاء وقد تبدلت هيئتها وزالت رسومها القديمة وخرجت

من طور الى آخر وضاقت حدودها الا على من أجازهم قاضى العسكر المشار اليه بتولى الاحكام وبطل من هذا الحين أيضا جلوس الشهود على الحوانيت للفصل فى الخصومات لاسيما ما كان منها بين المتزوجين وزوجاتهم ومن كان منهم له حانوت لذلك أغلقه وزالت عن أولئك القضاة والشهود والنواب بهجتهم ورونق وظيفتهم وصارت المدرسة الصالحية دار الشريعة ومقر المتحدثين عليها دون بقية الجهات ولبث القاضى المشار اليه على هذا الحال من الشدة وعدم التهاون حتى بصغائر الامور مدة والناس فى قلق واضطراب عظيمين يضجون ويعجون الى الله تعالى بزوال منصبه واذهاب سلطته * فلما كان السادس والعشرون من شعبان خرج القاضى المشار اليه يريد الحج من طريق القلزم فركب وركب معه الى تربة العادل مودعا الامير خيربك وبقية الامراء من العثمانيين والشراكسة وكبار الجند وقدموا له بعض التقادم والهدايا النفيسة فسار الى مدينة بلبيس ثم الى السويس ومنها الى مدينة جدة ففرح الناس بخروجه وكانت النساء أشد فرحا وأكبر سرورا فغنت بعض المغنيات منهن بهذه الكلمات

مطلب خروج قاضى القضاة إلى الحج

قوموا بنا نقحب ونسكر * قد خرج عنا قاضى العسكر

فكانت عند العامة من أطرب المغانى وأحسنها توقيعا وأكثرها استعادة واستحسانا وأعمها تداولا على ألسنة الكبار والصغار * ومرض الامير خيربك فى هذه الاثناء مرضا شديدا فانقطع عن الخروج ولازم الفراش أياما واشتد به المرض شدة بالغة فأعتق جميع جواريه وعبيده ومماليكه وأمر بأن يتصدق من ماله على العلماء والفقهاء وأولاد المكاتب وأصحاب المزارات والمنقطعين من ذوى البيوتات ففرقوا شيأ كثيرا من المال ومن القمح نحو عشرة آلاف إردب وأكثرت نساؤه وجواريه من التصدق والاحسان لعل الله تعالى يشفيه وأمر بأن يخرجوا مراسيم للقاضى فخر الدين بن عوض بالافراج عن الرزق الاحباسية لاصحابها ويردها اليهم وقد كان ماضبط منها وأدخل الى الديوان السلطانى ألف رزقة وثمانمائة رزقة فأفرج عنها لاصحابها وأعاد لهم أيضا مكاتيب الرزق الجيشية التى كان أخرجها عنهم يوسف بن الجاكية ثم رسم باطلاق المحابيس من الرجال والنساء وكانوا كثيرين فلم يغن عنه هذا شيأ واشتدت به علته فاستقدم اليه الامير سنان بك العثمانى ودفع اليه الخاتم الذى سلمه اليه السلطان سليم يوم ولاه عمالة الديار المصرية وأعلمه بأن فى خزائنه من المال ستمائة ألف دينار ذهبا عينا خلاف ماهو فى بيت المال * فلما كان يوم الاحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة مات خيربك المذكور فاجتمع جميع الامراء وبينهم الامير سنان بك وتولوا غسله ودفنه فى موكب حافل للغاية واستقر الامير سنان بالقلعة يريد التصرف فى الامور حتى يأتيه مرسوم السلطان فعارضه فى ذلك خير الدين نائب القلعة ومنعه من التصرف حتى يأتى مرسوم السلطان فأبرز الامير سنان مرسوما

مطلب موت الامير خيربك

سلطانيا

سلطانيا يتضمن جواز تصرفه اذا مات خيربك حتى يأتى الفرمان بما يستقر عليه الرأى وقيل كان الخلاف على التصرف بين الامير سنان المذكور وبين الامير خضر أحد كبار أمراء العثمانيين فلما أبرز الامير سنان المرسوم السلطانى لم يبق بينهما من موجب للخلاف واستقر الامير سنان بالقلعة وأخذ من يومه يتصرف فعرض مافى بيت المال من الاموال فوجد لخيربك بينها ستمائة ألف دينار ذهبا عينا وكثيرا من الذخائر والتحف والنفائس والاقمشة البعيدة النوال مما لايكاد يدخل تحت الحصر

وكان الامير خيربك هذا من مماليك الاشرف قايتباى وهو شركسى الجنس أباظيا وكان اسم أبيه ملباى الشركسى ولهذا كان يدعى خيربك ملباى الى الاشرف قايتباى وكان له أخوان أحدهما اسمه خضر ولم يعش طويلا ومات والثانى اسمه جان بلاط وكان مقدم ألف وله شهرة مات فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى وكان موته بالطاعون وأقام خيربك المذكور بالطباق وصار فى عداد مماليك الطباق السلطانية فأخرج له السلطان خيلا وقماشا وأدخله فى عداد الجدارية ثم الخاصكية وصار داودار سكين ثم صار فى سنة احدى وتسعمائة أمير عشرة فى دولة الملك الناصر محمد بن الاشرف قايتباى وبعث به رسولا الى دار السلطنة العثمانية فى مهمة فى سنة ثلاث وتسعمائة ثم صار مقدم ألف فى دولة الاشرف جان بلاط وخرج مع من خرج من العساكر والاجناد الى الديار الشامية فلما وصلها حجر عليه فى دمشق فلما حضر العادل الى مصر أرسل بالافراج عنه واستقدمه فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف وأقره على ما كان عليه فلما تولى السلطنة الملك الاشرف الغورى جعله حاجب الحجاب فلبث بها حتى تولى نيابة حلب فى سنة عشر وتسعمائة وما زال بها حتى زحف السلطان سليم على الديار الشامية يريد ملك مصر فجرى منه ماجرى من الانضمام بجيوشه الى جيوش السلطان سليم كما فعل الغزالى وكان من أمر توليته على نيابة مصر ماتقدم بيانه فاستمر على النيابة الى ان مات فى يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة فكانت مدة نيابته خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما بما فى ذلك مدة انقطاعه عن المحاكمات * وكان جبارا عنيدا سفاكا للدماء كثير الاخذ بالشبهات طاغية قتل فى أيامه مالايحصى من الخلائق ظلما فلما جاء الخبر بموته الى السلطان سليمن وهو على حصار رودس ولى الامير الوزير مصطفى باشا وكان صدر الوزراء العثمانيين وزوج أخت السلطان سليمن فحضر الى الاسكندرية وجاءت الاخبار بوصوله اليها فنادوا بذلك فى القاهرة ومصر القديمة

مطلب ولاية الوزير مصطفى باشا

فلما كان يوم الاربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل الى ساحل بولاق فنزل للقائه الامير سنان وخير الدين نائب القلعة والامير خضر وجميع الامراء وكبار الجند وجميع الانكشارية والاصبهانية والكمالية والشراكسة وقابلوه ثم أركبوه على فرس وعليه الخلعة السلطانية وسارت امامه العساكر والاجناد قاطبة والاعيان والمقدمون فدخل من باب

البحر وسار الى باب القنطرة فمر من سوق مرجوش ثم من القاهرة وكان الامير سنان على يمينه والامير جانم الحمزاوى على يساره والامير خير الدين والامير خضر امامه فارتفعت له الاصوات من العامة بالدعاء وكان أبيض اللون عربى الوجه أشقر الشارب بين حليق اللحية معتدل القامة عليه حشمة ووقار وما زال فى موكبه حتى مرّ من الرميلة ودخل من الميدان وصعد الى قلعة الجبل * قال بعض كتّاب الاخبار تولى مصطفى باشا نيابة مصر وهو فى ركاب السلطان سليمن على حصار رودس يوم السبت خامس ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ودخل مدينة الاسكندرية فى التاسع عشر من ذى الحجة فكانت مدة ولايته مذ تقررت برودس أربعة عشر يوما وكانت مدة حضوره من الاسكندرية الى ساحل بولاق أربعة أيام فدخل فى يوم الاربعاء ثالث عشرى ذى الحجة فتكون مدة ولايته من حين ولى برودس الى ان دخل الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما اه ولما استقر به المقام بالقلعة تحول عنها الامير سنان ونزل الى داره بدرب ابن البابا فكانت مدة نيابته بالقاهرة ثمانية وثلاثين يوما وفى ثانى يوم نزل مصطفى باشا الى الميدان واجتمع جميع الامراء والاكابر والاعيان والقضاة والعلماء وقرئ عليهم المرسوم السلطانى القاضى بولايته ثم أخذ يتصرف وجلس للناس عامة فترادفت عليه القصص بحوائج الناس وأخذ فى تدبير الامور فأبطل نظام القلعة القديم الذى كان على عهد من سبق من الملوك وأبطل البوابين والركابة والبوابية والسوّاس والفراشين وغلمان السلطان قاطبة والمقرئين والمؤذنين وغير معالم ذلك النظام ورسومه وتصرف فى الحواصل السلطانية والاشوان وبيت المال كما يحب ويختار وجمع اليه أعيان المباشرين وكلمهم فى أمر الخراج فشرعوا فى تحصيله ورتبوا له ولمماليكه خاصة وحاشيته وبطانته ثمانية آلاف دينار ذهبا فى كل شهر يقومون بدفعها نقرة فكان اذا تأخر المباشرون فى شئ من هذا المال المقرر فى أجله ضيق عليهم وشدد وبالغ فى الوعيد فتنبث أعوانهم فى البلاد يضيقون على أهلها ويشددون فى الطلب ويأخذون كل ماوصلت اليه أيديهم من الماشية والغلال ويبيعونها بأبخس الاثمان قياما بأداء تلك النفقة فى آجالها فاشتد بسبب ذلك الكرب على الفلاحين وأصحاب الزروعات وعم الخطب ونزح الكثير من أهالى الاقاليم القبلية الى الاقاليم البحرية وأهالى الاقاليم البحرية الى القبلية وأهملت الارض فرارا من المطالب المتتابعة فبارت وقل الوارد من الغلال الى مصر وبولاق فارتفعت الاسعار وشكى الناس من هذا الحال وضجوا وابتهلوا الى الله فلم تطل مدة ولايته وجاء الخبر بعزله وولاية أحمد باشا ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وانكف المباشرون عن التضييق على أهالى البلاد فى جباية الاموال فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر ويومان

مطلب
إبطال نظام قلعة الجبل القديم

ولما جاء الخبر بوصول أحمد باشا المذكور الى بولاق نزل الامراء وكبار الدولة والعلماء والقضاة وأصحاب العكاكيز للقائه فركب فى أبهة وكبكبة عظيمة وصعد الى قلعة الجبل

مطلب
ولاية أحمد باشا

وامر

وأمر فقرئ فرمان التولية فى محفل حافل * قيل وكان السبب فى توليته هو أنه لما جلس السلطان سليمن على تخت السلطنة العثمانية صادف وزير أبيه وهو محمد باشا الصديق فأقره على الصدارة وكان محمد باشا هذا كبير السن بطىء الحركة فى قيامه وقعوده وتصرفه فرأى عجزه عن القيام باعباء هذه الرئاسة فأنزل نفسه وولى مكانه ابراهيم باشا المعروف بأودة باشا وكان أقدم من ابراهيم باشا فى الخدمة آخر هو أحمد باشا وكان يؤمل ان الصدارة لاتفوته الى غيره من بقية الامراء فزاحم ابراهيم باشا المذكور وجلس بقوة قربه من السلطان فشكاه ابراهيم باشا الى السلطان فدبر فى ازالته وولاه مصر ليستجلب خاطره فلما تولاها وأخذ يتصرف فى أمورها جعل ابراهيم باشا الصدر يتعقبه للعداوة السابقة و يرميه بما يوجب قتله ومازال بالسلطان حتى أبرز الامر لجماعة المرابطين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه فى محله ثم يولوا أحدهم مكانه حتى يرد عليهم الامر بولاية خلافه وأرسلت الاحكام بذلك الى الامراء بمصر * قال بعض أصحاب الاخبار فوقع الامر فى يد أحمد باشا المذكور قبل أن يصل الى الامراء فخاف وجعل يضرب اخماسا فى أسداس حتى سولت له نفسه العصيان والخروج عن طاعة السلطان وان يقاتل بجيش يجمعه من مصر فأبدى الخروج وادعى السلطنة وضرب السكة باسمه على الدنانير والدراهم وتحصن بقلعة الجبل وقبض على الامير وهب جانم الحزاوى والأمير محمود بك وسجنهما يريد قتلهما ولبث الحال هكذا أياما اختل فيها نظام القاهرة وظهرت الغوغاء وانقطعت السبل وأغلقت الحوانيت نهارا وعاث أهل الفساد فسرقوا ونهبوا وفعلوا مالا خير فيه

واتفق ان دخل أحمد باشا المذكور الحمام يوما للغسل فعلم الحزاوى والامير محمود بك بذلك فكسرا الابواب وخرجا ورفعا صنجقا سلطانيا ونادبا من أطاع الله ورسوله والسلطان فليقف تحت الصنجق فوقف تحت الصنجق خلق كثير وجم غفير فساروا وسار امامهم الحزاوى ومحمود بك الى الحمام فكبسا الحمام على أحمد باشا وكان قد حلق نصف رأسه وأعجله على حلق النصف الثانى هجوم أصحاب الحزاوى فهرب الى سطح الحمام وتسلق من مكان الى مكان فنهبوا جميع ماعنده من سلاح ومتاع واقتفوا أثره فأدركوه بمنية جناح بالغربية فقتلوه وذلك فى أخريات سنة ثلاثين وتسعمائة واحتزوا رأسه وجىء به فعلقوه على باب زويلة ثم بعثوا به الى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه بمصر سنة واحدة لاغير لم يأت فيها بعمل يذكر فيشكر

مطلب
ولاية قسام جزل باشا وخلعه وولاية إبراهيم باشا

وقد تولى بعده قسام جزل باشا فدخل القاهرة فى السنة المذكورة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وامامه أرباب الوظائف وطوائف الجند من المشاة والفرسان وعليه خلعة التشريف السلطانية فلم يكد يستقر به المنصب حتى جاء الامر بخلعه وولاية ابراهيم باشا فنزل من القلعة فى المحرم افتتاح سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ولم يلبث إلا أياما حتى جاء إبراهيم باشا الوالى المذكور ودخل القاهرة فى كبكبة عظيمة وصعد إلى قلعة الجبل ثم نزل فى ثانى يوم وجلس على المصطبة بالميدان وبين يديه جميع الامراء والقضاة والعلماء والمباشرين

وأصحاب الوظائف فتلى فرمان التولية ورفعت إليه القصص فى ذلك اليوم فنظر فى مصالح الخلق وكان عاقلا ذكيا محبا للخير * واهتم السلطان سلمين فى أيامه بترتيب أمور الديار المصرية فأجاز لطوائف المماليك الشراكسة الذين أقرهم والده على خدمة الدولة أن يتولوا رتبة الباشوية عند الحاجة وضم إليهم اثنى عشر أميرا فكان من يصح انتخابهم الى هذه المرتبة العظيمة الكيخيا وقباطين ثغور السويس ودمياط والاسكندرية وأمير الخزينة السلطانية والدفتردار وأمير الحج وصناجق الشرقية والغربية وجرجا والبحيرة * وكان لدار السلطنة اهتمام عظيم وعناية كبرى بالثغور الثلاثة المذكورة لانها أبواب البلاد فكان الجند المرابطون فيها يقدمون من دار السلطنة مع القباطين فيقيمون سنة ثم يستبدلون بآخرين وهكذا فى كل سنة فكان مرابطو الثغور المذكورون غير محسوبين فى عداد العسكر المصرى وكانهم أجانب عنه

مطلب ولاية سليمان باشا الخادم وفيما رسم به السلطان من مساحة أطيان سائر البلاد وجعلها ملكا للسلطان

ولم تطل مدة إبراهيم باشا فقد جاء الامر بعزله فرحل عن مصر فى شعبان سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سبعة أشهر وتولى بعده سلمين باشا الخادم فدخل القاهرة فى تاسع شعبان من السنة وجعل يتصرف فى الامور فرسم فى أيامه السلطان سلمين بمساحة جميع قرى مصر وضبط أراضيها على يدى الامير كيوان وربط خراجها على من كان يستغلها فطاف المساحون البلاد ومسحوها وقسموها إلى أحواض سموها بالقراريط وأحكموا عملهم فزاد الخراج زيادة عظيمة وجباه الولاة فكان بعد ذلك شيأ كثيرا *ورسم بأنه هو صاحب جميع أرض مصر ومالكها يعطيها لمن يشاء ويمنعها ممن يشاء فكان يقطعها لطائفة من الاهالى يعرفون بالملتزمين فكانوا يتصرفون فى الارض تصرف الملاك مابين هبة واسقاط وايقاف وغير ذلك وكان أصحاب الارض الذين هم ملاكها من أهل البلاد يحرثونها ويفلحونها لاولئك الملتزمين ولا يأخذون من غلاتها الا بقدر الحاجة ولا يتصرفون فيها مع توريثها لاعقابهم من بعدهم وكان لايحل لاحدهم ترك مابيده من الارض أو التخلى عن تعهدها بالحرث والزرع بل كان يجبر على ذلك ويضرب ويقوم بدفع ماعليها من الخراج الى أولئك الملتزمين فاذا مات الفلاح ولم يعقب نسلا أعطيت أرضه للملتزم وهو يعهد بحراثتها لمن يشاء فاذا مات الملتزم ولم يعقب وارثا انحل التزامه وعاد الى ملك السلطان وكان اذا تأخر الفلاح والملتزم فى دفع الخراج أخذت منهما الارض وسلمت لغيرهما ليقوم بما عليها فى آجاله وبعد ان أتم مساحة جميع الاطيان سموها من هذا الحين أطيانا سلطانية ورزقا وأوقافا واقطاعات وغير ذلك وكتب بها دفاتر محررة ووضعت بديوان مصر المحروسة وتسمى دفاتر ترابيع سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ولم تلبث ان أحرقت ثم جددت وقيل بل أهملت ولم تجدد

وكان سلمين باشا المذكور ميالا للخير يحب انشاء المبانى العظيمة والآثار الفاخرة فعمر جامعا بقلعة الجبل وآخر ببولاق القاهرة وبجواره وكايل وأسواق وربوع وغير ذلك ثم

ورد

ورد عليه مرسوم السلطان سليمان بالتوجه الى اليمن فكانت مدة تصرفه بديار مصر تسع سنين واحد عشر شهرا وستة أيام فتولى بعده خسرو باشا ودخل القاهرة فى عشرى رمضان سنة احدى وأربعين وتسعمائة وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر وعمر صهريجا بين القصرين بالقاهرة وتصرف الى سادس جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر وستة أيام وعزل ثم عاد سليمن باشا الخادم الى ولاية البلاد عند عوده من اليمن فى حادى عشر رجب سنة ثلاث وأربعين فتصرف الى حادى عشر المحرم سنة خمس وأربعين وكانت ولايته الثانية سنة واحدة وخمسة أشهر وواحدا وعشرين يوما * وكان حسن التدبير عظيم السياسة واسع الرأى مطاعا محبوبا ثم عزل وتولى بعده داود باشا فدخل القاهرة فى سابع المحرم سنة خمس وأربعين وتسعمائة وجلس للناس على المصطبة بالميدان فرفعت اليه القصص فنظر فى مصالح الخلق وجعل يتصرف مع الكياسة والعدل وكان كريما مهيبا محبا للعلوم والعلماء كلفا بالمطالعة واقتناء كتب العرب وقد جمع منها شيأ كثيرا واستنسخ كل ماظفر به منها وسعدت فى ولايته البلاد واطمأنت الرعية وساد الأمن وسلكت السبل وبنى فى ولايته مدرسة عظيمة بسويقة صفية اللالة بالقاهرة ووقف لها أوقافا وهى باقية الى الآن وتصرف الى ثالث عشر ربيع الاول سنة خمس وخمسين وتسعمائة فكانت مدة ولايته احدى عشرة سنة وشهرا واحدا وعشرين يوما وتوفى بالقاهرة ودفن بالقرافة وكانت أيامه كلها بركة واسعادا وتولى بعده مصطفى باشا صفصفان فوصل القاهرة فى الخامس من ربيع الاول سنة ست وخمسين وتسعمائة وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ولم يقع فى أيامه شئ يذكر فتصرف الى شهر رجب من السنة المذكورة وعزل فكانت ولايته أربعة شهور ونصف شهر وتولى بعده على باشا فى خامس شعبان سنة ست وخمسين وتسعمائة وتصرف الى غاية المحرم سنة احدى وستين وتسعمائة وعزل فكانت مدته أربع سنين وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما وكان على باشا هذا وقورا معززا محبوبا من الرعية شفوقا عليها بعيدا عن العسف والظلم ميالا الى انشاء العمائر العظيمة والآثار النافعة فشاد منها فى رشيد والقاهرة وفوه وحذا حذوه الامراء والكبراء ففعلوا كذلك بمصر والقاهرة وغيرهما من المدن * ولما انصرف عن ولاية مصر عاد الى دار السلطنة فجعل يتقلب فى الوظائف العالية والمناصب الرفيعة حتى بلغ مسند الصدارة فدبر الامور وسار سيرة حسنة للغاية فأحبه الناس ومالت اليه القلوب وتولى بعده على مصر محمد باشا المعروف بدوفتركين زاده ودخل القاهرة فى أوائل صفر سنة احدى وستين وتسعمائة فلما جاء الخبر بوصوله الى بولاق نزل الامراء والعلماء والقضاة للقائه فصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ثم تحجب عن الناس وزاد فى التحجب وكان فظا غليظا جبارا عنيدا فأساء التصرف وعبث بالامور وأكثر من المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم فكثر الوشاة على أبوابه وأخذ بالشبهات فكرهه الناس كافة وأبغضه الامراء

مطلب
ولاية خسرو باشا وخلعه ورجوع سليمان باشا إلى الولاية ثانية

مطلب
ولاية داود باشا

مطلب
ولاية مصطفى باشا صفصفان وخلعه وولاية على باشا

مطلب
ولاية محمد باشا المعروف بدوفتركين زاده

مطلب ولاية اسكندر باشا

وأعرضوا عنه ثم خلع فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وشهرين وتسعة عشر يوما وتولى بعده اسكندر باشا فدخل القاهرة فى جمادى الاولى سنة ثلاث وستين وتسعمائة فتصرف الى غاية رجب سنة ست وستين فكانت ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثمانية أيام وكان شهما حازما حسن التدبير والسياسة وقورا مهيبا عمر فى ولايته المدرسة التى بباب الخلق المطلة على الخليج الناصرى وهى من أفخر المبانى وأتقنها وعمر تكية تجاهها وسبيلا بجوار المدرسة فعمل له بعض الشعراء تاريخا نصه رحم الله من دنا وشرب سنة ٩٦٦

مطلب ولاية علي باشا الخادم وخلعه وولاية شاهين باشا

ووقف على ذلك أوقافا جليلة ولما خلع تولى بعده على باشا الخادم فدخل القاهرة فى سابع عشر شعبان سنة ست وستين وتسعمائة فتصرف الى سادس عشر صفر سنة ثمان وستين فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر * وتولى بعده شاهين باشا فدخل القاهرة فى ثانى ربيع الاول سنة ثمان وستين وأخذ يتصرف فى الامور فكان رجلا جليل القدر حسن السياسة والتدبير وما زال حتى عزل فى غاية جمادى الآخرة سنة احدى وسبعين وتسعمائة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر

مطلب ولاية على باشا الصوفى

*وتولى بعده على باشا الصوفى فدخل القاهرة فى أول رجب سنة احدى وسبعين وتسعمائة ولاقاه الامراء والعلماء والقضاة وأصحاب الوظائف وصعدوا به الى قلعة الجبل فلم يجلس للناس كعادة الامراء والولاة وتحجب ثم لم يلبث ان تجبر وظلم وكان قبل حضوره الى مصر واليا على بغداد وكان له فيها أحوال غريبة وأحكام جائرة فأبغضه الناس وشكوا منه وضجوا وعجوا فعزل عنها وأتى به الى مصر وكثر عسفه فكثر الفساد فى البلاد وارتفع الامن وعاث اللصوص فنهبوا وسلبوا بغير ممانع وأحاط قطاع الطرق بضواحى مصر والقاهرة فانكمش الناس وانكفوا عن الخروج خارج السور وضجوا وشكوا الى على باشا المذكور فلم يلتفت لشكواهم وكأنه كان يقاسم أهل الفساد فيما يسرقونه فبلغت الجراءة بالغوغاء والحرافيش مبلغها وقامت طائفة من الفداوية فأوقدوا النار فى المدينة طمعا فى النهب فسرى الحريق الى الجامع الابيض واشتدت النيران وعلا اللهيب وكثر النهب والسلب وخرجت النساء والاطفال والشيوخ من الديار هائمين على وجوههم فرارا من فعال الفداوية وما زالت النار تعمل فى جميع ماوصلت اليه حتى كادت تدمر جميع المساكن والوكائل وغيرها وكلم الامراء على باشا المذكور فى أمر اللصوص وفيما آلت اليه حالة المدينة من الخراب فلم يلتفت لقولهم فرأوا أن يقيموا سورا من قنطرة الحاجب الى الجامع الابيض ليمنعوا البلد من تطاول أيدى اللصوص اليها فأقاموه ووكلوا به من يحرسه فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر قليلا وما زال على باشا المذكور يتصرف بالجور والظلم

مطلب فى سبب إقامة السور من قنطرة الحاجب إلى الجامع الابيض

مطلب ولاية محمد على باشا المعروف بالمقتول

حتى خلع وتولى بعده محمد على باشا المعروف بالمقتول فقدم من دار السلطنة فى كبكبة عظيمة فكان كلما مر ببلد من الاسكندرية الى القاهرة قدمت له التحف والهدايا ومدت له الموائد وبالغ الناس فى تعظيمه واجلاله فرحا بخلاصهم من ظلم الصوفى وجوره * فلما دخل القاهرة

لاقاه بجميع الامراء والعلماء والقضاة والمباشرين وأصحاب الوظائف العاليـة والامير محمـد بن عمرمتولى الاقاليم القبلية يومئـذ وقدم له عدة هدايا نفيسة للغاية وخمسـين ألف دينار نقرة فأجـله محمـدعلى باشا المذكور وأدناه من مجلسـه وقد طمع فيـه فلما استأذنه بالانصراف وخرج من مجلسه أمر فقبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه خنقا فاندهش النـاس من ذلك جدا وأخذتهم الطيرةوسأل عن قاضى القضاة يومئذالشيخ يوسف العبادى فقيل له إنه لم يحضر فرسم باحضاره فاحضروه فلما مثل بين يديه أمر بخنقه وهو يستغيث وليس من يغيثه ثم تحجب عن الناس أياما ثم ظهـر وبث العيون والجواسيس بين الامراء وأرباب الدولة فزاد عسفه وأخذه للناس بالشبهات وأ كثر من القتل واراقة الدماء وبالغ فى اذلال الرعية والتنكيل بالامراء وكان لايسير فى المدينة الاومعه الشوباصى وهو كبير الجلادين فاذا مر بأحـد وأراد قتله أشار بيده الى الشوباصى المذكور فينزع حالا رأسه عن جسده ويهـدر دمه على الفور فانكمش الناس وزاد خوفهـم وضجوا الى الله وابتهلوا بالدعاء وزاد سخطهم عليـه وتواردت قصص الامراء بمصر على دار السلطنة مستغيثين من عسف محمد على باشا المذكور وظلمـه للرعيـة فلم يلتفت السلطان اليهم لاشـتغاله يومئذ بفتح جزيرة مالطـا الـتى كانت الى هـذا الحين مقر رهبنة القديس يوحنا الاورشليمى وإعداد سفن الحرب ومراكب النقل اللازمـة لذلك لانه لما اتسعت أملاك السلطنة العثمانية وبسطت يدها على الكثير من سواحل البحر الابيض المتوسط وكانت جزيرة مالطاواقعة بين اقليم تونس وجنوبى ايطاليا وكان لمن يملكها اليد الطولى على البحر المـذكور عمـد السلطان سليمن الى فتحها وسير الى ذلك مائتى سفينة حربية فحاصروها حصارا تاما وضيقوا عليها تضييقا شديدا وواصلوا الرمى عليهـا بالمكاحـل وداموا على هذا الحال أربعة أشهر مات فى خلالها الامير طرغول أمـير تلك العمـارة العظيمة وكانت الفرنجة تسميه دراجوت ومع كل ذلك لم ينالوا منهـا وجاء الشـتاء وكثرت الزوابـع وارتفعت أمواج البحـر فارتفع عنهـا الحصار وعادت العمارة الى القسطنطينيـة فعاد الامراء بمصر الى الاسـتغاثة بالسلطان من شر محمـد على باشا الوالى وأ كثروا من رفع الظـلامات وترادف القصص فلم ينالوا منه شيأ لخروجه فى جيش عظيم فى سـنة ثلاث وسبعين وتسعمـائة لصـد هجمات النمسا عن بلاد المجر اذ كانت له السيادة عليها الى هـذا الحين وبينما هو فى الطريق بلغه أن صاحب سكدوار إحدى مدائن بلاد المجر التى يقال لها أيضا زيجت قد ظفر ببعض الجيوش العثمانية التى كانت تقاتل فى تلك الاصقاع فسار الى قتاله وحاصر المدينة المذكورة وشدد عليها حتى أخذ جميع معاقلها الامامية فاخلى عساكرها المـدينة وتحصنوا بقلعتها فلم تفتر للسلطان همـة فى قتالهم واشـتد فى القتـال وقد نهكه التعب فمرض وثقل عليه المرض فلما كان العشرون من صفر سنة أربع وسبعين وتسعمـائة اشتد عليه مرضه ومات فاخـفى وزيره خبر موته تحاشيا من وقوع الفشل فى العسكر وسير الى ولده الامـير سليم بكوتاهيـة يعلمه بخبر موت أبيه ويحثه على الحضور الى القسطنطينية ليتولى منصب السلطنة ولم يكتف

الوزير عن القتال مع من تحصنوا بقلعة سكدوار ووالى الهجوم عليها وما زال بها حتى احتلتها العساكر العثمانية عنوة فهرب من كان بها من الاعداء فلم يستقر بها مقام العساكر العثمانية حتى انخسفت بهم أرض القلعة وسقط جميع بنائها عليهم جميعا فماتوا تحت الردم وذلك أن العدو كان قد دبر هذه المكيدة بان عمل عدة الغام تحت بناء القلعة فلما دخلتها العساكر واستقروا بها أشعل العدو تلك الالغام فانخسفت أرض القلعة وتهدم جميع بنائها وهلك جميع من دخلها ولما تم النصر للعساكر السلطانية على هذه الكيفية طير الوزير خبره الى الآفاق وسير الرسائل بخاتم السلطان كى لا يعلم أحد بخبر موته ثم عاد الى القسطنطينية مع من بقى من العساكر ومعهم جثة السلطان فوجد أن الامير سليم قد حضر وقبض على زمام الامور وأخذ يتصرف فى أعمال المملكة * قال أصحاب التاريخ ولم تكن ولاية العهد قد أتت اليه بالارشدية أو الاستحقاق بل بدسيسة أمه روكسلان احدى حظيات السلطان وقتل السلطان لولده الارشد الامير مصطفى وابنه الثانى الامير بايزيد مع أولاد بايزيد الخمسة * وتحرير الخبر * أنه كان للسلطان سليمن حظية مجهولة النسب تسمى روكسلان وكان يحبها حبا شديدا فولدت له من الذكور الامير سليمان وابنتين وكانت تتمنى أن يكون الملك لابنها بعد موته ولكنها كانت تخفى ذلك عن السلطان وتراقب من الفرص أنفعها فلما مات اياس باشا صدر الدولة سعت روكسلان المذكورة لدى السلطان فى تولية رستم باشا منصب الصدارة وكان بينها وبين رستم المذكور كلام فى أمر مبايعة ولدها بالملك بعد أبيه فولاه السلطان الصدارة وأدناه منه كثيرا وزوجه بابنته من روكسلان هذه فزاد تعلق روكسلان به ووعد هو الى ارضائها بتمهيد الطريق لتولى ابنها الملك بعد أبيه فلما انتشبت الحرب بين الدولة ومملكة فارس سير السلطان الامير مصطفى أكبر أولاده على رأس جيش الى ساحة القتال وكان محبوبا عند طوائف الانكشارية لحسن سياسته ومعرفته بفنون الحرب والقتال وبسالته وإقدامه فأبلى فى الفرس بلاء حسنا وظهرت شجاعته فازداد حب طوائف الانكشارية له ومالت قلوبهم جميعا اليه فانتهز رستم باشا هذه الفرصة وكتب الى السلطان يخوفه من ولده ويقول إنه عامل على الخروج وشق عصا الطاعة مع طوائف الانكشارية وعزل السلطان وتوليه هو منصب السلطنة كما فعل السلطان سليم الاول بأبيه بايزيد فأكبر السلطان هذا الخبر واستعظمه وكاد لا يصدقه وأهمه للغاية فأنست منه روكسلان الحيرة والاضطراب فسألته عن سبب ذلك فاخبرها بخبر ولده مصطفى وما قاله رستم باشا فاظهرت غاية الخوف والانزعاج وأخذت تقبح له فعال الامير وترميه بالخيانة والغدر وتحذره من عاقبة التهاون بهذه المكيدة ومازالت به حتى التهب قلبه غيظا وقام فى طائفة من عسكره يريد بلاد فارس وطير الخبر بانه انما قام ليتولى قيادة هذه الغزوة فلما اقترب من المعسكر خرج ولده مصطفى وجميع الامراء وكبار الجند للقائه وساروا فى ركابه حتى أنزلوه فى سرادقه وفرح ولده مصطفى بقدومه فرحا عظيما فلما كان الثانى عشر من شوال سنة ٩٦٠

هجرية استدعى السلطان ولده مصطفى الى سرادقه ليكلمه فى أمر القتال مع الفرس فدخل عليه وهو فى لباسه المعتاد فلم يكد يصل الى أبيه حتى قبض عليه جماعة من الخدم وقتلوه خنقا وهو يصيح ويستغيث بأبيه حتى مات وأبوه ينظر اليه ثم نقلوا جثته الى مدينة بروسة فدفنت فى تربة أجداده * قالوا ولم تكتف روكسلان بقتل الأمير مصطفى بل أرسلت أيضا الى مدينة بروسة بعض خواصها فقتلوا ابنه الرضيع وشاع هذا الامر بين الناس فاستعظموه وانحرفت خواطرهم عن السلطان وبكى الأمير مصطفى أهل العلم والادب ورثاه الشعراء ولم يخشوا بأس أبيه فقال بعضهم فى ذلك

يادهر ويحك ماأبقيت لى جلدا * وأنت والد سوء تأكل الولدا

وثار طوائف الانكشارية على السلطان وطلبوا قتل رستم باشا المذكور وهاجوا وماجوا حتى كادت الفتنة تعم فرسم السلطان بخلعه وولى مكانه أحمد باشا تسكينا للفتنة واسترضاء لطوائف الانكشارية وكان للامير مصطفى أخ اسمه الامير جهانكير فحزن على أخيه حزنا عظيما جدا وبكاه بكاء شديدا للغاية حتى مات كمدا عليه بعد قليل من الأيام وقيل بل قتل نفسه امام أبيه بعد ان وبخه وأنبه على قتل أخيه فلم يبق بعد موته من أولاد السلطان سوى الامير بايزيد والامير سليم بن روكسلان *وكان للأمير بايزيد مرب اسمه لاله مصطفى فولاه السلطان النظر على بيت الامير سليم بعد روكسلان امه فأحبه الامير سليم وقربه منه وأعلمه بما كان يخشاه من مزاحمة بايزيد له فى الملك بعد أبيه وطلب منه أن يعمل على هلاك بايزيد وأولاده ليخلو له الجو فهون عليه لاله مصطفى الامر ومناه بالفوز وجعل يستعمل الحيلة فكتب الى بايزيد يوما يقول ان أخاك سليما منهمك فى اللذات غافل عن واجب السلطنة وما هو مفروض على أبناء الملوك فضلا عما هو عليه من الطيش وعدم الاهلية لمنصب الخلافة ومع ذلك فان أباك أبى إلا مبايعته بولاية العهد من بعده فهل لك فى هذا الامر رغبة *وتعددت بينهما الرسائل وركن الامير بايزيد الى لاله مصطفى وأمن جانبه فكاشفه بما فى نفسه ولم يخف عنه أمرا ثم كتب الامير بايزيد الى أخيه سليم يوما يعيب فعال أبيه ويرميه بالجفاء وغلظة الطبع ويسمه بالقسوة وفقدان الحنو الأبوى فأشار لاله مصطفى على الامير سليم باعطاء تلك المكاتبة لابيه فلما اطلع السلطان على ما بها مما يمس كرامته غضب غضبا شديدا وزاده غضبا وشاية لاله مصطفى بالامير بايزيد فسير الى بايزيد يقول له اذا أتاك كتابى هذا تحول من قونية الى اماسية وكان واليا على قونية فخاف بايزيد من ذلك وظن ان أباه انما يضمر له الشر فامتنع من الذهاب الى اماسية وجيش له جيشا عظيما وتحصن فى قونية فسير اليه أبوه جيشا ومقدمه الوزير محمد باشا الملقب صقللى فالتقى الجيشان عند قونية واقتتلا قتالا عنيفا مدة ثلاثة أيام كانت فيها الحرب سجالا ثم انكشف القتال عن هزيمة بايزيد وفراره الى مدينة اماسية فلحقته عساكر أبيه فرحل عنها الى بلاد فارس ولجأ هو وأولاده الى طهماسب ملك فارس فقبله وأكرم مثواه ولكنه سير الى السلطان سليمن خفية يعلمه بخبره فارسل السلطان

سليمن رسلا فى طلبه فسلمه اليهم طهماسب مع أولاده ولم يرع ذمتهم فأمر بهم السلطان فقتلوا جميعا فى مدينة قزوين احدى مدائن فارس ونقلت جثثهم الى مدينة سيواس وخنقوا طفلا كان لبايزيد بمدينة بورسة ودفنوه مع أبيه واخوته بسيواس * قال أصحاب التاريخ فكانت هذه الامور الشنعاء نقطة سوداء فى تاريخ حياة السلطان سليمن وكادت تذهب بجميع حسناته وشهرة غزواته وكثرة فتوحاته ادراج الرياح مع أنه كان ملكا جليل القدر واسع الكلمة عارفا بفنون الحرب وأساليب السياسة محبا للخيرات وافر الصدقات * قال بعضهم ومن آثاره الجيدة السحابة الكبرى بطريق الحج ولها أوقاف كثيرة يشترى من ريعها فى كل عام جمال لحمل الفقراء والمنقطعين والعواجز والماء والزاد وغير ذلك ومقرر بها من المغاربة أربعون نفرا ومن المطاوعة أربعون نفرا (يريدبهم العسكر) ذهابا وايابا مات فكانت خلافته نحوا من تسع وأربعين سنة وله من العمر أربع وسبعون سنة قضاها كلها فى الغزو والفتوحات

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد ان أقام أربع عشرة سنة وفى أيام سليمان المذكور اشتد الولاة على قبطة مصر وضيقوا عليهم وعملوا على تبعيدهم عن أوطانهم فبعدوا منهم خلقا من العظماء والوجهاء وخيار الناس ثم صادروا من بقى وأفحشوا فى تخريب بيوتهم وتبديد أرزاقهم فكانت شدة عظيمة للغاية وبعد موت مرقس المذكور أقيم يوحنا وهو خامس ثمانيهم وأصله من الشام فأقام ست سنين ومات فأقام المتأصلون بعده غبريال وهو سادس ثمانيهم وكان راهبا من دير المحرق فأقام ثمان سنين ومات فأقيم بعده متاووس وهو سابع ثمانيهم وكان راهبا بدير المحرق فأقام ثلاثين سنة ومات وكان عالما تقيا عاقلا محبا للخير معينا للفقراء كثير التصدق ولم تكن أيامه أقل شدة من أيام سلفه فقد ذاقت فيها النصرانية من البلايا والمحن اشكالا وبموته أقام المتأصلون غبريال وهو ثامن ثمانيهم وكان راهبا بدير القلامون ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله وبموت السلطان سليمن كما تقدم القول تولى السلطنة بعده ولده السلطان سليم الثانى

الفصل الثالث

(فى سلطنة السلطان سليم الثانى)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليمن ولده السلطان سليم الثانى بويع بالملك تاسع ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة هجرية أى سنة ست وستين وخمسمائة وألف ميلادية وعمره ست وأربعون سنة ولم يمض الا ثلاثة أيام على بيعته حتى سار فى جيش عظيم الى

نجدة العساكر الذين كانوا يقاتلون بناحية سكدوار فلما وصل الى ناحية سردم لاقاه الوزير محمد باشا وكان هو القائد لجيوش تلك الغزوة فاعلمه بما يعانيه العسكر من البرد وسقوط الثلج وكان الوقت وقت شتاء وأعلمه بمنعة قلعة سكدوار ووجوب عودهم الى الاوطان حتى ينقضى الشتاء وأشار عليه أن يتربص ناحية سردم حتى يأتى اليه بجميع الجند والامراء المحاصرين للقلعة فلبث السلطان سليم أياما حتى اجتمع العسكر وساروا فى ركابه الى دار السلطنة * ووردت الاخبار الى مصر بسلطنة السلطان سليم فزينت المدينة ثلاثة أيام وأطلقت البشائر وفرح الناس بولايته وتقوت آمالهم بالخلاص من مظالم محمد على باشا واستعباده لهم فرفع الامراء وكبار الرعية والعلماء والمباشرون عندئذ ظلامتهم الى دار السلطنة واستغاثوا وضجوا فورد مرسوم السلطان الى محمد باشا المذكور باجراء العدل فى الرعية والرفق بالناس والنهى عن الجور وكان قد تزايد جوره وأخذه للناس بالشبهات فالخش فى القتل والسلب وتتبع العورات فلم يرعو ولم تأخذه آخذة من الخوف فعادوا الى الشكوى وعظموا للسلطان البلوى ولبثوا ينتظرون ماسيكون بعد ذلك * واتفق فى هذه الغضون موت الامير ابراهيم بك الدفتردار الذى كان متوليا امارة الحج فاستولى محمد باشا المذكور على خزائنه ومماليكه وجواريه وكل ماله وجملة ذلك مائة ألف دينار ذهبا فضمها الى خزانة السلطان التى يبعث بها فى كل عام من مصر وأرسل معها أيضا شيأ كثيرا من الهدايا والتحف التى لامثيل لها هدية منه للسلطان ورجال الدولة استجلابا لخواطرهم فلم يكن بعد ذلك من يسمع للمصريين شكوى ودامت الحال على ذلك مدة * فلما كان يوم الاربعاء غاية جمادى الاولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة خرج محمد باشا المذكور فى كبكبة وحوله طائفة من أعوانه ومر من جهة الناصرية يريد مصر القديمة فلما صار على مقربة من حائط هنالك أطلقت عليه بندقة من خلف الحائط فأصاب رصاصها صدره فسقط عن فرسه فهاج لذلك أعوانه وبحثوا عن القاتل فلم يعثروا له على أثر واتفق فى هذه الاثناء ان مر رجلان من الفلاحين بالقرب من موضع الحادثة فقبضوا عليهما واتهموهما بالفعل وقتلوهما ظلما وقيل انه قتل فى يوم الاحد تاسع عشرى شهر جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة أشهر وعشرين يوما وفرح الناس بموته فرحا ماعليه من مزيد فقال فيه بعض الشعراء

موت محمود حياة * فيه للعالم رحمه
قتله بالنار نور * وهو فى التاريخ ظلمه

سنة ٩٧٥ هجرية

وقال بعضهم أيضا

أتى محمود باشا يوم نحس * فساقته منيته غصيبه
تجاه الناصرية خلف حيط * بغيظ جاءه منه مصيبه
ببندقة رماه كف رام * فخر رها لجاءته مصيبه

مطلب
ولاية سنان باشا

فلما وصل خبر موته الى دار السلطنة أرسل للولاية بعده سنان باشا فدخل القاهرة في ثالث عشري شعبان سنة خمس وسبعين وتسعمائة وكان قبل مجيئه واليا على حلب فلم تستقر به الولاية على مصر حتى ورد عليه مرسوم السلطان بالقيام الى فتح اليمن واسترجاعها من الزيديين وكانوا قد خرجوا ثانية وشقوا عصا الطاعة فسار من القاهرة في الرابع من شوال سنة ست وسبعين فكانت مدة تصرفه في مصر نحوا من تسعة أشهر وسار معه من الامراء المصريين حمزة بك وعماي بك وغيرهما من الصناجق قيل وكان استصحابه لهؤلاء الصناجق لامر نسبوه اليه وهو قتل محمد باشا الوالي السابق * وأقام سنان باشا المذكور يقاتل اليمانيين سنتين وأربعة أشهر حتى يسر الله له الفتح واستنقاذ اليمن من أيدي الزيديين وطير الاخبار بذلك الى مصر والقسطنطينية ففرح السلطان بذلك فرحا عظيما وتزاحم على أبوابه الشعراء بقصائد التهاني وألف العلامة قطب الدين محمد بن أحمد المكي تاريخه لهذا الفتح سماه البرق اليماني في الفتح العثماني قيل وهو غاية في البلاغة وبه قصيدة لابأس بايراد بعض أبيات منها هنا وهي

لك الحمد يامولاي في السر والجهر * على عزة الاسلام والفتح والنصر
كذا فليكن فتح البلاد اذا سعت * لها الهمم العليا الى أشرف الذكر
جنود زهت من كوكبان خيامها * وآخرها بالنيل من شاطئ المصر

(ومنها)

فهل يطمع الزيدي في ملك تبع * ويأخذها من آل عثمان بالمكر
أبى الله والاسلام والسيف والقنا * وسر إمام المسلمين أبي بكر

وهي طويلة للغاية

مطلب
ولاية اسكندر باشا الفقيه السركشي بدلا من سنان باشا

فلما سار سنان باشا الى فتح اليمن أتى للولاية بعده اسكندر باشا الفقيه الشركسي فدخل القاهرة في رابع جمادى الآخرة سنة ست وسبعين وجعل يتصرف الى غاية المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين فكانت مدته سنتين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وكان عادلا تقيا محبا للرعية أبطل بعض المغارم والمكوس ورفعها عن الفقراء والعواجز وأهل العلم وأمنت في أيامه السبل واطمأنت قلوب الرعية فكانت أيامه كلها بركة ورخاء على البلاد وأهلها ولم يقع فيها شئ من الاحن والبلايا ومازال يتصرف في الامور ويعدل في الرعية حتى مات * وعاد سنان باشا من فتح اليمن بعد موت اسكندر باشا بأيام قلائل ولم يرجع معه أحد من الامراء والصناجق الذين كانوا قد ساروا في ركابه الى هذه الغزوة وكأنهم قد ماتوا جميعا فلما دخل القاهرة جاءه الامر بولايته على مصر ثانية فتولاها من أول شهر صفر سنة تسع وسبعين فزاد البلاد اطمئنانا وأمن السبل وأتى على اصلاح الامور من أبوابها فحفر خليج الاسكندرية وأحسن مجراه وأنشأ عدة مساجد وتكايا وربط وجوامع بديار مصر في الثغور والبنادر ولم يكن الى ذلك الحين أحد من الولاة أمثاله فعل مافعله سنان باشا من البر والخيرات وكان كثير العناية

بمصالح

بمصالح الرعية شفوقا عليهم يسأل العمال عن الصغيرة والكبيرة وقد بلغه ان الامير منصور بن بغداد أمير ولاية المنوفية حدث متلاعب أهمل أمور الولاية وهو منهمك فى اللذات واتباع الشهوات وان جماعة من السفهاء قد استولوا على عقله وهم المتصرفون فى ولايته وقد زاده اهمالا وجراءة معرفته بالوزير الاعظم ميلوش باشا وتقربه منه وكان قد عهد له بأن لاقدرة لاحد على خلعه من ولاية المنوفية فسار سنان باشا فى القعدة من السنة أى سنة تسع وسبعين وقبض على الامير منصور المذكور وخلعه وولى مكانه الامير علام بن بغداد واستمر الامير منصور مسجونا فى البرج بقلعة الجبل من سنة تسع وسبعين الى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة عند ماقدم حسن باشا وأطلق سبيله وأرجعه الى ولاية المنوفية فكانت مدة حبسه نحوا من عشر سنين

ومازال سنان باشا يتصرف فى الامور مع الرفق واللين بالرعية حتى جاءه أمر السلطان سليم بالحضور الى دار السلطنة فرحل عن مصر والقلوب راضية عنه فكانت مدته الثانية سنتين اثنتين وتولى بعده حسين باشا فدخل القاهرة فى سادس عشرى المحرم افتتاح سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وجعل يتصرف فى الامور ثم خلع فى سنة اثنتين وثمانين فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر وخمسة عشر يوما وكان عاقلا رزينا شفوقا بالرعية ميالا الى الخير والاحسان ووقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول والمشروب ثم وقع قحط عظيم جدا فأكل الناس بذر الكتان والحشيش اليابس واشتد الجوع بالناس اشتدادا عظيما وأعقبه الموات فجاءة حتى ان الرجل أو المرأة أو الخادم اذا خرج من بيته لقضاء حاجته أدركته المنية فى الطريق فيموت سريعا بلا ألم ولا وجع وبقى الحال على هذا الوصف أياما كثيرة فهاجر الناس الى ضواحى القاهرة ومصر ونزحوا الى بعض القرى والبلدان فرارا من الموت ولكنه لم يلبث ان عم جميع القرى والمدن وكثر واشتد شدة بالغة ثم أخذ يزول * ومامتم زواله حتى كثرت اللصوص وظهر قطاع الطرق فعاثوا فى البلاد وسلبوا ونهبوا وأفسدوا وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وكانوا لاينفكون ليلا ولا نهارا وعجز حسين باشا المذكور عن ردعهم فتمادوا وكثر شرهم وعم الخوف جميع البلاد فكانت شدة عظيمة وازدادت الاحوال اضطرابا والامور خللا وفسادا بتطاول أيدى الجند أيضا الى أموال الناس وعبثهم بمصالح الدولة وعدم وقوفهم عند طاعة كبارهم وايذائهم للسوقة والباعة وأصحاب البيوت حتى ضج الناس وترقبوا مرور حسين باشا فى الطريق وصاحوا فى وجهه وقبحوا عجزه وأقسموا انهم اعماهم رافعون ظلاماتهم الى السلطان وكان السلطان فى هذا الحين فى شاغل ليس عن مصر فقط بل عن جميع الايالات التابعة الى مملكة أبيه بما تولى عليه من الخمول وضعضعة النفوذ * قال أصحاب التاريخ وذلك لانه لم يكن متصفا بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه ولا هو متصفا بالحزامة واصالة الرأى فارتبكت لذلك أحوال المملكة وانفشلت أمورها وطمع فيها الاعداء ومالت بعض الولايات الى الخروج فشدد بعض الدول الكبرى فى طلب كثير من

مطلب
ولاية حسين باشا

الامتيازات كدولة الفرنسيس فقد نالت فى أيامه حقوقا مهمة غير الذى نالته منها فى أيام أبيه وكان صدر الدولة يومئذ صقللى محمد باشا وهو رجل موصوف بالتدبير عالى الهمة كبير السياسة خبير بفنون الحرب صادق الخدمة فبذل العناية فى بقاء مركز الدولة غير محقر ولامهان وأجهد النفس فى حفظ مابيدها من الثغور والعمالات وفتح ماءمكن فتحه من المدائن والثغور فسير لفتح جزيرة قبرس عمارة عظيمة من سفن الحرب تحمل زهاء مائة ألف مقاتل ومقدمها لاله مصطفى باشا فحاصرت الجزيرة الى ان دخل الشتاء فانصرفت عنها ثم عادت لحصارها حتى تم فتحها وأقلعت بعد ذلك هذه العمارة الى جزيرة كريد لفتحها فلم تنل منها فأخذت من البنادقة بعض المدن الواقعة على بحر الادرياتيك فاكبر البنادقة هذا الامر جدا وعمدوا الى محالفة دولة اسپانيا فلما تمت لهما المحالفة تعاهدا مع بابا رومة على قتال الترك ومنازلة عمارتهم ومحو آثارهم من البحار فأعدوا لذلك عمارة عظيمة من مائة وأربعين من سفن البنادقة وسبعين من سفن الاسپانيول واثنتى عشرة سفينة للبابا وتسع من سفن رهبنة القديس يوحنا الاورشليمى بمالطه وكان مقدم هذه العمارة الامير دون جوان وهو ابن للامبراطور شرلكان من احدى عشيقاته وكانت سفن الترك ثلثمائة سفينة فلما التقى الفريقان عند ليپنة اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية نحوا من ثلاث ساعات ثم انكشف الأمر عن هزيمة السفن التركية وانتصار سفن الاحزاب فاستولوا على مائة وثلاثين سفينة عثمانية وأحرقوا واغرقوا أربعا وتسعين وغنموا زهاء ثلثمائة من المدافع وأسروا نحو ثلاثين ألفا من المقاتلين فكانت هذه الواقعة من اتعس الوقائع وأشدها خطرا على مقام الدولة العثمانية فى عرض البحار * وجاءت الاخبار الى دار السلطنة بما حل بالعمارة فهاج المسلمون وماجوا وهموا بقتل رسل البابا الذين هم رعاة المذهب الكاتوليكى فلم ينالوا منهم لاهتمام صقللى محمد باشا بمنع القلاقل وعدم تطاول أيدى الرعية الى الايذاء * قال بعض كتاب الأخبار ولم تكن هذه الكسرة المشؤمة لتقعد همة صقللى محمد باشا عن لم شعث العمارة العثمانية واعادة ما كان لها من الرونق والبهجة حيث أنشأ لها عدة سفن وجهزها وبالغ فى تجهيزها واتقن نظامها وسيرها فى عرض البحار طلبا للثار فلم يقع بينها وبين سفن الاحزاب شئ من القتال لانفصام عرا الاتحاد مابين البنادقة والاسپانيول وعقد معاهدة مابين العثمانيين والبنادقة على شروط رضاها الفريقان فلما كان فى خلال الحوادث الاخيرة مرض السلطان سليم واشتد به مرضه أياما ثم مات فى سابع رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة اربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته نحوا من تسع سنين فولى السلطنة بعده ولده السلطان مراد خان

(الفصل الرابع)

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان سليم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليم ولده السلطان مراد بويع له بالملك عاشر رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة اربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ ثلاثون سنة وكان شهما مقداما عالى الكلمة واسع المعرفة خبيرا بالأمور محبا للفتح والغزوات فغزا عدة غزوات وسار بجيش ضخم لاخضاع المجر وردها الى طاعة الدولة بعد أن كادت تخرج عنها فقاتلها وأذلها اذلالا كبيرا وأعادها الى ما كانت عليه وفتح عدة مدائن وحصون ودوخ كثيرا من البلدان فاتسعت كلمته وكبرت هيبته وعاقده كثير من الملوك وتقربوا اليه

مطلب
ولاية مسيح باشا

وكان حسين باشا والى الديار المصرية قد عزل من منصب الولاية قبل أن يتولى السلطان مراد السلطنة بقليل فأقام بدله مسيح باشا وكان من خزنة دار السلطان سليم فدخل القاهرة فى أوائل سنة اثنتين وثمانين وكان ذا مهابة وعفة يكره أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكانوا فى ولاية حسين باشا قد كثروا فى الأرض وعاثوا وأفسدوا فيها كما تقدم فعمل على قطع شأفتهم وصار يتجسس أخبارهم ومواطنهم و يبعث بالحكام فيقبضون عليهم و يأتون بهم عشرات عشرات فيقتل منهم ويشنع فى قتلهم فخافوا وانكفوا وارتجع أهل التهم وسكن الحال واستتب الامن واطمأنت قلوب الرعية واشتدت يقظة الحكام وهابوه وانكفت أيدى الولاة والكشاف جميعا عن التجرئ على مالايصلح عمله من أخذ الرشاوى والبراطيل وأخذ الاموال من أصحابها بالسوط والنبوت و بالغ مسيح باشا فى القتل والتمثيل لاقل سبب قيل فكان عدد من قتل فى أيامه زهاء عشرة آلاف وقد علق شنا كل من الحديد بالرميلة و بولاق والشون بمصر القديمة لقتل المفسدين وأصحاب الكبائر فكان لذلك وقع فى قلوب الرعية وخافه جميع الناس ومالت اليه القلوب وأحبته الرعية وتصرف فى الولاية التصرف العام الى ثانى عشرى جمادى الاولى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة ثم جاءه الامر بالانصراف عنها فقام الى القسطنطينية على الاثر فكانت مدة تصرفه خمس سنين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وكان قد بنى له مدرسة ومدفنا بالقرافة وأوقف عليها أوقافا عظيمة وكان يؤمل أن يدفن فى مصر * وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت * خزن

مطلب
ولاية حسن باشا الخادم

الناس لعزله فلما عزل مسيح باشا تولى بعده حسن باشا الخادم فدخل القاهرة فى سادس عشرى جمادى الاولى من السنة وكان قبل ولايته هذه خازندار السلطان مراد فلم يستقر به المنصب حتى ظهرت عليه علامات الغلظة وجعل يتصرف مع العسف والكبرياء فكان ظلوما غشوما عتلا زنيما محبا للمال ومصادرة الناس ميالا للرشاوى والبراطيل فصادر كثيرا من أهل الوجاهة وذوى البيوتات فاصبحهم بعد الغنى والاثراء فقراء لايمتلكون شروى نقير واشتد بالرعية شدة بالغة وأخذهم بالشبهات فقتل وشرد وألزم اليهود فى أيامه بلبس الطراطير الحمر والزم النصارى بلبس القلنسوة السوداء وكان قليل الرأى ضعيف التدبير سفاكا للدماء ولكنه جبان صغير القلب متحجبا الاعلى بعض خواصه فابغضه الناس كافة وضجوا من فعاله ورفعوا القصص الى دار السلطنة واستغاثوا فجاءه الامر بالعزل فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنتين واحدى عشر شهرا وثمانية عشر يوما كلها بلايا واحن وقد عمر ببولاق وكالة تجاه الترسخانة وصهريجا مقابلها بعلوه مكتب للايتام وكان قصده أن يزيل الترسخانة ويبنى مكانها جامعا فلم يتمكن من ذلك لعزله

مطلب
ولاية الوزير ابراهيم باشا

وتولى بعده الوزير ابراهيم باشا فدخل القاهرة فى رابع عشرى ربيع الآخر من السنة وسار من وسط المدينة فى موكب لم يعهد لاحد من قبله وفرح الناس به فرحا لا يوصف قيل وكان معه مرسوم من السلطان بتحقيق ماارتكب فعله حسن باشا والقبض عليه وتعويقه حتى يتم ذلك فاحس حسن باشا بذلك وسار من القاهرة خفية قبل وصول ابراهيم باشا اليها وطلع من باب المقابر ليلا فى نفر من أتباعه وبطانته فلما وصل الى دار السلطنة قبضوا عليه ثم أبعدوه عن خدمة الدولة وبالغوا فى اذلاله ومازال حتى صادفته العناية والعناية صدف فارتقى مسند الصدارة العظمى وعلت كلمته واتسعت صولته ثم عزل وقتل شر قتلة وأما ابراهيم باشا فانه أخذ يتصرف فى الامور وأقام بجامع السلطان فرج بن برقوق ديوانا لسماع القصص التى كانت ترفع من الناس على حسن باشا فلبث الديوان ينظر فى تلك القصص من العاشر من رجب من السنة الى غاية رمضان من السنة فأبان التفتيش عن شئ كثير من مظالم تكاد لاتحصر ولا تعد وكان منها مائة ألف اردب وأربعمائة واثنان وخمسون اردب قمحا بيعت من الشون وأخذ ثمنها حسن باشا المذكور وغير ذلك من الاختلاسات الاخرى قيل فلما رفع أمر هذا كله الى السلطان مراد وكان حسن باشا المذكور قد ارتقى منصب الصدارة العظمى أمر باعدامه خنقا وجاءت الاخبار بذلك الى مصر ففرح الناس بموته لما قاسوه فى أيامه من البلايا والاحن

وسار ابراهيم باشا من القاهرة الى داخلية البلاد ليستطلع أحوال الاهالى ووصل الى بئر الزمرد فاحاط بها علما وظفر منها بالزمرد النفيس وسار الى دمياط والى المحلة الكبرى وكان بها كنيسة عظيمة للغاية وهى من أفخر العمائر القديمة وبها جماعة من قسوس

المتأصلين

المتأصلين أى أهل البلاد فلم يشأ أن تكون لهم واستعظمها عليهم فأمر بهدمها وبنى مكانها مدرسة وسماها الوزيرية فعدت له هذه نقطة سوداء فى تاريخ حياته ثم سار الى كثير من المدن والبنادر ثم رجع الى القاهرة وأنزل نفسه عن الولاية فى سنة اثنتين وتسعين فكانت ولايته سنة واحدة وتسعة عشر يوما وسافر الى دار السلطنة فى شهر شوال من السنة فتولى بعده سنان باشا الدفتردار ودخل القاهرة فى ثالث عشر شوال من السنة وابراهيم باشا بها فلما استقر به المنصب طغى وتجبر وظلم الرعية وصادر الناس فى أموالهم وأراق الدماء لاقل الاسباب وأضعفها واشتد شدة بالغة فضج الناس ورفعوا أمره الى دار السلطنة فأتاه الامر بالعزل وقد تصرف الى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر وعشرة أيام ولبث بالقاهرة الى أن قدم أويس باشا واليا ونزل بناحية شبرا قريبا من بولاق فأرسل الى أويس باشا المذكور هدية عظيمة للغاية ومعها حصان أشهب مسرج بسرج مرصع وعدة تليق به وكان يؤمل أن أويس باشا حال طلوعه من المركب الى الوطاق المنصوب له يركب الحصان المذكور فعدل عنه وركب اكديشا أشهب كان أحضره معه ثم ان سنان باشا قدم ناحية شبرا وقابل أويس باشا عند غروب الشمس فشاهد علامات الغيظ على وجهه فهاله ذلك وداخله الخوف فلما رجع من عنده الى القاهرة اختنق ولم ير بعد ذلك الا فى الديار الرومية

مطلب
ولاية سنان باشا الدفتردار

وتصرف أويس باشا فى أمور البلاد من ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وكان قبل ذلك قد ولى القضاء ثم صار دفتردار الروم ايلى ثم جاء الى ولاية مصر فكان جبارا عنيدا شديد البطش سفاكا للدماء كثير الاخذ بالشبهات ثم تطاولت يده أيضا الى العبث بأمور العساكر والاجناد والتصرف فى مرتباتهم وجماكيهم بما يناسب هواه فخرجوا عليه وأحاط جماعة منهم بديوانه ودخل عليه جماعة وأوسعوه ضربا ونهبوا داره فأخذوا جميع ما كان بها من مال ومتاع وقاموا على عثمان أغا اغاة الجاويشية وذبحوه ذبح الشاة وأحرقوا دار القاضى وقتلوا اثنين من قضاة مصر ثم عمدوا الى حوانيت القاهرة ومصر فنهبوا مافيها وعاثوا وأفسدوا وفعلوا مالا خير فيه وذلك فى شوال من سنة ثمان وتسعين فخاف الناس خوفا شديدا وانكمشوا فى البيوت وتحصنوا بها وقد تطاولت أيدى العامة والغوغاء الى النهب والسلب أيضا فكانت فتنة عظيمة للغاية لم تقدر الامراء ولا كبار الجند على تسكينها وبذل الباشا الجهد فى ملاطفة أصحاب الفتنة وكبار العصابة وبعث الى القضاة يعلمهم بان لايخالفوا للثائرين أمرا عسى أن ينكفوا عن فعالهم فزاد تمردهم وطغيانهم وقبضوا على أولاد الباشا وأخذوهم رهنا على مايطلبون وكان أولاد البلد الى هذا الحين يدخلون فى خدمة الدولة ويلبسون لباس العسكر لهم مالهم وعليهم ماعليهم فلما وقعت هذه الفتنة حرموا من ذلك وحظر عليهم الدخول فى مصاف العسكر ايجابا لطلب أهل الثورة

مطلب
ولاية أويس باشا

وحدثت عقب ذلك مصادرات كثيرة من وجوه شتى * قال بعض كتاب الاخبار فكان لاويس باشا المذكور يد فى هذه الحركة لامر خفى وطالت أيام الفتنة فقلت الاقوات وعز وجودها وضج الفقراء واجتمعوا تحت قلعة الجبل وسبوا أويس باشا ورجموا الناس بالاحجار

ولما كان يوم الاحد رابع صفر سنة تسع وتسعين حصلت زلزلة بالقاهرة ومصر بعد ظهر اليوم المذكور فمكثت درجة وسدس درجة وسقط بسببها عدة منارات وبيوت وربوع وفاض الماء من حيضان الحمامات ومطاهر الجوامع وهدمت عقبة أيلة فنهب العرب جميع ما كان بها من ذخيرة للحجاج والمرابطين قيل ولم يسبق وقوع مثل هذا الزلزال الامن عهد بعيد للغاية ووقعت بعدها بثلاثة أشهر أى فى يوم الاربعاء عاشر جمادى الاولى من السنة زلزلة أخرى ولكنها لم تلبث الا يسيرا جدا فزاد تشاؤم الناس وكرههم الى أويس باشا وعجوا الى الله تعالى وتضرعوا اليه وكثر الدعاء بالجوامع وغيرها فلما كان سادس شهر رجب سنة تسع وتسعين أصابته سكتة قلبية فجأة فمات بها ودفن بالقرافة ففرح الناس بموته فرحا لايوصف وكانت مدة تصرفه أربع سنين وشهرا واحدا وثمانية أيام فنظم بعضهم تاريخا فى موته فقال

أهلك الله أويسا انه * جار فى الحكم ولم يخش الوعيد
مذ أتى مصر تعدى حده * وبه الظلم تبدى فى مزيد
هلك الحرث وكم من فتنة * قد أثيرت منه فيما لايفيد
مذ دهاه الموت ماأفلته * لاولا كان له عنه محيد
خاب سعيا بوفاة أرخوا * هاوخاب كل جبار عنيد

سنة ٩٩٩   ٦٠٩   ٥٠   ٢٠٦   ١٣٤

مطلب ولاية أحمد حافظ باشا الخادم

فلما مات تولى بعده أحمد حافظ باشا الخادم فدخل مصر فى سابع عشرى رمضان سنة تسع وتسعين وتسعمائة وأخذ يتصرف فى الامور فكان نعم الرجل ذارأى وتدبير محبا للعلم والفقراء حسن السياسة فأمنت فى أيامه السبل وانتظمت أحوال الرعية وامتنع أهل الفساد وانكف الولاة والعمال عن العبث بأمور الرعية وكان يجلس للناس فترفع اليه القصص بحاجات الخلق وعمر فى أيامه وكالة كبرى وأخرى صغرى وسوقا وربوعا وبيوتا ببولاق من القاهرة بجوار شون الحطب وعمل مصلى بالوكالة الكبرى مطلة على النيل وعمر كذلك برشيد عمائر أخرى عظيمة وعمل سحابة بطريق الحاج وبها النفع للحجاج فلما كان التاسع من شعبان سنة ثلاث وألف هجرية جاءه الامر بالعزل والقيام الى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين وعشرة أشهر واثنين وعشرين يوما ولما بلغ دار السلطنة حمدت مساعيه بديار مصر فولى الصدارة العظمى ثم أنزل نفسه عنها واستأذن فى الحج فأذن له وجاء الى مصر بحرا فتلقاه الكبراء والامراء أحسن ملتقى وأهدوا اليه الهدايا النفيسة

مطلب
ولاية قيودر باشا

فحج ورجع الى الديار الرومية فمات بها وتولى بعده على ديار مصر قيودر باشا فدخل القاهرة في ثالث عشر رمضان سنة ثلاث وألف وكان أمياذا ذكاء محبا للهو واللذات قليل الحيلة ضعيف الرأى لاهم له غير اللعب واللهو ويروى عن لهوه حكايات كثيرة أضربنا عن ايرادها هنا صفحا

وكان لما تولى السلطان مراد السلطنة أمر فانشؤا بالمدينة تكية ورباطا بظاهر المدينة وقرر بها أرباب وظائف ومجاورين ورتب بالتكية طعاما وحبوبا للحرمين ووقف على ذلك قرى من قرى مصر المحروسة باقليم البحيرة ناحية نكلا وناحية الضاهرية وبالمنوفية ناحية سبك الاحد وناحية شبرا زنكى وبالقليوبية ناحية طنان وناحية كفر زريق وناحية طوخ الملق وناحية سد طنان وناحية سنهرا وبالدقهلية ناحية سندوب وناحية منية سمنود وناحية أبو الحسن وبالجيزة ناحية كوم برا وناحية نهيا وناحية العثامنة وناحية ديشنا وبالوجه القبلى البهنساوية وناحية بلينا وناحية الذيل وناحية العثامنة وناحية ديشنا وناحية نهيا بلفية وناحية دنديل وناحية العثامنة وناحية الضوابط وناحية اهناس الخضراء فكان يجهز الى بندر السويس من متحصل النواحى المذكورة في كل عام من الحب ألفى اردب ومائتى إردب تحمل في مراكب في وقف الدشائش الدارية الى الينبع برسم التكية المذكورة ومجاورى الحرمين هذا عدا ما كان يجهز من النقد من متحصل النواحى المذكورة في كل عام صحبة أمير الحج المصرى وقدره سبعة عشر كيسا توزع على أربابها من مجاورى الحرمين * ولعل هذا كله باق الى الآن *فتطلع قيودر باشا الى هذه الاوقاف وطمعت نفسه في أخذ بعضها فلم يقدر ثم خشى العاقبة وانعطف الى غيرها من موارد الاموال فشكاه الدفتردار الى دار السلطنة وبالغ في فساد الاحوال وعدم صلاحيته للولاية * قال أصحاب التاريخ ولم تكن هذه الاوقاف والخيرات والتكايا لتكفر عن ذنوب السلطان مراد وما اقترفه من جرعة قتل اخوته الخمسة بعد توليته منصب السلطنة فانه بعد ان تمت له البيعة واستقر به المنصب أمر فقتلوا اخوته المذكورين صبرا ليأمن على ملكه من النزاع ولم يخش الخزى والعار فكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء في صفحات أيامه مع مايضاف الى ذلك من تحجبه عن الناس وعدم اكتراثه بالامور وتركه الغزو والخروج في مقدمة الجند كما كانت تفعل أجداده حتى طمع العدو في البلاد وتغلبت دولة النمسا على كثير من القلاع والحصون العثمانية وانتصرت في عدة وقائع عظيمة مات فيها كثير من رجال الدولة ومقدمى العساكر وخرجت بعض الايالات عن الطاعة فقاتلت حتى انتصرت ونالت الاستقلال واسترجعت ماأخذ من مدنها وبلدانها عنوة واستخفت طوائف الانكشارية بقدر الدولة فتمردوا وأهانوا كبارهم ومقدميهم وثاروا على بعض العمال وكبار الدولة فقتلوهم جهارا ولم يقو السلطان على منعهم حتى كاد يبلغ الخلل حده وكانوا سببا في دوام الحروب ومعاداة الممالك المجاورة لدولة القسطنطينية

لاجتماعهم على الخلاف وعبثهم بامور الدولة وتقويض أركان الامن فيها بما يفعلونه من القتل والنهب واذلال كبارهم عند أقل سبب وقد كان مما أهاجهم وخرج بهم عن حد الطاعة انه لما كثر فسادهم وكبرشرهم بما فشا فيهم من الادمان على السكر والافراط فيه أمر السلطان بمنعهم من ذلك و بالغ فى عقاب من يقبض عليه سكران فقاموا عند ذلك قومة رجل واحد وحاصروا السلطان فى قصره وضيقوا عليه وصمموا على قتله جهارا ولبثوا على هذا الحال أياما كثر فيها النهب والسلب والعربدة وتطاولت أيدى الناس لسلب أموال بعضهم ولم تسكن هذه الفتنة الا بعد ان أباح لهم السلطان السكر وتعاطى الخمر والرجوع الى ما كانوا عليه من العربدة والفساد

وظلت الاحوال فى مصر ودار السلطنة فى قلق واضطراب بعضه بسبب الحروب المتواصلة بين السلطنة والممالك المجاورة وبعضه بسبب كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر وتحزب الاحزاب وظهور كلمة الجند فيها وعدم وقوف كبارهم عند حد الى أن مات السلطان مراد فى السابع عشر من جمادى الآخرة وقيل سابع عشر رمضان سنة ثلاث وألف هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة وتسعة أشهر وستة أيام فخلفه ابنه السلطان محمد

ومات فى أيام السلطان مراد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكانت الامور فى أيامه على طرفى نقيض ماصفت يوما الا وتكدرت أياما فاقيم بعده يوحنا وهو تاسع ثمانيهم ولم يكن لرهبانيته دير وكان حازما مهيبا محبوبا محبا للخير ميالا للفقراء آوى اليه كثيرا من ذوى الحاجة فمد لهم يد المعاونة وبذل لهم المعروف وأقام أربعا وعشرين سنة ومات فخلفه متاوس وهو المتمم للتسعين وكان قبل ذلك راهبا فى دير المحرق و وقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل الخامس)

(فى سلطنة السلطان محمد ابن السلطان مراد)

ثم قام بالامر بعد السلطان مراد ولده السلطان محمد بويع له بالملك فى يوم الجمعة سابع عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث وألف هجرية أى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وألف ميلادية ولم يستقر به مقام السلطنة حتى قام على اخوته فقتلهم ليأمن على ملكه من المنازع وكأن هذه الفعلة الشنعاء قد صارت سنة عند ملوك آل عثمان يعمل بها الخلف عن السلف ثم تحجب بعد ذلك عن الناس وانعكف على الملاذ وترك أمور المملكة لجماعة الوزراء فعاثوا وأفسدوا وتصرف كل منهم على هواه وعمل على مافيه مصلحته فباعوا الوظائف والقاب الشرف بابخس الاثمان وسلموا مقاليد الدولة للاغرار والسفلة فبلغ الخلل حده وزالت

حرمة الدولة وكبر طمع العدو فيها فخرجت عليها الخوارج وقامت الحروب من كل جانب واشتدت الخطوب وظهر الامير ميخائيل صاحب الفلاخ على عساكرها فى عدّة مواقع عظيمة وضم الى مملكته اقليم البغدان وجزأ كبيرا من ترانسلفانيا وساعدته على غير ذلك أيضا عساكر الفسا فعم الخلل جميع انحاء المملكة وقامت الفتنة وتطاير شررها الى جوف الاناطولى وظهر رجل اسمه قره يازجى كان من مقدمى المتطوعة الذين نفاهم السلطان الى آسية لجبنهم فى الحروب وادعى أن صاحب الشريعة الاسلامية أتاه فى منامه وأمره بالغزو والجهاد فى آل عثمان ووعده بالنصر والغلبة عليهم وأخذ جميع ولايات آسية منهم وبث الدعاة بذلك فى الآفاق فتبعه خلق عظيم من أولئك اللموم فنزل بهم على بلاد القرمان وقاتل عامل الدولة عليها حتى ظفر به وأخذ مدينة عين تاب عنوة فكبرت عند ذلك لمومه وظهرت كلمته واشتهر أمره فسير السلطان لقتاله جيشا من الانكشارية فحاصروا مدينة عين تاب وضيقوا عليها وشددوا فلما أحس قره يازجى بالغلبة وأنه مأخوذ لامحالة عمد الى استعمال الحيلة فعرض على مقدم الانكشارية الطاعة للسلطان بشرط أن يوليه أماسيا فاجابه الى ذلك ورفع عن المدينة الحصار فلم يكن باسرع من أن عاد قره يازجى المذكور الى العصيان وكان له أخ اسمه والى حسن قدولاه السلطان على بغداد فسير اليه قره يازجى رسلا تستفزه الى شق عصا الطاعة والقيام لنجدته فأجابه الى ذلك وسير اليه جماعة كثيرة من أصحابه فاشتدت عزيمة قره يازجى واستفحل أمر الفتنة وظهرت كلمة قره يازجى وأخيه والى حسن واتسعت شهرتهما وكادت تعم دعوتهما فكبر الامر على السلطان واستعظمه وسير لقتالهما عسكرا عظيما ومقدمهم صقللى حسن باشا فقاتلوا أوّلا قره يازجى حتى ظهروا عليه وجرحوه فترفع الى الجبال ومات بجراحته ثم انحازوا لقتال والى حسن صاحب بغداد فقاتلهم قتالا عنيفا وانتصر عليهم فى عدة مواقع وقتل صقللى حسن باشا على أسوار «توقات» ومزق شمل عساكره ثم سار ونزل على دمشق بخيله ورجله فهزم واليها شر هزيمة وهزم ولاة حلب وديار بكر ونزل على مدينة كوتاهية فحاصرها وضيق عليها من كل جانب فاشتد عند ذلك الخلل وتعاظم وهمت أكثر ايالات الدولة الى الخروج وتأهبت الى شق عصا الطاعة الامصر فانها كانت فى شاغل عن هذا كله بما قد انتابها من كثرة التولية والعزل فى ولاتها وعدم وقوف الجند والامراء فيها عند حد وعسف واليها قيودر باشا وعبثه بجميع الامور وتطاول يده الى أموال الناس بلا استثناء وما زال الحال على ذلك الى سابع عشر رجب سنة أربع وألف ثم جاء قيودر باشا المذكور الامر بالعزل فكانت مدة ولايته عشرة أشهر وعشرة أيام فتولى بعده الشريف محمد باشا ودخل القاهرة فى ثالث شوال سنة أربع بعد الالف وكان مهيبا ذا بصيرة وخبرة بالامور واسع الاطلاع بادارة البلاد فلما استقرت به الولاية وجلس للناس رفعت اليه القصص ضد كوسى حسن الشاغرت وأحمد المسلمانى وكان الاول على الاموال والثانى على الشون السلطانى وكانا قد اختلسا منهما شيأ كثيرا فعين عليهما من ضبط حسابهما

فثبت عليهما ماقيل فأمر بشنقهما على باب زويلة وتركت أجسادهما معلقة ثلاثة أيام فهابه الناس وخافوه خوفا ماعليه من مزيد نخامره لذلك الغرور حتى بلغ به الى الاخذ بالشبهات والبطش بمن يتوسم فيه سمة الانكار وأراد أن يبطش ببعض كبار الناس فاشيع عنه ذلك فتحذروا منه وأبغضه الناس والامراء كافة فلما كان فى بعض الايام أراد التوجه الى الربيع فمنعه بعض أصحابه وأنذروه بسوء العاقبة ان هو ذهب فى يومه فنبذ كلامهم فلما خرج قام عليه جماعة من العسكر وتعرضوا له عند انصرافه وهو بباب الوزير بموكبه الخاص وعساكره وطائفة من السامانية وهم معدون بالبنادق فلما عاين من معه كثرة العساكر تفرقوا عنه فى الازقة وتركوه فى نفر قليل من أتباعه فدعاه العسكر للمحاكمة امام قاضى القضاة بمدرسة السلطان حسن فأظهر لهم الانقياد والطاعة وسار معهم الى ان وصل الى الرميلة فاركض فرسه نحو باب السلسلة ودخل القلعة وأغلق الابواب بينه وبين العسكر فهاج العسكر وأثاروا الفتنة وقتلوا كل من كان يكثر التردد على محمد باشا من الامراء والعلماء وأصحاب الوظائف وأخذوا الناس بالشبهات فعم الخوف وكبر اضطراب الناس وبقى محمد باشا بقلعة الجبل مكفوف التصرف قاصر الكلمة محجورا عليه الى أن جاءه الامر بالعزل فى خامس عشرى ذى الحجة سنة ست بعد الالف وكان جبارا عنيدا سفاكا للدماء وقع فى أيامه قحط شديد للغاية استمر مدة وأعقب القحط وباء عظيم فكثر الموات فى الناس بالقاهرة ومصر وضواحيها وزاد زيادة بالغة ثم عم القرى وانتقل أيضا الى بقية البلدان فكانوا يدفنون الاموات فى الليل والنهار وكثرت الجثث فى البيوت وفى الطرق والحارات واشتد الوهم بالناس وفر محمد الشريف باشا من القاهرة هربا من الموت واستخلف على البلاديرى بيك أحد كبار الامراء فلم تستقر به الولاية حتى أدركه الموت فولى الامراء بدله عثمان بيك فأقام الى ان كانت الفتنة وعزل محمد الشريف باشا وأتى خضر باشا واليا فكانت مدة تصرف محمد الشريف باشا سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوما وخرج من مصر فى موكب عظيم وعلى رأسه عمامة خضراء وركب معه خاصة العسكر وعامته فلما وصل الى الديار الرومية أرسله السلطان لقتال ملك فارس فأسر وبقى ببلاد فارس الى ان مات

مطلب
ولاية خضر باشا

ودخل خضر باشا القاهرة فى عشرى ذى الحجة سنة ست بعد الالف فتصرف ثلاث سنوات وخمسة أيام فلم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر الا ما كان من سكون الفتنة ورجوع الجند والعسكر الى الطاعة وزوال الخوف من قلوب الرعية ثم عزل فى خامس عشر المحرم افتتاح سنة عشر وألف * وتولى بعده على باشا فدخل القاهرة فى تاسع صفر سنة عشر وألف وكان لما قدم الى الاسكندرية لبث بها أياما فتراكمت عليه القصص وتساقطت بين يديه بالشكوى من الكشاف وبعض رجال الدولة وأكثرها من برويز كاشف المنوفية وكان برويز هذا عتلا زنيما طالما محبا للمال كثير المصادرة للناس سفاكا للدماء لادين له ولا ذمة ولا حرمة ولا أدب فلما أتى الكشاف للقاء على باشا المذكور وبينهم برويز هذا أمر به على باشا فقبضوا

مطلب
ولاية على باشا

عليه

عليه وقتلوه بين يديه * وقيل ان لقتل برويز المذكور سببا غير ذلك وهو ان شيخى افندى الذى كان متوليا قضاء المنوفية وانصرف عنها قد اجتمع بعلى باشا فى جزيرة رودس فسأله على باشا عن مصر وأحوالها ومافيها من الامور الخارقة فحدثه بما علمه من أحوال البلاد وأهلها و بالغ فى الوقيعة ببرويز كاشف المنوفية المذكور وأخذ يعدد فظائعه فلما وصل على باشا الى كفر الخضراء رفعت اليه القصص ضد محمد بن نجا حاكم النحراوية فقبض عليه وقتله بفناء الكفر فهابه الحكام وخافه الكشاف ودخل القاهرة فى هيبة وجلالة وقبض على برويز وقتله فلقبوه من يومئذ بالنمر * ولما استقرت به الولاية أرسل قوسا وأمر أن يعلق على باب زويلة بالمرمى ولصق به ورقة ذكر انه مكتوب فيها كل من أدنى هذا القوس يعطى ماهومقيد بالورقة فلم يجسر أحد أن يمس القوس تأدبا واستمر وهو معلق أياما ثم رفع ثم اشتد بعد ذلك على العسكر وضيق عليهم وصار يؤاخذهم على الصغائر والكبائر فابغضوه وجعلوا يراقبون فرصة للانتقام منه فاتفق انه سار الى طندتا لزيارة السيد البدوى فعارضه بعض العسكر ومنعوه من الخروج من القاهرة الااذا أعطاهم ما كانوا طلبوه منه فأجابهم الى سؤالهم صاغرا وعاد الى القاهرة وقد كاد يتميز غيظا فمرض واشتد به مرضه فارسل الى دار السلطنة يطلب الاذن بالعود الى القسطنطينية فأذن له فسافر فى سادس ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وألف فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر وعشرين يوما فلما وصل الى دار السلطنة قلد منصب الصدارة العظمى ثم وجه لقتال المجر فلم يلبث الاقليلا وعاوده المرض فمات هنالك وكانت أيامه بمصر كلها خير و بركة وظهر فى أيامه التبغ بديار مصر وكثر استعماله ولم يكن الى ذلك الحين شيأ يذكر وظهر الطاعون فمات به خلق كثير جدا وعم القرى والمدن والبنادر ومكث أياما وفتك فتكا ذريعا ثم ارتفع * وجاءت الاخبار فى هذه الاثناء بموت السلطان محمد مات فى رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية فكانت مدة سلطنته تسع سنين وخمسة عشر يوما وتولى بعده ابنه السلطان أحمد

(الفصل السادس)

(فى سلطنة السلطان احمد ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالامر بعد السلطان محمد ابنه السلطان أحمد بويع له بالملك فى ثالث رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية أى سنة ثلاث وستمائة وألف ميلادية وله من العمر ثمانى عشرة سنة فاستوزر الامير قويجى مراد باشا وكان شيخا كبيرا صادق الخدمة تولى الوزارة وأركان الدولة متزعزعة فى جميع جهات آسية والفتنة قائمة ونار الحرب مستعرة على حدود فارس شرقا والنمسا غربا والسبب فى ذلك انه لما تولى عباس شاه على ملك فارس

بعد موت محمد مرزا فى سنة أربع وتسعين وتسعمائة هجرية نهض الى استرجاع ماأخذه ملوك آل عثمان من ملك فارس فأعد المعدات وجيش الجيوش ورمم القلاع والحصون وسار فى عسكر من خراسان الى مشهد وكانت قد استولت عليها قبائل الازبك فاستخلصها منهم وانتصر عليهم عند هرات أيضا نصرة عظيمة فلما تقوت عزيمته بما ناله من الظفر عمد الى قتال آل عثمان فنال منهم واسترجع جميع ماأخذوه من مملكة فارس عنوة ولم تقو الدولة على رده يومئذ لاختلال الاحوال وسريان الفساد فى جميع ولايات الدولة الشرقية وخروج الخوارج بعضهم يستفز بعضا فلما بطلت الحرب مع عباس شاه سار قويجى مراد باشا الصدر فى مقدمة جيش عظيم الى اطفاء نار الفتنة وقمع أولئك الخوارج فى جميع الولايات الشرقية فقاتلهم وانتصر عليهم ومزق شمل لومهم وقبض على كبارهم وأعمل فيهم القتل بحد السيف ومازال بهم حتى زالت الفتنة وعادت الامور الى سابق مجراها ورجع بمن بقى من جيوشه الى القسطنطينية ظافرا غانما فلقب يومئذ بسيف الدولة ثم مات بعد ذلك فكان موته خسارة عظيمة على الدولة لصدق خدمته وأمانته وسعيه فى اعلاء منار الدولة وارجاع رونقها القديم فتولى بعده الوزارة نصوح باشا واتفق بعد ولاية نصوح باشا هذا ان عادت سفن رهبنة مالطة وسفن الحرب الاسبانيولية الى مهاجمة مراكب الدولة وسد المسالك عليها فى عرض البحر الابيض وأعانتها على ذلك المراكب الايطالية أيضا فرسم نصوح باشا لجميع مراكب الدولة بالاجتماع فى البحر الابيض والمحافظة على المواصلة مابين القسطنطينية والايالات المغربية فاجتمعت وكان مجيء بعضها من البحر الاسود فلما خلا البحر الاسود منها قامت طائفة من القوزاق وزحفت على ثغر سينوب فنهبوا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا مالا خير فيه وجاء الخبر بما وقع الى دار السلطنة فأكبره السلطان واتهم الصدر الاعظم بالخيانة وسوء القصد وكان للصدر خصوم وأعداء لاتغفل عن الوشاية به فزينوا للسلطان قتله وحببوا اليه التخلص منه فأمر به فقتلوه خنقا فى قصره * وكانت مصر الى مابعد خلع واليها على باشا وقيامه الى دار السلطنة بأيام كثيرة بلاوال والاحوال فيها فى اضطراب والامراء والجند على طرفى نقيض حتى جاء مرسوم السلطان الى أمير الحاج بالتصرف فى ولاية البلاد فتصرف من عاشر ربيع الآخر فكان لابأس به أصلح بعض الامور ورفع بعض المغارم وأبطل كثيرا من المظالم وأعاد الجند الى حد الطاعة وأزال الشحناء من بين كبارهم ولكن لم تطل مدته اذ اخترمته المنية فى يوم الثلاثاء سادس عشر شعبان سنة اثنتى عشرة وألف من الهجرة فكانت مدة تصرفه نحوا من خمسة أشهر ودفن بالقرافة فاتفق الامراء وكبار الدولة على تولية عثمان بك أمير اللواء فولوه المنصب فى سابع عشر شعبان المذكور الى أن يقدم من دار السلطنة من يتصرف وكان الامير عثمان هذا مشهورا بالعفة والاستقامة وله جلالة وهيبة ورأى وخبرة بالامور فتصرف مدة ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوما * ثم جاء الخبر بولاية ابراهيم باشا المعروف بالمقتول فدخل القاهرة فى يوم السبت ثانى عشرى ذى الحجة

مطلب
ولاية ابراهيم باشا المعروف بالمقتول

سنة

سنة اثنتى عشرة وألف فلما استقربه المنصب وتصرف فى الامور منع الكثير من طلبات العسكر وجعل يتتبع عثراتهم ويتجسس أخبارهم ولاسيما مجالس هزلهم فأشار عليه أصحاب المعرفة بأن يقلع عن هذا فلم يقبل وكان مستقلا برأيه فخورا مختالا لاينقاد الى نصح ولايهتدى لقول مشير * واتفق ان أتت له الاخبار يوما بأن جماعة من العسكر بالغيط الذى بقناطر السباع يتعاطون الخمر ويفعلون مالاخير فيه فقام وغير لباسه وسار اليهم ومعه ثلاثة رجال من خواصه فلما علم العسكر بحضوره فروا هاربين وزاد بغضهم له ونووا قتله فلما كان فى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة خرج ابراهيم باشا فى نفر من الجند والاتباع وأصحاب الوظائف والصناجق لقطع جسر أبى المنجى بين شبرا وقليوب فأشار عليه بعض أصحابه أن لايخرج وان الذى يخرج عادة لقطع هذا الجسر هو زعيم مصر فان كان مانعه أرسل بعض أتباعه لقطعه فقال وماعلىّ لوذهبت بنفسى قالوا ان خواطر الجند منحرفة وقلوبهم متغيرة عليك بسبب فعلك بهم فقال لابد من الذهاب وخرج بغير احجام وقد أدركته صلاة الجمعة ببولاق القاهرة فصلى بها وهيئت له سفينة عظيمة وزينت بالستائر والرايات والفرش والطنافس الثمينة فركبها وصحبته الامير محمد بن خسرو أمير اللواء بمصر المحروسة وبعض أكابر خدمة الديوان ومازال الى ان وصل الى الجسر فقطعه فى يوم السبت مستهل جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة بعد الالف وكان ابراهيم باشا قد هيأ طعاما بالغيط الذى أنشأه محمود باشا تجاه قناطر أبى المنجى فدخل الغيط ومن معه وصحبته الامير محمد بن خسرو وعزمى زاده قاضى القضاة يومئذ وحصل لهم الصفو والمباسطة قبل الطعام فلما حضر الطعام رأى الامير محمد بن خسرو طائفة من العسكر مقبلين بسلاحهم يريدون الفتك بهم فاسرع اليهم وعارضهم وسألهم عما يطلبونه فسألوا من ابراهيم باشا شيأ كان يمكن قضاؤه فى الحال فلما رأى ابراهيم باشا ماهم عليه من التهديد والجفاء والتحزب لم يجبهم الى ماطلبوه وأغلظ عليهم القول فتقدموا نحوه فمانعهم الامير محمد وزجرهم وصاح فى وجوههم فطعنه أحدهم بخنجره فسقط يختبط فى دمه فعلا صدره آخر واحتز رأسه وهجم آخرون على ابراهيم باشا واحتزوا رأسه وهو على مائدة الطعام فامتلأت أوانى الطعام من دمه ورفعوا رؤسهما على جريدتين من نخيل الغيط وعادوا الى القاهرة وهم فى ضجة وجلبة وطافوا بهما الشوارع وساروا من وسط المدينة الى باب زويلة وعلقوهما هنالك فخاف الناس وأغلقت جميع الحوانيت فى ذلك اليوم وسدت أبواب الدور من خلف وأيقن الناس بوقوع الفتنة واضطرام نارها وأغلقت أبواب المدينة كباب الحسينية وباب النصر وباب البحر وتعطلت جميع الاعمال فكان يوما عبوسا وفى قول أن قتل ابراهيم باشا المذكور كان فى قلعة الدولاب وهو راجع مع من كانوا معه الى القاهرة لما بلغه خبر حضور العسكر لقتله * وكان قد أشار عليه بعض الصناجق بالهروب بحرا وعدم العود الى القاهرة فلم يلتفت لقولهم ولا أخذ بمشورتهم فلحق به العسكر وقتلوه واحتزوا رأسه وطافوا به فى

الشوارع وعبثوا وأفسدوا فى ذلك اليوم وفعلوا مالاخير فيه فكانت مدة تصرف ابراهيم باشا المذكور فى الولاية أربعة أشهر وثمانية أيام لاغير وقد نظم بعضهم تاريخا فى موته فقال

ان ابراهـيم باشا * قدسعى فى الخير سعيا
قتـله قد أرخوه * وأرى التاريخ بغيا

سـنة ١٠١٣

ولما قتلوه على الصورة المتقدمـة أقاموا قاضى القضاة عزمى زاده واليا بعده فى ثالث جمادى الاولى سـنة ثلاث عشرة بعـد الالف وقد كانوا أرادوا أن يولوا الامـير عثمـان بك فامتنع ولم يقبل * فلما وصل خبر قتل ابراهيم باشا الى دار السلطنة غضب السلطان ورسم بولاية جرجى محمـد باشا الخادم وأمره بقتـل الثائرين وقطـع دابر جميع من كان له يد فى هذه الثورة فدخل القاهرة فى سابع رجب سنة ثلاث عشرة بعد الالف وأتى الى الصناجق أيضا مرسوم السلطان بما ذكر فلما استقر محمـد باشا بالقلعـة وطلب الامراء ليقرأ عليهـم مرسـوم السـلطان وان يأتوا بأهـل الفساد وأصحاب الثـورة خاف الامراء وامتنعوا من الصـعود الى القلعـة واجتمعوا بقراميـدان تحت القلعـة وتشاوروا طويـلا وكان بعض أكابر الدولة يترددون مابين الباشا والصناجق حتى استقرت القاعـدة بينهم على تسليم زعماء الثورة والعـفو عن الصناجق فسلموهم فأمر الباشا برمى أعناقهم بين يديه فرميت فى الحال ونشنت من بقى من أصحاب الثورة فى البـلاد فـرارا من وجهه فجـد فى طلبهم من الكشاف فنهم من يجىء به حيا فقتل ومنهم من قتله العربان قال بعض كتاب الاخبار فكان ماقتله منهم نيفا ومائتين فى مدة تصرفه وكانت مـدة يسـيرة اذجاءه الامر بالعودة الى الديار الرومية فسار فى يوم الاحد ثانى عشر ربيع الاول سنة أربع عشرة فكانت مـدته سبعة أشهر وسبعة عشر يوما وتقلبت به الاحوال الى أن ولى مسند الصدارة العظمى وكان حازما شهما قوى الجاش حسن التدبير صائب الرأى ذا خبرة بالامور واسع الكلمة مهيبا * وتولى بعده حسن باشا الدفـتردار وقـد كان واليا على اليمن ثم صرف عنها وقـدم منها صحبـة الحج الى القاهرة فتردد عليه الناس وزاره الامراء والعلماء والأكابر فشاهدوا منه رجـلا عاقلا أديبا محتشمـا وأقام بالقاهرة أياما كان يبحث فيها عن أحوال البلاد وسير الكشاف ومعاملة أرباب الحل والعـقد لاهالى البـلاد فوردت الاخبار الى القاهرة فى يوم الاثنـين ثالث ربيع الاول سـنة أربع عشرة وألف بولاية حسن باشا المـذكور على الديار المصرية وقـد كان اذا أتى لزيارة الكبراء والامراء والعظماء توجـع لهـم مما يشاهـده من ضنك الأهالى وفاقة الناس واشتداد الكروب ويقول اذا آتانى الله سبحانه ولاية مصر بذلت فى اصلاح الاحوال مهجتى فلما جاءته الولاية واستقر بها لم يمنع ولم ينفع واختلت أموره وقصرت كلمته وعمت البـلوى وانقفل فى وجه أصحـاب الظلامات باب الشكوى فعاث العسكر فى أيامه وعادوا الى التمرد

مطلب
ولاية جرجى محمد باشا الخادم

مطلب
ولاية حسن باشا الدفتردار

مطلب
ولاية الوزير محمد باشا

والافساد فلم يقدر على ردهم فاشتدت الفتنة وظهر أهل الفساد وارتفع الامن وسدت الطرق فى وجوه أبناء السبيل وقل الوارد من المأكول الى القاهرة ومصر القديمة فغلت الاسعار وتعذر على الفقراء الحصول على قوت اليوم ولبث الحال على هذا الوصف حتى صرف عن الولاية فى يوم الاربعاء رابع صفر سنة ست عشرة وألف فكانت مدته سنة واحدة ونصفا وستة وعشرين يوما* ثم تولى بعده الوزير محمد باشا فدخل القاهرة يوم الخميس خامس عشر صفر الخير سنة ست عشرة وألف وكان حازما عاقلا ذا فكرة وتدبير ساكن القلب هادئ اللب كثير الصبر والجلد فلما استقرت به الولاية التفت الى أمور البلاد وحاجات الخلق و بالغ فى ترتيب الاحوال وتأمين السبل وابعاد أهل البغى والفساد وأخذ الكل بالشبهات فانحرفت لذلك خواطر الامراء عنه وابغضه الجند وكثرت عليه الشكاوى من جور الكشاف وأخذهم أموال الناس فلما كان غاية جمادى الاولى من السنة المذكورة استقدم اليه ابن درغت كاشف المنوفية وبرويز مجر كاشف الغربية وكوسى كاشف البحيرة وعوقهم عنده بقلعة الجبل الى غروب اليوم ثم أمر برمى أعناقهم وولى مكانهم آخرين وأخذ عليهم العهود والمواثيق أن لايظلموا الرعية ولا يتعدوا الحدود وكان ممن عين لكشافة الغربية الحلوجى فاتفق انه بعد توليته ذهب الى بولاق القاهرة لقضاء مصلحته فالتقى بطائفة من العسكر وقد علموا بولايته على اقليم الغربية فسألوا منه حاجة فلم يجبهم اليها وأغلظ معهم فى القول ونهرهم فاطلق عليه بعضهم طبنجة محشوة بالبارود فانزعج وألقى بنفسه الى النيل فانقلته ثيابه فمات غريقا وبلغ الخبر محمد باشا فجمع اليه الأمراء وأكابر العسكر بالميدان تحت قلعة الجبل ونشروا البيرق السلطانى ونادى منادى من كان مطيعا لله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وولى الامر فليدخل تحت لواء السلطنة الشريفة العثمانية فاجتمع عالم كثير من الامراء وأكابر العسكر ومكثوا بالميدان ثلاثة أيام ثم طلع الامراء الى قلعة الجبل فكلمهم الباشا طويلا فى أمر هؤلاء الخوارج وقد كانوا بعد موت الحلوجى اجتمعوا خارج سور القاهرة وانضم اليهم طوائف أخرى من العساكر والاجناد وقسموا بينهم بلاد مصر وأقاموا عليهم سلطانا منهم واختص كل فريق بجهة من جهات مصر العليا والسفلى وتفرقوا على ذلك فعاثوا وأفسدوا الحرث والنسل وسدوا الطرق وقطعوا السبل ومنعوا ورود الاقوات الى القاهرة فاستقرت القاعدة مابين محمد باشا والامراء فى ذلك اليوم على الخروج بطائفة من الجند لقتالهم فخرجوا واقتتلوا معهم قتالا شديدا وظفروا بهم ومزقوا شملهم وقبضوا على زعمائهم وأصحاب الكلمة منهم وقدموهم الى محمد باشا فأمر بقتلهم بين يديه وتتبع الجند من بقى منهم فى المدن والقرى وابادوهم الا من طال عمره وخمدت نار الثورة ثم لم تكد تطمئن خواطر الخلق حتى ظهر جماعة من لموم الاشقياء فى أوائل القعدة سنة سبع عشرة وألف واجتمعوا من الاقاليم القبلية والبحرية وتألفوا حزبا واحدا وحالفوا لمن بقى من متشردى اولئك العسكر بعد الواقعة الأولى على الأخذ بثارهم وقطع

دابر الامراء وأكابر الدولة ونصبوا خيامهم بالمرج والزيات وتحالفوا على الهجوم والقتال فلما علم محمد باشا بخروجهم أرسل لهم جماعة من الاختيارية الموصوفين بالعقل والتجربة فوعظوهم وحذروهم عاقبة هذا الامر فلم ينتهوا فعادوا وأخبروا الباشا بما كان فجمع الباشا طوائف العربان ومشايخها من الاقاليم وجميع العساكر والاجناد وجيش منهم جيشا عظيما مدججا بالسلاح وآلات الحرب وعدة من المدافع وجعل مقدمه الامير مصطفى بك سردار العساكر فسار مصطفى بك بهذا الجيش لقتال الخوارج فلما وصل الى بركة الحاج تراءى الجمعان فاقتتلا قتالا شديدا وظفر بهم مصطفى بك وضيق عليهم المسالك فطلبوا الامان واختلط الجيشان فقبضوا على أشرارهم ومقدميهم وهرب من خلص منهم فتبعتهم العربان وقتلتهم وعاد مصطفى بك الى القاهرة بمن معه من الخوارج وهم مشاة حفاة حاسرو الرؤس مكبلون بالحديد ورؤس القتلى مرفوعة على الرماح ودخلوا جميعا من باب النصر والناس ينظرون اليهم ومروا بالقصبة الى أن وصلوا الى القلعة فلما تمثلوا بين يدى محمد باشا أمر بجماعة منهم فقتلوا فى ساعة وصولهم والباقى منهم قتل فى ليلة وصوله وألقوا جثثهم فى النيل ثم أخذوا يتتبعون اثر من بقى منهم فكانوا اذا عثروا بأحد نفوه الى اليمن ومازالوا حتى لم يبق منهم أحد وصفت الحال وسكنت خواطر الخلق واطمأنت قلوب سكان مصر والقاهرة * ووجه الباشا عنايته الى ترتيب خراج البلاد وابطال الكلاف والمغارم وتخفيف الضرائب وابطال طريقة جباية الاموال التى كانت جارية من عهد دولة المماليك الشراكسة ورسم بجبايتها على ماجاء فى حكم السلطان سليمان الموقع فى ستة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وكان شفوقا بالرعية محبا للضعفاء آخذا بناصر المظلوم نافذ الكلمة لا يرد له أمر وما زال محفوظا الى ان اختار العود الى دار السلطنة وتنزيل نفسه عن ولاية مصر فخرج فى يوم السبت ثانى جمادى الآخرة سنة عشرين وألف فى جلالة وموكب عظيم ماتخلف عنه أحد من العسكر والاجناد والامراء فكانت مدة تصرفه أربع سنوات وأربعة أشهر واثنى عشر يوما وعمر فى ولايته جملة مبان وعدة عمارات بثغر رشيد وأخذ الجزر المقابلة لرشيد وأطيانا بالمنوفية والجيزة وعمل سحابة بطريق الحاج فلما بلغ دار السلطنة ولى مسند الصدارة ثم أرسل بجيش جرار لقتال ملك فارس فلم يقارن أعماله توفيق ولم ينجح له تدبير وعاد مهزوما فولاه السلطان ولاية حلب فأقام بها قليلا ومات

فتولى بعده على مصر حاجى باشا بأمر سلطانى أحضره اليه محمد باشا قبل سفره الى الديار الرومية وسلمه اياه بمدينة بلبيس فى يوم السبت ثالث رجب سنة عشرين وألف ودخل القاهرة وتصرف لغاية يوم الخميس العشرين من شعبان من السنة المذكورة فكانت مدته شهرا واحدا وسبعة عشر يوما وتولى بعده محمد باشا المعروف بالصوفى ودخل القاهرة فى ثانى عشرى شعبان وجعل يتصرف فى الامور فكان ظاهره اللين والرفق بالرعية وتأمين السبل وقطع شأفة أهل الفتن والفساد فلما كان فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وألف قدمت الى مصر طائفة من عسكر الدولة يبلغون زهاء أربعة آلاف غير

مطلب ولاية حاجى باشا وخلعه وولاية محمد باشا المعروف بالصوفى

الاتباع وكان السبب فى قدومهم انهم ثاروا على الدولة وخرجوا عن طاعة كبارهم وكادت فتنهم تعم فدبر الصدر الاعظم فى ابعادهم الى مصر وأشاع بينهم انه يريد بقاءهم بها رباطا مستديما فلما وصلوا الى القاهرة أتى الى محمد باشا مرسوم سلطانى بتجهيزهم الى بلاد اليمن وامدادهم بما يلزم من المؤن والعلائف ودواب الحمل قدر الاستطاعة فلما تحققوا انها مكيدة عصوا وتمردوا فأعلمهم محمد باشا بالخروج بعد ان صرف لهم جوامك السفر وسير معهم فندق بك أحد الامراء ليسير بهم الى مدينة السويس فبرز فندق بوطاقه يوم ثالث عشرى ربيع الآخر من السنة المذكورة فمر الوطاق بباب زويلة ثم الى باب النصر وكان به أولئك العسكر فقاموا عليه ورموا بالخيام من فوق ظهور الجمال ومنعوهم من الخروج وهاجوا وماجوا ونادوا بالويل والثبور على السلطان ورجال دولته فوصل الخبر الى محمد باشا فجمع من وجد بمصر اذذاك من العسكر ورسم الى فندق بك بالخروج الى الريدانية بالعسكر واجهار النداء بأن جميع العسكر الذين قدموا من دار السلطنة يخرجون صحبة السردار المعين ومن خالف قبض عليه وجوزى فامتنعوا جميعا وأغلقوا بابى النصر والفتوح ورموا خلف البابين بالاحجار وتحفظوا من كل جانب ومنعوا كبارهم من الخروج الى الريدانية والطلوع الى الديوان ونصبوا حواجز بالشوارع الموصلة اليهم وتحصنوا بكثير من المتاريس وصعد جماعة منهم الى أعالى الخانات والربوع والبيوت والجوامع والمنارات وهم ينتظرون من يقدم عليهم فلما بلغ محمد باشا خبر هذا التحصين وان لاطاقة لفندق بك ومن معه على اخضاع أولئك الخوارج جمع الصناجق والكشاف ومقدمى الخفر بميدان الرميلة وتشاوروا فى الامر فاستقرت القاعدة بينهم على ان يسيروا اليهم فساروا فلما عاين الخوارج ذلك الجمع اذعنوا للطاعة وأجابوا ورفعوا الحصار وأزالوا المتاريس وفتحوا الابواب وطلبوا الامان ودواب الحمل فأحضروا لهم مايزيد عن ثمانين جملا فلما وصلت اليهم الجمال عادوا الى العصيان وضربوا الجمال بالسيوف فنفرت وتشردت وقفلوا الابواب ثانية وعادوا الى أقوى مما كانوا عليه من التحصين وشاع الخبر بأنهم قتلوا كبارهم ولم يبقوا على أحد فأمر محمد باشا السردار بالخروج فخرج ومعه جمع كبير من الامراء والاجناد واثنى عشر من كبار الامراء وطائفة من حارة الفوالة وساروا الى الخوارج بستة مدافع كبار محشوة بالفلوس الجدد والمسامير ونودى للرعايا الملاصقين لاماكنهم وبيوتهم بغلق الحوانيت والبيوت فلما وصلوا اليهم وجدوهم متيقظين متحفظين بعلو الاسطحة والمآذن فلما تراءى الجمعان التحم القتال فكان كل ماألقى العسكر من الرصاص و النشاب والاحجار لايصل الى الخوارج لعلوهم على العسكر وكل ما ألقاهم على العساكر نال منهم فقتل من العساكر سبعة فهال مقدم عسكر الوالى هذا الامر وخشى استفحال أمر هذه الفتنة وقد اشتد رمى الخوارج وتتابع على العسكر فجعل مقدم عسكر الوالى يتدبر فى الوصول اليهم من وكالة البطيخ وما زال حتى اتصل اليهم بجماعة من العسكر واتصل الامير قاسم والامير عبدى

من خلفهم وتقدم الامير يوسف الغاص بأصحابه فرفع الحواجز والمتاريس ونقبوا عليهم أماكنهم ودخلوا عليهم فلما اشتد الحال عليهم ولم يجدوا لهم قوة على القتال وعلموا أنهم مأخوذون لامحالة طلبوا الامان وأجابوا بالامتثال فى السفر الى حيث شاء الباشا فأخرجوا جميعا ولم يتخلف منهم أحد وسيروا بهم الى السويس وزالت الفتنة وسكن الحال واطمأنت خواطر الناس وعادت جميع الامور الى سابق مجراها * وسار محمد باشا فى الرعية سيرة حسنة وكان شفوقا عليهم ميالا لخيرهم فرفع كثيرا من المغارم القديمة وأبطل بعض المكوس الفادحة وكان يجلس بنفسه للنظر فى مصالح الخلق ويوقع على مارفع اليه من القصص فزالت فى أيامه القلاقل والفتن ودرت الارزاق وحصل رخاء عظيم حتى بيع الاردب القمح بخمسة وعشرين نصفا فلوسا نحاسا والفول كل اردب بخمسة عشر نصفا والعدس والبسلة كل اردب بثمانية عشر نصفا وكثر وارد المأكولات وتنازلت أثمان غير ماذكر ففرح الناس فرحا عظيما ومالوا اليه بقلوبهم وأحبوه محبة عظيمة * فلما كان فى يوم الاربعاء عاشر ربيع الاول سنة سبع وعشرين وألف ورد مرسوم سلطانى بصرف محمد باشا عن ولايته فكانت مدتها ثلاث سنوات وستة أشهر وثمانية وعشرين يوما فحزن الناس عليه كثيرا * وتولى بعده أحمد باشا الدفتردار ودخل القاهرة فى يوم الخميس حادى عشر ربيع الاول سنة سبع وعشرين وألف فى موكب عظيم مشى فيه جميع العساكر والاجناد وهو على فرس وعلى رأسه عمامة بريشتين قيل ان قيمة كل ريشة منهما ألف دينار فلما وصل بموكبه الى الجواخين سقط على فرسه حجر من طاقة ببيت بالربع الذى يعلو حوانيت الجواخين فألقى احدى الريشتين على الارض ومزق جانبا من القماش فقبض فى الحال على من ألقى الحجر فتطير أحمد باشا من ذلك وأمر برمى عنق الرجل فرموا عنقه وكان الرجل يوصف بخبال العقل وما زال فى موكبه حتى صعد الى قلعة الجبل واحتجب أياما لايراه أحد ثم جلس للناس وتصرف فى الامور فكان حاكما سياسيا صاحب تدبير سهلا فى أموره قريبا من الناس ليس عنده تحجب ولا غلاظة محبا لخير الرعية ميالا لاسعاد البلاد فكان يأتى الى أحسن الامور من أبوابها حتى اجتمعت القلوب على محبته واتحدت على طاعته وهابه الحكام وخافه الولاة والكشاف وساروا بسيرته الا القليل وعمت الراحة أفراد الرعية وراجت أسباب الزراعة وكثرت غلات البلاد كثرة عظيمة

مطلب
ولاية أحمد باشا الدفتردار

فلما كان شهر شوال وردت الاخبار الى أحمد باشا بموت السلطان أحمد مات فى اليوم العاشر من القعدة سنة سبع وعشرين وألف حتف أنفه وهو آخر السلالة المتصلة من عمود هذا النسب وكان عادلا محبا للخير أرسل الى حرم صاحب الشريعة الاسلامية حجرا من الماس قيمته يومئذ اثنا عشر ألف دينار وأكثر ورسم بأن يوضع فى الحجرة وهو موجود الى الآن وأرسل أيضا جملة هدايا وتحف وميزابا من الفضة مموها بالذهب فوضع موضع الميزاب العتيق قيل وله خيرات أخرى كثيرة وكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة

وأربعة أشهر وعشرة أيام فتولى بعده السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أخو السلطان أحمد المشار اليه

ومات فى سلطنته متاوس بطرك المتأصلين بعد ان أقام ثلاث عشرة سنة وكانت أيامه كلها هادئة مطمئنة فأقيم بعده غبريال وهو حادى تسعيهم فأقام ثمان سنوات ومات فأقيم بعده ميخائيل وهو ثانى تسعيهم وكان تقيا فاضلا متواضعا فلم تطل مدته غير سنة واحدة ومات فأقيم بعده يوحنا وهو ثالث تسعيهم وأصله من بلدة نقادة من صعيد مصر وكان فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل السابع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالامر بعد السلطان أحمد أخوه السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أول من ارتقى على سرير السلطنة من اخوة ملوك بنى عثمان بويع له بالملك ثالث عشرى ذى القعدة سنة سبع وعشرين وألف هجرية أى سنة سبع عشرة وستمائة وألف ميلادية وكان فى مدة سلطنة أخيه أحمد مقيما فى محل داخل السراى السلطانى ممنوع التصرف والاجتماع بالناس لايمكن من الخروج من مكانه وعنده بعض صبيان يخدمونه قيل وهو موصوف بالصلاح والتقوى لاالتفات له الى سلطنة ولا الى تصرف فى أمر من الامور وكان كلما اجتمع بأخيه السلطان أحمد يقول له لاحاجة لى بسلطنة مطلقا وكان يقال ان السلطان أحمد كلما خطر بفكره شئ من قبل أخيه السلطان مصطفى كان مصطفى يقول له ارجع ياأحمد عما تقصده قيل فكان ذلك سببا للكف عنه فلما تولى السلطنة ظهر عجزه اذ كان ضعيف الرأى منبوذ الكلمة لاهيبة له ولا وقار مغلوبا على أمره والكلمة لوزيره الاعظم واتفق عقب توليته بأيام ان هرب أحد أشراف بولونيا وكان معتقلا فى دار السلطنة بعد الحرب التى أخذ فيها أسيرا وكان هروبه بمساعدة سفير دولة الفرنسيس فى دار السلطنة فأكبر الصدر الاعظم هذا الامر وأعظمه وأمر فقبضوا على السفير وكاتبه وترجمانه وألقوهم جميعا فى السجن ووصل الخبر بذلك الى عاصمة الفرنسيس فهاجوا وماجوا وكادت الحرب تقوم على ساقها وبالغت دولة الفرنسيس فى التهديد والوعيد والتأهب والاستعداد وكثر الاخذ والرد بين الفريقين أياما ثم كان من أمر ذلك ماسيذكر فى سلطنة السلطان عثمان خان الثانى

واستمر أحمد باشا الدفتردار يتصرف فى ولاية مصر لاراد لكلمته ولامانع لامره وقد خافه الجند وهابه العسكر فاعتنى بأمرهم واهتم بصرف مرتباتهم وجامكيهم وعلوفاتهم فساروا

سيرة حسنة وانكفوا عن الايذاء والشر وأمسوا وهم طوع أمره ثم ورد الى الباشا المشار اليه مرسوم السلطان بأن يجيش نحو ألف من العسكر المصرى نجدة لعسكر السلطان القائم الى اليمن لقتال الخوارج من الزيديين وقيل لقتال ملك فارس فأرسلهم صحبة الامير صالح بك أمير الحاج وزودهم بالمال والسلاح والعلوفة فساروا ومروا بالاقاليم المصرية ولم يقع منهم شئ ولا لحق بالاهالى من مرورهم ضرر وقد كان قبل ذلك إذا مر عشرة منهم بقرية أومدينة عاثوا فيها وأقلقوا راحة أهلها وأهلكوا الحرث والنسل وفعلوا مالا خير فيه فلما فرق فيهم المال نال الرجل منهم عشرين دينارا وبينما هو يتصرف فى الامور على ماألفه من العدل واغاثة الملهوف اذ جاءه الخبر بخلع السلطان مصطفى وتولية السلطان عثمان * وتحرير الخبر * أنه لما كان السلطان مصطفى ممن تربى فى حجر الانزواء وكانت أحواله مخالفة للألوف من حال الزمان وكان مغلوبا على أمره كما تقدم القول لم تطل مدة تصرفه سوى ثلاثة أشهر وعشرة أيام ثم قام عليه كبار الدولة وأصحاب الكلمة وبينهم شيخ الاسلام وقظلار أغاسى السراى السلطانية وبعض الحرم فخلعوه ليلة الاربعاء ثالث ربيع الاول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية ثم أودع فى جب داخل السراى * قال بعض الكتاب وسد عليه بابه ماعدا روزنة لطيفة ينزل منها الطعام والشراب وولوا بدله السلطان عثمان ابن السلطان محمدخان الثانى

(الفصل الثامن)

(فى سلطنة السلطان عثمان بن السلطان محمدخان الثانى)

ثم قام بالامر بعد السلطان مصطفى السلطان عثمان ابن السلطان محمد خان الثانى بويع بالملك يوم الاربعاء ثالث ربيع الاول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية أى سنة تسع عشرة وستمائة وألف ميلادية وله من العمر احدى عشرة سنة لاغير * قال بعض أصحاب التاريخ فكان مع صغر سنه واسع الفكر هماما ذاهيبة فأول عمل بدأ به هو أنه أمر فأطلقوا سفير الفرنسيس وكاتبه وترجمانه من الحبس وسير الى ملك الفرنسيس وهو يومئذ الملك لويز الثالث عشر رسولا يستعطفه ويستميله الى الصفح فأجابه الى ذلك وعادت الامور بين البلادين الى سابق مجراها فعمد السلطان بعد ذلك الى اصلاح مافسد من أحوال الدولة ودفع ما استولى على جميع أمورها من الخلل فلم يتمكن لخروج العساكر عن الطاعة وتطرق الفساد الى جميع المصالح وأخذ الاوغاد والاغرار بزمام جميع الامور وتصدرهم فى الوظائف العالية والمراتب السامية ومع ذلك فان هذه الشوائن لم تقعده عن الغزو وفتح المدن والبلدان فتأهب لقتال مملكة بولونيا وجعلها حدا بين أملاكه وأملاك الروس وجيش لذلك الجيوش وأعد المعدات وخاف ان يترك أخاه الامير محمدا فى دار السلطنة فينازعه فى الملك فأمر بقتله صبرا

وكان الى هـذا الحين لايبرم أمرا فى دار السلطنة الاباشارة مفتيها ولا يتم للسلطان ورجال الدولة عـمل الا برأيه فكان يعـزل ويولى من يشاء من الولاة والحكام ويمضى الاحكام بـلا معارض ولا منازع فخاف السلطان منه وخشى من تركه فى دار السلطنة على هذا الحال من نفوذ الكلمة وبسط اليد لاسيما وقد كان الانكشارية لايقفون عند حـد وقد تفشى الخلل والفساد بين كبارهم وصغارهم فنزع منه ذلك النفوذ وأبعد عنه تلك الهيبة وأوقفه عند حد الافتاء لاغير ليأمن شره وسـير فى طلب أحمـد باشا الدفتردار والى ديار مصر فجاءه المرسوم السـلطانى بالانصراف عن الولاية فانصرف عنها فى يوم الخميس ثالث عشر صـفر سنة تسع وعشرين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنتين واحد عشر شهرا وثلاثة أيام كلها اسعاد وبركة وخـير ورفاهيـة على البـلاد وأهلها

مطلب
ولاية مصطفى باشا السلحدار

وولى بعده مصطفى باشا السلحدار فدخل القـاهرة فى ثالث عشر صفر من السنة ثم سار السلطان بجيوشـه لغزو مملكة بولونيا فالتقى الجمعان واقتتـلا قتالا عنيفا للغاية ولما كانت طوائف الانكشارية مضـطربة الاحوال ناقمة على السلطان تقاعست عن الحرب وأظهرت الملل وطلبت مخابرة البولونيـين فى تقرير قاعـدة للصلح والكف عن القتال فمانع السـلطان فى ذلك وأبى الا القتـال حتى يتم له النصر فلم يفلح وأبى الانكشارية الا عقـد الصلح وألحوا فى الطلب وبالغوا فى التهـديد فتقرر الصلح بين الفريقين وعاد الانكشارية الى دار السلطنة الى ان كان من أمرهم ماسيتلى عليك فى موضعه * ولما عاد السلطان الى القسطنطينية خلع مصطفى باشا عن ولاية الديار المصرية أخريات سـنة تسع وعشرين فكانت مدة تصرفه سنة الا شهرا لم يأت فيها من الاعمال شئ يذكر فانه كان ضعيف الرأى خامل الفكر كثير التحجب والانزواء * وولى بعده جعفر باشا وكان جعفر باشا هذا لما قدم من اليمن أقام بالقـاهرة أياما والناس يترددون عليه فكان ذا علم وفضل ومشاركة فى غالب العلوم العاليـة وابحاث جيـدة فلما رأى اقبال النـاس عليه وميـل قلوبهـم اليه طمع فى الولاية فأرسـل الى دار السلطنة التماسا بذلك ولبث ينتظر الجواب وكان لما علم مصطفى باشا بذلك خشى الفتنة وساءه مافعـله جعفر باشا فأرسل اليه بعض كبار الامراء يحثه على الرحيل عن مصر ويعلمه شر عاقبة البقاء فامتنع أولا ثم عاد فأذعن وسافر برا فى نفر من أتباعه وحاشيته ولكنه لم يلبث ان عاد بمرسوم الولاية فخرج لاستقباله الامراء والعلماء وأكابر الدولة وكبار العسكر ودخل القاهرة فى موكب لم يعهد له مثيل وفرح العامة والخاصة بقدومه وكان دخوله القاهرة فى أواسط صفر سنة ثمان وعشرين وألف كما تقـدم القول فـلم يسـتقر به المقام حتى فشا الطاعون بمصر والقاهرة ثم عم جميع القرى والمـدن وكثر الموات فى النـاس واشـتد اشـتدادا عظيمـا فقـفلت الاسواق بمصر والقاهـرة قال بعض كتاب الاخبار الا أسواق الاكفان فلم تقفل ليلا ولا نهارا ومنع جعفر باشا عامل الاموات من التعرض للأموات فكان الناس يدفنون موتاهم بغـير اذن فى الليـل والنهار

مطلب
ولاية جعفر باشا

واستمر الحال على هذه الشدة نحو الشهرين مات فيهما خلق كثير لايكاد يدخل تحت حصر ثم ارتفع الموات وزال فسكنت القلوب واطمأنت الخواطر وكره الناس جعفر باشا وتطيروا من ولايته وحسبوها شؤما على البلاد * فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف جاءه مرسوم السلطان بالعزل فسافر بحرا الى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه ستة أشهر وأياما قال بعض كتاب الاخبار فلم يقم بالديار الرومية الا أشهرا قلائل ومات فعاد ولده الى مصر وعاش بها فقيرا وليس له من يسأل عنه

مطلب
ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة فى عاشر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف فلم تستقر به الولاية حتى جار وظلم وضرب المغارم والمكوس وأكثر من جمع الأموال بجميع وسائل العسف والقهر وشدد على أصحاب الأموال وضيق وهدد وبالغ فى الارهاب فكثر الوشاة وأصحاب السعاية على بابه ينقلون له أخبار الناس فضاقت أحوال أصحاب الأموال واختلت جميع الأمور فكان من وشى به اليه وبذل ماطلبه منه سلم ومن تقاعس ولم يبذل حقر وأخذ منه أكثر مما طلب منه قال بعض كتاب الأخبار وتتبع أثر مصطفى بك البقجلى زعيم ثورة الجند التى حصلت على عهد مصطفى باشا وقبض عليه وقتله بيده فظن الناس قيام الفتنة بسببه وتمنوا ذلك فلم يحصل فكبر خوفهم منه ورفعوا ظلامتهم الى دار السلطنة وضجوا وطلبوا خلعه فجاء مرسوم السلطان بخلعه فى ثالث رمضان سنة تسع وعشرين وألف فكانت مدة تصرفه سنة الا ثلاثة أيام

مطلب
ولاية حسين باشا

وتولى بعده حسين باشا فى ثالث عشرى الشهر المذكور ووصل الى القاهرة وأدرك مصطفى باشا المعزول قبل سفره فمنعه من السفر وأنزله من قلعة الجبل الى بيت مراد باشا بالسبع قاعات بالقاهرة وجعل على بابه الحرس وتركه على هذا الحال أياما ثم طلبه فلم يجده وكان قد تخلص بتدبير أحد كبار الدولة وسار الى الديار الرومية فتبعه كثير ممن صادرهم وأخذ أموالهم فادعوا عليه ونالوا منه وأخذوا جميع ما كان اغتاله منهم وسار حسين باشا الوالى الجديد سيرة حسنة للغاية فأبطل بعض المغارم والمكوس المستحدثة على أيام مصطفى باشا ورتب أمور الدولة وأحكم نظام مااختل منها أيام أسلافه ووقع فى أيامه غلاء عام حتى بيع إردب القمح بالكيل المصرى بمائتى نصف فضة والشعير بمائة وعشرين نصفا والفول بمائة وستين نصفا وكذلك بقية الغلال فكانت شدة عظيمة للغاية * ثم زاد النيل زيادة فوق الحد وعم جميع الارض وثبت على الزيادة فوق جميع الاراضى لغاية شهر هاتور القبطى حتى كاد الناس ييأسون من زرع الأرض ثم هبط فتمكنوا من الزرع ولكنه لم يأت الا بما قل من المحصول وضربت على الناس فى أيامه أيضا ضريبة جديدة هى ضريبة النطرون وقد فرضت على جميع المدن والثغور فتألم الناس منها وراجعوه فى رفعها فلم يرض فانحرفت الخواطر عنه وابتعدت القلوب ونقموا عليه وظهر الخلل فى جميع أمور الدولة واستخف الناس بحرمته وزالت عنهم هيبته فعاد أهل الفساد فى جميع المدن

والقرى

والقرى للعبث وكاد يستفحل أمرهم فلما كان عاشر ربيع الآخر سنة احدى وثلاثين وألف جاء مرسوم السلطان بعزله فكانت مدة تصرفه سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام

مطلب
ولاية محمد باشا البستنجي

وتولى بعده محمد باشا البستنجي في حادى عشرى ربيع الآخر ولكنه لم يقدم الى مصر لقيام الفتنة فى دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان عثمان وخلعهم اياه ثم سجنه ثم قتله فناب عنه فى الولاية على مصر حسن افندى الدفتردار * قال أصحاب التاريخ لما ظهر عصيان الانكشارية أيام قتال البولونيين امام مدينة شولزم واكراههم السلطان عثمان على عقد الصلح مع البولونيين والكف عن القتال والحاحهم فى ذلك عاد السلطان الى القسطنطينية وقلبه يلتهب غيظا وأقسم ان يستأصل الانكشارية ويمحو آثارهم عن وجه الأرض فرسم من هذا الحين بجمع عسكر جديد فى بعض عمالات آسية وجعل يعد لهم المعدات ويبالغ فى اتقانهم وتنظيمهم فأحس الانكشارية بذلك وعلموا ماوراء التقاعد والسكوت فقاموا على قدم واتحدوا على خلع السلطان فخلعوا بيعته فى التاسع من رجب سنة احدى وثلاثين وألف هجرية ودخلوا عليه فى قصره وهو بين نسائه وجواريه وقبضوا عليه وأخذوه قهرا الى محلتهم وسبوه بأقبح السب والشتم ثم نقلوه الى قلعة يدى قله فلبث بها يوما وبعض يوم ثم دخل عليه جماعة من كبار الدولة وأصحاب الفتنة فقتلوه ونادوا بولاية السلطان مصطفى الأول ثانية بدله وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فكانت سلطنة السلطان عثمان أربع سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام وكان جليل القدر واسع المعرفة كبير السياسة عظيمها شديدا فى الحروب عظيم التدبير ومع هذا كله فانه لم يفلح مع جماعة الانكشارية ولم يقدر على ابادتهم كما كان يتمنى

ومات فى سلطنة السلطان عثمان يوحنا بطرك المتاصلين فكانت أيامه كلها شدة وعناء وضيق وفناء ومصائب واحن ومحن ذاق فيها القبطة من جور العمال وظلم الحكام وعسفهم أشكالا وكانت مدة تصرفه ثلاث سنوات فأقيم بعده يوحنا وهو رابع تسعيهم وأصله من بلدة صدفة يعرف بابن المصرى وكان تقيا ورعا كثير الصدقة مهيبا محبوبا ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل التاسع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانية)

ثم قام بالأمر بعد قتل السلطان عثمان السلطان مصطفى ارجعوه الى تخت الملك ثانى يوم قتل السلطان عثمان فى ثامن رجب سنة احدى وثلاثين وألف هجرية أى سنة ثمان

وأربعين وستمائة وألف ميلادية ولم تستقر به السلطنة حتى قامت الفتنة واشتد لهيبها فانه
لما تم لطوائف الانكشارية ماأرادوه من خلع السلطان عثمان وقتله كبر استخفافهم بالامور
واستصغارهم لكبار الدولة ورجال السلطنة فعاثوا فى القسطنطينية وأفسدوا وصاروا يعزلون
ويولون من يشاؤن من الوزراء وكبار الدولة ويبيعون الوظائف جهارا ويقبضون على من
يتوسمون فيه سمة الانكار حتى اختلت جميع الامور وفسد نظام الدولة وزالت هيبة
السلطنة وظهر الاوغاد وأسافل الناس وقبضوا على زمام الأمور واشتد الكرب وسرت نار
الفتنة الى جميع العمالات التابعة لدار السلطنة فنهض والى طرابلس الشام ووالى ارضروم
الى شق عصا الطاعة وركب والى ارضروم فى عسكر عظيم للغاية ونادى بالثارات عثمان
ونزل على مدينة سيواس وانقره وفتحهما واعمل السيف فيمن كان فيهما من طوائف الانكشارية
وضبط أموالهم وأرزاقهم ثم سار الى مدينة بروسة وقد تبعه والى سيواس ووالى سنجق قره
شهر فحاصروها وأقاموا على حصارها ثلاثة أشهر حتى دخلوها عنوة ووردت الاخبار بذلك
الى القسطنطينية فلم يلتفت اليها لاشتغال طوائف الانكشارية بالنهب والسلب والقتل
واراقة الدماء ظلما وظل الحال على ذلك من الخلل والارتباك سنة ونصف سنة والناس
فى ضيق ماعليه من مزيد ثم اجتمع رجال الدولة واتحدت كلمتهم على تولية على باشا كما نكش
منصب الصدارة وتفويض الأمور اليه لعله يتمكن بخبرته من ارجاع الامور الى سابق مجراها
فتولى المنصب وجعل يتصرف فى الامور ويدبر الاحوال جهد الاستطاعة ويعمل على اعادة
الامن الى داخلية البلاد ويدفع غارات الانكشارية عن أهلها بالتى هى أحسن حتى كان
من أمره بعد ذلك ماسيذكر فى محله * ولم تثبت نيابة حسن افندى الدفتردار فى ولاية مصر
عن محمد باشا البستانجى فقد صرف محمد باشا المذكور عن الولاية قبل أن يقدم الى مصر
فكانت مدة تصرف حسن افندى الدفتردار أربعة أشهر وسبعة أيام

مطلب
ولاية ابراهيم باشا السلحدار

ثم تولاها ابراهيم باشا السلحدار ودخل الى رشيد فى يوم الجمعة ثانى عشرى شعبان سنة
احدى وثلاثين وألف ووصل الى القاهرة فى أوائل رمضان من السنة وكان ذا فكر ومهابة
واسع الدراية صاحب تدبير ولكنه كان محبا للمال والكسب بكل ماتصل اليه قدرته واتفق
انه وقع فى أيامه غلاء زائد جدا فجاء الناس من الاقطار الحجازية والديار الشامية ومن غزة
وغيرها الى مصر ليمتاروا فمن كان ذا مال امتار مايحتاج اليه ورجع الى أهله ومن لا مال معه
وله قدرة على الكسب أو الخدمة صار يقتات من خدمته أو كسبه ومن لا مال له ولا قدرة
له على الكسب ولا الخدمة صار يستعطى حتى امتلأت مصر وقراها منهم فكان مابيع فى
مصر والمدن والكفور والثغور والقرى من القمح والفول والعدس والشعير وبقية الحبوب
شيأ كثيرا جدا لايكاد يدخل تحت حصر * ولما طالت أيام ابراهيم باشا تغيرت أحواله وتزايد
جوره وجور اتباعه وكثرت على الناس طلباته وطلبات اتباعه فكانت له تجارة واسعة فى
بن القهوة يأتيه من اليمن فى كل عام فكان يلزم به التجار ومشايخ الاسواق فحصل لهم بسبب

ذلك

ذلك خسارة عظيمة فشكوا اليه فلم يلتفت لشكواهم فرفعوا ظلامتهم الى بعض كبار الدولة فتحرك عليه جماعة منهم ومنعوه من ذلك فانحط قدره وقصرت كلمته وبقي مقهورا مدحورا الى أن صرف عن الولاية في يوم الاربعاء سابع رمضان سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة عشر يوما

مطلب
ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة في الثاني والعشرون من رمضان فلما صعد الى قلعة الجبل أتى اليه كتبة الديوان يشكون من ابراهيم باشا المعزول وقالوا انه أخذ من مال الخزينة السلطانية أموالا جزيلة فسير مصطفى باشا في اثره جماعة من العسكر فالتقوا به فتهددهم فرجعوا وأخبروا بما كان فسير اليه مصطفى باشا الامير صالح بك فادركه وقد نزل البحر عند الاسكندرية فسأله أن يتربص فقال اني سائر الى دار السلطنة فاذا كان على للخزينة شئ دفعته هنالك فألح عليه صالح بك فلم يلتفت لكلامه وأقلعت به المركب فأطلقوا عليه المدافع من طابية منارة الاسكندرية فلم ينله منها ضرر ونجا بما كان معه من الاموال والمتاع وكان شيأ كثيرا * فلما وصل الى القسطنطينية لم يصبه من جانب السلطنة شئ لاشتداد الفتنة يومئذ وارتباك الاحوال وتعذر ارجاع الامور الى سابق مجراها وانكماش علي باشا الصدر الاعظم ورفضه البقاء في منصب الصدارة ان بقي السلطان مصطفى في منصب السلطنة مع ما هو فيه من وهن العزيمة وضعف العقل وعدم الوقوف عند حد فلما رأى رجال الدولة أن لاخلاص من هذه الفتن الا بخلع السلطان قاموا عليه وخلعوه في يوم السبت الثالث والعشرين من ذي القعدة وقيل في الخامس والعشرين منه سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية وولوا بدله ابن أخيه السلطان مراد ابن السلطان أحمد فكانت سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة لاغير

(الفصل العاشر)

(في سلطنة السلطان مراد الرابع ابن السلطان احمد)

ثم قام بالامر بعد خلع السلطان مصطفى ولد أخيه السلطان مراد بويع له بالملك يوم الاحد في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية أي سنة ثلاث وعشرين وستمائة وألف ميلادية فكان مغلوبا على أمره لا كلمة له لحداثة سنه اذ كان لايناهز الثانية عشرة من العمر وكانت كلمة الانكشارية فوق كل كلمة ويدهم فوق كل يد * قال أصحاب التاريخ ولما كان كل من يتولى الحل والعقد في تلك الايام من أهل هذا الاختلال والغش كان الخروج من هذه الدائرة الفاسدة واصلاح الامور من المحال وشاع الخبر بذلك عند

ملوك الدول المجاورة وكثر تحدثهم به وكان ممن سره هذا الخلل وافرحه وهن أركان الدولة العثمانية عباس شاه ملك فارس لما كان بين الدولتين من البغضاء والشحناء فاغتنم هذه الفرصة وعمد الى أخذ بعض بلاد الدولة العثمانية وارجاع ماأخذ من بلاده وسار فى جيش عظيم الى بغداد فحاصرها وكان بها عسكر السلطان فأقام على حصارها حتى احتلها عنوة وأعمل السيف فى أعناق من بها من العسكر السلطانى وقتل جميع كبار الدولة وعظماء الجند ووردت الاخبار بذلك الى القسطنطينية فهال السلطان هذا الامر وأزعجه جدا وكان للصدر الاعظم كثير من الاعداء والخصوم من بطانة السلطان وقرنائه فوشوا به عند السلطان وقالوا ان سقوط دار السلام فى يد العدو انما كان بخيانة الصدر الاعظم فغضب السلطان وأمر بقتله فقبضوا عليه وقتلوه وولى مكانه شركس محمد باشا فلم تطل مدته ومات وتولى الصدارة بعده حافظ باشا

وورد مرسوم السلطان الى مصطفى باشا والى مصر بتثبيته فى مقام الولاية والايعاز اليه بالرفق بالرعية والقيام بما يلزم للحرمين وخروج الحاج فى أوقاته فقرئ بحضرة العلماء والامراء والمشايخ وأخذ مصطفى باشا يتصرف فى الامور ولكنه لم يلبث ان جاءه الامر بالعزل والعود الى الديار الرومية فلما شاع خبر عزله اجتمع طوائف العسكر على عادتهم وساروا الى عيسى بك نائب الغيبة وطلبوا أن يعطيهم العطايا التى كانوا يأخذونها عند تولية الولاة فلم يعطهم ومنعهم من الاتيان الى ديوانه فألحوا فى الطلب وكرروا النداء فلم يلتفت اليهم فاجتمعوا وساروا من وسط المدينة وهم يضجون وينادون لانريد أحدا يتولى أمور البلاد غير مصطفى باشا وكان مصطفى باشا بعد أن جاءه الامر بالعزل لبث ينتظر الخلف وما زال الجند يطوفون وينادون الى أن وصلوا الى قره ميدان فتحالفوا على أن يكونوا جميعا يدا واحدة وقلبا واحدا ووصل الخبر بذلك الى مصطفى باشا ففرح فرحا لايوصف وتقوت عزيمته وكتب الى دار السلطنة يلتمس البقاء على ولاية مصر وكذلك كتب العلماء والمشايخ والقضاة فلم تكد تصل رسل مصطفى باشا الى دار السلطنة حتى وصل الخبر بوصول على باشا الوالى الجديد الى ثغر الاسكندرية فسيروا اليه فى الحال من يعلمه بان الجند وأهل البلاد كافة لاتقبله فبعث هو كتابا الى العسكر وكافة الامراء والاجناد وأعيان البلاد يمتدحهم ويثنى عليهم ويقول أما بعد فانى لم آت الى مصر الا طائعا لامر السلطان الذى يجب على وعلى كل مسلم صحيح الدين طاعته فلما قرئت الكتب على أهل الحل والعقد سيروا اليه ثانية يقولون انا لانقبلك فقبض عند ذلك على الرسل وقيدهم فى سجن قلعة الاسكندرية وكان العسكر المرابطون فيها اخوانا لاولئك الرسل ففكوا فى الحال قيودهم وهجموا جميعا على وطاق على باشا المذكور بسيوفهم وقبضوا عليه وأنزلوه فى مركب وأخرجوه من مينا الاسكندرية وكانت الريح معاكسة فأعادت المركب الى المينا قهرا فأطلق عليه الامير مصطفى امير جند قلعة المنارة

عدة طلقات ثقبت المركب عدة ثقوب ولم تغرقها فخرج القارب من فوره قاصدا الديار الرومية وعاد الرسل الى القاهرة فأخبروا بما جرى ففرح مصطفى باشا بذلك

ولما كان العشرون من ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين قدم الى القاهرة من الاسكندرية طائر البطاق يحمل الخبر بقرب وصول قابوجى (أى رسول) من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى فبعد أيام قلائل وصل القابوجى المذكور ودخل القاهرة فى موكب حافل للغاية وصعد الى قلعة الجبل وجمع الامراء والعلماء وجميع الصناجق وتلا عليهم الفرمان بتثبيت ولاية مصطفى باشا على مصر اجابة لطلبهم ثم ألبس مصطفى باشا خلعة سنية وقلده سيفا عظيما ففرح الجند بذلك فرحا لايوصف حيث فازوا بمقصودهم واستقر المنصب بمصطفى باشا فتصرف وعلت كلمته ومالت اليه القلوب وأحبته وزاد النيل فى أيامه زيادة عظيمة فارتفع الى أربع وعشرين ذراعا وثبت على ذلك أياما فخاف الناس من وقوفه الا أنه هبط بعد ذلك سريعا وانكشفت الاراضى ففرح الناس وأخذوا فى الحرث والبذر * وبينماهم على هذا الحال والقلوب مطمئنة والفتن ساكنة اذ ظهر الطاعون بالقاهرة ومصر فى أوائل ربيع الاول سنة خمس وثلاثين وامتد امتدادا سريعا فى جميع المدن والبنادر والقرى وعم البلاد شرقا وغربا فمات به خلق كثير * قال بعض الكتاب كان عدد من مات فى هذا الطاعون نيفا وثلثمائة وألف بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر واشتد اشتدادا عظيما لم يسبق له مثيل ثم أخذ فى التناقص فى شعبان من تلك السنة وارتفع فى أوائل رمضان فتطاولت يد مصطفى باشا الى أخذ تركات ومقتنيات جميع من ماتوا فى هذا الوباء وادعى لنفسه حق التوريث فشكا الوراث من ذلك فلم يسمع منهم فرفعوا أمرهم الى دار السلطنة وأكثروا من الشكوى فجاء الامر بعزله وتولية بيرم باشا بدله فدخل القاهرة فى جمادى الاولى سنة سبع وثلاثين وألف فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور فى المدة الاولى والثانية نحو ثلاث سنين وبضع أشهر * ولما استقر بيرم باشا المقام منع مصطفى باشا من السفر وحجزه فى بيت بالقاهرة ووكل به من يحرسه وحاسبه على مافى ذمته من أموال الخزينة وتركات الاموات وألزمه بارجاع جميع ماأخذه فباع كل متاعه وجميع مقتنياته ودفع ماعليه ورحل الى الديار الرومية ولبث بها الى أواخر سنة سبع وثلاثين ثم أمر السلطان بقتله فقتل

مطلب
ولاية بيرم باشا

وتصرف بيرم باشا فكان يرى فى الجند شدة العناد الذى يكاد يذهب بنفوذه ويحط عرتبته اذ كان تحرشهم لعزل وتولية الولاة والخروج عند أقل سبب وتداخلهم فى أمور الدولة مجلبة للبوار واذهاب رونق النظام الذى أسسه السلطان سليم الفاتح لكل طائفة من الطوائف الحاكمة بديار مصر وقد زاد الجند جراءة وتداخلا تهاون رجال السلطنة واجابتهم الى كل مايطلبون وعدم الالتفات الى ماينجم عن ذلك من الخلل والفساد فبذل بيرم باشا جهده فى ترتيب الامور ومنع هذه المضار واعادة نفوذ الدولة الى ما كان عليه قبلا فلم يفلح ولم يتم له الامر الا بقدر الحاجة فاطمأنت مع ذلك قلوب الرعية وسكنت الخواطر المضطربة

بسبب الفتن المتوالية والاحن المتراكم بعضها فوق بعض وراجت أسباب المعاملات وتحسنت التجارة ولكنه أكثر من المكوس والضرائب على أغلب البضائع ولا سيما الصابون فلما كان شهر شعبان سنة ثمان وثلاثين استدعى بيرم باشا المذكور الى دار السلطنة فـارالها فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر *وتولى بعده محمد باشا الوزير فدخل القاهرة فى أواخر شعبان المذكور وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل وتصرف وجلس للناس على العادة فكان رجلا حازما مهيبا واسع الرأى نافذ الكلمة متحجبا عن الناس لاينزل المدينة ولا يتجول فى الشوارع ولا يزور المتنزهات قبل ولم يظهر فى طرق القاهرة فى مدة تصرفه الا ست مرات وكانت الاحوال فى أيامه هادئة والقلوب مطمئنة وظهرت فى أيامه الفتنة فى بلاد اليمن وخرج أهلها عن الطاعة فعرض على السلطان اخضاعها وتمهيد سبلها وارجاعها الى طاعة الدولة فأجابه السلطان الى ذلك وعهد اليه بالأمر فنظم جيشا من العسكر المصرى وبالغ فى تنظيمه وعقد لواءه الى قانصوه بيك أمير الحاج يومئذ فأعجب السلطان ذلك وولى قانصوه بيك المذكور ولاية اليمن واعطاه رتبة الباشاوية فجعل قانصوه المذكور يرتب أمور جيشه ويكثر من معدات الحرب فاجتمع تحت لوائه ثلاثون ألفا وبينهم زهاء الالف من العساكر العثمانية وقد حضروا من دار السلطنة لهذه الغزوة وأخرج قانصوه خزائنه فكانت كثيرة للغاية وبعد ان رتب أمور جيشه على ماأراد انقطع فى داره أياما لغير سبب معلوم ولا أمر ظاهر فأركنت العساكر الى البغى والفساد وعاثت فى الاسواق وأخذت من الباعة سلعها بغير ثمن فكان اذا مانع البائع عن ماله ضربوه وربما قتلوه وتعرضوا للنساء والصبيان فى الطرق والحارات فانكف الناس عن الخروج وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم واحتاج الناس الى الخبز فلم يتيسر الحصول عليه لغلق الحوانيت والافران فضج الناس الى محمد باشا فجمع اليه كبار العسكر العثمانى وكلمهم فى أمر ذلك فكفلوا له الراحة وردوا العسكر المصرى عن فعاله وألزموا قانصوه بالخروج والسفر الى اليمن فخرج صاغرا قيل وكان امتناعه لاسباب يطول شرحها وسار بالعسكر وقاتل اليمانيين حتى أخضعهم وأرجعهم الى الطاعة وكان خروجه فى المحرم افتتاح سنة تسع وثلاثين ولبث هناك يتصرف فى الولاية فلما كان شهر شعبان من السنة جاء الخبر الى محمد باشا والى مصر بأن قد نزل فى الشهر المذكور بمكة سيل عظيم فأغرق معظم أرضها وهدم جميع بنيان البيت الحرام ولم يبق منه الا الجدار الايمن فأبلغ محمد باشا هذا الخبر الى دار السلطنة فعهد اليه السلطان أمر ترميمه فقام بذلك وتوسع فى النفقة فكان ماأنفق عليه مائة ألف قرش رومى

وفى سنة أربعين وألف قصر النيل فى الزيادة وجاء شهر توت ولم يبلغ الستة عشر ذراعا فخاف الناس من حصول القحط فاعتنى محمد باشا بأمر رى الاراضى وتقسيم المياه بقدر الاستطاعة فأمنت البلاد من الجوع وأعطت الاراضى بعض المحصول فاطمأنت القلوب

مطلب
ولاية محمد باشا الوزير

ومالت الى محمد باشا خواطر الرعية وأحبوه وتعلقت آمالهم به ولكنه لم يلبث ان جاء اليه الامر بالقيام الى دار السلطنة فى السنة المذكورة واعتزال المنصب فاعتزله وقام الى الديار الرومية فى ربيع الآخر من السنة فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر

مطلب
ولاية الوزير موسى باشا

وتولى بعده الوزير موسى باشا فلما وصل محمد باشا الى القسطنطينية قوبل بأحسن قبول وولاه السلطان مسند الصدارة العظمى ودخل الوزير موسى باشا القاهرة سلخ ربيع الآخر سنة أربعين وألف فى موكب حافل وكان الناس قد خرجوا لملاقاته عند شبرا وصعد الى قلعة الجبل فى كبكبة فلما استقر به المنصب أطاع هوى النفس فتطاولت يده الى أخذ أموال الناس وقبول الرشاوى والبراطيل فأداه ذلك الى الجور والظلم والعسف بالناس وترصد أحوال الاغنياء من أهل البلاد وبالغ فى التجسس عليهم وتعقب زلات الاكابر منهم وتفنن فى أفانين السلب والنهب جهد الاستطاعة واتفق ان أرسل السلطان يعهد اليه تجريد حملة من الجند المصرى وتسييرها لقتال ملك فارس فجمع جيشا كبيرا وجعل مقدمه الامير قيطاس ثم فرض على البلاد النفقة لهذه الحملة وبث أصحاب الجباية فطافوا البلاد شرقا وغربا وجمعوا من ذلك مالا جزيلا فلما جاؤا اليه بالمال أخذه لنفسه ولم ينفق منه شيأ فى لوازم الحملة فطالبه قيطاس بيك فقال لاقدرة للبلاد على القيام بنفقة العسكر لاسيما وان الحرب التى أعدت لها هذه الحملة لاتفيد مصر بشئ ما فراجعه قيطاس بيك وألح عليه فى الطلب وبالغ فى الشدة وكذلك فعل أشياع قيطاس بيك وكان الباشا يكره قيطاس المذكور ويتمنى هلاكه فلما عظم الخلاف بينهما استدعى الباشا قيطاس يوم عيد الاضحى العاشر من الحجة من السنة الى قلعة الجبل فصعد اليه فى نفر قليل من غلمانه فلما دخل قبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه بالسيوف وأنزلوا جثته فى نعش الى بيته بالمدينة وكان ممن تأهب من الامراء المصريين للخروج مع قيطاس بيك لقتال ملك فارس الامير كنعان بيك والامير على بيك فلما جاءهما الخبر بموت قيطاس قاما واجتمعا بكبار الجند وأعلماهم بخبر قيطاس فاجتمع الجند فى الحال بالرميلة تحت قلعة الجبل وحاصروها من كل جانب واجتمع العلماء والمشايخ والقضاة والصناجق وكبار الدولة بجامع السلطان حسن وتناجوا فى الامر واتفقت كلمتهم على خلع موسى باشا المذكور وتولية من يحل محله حتى يأتى أمر السلطان فخلعوه وولوا حسن بيك مكانه وكتبوا الى دار السلطنة بالواقعة وطلبوا صرف موسى باشا وتولية من يصلح فلم يكن بأسرع من أن ورد الخبر بعزله وتولية خليل باشا

مطلب
ولاية خليل باشا

فلما كان شهر ربيع الأول سنة احدى وأربعين وألف وصل خليل باشا المذكور الى القاهرة وخرج موسى باشا وهو فى أسوإ حال من الخزى والعار فكانت مدة تصرفه نحو سنة الا بضعة أيام وجعل خليل باشا يتصرف فى الأمور فكان جليل القدر عادلا حازما فسكنت فى أيامه الفتن وزالت عن البلاد الرزايا والاحن وأخصبت الأرض وكثرت محصولاتها فهبطت الاسعار وكثر وارد الغلال والمأكولات وفرح الناس بذلك * وخرج فى أيامه الشريف

نامى شريف مكة بجماعة من اللصوص فعاثوا فى الأرض ونهبوا مكة فلما جاء الخبر بذلك الى خليل باشا جيش له جيشا عظيما وجعل مقدمه الامير قاسم بيك فسار وقاتل الشريف ومن معه فاستظهر عليه وظفر بزعماء الفتنة وأعمل فيهم السيف ثم عاد ظافرا منصورا فدخل القاهرة فى صفر سنة اثنتين وأربعين فخلع عليه خليل باشا خلعة سنية واتسعت من هذا الحين كلمة خليل باشا وظهر نبله وكبرت هيبته وأحبته الرعية حكى ابن أبى سرور انه جىء الى خليل باشا المذكور يوما بثلاثة من اللصوص قبض عليهم وهم يسرقون فرسم بمحاكمتهم فقال رجل من ديوانه ليس فى الأمر مايدعو الى المحاكمة وقد قبض عليهم وهم يسرقون فلا شئ بعد ذلك الا الحكم عليهم بالقصاص فلما سمع خليل باشا مقالته نظر الى أحد أعوانه وقال اذهب الساعة واهدم بناء بيت هذا وأشار الى المتكلم فقال ولماذا أيها الأمير قال اذا كان هدم بيتك المبنى من حطام الدنيا قد دعاك الى معارضتى فكيف يكون حالنا عند ذلك البانى العظيم اذا هدمنا مابناه ظلما قال ناقل الحكاية وأطلق اللصوص فتابوا من ذلك الوقت خوفا من الباشا * وفى أخريات سنة اثنتين وأربعين وألف أنزل خليل باشا المذكور نفسه عن منصب الولاية وكتب الى دار السلطنة بذلك فارسل السلطان يستقدمه فسافر فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر كلها خير وبركة على البلاد وأهلها

مطلب
ولاية أحمد باشا الجورجى

وتولى بعده أحمد باشا الجورجى فدخل القاهرة فى موكب حافل وكان قبل ولايته على ديار مصر أميرا خور للسلطان مراد فتصرف وجعل يدبر الأمور على النحو الذى نحاه خليل باشا فكان حازما كاملا واسع المعرفة بأساليب السياسة فلما كان شهر صفر من سنة ثلاث وأربعين جاءه مرسوم سلطانى بتجريد ألف مقاتل من العسكر المصرى ليسيروا مع العسكر المنصور الى قتال طائفة الدروز بلبنان وان يسير معهم أربعة آلاف قنطار من البارود وخمسة آلاف من البقسماط فجيش ذلك الجيش ولم يتم تنظيمه حتى جاءه مرسوم آخر بتجريد ألفين آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود وتسييرهم لغزو ملك فارس فهاله هذا الامر وكتب الى دار السلطنة يقول ان البلاد فى فاقة ولا قدرة لاهلها على القيام بهذه المطالب الجسيمة فبعث اليه السلطان باثنى عشر ألف قنطار من النحاس ليضرب بها سكة ويبعث بدلها الى خزينة السلطان ثلثمائة ألف محبوب ذهبا نفقة لتلك الحروب فجمع لذلك العمال وأعد المعامل ولكنه لم يفلح اذ مات أكثر العمال وعجز من بقى عن القيام بهذا العمل فجمع اليه أهل الديوان وأصحاب الشورى من الأمراء والقضاة والعلماء وشاورهم فى الأمر وقال انه يرى وجوب صرف هذا المال من ماله رحمة بأهل البلاد وأن يجعل ذلك النحاس سبائك صغيرة ويبعث بها الى السودان فتباع فيها وقد رأى أحد القضاة غير ذلك وأن تجبر أهالى القاهرة على أخذ النحاس ودفع مطالب السلطان ثم تقررت القاعدة بينهم على عمل تفريدة على أهالى القاهرة فأقاموا لذلك عمالا وقيدوهم بالعمل فجعلوا يوزعون النحاس

ويجمعون

ويجمعون عوضه الذهب وبدؤا بذلك من السادس عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين الى أواخر شعبان من سنة اربع وأربعين فعمت هذه البلوى الغنى والفقير والتاجر والصانع بلا فرق ولا تمييز فكانت من أشد الضربات و بلا وأثقلها حملا فضجوا وعجوا الى الله وقلت النقود ثم امتنعت وارتفعت أسعار المأكولات وغلت غلاء فاحشا جدا وأعقب ذلك تقصير النيل فى وفاء أذرعه المعتادة وتشريق الكثير من الاراضى فاستغاث الناس وانكشف حال الميسورين وضاقت الدنيا برحبها فى وجوه الفقراء والمحتاجين وظهرت بعض اصابات بالطاعون بأسباب الجوع ولكنه لم ينتشر ولم تشتد وطأته * فلما أتم الجباة جمع أموال هذه التفريدة طمعت نفس أحمد باشا فأخذها لنفسه ولم يرسل منها شيأ لخزينة السلطان فلم يمض عليه بعد ذلك الا القليل حتى أتاه الطلب من الباب العالى فرحل عن القاهرة فى سلخ القعدة من سنة أربع وأربعين وألف فكانت مدة تصرفه نحو سنتين الا أياما فلما وصل القسطنطينية قام بعض أهالى القاهرة وشكوا أمره الى الباب العالى وطالبوه بما أخذه من المال فى ضريبة النحاس فعين السلطان جماعة لتحقيق ذلك ثم أمر بقتله فقتل

ونولى بعده الوزير حسين باشا فدخل القاهرة فى الثانى من الحجة سنة اربع وأربعين وألف ومعه طائفة من العسكر من دروز لبنان وهم اخلاط من الاشقياء وقطاع الطرق فلما استقرت به الولاية واستقر بهم المقام جار وجاروا وظلم وظلموا وساموا أهل البلاد الخسف وأكثروا من قتل الباعة وهدر دماء السوقة لأقل سبب وتعرضوا للسابلة وقطعوا الطرق وتطاولت أيديهم الى نهب أموال الناس بغير ممانع واشتدت مظالم حسين باشا أيضا الى حد لم يسبق له مثيل فكان اذا مات الرجل أرسل اتباعه وأعوانه فيحملون اليه ماله ويحجرون على عقاره فيأخذه لنفسه أيضا ويحرم ورثته وعم فعله هذا جميع المدن والبنادر وكان يكثر التطواف فى الشوارع والحارات راكبا ويقتل فى كل مرة طافها الرجل والرجلين أو أكثر بلا موجب ولا سبب وربما قتل كل ما صادفه من الدواب فى طريقه * قال بعض الكتاب فكان من قتله فى مدة تصرفه زهاء ألفى رجل وكان كثير الاخذ بالشبهات فكثر فى أيامه الوشاة وتزاحم أهل السعاية على بابه فكان اذا وقع بين رجل وآخر مخاصمة وذهب أحدهما و وشى الى الباشا المذكور بأن خصمه من ذوى الاموال قبض عليه الباشا والقاه فى السجن فلا يخرج منه الا بالبذل الكثير وما زال على هذا الحال من القتل والسلب حتى جاءه الامر بالعزل من منصب الولاية فى سلخ القعدة سنة ست واربعين فكانت مدة تصرفه سنة ونحو احد عشر شهرا

مطلب
ولاية الوزير حسين باشا

ونولى بعده الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا فدخل القاهرة فى آخر القعدة من السنة المذكورة وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل من العسكر المنصور وتصرف فكان شهما مهيبا صاحب فكر وتدبير ثم لم يلبث ان تبدلت حاله وتغيرت أخلاقه وركب متن الجور فأفسد وظلم وتتبع خطوات السلف فى مصادرة الناس ومد اليد الى تركات الامراء والاغنياء

مطلب
ولاية الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا

والمستورين من أهل البلاد فأثرى وكثر ماله ومنع الصدقات والمرتبات الخيرية عن الارامل واليتامى وأخذها لنفسه فضج الناس واستغاثوا وعجوا الى الله تعالى وتضرعوا اليه بزوال ولايته فكان كلما طالت أيامه زاد عسفه وكثر فساده وسام الناس الخسف * وجاء الامر من الباب العالى فى شوال من سنة سبع وأربعين بتجريد جملة للغزو مع العسكر المنصور ببغداد لخروج أهلها ففرح الناس بذلك وظنوا خروجه مع الجملة حسب مرسوم السلطان فلم يخرج وسلم قيادتها الى قانصوه بك أمير الحاج فسارت فى المحرم من السنة اى سنة ثمان واربعين وعاد من بقى منها فى صفر سنة تسع وأربعين ومحمد باشا الوالى على ماهو عليه من الجور والعسف فضج الناس ورفعوا ظلامتهم الى دار السلطنة فلم يلتفت لشكواهم لقيام الفتنة فى دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان وقتلهم حافظ باشا الصدر الاعظم فى السراى السلطانية وإصرار كبارهم على ارجاع خسرو باشا الصدر المعزول وعدم مراعاة حرمة المراسيم السلطانية * قال بعض كتاب الاخبار لما كانت سنة تسع وثلاثين وألف هجرية أو نحوها مات شاه عباس ملك فارس وتولى الملك بعده ابنه شاه مرزا وكان صبيا لم يبلغ أشده فلما جاءت الاخبار بولايته الى دار السلطنة تقوت عزيمة كبار العسكر المنصور وفرح خسرو باشا الصدر الاعظم بذلك وسار فى جيش عظيم الى بلاد فارس لرد ما أخذ من بلاد الدولة ونزل على همذان ودخلها ثم سار منها قاصدا بغداد فلاقته فى الطريق عساكر فارس فقاتلهم وانتصر عليهم وساق خلفهم حتى نزل على بغداد وحاصرها من كل جانب وشدد فى حصارها ووالى الرمى عليها بالمكاحل بالليل والنهار فلم ينل منها وطالت أيام الحصار ودخل الشتاء فتذمر الانكشارية وطلبوا رفع الحصار والعود الى القسطنطينية فناهم بالأمانى الكثيرة فلم يقبلوا وأبوا الا الرحيل فسار بهم عن بغداد الى الموصل ولبث معهم حتى انقضى الشتاء وعزم على الرجوع الى حصار بغداد فلم تطعه العساكر فألح عليهم فأبوا الا الرجوع الى القسطنطينية فسار بهم الى حلب خوفا من أن يداهمه العدو وهو بالموصل ولا قبل له على رده ووصلت الاخبار بما جرى الى السلطان فاستعظم هذا الامر جدا ورسم بخلع خسرو باشا من منصب الصدارة وسير اليه الفرمان بذلك وأعاد حافظ باشا ثانية الى منصبه فكبر الامر على خسرو باشا ودس الى طوائف الانكشارية من يعلمهم ان خلعه من منصبه انما كان للذب عنهم والعمل برأيهم فهاجوا عند ذلك وساروا الى دار السلطنة وأشعلوا نار الفتنة ودخلت طائفة منهم الى السراى السلطانية وقبضوا على حافظ باشا الصدر وقتلوه فى الثامن والعشرين من رجب سنة احدى وأربعين وألف ولم يراعوا للسلطان حرمة ولا حفظوا له عهدا ولا ذمة فكبر الأمر جدا على السلطان وسير الى خسرو باشا جماعة فقتلوه وولى الصدارة محمد باشا بيرم وتجرد السلطان من هذا الحين الى اخضاع الانكشارية واذلال كبارهم فاعمل فيهم القتل لأقل سبب ورسم بمنع الناس كافة من شرب القهوة

والدخان

والدخان فكان يخرج فى كل ليلة متنكرا ويمشى فى أسواق القسطنطينية بدعوى تأديب المولعين بشرب القهوة والدخان ومعه جماعة من أعوانه وهو انما يخرج لاتلاف الاشرار وقطع شأفة أهل الفساد من الانكشارية وغيرهم فخافوا وانكمشوا وامتلأت قلوبهم رعبا منه وخشيه الكبير والصغير فهدت الطرق وزال البأس عن الناس وأمنوا على أموالهم واعراضهم ولبثوا على الطاعة والانكماش الى سنة احدى وأربعين وألف هجرية فهبوا الى الحركة وتجردوا إلى الثورة ومقدمهم يومئذ رجل اسمه رجب باشا فعاجلهم السلطان وقبض على رجب باشا المذكور وأمر به فذبحوه وألقوا جثته من شباك السراى السلطانية بين جمهور الانكشارية فكبر عند ذلك خوفهم وتفرق جمعهم وعادوا الى السكينة وملازمة الحدود وزالت من هذا الحين سطوتهم وانحطت شهرتهم وتفرقت كلمتهم وكفى الله الناس شرهم * ولما دانت للسلطان الأمور وزالت عن مقر سلطنته المخاوف بقطع شأفة أهل الفساد سار فى جيش عظيم لغزو بلاد فارس فحارب ملكهم واسترجع كثيرا من القلاع والحصون التى أخذها ملك فارس على عهد الفتن المتتابعة ونال أيضا من بلاد فارس ففتح بغداد واريوان فسير اليه ملك فارس من يخابره فى الصلح وطال الكلام فى أمر ذلك ثم تقررت القاعدة بين الفريقين على بقاء دار السلام فى حوزة السلطان ورد اريوان الى مملكة فارس وتم الصلح على ذلك وعاد السلطان ظافرا منصورا * ثم مرض بعد ذلك وطال مرضه فلما كان تاسع عشر شوال سنة تسع واربعين وألف هجرية مات من غير عقب ولم يتجاوز التاسعة والعشرين من العمر فبكاه أهل الفضل من الناس وتولى السلطنة بعده اخوه السلطان ابراهيم الاول فكانت سلطنة المتوفى ست عشرة سنة واحد عشر شهرا وخمسة أيام رحمه الله تعالى

(الفصل الحادى عشر)

(فى سلطنة السلطان ابراهيم خان الاول)

ثم قام بالامر بعد السلطان مراد أخوه السلطان ابراهيم الاول ابن السلطان أحمد بويع بالملك فى عاشر شوال سنة تسع وأربعين والف هجرية اى سنة أربعين وستمائة والف ميلادية قال بعض الكتاب ووافق تاريخ توليته استعنت بالله ولما كان مشابها

٩٨١ ٦٨ سنة ١٠٤٩

فى أحواله واطواره لعمه السلطان مصطفى تولى أمور السلطنة الاغرار وقرناء السوء فاختلت أحوال المملكة وعادت الى ما كانت عليه من الفساد وهبت طوائف الانكشارية من

رقدة الخمول والانكماش الى الظهور فعادوا على عادتهم وطلبوا المطالب الطويلة العريضة فنفاهم وأجزل عطاءهم وفتح امامهم أبواب الحرب ليشغلهم عن العبث بأمور الدولة ومصالح السلطنة فسير طائفة منهم لاسترجاع مدينة ازاق من بلاد القرم التى أخذها القوزاقيون فقاتلوا وأبلوا بلاء حسنا حتى استردوها ثم سير طائفة أخرى لغزو جزيرة كريد احدى الجزر التابعة يومئذ الى جمهورية البندقانية وسير لذلك أيضا سفنا حربية ومقدمها يوسف باشا ففتحوا الجزيرة المذكورة بعد قتال خفيف فسيرت جمهورية البنادقة سفن حربها الى بتراس وكورون ومورون من ثغور كريد فأحرقتها تشفيا وانتقاما تطير فتح جزيرة كريد فكبر هذا الامر على السلطان وهم بقتل جميع النصارى الذين فى بلاد الدولة فمنعه من ذلك على ماقيل اسعد زاده ابو سعيد مفتى دار السلطنة وهوّن عليه الامر فأطاعه وبذل السلطان جهد الاستطاعة فى اصلاح مااختل من أحوال المملكة الداخلية * وقد وصل الى مسامعه خبر مايلاقيه أهل مصر من جور محمد باشا واليها وظلمه فأمر بعزله وورد الخبر بذلك الى القاهرة ففرح الناس به فرحا لايوصف وتأهب محمد باشا للرحيل الى الديار الرومية وأخذ فى جمع أمواله ومتاعه فكان شيأ كثيرا للغاية وتباطأ فى السفر والخروج من مصر أياما كانت على أهل البلاد كانها أعوام ثم نزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت أحد الامراء اياما أخرى جاءه الامر فيها ثانيا من دار السلطنة ببقائه فى منصب الولاية فلما شاع الخبر بذلك حزن الناس حزنا ماعليه من مزيد فصعد الى قلعة الجبل وعاد الى التصرف فى الأمور فضاعف الجور وبالغ فى الظلم واشتد على الرعية وأكثر من مصادرة الناس على اختلافهم وفتك وقتل وأراق الدماء ظلما وما زال على هذا الحال من الجور والعسف حتى قدّر الله سبحانه وتعالى بخلعه فجاءه الامر بذلك فى سلخ جمادى الآخرة سنة خمسين وألف فكانت مدة ولايته ثلاث سنين ونحو ستة أشهر

مطلب
ولاية مصطفى باشا البستانجى

وتولى بعده مصطفى باشا البستانجى فدخل القاهرة فى غرة الحجة سنة خمسين فى موكب حافل وتصرف فكان عاقلا أبىّ النفس قنوعا لايتطلع الى مابأيدى الرعية وكان له ديوانى اسمه أحمد افندى وهوجاف خشن الطباع ظلوم فخور مختال وكان بيده مقاليد الامور فاستبد وجار وظلم وأعاد أيام احمد باشا من الاخذ بالشبهات ومصادرة الاغنياء والعظماء وأخذ أموال الصدقات والخيرات فشكا الناس أمره الى مصطفى باشا المشار اليه فلم يفلحوا لتحجبه عن الناس وترك الامور الى ديوانيه المذكور يتصرف فيها كما يشاء فاضطربت لذلك الاحوال غاية الاضطراب واختل النظام وفشا الخصام وظهر أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكثرت السرقات فى حارات القاهرة وبيوت مصر القديمة وما جاورها من القرى وقصر النيل فى الزيادة فغلت الاسعار وقل وارد الحبوب واشتد البلاء على الناس فكانوا بين قرمين عنيدين الغلاء واللصوص وكان إذا أتى الى والى القاهرة بلص أو بجماعة منهم أطلق سبيلهم وكذلك كانت تفعل كشاف البلاد والاقاليم فلما اشتد الحال بالناس اجتمعوا زمرا تحت قلعة الجبل

وصاحوا على الباشا وشكوا من أفعال والى القاهرة وكشاف الاقاليم وضجوا ونادوا مايحل من الله ياباشا اتق الله فى خلقه فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وخلع فى الحال والى القاهرة وولى بدله كنعان بك ورسم بالقبض على كل من تقع عليه شبهة فقبض على كثير حتى ملؤا السجون فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر وظنوا بقاء الحال على ذلك * فلما كان شهر شوال سنة احدى وخمسين ثار جند وجاق الجاويشية على كبارهم واشتدوا على أميرهم على بك وقالوا بأنه لم يفرق عليهم شيأ من أموال العطايا وان الكتاب هم الذين يأخذون هذه العطايا وطلبوا من الباشا خلعه فسايرهم وطاولهم فلم يرجعوا وشددوا فى طلب عزله فعزله وأقام مكانه عابدين بك فلما رأى جماعة العسكر ما كان من فوز اخوانهم الجاويشية ثاروا هم كذلك وشكوا من فراغ مخازن ذخرتهم وطالبوا بمعاشاتهم المتأخرة واتهموا احمد افندى دوانى الباشا السابق الكلام عنه ببيع مافى تلك المخازن وأخذ أثمانها فعين لتحقيق ذلك قاضى قضاة المحروسة فبحث عما فى الاشوان والحواصل فلم ير فيها شيأ وثبت ان الكاتب المذكور باع ما كان فيها وأخذ الثمن لنفسه فخلعه الباشا تسكينا للفتنة واسترضاء لخواطر الجند فاستنجد الكاتب المذكور بجماعة الجاويشية فأنجدوه وأرجعوه الى منصبه قهرا فزاد عسفه وتضاعف جوره وظلمه وبالغ فى ايذائه وما زال والناس فى شدة وضيق حتى صرف مصطفى باشا عن الولاية فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين

مطلب
ولاية مقصود باشا

وتولى بعده مقصود باشا فدخل القاهرة فى رجب من السنة فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور سنة وثمانية أشهر ولما استقرت بمقصود باشا الولاية جعل ينظر فيما وقع من مصطفى باشا وعوقه عن السفر من مصر وقبض على كاتبه أحمد افندى وعلى الكيخيا وجلدهما جلدا مبرحا وأخذ منهما مائتى كيس نقرة من أموال الخزينة السلطانية وقد كانا أخذاها لانفسهما غيلة ثم بعث مصطفى باشا المذكور الى دار السلطنة تحرسه طائفة من الجند فلما وصل اليها أخذ منه مائة كيس للخزينة السلطانية ثم أخلى سبيله ولبث حينا متحجبا عن الناس ثم أدخل فى خدمة الدولة وما زال حتى بلغ مسند الصدارة العظمى ودبر مقصود باشا أمور البلاد أحسن تدبير فأبطل كثيرا من المكوس والمغارم وأزال بعض الضرائب وأعاد حقوق الوراثة لأهلها وضرب على الورثة ضريبة يدفعونها للخزينة السلطانية فقط ثم جعل يتعقب اللصوص وقطاع الطرق فقبض على كل من نالته شبهة منهم وسجن وغرق وقتل فخافوا واختفى خبرهم وارتاحت الافكار من شرورهم * وبينما كانت القلوب هادئة والخواطر مطمئنة اذ ظهر الطاعون واشتد وعم القاهرة ومصر القديمة وضواحيهما ثم تفشى فى جميع المدن والقرى وعم وكثر الموات وكان ظهوره أولا من ناحية بولاق القاهرة فى أوائل شعبان من سنة اثنتين وخمسين وألف وما زال على هذا الحال من الاشتداد والانتشار من ابتداء ذى القعدة من السنة الى غاية صفر سنة ثلاث وخمسين وألف ثم بدأ بالتناقص الى آخر شهر ربيع الاول ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فى الفتك والشدة

فكانت تنقل الجثث عشرات عشرات والجنازات تسعى خلف بعضها حتى أبطلت الصلاة على الاموات لكثرتهم وفتك بالقرى كذلك فتكا ذريعا جدا *حكى أن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خرابا ليس فيها ديار ولا نفاخ نار وكانوا يجدون الأموات فى الطرق وعلى جوانب الجدران والكلاب تحوم حولها وما زال على شدته حتى ارتفع وزال

وبعد انتهاء الطاعون بقليل من الزمان ظهرت فى العشرين من القعدة فتنة بمدينة الاسكندرية والسبب فى ذلك ان ستمائة من الروم المسيحيين كانوا مقيدين بسجن الاسكندرية وقاسوا من العذاب أمره فأتت بعد حين لخلاصهم سفينة وجاءت اليهم أخبار قدومها فقاموا وكسروا أبواب السجن فى اليوم المذكور والمسلمون فى صلاة الجمعة وطافوا فى شوارع المدينة وجعلوا ينهبون البيوت والحوانيت ومخازن الارزاق وعاثوا وأفسدوا فلم يبقوا ولم يذروا ثم نزلوا بتلك السفينة وأقلعوا من فورهم ونجوا بما كسبوا ولم يظفروا بأحد منهم *وضيق مقصود باشا على الصناجق وطالبهم بثلث الأموال المرتبة على الاقطاعات التى بأيديهم لصرف علائف الجند ورواتب العسكر المنصور فأغضب ذلك جماعة الصناجق ولم يقبلوا فرأوا منه قرما عنيدا فاجتمعوا فى بيت الأمير رضوان أبى شنب فى يوم الجمعة ثانى عشر رمضان سنة أربع وخمسين وتحالفوا على خلعه ان هو شدد فى الطلب فطولبوا فرفضوا وطلبوا عزل كبار مشورة الباشا فأجابهم الى ذلك وطالبهم فأبوا وكتبوا الى الباب العالى يشكون من تصرف مقصود باشا فورد اليه مرسوم السلطان بالاستعلام عن السبب الموجب لتلك الشكوى فأجاب بما دفع عنه الريبة وأفحم أصحاب الخصومة وقد علم ان زعماء هذه الفتنة الأمير على بك والأمير ماماى بك وشعبان الدفتردار فعزم على الفتك بهم ورتب لذلك كمينا وأقام لهم رصدا ليقتلهم فى الديوان اذا نزلوا اليه فى يوم الاثنين الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة أربع وخمسين فلم ينزل الى الديوان فى ذلك اليوم الا الدفتردار فقط فأمسك عن قتله وأبقى العمل الى يوم آخر فلما كان يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة جاءه الامر السلطانى بالخلع واعتزال المنصب وتولية شعبان بك الدفتردار النيابة حتى يأتى الوالى الجديد قيل فشق هذا الامر على مقصود باشا واستعظمه جدا وسلم الامر الى الدفتردار صاغرا ثم جاء الخبر من الباب العالى بتولية أيوب باشا فلبثوا ينتظرونه وهم فى خوف حتى انصرف مقصود باشا عن الولاية فكانت مدة تصرفه سنة ونحو سبعة أشهر

مطلب
ولاية أيوب باشا

وقدم أيوب باشا الى مصر ودخل القاهرة فى موكب حافل قيل ولم يقبل هذا المنصب الا بعد اقدام واحجام لما يعلمه من اختلال الامور واستفحال أمر الجند واتساع سلطتهم وصعد القلعة فى العاشر من صفر سنة خمس وخمسين وألف وأخذ فى تدبير الامور وترتيبها على الوجه الاتم فأحكم نظامها وقطع دابر اللصوص واقتفى أثر من فر منهم وأعمل فيهم القتل والشنق والتغريق وأخذ على الصغائر فخافه أهل الفساد وانكمش أصحاب الغايات واستتب

الامن وزال الخوف وسادت الراحة واطمأنت قلوب الناس ولازم كل حده ففرحت بايامه الرعية ولبث يتصرف سنتين ثم كتب يستأذن السلطان فى الانصراف عن منصبه فأذن له فسافر فى سلخ رجب سنة سبع وخمسين وألف فكانت مدة تصرفه سنتين ونحو ستة أشهر وخرج فى موكب حافل جدا والناس فى حزن عليه

مطلب ولاية الوزير محمد باشا ابن حيدر

فتولى بعده الوزير محمد باشا ابن حيدر فلما وصل أيوب باشا الى دار السلطنة رقى الى مسند الصدارة العظمى فأحسن التصرف والتزم الحزامة وحسن التدبير ثم نزل وترك المنصب وعكف على العبادة وتنازل عن جميع أمواله ومقتنياته الى خزينة السلطان وتزيا بزى الدراويش وانفرد فى جامع من جوامع الروم ايلى*وتصرف ابن حيدر المذكور فى ولاية مصر فأساء التصرف وعكس التدبير وأفسد مانظمه مقصود باشا فكانت أيامه كلها خروج وطغيان واشتد حوله الجند واستفحل أمرهم فكانوا يثورون عند أقل حادثة أو لاصغر سبب وقامت منهم طائفة الانكشارية فى العاشر من رجب سنة سبع وخمسين وألف بمصر القديمة فعاثوا وأفسدوا وفعلوا مالا خيرفيه فركب عليهم والى القاهرة وتهددهم ان هم بقوا على هذا الحال فضجوا فى وجهه وساروا الى ماتحت قلعة الجبل ونادوا بقتل الوالى المذكور وكان الوالى من وجاق الجاويشية فجاءهم الخبر بعزم الباشا على قتل الوالى انتصارا للعامة فركبوا جميعا ونادوا على الباشا بالويل والثبور فخشى الباشا العاقبة فدعا اليه قانصوه بك وشاوره فى الامر وكان قانصوه ناقما على الأمير رضوان بك والأمير على بك فأشار اليه أن يكتب الى دار السلطنة بما جرى ويسند حدوث جميع هذه الفتن الى الأميرين المذكورين ويقول انهما قد أخذا أيضا مال الخزينة واختلسا المناصب بغير استحقاق وكان قصد قانصوه بذلك رجوعه هو ومامای الى منصب امارة الحاج وولاية جرجا فجنح الباشا الى مشورته وطلب بعض الاعيان للتوقيع على محضر بذلك فاتصل الخبر برضوان بك فبادر هو بالكتابة يشكو الباشا الى الباب وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى فورد الجواب من الباب بتفويض رضوان بك وعلى بك فى تحقيق جميع ماأسند فعله الى الباشا وقانصوه بك وورد الى الباشا فرمان بذلك فى الحادى والعشرين من جمادى الاولى سنة سبع وخمسين وألف وفى السابع والعشرين منه استدعاهما الباشا الى الديوان الخاص بقلعة الجبل فصعدا اليه وعقدا مجلسا وتجادلا مع من حضر من الامراء والعلماء ثم تقرر قتل قانصوه بك ومامای بك ومن كان على دعوتهما فقتلا وقتل معهما عدة من الامراء ثم قام بعد ذلك على بك الى مقر وظيفته بجرجا وسكنت الفتنة وزالت بعض القلاقل وتسابق بعض الامراء الى أخذ منصب قانصوه بك وكان ممن تقدم الى ذلك وبذل الجهد فى الحصول عليه مصطفى كتخدا الملقب بالشنيز فلم يفلح وخاب سعيا فتجرد للعصيان وشق عصا الطاعة وكادت تستفحل فتنته لولا ماعاناه رضوان بك من ايقاف تيارها بحسن تدبيره*واستدعى الباشا الامير رضوان بك الى وليمة كان أعدها عنده بقلعة الجبل فخاف رضوان بك على نفسه وأبى الحضور فغضب الباشا ورسم

بتجريده من امارة الحاج وكأنه كان ينوى له ذلك فقام رضوان بك من القاهرة فى نحو مائتى رجل وكثير من الامراء والكشاف ولحق بالامير على بك بجرجا فجهز الباشا ألفين من الجنود ونحو خمسمائة من الانكشارية وأمرهم فاجتمعوا بالرميلة تحت قلعة الجبل وتأهبوا للسفر ثم عدلوا واتفقوا على نبذ طاعة الباشا ان هو أصر على قتال رضوان بك وعلى بك فخاف الباشا وتحير فى أمره ولبثت العساكر أياما بغير حركة فورد فى هذه الاثناء فرمان السلطان بابقاء رضوان بك وعلى بك فى منصبيهما فخاب الباشا سعيا وأرسل يستقدمهما الى القاهرة فقدما فى التاسع عشر من رمضان من السنة أى سنة سبع وخمسين وسعى فى مصالحتهما مع مصطفى كتخدا وأعقب رجوع رضوان بك وعلى بك الى القاهرة الاشاعة بخلع الباشا وتولية آخر اسمه مصطفى باشا فلهج الناس بهذا الخبر وعم واتصل بالباشا فأخذ يتأهب للسفر وجمع أمواله وأمتعته ولم يبق الا أن ينزل من قلعة الجبل فلما كان السادس والعشرون من رمضان المذكور ورد فرمان السلطان بتثبيته فى منصب الولاية فعاد وتصرف فى الامور على ما كان عليه *وفى غاية شهر رجب سنة ثمان وخمسين وألف وردت الاخبار الى القاهرة بخلع السلطان ابراهيم ابن السلطان أحمد وتولية ابنه السلطان محمد بدله فسار المنادى بذلك فى شوارع القاهرة ومصر القديمة وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق *قال أصحاب التاريخ ولما كثر عبث طوائف الانكشارية وزاد تمردهم وعمت شرورهم كبر أمرهم على السلطان ابراهيم وعمد الى الفتك بكبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وأخذ يدبر الحيلة فى ذلك فأسر الى بعض خواصه أن يقتلوهم اذا حضروا وليمة زفاف احدى بناته على ابن الصدر الاعظم فتأهبوا لذلك واستعدوا فأحس كبار الانكشارية بما فى عزم السلطان فخافوا عاقبة السكوت وتجردوا لخلعه وساروا الى مسجد أورطه جامع ونادوا بخلع بيعته فوافقهم على ذلك بعض العلماء والمفتى عبد الرحيم وشاع الخبر بذلك فهاج الانكشارية وطوائف السباه ونادوا جميعا بخلعه وولاية ابنه محمد بدله وهو لم يبلغ يومئذ الا السابعة فخلعوه فى ثامن عشرى رجب سنة ثلاث وخمسين وألف هجرية وحجروا عليه فى مقره فاضطربت عند ذلك الأحوال واختل النظام وزاد عسف الانكشارية وبقى الحال على ذلك عشرة أيام فعادت طوائف السباه وطلبت ارجاع السلطان ابراهيم الى منصب السلطنة وألحت فى ذلك وتجردت لارجاعه فخشى زعماء الثورة عاقبة ذلك وعمدوا الى قتل السلطان ابراهيم فساروا الى مقره ومعهم الجلاد ودخلوا عليه وقتلوه خنقا فمات شهيدا وكانت مدة تصرفه نحو ثمان سنين وتسعة أشهر

ومات فى أيامه يوحنا بطرك المتأصلين بعد ان أقام أربعين سنة وفى أيام يوحنا المشار اليه كان من حوادث الطاعون والغلاء وتوالى الاحن ومصادرة الناس فى أموالهم وتطاول أيدى العساكر والاجناد وانتشار أصحاب السعاية والوشاة والاخذ بالشبهات وغير ذلك من فرض الفرض والمغارم والمكوس ما مر بيانه فى محله فأقيم بعده غبريال

وهو خامس تسعيهم واسمه روفائيل من رهبان دير السريان ومولده فى منشاة المحرق وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل الثانى عشر)

(فى سلطنة السلطان محمد الرابع ابن السلطان ابراهيم)

ثم قام بالامر بعد خلع السلطان ابراهيم وقتله ابنه السلطان محمد الرابع بويع بالملك فى العشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وألف هجرية أى سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية وكان عمره يومئذ سبع سنين فكانت سلطنته بالاسم فقط والتصرف للوزراء وكبار الانكشارية فصارت لذلك أحوال المملكة فى انحلال وأمورها فى اختلال ونظامها فى زوال لعدم وقوف طوائف العسكر عند حد وتداخلهم فى جميع أمور الدولة وعزلهم للولاة والحكام عند أقل سبب وتطاول أيديهم الى أموال الناس واراقة الدماء ظلما فكان إذا عمد صدر من الصدور الى اصلاح الامور وارجاع الاحوال الى سابق مجراها قاموا عليه وخلعوه وربما قتلوه وطافوا بجثته فى الشوارع والطرقات فلم يجسر قط أحد على فعل مالا يرضونه وقد أخلدوا الى الترف وكرهوا الحروب فكانوا اذا ساروا الى غزوة تثاقلوا وركبوا متن هواهم ولم يسمعوا لكبارهم كلمة فيستخف بهم العدو ويتم له النصر عليهم * قال أصحاب التاريخ وقد سرى هذا الداء أيضا الى الجنود البحرية فتولى عليهم الخمول ولازمهم الفشل فآنست جمهورية البندقية منهم ذلك وسيرت مراكبها لقتالهم عند مدخل الدردانيل فانتصرت عليهم نصرة عظيمة واحتلت مدينة تيننيدوس وجزيرة لمنوس وغيرهما وقطعت الطريق على السفن الحاملة للغلال والمؤنة فلم تتمكن من الوصول الى القسطنطينية فارتفعت لذلك الاسعار ووقع الغلاء وعز وجود الخبز واشتد الحال بالفقراء وطالت أيام هذه الشدة الى سنة ست وستين وألف هجرية وقد تولى الصدارة محمد باشا الكوبريلى وفوض اليه تدبير جميع الامور وكان شيخا قوى العزم ثابت الجاش حسن التدبير عظيم السياسة خبير بأحوال المملكة فأخذ بزمام جميع الامور وأتى أوجه الاصلاح من أبوابها واشتد على طوائف الانكشارية شدة عظيمة للغاية فقتل منهم وغرق وشرد وسام كبارهم الخسف فثاروا فاشتد عليهم وضيق فخافوا وانكمشوا ولازموا الطاعة وسير سفن الحرب لاسترجاع ماأخذته مراكب جمهورية البندقية من الجزائر والثغور العثمانية وفتح طريق القسطنطينية فلاقتها سفن البندقية واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انتصرت سفن الدولة واستردت ماأخذ من الجزائر والثغور وما زال يقاوم أعداء الدولة فى الداخل والخارج ويأتى على أوجه

الاصلاح من أبوابها حتى مرض واشتد به مرضه فسأله السلطان عمن يتولى المنصب بعده فقال ولدى وعليه فى اتمام مالم أتمه معتمدى*ومات فى سنة اثنتين وسبعين وألف هجرية فتولى الصدارة بعده ولده أحمد باشا فكان كأبيه فى الحزم واصالة الرأى وحسن السياسة والتدبير فخافه طوائف الانكشارية وتجرد لمحاربة أعداء الدولة ففاز وظفر ونهى وأمر وغلب وقهر وفتح القلاع والحصون ودوخ المدن والامصار وأتم الاصلاحات التى كان بدأ بها أبوه فأعاد للدولة مجدها القديم

وكان لما تولى السلطان محمد الملك وبلغ مسامعه خبر الخلاف الواقع مابين محمد باشا والى الديار المصرية ورضوان بيك وعلى بيك مقدمى الامراء المصريين رسم بخلع محمد باشا المذكور فجاءه الفرمان بالعزل فى أواخر رمضان سنة ثمان وخمسين وألف * وتولى مكانه الوزير أحمد باشا فسافر محمد باشا المعزول فى العشر الاولى من شوال فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر ودخل أحمد باشا القاهرة فى غاية شوال وصعد الى قلعة الجبل وتصرف فكان سيئ التدبير ضعيف الرأى مشؤم الطالع على البلاد فانه منذ قبض على زمام الاحكام ظهرت الفتن وبدأت القلاقل ودرج أهل الفساد وقصر النيل عن زيادته المعتادة فلم يبلغ فى سنة ستين وألف زيادة عن الستة عشر ذراعا فشرقت الاراضى فى الاقاليم القبلية جميعها وبعض أراضى الاقاليم البحرية وغلت الاسعار وعزت الاقوات وانقطع واردها الا القليل جدا وتجرد أحمد باشا من ذلك الوقت الى تجديد المغارم وفرض الفرض واحداث المكوس وتتبع أهل اليسار وعادى جميع الامراء وخص بالمكيدة رضوان بيك أمير الحاج وكاتب دار السلطنة فى شأنه وطلب عزله من منصب امارة الحاج وتولية على بيك بدله ليوقع النفرة بينهما فلم يفلح اذ كان رضوان بيك وعلى بيك على غاية المودة والاخاء * فلما كان يوم السبت السادس من صفر سنة احدى وستين وألف جاء فرمان السلطان الى أحمد باشا المذكور بالعزل وولاية الوزير عبد الرحمن باشا فدخل عبد الرحمن باشا القاهرة فى سلخ صفر وصعد الى قلعة الجبل وقبض من ساعته على أحمد باشا وسجنه فى بيت وحاسبه على مافى ذمته من أموال الخزينة فكانت شيأ كثيرا ولم يفرج عنه الا بعد ان دفعها وسافر الى الديار الرومية فكانت ولايته نحو سنتين

وتصرف عبد الرحمن باشا المذكور فاساء السلوك وحذا حذو السلف فأكثر من جمع الاموال السحت وزاد فى التعرض لاموال الناس وأكثر من الفرض والعوائد والمغارم وتطاولت يده الى مال الخزينة السلطانية ولم يقف عند حد فجار وظلم وما زال الى غرة شوال سنة اثنتين وستين وألف فخلع من منصبه * وأتى مكانه الوزير محمد باشا ولم يدخل القاهرة فى موكبه الا فى ثامن المحرم افتتاح سنة ثلاث وستين وألف وصعد الى قلعة الجبل وقبض على عبد الرحمن باشا الوالى المعزول وسجنه ثم حاسبه على ما كان فى ذمته من مال الخزينة السلطانية ولم يفرج عنه من السجن الا بعد ان أدى ماعليه صاغرا *

مطلب
ولاية الوزير أحمد باشا

مطلب
عزل أحمد باشا وولاية الوزير عبد الرحمن باشا

مطلب
ولاية الوزير محمد باشا

وتصرف محمد باشا المذكور فكان حازما عاقلا مدبرا واسع الكلمة مهيبا نخافه الجند وخشوا بأسه فتجرد الى اصلاح ماأفسدوه ورتب أمور البلاد على أحسن ترتيب فأمن الطرق وقطع دابر اللصوص وأهل الفساد فسكنت فى أيامه القلاقل واطمأنت قلوب الرعية ودرت الارزاق وكثرت الاقوات وزال الغلاء وانقطعت أسبابه وما زالت أيامه زاهية زاهرة حتى جاءه فرمان السلطان بالخلع سلخ المحرم سنة ست وستين وألف هجرية فأسف الناس على فراقه أسفا ماعليه من مزيد وخرج جميع الامراء والكبراء والعلماء والاعيان فى ركابه مودعين * وتولى بعده غازى باشا فأقام بضعة أشهر وجاءه الامر بالعزل فسار الى الديار الرومية وتولى بعده عمر باشا فى أواخر سنة سبع وستين وألف هجرية فطالت أيامه * ولما كانت سنة احدى وسبعين وألف قامت الفتنة بين العساكر المصرية على اختلاف طبقاتها واشتدت نارها وعلا لهيبها فى القاهرة ومصر القديمة ثم امتدت الى الاقاليم القبلية وعظم أمرها فتطاولت أيدى الجند والغوغاء معا الى السلب والنهب وهتك الحرمات وظهر العربان فتخطفت كل من خرج من مصر فرارا من الفتنة فكانت شدة عظيمة للغاية مات فيها الجم الغفير من الناس وجرى الدم فى الشوارع والحارات ومات الكثير من الامراء الفقارية وغيرهم وطالت أيام الفتنة ثم انحسمت أسبابها ولبث عمر باشا الوالى المذكور يتصرف الى سنة سبع وسبعين وألف هجرية * قلت فان صح ذلك كانت ولايته زهاء عشر سنين وهذا بعيد فى جانب ماتعوده رجال السلطنة من كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر لاسيما وقد كانت أيام عمر باشا المذكور مفعمة بالفتن والكوارث والمحن وخروج الجند بعضهم على بعض فكان لابد لتسكين الفتنة ومنع حدوث مثل هذه القلاقل من تغيير وتبديل فى الولاة * ثم عزل عمر باشا المذكور وتولى بعده أحمد باشا وقيل ابراهيم باشا وذلك فى أواخر سنة سبع وسبعين فأقام سنة وعزل فى أوخر سنة ثمان وسبعين وألف هجرية وفى رواية انه أقام يتصرف الى سنة خمس وثمانين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه زهاء تسع سنين * وتولى بعده حسين باشا وجاء الخبر بوصوله الى بولاق مصر فخرج الناس للقائه وركب فى موكب حافل للغاية وصعد الى قلعة الجبل ومعه كثير من الخدم والحشم فأخذ يتصرف مع الحكمة والعقل وكان محبا للرعية غير محتجب كان يجلس للناس فترفع له القصص فيأمر وينهى مع الرفق واللين وجاءه فرمان السلطان بطلب ثلثمائة كيس فروش كلاب على حساب القرش الكلاب ثلاثون نصف فضة * قال بعض الكتاب وكانت قيمة القرش الكلب الى ذلك الوقت أربعين نصف فضة وكانت قيمة الريال اثنين وأربعين والشريف البندقى خمسة وتسعين نصف فضة والشريف المحمدى خمسة وثمانين * ولبث حسن باشا يتصرف حتى جاءه الامر بالعزل فى المحرم افتتاح سنة سبع وثمانين وألف هجرية وتولية حسن باشا الجانبلاط فكانت مدة تصرف حسين باشا سنة وبضعة أشهر ودخل حسن باشا الجانبلاط القاهرة فى منتصف المحرم فخرج للقائه العلماء والمشايخ والامراء وكبار الجند

مطلب
ولاية غازى باشا وعزله
وولاية عمر باشا

مطلب
ولاية أحمد باشا أو وهو ابراهيم باشا وعزله وولاية حسين باشا

مطلب
ولاية حسن باشا جانبلاط

وأصحاب العكاكيز فصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وأطلقت لقدومه البشائر فأخذ يتصرف فى الامور فكان مشؤم الطالع وقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول وعز وارتفعت الاسعار جدا فبيع الاردب القمح بمائة وثمانين نصف فضة والاردب الشعير بمائة وثلاثين وكذلك الفول والتبن كل حمل بمائة وخمسين نصفا فضة واشتد الحال على الفقراء حتى أكلوا الميتة وجذور الاشجار وطافوا فى الشوارع يتخطفون الخبز من الافران ويرجمون بيوت الامراء بالاحجار ويصيحون ويضجون * قال بعض أصحاب التاريخ ومع هذا فقد كان النيل فى غاية الكمال وأقام حسن باشا يتصرف الى ان جاءه الامر بالعزل فى المحرم سنة احدى وتسعين وألف هجرية وتولية عثمان باشا فكانت مدة تصرفه أربع سنين * ودخل عثمان باشا القاهرة وصعد الى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الامور فكان عادلا كاملا حسن السيرة قنوعا غير محب لاخذ ما بايدى الناس وزاد النيل فى أيامه زيادة عظيمة فعم جميع الاراضى القبلية والبحرية ورواها وأخصبها فأثمرت وأنتجت غلاتها فنزلت الاسعار وكثر الوارد وامتلأت العرصات بالقمح والفول والشعير والعدس والارز وكثر الخبز بالافران والدكاكين وشبع الفقراء ووجه غايته الى ضبط المقاييس والمكاييل وتحرير عيار النقود على اختلافها فلم يتم ذلك حتى جاء الامر من دار السلطنة بان يكون وزن الالف نصف فضة مائتين وثلاثين درهما وكل مائة درهم فضة يدخله خمسة وعشرون درهما من النحاس ونودى بذلك فى القاهرة ومصر القديمة فتكدر الناس من ذلك جدا وخصوصا السوقة وأصحاب التجارة وراجعوا الباشا فى ذلك فرفع الامر الى دار السلطنة وبالغ فى شكوى الناس من ذلك فلم يلتفت اليه وجاءه الامر بالتعجيل ففعل

مطلب ولاية عثمان باشا

وكانت الى هذا الحين لم تبطل الحرب القائمة ما بين الدولة وخصومها ولم يتم جميع الاصلاحات التى بدأ بها كوبريلى أحمد باشا بعد توليته الصدارة العظمى انجازا لمقاصد أبيه اذ عاجلته المنية فمات حتف أنفه فى سنة سبع وثمانين وألف هجرية فولى الصدارة بعده زوج أخته قره مصطفى قال بعض الكتاب فلم يكن كفؤا لهذا المنصب الجليل ولا هو موصوف بحسن السياسة والتدبير فلما استقر به المنصب تغلب عليه هواه فركب متن الشطط وباع المناصب العالية وعاقد الدول على ما يأباه شرف دولته وعزة جانبها وخلط وخبط فأبعد عن الدولة قلوب معاهديها وأزال بسوء تدبيره ما أسسه كوبريلى الكبير وابنه من بعده فظهر الخلل وتطرق الى جميع مصالح الدولة وتقدمت الاوغاد وعلت كلمة الاغرار واشتد خصوم الدولة عليها فسار قره مصطفى الصدر المذكور فى جيش عظيم يريد محاصرة وياته عاصمة النمسا فنزل عليها وحاصرها وضيق عليها وأقام على حصارها زهاء شهرين واستولى على جميع قلاعها الامامية ورمى عليها بالقنابل وواصل الرمى ليلا ونهارا حتى هدم بعض أسوارها ولما يأخذها فسير بابا رومه رسله الى ملك بولونيا وملك ساكس وبافيرا يستنهضهم الى نجدة النمساويين وقتال المسلمين وخلاص البلاد من أيديهم فقاموا جميعا

للقتال وهاجموا عساكر المسلمين وقاتلوهم قتالا عنيفا للغاية فظفروا بهم وانتصروا عليهم نصرة عظيمة وفشلت جنود قره مصطفى باشا وتمزقت فاستولت الاحزاب على جميع مدافعهم وماتركوه من مؤنة ودواب وآلات الحرب وكانت شيأ كثيرا للغاية ثم جمع قره مصطفى باشا مابقى من جنوده على نهر داب وقفل راجعا بهم الى مدينة بور فتبعه ملك پولونيا فى عسكره وصار يتخطف من خلفه ووصل الخبر بذلك الى دار السلطنة فكبر الامر على السلطان وسير على الفور أحمد حاشيته الى قره مصطفى باشا فقتله وبعث رأسه الى القسطنطينية وولى مكانه ابراهيم باشا وكبر الامر على دولة النمسا وتعلقت آمال ملكها بالنصر بعد استخلاص ويانه من هجمات العساكر العثمانية فتحالف مع مملكة پولونيا وجمهورية البندقية ورهبنة القديس يوحنا وبابا رومية ودولة الروس على قتال المسلمين وأخذ جميع مابأيديهم من البلاد فى قارتى آسية وأوربا ودعوا هذه المحالفة بالمحالفة المقدسة ثم فتحوا الحرب على الدولة من كل صوب وحدب فسارت سفن جمهورية البنادقة تهدد سواحل اليونان وبلاد الموره ومعها سفن حرب البابا وسفن رهبنة القديس يوحنا فتغلبوا على مدن اليونان وأخذوا كورنيشه وأثينه وزحفت جيوش الملك سوبسكى على بلاد البغدان وأغارت عساكر النمسا على بلاد المجر فاحتلت مدينة بست وحاصرت مدينة بور وضيقت عليها فلم تنل منها فهاجموا بعض القلاع والحصون وأخذوها عنوة وفاز الاحزاب وانتصروا عدة نصرات متتابعة فكبر ذلك على السلطان وظنه خيانة من الصدر الاعظم فسير اليه الامر بالعزل والابعاد الى جزيرة رودس وعين مكانه سليمان باشا السردار فلم يغن عزله شيأ ولم يفلح لسليمان باشا السردار عمل وافتتح النمساويون مدينة بور ودخلوها واعملوا فيمن بها من العساكر العثمانية القتل وقتلوا عاملها المدعو عبدى باشا فكان سقوط هذه المدينة فى أيدى الاعداء خسارة عظيمة على الدولة العثمانية وفشلت بعد ذلك عساكر سليمان باشا وتولى عليها الجبن والضعف وفازت عساكر الاحزاب وتقدمها النصر فى جميع حروبها والسلطان فى شاغل عن جميع أمور السلطنة بالصيد والقنص ومنادمة قرناء السوء فى القسطنطينية وضواحيها

ولما وردت الاخبار الى دار السلطنة بتوالى هزيمة العساكر العثمانية وفوز الاحزاب ودخول الشتاء رسم السلطان بأن يكون الروم ايلى مشتى العساكر فى ذلك العام أيضا وقد كانوا أشتوا فيها عدة سنين فهاج العسكر عند ذلك وماجوا وأبوا الا العود الى دار السلطنة فلما صاروا على مقربة منها كتبوا محضرا بما عليه السلطان من سوء الاخلاق وعدم صلاحيته لمنصب الخلافة وطلبوا خلع بيعته فوافقهم على ذلك العلماء والمشايخ وأهل الدولة وخلعوه فى غرة المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية وأجلسوا بدلا منه أخاه السلطان سليمان الثانى وبقى السلطان محمد محجورا عليه حتى مات سنة خمس ومائة وألف هجرية

(الفصل الثالث عشر)

(فى سلطنة السلطان سليمان خان الثانى)

ثم قام بالامر بعد خلع السلطان محمد أخوه السلطان سليمان خان الثانى بويع له بالملك فى الثانى من المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانين وستمائة وألف ميلادية وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما تمت له البيعة دخل جميع العساكر الذين كانوا فى حومة القتال الى دار السلطنة بسلاحهم وكراعهم ودوابهم وضربت كتائب السباهيين خيامهم فى المكان المعروف بميدان السلطان أحمد وضرب الانكشاريون خيامهم فى المكان المعروف بأت ميدان وماغنموا حتى قبضوا بعد ذلك على أزمة الاحكام وأمروا ونهوا وصاروا يعزلون و يولون ويقصون ويدنون من شاؤا و يقتلون ويصادرون الوزراء والامراء والحكام على السواء وتطاولت أيديهم أيضا الى أموال الرعية واشتدوا على الناس شدة بالغة وعاثوا وأفسدوا وهتكوا الحرمات ودخل جماعة منهم يوما الى الباب العالى وقبضوا على الصدر الاعظم سياوس باشا وقتلوه شر قتلة فعم الخلل وظهر أهل الفساد فتبعوا العسكر فى النهب والسلب وعاثوا وعربدوا واتفق ان جماعة منهم دخلوا الى بيت شريف من الاشراف ينهبون فمانعهم الشريف فلم يقدر فخرج وهو يصيح ويضج ثم رفع منديلا على رأس عصا وصار ينادى من كان مؤمنا بالله ورسوله فليأت تحت الصنجق فلما سمع الناس نداءه أتوا اليه من كل صوب وحدب وأحاطوا به وهم يضجون ويجون الى الله وذاع الخبر فى جميع أطراف القسطنطينية بخروج البيرق النبوى أى بيرق صاحب الشريعة فهرع الناس أفواجا أفواجا الى السراى السلطانية وهم لايشكون فى أن منديل ذلك الشريف هو البيرق النبوى فتعجب الامراء وكبار الدولة من هذا الامر الغريب وظنوا ان اجتماع هذه الجموع الكثيرة على هذه الصورة انما هو بارادة سماوية ومشيئة الهية فأسرعوا فى اخراج البيرق النبوى للحال ووقع السيف فى أعناق أهل الشقاوة والفساد وكثر القتل والتفريق وعمت الثورة واستفحل الخطب واشتد الويل والكرب وأغلقت الاسواق وتترس الناس فى البيوت والدروب فكانت فتنة كبرى

وبينما كانت القسطنطينية تتأجج بنار الفتنة والدماء تسيل فى طرقاتها كانت عساكر الاحزاب تقاتل بلاد الدولة وتحتل الثغور وتأخذ القلاع والحصون فاستولى البندقيون على ايالة المورة ووصل النمساويون الى بلغراد ثم استولوا على قلاع ودين وفتح الاسلام ونيس والافلاق وغيرها ووردت الاخبار بذلك الى دار السلطنة فاجتمع كبار الدولة وأهل الحل والعقد فيها وتشاوروا فى الأمر واعترفوا بعجزهم وعدم قدرتهم على اطفاء نار هذه الفتنة وبعد اقدام واحجام اتفقت كلمتهم على تسليم كوبريلى مصطفى باشا خاتم الصدارة العظمى فاستقدموه فى الحال وسلموه الخاتم فقبض على زمام الأمور بهمة عالية وأبطل كثيرا

من

من البدع والمظالم المستحدثة وأزال جميع الامانات والالتزامات وأبطل رسوم وعادات الوزراء فى الاعياد والمواسم وبالغ فى ارجاع الجند الى حدود الطاعة وملازمة النظام وصرف لهم جميع جماكيهم وعلوفاتهم المتأخرة وبث حول كبارهم العيون والارصاد فخافوه وأخلدوا الى السكينة وقطع دابر أصحاب الشقاوة وأهل الفساد وأمن الطرق فأحبه الناس ومالت اليه قلوب الجند فأذعنوا لأمره واجتمعوا عند كلمته وانطلقت ألسنة الناس كافة بالدعاء له فلما تم ماأراده من تنظيم أمور المملكة الداخلية تجرد للغزو وأخذ الثار من الاعداء وأثار الحرب على النمسا وجمهورية البندقية وبقية الاحزاب وسير لقتالهم عسكرا جرارا فكانت بينهم سجالا * وبينما كانت نار الحرب تشتعل بين العساكر السلطانية وجيوش الاحزاب تحرك كذلك بطرس الاكبر قيصر الروس ونكث العهد وزحف بجيش عظيم يريد اما التخلص من الجزية المفروضة على مملكته لبكوات القريم واما الحرب والقتال فكبر هذا الأمر على الصدر الاعظم ورسم لجيوش التتار بقتال الروس فقاتلوهم قتالا عنيفا وهزموهم شر هزيمة وغنموا ما كان معهم من المدافع وآلات الحرب والخيام والدواب وكانت شيأ كثيرا وعادت التتار ظافرة غانمة وتفرغ الصدر الاعظم حينئذ لقتال الأحزاب وشدد فى ذلك فهزمت العساكر السلطانية عساكر جمهورية البندقية وانتصرت عليها نصرا عظيما وركب هو بعسكره أيضا على دولة النمسا فافتتح قلعة نيس وجميع القلاع والبقاع المتصلة الى قلعة بلغراد وقلعة سمندرة واسترجعت أيضا السفن العثمانية قلعة ودين وسير طائفة من العسكر الى أطراف أردل ففتحوها وانتصروا على من كان بها من الاعداء

ولم تكن هذه الحروب المتتابعة لتشغل رجال السلطنة عن التولية والعزل فى ولاة مصر فانه بعد ان لبث عثمان باشا يتصرف جاءه الأمر بالعزل فى أوائل سنة تسع وتسعين وألف هجرية وتولية حسن باشا السلحدار فكانت مدة تصرفه نحو ثمان سنين وبضعة أشهر * ووصل حسن باشا الى الاسكندرية فخرج للقائه الامراء وكبار الجند والعلماء والوجهاء فدخل القاهرة فى موكب حافل للغاية وصعد الى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الامور فلما كانت سنة ألف ومائة هجرية وقع الغلاء بمصر وامتنع الوارد من الغلال الى القاهرة فبيع الاردب القمح بمائة وعشرين نصفا فضة والاردب الشعير بثمانين والفول بخمسة وتسعين نصفا * قال بعض الكتاب وأجرة طحين ويبة القمح أربعة أنصاف فضة فضج الفقراء وطافوا بالازقة والحارات يتساءلون وصاروا يتخطفون مايجدونه من الخبز فى الافران وفى الدكاكين واهتم حسن باشا بأمر الغلاء ففتح الاشوان السلطانية وأطعم حتى زال الغلاء وكثر الوارد من الغلال واطمأنت قلوب الناس ولبث حسن باشا يتصرف الى ربيع الثانى سنة إحدى ومائة وألف هجرية فجاءه الأمر بالعزل وتولية أحمد باشا فنزل من قلعة الجبل * ودخل أحمد باشا القاهرة فى آخر ربيع الثانى المذكور فكانت مدة

مطلب
ولاية حسن باشا السلحدار

مطلب
ولاية أحمد باشا

تصرف حسن باشا ثلاث سنين غير كوامل وتصرف أحمد باشا تصرفا حسنا الا أنه لم تطل مدته
وكان السلطان سليمان قد رحل عن القسطنطينية إلى أدرنه وأقام بها يستطلع أخبار الحرب ويستنشق نسمات النصر بعد ذلك الخذلان المتتابع فبينما هو على هذا الحال جاءته الاخبار بظفر جنوده وقهرهم للاعداء ففرح بذلك فرحا لا يوصف وسار من أدرنه إلى دار السلطنة فضربت لقدومه البشائر وعاد بعد أيام أيضا الصدر الاعظم بجميع عساكره ورايات النصر تخفق على رؤسهم كان ذلك فى وقت الشتاء فتفرغ من الحرب الى امضاء الاحكام وتنظيم أمور الدولة واعادة ماخسرته من العز والجاه وبقى كذلك الى دخول الربيع فخرج بجيوشه يريد بلغراد للغزو والجهاد وخرج السلطان إلى أدرنه تشجيعا للمقاتلين فلم يلبث بها الا أياما حتى مرض واشتد به مرضه فمات فى العشرين من رمضان سنة اثنتين ومائة وألف فكانت سلطنته ثلاث سنين وتسعة أشهر وتولى الملك بعده أخوه السلطان أحمد خان الثانى ابن ابراهيم خان

(الفصل الرابع عشر)

(فى سلطنة السلطان احمد الثانى ابن ابراهيم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليمان أخوه السلطان احمد الثانى ابن السلطان ابراهيم بويع له بالملك يوم موت أخيه سنة اثنتين ومائة وألف هجرية أى نحو سنة احدى وتسعين وستمائة وألف ميلادية فلما استقرت به السلطنة أخذ يتصرف فى الامور ولم تكن الحرب القائمة بين جيوش مصطفى كوبريلى صدر الدولة وبين جيوش النمسا قد انقضت الى ذلك الوقت فاهتم السلطان أحمد بأمرها وسير مصطفى باشا المشار اليه الى بلاد النمسا لاخضاعها واسترداد مابقى تحت يدها من المدن والبلدان فسار مصطفى باشا وما زال يحارب حتى مات فى ساحة الحرب وانهزم جيشه شر هزيمة ومات منه زهاء العشرين ألفا وتشرد من بقى منه فاضطرب السلطان من ذلك وصمم على الاخذ بالثار فجعل يعد المعدات ويجيش الجيوش ويراقب الفرص ويتبين انتفاعها فبينما هو على هذا الحال اذ قام الحريق بالقسطنطينية واشتد بها شدة بالغة جدا فاحترق نحو ربع المدينة ومات كثير من الشيوخ والاطفال وعم الخطب فتعوق تسيير الحملة على بلاد النمسا ولم تخرج الا فى سنة خمس ومائة وألف وكانت جيوش النمسا فى هذا الحين تشدد الحصار على مدينة بلغراد فلما جاء الخبر بقدوم العساكر العثمانية خاف قائد جيوش النمسا وفك الحصار عن بلغراد ورجع عنها فنزلت العساكر العثمانية حول بلغراد ولبثت هنالك من غير قتال ولم يقع الاتفاق بين قائد الجيوش العثمانية وقائد جيوش الفرنجة على شئ من أسباب الصلح أو المهادنة ولم

تزل الحال كذلك الى أن مات السلطان أحمد سنة ست ومائة وألف هجرية فكانت سلطنته ثلاث سنين وبضعة أشهر وقيل أربع سنين ومات فى أيامه احمد باشا والى مصر فدفن بالقرافة * وجاء فرمان السلطان بتولية على باشا قلج بدله فدخل القاهرة فى ربيع الثانى سنة اثنتين ومائة وألف هجرية فكانت مدة تصرف احمد باشا سنة وبضعة أشهر وتصرف على باشا قلج فكان غير موفق فى جميع أعماله ميالا للايذاء غير قنوع وقصر فى أيامه النيل عن زيادته المعتادة فرسم للشيخ يوسف السادات بان يبيت فى قاعة المقياس ويتلو حزبه فى كل ليلة حتى يحصل الوفاء وأقام بطرك المتأصلين كذلك الصلاة ودعاء الله سبحانه وتعالى قيل فزاد النيل ووفى فى السابع والعشرين من مسرى القبطى وعم الاراضى ثم انحدر عنها فاخصبت وانبجت غلاتها ولبث يتصرف حتى تولى السلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع وكان من أمره ماسيذكر فى محله

مطلب
ولاية على باشا قلج

(الفصل الخامس عشر)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد ابن أخيه السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع بويع بالملك سنة ست ومائة وألف هجرية اى سنة خمس وتسعين وستمائة وألف ميلادية وكان متأدبا حسن السيرة محبا للعلوم والمعارف رزينا كريم الاخلاق فلما استقرت به السلطنة جيش على جزيرة ساقس ففتحها ثم سار الى قتال النمسا اذ الحرب لم تكن خمدت نارها بين الفريقين فلما التقى الجمعان واقتتلا انهزمت جيوش السلطان شر هزيمة فقفل راجعا بمن بقى معه ثم سار بجيش آخر لقتال الروس فلاقته جيوشهم وقاتلته قتالا عنيفا فانتصرت عليه نصرة عظيمة وأخذت منه مدينة ازوف ولما رأى السلطان من توالى نصرة أعدائه وموت عساكره سلم خاتم الصدارة الى حسين باشا عموجه زاده من عائلة كوبريلى ففرح الناس بذلك وعدوا هذا الفعل من تدابير السلطان الحسنة وكانوا يودون لو أن الصلح يقع مع الدول المحاربة على يد حسين باشا الصدر المذكور فتحقن الدماء وتزول ويلات الحروب وكان الصدر الاعظم يرى وجوب التمسك بقول القائل اذا أردت الصلح والصلاح كن مستعدا للحرب والكفاح فسار من فوره بالعسكر السلطانى الى نواحى بلغراد يريد القتال فتداخلت عند ذلك دولتا الانجليز والفلمنك فى تقرير قاعدة للصلح فأذعن الصدر بذلك خوفا من ملل الجنود من توالى الحروب عليهم فى اربع جهات مختلفة ونفاد الاموال فضلا عما طرأ على البلاد من الخراب فتم أمر الصلح مع الاحزاب ولكن لم يرق هذا العمل الخطير فى عين فيض الله افندى شيخ الاسلام وحسد الصدر الاعظم على هذا الفوز فدس فى حقه الى السلطان وأكثر من النميمة

والوشاية به وأثار عليه الخواطر ورماه بالمروق ووسمه بالخيانة فلم يطق الصدر هذا الحال واعتزل المنصب وكتب الى السلطان بذلك فجاءه جواب السلطان بالقبول * قال أصحاب التاريخ وقد ختمت بهذا الوزير سياسة محمد باشا الكوبريلي ولم تلبث الاحوال أن تغيرت وظهر الاغرار وقبضوا على زمام الاحكام وكان للسلطان ميل تام الى فيض الله افندى شيخ الاسلام لانه شيخه ومربيه فاركن اليه واعتمد فى كل الامور عليه فتاقت نفس فيض الله الى الانفراد بالامر ففعل مالم يفعله أحد قبله من سلفائه وأمضى مالا يليق بشأن العلماء فولى أولاده ومن ينسب اليه المناصب العالية وارقاهم المراتب السامية وقبض على أزمة جميع الامور فنهى وأمر وفاز واشتهر وغاب وقهر وحصر المنافع فيه وفى أولاده واتباعه وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها فلم تبق كلمة فوق كلمته ولايد فوق يده * وتولى السلطان مصطفى والوالى على مصر على باشا قلج فأتى اليه فرمان الرضا فلبث يدبر الامر وكان على باشا هذا سيئ الطالع قليل الرأى عديم التدبير متحجبا عن الناس الا عن بعض خواصه وكانت أيامه كلها شدائد وقع فيها غلاء شديد جدا فقل ورود الغلال يوما عن يوم حتى انقطع وعزت الاقوات وضاقت أمور الفقراء واشتد بهم الجوع شدة بالغة فأكلوا الجيف وجذور الاشجار ثم اجتمع منهم السواد الاعظم رجالا ونساء وصبيانا وصعد الى قلعة الجبل وذلك فى منتصف المحرم من سنة سبع ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع واستغاثوا ونادوا على الباشا فلم يجبهم أحد فرجموا بالاحجار وأكثروا من العربدة فركب الوالى وطردهم فنزلوا الى الرميلة ونهبوا مابها من حواصل الغلال وكذلك وكالة القمح وحواصل كتخدا الباشا وكانت ملأى بالشعير والفول وأصناف الحبوب الاخرى فلم يقدر أحد على ردهم واشتد الغلاء حتى بيع الاردب القمح بستمائه نصف فضة والشعير بثلثمائة والفول باربعمائة وخمسين والارز بثمانمائة نصف فضة أما العدس فكان لاوجود له بالكلية وحصلت شدة عظيمة بمصر والاقاليم كافة وجاء أهالى القرى والارياف الى القاهرة ومصر القديمة فامتلأت منهم الازقة والحارات واشتد الكرب وعم الخطب ومات الكثير من الناس جوعا وخلت أكثر القرى من أهلها وخطف الاهالى الخبز من الاسواق ومن الافران والذى على رؤس الخبازين مع ندرته فكان يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزوه ويعودوا به واستمر الامر على ذلك الى أن عزل على باشا المذكور فى ثامن عشرى من المحرم افتتاح سنة سبع ومائة والف هجرية * وخلفه فى الولاية مسلم باشا اسمعيل وهو من ولاة الشام فلما جاء الخبر بعزله فرح الناس فرحا لايوصف واستبشروا بالفرج بعد الضيق وقام ابراهيم بك أبوشنب فى نيابة الغيبة حتى يقدم مسلم باشا اسمعيل المذكور الى مصر * ونزل على باشا المخلوع الى بيت احمد كتخدا العزب المطل على بركة الفيل واستقر به فكانت مدة تصرفه اربع سنين وثلاثة أشهر وأياما وحضر اسمعيل باشا الوالى الجديد من البر

مطلب
ولاية مسلم باشا اسمعيل

وصعد الى قلعة الجبل بالموكب فى يوم الخميس السابع والعشرين لصفر من السنة فلما استقر به المنصب ورأى مافيه الناس من الجوع والكرب والموات رسم بتوزيعهم على بيوت الامراء والأعيان كل انسان على قدر حاله وقدرته وأخذ لنفسه جانبا ولاعيان دولته جانبا وعين لهم مايكفيهم من خبز وطعام فى الصباح والمساء الى ان انقضى الغلاء ثم أعقب ذلك وباء عظيم للغاية فرسم الباشا لاصحاب بيت المال بأن يكفنوا جميع الفقراء والغرباء كافة فكانوا يحملون الموتى من الطرقات عشرات عشرات ويذهبون بهم الى مغسل السلطان عند سبيل المؤمن وما زالوا على هذا الحال الى ان انقضى الوباء أيضا فكان عدد الموتى لايكاد يحصر وكان انقضاء الوباء فى آخر شوال من السنة فعمل الباشا أفراحا وختن ولدا له اسمه ابراهيم وختن معه ألفين وثلثمائة وستة وثلاثين غلاما من أولاد الفقراء ورسم لكل غلام بكسوة كاملة ودينار * وكان من ملتزمى دار الضرب على عهد على باشا الوالى المنفصل يهودى اسمه ياسف وكان طاغية داهية وقد طلب الى دار السلطنة وسئل عن أحوال مصر ومايتعلق بها فأملى على أمور والتزم بتحصيل أموال الخزينة زيادة عن القاعدة المقررة فى كل عام وحسن احداث بعض احداثات فأجازت له الدولة ذلك وأعطت له مرسوما فلما حضر مصر تلقته طائفة اليهود من بولاق وأصعدوه الى الديوان فى كبكبة فقرئت الاوامر التى حضر بها ووافقه الباشا على اجرائها والعمل بها وأشهر النداء بذلك فى شوارع مصر والقاهرة فاغتم الناس وتوجه التجار وأعيان البلد الى الامراء وراجعوهم فى ذلك فركب الامراء والصناجق وطلعوا الى القلعة وكلموا الباشا فلم يقبل منهم فغضبوا وسألوه أن يسلمهم اليهودى فامتنع فاغلظوا عليه وصمموا على أخذه فأمرهم بوضعه فى العرقانة وان لايشوشوا عليه حتى ينظروا فى أمره ففعلوابه ذلك فقام الجند على الباشا وطلبوا أن يسلمهم اليهودى ليقتلوه فامتنع فمضوا الى السجن وأخرجوه وقتلوه عند بابه وجروه من رجله وألقوه فى الرميلة فقام العامة وجمعوا حطبا وأحرقوه بمرأى من الناس كافة وذلك فى يوم الجمعة بعد الصلاة ثم سكنت الفتنة وكأنها لم تكن * ومن هذا الحين انحرف الجند على الوالى ونقموا عليه وصاروا ينكرون عليه كل فعل ولو لم يستحق الانكار حتى قاموا عليه فى الثانى والعشرين من ربيع الاول من السنة وعزلوه فكانت ولايته سنتين اثنتين * وقام مصطفى بك بالامر الى ان حضر الوالى الجديد واسمه حسين باشا وكان واليا على صيدا من أعمال الشام فلما حضر الى القاهرة طلع الى قلعة الجبل فى موكب حافل فى منتصف رجب سنة تسع ومائة وألف فلما استقرت به الولاية أخذ ينظر فى أمور البلاد ومصالح الخلق فكان يرى نفسه مغلوبا على أمره لا كلمة له بين الجند والامراء والصناجق فعمل على تعزيز جانبه واعلاء كلمته فلم يتمكن لقصر أيامه * واتفق فى ولايته ان خرج المغاربة من أهل تونس وفاس المقيمين بالقاهرة فى رابع عشر شوال من السنة ليحملوا كسوة الكعبة التى تحمل فى كل عام للبيت الحرام وكانت عادتهم فى ذلك اليوم انهم يمرون بالكسوة فى وسط

مطلب
ولاية حسين باشا

القاهرة مع غاية الاحتفاء والاحتفال ويضربون كل من رأوه يشرب الدخان فى اثناء مرورهم فرأوا رجلا من اتباع مصطفى كتخدا القازدغلى يدخن فكسروا أنبوبته وضربوه وشجوا رأسه وكان فى مقدمتهم اناس منهم متسلحون فزاد التشاجر واشتد الامر فقام عليهم أهل السوق وأوقعوا الضرب فى بعضهم بعضا وكادت الفتنة تعم القاهرة ومصر وخاف الناس العاقبة وحضر أودة باشا البوابة فقبض على جماعة منهم وقيدهم بالحديد وصعد بهم الى حيث الباشا فأمربهم فحبسوا حتى سافر الحاج من مصر ومات منهم جماعة فى السجن ثم أفرج عنهم بعد ذلك وورد عقب هذا الحادث بقليل الخبر بعزل حسين وولاية قره محمد باشا فحضر مصر فى منتصف ربيع الآخر سنة احدى عشرة ومائة وألف فكانت ولاية حسين باشا سنة وسبعة أشهر وأياما ولم يكن لقره محمد من حظ الولاية على البلاد الا ما كان لسلفه فانه كان مغلوبا على أمره وكانت الكلمة للامراء والصناجق ولم يبق له الا صغائر الامور فوجه عنايته اليها وماهى الا الازالة بعض السقائف والدكاكين لتوسعة الطرق والاسواق وقطع الارض وتمهيدها ورسم بترميم جامع الاربعين الذى بجوار باب قره ميدان وأنشأ فى الميدان المذكور جامعا بخطبة وتكية لفقراء الخلوتية من الروم وأسكنهم بها وأنشأ تجاهها مطبخا ودار ضيافة للفقراء وفى علوها مكتبا للاطفال ورتب لهم مايكفيهم وأنشأ فيما بينها وبين البستان المعروف ببستان الغورى حماما فسيحا مفروشا بالرخام الملون وجدد بستان الغورى وغرس فيه الاشجار ورمم قاعة الغورى التى بالبستان وعمر بجوار المنزل سكن امير اخور وبنى مسطبة عظيمة برسم الباس القفاطين وتسليم المحمل لامير الحاج وأرباب المناصب * قلت وهى موجودة الى يومنا هذا * وعمر مسطبة يرمى عليها بالنشاب وأنشأ الحمام العظيم بقره ميدان ونقل اليه من قلعة الجبل حوض رخام ضمن قطعة واحدة وعملوا به فسقية فى وسط المسلخ وعمر بالقرافة مقام سيدى عيسى بن عبد القادر الجيلانى وجعل به فقراء مجاورين ورتب لهم مايكفيهم وأنشأ صهريجا بداخل القلعة بجوار نوبة الجاويشية ورتب فيها خمسة عشر نفرا يقرؤن القرآن كل يوم بعد الشمس

مطلب
ولاية قره محمد باشا

أما فيض الله افندى شيخ اسلام دار السلطنة فانه لما اتسعت كلمته وبسط يده على جميع الامور وصار السلطان طوع يده أبغضه الناس وكثرت خصومه وناواه جميع أعيان الدولة وأركانها وظهرت الفتنة وعظمت واستفحل أمرها فقامت الجنود على السلطان فخلعوه وقبضوا على شيخ الاسلام وقطعوا عنقه بحد السيف وسجنوا السلطان مصطفى ووكلوا به طائفة منهم تحرسه وذلك سنة خمس عشرة ومائة وألف هجرية فكانت مملكته تسع سنين وقيل ثمان سنين ومازال مسجونا حتى مات فى نحو سنة تسع عشرة وخلفه أخوه السلطان أحمد ابن السلطان محمد

ومات فى أيام السلطان مصطفى متاوس بطرك المتأصلين بعد ان أقام أربع عشرة سنة وكان اسمه جرجس من رهبان دير البراموس ونقل فى أيامه دار البطركيسة من حارة زويلة

الى

الى حارة الروم بالقاهرة وسكن بها وكان تقيا عالما فأقيم بعده يوحنا وهو الثالث بعد المائة واسمه ابراهيم من رهبان دير انطونيوس وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل السادس عشر)

(فى سلطنة السلطان احمد ابن السلطان محمد)

ثم قام بالامر بعد السلطان مصطفى أخوه السلطان أحمد ابن السلطان محمد بويع بالملك بعد خلع أخيه سنة خمس عشرة ومائة وألف هجرية أى سنة اثنتين وسبعمائة وألف ميلادية فلما استقر به الملك اشتد على العسكر وضيق عليهم وكان شديد البطش عظيم البأس سفاكا للدماء فهابه العسكر وخافته الرعية فأصلح بعض الامور التى فسدت على عهد السلف وأعاد للدولة بعض القوة والنظام وظهرت فى أيامه وقعات الروس مع الاسوجيين وزحف بطرس الاكبر قيصر الروس بعسكر عظيم للغاية على قلعة ازاق فى بلاد القريم وحاصرها وضيق عليها حتى فتحها وطمحت آماله الى ضم بلاد اسوج الى مملكته فسار لقتالها وكان ملكها كرلوس الثانى عشر جليل القدر واسع المعرفة بأساليب السياسة وتدبير الممالك وكان يعرف عند أهل الاسلام باسم تيمور باش وقد أنذر الدولة العثمانية بالخطر الذى يلحق بها اذا تركت بطرس قيصر الروس وشأنه يغزو ويدوخ الممالك المجاورة له فلم تلتفت يومئذ لقوله فلما نال بطرس الغلبة وكاد يأخذ ملك أسوج أسيرا هرب ملك أسوج الى دار السلطنة العثمانية فنال بطرس من بلاد أسوج وضم جانبا عظيما منها الى مملكته من ناحية بحر البلطيق وتجاوزت العساكر الروسية بعض الحدود العثمانية فرسم السلطان الى بلطجى محمد باشا الصدر الاعظم بالمسير لقتال بطرس ورد غارات عسكره فسار فى جيش عظيم وعبر الطونة وقطع ايالة بسارابيا وكانت عساكر الروس قد عبرت قبل ذلك نهر بروت فنزلوا على ساحل الطونة فلم يلتفت اليهم وظل سائرا بجيوشه حتى بلغ ممر فالجى وقصد عبور نهر بروت من هذا الممر فلما تحقق ذلك القيصر ظن الظنون البعيدة وسير فريقا من عساكره لمنعهم من العبور فلم يقدروا وتمكنت العساكر العثمانية من العبور وقاتلوا الروس فهزموهم وساقوا خلفهم حتى ألحقوهم بمعسكرهم بعد الزوال ولم يطلبوا الراحة من التعب بل فاجؤا العدو وهجموا عليه هجمة رجل واحد فانهزم وتقهقر فعارضه نهر بروت من جهة وسد عليه أيضا خان القريم الطريق من الجهة الثانية فنظر القيصر واذا به قد وقع بين منتطح عنزين فسير رسله الى الوزير فى طلب الأمان وتقرير قاعدة للصلح فأجابه الوزير الى ذلك وتقررت بين الفريقين القاعدة وتم الصلح على ماسيذكر وكتب به أيضا عقد مؤقت وهو

الباعث لتحرير هذا الكتاب الصحيح النصاب هوانه بتوفيق الله الملك العلام انتهت حرب

عساكرنا المنصورة مع قيصر الروس وعسكره فى طرف نهر بروت وبعد حصارهم والتضييق عليهم فبلطفه تعالى الكريم وفضله العميم طلب القيصر المرقوم اجراء المصالحة وعند ذلك عقدت وربطت قيود وشروط الصلح والصلاح على الوجه الآتى بيانه * وهو ان قلعة ازاق مع أراضيها وسائر ملحقاتها يجرى تسليمها كالأول للدولة العلية * والقلعة الجديدة الكائنة فى أعالى طغيان وقانكة وصمصار المختصة بالقيصر تهدم بالكلية والمدافع والجبخانة الموجودة ضمن قانكة يجرى تسليمها بتمامها للدولة العلية * وفيما يأتى من الزمن لاينشأ فى المحل المذكور قلعة ولا تحصل مداخلة بعد الآن من طرف القيصر المرقوم مع اللهويين والتابعين لهم وهم راباش والبورتغال ولا الى القزاق التابعين لحضرة صاحب السعادة دولتكراى خان القريم بل يرفع القيصر يده عن جميع تلك المواضع بحيث تعود كما كانت قبل الآن وبعد اليوم لايحق للقيصر أن يقيم سفيرا فى استانبول من طرفه * وأما التجار الروسيون الذين يأتون برا للممالك المحروسة لاجل التجارة فانهم مأذونون فى الاقامة بها * والاسرى من المسلمين الذين أسروا من قبل ومن بعد يلزم ويجب على القيصر أن يسلمهم للدولة العلية مهما كان عددهم * وملك أسوج حيث انه التجأ ووقع تحت جناح عناية الدولة العلية فبعد الآن يتوجه الى مملكته بالامن والسلامة ولايحصل له التعرض والممانعة من طرفهم قطعيا واذا وجد بينهم عدم توفيق ورضا اتحاد فعليهم أن يجريا المصالحة * وأنا أرجو من كمال افضال مولانا وسلطاننا صاحب الشوكة والعناية والعظمة ومن فيض مكارمه الملوكية غض النظر من طرف الدولة العلية عن الحركات الخارجة عن الادب التى سبق وقوعها فى جانب رعايا الدولة وسائر المنسوبين الى الممالك المحروسة وان لايصير عليهم فيما يأتى من الزمان تعد كما تقرر ذلك فى الشروط والعهود * وبحسب الوكالة المطلقة حرر هذا الصك وأعطى لطرف القيصر الى ان يعقد العهد والميثاق ان شاء الله تعالى فى دار السعادة بالوجه المشروح وتعطى صورته له * وبعد أن يأخذ القيصر صك العهد فلا تكون حينئذ ممانعة ومداخلة فى أمر ذهاب عساكره الى بلاده فى الطرقات المستقيمة لامن طرف العساكر المنصورة ولا من فرد من أفراد طوائف التتار وجماعتهم * وأما أمين أسرار القيصر قدوة أعيان الملة المسيحية فبارون قانجلير بترد شافروف والجنرال ميخائيل أولدبورمس حفيد شرمت * ختمت عواقبهما بالخير * حيث انهما كانا حضرا من طرف القيصر للعسكر المنصور ليكونا رهنا فبعد تسليم المواد المذكورة واعطاء صك العهد من طرف القيصر واتمام خدمتهما يعطى لهما الاذن والرخصة من طرف الدولة العلية بذهابهما الى بلادهما بلا تأخير ولبيان ذلك حرر هذا فى اليوم السادس من جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف

بيورلدى صحراء * التوقيع خدش كيجدى

قال بعض كتاب الاخبار وكان الوزير المحكى عنه صاحب حيل ودهاء دقيق الفكر فى أعماله وحركاته ولم ينل مسند الصدارة العظمى الا بما أجراه من الدسائس الكثيرة والحيل الغريبة

فلما علم السلطان أحمد بحقيقة حاله وانه من الطغاة أعرض عنه ثم عزله من منصب الصدارة وبقي معزولا حتى قامت الحرب بين الروس واسوج وكان من أمرها ماتقدم بيانه فاقتضت المصلحة إعادته الى مقام الصدارة ثانية فأحسن فيها العمل وفاز بالظفر والغلبة على ذلك الرجل العظيم وهو بطرس الاكبر ولكن لم تطل أيامه حيث وشى به خصومه ورموه بالخيانة وقالوا انه انما عقد هذا الصلح بالرشاوى والبراطيل وقد كان فى وسعه أن يقطع شأفة جميع الجيوش الروسية بعد أن تحقق له ان بطرس الاكبر لم يسلم بهذه الشروط مع مافيها من الفضيحة والعار عليه وعلى بلاده الا بعد أن أكلت جيوشه جميع دواب الحمل حتى جذور الاشجار وبعد انسدت عليهم جميع المسالك وما زالوا يحسنون للسلطان الانتقام منه الى أن أمر بعزله ونفيه قبل أن يصل الى دار السلطنة بعد نصرته فى تلك الحرب الهائلة * قال بعض الكتاب وهو وان كان بريئا من هذه التهمة فقد ارتكب فى صدارته الاولى من المعاصى والذنوب ضد الكثير من خيار الناس مالا يكاد يعد فظهر به الآن سر قولهم * ان الجزاء من جنس العمل

وكان الوالى على ديار مصر عند تولى السلطان أحمد للسلطنة قره محمد باشا فأقره فى منصبه وأتاه فرمان الرضا فلبث يتصرف بعد ذلك أشهرا ثم خلعه * وولى مكانه رامى محمد باشا وكان قد تولى مسند الصدارة على عهد السلطان مصطفى وعزل منها وتولى على جزيرة قبرس ثم حضر منها واليا على مصر فصعد الى قلعة الجبل يوم الاثنين سادس شعبان سنة ست عشرة ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف فى الامر فكان مشؤم الطالع قليل الحظ توقف النيل عن الزيادة فى سنته فضج الناس وعجوا وابتهلوا الى الله بالدعاء وطلب الاستسقاء واجتمعوا على المقطم وغيره فاستجاب الله لهم فى حادى عشر توت وزاد النيل فكان من النوادر الغريبة وقد أرخه بعضهم بهذين البيتين

النيل فى مصر وافى * فى توت حادى وعاشر
والناس قد أرخوه * لله جبر الخواطر

فروى بعض البلاد وهبط سريعا فشرقت البلاد الاخر وحصل الغلاء وبلغ سعر الاردب القمح مائتين وأربعين نصف فضة والفول كذلك والعدس مائتى نصف فضة والشعير مائة نصف فضة والارز أربعمائة نصف فضة وبيع اللحم الضأن كل رطل بثلاثة أنصاف فضة والجاموسى والبقرى بنصفى فضة والسمن القنطار بستمائة نصف فضة والزيت بثلثمائة وخمسين والدجاجة بثمانية أنصاف * قال الراوى فكثر الشحاذون فى الازقة وعزت الاقوات وعم الكرب واشتد الخطب على الفقراء وخشى الناس العاقبة بظهور الوباء فلم يقع شئ من ذلك * وجاء الخبر بعزل رامى محمد باشا فى رجب سنة ثمان عشرة ومائة وألف هجرية وشاع القول بولاية على باشا فنزل محمد باشا من قلعة الجبل فى موكب عظيم وسكن فى بيت أحمد كتخدا العزب المطل على بركة الفيل بالقرب من حمام السكران حتى قدم على باشا الوالى الجديد من طريق البحر وذهب الناس لملاقاته فأرسى بساحل بولاق يوم

مطلب
ولاية رامى محمد باشا

مطلب
ولاية على باشا

الاثنين تاسع شعبان من السنة وهو فى نحو ألف ومائة رجل خلاف الاتباع فلبث ببولاق الى ثانى عشرى رمضان وركب فى موكبه وصعد الى قلعة الجبل فأطلقوا المدافع لقدومه وزينت القاهرة ومصر ثلاثة أيام ولم يكد يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة على ساق بين وجاق العزب والمتفرقة * وتحرير الخبر ان شخصا من وجاق العزب اسمه محمد افندى من صغار الكتاب كان بعد عزله من منصبه تولى خليفة أى ثانى كاتب فى ديوان المقابلة وحصل له تهمة عزل بسببها من هذا الديوان أيضا فجعل يسعى ويجد حتى نال وظيفة سردار على طائفة العزب النازلين بالاسكندرية ثم كتخدا القبطان واتفق بعد ذلك أن سافر فى إحدى المراكب فشاع الخبر بموته غرقا فحلوا اسمه وماله من المعلقات فى بابه ولكنه لم يلبث ان عاد إلى مصر وصعد الى الديوان وصحح اسمه الذى فى سجلات العزب وجراياته ومتعلقاته وبقى له بعض تعلقات لم يقدر على خلاصها ولم يساعده أهل بابه على ذلك وأهملوا أمره فأعظم هذا الامر وأكبره وذهب من فوره الى بلك المتفرقة وطلب الانضمام اليهم وسألهم أن يخرجوه من العزب فأجابوه الى ذلك فجعل يركب معهم كل يوم للديوان ويمر على باب العزب * وبينما هو ذات يوم سائر الى الديوان اذ وقف له جماعة من العزب وقبضوا عليه وأنزلوه وحبسوه فى بابهم فبلغ الخبر جماعة المتفرقة وهم فى الديوان فحضر أمين بيت المال الى باب العزب وكان يومئذ نائبا عن باشجاويش لتمرضه فعاتبه جماعة المتفرقة على مافعله جماعة العزب فأغلظ عليهم فى الكلام وخاطبهم بفحش القول فقبضوا عليه من أطواقه وأرادوا ضربه فحال بينهم وبينه بعض المصلحين وخلصوه من أيديهم فنزل الى باب العزب وأخبرهم بما فعله المتفرقة فاجتمعت طائفة العزب ووقفوا على بابهم فمر بهم اثنان من جماعة المتفرقة ذاهبين الى منازلهما فهجم عليهما جماعة العزب وضربوهما ضربا مبرحا وأنزلوهما عن الخيل وشجوا رؤسهما ونهبوا ماعلى الخيل من العدد وأخذوا ماعليهما من الملبوس فلما جاء الخبر للمتفرقة اجتمعوا مع بقية الوجاقات وجلسوا على باب الانكشارية ورفعوا أمرهم الى الاغوات والصناجق وأهل الحل والعقد وبقوا على هذا الحال ثلاثة أيام الى ان وقع الاتفاق على إبعاد أربعة أشخاص عن الديار المصرية وهم سبب اشعال نار هذه الفتنة فوافق الجميع على هذا الرأى وصمموا عليه وبعثوا بهم الى الصعيد الاعلى وانحسمت هذه الفتنة وكفى الله الناس شرها

مطلب حسين باشا

وأعقب هذه الفتنة ورود مرسوم السلطان بعزل على باشا الوالى فعزل فى أوائل رجب من السنة ثم حبس فى قصر يوسف بك وبيعت جميع موجوداته لوفاء ماعليه لبعض تجار القسطنطينية ثم أفرج عنه * ووردت الاخبار بولاية حسين باشا فقدم الى الاسكندرية وجاء منها الى القاهرة فى ثالث عشرى شعبان سنة تسع عشرة ومائة وألف هجرية فكانت ولاية على باشا سنة واحدة وأياما وكانت قبل قدوم حسين باشا المذكور

بأيام قد وقعت فتنة أخرى بباب الانكشارية لها وكادت تشتعل نارها ويعلو لهيبها فتسارع الاغوات وأصحاب الحل الى تسكينها خوفا من قدوم الوالى الجديد فيرى ماهى عليه البلاد من الخلل وعدم طاعة العسكر وعزلوا أحمد أوده باشا المشهور بافرنج أحمد وحسين أوده باشا وأبعدوهما الى الطينة بدمياط فسكنت الفتنة وخمدت نارها فلبثا بالطينة أياما ثم هربا وعادا الى القاهرة واختفيا عند أغوات الشراكسة والتجأ أحدهما حسين الى باب التفكشية فلما علم الانكشارية بقدومهما فارين اجتمعوا ببابهم وطلبوا رجوع فرنج أحمد الى منفاه فلم تقبل طائفة الشراكسة وامتنعوا من تسليمه وقالوا لابد من نقله من وجاقكم وساعدهم على ذلك بقية الوجاقات فصمم الانكشارية على طلبهم ووقفوا ببابهم يومين وليلتين وكذلك فعل كل بلك ببابه فعم الخوف الناس وانقطعوا عن الخروج من بيوتهم وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وكاد ينقطع الوارد من المأكول والمشروب الى القاهرة ومصر خوفا من عبث العساكر فاجتمع العلماء والمشايخ والتقوا بالصناجق والاعيان وخاطبوهم فى أمر العسكر وفيما كان عليه الناس من الخوف وما يتهدد راحتهم من هذه الفتن المتراكمة وسألوهم فى حسم الفتنة منعا من تفاقم الخطب وانتشار العامة والحرافيش فى الاسواق للعربدة والنهب ثم كلموا الباشا فى ذلك أيضا وألحوا فى الطلب فوقع الاتفاق على ان يولوا فرنج أحمد المذكور رئاسة طبلخاناة وأرسلوا له القفاطين مع كتخدا الباشا وأصحاب الدرك وأحضروه الى مجلس الاغا وقرؤا عليه مرسوم الصنجقية وانه ان خالف ولم يطع عوقب بغير معاودة فأطاع وقبل وخرج بموكب عظيم الى بيته ونزل له الصنجق السلطانى والطبلخاناه فانحسمت الفتنة وسكن الاضطراب واطمأنت قلوب الخلق *

وكان الوالى يرى انه غير مسموع الكلمة مقهور على جميع أعماله وأقواله ولا قدرة له على دفع هذا الخلل الضارب على البلاد فكان كثير التوجع والشكوى قلقا مضطربا لايستقر له قرار حتى مال الى وجاق الانكشارية واستمال كباره اليه واستخلصهم لنفسه ليقوى بهم على قمع الفتن ومنع الدسائس * فبينما هو يدبر هذا الامر اذ وقعت الفتنة بين طوائف العسكر وكان من خبرها أن مملوكا لرجل من آحاد الناس وقف على دكان قصاب بباب زويلة يشترى منه لحما فوقع بينه وبين حمار عثمان أوده باشى نزاع أدى الى المشاتمة ثم الى الملاكمة فوصل الخبر الى عثمان أوده باشى المذكور فأرسل أعوانه واتباعه فقبضوا على ذلك المملوك وأحضروه اليه فأمر بحبسه فى سجن الشرطة فلما بلغ سيده خبر حبسه حضر هو وأولاده وأتباعه الى باب صاحب الشرطة لخلاص المملوك فتطاول بعضهم على بعض بفحش القول ووقعت بينه وبين صاحب الشرطة مشاجرة فقبض عثمان اوده باشى على سيد ذلك المملوك ووضعه فى السجن واعلم باش أوده باشى وكتخدا مستحفظان بما فعله فلم يرضيا بما وقع وأمراه باطلاق المملوك وسيده على الفور فرجع وأخرجهما من السجن فاجتمع فى ثانى يوم الحادثة طائفة الجاويشية مع طائفة المتفرقة والاسباهية والامراء

والصناجق والاغوات فى الدوان وطلبوا ابعاد عثمان اوده باشى المذكور جزاء ما فعله من
حبس ذلك المملوك وسيده فلم يوافق الانكشارية على ذلك ومانعوا فى ابعاده فوقع بينهم
جدال طويل ثم صعدوا جميعا الى الديوان وطلبوا عثمان المذكور للدعوى فحضر واقيمت
الدعوى بحضرة الباشا والقاضى فأمر القاضى بحبس عثمان كما حبس محمد جاويش سيد
ذلك المملوك فلم يرض الاخصام بذلك وقالوا لابد من عزله وابعاده فلم يوافقهم الانكشارية
فطلب العسكر من الباشا أن يرسم بنفيه فأبى عليهم ذلك فنزلوا مغضبين واجتمعوا عنزل
كتخدا الجاويشية وأنزلوا مطبخهم من نوبة خاناه الى منزل كتخدا صالح اغا وأقاموا به ثلاثة
أيام وامتنعوا من الذهاب الى الديوان ثم اجتمع أهل البلكات وتحالفوا على أن يكونوا على
قلب رجل واحد وصمموا على نفى عثمان أوده باشى المذكور ثم اجتمعوا على الصناجق
واتفقوا على أن يكونوا معهم على طائفة الانكشارية وأرسل الاسباهية الرسائل الى
أصحابهم المحافظين على الكشاف بالولايات يلزمونهم بالحضور فلما شاع الخبر بذلك رسم
الباشا بعزل عثمان أوده باشى المذكور اخمادا لنار الفتنة فلم يغن عزله شيأ ووردت الاخبار
الى وجاق الانكشارية بان العسكر على أهبة القتال وانهم قد تجهزوا لذلك فبعثوا هم كذلك
يطلبون أصحابهم من الجهات فاجتمعوا على الاثر ومروا بالاسواق فانزعج أهلها وأغلقوا
الحوانيت كافة واستمر أهل الوجاقات الستة يجتمعون ويتشاورون فى الامر وكذلك
الانكشارية كانوا يجتمعون بالباشا ويتشاورون معه فيما يفعلونه مع العسكر وفى كيفية
قتالهم وبالغ كل من الفريقين فى التأهب والاستعداد * وقدم فى هذه الاثناء محمد بك
حاكم الاقاليم القبلية فى جند كثير واتباع وعدة وطلع الى ديوان مصر على عادة حكام
الصعيد الخلوعين ثم لبس الخلع السلطانية ونزل الى بيته بالصليبة فظن الناس أنه إنما اتى
بعسكره لقتال العسكر أو وجاق الانكشارية فخافوا وانكمشوا حتى كادت الاسواق كلها
تتعطل وطال الحال بين أخذ ورد أياما فكانت الانكشارية لاتنفك عن مراقبة الحوادث
والاخذ بصغائر الامور وقد شاع ان بعض الامراء يسعى للحصول على منصب امارة الحاج
بدلا من قيطاس بك المعتاد تقريره فى كل عام لهذا المنصب فلما علم الانكشارية بذلك
اجتمعوا بسلاحهم ووقفوا خارج الباب الكبير على طريق الديوان كى لايمكنوا أحدا
من تولى امارة الحاج خلاف قيطاس بك وعلم الصناجق والامراء بذلك فخافوا شر العاقبة
واجمعوا رأيهم مع أهل الوجاقات الستة على نفى ستة أشخاص من الانكشارية وهم الذين
بيدهم الحل والعقد واخراجهم من مصر الى بلد التزامهم تسكينا للفتنة وعلم
الانكشارية بما دبره هؤلاء فاجتمعوا فى بابهم أيضا فى عددهم وعددهم فلم يهم الامراء
والصناجق أمر اجتماعهم وقالوا لابدمن نفيهم أو محاربتهم واجتمعوا هم كذلك فى أبوابهم
واستعد الانكشارية فى بابهم وشحنوه بالاسلحة والذخرة والمدافع وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم
وخلت الطرق من المارة ونقل جماعة الجاويشية مطبخهم من قلعة الجبل من النوبة

الى

الى دار كتخدا الجاويشية وأقام الانكشارية منهم طوائف يحافظون على أبواب القلعة وباب الميدان والصحراء الذى بالمطبخ الموصل الى القرافة خوفا من أن العسكر يستميلون الباشا وينزلون الى الميدان واجتمع الصناجق بعد ذلك وكبار العسكر واستقر الرأى بينهم على أن ينتدبوا محمد بك الذى كان بالاقليم القبلى لحصار القلعة من جهة القرافة على المقطم بالمدافع والعسكر فقبل ذلك وأسرع فى عمل الحصار فاتمه على أحسن مارام وخاف العسكر من وقوع النهب والفتنة بالمدينة اذا انتشب القتال بينهم وبين الانكشارية فألزموا مصطفى أغا الشراكسة بالتطواف فى الاسواق وفى شوارع البلد وحاراتها وأقاموا أحمد بك المعروف بافرنج أحمد اغات التفكشية لحصار طائفة الانكشارية من بابهم الموصل الى المحجر وباب الوزير ومنعوا من يصل اليهم بالمدد

أما الانكشارية الذين كانوا بالقاهرة فانهم اجتمعوا بباب الشرطة واتفقوا على أن يدهموا العسكر المحافظين بالباب ويدخلوا الى باب الانكشارية فلما بلغ الصناجق والعسكر ذلك انتدبوا ابراهيم الوالى ومصطفى أغات الجحمية فى طائفة من الاسباهية فنزلوا الى باب زويلة وعلم الانكشارية الذين اجتمعوا فى باب الشرطة بنزولهم فتفرقوا واختفوا فجلس مصطفى أغا محل جلوس أوده باش وابراهيم بك فى محل جلوس العسس وانتشرت طوائفهم فى نواحى باب زويلة وباب الخرق واستمروا على هذا الحال ليلة الاحد وأصبحوا وقد خرج نقيب الاشراف والعلماء وقاضى القضاة وأرباب الاشائر واجتمعوا بالشيخونية فى الصليبة وتكلموا فى الامر طويلا ثم كتبوا فتوى بانه ان لم يذعن الانكشارية الى نفى المطلوبين والاجاز محاربتهم بغير معاودة * وأرسلوا الفتوى صحبة جوخدار قاضى القضاة الى باب الانكشارية فلما قرئت عليهم فترت عزائمهم وانفشلوا وأذعنوا الى ابعاد المطلوبين بشرط ضمانهم من القتل فضمنهم الامراء والصناجق وكتبوا بذلك حجة وسلموها لهم ثم أنزلوهم الى أمير اللواء اوازبك ورضوان أغا فسارا بهم فى الحال الى بولاق ومن هناك سيروهم الى الريف فلبثوا حينا ثم عادوا ففرقوهم على الوجاقات بعد رضا الامراء والصناجق *ولم تكن الفتنة قد سكنت تماما حتى جاء الخبر بعزل حسين باشا الوالى وتولية ابراهيم باشا القبودان وأن يكون حسين باشا المعزول نائبا عن ابراهيم باشا حتى يحضر فحضر فى منتصف الحجة سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف هجرية وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ونزل حسين باشا من القلعة الى بيت الامير يوسف أغا دار السعادة بسويقة عصفور وامامه الصناجق والاغاوات وكثير من أرباب المناصب فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين واربعة أشهر وثلاثة عشر يوما * ولم يستقر المنصب بابراهيم باشا الوالى المذكور حتى أتاه الامر بخلعه وتولية آخر اسمه خليل باشا وذلك فى الخامس عشر من رجب سنة اثنتين وعشرين فنزل ابراهيم باشا من القلعة الى بيت عباس أغا ببركة الفيل وأقام به أياما فكانت مدة تصرفه ثمانية

مطلب
ولاية ابراهيم باشا وخلعه
وتولية خليل باشا

أشهر لم يعمل فيها عملا يذكر * ووصل خليل باشا وكان بصيدا واليا فأقام بالبر يوم الثلاثاء
خامس شعبان سنة ١١٢٢ اثنين وعشرين ومائة وألف وصعد الى القلعة فى الموكب
المعتاد فلم يمض على جلوسه الا شهران حتى قامت الفتنة ثالثة بين أصحاب الوجاقات
واستفحل أمرها وعم ضررها * وتحرير الخبر أنه فى صفر من السنة أى سنة ثلاث وعشرين
اجتمع من يدعى حسن جاويش القازدغلى وآخر اسمه الامير سليمان جربجى وآخر
اسمه ابراهيم جوربجى وعقدوا النية على ترك خدمة باب مستحفظان والانتقال الى خدمة
أخرى فذهب اليهم اختيارية بابهم واستعطفوهم وسألوهم الرجوع عن هذا العزم فلم
يقبلوا وصمموا على الخروج ثم طلب آخر اسمه موسى جوربجى الخروج كذلك فلم يرض
رؤساؤه بذلك فذهب موسى الى ابراهيم بك وايواز بك وقيطاس بك فسألهم الوساطة فى أمره
فلم يقبل رضوان أغا رئيسه اجابة طلبهم ومانع فى ذلك وشدد فى المنع فلما رأوا منه الشدة
وعدم الرضوخ لطلبهم من اخلاء سبيل موسى المذكور اتفقوا على اغراء الوالى على عزل
رضوان أغا وتولية على أغات الانكشارية سابقا بدله وان يعزل أيضا سليمان كتخدا
الجاويشية ويولى بدله اسمعيل أغا تابع ابراهيم بك فكلموا الباشا فى ذلك وألحوا عليه فى
عزلهم فامتنع وقد كان اختيارية وجاق الجلية توافقوا مع الامراء والصناجق على عزل
رضوان أغا المذكور واجتمعوا ببيت باشجاويش واجتمع أهل كل وجاق ببابهم واستمروا
على ذلك أياما والوالى لايجيبهم الى مايطلبون خوفا من قيام العسكر عليه * أما الانكشارية
الذين انتقلوا الى العزب فانهم اجتمعوا بباب العزب وقطعوا الطريق الموصلة الى القلعة
ومنعوا من يريد الصعود الى باب الانكشارية من العسكر والاتباع فلم يبق فى الطريق
الموصلة الى القلعة الا باب المطبخ ثم قصدوا سد السواقى لمنع الماء عن القلعة فمنعهم
العسكر من الوصول اليها فكسروا آلات السواقى التى بعرب اليسار وخربوها وسار نفر من
الانكشارية من طريق المحجر يريدون الصعود الى قلعة الجبل فقبضوا عليهم وضربوهم
وشجوا بعضهم فمضى أحدهم من طريق الجبل ودخل من باب المطبخ واجتمع بافرنج أحمد
وبقية الانكشارية وأخبره بحالهم وما جرى لهم فأخذ جماعة منهم ورفعوا أمره الى الوالى
وقاضى القضاة وبالغوا فى الشكوى وعظموا البلوى فقال القاضى قد جاز قتال هؤلاء القوم
حيث منعونا الماء وخرجوا عن طاعتنا وأخافوا الناس وسلبوهم فحقت محاربتهم * فلما
فاض الخبر بذلك تقدم أحمد اوده باشا الى الوالى فى محاربة أصحاب باب العزب فاذن له بذلك
وتعوق القاضى عن النزول ولبث مع الوالى وخرج أحمد أوده باشا وشرع فى القتال
وراسل الرمى بالمدافع على أصحاب باب العزب من بعد الزوال الى مابعد العشاء واشتد عليهم
شدة بالغة فقتل من جماعة العزب كثيرين وعم الخوف أهالى مصر والقاهرة وباتوا ليلتهم تلك
وهم فى خوف ماعليه من مزيد وأصبحوا وقد اجتمع الامير ايواز بيك أمير الحاج والامير ابراهيم

بك

بك أبو شنب وقانصوه بك ومحمود بك ومحمد بك تابع قيطاس بك الدفتردار وتحادثوا فيما أصاب أصحاب باب العزب واتفقوا على أن يلبسوا آلة سلاحهم ويذهبوا الى الرميلة مددا للعزب على الانكشارية وهموا بذلك فاخبروا ان أيوب بك قد وضع المدافع على طريق المارين على منزله وعلى قلعة الكبش فامتنعوا من الركوب وجلسوا فى بيوتهم بسلاحهم خوفا من طارق واستمر افرنج أحمد يقذف نيران مدافعه على أصحاب باب العزب ثلاثة أيام بلياليها واجتمع على رضوان أغا طائفة من نفره وتذاكروا فيمن كان السبب فى اثارة هذه الفتنة فعرفوهم وهم أربعة من الاختيارية فخلعوهم وكتبوا لهم مرسوما بان يخرجوا من بيوتهم ثم ذهبوا الى بيت قيطاس بك وأرسلوا من كل بلك اثنين من الاختيارية الى منزل أيوب بك يطلبون رضوان أغا فاركبوه فى موكب حافل ثم عادوا الى منزل أيوب بك وتناجوا فى أمر الصلح وكتبوا الى أحمد أوده باشى الذى هو افرنج أحمد بالكف عن القتال فأبى فكتبوا عرضا الى الباشا من جميع الصناجق وأغوات الوجاقات الخمسة بطلب الكف عن القتال فأرسل الباشا الى الانكشارية بالكف فامتثلوا وتركوا القتال وتكلم الصناجق والاغوات المذكورون مع بعض الاختيارية من وجاق الانكشارية فى أمر الصلح فتقررت القاعدة بينهم على ارسال حسن كتخدا العزب وأحمد بن بقر رسلا الى المعسكر فى طلب ذلك فاجتمعوا بالعسكر والصناجق فى بيت اسمعيل بك وحضر معهم أيضا جميع أهل الحل والعقد وتشاوروا فى اخماد نار الفتنة بالتى هى أحسن وأرسلوا الى باب الانكشارية فى ذلك فقالوا لانأبى الصلح بشرط ان هؤلاء الثمانية الذين كانوا سببا فى اثارة هذه الفتنة لايكونون فى باب العزب بل يذهبون الى وجاقهم وأن يسلم الامير حسن الاخميمى الى الباشا يتصرف فى أمره كيف يشاء فأبى أهل باب العزب ذلك ولم يرضوه فأرسل الامراء الى افرنج أحمد يشفعون عنده بأن الاشخاص المذكورين يرجعون الى وجاقاتهم فقط ويعفون من النفى ومن القبض على الامير حسن الاخميمى فلم يوافق افرنج أحمد على ذلك وقال ان لم يرضوا بشرطى والاحاربتهم ليلا ونهارا حتى أمحو أثرهم فتفرقوا على غير صلح وبقى الحال على ذلك أياما ثم اجتمع جميع الامراء بمنزل ابراهيم بك بقناطر السباع وتذاكروا فى أمر الصلح على كل حال وكتبوا حجة على ان من صدر منه بعد اليوم مايخالف رضا الجماعة يكون خصم الجماعة كلهم وكلموا أيوب بك فى أن يرسل الى افرنج أحمد بصورة الحال وان يكف عن القتال الى تمام الامر المشروع فيه فبطل القتال نحو الخمسة عشر يوما وأخذ افرنج أحمد فى خلال هذه الايام فى تحصين جوانب القلعة وعمل المتاريس ونصب المدافع وتعبية الذخيرة وقد ملأ الصهاريج بالماء وصار على تمام الأهبة والاستعداد واتفق أن حضر فى هذه الأثناء محمد بك حاكم الاقاليم القبلية ونزل بفضاء البساتين ولبث به ثلاثة أيام ثم دخل القاهرة ومعه السواد الاعظم من العربان والمغاربة والهوارة فلم يكن بأسرع من أن جعل يقاتل كذلك بمن معه من جامع السلطان حسن ومن بيت يوسف أغاة الجراكسة فلم

يفلح وقتـل من أصحابه جماعة كثيرة وانتصر عليه محمد بك المعروف بالصغير مع من انضم اليه من اتباع ابراهيم بك وايواز بك ومماليكه وكانوا قد تترسوا فى سوق السـلاح ووضعوا المتاريس فى شبابيك الجامع الذى هناك فانتقل محمـد بك المذكور وسار الى طولون وتترس بها وهجم على طائفة العزب الذين كانوا بسبيل المؤمن فوقعت بينهـم موقعة عظيمة مات فيها خلق من الفريقين ولم يطق أهل العزب المقاومة فتركوا السبيل وذهبوا الى باب العزب فعند ذلك انكف محمد بك عن القتال وترك جماعة من أصحابه بالسبيل رباطا وسار بمن بقى الى غير ذلك المكان * ولما اشتد الحال وضاقت أمور أهل البلد وكبر خوفهم سار جماعة من كبارهم الى الشيخ الخليفى أحد كبار المشايخ وشكوا اليه مايلاقيه الناس فسار الشيخ الخليفى الى افرنج أحمد وتكلم معه ومع من كان معه من الاختيارية فى أمر الصلح والكف عن القتال وشدد فى ذلك فرد عليـه افرنج أحـد ببـذئ الكلام وبفحش القول وأرسل فى الحال الى أصحاب المدافع أن يطلقوا مدافعهم على أصحاب باب العزب وأن يوالوا رمى القنابل فجعـلوا يطلقونها تباعا فانزعج الناس كافة وكبر خوفهـم وقام سكان باب العزب وأخـذوا ماخف من أمتعتهم وتركوا بيوتهم ونزلوا بالمدينـة وتفرقوا فى الحارات بالقاهرة ومصر وأغلقت جميع الوكائل والخانات والاسواق وخرج أكثر السكان القريبين من قلعـة الجبل كالرميلة والحطابة والمحجر هائمين على وجوههم وقد هدمت المدافع أكثر بيوتهـم وأحرقتهـم نارها وطاف الانكشارية يحرقون مابقى من تلك الدور ولم يصب باب العزب شئ من ذلك الا القليل من أماكنه ثم ان افرنج أحمد وأيوب بك أقاما بعض أصحابهما بالمدرسة بقوصون وجامع مزداره بسويقة العزى وجامع قجماس بالدرب الاحمر ليعطلوا الطريق على العزب واختار افرنج أحمد جماعـة من الانكشارية وأعطى لكل واحـد دينارا وأرسلهم بعـد الغروب الى تلك الاماكن مـددا لمن بها وجعل هو يقاتل من كان مع الجانبكية * واتفق أن مرّ فى صباح ذلك اليوم رجل من أهل العزب ممن كانوا مرابطين فى جامع مزدارة من ناحية السلطان حسن يريد منزله فقبض عليه طائفة من الانكشارية وسلبوه ثيابه وتركوه عريانا وبعثوا به الى افرنج أحمد فلما بلغ أهل العزب ماحـل برجلهم أرسلوا طائفة منهم الى المتترسين بجامع مزدارة فدخلوا من بيت الشريف يحيى بن بركات ونقبوا منزل عمر كتخدا مستحفظان اذ ذاك ومايجاوره من الدور الى أن وصـلوا مـنزل مراد كتخدا فلما رآهـم العسكر الذين كانوا بالجامع المذكور فروا هاربين وتركوا الجامع ومافيـه من أسلحة وذخـيرة * أما عمر أغاة الشراكسة ومن كانوا معه بجامع قجماس فانهم بعـد ان تترسوا وأحكموا متاريسهم بشبابيك الجامع فرقهم عمر المذكور جهة باب زويلة وجهـة التبانة فوقع الخوف فى قلوب سكان تلك الجهـة ونزحوا منها الى حوارى القاهرة حتى ضاقت بهـم فأرسل أهل العزب صالح جوربجى الرزاز بجماعة من عسكر العزب وآخرين ممن انضم اليهـم من الانكشارية وغيرهم فقاتلوا من كان بجامع قجماس واستولوا على الجامع والمتاريس وأخذوا كذلك جامع المرداني وقهروا من كانوا فيه وأقام به طائفة منهم

واخرى

وأخرى بجامع أسلم وانتشرت طوائفهم بتلك الاخطاط والاماكن فسكنت خواطر أهلها واطمأنت قلوبهم قليلا

وهجم طائفة من تلك المتفرقة والاصبهانية على بيت الامير قرا اسمعيل كتخدا مستحفظان فدخلوا من بيت مصطفى بك ابن ايواز ونقبوا الحائط بينه وبين بيت قرا اسمعيل المذكور فلما جاء الخبر الى أهل العزب أرسلوا طائفة منهم ومعهم بيرق ومقدمهم أحمد جويجى فلم يتمكن أحد من الدخول من جهة الباب فخرق صدر دكان هناك وتوصل منه الى بيت أحمد افندى كاتب الشراكسة ثم نقبوا منه محلا توصلوا منه الى حيث المتفرقة والاصبهانية فداهموهم وهم مشغولون بنهب الاثاث والامتعة وهجموا عليهم هجمة واحدة فألقوا مابأيديهم من السلب ورجعوا القهقرى الى المكان الذى دخلوا منه فتبعوهم واقتتل الفريقان قتالا عنيفا الى ان دارت الدائرة على طائفة المتفرقة والاصبهانية وتمزقوا كل ممزق ونهبت طائفة العزب بيت مصطفى بك المذكور حيث مكن المتفرقة والاصبهانية من الدخول الى بيته وانتقل أحمد بمن معه من العسكر الى قوصون ودخل جامع الماس وتحصن به وكان محمد بك حاكم الاقاليم القبلية فى هذا الحين يغدو ويروح مابين جامع الماس والصليبة فكمن له أحمد بطائفة من أصحابه بمنزل البيرقدار فى محل فيه يشرف على الطريق فلما مر بهم فى وسط قومه أطلقوا عليه البنادق فأصابوا أربعة من أصحابه فظن ان النيران أتت من بيت محمد كتخدا البيرقدار فوقف على بابه وأضرم فيه النار فاحترق أكثره ونهبوا مافيه من أثاث وأمتعة ولحقت النار بالبيوت الملاصقة والمواجهة له فعلقت بها وعلا لهيبها وطار شررها الى جميع بيوت تلك الخطة فأحرقت أكثرها من الرباع والدكاكين التى هناك من ناحية جامع الماس الى تربة المظفر يمينا وشمالا وأفسدت مابها من أثاث ومتاع ومالم يحترق نهبه النهابة والحرافيش الذين كانوا يتبعون الحريق ويزيدونه ضراما فكان المنظر مخيفا جدا وخرجت النساء حاسرات مكشفات الوجوه هائمات فى الازقة والحارات يطلبن الملجأ وعم النهب والسلب فى هذا اليوم الى حد لم يسبق له مثال وتعطلت الطرق من المارة والهاربين من نيران الحريق وعلى الخصوص طريق بولاق القاهرة ومصر القديمة والقرافة فقد كانت ملأى بالاخلاط من طوائف الدجوية والهوارة وغيرهم الذين جاؤا مع محمد بيك حاكم الاقاليم القبلية كما تقدم القول وقد أحاطوا بأطراف البلد وصاروا يسلبون المارة واستاقوا جميع جمال السقائين وأخذوها فكان الخطب شديدا والكرب عميما * وانقسم العسكر فى هذه الآونة الى فريقين فريق مؤلف من ايواز بك وقيطاس بك وابراهيم بك أمير الحاج سابقا ومحمد بك وقانصوه بك وعثمان بك بن سليمان بك ومحمد بك ومعهم بلوكات الاصبهانية الثلاثة والجاويشية والعزب والثانى من أيوب بك ومحمد بك الكبير وأغوات الاصبهانية ومحمد بك أغاة متفرقة باشى وأهل بلكه وسليمان أغا كتخدا الجاويشية وبلك الانكشارية المقيمين بقلعة الجبل مع افرنج أحمد والوالى وقاضى القضاة

ونقيب الاشراف وأغلقوا أبواب القلعة جميعها ماخلا باب الجبل فامتنع الناس من
النزول من القلعة أو الصعود اليها الا من الباب المذكور واستمر افرنج أحمد ومن معه
يطلقون المدافع على باب العزب ليلا ونهارا وبالباب المذكور خلق كثيرون منتشرون
حوله وحول ماقاربه من الحارات ورتبوا لهم جوامك تصرف اليهم فى كل يوم * ولما طال
الامر على هذا الحال واشتد البلاء على الرعية اجتمع الامراء بجامع يشبك بدرب الجماميز
وأجمعوا على خلع الباشا وتعيين نائب من الامراء حتى يرد الامر من السلطان بما يراه
واتحدت كلمتهم على اقامة قانصوه بيك ثم ولوا أغوات البلوكات وأرباب الرتب والوظائف
وأحكموا الترتيب فبلغ الخبر أغوات الانكشارية فاعلموا خليل باشا الوالى به فكبر عليه
وأعظمه وكتب الى أغوات جميع البلكات الثلاثة يحضهم على قتال الصناجق ومن معهم
لخروجهم على نائب السلطان ثم جمع جماعة للقتال ورتب لهم جوامك ومرتبات
واتفق محمد بك حاكم الصعيد مع افرنج أحمد على ان أحدهما محمد بك يهجم بأصحابه على
طائفة العزب من طريق قراميدان ويكسر باب العزب الموصل الى الميدان فوصل
خبر ذلك أيضا الى طائفة العزب فاستعدوا وكمنوا على مقربة من بابهم فلما كان
بعد العشاء الاخيرة هجم محمد بيك وأصحابه على الباب وكان جماعة العزب قد أحضروا
شيأ كثيرا من حطب القرطم وطلوه بالزيت والقار والكبريت فلما تكامل عسكر
محمد بيك أوقد جماعة العزب النار فى ذلك الحطب فاضاء لهم قراميدان وصار كالنهار
فاطلقوا على أصحاب محمد بك البنادق وأحكموا الرمى وتابعوه ففر جماعة محمد بك
وتقهقروا وقد قتل منهم خلق كثير وأرسل خليل باشا الى ابراهيم بك وايواز بك وقيطاس بك
يطلبهم الى الديوان ليتفاوضوا فى الامر فاعتذروا بما هم عليه من ترتيب أمور الدفاع وعدم
فتح الطريق فلما أيس منهم جمع اليه أيوب بك ومن انضم اليه من العسكر واستقرت
القاعدة بينهم على استمرار القتال حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا وبرزوا جميعا الى ظاهر
القاهرة وأخذوا فى التأهب للقتال * فلما كان يوم الاحد ثالث ربيع الاول أرسلوا أيوب
بك ومحمد بك الى العربان ليأتوا بجميع جمال السقائين وحميرهم ويمنعوا الماء عن البلد ففعلوا
وأخذوا جميع ما وجدوه من الجمال والحمير فعز الماء وبلغ ثمن القربة خمسة أنصاف فضة
فضج الناس وعجوا وابتهلوا الى الله تعالى وكبر الامر على أصحاب العزب فسار طائفة منهم
الى القصر العينى ليستخلصوا تلك الدواب وجلسوا يراقبون من يمر بهم من المتعصبين فلم يكن
بأسرع من ان دهمهم محمد بك بجماعة من طائفة الهوارة فدافعوا ساعة ثم هربوا وقد
قتل منهم جماعة كثيرة وأرسلت رؤسهم الى الباشا قيل فسره ذلك جدا ورجع المنهزمون
الى بيت قانصوه بك وايواز بك وأخبروا بما حل بهم فكبر الامر على قانصوه بك وايواز بك
وصمما على البراز فركبا فى يوم الاثنين رابع عشر ربيع الثانى وخرج الفريقان الى جهة
قصر العينى والروضة واقتتلا قتالا عنيفا قتل فيه من العسكر خاصة زهاء الاربعمائة

من

من الفريقين خلاف العربان والهوارة وغيرهم من الاخلاط وركب ايواز بك على محمد بك حاكم الاقاليم القبلية فانهزم محمد بك الى جهة المجرى فساق خلفه وكان محمد المذكور قد أجلس كمينا فوق المجرى فلما مر بهم ايواز بك أطلقوا عليه الرصاص وعلى من معه فأصابوه فى صدره فسقط عن جواده ميتا وتفرق من كان معه فقام عليه من بالكمين واحتزوا رأسه وجاء الخبر بقتله الى أصحابه ففترت عزائمهم وضعفت قلوبهم وذهبوا فى طلبه فوجدوه جثة بغير رأس فحملوه و ذهبوا به وتفرقوا وتمزق جمعهم *اما جماعة الانكشارية فانهم طلعوا بالرأس الى مقر الباشا وأعلموه بما جرى ففرح وظن تمام الامر وسكون الفتنة بموت ايواز بك وأمر بالرأس فسلخ ثم طلبه أصحاب ايواز من أيوب بك فدفعه لهم فدفنوه مع الجثة*واشتد حزن أصحاب ايواز بك على فقده وكبر كيدهم مما حل به فاجتمعوا ببقية الامراء وولوا ابنه بدله وتجهزوا للقتال فتجهز الفريق الثانى أيضا وخرجوا فى يوم السبت تاسع عشر ربيع الثانى والتقى الجمعان فوقع بينهما أمور يطول شرحها فلما رأى جماعة العزب اشتداد الامر وعدم التمكن من الوصول الى قلعة الجبل وامتناع من بها وتوالى الرمى عليهم بالمدافع ليلا ونهارا اتحدت كلمتهم على أن يولوا كتخدا جديدا لطائفة الانكشارية ويجلسوه بباب الوالى بطائفة من العسكر وينادوا فى الشوارع ان كل من له علوفة فى وجاق مستحفظان يأتى تحت البيرق بالبوابة ومن لم يأت بعد ثلاثة أيام نهب بيته من غير معاودة ففعلوا ذلك وركب الكتخدا المذكور وألبسه قانصوه بك النائب قفطانا وسلمه البيرق فسار العسكر امامه بالبيرق والمنادى ينادى بما ذكر الى أن وصل الى بيت الوالى * وعادوا الى القتال فبرزوا الى خارج القاهرة من باب قناطر السباع واجتمعوا بقرب قصر العينى بالمدافع وآلات الحرب واقتتلوا من ضحوة النهار الى العصر فقتل من الفريقين خلق ثم افترقوا وعاد بعضهم الى البلد وتخلف طائفة من العزب فأتى اليهم محمد بك حاكم الاقاليم القبلية وأحاط بهم من كل جانب فلما بلغ الخبر قانصوه بك أرسل اليهم مددا فقاتلوا محمد بك وهزموه شرهزيمة وتبعوه الى قنطرة السد وكان أيوب بك فى هذه الاثناء متترسا بداخل التكية المجاورة لقصر العينى فلما شاهد انهدام الوطيس فر ونجا بنفسه فأحرق طائفة العزب القصر ونهبوا مافيه واستمر الحال على هذا المنوال أياما متتابعة

وأرسل قانصوه بك الى من بالقلعة من الوجاقات يتهددهم بحرق بيوتهم ونهب مافيها ان لم يتركوا ماهم فيه من القتال والعمل باشارة افرنج أحمد فاختلفت عندذلك كلمتهم وخارت عزائمهم وأرسل قانصوه بك بعض الامراء والعسكر الى نهب بيت أيوب بك وغيره من بيوت الأمراء فاتصلوا بها من ربع يجاورها وأطلقوا على من بها النيران فهرب أيوب بك وأتباعه فدخلوا ونهبوا مافى البيت وعم النهب فى ذلك اليوم بجميع دور الأمراء وأحرقوا منها ماقدروا عليه ونهبوا ماجاورها من الدور والربوع والدكاكين وغيرها وتقوت بذلك عزيمتهم فأرسلوا طائفة منهم الى الجيوشى ومعهم بعض المدافع فجعلوا يطلقونها تباعا على

بيت الباشا وعلى قلعة المستحفظان وأحاطوا بالقلعة من أسفل ورموا بالبنادق فرفع الباشا
عندذلك على بيته بيرقا أبيض يطلب الامان وفر من كان داخل القلعة من العسكر فهجمت
العساكر الخارجة على الباب واقتحموه عنوة ودخلوا الديوان فانزعج الباشا وأرسل القاضى
ونقيب الاشراف يطلبان له الامان فتلقوهما بالتكريم فقالا ان الباشا يقرئكم السلام
ويقول لكم إنا كنا اغتررنا بهؤلاء الشياطين وقد فروا والمراد أن تعلمونا مطلوبكم فلا
نخالفكم فقالوا أعلما بأن الصناجق والأمراء والاغوات وسائر العسكر قد اتفقوا على
خلعه وان قانصوه بك يكون نائبا وأما الباشا فانه ينزل ويسكن فى المدينة الى أن تعرض
الأمراء على الدولة ويأتينا الجواب فأرسل القاضى نائبه الى الباشا يعرفه بذلك فأجابه
بالطاعة واستأمنهم على نفسه وماله وأتباعه وركب من ساعته فى خواصه يقدمه قانصوه
بك وأغات مستحفظان على يمينه وأغات المتفرقة على شماله واختيارية الوجاقات من خلفه
وامامه ونزل من باب الميدان الى الرميلة على الصلبية وقد اصطف العامة على جانبى الطريق
وهم يسبونه ويلعنونه ويخاطبونه بفحش القول الى أن وصل الى بيت على أغا الخزندار بجوار
المظفر * وهجم بعدذلك أصحاب العزب على باب مستحفظان فملكوه ونهبوا ماوجدوه فيه من
متاع وغيره وقتلوا من صادفوه بالباب وبطريق المحجر من أصحاب الفتنة وطلع الذين كانوا بباب
العزب من الانكشارية الى بابهم فكانت عدتهم ستمائة ثم اجتمع الامراء جميعا ببيت قانصوه
بك وكتبوا محضرا بصورة ماوقع وطلبوا من دار السلطنة ارسال وال آخر وانقضت الفتنة
وسكنت الخواطر * ولبث خليل باشا محجورا عليه بالقاهرة حتى جاء والى باشا من دار السلطنة
وصرح له بالسفر فسافر فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة أربع وعشرين ومائة وألف هجرية
فكانت أيامه كلها فتنا وقتالا وهى سنة وتسعة أشهر وأيام وكانت أيام هذه الفتنة خمسة
وسبعين يوما * وطلع والى باشا الى مقره بقلعة الجبل فى أواخر شهر رجب سنة ثلاث وعشرين
ومائة وألف هجرية

مطلب ولاية والى باشا

واتفق ان جلس فى مستهل شهر رمضان واعظ من الروم بجامع السلطان الملك المؤيد
وأخذ يعظ الناس فكثر عليه الجمع وازدحم المسجد بالاتراك وصار يجلس كذلك فى كل عام
ثم انتقل من الوعظ الى ذكر مايفعله أهل مصر بأضرحة الاولياء من ايقاد الشموع والقناديل
فى القبور وتقبيل أعتاب الأولياء وغيرذلك وصرح بأن فعل هذا كله منكر يجب على الناس
الاقلاع عنه وعلى ولاة الأمر السعى فى إبطاله وعرض بذكر ماقاله الشعرانى فى طبقاته ان
بعض الاولياء اطلع على اللوح المحفوظ وقال انه لايجوز ذلك أبدا وان الاطلاع على اللوح
المحفوظ لايمنح حتى ولا للأنبياء فضلا عن الأولياء وندد ببناء القباب على أضرحة الاولياء
والتكايا وجزم بهدمها وذكر أيضا وقوف الفقراء بباب زويلة فى ليالى رمضان فكان لقوله وقع
مهم فى قلوب السامعين وما أتم كلامه حتى خرج الناس بعد الصلاة ووقفوا بالنبابيت

والمساوق

والمساوق والاسلحة على مقربة من باب زويلة فهرب الذين يقفون هنالك فقطعوا الجوخ والاكر التى كانت معلقة وهم يقولون أين الاولياء فتأثر الناس من ذلك جدا وذهب بعض العامة الى العلماء بالازهر وحدثوهم بما قاله الواعظ الرومى وما فعله الناس بباب زويلة فأفتى الشيخ أحمد الغزاوى والشيخ الخليفى بأن كرامات الاولياء لاتنقطع بالموت وان انكار الواعظ المذكور اطلاع الاولياء على اللوح المحفوظ لايجوز ويجب على الحكام كفه عن ذلك فأخذ بعض الناس تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو فى مجلس وعظه فلما قرأها غضب وقال أيها الناس ان علماء بلدكم قد أفتوا بخلاف ماذكرت لكم وانى أريد أن أتكلم معهم وأباحثهم فى مجلس قاضى القضاة فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق فصاحوا جميعا نحن معك لانفارقك فنزل عن كرسيه واجتمع عليه من العامة خلق كثير ومر بهم من وسط القاهرة الى أن دخل بيت قاضى القضاة فانزعج القاضى وخاف وسألهم عن السبب لحضورهم فرفعوا له ورقة الفتوى وطلبوا منه احضار المفتين والبحث معهم بحضرته فقال القاضى لابأس عليكم اصرفوا أولا هؤلاء اليوم ثم نحضر من أفتى بهذه الفتوى فقالوا وماتقول أنت فى هذه الفتوى فقال هى باطلة قالوا اكتب لنا حجة ببطلانها فقال ان الوقت قد فات والشهود قد انصرفوا قال الراوى وكان الذى يخاطبهم ترجمان القاضى فقبضوا على الترجمان وأوسعوه ضربا وطلبوا القاضى فهرب فقبضوا على النائب فكتب لهم حجة بما شاؤا فتفرقوا وانصرفوا واجتمعوا بعد ذلك لسماع الواعظ على عادتهم فلم يحضر فأخذوا يسألون عنه فقال بعضهم ربما منعه القاضى من الجلوس فقام فى الحال رجل منهم وقال أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليتبعنى فتبعه الجم الغفير فمضى بهم الى مجلس القاضى فدخلوا عليه وقالوا أين شيخنا قال لا أدرى فقالوا قم واركب معنا الى الديوان لنكلم الباشا فى هذا الامر ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم فان أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا والا قتلناهم فركب القاضى مكرها وتبعوه الى أن طلعوا الديوان فسأله الباشا عن سبب حضوره فعرفه بقصة القوم الذين حضروا معه وما وقع منهم بالامس واليوم وانهم ضربوا ترجمانه وأخذوا الحجة قهرا وأتوا اليوم وأركبوه قهرا فأرسل الباشا الى كتخدا الانكشارية والى كتخدا العزب وقال اسألا هؤلاء عن مرادهم فقالوا نريد احضار الغزاوى والخليفى ليبحثا مع شيخنا فيما أفتيا به فرسم الباشا باحضارهما وافترقوا على ذلك فأرسل الباشا بعد افتراقهم الى ابراهيم بك وقيطاس بك يعلمهما بما حصل من العامة ويقول ان لم يعاقب هؤلاء فلابدلى من السفر أنا وقاضى القضاة ۞ أما العامة فانهم نزلوا بمرسوم الباشا الى جامع الملك المؤيد وأتوا بالواعظ وأصعدوه الى كرسيه فصار يحضهم على الاجتماع فى غد بالمؤيد كى يذهبوا بجملتهم الى القاضى ويحضهم أيضا على الانتصار للدين وقمع طائفة المفسدين ثم افترقوا على ذلك ۞ ولما وصل مرسوم الباشا بمعاقبة العامة الى الامراء اجتمعوا جميعا ببيت الدفتردار وتناجوا فى الامر فاتفقوا على ان تركب الاغوات وتطوف

بالشوارع والحارات فمن وجدوه من أهل تلك العصابة قبضوا عليه وأن يطردوا كل من يجدونه في جامع المؤيد من طائفة الترك فلما كان اليوم الثاني صباحا ركب الاغا وأرسل الجاويشية الى جامع المؤيد فلم يجدوا منهم أحدا وجعل يفحص ويفتش على أفراد المتعصبين فمن ظفر به أرسله الى بابه فضرب بعضهم ونفى بعضهم وما زالوا كذلك حتى سكنت الفتنة وعادت الأمور الى ما كانت عليه

وما كادت تطمئن القلوب بسكون هذه الفتنة حتى ظهرت فتنة أخرى ومحنة كبرى وذلك ان رجلا من الاشراف تشاجر مع تركي في سوق البندقانيين فضرب التركي الشريف فقتله وفر ولم يعلم أين ذهب فقام الاشراف كافة ووضعوا المقتول في نعش وطافوا به الاسواق حتى طلعوا به الى الديوان وأثبتوا القتل على القاتل فلم يقفوا له على أثر فنزل الاشراف وأصبحوا وقد قفلوا الاسواق التي بالقاهرة وصاروا يرجمون أصحاب الحوانيت بالحجارة كي يقفلوا حوانيتهم ويضربون كل من عثروا عليه في الطريق من المارة ومكثوا على هذا الحال يومهم وأصبحوا كذلك وأرسلوا الى الاشراف القاطنين بقرى مصر ليحضروا ثم اجتمعوا بالمشهد الحسيني وخرجوا وامامهم بيرق وساروا الى بيت قيطاس بك الدفتردار فخرج عليهم أتباعه وطردوهم وهزموهم بعد قتال فرجعوا وقد عاثوا بالطرق وفعلوا مالاخير فيه فلما تفاقم أمرهم وكادت الفتنة تتسع تحرك عليهم العسكر وركب أغوات الاصبهانية الثلاثة وأغوات الانكشارية في عددهم وعددهم وطافوا المدينة فخاف الاشراف وتفرقت جموعهم ثم نادوا بالامن والامان وفتح الحوانيت ففتحت وسكنت الفتنة بعدان كاد يستفحل أمرها

وأعقب هذه الفتن المتراكمة والمحن المتوالية طاعون شديد أمات خلقا كثيرا جدا وبقى على شدته بالقاهرة ومصر من ربيع الاول من السنة الى أواخر جمادى الثانية ففتك فتكا ذريعا وعم وامتلأت البيوت والطرق بالموتى والدفن مستمر ليلا ونهارا فكانت شدة عظيمة للغاية ثم ارتفع وزالت بزواله ولاية والى باشا وجاءت الاخبار بعزله وتولية عابدين باشا فقدم الى مدينة الاسكندرية ثم حضر الى القاهرة في صفر سنة خمس وعشرين ومائة وألف هجرية فنزل والى باشا وسافر الى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه عشرة أشهر وأياما

۞ وأخذ عابدين باشا يتصرف في الامور فقدم له الامراء كافة التقادم والتعابى النفيسة وقدم له اسمعيل بك أيضا تقدمة نفيسة للغاية فاستعظمها عابدين باشا ومال اليه وأحبه واختص به ومال الى طائفة القاسمية ارضاء لاسمعيل بك المذكور فجعل يوليهم المناصب العالية حتى ظهروا بمظهرهم القديم من الابهة والتكريم وزال عنهم البأس ولازمتهم النعمة فصارت أمور البلاد على أحسن مايرام واستتب الامن وعم واطمأنت قلوب الرعية وكثرت الاقوات ودرت الارزاق وارتفع الغلاء وزال الوباء وراجت أسباب التجارة وسلكت الطرق وأخصبت الارض وأجادت فكانت أيام عابدين باشا المذكور كلها راحة وهناء فلما كانت أخريات سنة ثمان وعشرين ومائة وألف جاء الخبر بعزله وولاية آخر اسمه على باشا فأسف

الناس

مطلب
ولاية على باشا

الناس لذلك وحزنوا عليه ونزل عابدين باشا من قلعة الجبل عند ماوصل الخبر بوصول على باشا
الى الاسكندرية ثم سافر الى الديار الرومية قبل وصول على باشا الى القاهرة فكانت مدة
تصرفه ثلاث سنين الاشهرا وسافر الى الاسكندرية أرباب الخدم والعكاكيز وكبار الامراء للقاء
على باشا المذكور وحضروا معه الى القاهرة فصعد الى قلعة الجبل على الرسم المعتاد
واستقر به المنصب والامور والفتن نائمة والقلوب مطمئنة فلم تبق الحال كذلك مستتبة
الاقليلا حتى قامت الفتنة بين أهل بولاق القاهرة من حارة الجواير وبين بعض الجمالة اتباع
أمير الحاج وذلك ان بعض سكان الحارة المذكورة تشاجروا مع نفر من الجمالة لاسباب
طفيفة للغاية فأدت هذه المشاجرة الى الملاكمة والمضاربة بالايدى ثم بالهراوى والمساوق
وعلا الصياح واجتمعت الغوغاء والحرافيش وكثرت الجلبة فخرج لمعاونة الجمالة أمير اخور
الاصطبل ومعه نفر من الاتباع فقام عليهم أهل الحارة كافة وأوسعوهم ضربا بالمساوق
فوصل خبر ذلك الى الامير اسمعيل بك أمير الحاج فأرسل اليهم أغات الانكشارية والوالى
فقاموا عليهما كذلك وضربوهما وكانت النساء فى هذه الاثناء يصوتن بأعلى أصواتهن والصغار
يضجون ويسبون كل من يحضر اليهم ويرجون بالاحجار فى الحارات ومن أعالى البيوت فعاد
الوالى ورجع اليهم بطائفة من الجند وقصدوا الحارة فتترس فيها أهلها وعلت الاصوات
وصعدت النساء على أسطحة البيوت وصرن يرجمن بالاحجار فأطلق الجند البنادق فقتلوا عدة
رجال ثم هرب من بقى فدخلوا البيوت وأخرجوا النساء والاولاد وحملت النساء متاعهن
ثم قفلوا الابواب ودقوا فيها المسامير فسكنت الفتنة ولما بلغ خبرها من بالقاهرة ومصر القديمة
خافوا وظنوا انها من الفتن الكبرى فانكمشوا ليلتهم تلك وتعطلت الاسواق حتى شاع الخبر
بسكون الفتنة ورجوع الحال الى سابق مجراه

واتفق ان أرسل الوالى الخزينة السلطانية صحبة محمد بك ابن ابراهيم بك أبى شنب وكان
بين محمد بك المذكور وبين اسمعيل بك ابن ايواظ وعلى باشا الوالى نفور ووحشة فلما وصل
محمد بك الى دار السلطنة واجتمع بصدر الدولة يومئذ وشى فى حق اسمعيل بك وبالغ فى
الوقيعة به وقال انه ان استمر على هذا الحال وطالت أيامه فى مصر استقل بملكها وأزال
عنها نواب الدولة فقد تمكن منها وبث فى خدمتها أتباعه ومماليكه ومماليك أبيه وأن
لاحرمة للوالى عنده ولا كلمة فوق كلمته وقد أبعد كل من كان ناصحا للدولة وصادقا فى
خدمتها وجعل للدولة أربعة آلاف كيس ان هى أزالت اسمعيل بك المذكور وخلعت على
باشا الوالى وأتت بغيره قبل فأجابه الصدر الاعظم الى ذلك وبقى الامر مكتوما بينهما الى أن
تعين أمير للحاج الشامى اسمه رجب باشا فرسم له الصدر بأنه اذا وصل مصر يعرج على
القاهرة ويقبض على على باشا واليها ويقتله ثم يحتال على قتل اسمعيل بك ابن ايواظ مع
جميع عشيرته ماعدا على بك الهندى * ورجع محمد بك أبو شنب ظافرا مطمئنا وجاء
رسول رجب باشا ومعه مرسوم بحبس على باشا الوالى واقامة أحمد بك الاعسر نائبا فحبسوه

فى قصر يوسف بك ثم جاء رجب باشا الى القاهرة وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل فلما استقر به المقام أحضر على باشا بين يديه وكذلك خازنداره وكاتب الخزينة والروزنامجى ورسم بعمل حساب على باشا ثم أمر به فذبحوه ذبح الشاة واحتزوا رأسه وسلخوها وبعث بها الى دار السلطنة قال بعض الكتاب فمات على باشا شهيد الزور والافتراء ودفن بمقام أبى جعفر الطحاوى بالقرافة قال ويعرف قبره الى الآن بعلى باشا المظلوم ثم رسم بضبط جميع مخلفاته واستحضر اليه خفية محمد شركس وشاوره فى كيفية قتل ايواظ بك وجماعته فدبروا له ولكن لم يتم له تدبير اذ اختفى ابن ايواظ مدة ثم ظهر ومعه فرمان السلطان بخلع رجب باشا فدفعه اليه وأنزله من قلعة الجبل الى بيت مصطفى كتخدا عزبان ووكل به من يحرسه ولبث على هذا الحال أياما الى ان جاء للولاية من قبل الدولة محمد باشا البستانجى وذلك فى أوائل سنة ثلاث وثلاثين فكانت مدة ولاية على باشا المظلوم سنتين وبعض أشهر

مطلب ولاية محمد باشا البستانجى وخلع رجب باشا

ولما استقرت بمحمد باشا الولاية أبرز فرمانا سلطانيا بالعفو عن ابن ايواظ وسرح رجب باشا بالسفر فسافر مهانا مرذولا وقد كان استفحل أمر محمد بك شركس واعتز جانبه فى أيام رجب باشا فظهر بمظهر الكبرياء والعظمة والاستخفاف بأقرانه من الامراء وكان حقده على الامير ذى الفقار وقومه يزداد يوما عن يوم فطلب من محمد باشا الوالى مرسوما بالخروج على ذى الفقار المذكور وقتله فأبى محمد باشا ذلك فألح عليه فلم يقبل فقام من عنده يوما مغضبا وانقطع من ذلك اليوم عن الصعود الى الديوان وأهمله فغضب لذلك الباشا وأبرز مرسوما بخلع محمد شركس المذكور من منصبه وكتب الى المشايخ وأرباب الوجاقات بذلك فلما علم محمد شركس بالخبر أسرع وجمع اليه أصحابه ورتب أموره وقام معهم وأحاطوا بالرميلة وحوالى قلعة الجبل ونادوا بخلع محمد باشا البستانجى ثم أنزلوه من القلعة وسجنوه فى بيت ابن الوالى وكان ذلك فى أخريات سنة سبع وثلاثين فكانت مدة تصرفه فى هذه المدة التى هى المرة الثانية أربع سنين وأرسل الى محمد بك أبى شنب فخلع عليه وولوه النيابة وأخذوا منه مرسوما بقتال ذى الفقار وأصحابه وأرسلوا من يقتله ويأتى برأسه فلم يظفروا به واختفى ذوالفقار فنهبوا داره وأخذوا مافيها وكتبوا بصورة الحال الى دار السلطنة وطلبوا أن ترسل لهم واليا آخر بدل محمد باشا البستانجى وكان محمد باشا المذكور قد كتب أيضا بصورة ماوقع فأرسلت الدولة آخر اسمه على باشا فدخل القاهرة فى أوائل المحرم سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف هجرية فلم تستقر به الولاية حتى عمد الى العزل والتنصيب فى الأمراء والحكام ونقض فيهم وأبرم والكلمة يومئذ لمحمد بك أبى شنب واسمعيل بك ابن ايواظ * قال بعض الكتاب ولما كان هذا العزل والتغيير لم يتناول الا ذو الفقار وجماعته اجتمعوا وتشاوروا فى الامر وتكلموا فى كيفية خلاصهم من فعال على باشا المذكور وقد تحققوا ماوراء ذلك من الخيبة ان هم تراخوا وما زالوا حتى أحكموا تدبير أمورهم وعلى باشا وبقية الامراء فى شاغل عنهم بالمناصب وتفريق الوظائف والعزل والتولية ثم ظهر ذو الفقار من مخبئه

مطلب ولاية على باشا

واجتمع بمحمد باشا البستانجى المعزول ولم يكن الى ذلك الحين قد سافر الى الديار الرومية وكامه فى أمر الخروج واضطرام نار الفتنة فاستقرت القاعدة بينهما على اعمال الحيلة على قتل كتخدا العزب فاذا تم لهم قتله امتلكوا باب العزب وظفروا بمقصودهم ثم جمعوا لذلك طائفة من الفقارية وأخرى من الشواربية وركب أبودفيه أحد المقدمين عند فجر ذلك اليوم ومعه بعض الامراء وقيطاس ذوالفقار وحوله عدة من الكبراء من قومه وربطوا الاربطة بالطريق الموصل الى قلعة الجبل وساروا الى الرميلة ووقفوا هنالك فلما مر بهم كتخدا العزب المذكور تقدم اليه أحدهم ليسلم عليه وقبض على يده وتبعه آخر وضربه بسيفه فسقط الى الأرض فتركوه وتراكضوا جميعا الى الباب وأجلوا من كانوا عليه وامتلكوه ووصل الخبر الى محمد باشا البستانجى فركب فى الحال وجاء الى جامع المحمودية وأتى الى على باشا من أعلمه بالخبر فنزل الى باب العزب وهو فى دهشة وحيرة واجتمع جميع الصناجق وتشاوروا فى الامر طويلا فلم يروا بدا من أن يعيدوا الوظائف الى ما كانت عليه تسكينا للفتنة وقسموها بين الفقارية * واتفق ان قبطانا من قباطين دار السلطنة كان قدم الى القاهرة فى نفر من العسكر السلطانى ولبث بها فلما ظهرت هذه الفتنة ووصل اليه خبرها ركب فى عسكره وأتى الى جامع السلطان حسن واستقربه مع ذى الفقار بك وظهرت كلمة محمد باشا البستانجى فى الحال فجعل يقسم المناصب العالية ويتصرف فى الولاية وخلع على الامراء أصحاب الفتنة ولبث على هذا الحال بجامع المحمودية مع أصحابه أياما * فلما رأى محمد بك شركس ان قد تمت الحيلة ودارت عليه وعلى أعوانه الدوائر كبر عليه هذا الامر جدا وجعل يتأهب للذب والقتال وسير من فوره الى بيت قاسم بك عدة كبيرة من الجند والمدافع ورسم فأقاموا المتاريس عند درب الحمام وجامع الحصرية وهجمت عساكره على من كانوا بسبيل المؤمن بالبنادق حتى أجلوهم وهزموهم وهربوا الى جهة القلعه وسوق السلاح ولكنهم تمكنوا من عمل متاريس عند مذبح الجمال ورموا على من كانوا بجامع المحمودية وتتابع الرمى من كل صوب وحدب فهرب المجتمعون بالرميلة وبنى أصحاب شركس المذكور المتاريس أيضا عند وكالة بالاشكمنية وما زال فى دفاع وقتال حتى كاد يتم له الظفر بالفقارية وبدأت شارات النصر وعلائم الفوز والغلبة فبرز يوسف الجربجى البركاوى وألقى بنفسه وتسلق على باب العزب ونط الحائط تحت رمى البنادق واتصل بمحمد باشا البستانجى ومن معه بجامع المحمودية وطلب أن يعطوه مرسوما الى كتخدا العزب كى يعطيه بيرقا ومائة مقاتل وضمن لهم اجلاء الذين كانوا بسبيل المؤمن ثم يتحول بعد اجلائهم بمن معه الى بيت محمد شركس فيخربه تخريبا بشرط أن يولوه منصب كتخدائية العزب ان عاد اليهم ظافرا فأجابوه الى ماطلب فنزل بمن معه من باب الميدان وسار بهم من جانب تكية اسمعيل باشا ووقف بجانب باب كان هنالك يوصل الى الرميلة وطوى البيرق وهجم بمن معه على سبيل المؤمن يطلق النيران المتتابعة وهم يهللون ويكبرون فانزعج من كانوا بالسبيل وتحيروا فى أمرهم وولوا جميعا الادبار الى

درب الحصرية وأصحاب يوسف جوربجى فى أقفيتهم يعملون فيهم الضرب والطعن حتى جاوزوا جميع متاريسهم ودخل بيت قاسم بك فحولوا المدافع صوبه وصعدوا منارة جامع الحصرية ورموا بالبنادق على البيت فنزلت عند ذلك سائر البيارق من الابواب وساروا الى جهة الصليبة وطلع القبطان الى قصر يوسف بك ووضع مدفعا على بيت محمد بك شركس وأطلق عليه الكلل تباعا وقد كان قاسم بك أصيب برصاصة ممن كانوا بمنارة جامع الحصرية فمات فلما رأى محمد شركس ماحل بقومه وما يترصده من المكاره خرج هاربا فخرج معه محمد بك الاعسر ومحمد شركس الصغير وأخذ جميع أمواله وذهب بأصحابه الى ناحية مصر القديمة وعبروا النيل الى الجانب الغربى خفية وركب محمد باشا البستانجى وصعد الى قلعة الجبل فى أهبة وكبكبة ثانية فنزل على باشا وسافر الى جزيرة جريد وقبض ذو الفقار بك على زمام الامور فارتفعت كلمته وظهرت بعد الخمول والانكماش عظمته وبعث بمن يقبض على محمد بك جركس فجد الرسل السير خلفه فلم يدركوه ورجعوا فأخبروا انه سار الى الجبل الاخضر ومنه الى أدرنة وكان خروج محمد جركس المذكور فى يوم السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف فسكنت بعد خروجه الفتنة وزالت أسبابها ووقف كل عند حده قال بعض الرواة وهذه الفتنة كانت بايعاز من دار السلطنة

واتفق بعد ذلك بقليل ان على بك المعروف بابى العزب ومصطفى بك ابن ايواظ ويوسف بك الخائن ويوسف بك ابن الشرابى وعبدالله أغا كتخدا الجاويشية وسليمان أغا أبادفية وهم جميعا من طائفة القاسمية جلسوا على عادتهم فى بيت أحدهم على بك أبى العزب يشربون الخمر فلما أخذ الشراب من عقولهم فى تلك الليلة تأوه مصطفى بك ابن ايواظ وقال يموت أخى العزيز الصغير والكبير ويصير الهندى مملوكنا سلطانا على مصر وله الكلمة النافذة علينا والوالى فى قبضة يده وكان النيل قريب الوفاء فقال على بك خفف عنك والله انى لقاتل الباشا يوم جبر البحر فقال أبودفية وانى لقاتل ذو الفقار وقال مصطفى بك وانى قاتل الهندى مملوكنا ثم تحالفوا على ذلك وتعاهدوا على العمل وكان معهم فى تلك الليلة مملوك من مماليك عبد الله بك وقد كان هرب عند قتل سيده ولحق بالهندى وأقام فى خدمته أياما فلما ارتقى مصطفى بك المناصب العالية أخذه من الهندى وجعله فى خدمته فلما سمع هذا المملوك ماتحالفوا عليه ذهب الى على بك الهندى وأعلمه بالخبر فبعث به الى ذى الفقار فأخبره أيضا فبعثه الى محمد باشا فأخبره * فلما كان يوم الديوان وقد صعد على بك أبوعزب الى الخدمة بالديوان أمر به الباشا فقبضوا عليه وقتلوه من ساعته تحت ديوان السلطان قايت باى وأحاط بداره ونهب مافيها وكان شيأ كثيرا للغاية وأرسل فى الحال مرسوما الى الاغا بالقبض على باقى أصحاب هذه المؤامرة فكان أول من قبض عليه منهم ابن ايواظ فاركبوه حمارا وأتوا به الى الباشا فأمر به فقتل فى الحال واختفى الباقون فضعف بذلك جانب القاسمية

وانحط

وانحط قدرهم وعلت كلمة الفقارية ولم يبق ظاهرا من القاسمية الاعلى بك الهندى فعمل ذو الفقار على قتله أيضا فقتله وقتل معه آخرين

واتفق ان عاد فى هذه الاثناء محمد بك شركس من فراره على ماتقدم بيانه فلما علم أصحابه برجوعه جاؤا اليه وأقبلوا جميعا عليه فركب معهم ونزل الى البحيرة يريد الاسكندرية فلاقاه حسين بك الخشاب فى جنوده يريد منعه والظفر به فهزمه چركس وغنم خيامه وخيله وجماله ثم هبط الى الفيوم ونزل على بنى سويف ثم الى القطيعة على مقربة من جرجا فاجتمع عليه من بقى منهم من القاسمية المتشردين فقام لصده حسين بك حاكم جرجا فركب عليه چركس المذكور وقاتله فقتل حسين بك وجماعة كثيرة من أتباعه وغنم چركس آلاتهم وجميع معداتهم وجاءت الاخبار بذلك الى القاهرة فجمع ذو الفقار الامراء وشاورهم فى الامر فجهزوا لذلك عسكرا عظيما صحبة عثمان بك وآخر اسمه على بك قطامش فتلاقوا مع چركس بوادى البهنسا واقتتلوا فكانت الهزيمة على عسكر ذى الفقار ومن معهم واستولى چركس على ما كان معهم من آلات الحرب والخيام والخيل وحال الليل بينهم فافترقوا ورجع المنهزمون الى القاهرة فشق أمرهم على ذى الفقار وهاله جدّا وجمع الامراء ثانية واتفقوا على ارسال حملة أخرى ولكنهم لم يجدوا ماينفقونه فطلبوا مرسوما من محمد باشا البستانجى بثلثمائة كيس من مال الخزينة نفقة وعليهم رده من أموال السنة القابلة فامتنع الباشا فألحوا عليه فصمم على الامتناع فشكوا فلم يسمع فركبوا عليه وأنزلوه من قلعة الجبل وأقاموا محمد بك قطامش نائبا وأخذوا منه مرسوما بالنفقة وجهزوا العسكر واهتموا بأمرها اهتماما عظيما فسارت هذه الحملة والتقت بچركس ومن معه فوقعت بين الفريقين حروب هائلة ووقائع متوالية انجلت عن هزيمة چركس وتبديد شمل جماعته وتمزيقهم كل ممزق * أما محمد باشا البستانجى فانه بعد ان خلعوه أنزلوه من قلعة الجبل وحجروا عليه أياما حتى ورد الخبر بولاية باكر باشا وذلك فى سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف فكانت مدة تصرفه الثانية أربع سنين وأشهرا ووصل الى مصر باكر باشا الوالى الجديد فكان وصوله فى خلال الفتن واشتداد الخطوب والمحن فلم يعمل عملا يذكر لان البلاد كانت فى شدّة وضنك بأسباب الحوادث المتراكم بعضها فوق بعض ولم يستقر به المقام الا أياما قلائل حتى ثار من فى البلد من القاسمية المختفين وثار معهم سليمان اغا أبو دفية فدخل منهم جماعة على ذى الفقار بك وقت العشاء فى رمضان من السنة وقتلوه وكان ذلك بتدبير من محمد بك چركس وهو مختف جهة الشرقية ينتظر موعدهم بعد قتل ذى الفقار بك فقضى الله بموت چركس قبل أن يعلم بخبر موت ذى الفقار وذلك انه لما بعث ذوالفقار قومه فى طلب محمد چركس المذكور شددوا فى البحث عنه وتتبعوا خطواته فكان ينتقل من جهة الى أخرى حتى سار الى الشرق ومعه جماعة من عربان خويلد فتبعه عثمان بك قطامش بعسكره وسالم بن حبيب البدوى وقومه فتلاقوا معه واقتتل الفريقان قتالا عنيفا جدا انجلى عن هزيمة چركس ومن معه ففروا وألقوا بأنفسهم الى

مطلب
عزل محمد باشا البستانجى وولاية باكر باشا

النيل ونزل چركس بفرسه يريد العبور الى الجانب الغربى من النيل فانغرز الفرس فى روبة تحتها الماء غزير فترجل عنه ليخلصه فسقط ومات غريقا وكان على مقربة منه شادوف وعليه رجلان من الفلاحين ينقلان الماء الى مزرعة لهما فنزلا اليه فوجدا الفرس وچركس ميتين ولم يعلما من هو فأخرجاه وأخذا ماعليه من الملابس وسلاحه و زرخه وما فى جيوبه ودفناه بالجزيرة ومر بها قارب صيد فطلباه ووضعاه فيه وكان على بك جالسا بجانب النيل ومعه سالم بن حبيب فنظر سالم الى القارب وهو مقبل فقال ماهذا الا سمكة عظيمة مقبلة الينا فأوقفوا القارب فتقدم أحد الشدافين الى على بك وقبل يده فقال له ماخبرك قال وجدنا جنديا من المهزومين غريقا ومعه حصان فلعله من المطلوبين والا ألقيناه فى الماء فقال لاحد أصحابه اذهب وانظر من هو فلعلك تعرفه فذهب وعاد فاخبر انه محمد چركس الكبير وقد أحضر معه خاتمه فأمر به فاخرج من القارب وقبض على بك على أحد الشدافين وألزم الآخر باستحضار ماأخذه من الثياب والسلاح فاحضرها ثم أمر فاحتزوا رأس محمد بك چركس وغسلوا جثته ودفنوه ناحية شرونة وارتحلوا الى القاهرة وكان القاسمية الذين بالقاهرة قد دخلوا على ذى الفقار وقتلوه كما تقدم القول وابثوا ينتظرون قدوم محمد چركس وكانت أبواب المدينة مقفلة وعلى كل باب منها صنجق والوجاقلية يطوفون فى الشوارع وبأيديهم السيوف والقرابين المحشوة فلما وصل على بك قطامش الى الآثار النبوية المعروفة عند العامة (بأثر النبى) أرسل يخبر بما جرى فخرج اليه عثمان بك ودخل صحبته بموكب حافل والرأس امامهم محمولة فى صينية حتى طلعوا بها الى قلعة الجبل و وضعوها بين يدى الباشا فخلع عليهم الخلع السمور ونزلوا الى بيوتهم فأتتم التقادم أيضا من جميع الامراء قال أصحاب التاريخ وكان چركس المذكور من أظلم خلق الله وأشدهم طغيانا وكان أتباعه على شاكلته فكانت أيامه شر الايام وكانت الحروب فى عهده لاتقعد لها قائمة فاشتدت على الرعية الخطوب وتوالت المحن والكروب وتعاقب الغلاء وعم الويل والوباء واشتد البلاء وقتل البنون والآباء وكان موت محمد چركس المذكور فى أواخر سنة اثنتين وأربعين * أما الامير ذوالفقار بك فقالوا انه كان أميرا جليل القدر شجاعا بطلا كريم الاخلاق مع قلة ثروته وعدم ظلمه وكان كثير الحسنات يرسل فى كل شهر رمضان من السنة لجميع الامراء والاعيان والوجاقلية المليكات والكساوى وللعلماء بالازهر ستين كسوة ودراهم تفرق على الفقراء والمجاورين فكان محبوبا محترما مهيبا نافذ الكلمة بكاه الناس كافة وحزنوا على فقده هذا ما كان من أمر الفتن بديار مصر

۞ أما ما كان من أمرها فى دار السلطنة فانه لما تم لخصوم محمد باشا البلطه جى الصدر الاعظم النكاية به وعزله وتبعيده كما تقدم القول تولى الصدارة بعده عدة من الوزراء فلم تطل أيامهم ولم يفلحوا الى أن تولاها على باشا دماد فأحسن التدبير وأصلح ماأفسده السلف وساق الجيوش الى اخضاع أهل الجبل الاسود لتمردهم وخروجهم عن طاعة السلطان

ثم سار لتدويخ البلاد التابعة لجمهورية البندقانيين وضمها الى أملاك الدولة ومحو أثر الجمهورية المذكورة حيث كانت الدولة قد ملت من حروبها المتتابعة ففتح كثيرا من البقاع والقلاع كاستنديل وكورودوس وأنابولى وقتل وسبى وخرب ثم عاد الى دار السلطنة ظافرا غانما ولبث الى أن زال الشتاء وكر راجعا فى جيش عظيم لاخذ مابقى من جمهورية البندقانية فلما علمت دولة النمسا بما وراء ذلك من استيلاء العثمانيين على خليج البندقانيين وان هذا مما يفتح للعثمانيين بابا واسعا لنقل مهماتهم وذخائر حربهم ويسهل لهم الهجوم على بلادها ويغنيهم عن المجىء اليها عن طريق بلغراد وطمشوار أفاقت من غفلتها وراسلت الدولة العثمانية فى مجانبة الحرب مع جمهورية البندقانيين وأنذرتها بانها اذا أبت ذلك أشهرت الحرب عليها فاستعظم الصدر هذا الامر جدا وحول وجهه عن محاربة البندقانيين الى قتال النمسا فسار بجيوشه وشن الغارة على أملاكها فسيرت لقتاله جيشا عظيما للغاية ومقدمه البرنس أوجين دى ساڤوا وهو من أكبر قواد ذلك العصر وأعظمهم خبرة بفنون الحرب والقتال فاشتبكت الحرب بين الفريقين واشتد القتال فانتصر النمساويون نصرة مؤزرة فى موقعة بتروارين وقتلوا الصدر الاعظم فى ساحة الحرب ثم سار قائد الجيوش النمساوية الى مدينة طمشوار فافتتحها بعد حصار أربعة وأربعين يوما ثم نزل على مدينة بلغراد وحاصرها وشدد فى حصارها وكان قد تولى مسند الصدارة العظمى خليل باشا فحضر فى عسكر عظيم لاستخلاص المدينة ورفع الحصار عنها فلم يفلح وتغلب عليه العدو ودخل المدينة عنوة وأعمل فيمن بها من عساكر المسلمين السيف ووصلت الاخبار بذلك الى القسطنطينية فعمدوا الى طلب الصلح وأرسلوا الى النمسا فى ذلك وكان الذى قد تولى هذا الامر ابراهيم باشا نائب الركاب الهمايونى فاستكبر الجند هذا الامر جدا وقالوا لانترك طمشوار الجميلة فى أيدى الاعداء فأخذ الناس بقولهم ووافقوهم على استدامة القتال وتبعهم فى ذلك أيضا طلبة العلم فسقط ابراهيم باشا فى يده وانفرد برأيه وبقى الكلام فى الصلح نسيا منسيا وأعيدت الحرب ثانية فانهزم العسكر الهمايونى هزيمة أشد من الاولى وانفشلوا وركبهم النمساويون بحد السيف فعادوا الى طلب الصلح وكان الى هذا الحين قد تولى ابراهيم باشا مسند الصدارة فعقد النمساويون الصلح بعد أخذ ورد فكانت شروطه شديدة على الدولة اذ تركت للنمسا ولاية طمشوار ومدينة بلغراد مع جزء عظيم من بلاد الصرب وآخر من بلاد الفلاخ وتركت لجمهورية البندقية ثغور شاطئ دلماسيا واسترجعت هى بلاد المورة ليس الا * قال بعض الكتاب ولو أظهرت الدولة يومئذ للعدو علامات القوة مع عزة النفس لتم عقد الصلح على وجه أليق بشرفها * فلما تمت شروط الصلح على هذه الصورة طمع الاعادى فيها واستخفوا بقدرها فتحركت دولة الروس الى نكث العهود وسيرت سفيرها الى دار السلطنة فى طلب الغاء بعض الشروط المأخوذة على الروس فى معاهدة الصلح الاخيرة والتقى السفير بالصدر وكلمه فى الامر وشدد عليه فى الطلب وقال ان لم تعجلوا بتعديل الشروط والا نقضناها بسيوفنا وكان الصدر الاعظم يكره الحرب ميالا الى الترف والراحة فخاف سوء العاقبة

وأجابه الى جميع ماطلب فلم يبق للدولة بعد ذلك شئ من الامتيازات والحقوق التى أريقت بسببها الدماء الكثيرة وقاتلت الاشهر والاعوام الطوال * قال بعض الكتاب ومع ان المتاركة بين الدولة وخصومها كانت لاجل ان تتمكن الدولة من لم شعث جنودها لتقوى بهم على قمع الاعداء وايقاف كل عند حده فقد كانت سببا فى ادخال عوائد جديدة على الناس مالت بطباعهم الى السفاهة وما شاكلها من نتائج الطيش فأصبح السواد الاعظم أسيرا للملاهى وعبدا للملاذ ففسدت الآداب وانحلت الرابطة الطبيعية القائمة بين الازواج وزوجاتهم وبالغ الناس فى السرف والترف واندفعوا الى تشييد المبانى الفاخرة والقصور العظيمة وأنشؤا القاعات الفسيحة المزينة بأنواع النقوش والرخام وغرسوا فى أطرافها الازهار وأوقدوا فيها المصابيح وجعلوا ظهور السلاحف منائر لها فكانت تلك السلاحف تتجول فى طرق القاعات والجنائن والانوار تسطع على ظهورها وتنبث مرتبة على أحسن نظام فكانوا لذلك يطلقون عليها اسم چراغان ومعناها الشموع * قال وقد بنى ابراهيم باشا الصدر الاعظم قصرا جميلا بجوار بشكطاش سماه بقصر چراغان فكان يأدب فيه فى كل سنة مأدبة حافلة للسلطان وأولاده فيأتى اليها للتفرج على تلك السلاحف الحاملة للانوار فكان يقيم على هذه الحال أياما وكان هذا الدور فى دار السلطنة محسوبا من أحسن الادوار صفاء وذوقا الا انه قد أورث الدولة خللا والامور خطلا والناس كسلا وذهب بكثير من حقوقها وامتيازاتها العظمى

وانتبه الصدر الاعظم من رقدة ذلك الترف وسكرة تلك الملاذ فرأى ان دولة فارس قد انحلت أو كادت وان الافغانيين قد تغلبوا عليها واستولوا على أصفهان فخاف شر العاقبة واستعد لارجاع ما كان فى حوزة الدولة العثمانية قديما من البلاد والايالات ودخلت فى يد فارس قبل ان يبتزها غيرها وسير لذلك جيشا عظيما فرافقه النصر وتغلب على عدة إيالات كهمذان وكنجه وروان وشروان وكورجستان وقام كذلك الروس واحتلوا داغستان وكافة سواحل بحر الخزر فلم تلبث تلك الايالات تابعة للدولة حتى قام نادرشاه وتولى ملك فارس واستردها جميعها واسترد كذلك ما كان بيد الروس بعد حروب هائلة جدا كادت تخرب بسببها الاناطولى وغيرها وجعل نادرشاه من هذا الحين يشن الغارة على الحدود العثمانية ولا ينكف عن السلب واراقة الدماء فكبر أمره على أصحاب الحل والعقد وأنكروا هذه الاحوال على ابراهيم باشا الصدر الاعظم ورموه بالمروق عن جادة العمل وتبعهم العامة فى ذلك فطعنوا فى الصدر وقالوا انه ترك ما كان عليه أسلافه من الاعتناء بتدريب الجند وتنظيم أحوال المقاتلين وانه منغمس فى الملاذ واللعب وقد عود السلطان على اللهو والخلاعة وجعل مراتب الدولة ورتبة الوزارة فى أيدى الندامى بعد ان كانت لاتعطى الا لاهل الخبرة والدراية بجميع الامور والمستعدين للقيام بها من المجاهدين وانه ترك لنادر شاه ما كان قد استولى عليه بالحرب والجهاد فلما أنس ابراهيم باشا منهم ذلك أخذ يستعمل الحيلة فضرب السرادقات الهمايونية فى اسكدار لارهاب نادر شاه المذكور وأذاع السفر الى بلاد

فارس

فارس للانتقام منه ولبث على هذه الحال عدة أيام فاشمأزت من ذلك النفوس وتكدرت خواطر الناس وظهرت الفتنة فى القسطنطينية وتأججت نارها وارتفع لهيبها وكان بعض محبى الصدر الاعظم قد حذروه أمر الفتنة فلم يلتفت لقولهم وكذلك تقدم بعضهم الى كتخدا بك وحذره وقال ان الخطب شديد والفتنة قائمة فأنكر عليه ذلك وأنبه* واجتمع جماعة من أركان الدولة وأبلغوا السلطان ما كان عليه الناس عليه من الهياج والفتنة ان طال بقاء الصدر فى منصب الصدارة فلم يلتفت لقولهم نظرا لعلو مكانة الصدر عنده فانكمش أهل النصح ولبثوا ينتظرون مايظهره القضاء وقد اتسع الخرق واشتدت نار الفتنة فرسم الصدر عند ذلك باخراج البيرق الشريف * وهو بيرق صاحب الشريعة المحمدية * ونادى بالاجتماع حوله فلم يلتفت أحد للنداء وطاف العامة يفسدون وينهبون كل ماوصلت اليه أيديهم وكان زعيم هذه الفتنة رجلا اسمه بطرونا خليل

فلما كان خامس عشر ربيع الاول من السنة أى سنة ثلاث وأربعين ومائة و ألف هجرية سير بطرونا المذكور الى السراى السلطانية جماعة يطلبون قتل الصدر الاعظم والمفتى وقبطان باشا السفن الحربية فامتنع السلطان من اجابة الطلب فشددوا وهددوا وتوعدوا بما لاخير فيه نخاف السلطان شرهم و رسم لهم بقتل الصدر وأمير سفن الحرب ومانع عن المفتى فقتلوهما وألقوا جثتهما فى البحر على مشهد من جميع الناس * ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى عاد أهل الثورة الى الهياج والجلبة والتطواف فى شوارع القسطنطينية وهم ينادون بخلع السلطان وتنزيله عن منصب الخلافة وتولية ابن أخيه السلطان محمود الاول بدله ثم ساروا الى السراى السلطانية وأبلغوه ذلك فأسرع الى اجابتهم وخلع نفسه و بايع ابن أخيه بالملك وذلك فى ليلة التاسع عشر من ربيع الاول سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية و بقى معزولا الى ان توفى فى أول المحرم افتتاح سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف هجرية فكانت سلطنته زهاء سبع وعشرين سنة

(الفصل السابع عشر)

(فى سلطنة السلطان محمود خان الاول)

ثم قام بالامر بعد السلطان أحمد ابن أخيه السلطان محمود خان الاول ابن السلطان مصطفى بويع بالملك فى الليلة التى خلع فيها عمه ليلة التاسع عشر من ربيع الاول سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وقد تولى والامور فى اضطراب والاحوال فى اختلال ولا كلمة فوق كلمة البطرونا خليل فانه منذ خلعه للسلطان

أحمد وقتله للصدر الاعظم وأمير سفن حرب الدولة بسط يده على جميع الامور وصار يتصرف في اعمال الدولة كيف شاء فأكثر من العزل والتولية وسام الناس الخسف ولم يفرق بين الجليل والحقير فأمر ونهى وجار وظلم وكان اذا رأى من طوائف الانكشارية تذمرا بالغ فى التضييق عليهم وشدد وأوقع بكبارهم فيخافون ويخلدون الى السكون صاغرين فلما ضاق بهم الخناق ونفد منهم الصبر اجتمع كبارهم حول السلطان وحببوا اليه قتل البطرونا خليل المذكور وكان السلطان يتمنى حصول ذلك فوافقهم فقاموا وركبوا عليه فقتلوه وتأهبوا لقتال أصحابه ان هم قاموا للاخذ بثاره فلم يقو أصحابه على الخروج وأوقعت بهم طوائف الانكشارية وأعملوا فى كبارهم السيف فعادت الامور الى سابق مجراها من الهدو والسكينة وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وانطلقت كلمة السلطان فتصرف ودانت له الامور فسير الجيوش لقتال ملك فارس واسترجاع ماأخذه من الايالات على أيام عمه السلطان أحمد فوقعت بينه وبين العسكر السلطانى عدة حروب كان النصر فيها لعسكر السلطان ثم أقام عثمان باشا الاعرج أحد مقدمى العسكر الموصوفين فى المعامع والحروب سرعسكر لجيوش الشرق فقاتل ملك فارس وظفر به فى صحراء كركولك ومزق شمل عساكره ففر ملك فارس مجروحا ثم عاد فى جيش جرار للقتال ثانية فكانت الحرب بين الفريقين سجالا وطالت أيامها فمات فى خلالها السرعسكر عثمان باشا وأرسلت الدولة الى ملك فارس فى طلب الصلح فأجابها اليه بشرط رد جميع ماأخذته الدولة من مملكته وارجاع حدود الدولتين الى ماهو مذكور فى معاهدة ابراهيم باشا فتم الصلح على هذا الوجه وبطلت الحرب وارتفعت أوزارها

ورأت النمسا ان الدولة بعد عقد الصلح مع فارس تفرغت أو كادت ولا بد من ان تنوبها الشرور نخافت ولم تمهلها وحشدت فى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف جيشا عظيما واتفقت معها أيضا حنة قيصرة الروس على هذه الحرب فساقت عسكرها على عسكر الدولة تحت قيادة الجنرال مونيخ فجعل القائد المذكور يذيع الخبر بأنه سيحيى بهذه الغزوة دولة الروم القديمة ويعيد لها مجدها الاول ففرح بذلك الروم واشرأبت نفوسهم الى هذا المأمول وتلقى أهالى البغدان عساكر الروس عند دخولهم الى بلادهم بالفرح والقبول وسهلوا امامهم السبل والعقبات فاشتبك القتال بين الروس والعثمانيين وتمزق جمع العثمانيين وأبلى فيهم الروس بلاء حسنا وأخذوا اقليم البغدان واحتلوا مدينة ياسى عاصمة الاقليم المذكور وانتصرت عساكر النمسا أيضا وأغارت على بلاد البوسنه والصرب والفلاخ فكبر كيد الدولة وكادت تسقط فى يدها * واتفق انه تولى فى هذه الاثناء مسند الصدارة الحاج محمد باشا وهو من نخبة السياسيين المشهورين بالكياسة وحسن التدبير فرأى من تقهقر عساكر الدولة وانتصار الاعداء عليهم ماأدهشه فأسرع فى حشد الجيوش واعداد المعدات وسار لمنع تقدم العساكر الروسية وايقافهم عند حدهم وسير فريقا آخر لقتال عساكر النمسا فظفروا بهم وانتصروا عليهم وانهزموا شر هزيمة

ونقهقروا الى ماوراء نهر الدانوب ثم ساق الحاج محمد باشا بعسكره فرافقه النصر وقيض الله له الظفر فركنت النمسا عند ذلك الى طلب الصلح ووافقها أيضا على طلبه حنة قيصرة الروس وخابروا الحاج محمد باشا فى أمره وسعت الرسل بين الفريقين وبعد أخذ ورد تمت شروطه على تنازل النمسا للدولة العثمانية عن مدينة بلغراد وجميع ماأعطى لها من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى المعاهدات السابقة لهذه الحرب وتعهدت كذلك قيصرة الروس بهدم قلاع وحصون مينا أزاق وعدم اعادتها مرة ثانية وبعدم انشاء سفن حربية أو تجارية بالبحر الاسود أو بحر أزاق وبأن ترد للدولة العثمانية جميع ماأخذته من الاقاليم والبلدان قال أحد الكتاب وسميت هذه المعاهدة معاهدة بلغراد ولما تم الصلح على ماذكر بطلت الحرب وسكنت القلاقل أياما كثيرة

وما كانت هذه الحروب المتتابعة والخطوب المتواصلة لتشغل رجال الدولة عن كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر فانه لما تولى السلطنة السلطان محمود خان كان الوالى على مصر من قبل السلطان أحمد باكير باشا فجاءه الامر بالعزل وولاها عبدالله باشا التكفورلى فدخل القاهرة فى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية * قال أصحاب التاريخ وكان من أرباب الفضائل وأصحاب المعارف العالية والعلم والشعر وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله الى أهل العلم والادب فقال بعضهم

ولما جاء مصرا أرخوه * لقد سعدت بعبد الله مصر

لقد	سعدت	بعبد	الله	مصر
١٣٤	٥٣٤	٧٨	٦٦	٣٣٠

سنة ١١٤٣

مطلب
عزل أحمد باكير باشا وولاية عبدالله باشا التكفورلى

يظهر ان المؤرخ احتسب ألف الله المحذوفة رسما المثبتة لفظا بواحد ليكون تاريخ حضوره مصر سنة ١١٤٣ كالحقيقة اهـ مؤلف

وكان خيرا صالحا منقادا للشريعة أبطل المنكرات وحانات الخمارين ومواقف المومسات والبوظ من بولاق وباب اللوق وطولون ومصر القديمة وجعل للوالى والمقدمين عوضا عما كان مرتبا لهم على تلك الحال فى كل شهر كيسا من كشوفيات الباشوات وكتب بذلك حجة شرعية ولعن فيها من تسبب فى اعادة تلك الحال ولم يحدث فى أيامه شئ يذكر اذ كانت قصيرة جدا حيث عزل فى أواخر سنة أربع وأربعين ومائة وألف هجرية

مطلب
عزل عبدالله باشا وولاية محمد باشا السلحدار

وتولى بعده محمد باشا السلحدار والى البصرة فدخل القاهرة فى أوائل سنة خمس وأربعين ولبث يتصرف الى سنة ست وأربعين ولم يعمل فى أيامه عملا يذكر وجاء الخبر بعزله وتولية عثمان باشا الحلبى فحضر الى مصر عن طريق العريش ونزل بالعادلية ولاقته أرباب العكاكيز وأصحاب الوظائف فصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل ونزل منها محمد باشا المعزول وسافر الى الديار الرومية فأخذ عثمان باشا يتصرف وجاءه فرمان السلطان باحصاء اليهود والنصارى وجمع ماعليهم من الجزية فى كل بلد العال أربعمائة نصف وعشرون نصفا والوسط مائتان وسبعون والدون مائة نصف فاهتم عثمان باشا بالامر وقيد بذلك عمالا فطافوا البلاد كافة وأحصوا أهلها وفعلوا من الجور والعسف بأهل البلاد مالا يكيف فضج

مطلب
عزل محمد باشا السلحدار وولاية عثمان باشا الحلبى

الناس وشكوا فلم يلتفت اليهم وظل الحال على ذلك حتى دخل شهر رمضان واشتغلوا بظهور رجل تكروري بالجامع الازهر يدعى النبوة وقد ذاع خبره وكادت تعم شهرته فأحضروه بين يدى الشيخ أحمد العماوى فسأله عن حاله فأخبره انه كان فى شربين فنزل عليه جبريل وعرج به الى السماء ليلة سابع عشرى رجب فصلى بالملائكة ركعتين وأذن له جبريل فلما فرغ من الصلاة أعطاه ورقة وقال له أنت نبى مرسل فانزل وبلغ الرسالة وأظهر المعجزات فلما سمع الشيخ كلامه قال له أنت مجنون فقال لست بمجنون وانما أنا نبى مرسل فأمر به فضربوه وأخرجوه من الجامع فجعل يطوف الازقة والحارات ويكثر من الجلبة والصياح فسمع عثمان كتخدا بخبره فأحضره وسأله فقال مثل ما قاله للشيخ فبعث به الى دار المجانين فاجتمع الناس وكثرت حوله العامة رجالا ونساء وكادوا يصدقونه ويدفعون عنه الايذاء فخاف الوالى شر العاقبة وأمر فأخفوه عن أعين الناس لتسكن الفتنة ثم طلبه الباشا وأمر بحبسه فحبسوه ومنعوا من دخول أحد اليه أياما * فلما كان النصف من رمضان اجتمع العلماء وأحضروه بين أيديهم فسألوه فلم يتحول عن كلامه فعالجوه فشدد فأمروه بالتوبة فامتنع وصمم على ماهو عليه فأمر الباشا بقتله فقتلوه فى حوش الديوان وهو يقول * فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل * ثم أنزلوه وألقوه بالرميلة ثلاثة أيام فكاد الناس يفتتنون ولم تهدأ الخواطر حتى شاع بين الناس بالقاهرة ومصر القديمة ان القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشرى ذى الحجة من السنة أى سنة سبع وأربعين وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والارياف وودع الناس بعضهم بعضا وهم بين راغب فى التوبة وداع بطلب المغفرة وباك على مافات من أيامه ومنهم من كان يقول لرفيقه بقى من عمرنا يومان فقد كانت هذه الاشاعة فى يوم الاربعاء رابع عشرى الحجة * وانتشر أهل الخلاعة فى الجنائن والمنتزهات ليودعوا الدنيا كما كان يقول بعضهم لبعض وخرج أهل الجيزة نساء ورجالا وصاروا يغتسلون فى النيل ومن الناس من علاه الحزن والوهم واعتقدوا صحة الاشاعة ووقع صدقها فى نفوسهم موقعا عظيما وكثر فيهم الهرج واشتد بهم الخوف فتعطلت الاعمال وكادت تقفل الاسواق وما زالوا على هذا الحال الى يوم الجمعة فلم يقع شئ مما كانوا يتوقعون ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت فلم يقع كذلك شئ * قال صاحب عجائب الآثار فانتقلوا يقولون فلان العالم قال ان سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم فيقول الآخر اللهم نفعنا بهم فاننا ياأخى لم نشبع من الدنيا وشارعون فى عمل حظ ونحو ذلك من الهذيانات اه

مطلب
عزل عثمان باشا وولاية باكير باشا الولاية الثانية

وأقام عثمان باشا يتصرف فى الولاية الى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف هجرية ثم عزل وتولى بعده باكير باشا وهى ولايته الثانية فكانت مدة تصرف عثمان باشا سنة وخمسة أشهر وحضر باكير باشا من جدة الى السويس اذ كان واليا بجدة بعد عزله من ولايته الاولى على مصر وكان دخوله القاهرة فى يوم السبت رابع عشرى شوال سنة سبع وأربعين

ومائة

ومائة وألف وصعد الى القلعة فى موكب حافل للغاية وخلفه من الحشم والاتباع زهاء الثلاثين على ظهور الخيل الملبسة بالزروخ المذهبة وله من الاولاد خمسة ذكور ركبوا أيضا امامه فلما مر من وسط المدينة صاح الناس فى وجهه وعلا صراخ العامة من ثقل المغارم والكلف وفساد العملة فلم يلتفت لصراخهم وسار حتى صعد القلعة ولم يلبث حتى جعل يدس الدسائس بين الامراء وصار يعمل على فساد أمورهم وتفريق كلمتهم وما زال حتى كاد يتم له ماأراد ولكن ظهر فى غضون ذلك الطاعون وفشا فى المدينة وانتشر فى البلاد قاطبة وفتك بالناس فتكا ذريعا لم يسبق له مثال فسماه العامة طاعون كو وسموه أيضا الفصل العائق يأخذ على الرائق ومات به خلق كثير للغاية وكان فعله كثيرا فى الاعيان فكانت الناس تدفن الموتى فى ضوء المشاعل حتى كاد لايوجد من يدفن الموتى التى كانت تقع فى الشوارع والحارات واشتد شدة بالغة جدا وطالت أيامه * وبينما الناس على هذا الحال من الشدة وهم يضجون ويعجون الى الله من كثرة الموات اذ اضطرمت نار الفتنة بين الامراء وعلا لهيبها واشتدسعيرها *وتحرير الخبر*ان كاشفا اسمه صالح زوج ابنة ايواظ بك كان ملتجئا الى عثمان بك ذى الفقار وكان صالح هذا من القاسمية فحرضته زوجته على طلب امارة القاسمية فطلب من عثمان بك أن يساعده على ذلك فوعده وخاطب محمدبك قيطاس المعروف بقطامش وهو اذ ذاك كبير القوم فى ذلك فلم يجبه خوفا من أن يعود القاسمية الى مظهرهم القديم فيظفروا بالفقارية ويستأصلوا شأفتهم بعدالذى وقع بين الفريقين فبعث عثمان بك بصالح المذكور الى البحيرة كاشفا نائبا عنه حيث كانت له فلما كملت السنة رجع الى القاهرة وتحركت همته الى طلب الامارة وألحت عليه زوجته فى ذلك فعاود عثمان بك فى الخطاب وهو تكلم مع محمد بك فصمم محمد بك على الامتناع ووافقه على ذلك على بك تابعه وآخر اسمه خليل أفندى فذهب صالح المذكور الى عثمان كتخدا القزدغلى وشكا اليه حاله وما يلاقيه من قيطاس ثم بكى واستمال عثمان كتخدا المذكور تابعه وخليل أفندى على أن يكونوا معه على قيطاس فقام القزدغلى من ساعته واجتمع برضوان بك أمير الحاج سابقا وسليمان بك الفراش وتكلم معهما فى أمر قتل المذكورين فوافقاه على أن يكون قتلهم فى بيت محمد بك الدفتردار على علم من با كير باشا الوالى وأخبروا محمد بك بذلك فرضى وكتب يطلب اجتماع الامراء كافة فى بيت الدفتردار للمداولة فى أمور الخزينة فركبوا جميعا الى بيت قيطاس بعد العصر ومن هناك توجهوا معه الى بيت الدفتردار فلما تكاملوا ولم يبق منهم أحد أمر محمد بك قيطاس بتحرير عريضة وأملى الكاتب بصورة مايكتب فخرج الكاتب وكان قد دخل الغروب فأراد القوم الانصراف فوقف الدفتردار وقال مهلا هاتوا لنا شربات وكان هذا القول هو الاشارة مع صالح المذكور وعثمان كاشف وآخر من مماليك سليمان بك ففتحوا باب خزانة كانت بالمكان الجالسين فيه فخرج منها جماعة على رؤسهم طرابيش وبأيديهم الاسلحة فوقف عند ذلك محمد بك قيطاس على أقدامه مذعورا فأطلق عليه

أحدهم طبنجة فى صدره ووقع الضرب وهاج من كان فى المكان وامتلاء المكان بدخان البارود وظلام الليل فلم يعلم القاتل من المقتول وألقى على الترجمان بنفسه من شباك مطل على الجنينة وأصاب عثمان بك ذا الفقار ضربة سيف قطعت شاشه وقاووقه فأخذ بيده صالح صاحب هذه الفتنة وأنزله فنجا بنفسه وركب حصان أحد الطوائف وخرج من باب البركة وأصيب مستحفظان البرلى بجراح عظيمة فحملوه الى بيته ثم أوقدوا الشموع ونظروا الى الاموات واذا هم محمد بك قيطاس وعلى بك تابعه وصالح بك وعثمان بك كتخدا القازدغلى وأحمد كتخدا الخربطلى ويوسف كتخدا البركاوى وخليل أفندى وأغات الجملية وعلى صالح جربجى والاسباهى فكانت عدتهم عشرة غير مستحفظان البرلى الذى مات بجراحه بعد ثلاثة أيام فعروا المقتولين من ثيابهم واحتزوا رؤسهم وأتوا بهم الى جامع السلطان حسن فوجدوه مغلقا فأحرقوا الباب الذى جهة سوق السلاح ووضعوا الرؤس العشرة على الدرج ووضعوا عند كل رأس شيأ من التبن ولما شاع الخبر بما جرى سار صالح كاشف رأس هذه الفتنة الى باكير باشا ليلا من باب الميدان وأعلمه بما جرى فخلع عليه رتبة الامارة فطلب منه مالا يفرقه على العسكر المجتمعين اليه فوعده بأن يرسل اليه ماطلب فنزل صالح الى جامع السلطان حسن فوجد محمد كتخدا الداودية وأتباعه وجماعة آخرين فلبث معهم ينتظر المال وصعد عمر جلبى ابن على بك قيطاس بطائفة من قومه الى باكير باشا يطلب بثار أبيه وكان وصوله بعد نزول صالح كاشف فخلع عليه الباشا امارة أبيه قيطاس ورسم له بقتال قاتلى أبيه ومن معهم وكان يود لوانهم يقطعون بعضهم بعضا فنزل ابن قيطاس وأصحابه وامامهم بيرق من المحجر خلف جامع المحمودية وبيت الحصرى وزاوية الرفاعى وعملوا متاريس على باب الدرب قبالة باب جامع السلطان حسن وجعلوا يطلقون بنادقهم تباعا على كل من يمر بهم من الخصوم وعلى من هم بجامع السلطان حسن وكذلك من باب العزب وبيت الاغا * اما صالح كاشف رأس هذه الفتنة فانه لبث ينتظر حصول المال للنفقة على الجند فلم يرسل له الباشا شيأ فخاف وخشى العاقبة ونزل الى خان الخليلى ومعه رضوان بك وعثمان كاشف ومملوك من مماليك سليمان بك واختفوا وظل ابن قيطاس وأصحابه يوالون الرمى على الجامع حتى انقطعت أصوات بنادق من كانوا به فاقتحم هو وأصحابه باب الجامع فلم يجدوا به أحدا فرجعوا وباتوا ليلتهم خلف المتاريس فلما أصبحوا ذهبوا الى بيت الدفتردار ونهبوه ونهبوا بيت رضوان بك ودخلوا على سليمان بك فقتلوه واحتزوا رأسه ونهبوا مافى بيته فلما رأى كبار الوجاقات مابلغت اليه هذه الفتنة وانها انما هى بايعاز من باكير باشا قاموا على قدم رجل واحد وأحاطوا بالقلعة وأنزلوا باكير باشا ذليلا مقهورا وسجنوه وكتبوا الى دار السلطنة بما وقع وطلبوا ارسال وال آخر فأرسل السلطان الامير مصطفى باشا أمير اخور لضبط أموال من قتلوا فى هذه الفتنة فلبث شهرين ثم ورد الامر بولايته فتولاها فكانت مدة تصرف باكير باشا سنة وبضعة أشهر

مطلب
عزل باكير باشا وولاية مصطفى باشا أمير اخور

وجعل مصطفى باشا المذكور يتصرف الى سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف هجرية ثم عزل ولم يقع فى أيامه شئ يذكر وتولاها سليمان باشا الشامى المعروف بابن العظم فلما استقر به المنصب عمد الى ايقاد نار الفتنة ثانية بين أمراء الوقت وجعل يدبر لذلك فاستمال اليه عمر بك ابن على بك قطامش واختصه لنفسه ثم كاشفه بما فى ضميره واتفق معه على قتل عثمان بك ذى الفقار وابراهيم بك قطامش وعبد الله كتخدا القزدغلى وعلى كتخدا الجلفى وهم اذ ذاك أصحاب الرئاسة ووعده امارة مصر والحاج ان هو أنفذ ذلك فجمع عمر بك أربعة من اخصائه وأطلعهم على ماوقع الاتفاق عليه مع الباشا فتعهد كل واحد بقتل واحد منهم فكان أول من قتل منهم على كتخدا قتله رجل اسمه لاظ ابراهيم عند بيت اتبرى وهو صاعد الى الديوان وشاع خبر قتله ففرح الباشا بذلك ظنامنه أن قد قضى الامر فهم بضبط باب العزب وسير لذلك مائتى جندى فنعهم جند الباب من العبور وطلب متولى الباب اثنين من كبارهم يسألهما عن مرادهم فقالا انا أتينا لتشفع لنا عند الباشا فانه لم يعطنا علائفنا فأرسل معهم من يشفع لهم فلم يفلحوا فى هذه المرة ثم انكشف أمر الباشا وانفضح سره فقام حسين بك الخشاب وصعد الى باب العزب وما زال بمتوليه حتى أنزله وتولى هو أشغال الباب وجمع اليه جميع أصحابه بالمكان الذى كان فيه الباشا وأرسلوا يقولون له انزل الى قصر يوسف بك فركب من ساعته وأراد العبور من باب الانكشارية فوجهت أصحاب الباب أفواه البنادق نحوه فعاد ودخل قصر يوسف بك ثم نزل بعد أيام الى بيت البيرقدار وما زال به حتى سافر الى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه الى شهر جمادى الاولى سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف هجرية وكانت أيامه كلها قلاقل واضطرابات * وتولى بعده الوزير على باشا حليم اوغلى وهى الولاية الاولى على مصر فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وأقام الى عاشر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين فكانت أيامه كلها هدأ واطمئنانا والفتن فيها راقدة ثم جاء الامر بخلعه فنزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت القازدغلى ولبث ينتظر الوالى الجديد * فجاء الى القاهرة يحيى باشا وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وصعد اليه على باشا المخلوع فلاقاه وأكرمه ثم نزل هو كذلك فسلم عليه وسرحه فسافر الى الديار الرومية وأخذ يحيى باشا يتصرف فى الامور الى أن جاءه الامر بالعزل مستهل رجب سنة ست وخمسين ولم يقع فى أيامه شئ يذكر * وتولى بعده محمد باشا اليدكشى فلما استقرت به الولاية لم يأت عملا ماسوى النهى عن تعاطى الدخان فى الشوارع والدكاكين والجلوس على أبواب البيوت وشدد فى ذلك جدا فكان يطوف الاغا والوالى وهما فى التبديل كل يوم ثلاثة مرات وشددا فى الانكار والنكال عن يفعل ذلك وكان الوالى اذا رأى فى يد أحد انبوبة الدخان عاقبه وربما أطعمه حجر الانبوبة الذى يوضع فيه الدخان بالنار وكذلك كان يفعل الأغا ولم يأت من أعماله شيأ غير ماذكر حتى جاءه الامر بالعزل سنة ثمان وخمسين فكانت مدة تصرفه نحو سنتين ففرح الناس بخلعه فرحا لايوصف * وتولى بعده محمد راغب باشا

مطلب
عزل مصطفى باشا وولاية سليمان باشا الشامى المعروف بابن العظم

مطلب
عزل سليمان باشا وولاية على باشا حليم أوغلى

مطلب
عزل على باشا وولاية يحيى باشا

مطلب
عزل يحيى باشا وولاية محمد باشا اليدكشى

مطلب
عزل محمد باشا اليدكشى وولاية محمد راغب باشا

وحضر الى الاسكندرية فذهب لملاقاته أصحاب العكاكيز وأرباب الرتب العالية فلما استقرت به الولاية أخذ يدبر الحيلة لقتل من بقى من الامراء أصحاب الوقت واستمال اليه حسين بك الخشاب واستخلصه ثم كاشفه بما فى نفسه ثم اقسما الايمان على أن لايخونا بعضهما وأعلمه أن السلطان محمود انما يريد قطع دابر بيت القطامشة والدمايطة وهم أصحاب الكلمة يومئذ فأجابه الى مرغوبه وهون عليه الامر وأخذ من يومه يدبر الحيلة ويتبين أنفع الوسائل وأحسن الطرق حتى اجتمع بمن يعتمد عليه من أصحابه وأخبرهم بما علمه من الباشا فاتفقوا على قتل كبارهم بالديوان عندصعودهم اليه وتحالفوا على ذلك وأغلظوا فى الايمان *فلما كان يوم الديوان أخذ الامراء فى الحضور جماعة بعد جماعة وحضر بينهم خليل بك وعلى بك الدمياطى ومحمد بك وجلسوا فى أماكنهم فبرز شخص اسمه عثمان أغا اغات المتفرقة وجلس بجانب خليل بك وقال له لماذا لم تدخل على الباشا وقد مضى عليك أيام ولم تفعل ذلك فقال خليل بك دعنا فانا لسنا ممن يهتم بأمره وقد تركناه لك فأظهر عند ذلك عثمان أغا المذكور الغيظ وصاح فى وجه خليل بك وكأنك تهزأبى وجرد خنجره فى الحال وطعن خليل بك فسقط ميتا لاحراك به وكان بقية المتوامرين مختفين فلما سمعوا الصياح خرجوا جميعا والسيوف بأيديهم مسلولة فضربوا عمر بك بلاط واحتزوا رأسه ورأس خليل بك فهرب من كان بالمجلس ودخلوا بالرأسين على الباشا وهرب على بك الدمياطى ومحمد بك ونزلا الى نوبة الجاويشية واختفيا فيها فأرسل الباشا يطلبهما وقال ان السلطان رسم بذلك فأتوا بهما اليه فأمر بهما فقطعت أعناقهما أيضاوعم خبر ماجرى الآفاق فخاف من بقى من الامراء وتجرد ابراهيم بك وعمر بك وسليمان بك الالفى للمقاومة فرسم الباشا بقتالهم وأمر العسكر بالتأهب لذلك فاجتمعوا وأخذوا مالزمهم من آلات الحرب والمدافع والمكاحل وساروا إلى القاهرة ونصبوا بعض مدافعهم على قنطرة سنقر وكان بها بعض أولئك المشاغبين فلم يقووا على القتال مع العسكر وتفرقوا إلى الاقاليم القبلية فدخلت العساكر بيت ابراهيم بك ونهبوه وكذلك نهبوا بيت خليل بك وذهبوا الى بيت على بك فوجدوا فيه صنجقا قد احتله وامتلكه بما فيه فلم يتعرضوا له وكذلك لم يتعرضوا ليوسف بك ناظر الجامع الازهر بسوء

ولم تكد تجف دماء الذين قتلوا بالديوان حتى طلب الباشا من حسين بك الخشاب أن يعمل على قتل ابراهيم جاويش القازدغلى ورضوان كتخدا الجلفى وأطمعه فى ولاية الامر والانفراد بالكلمة فتعهد له بذلك وقام لساعته يدبر أمره مع أصحابه الذين عليهم معتمده فافتضح أمره وانكشف سره وعلم ابراهيم جاويش ورضوان كتخدا بالمكيدة فقاما وقامت معهما الجند والعسكر وامتلأ باب الانكشارية وباب العزب بطوائف الجند واجتمع أمراء العسكر كافة بسبيل المؤمن والاسباهية بالرميلة وأرسلوا يطلبون من الباشا مرسوما بالركوب على بيت حسين بك الخشاب وقتله فلم يرض وامتنع فبعثوا له طائفة من كبار العسكر يطلبون ذلك فان أبى أنزلوه من القلعة فامتنع فأنزلوه هو وجميع عياله وأتباعه من قراميدان الى أن

صار بالرميلة فاراد أن ينزل على شيخون إلى بيت حسين بك الخشاب واذا بالعزب المرابطين في جامع السلطان حسن أطلقوا عليه البنادق لرده فقتل أحد أتباعه فنزل على بيت آق بردى الى بيت ذى عرجان تجاه المظفر فارسلوا اليه ابراهيم بك بلفية صحبة كتخدا الجاويشية فلم يزل بدا من أن يوليه النيابة وعاد ابراهيم بك الى بيته فأخذوا منه مرسوما بجر المدافع الى ناحية الصليبية وسار أمراء الجند يتقدمهم عمر بك أمير الحاج وآخرون أمثاله واحتاطوا ببيت حسين بك الخشاب وبيت محمد بك أباظه من الجهات الاربع فحاربهم من داخل البيت من الصباح الى الظهر وكان فى أثناء المناوشة يخرج أمتعته وأمواله وأثقاله وهم لايشعرون فلما لم يبق فى البيت شئ خرج بمن معه من أصحابه وأتباعه إلى ناحية زين العابدين وسار إلى الاقليم القبلى وكذلك هرب عمر بك ابن على بك فى طائفة من أصحابه الى أرض الحجاز ودخل العسكر بيت حسين بك الخشاب بعد انقطاع أصوات البنادق والمدافع فلم يجدوا فيه شيأ وكان ذلك فى أواخر سنة احدى وستين ومائة وألف فعاد كل الى مقره وسكنت الفتنة قليلا وجعل ابراهيم بك بلفيه يتصرف ومحمد راغب باشا محجور عليه الى أن سافر الى الديار الرومية فكانت مدة ولايته سنتين ونصفا وجاء الخبر بولاية الوزير أحمد باشا المشهور بكور وزير ووصل الى الاسكندرية فنزل اليه الملاقون وأرباب العكاكيز وأصحاب الخدم فدخل القاهرة وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فى غرة المحرم افتتاح سنة اثنتين وستين ومائة وألف وعمل الديوان وخلع الخلع على الامراء والاعيان والمشايخ ولكنه لم يتمكن من التصرف اذ كان مغلوبا على أمره والكلمة يومئذ لابراهيم بك جاويش ورضوان كتخدا وهما صاحبا العقد والحل فأقام فى المنصب الى عاشر شوال سنة ثلاث وستين ومائة وألف وجاء الخبر بعزله وولاية عبد الله باشا فكانت مدة تصرفه سنة وعشرة أشهر وكان عالما مدققا فاضلا كريما محبا للعلم والعلماء مقربا اليهم وكانت أيامه هادئة مطمئنة لم يقع فيها شئ من الحوادث والفتن * قال بعض الكتاب وكان مولعا بالرياضيات وعمل عدة منحرفات على الواح كبيرة من الرخام صناعة وحفرا وعمل له تاريخا منظوما نقشه عليها وهو

مطلب ولاية أحمد باشا كور وزير

مطلب عزل أحمد باشا وولاية عبد الله باشا

مزولة متقنة * نظيرها لايوجد
راسمها حاسبها * هذا الوزير الامجد
تاريخها أتقنها * وزير مصر أحمد

٥٥٧ ٢٢٣ ٣٣٠ ٥٣
سنة ١١٦٣

ونصب من هذه المنحرفات واحدة بالجامع الازهر فى ركن الصحن على يسار الداخل بالركن فوق رواق معمر وهى لفضل دائر العصر وأخرى بسطح جامع الامام الشافعى وفيها خيط مسائرة وفضل دائر وقسى عصر وفضل دائر الغروب وأخرى بمشهد السادات الوفائية وهى بشاخص للظهر والعصر اهـ

مطلب
عزل عبد الله باشا وولاية محمد أمين باشا

وحضر الشريف عبد الله الى الاسكندرية ونزل أحمد باشا من قلعة الجبل الى بيت البيرقدار وسافر الملاقون الى عبد الله باشا فدخل القاهرة فى رمضان سنة أربع وستين فأقام الى سنة ست وستين * ثم عزل عنها ولم يقع فى أيامه شئ من الحوادث والفتن وولى حلب فنزل الى القصر بقبة العزب وهاداه الامراء وسار الى حلب فتولى بعده محمد أمين باشا فكانت ولايته سنة وبضعة أشهر لاشئ فيها من الحوادث أو الاحن ودخل محمد باشا المذكور القاهرة وصعد الى قلعة الجبل وهو مريض فلبث شهرين على فراش الاوجاع ومات فى خامس شهر شوال سنة ست وستين ومائة وألف ودفن بجوار قبة الامام الشافعى فبقيت مصر بلا وال سنة وخمسة أشهر والكلمة يومئذ لابراهيم بك و رضوان بك * وفى خلال هذه الحوادث حضر الى القاهرة من دار السلطنة بطرك الروم ومعه مرسوم سلطانى بمنع نصارى الشوام من الدخول الى كنائس الفرنجة فاذا دخلها أحدهم عوقبوا جميعا بدفع غرامة قدرها ألف كيس لخزينة السلطنة واستفاض الخبر بذلك بين الشوام ثم أعقب ذلك ان سير ابراهيم كتخدا فى طلب أربعة من قسيسى الفرنجة فجاؤا بهم فحبسهم وأخذ منهم مالا كثيرا ومع ذلك لم تنكف الشوام عن الدخول الى كنائس الفرنجة فانكشف الغطاء وبرح الخفاء عن أنها حيلة من بنات أفكار ابراهيم بك لحصوله على المال من قسيسى الفرنجة * واتفق عقب هذا الحادث بقليل ان قصد القبط بمصر الحج الى بيت المقدس وكان عظيمهم يومئذ المعلم نيروز كاتب رضوان كتخدا فكلم الشيخ عبد الله الشبراوى فى ذلك وقدم له هدية سنية وألف دينار فكتب له فتوى وجوابا يتضمن ان أهل الذمة لايمنعون من القيام بشعائرهم الدينية وزياراتهم فشرعوا فى قضاء أشغالهم ثم خرجوا فى هيئة وأحمال ومواهى وتختروانات فيها النساء والاولاد ونصبوا خيامهم عند قبة العزب وأحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم وشاع أمر خروجهم بعد أيام فاستعظم المسلمون ذلك وأنكروه واتفق ذهاب الشيخ عبد الله الشبراوى الى حيث الشيخ البكرى لزيارة أخى البكرى حيث كان مريضا فلما استقر به المكان قال له البكرى متهكما ماهذا الحال ياشيخ الاسلام كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الفعال هل كان ذلك لانهم أرشوك وهادوك فقال ان ذلك لم يكن قال بل أرشوك بالف دينار وهدية وعلى ذلك تصير لهم سنة ويخرجون فى العام القابل بأزيد من هذا ويصنعون لهم محملا ويقال حج النصارى وحج المسلمين وتصير سنة عليك وزرها الى يوم القيامة قال صاحب عجائب الآثار فقام الشيخ الشبراوى وخرج من عند البكرى وهو مغتاظ وأذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب مامعهم وخرج عليهم كذلك طائفة من مجاورى الازهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا مامعهم ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من دمرداش * قلت وهى كنيسة رويس * قال وانعكس النصارى فى هذه الحادثة عكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ماصرفوه وأنفقوه فى الهباء انتهى قوله * وتولى بعد محمد باشا أمين الذى مات كما تقدم القول مصطفى باشا فدخل القاهرة وصعد الى قلعة الجبل ثالث

مطلب
ولاية مصطفى باشا

عشر ربيع الاول سنة سبع وستين ومائة وألف هجرية واستمر على الولاية الى أن جاء الامر بالعزل كما سيذكر فى محله

ورأى السلطان محمود بعد تقرير الصلح مع خصومه شرقا وغربا أن لابد من قيام الروس يوما على دولة السويد وابتلاعها مضغة لينة ثم لايمنعها بعيد ذلك مانع من شن الغارة على بلاده وأخذ كل مايمكن أخذه منها فجعل يتدبر الامر فحسن له سفير الفرنسيس بدار السلطنة يومئذ تعضيد دولة السويد وعقد محالفة دفاع وهجوم معها ضد الروس وكشف له عما فى ذلك من الفائدة للدولة وكبح جماح الروس ورد كيدهم فوافق السلطان على ذلك وعقد محالفة مع السويد فكانت حدا فاصلا بين الروس وبين مطامعهم السياسية وهدأت الاحوال وسكنت الخواطر وتفرغ رجال الدولة للاصلاح داخلا وخارجا ودبر الصدر الاعظم أمور الدولة فأحسن التدبير وأمضى الاحكام وأزال بعض الخلل وما زال الحال فى هدو وسكون حتى مات السلطان فى يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته نحو خمس وعشرين سنة قال بعض أصحاب التاريخ وهو آخر ملوك بنى عثمان فى حسن السيرة والشهامة والحرمة واستقامة الامور والمآثر الحسنة وله كثير من المزايا التى خلدت فى بطون التواريخ * وخلفه على سرير الملك السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان

ومات فى سلطنته يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان ورعا تقيا عالما فاضلا مسموع الكلمة وهو من بلدة طوخ وكانت أكثر أيامه شدائد وخطوبا متراكمة بعضها فوق بعض كادت بسببها تتعطل شعائر الدين لولا لطف الله فأقيم بعد موته بطرس وهو الرابع بعد المائة واسمه مرجان من رهبان دير انبابولا فأقام سبع سنين ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الخامس بعد المائة واسمه عبد السيد من رهبان انبابولا ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل الثامن عشر)

(فى سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان)

ثم قام بالامر بعد السلطان محمود السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد وقيل ابن مصطفى بويع بالملك فى اليوم الذى مات فيه السلطان محمود فى السابع والعشرين من صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية وجاءت بذلك الاخبار الى مصر فدقت البشائر ودخل الامراء والعلماء والمشايخ على مصطفى باشا الوالى يهنئونه ثم ورد بعد أيام الى مصطفى باشا فرمان التثبيت فبقى يتصرف فى

الامور الى أن جاءه الامر بالعزل فى أوائل ربيع الاول سنة تسع وستين ومائة وألف فكانت مدة تصرفه سنتين الا أياما ولم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر وتولى بعده على باشا حكيم أوغلى الولاية الثانية وقدم الى الاسكندرية فنزل اليه الملاقون وأرباب المناصب ثم دخل القاهرة فى يوم الاثنين غرة جمادى الاولى من السنة وجعل يتصرف فسار فى الرعية سيرة حسنة ودبر أمورهم أحسن تدبير وأسكن الفتن وطمن القلوب فلم يقع فى أيامه شئ من الخطوب والمحن واستمر على الولاية معززا محبوبا من الرعية وكان قريب الاعتقاد بالخرافات ميالا الى الزايرجات وأصحابها وكان له تعلق بالشيخ على بن تاج الدين محمد بن الحسن ابن محمد بن سالم القلعى الحنفى المكى لغزارة معرفته بهذه العلوم وكان أول اجتماعه به فى الديار الرومية قيل انه أخبر على باشا بأمور فوقعت كما قال فازداد عنده مهابة وأنزله فى منزل بالقرب من جامع أزبك بخط الصليبة وصار يركب فى موكب حافل مثل موكب الوزير وكان فيه الكرم المفرط والمروءة وسعة الصدر فى اجازة الوافدين مالا وشعرا ومدحه شعراء عصره بمدائح جليلة جدا وكان على باشا لايفارقه قيل ولا يعمل عملا الا باشارة منه فله كثير من المزايا ومع ذلك فقد كان حسن التدبير موفقا محبوبا من الرعية

مطلب
عزل مصطفى باشا وولاية على باشا حكيم أوغلى

وسار السلطان عثمان فى الرعية سيرة رديئة للغاية وكثر تحجبه عن الناس وتجسسه على أحوال الرعية فكان كثير الاخذ بالشبهات ظلوما غشوما عسوفا فظا غليظا سفاكا للدماء قيل انه قتل فى أيام سلطنته ستة وزراء فثقلت أيامه على الرعية وأبغضوه بغضا كبيرا وابتهلوا الى الله تعالى وعجوا اليه وظل على هذا الحال من الجور والعسف الى أن مرض واشتدت به علته فمات وجاء الخبر الى القاهرة خامس عشرى صفر سنة احدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى نحو سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة سلطنته أربع سنوات غير كوامل فخلفه فى الملك السلطان مصطفى الثالث

(الفصل التاسع عشر)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان احمد)

ثم قام بالامر بعد السلطان عثمان السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد بويع بالملك يوم موت السلطان عثمان خامس عشرى صفر سنة احدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فاستقرت بها الخلافة وكان المتولى الصدارة العظمى الوزير محمد راغب باشا فأقره على منصبه وسلم اليه مقاليد جميع الامور واعتمد عليه فى تدبير مهام الدولة فأحسن التدبير وأحكم السياسة وكان عالما عاقلا رزينا كيسا حازما محبا لنجاح الامة فبالغ فى إصلاح الاحوال الداخلية وأحدث كثيرا من النظامات المألوفة

ورتب الامور على مافيه المصلحة فزهت أيامه وسعدت ثم مات فتبدلت بعد موته الاحوال وتغير مجرى الحوادث وتحركت دولة الروس الى نكث العهود وتجردت إلى الشر وطلبت كاترينة الثانية قيصرة الروس يومئذ التداخل فى شؤن مملكة بولونيا فأقامت ستانسلاس بونياتوسكى ملكا على بولونيا بدل ملكها الذى مات خلافا للعهد المتفق عليه بين الروسية والعثمانية * قال أصحاب التاريخ وقد قصدت كاترينة بذلك العمل بما أوصى به بطرس الاكبر من إزالة الموانع الثلاثة الحائلة بين أملاك الروس وأوروبا الغربية وهذه الموانع هى مملكة السويد ومملكة بولونيا والمملكة العثمانية قالوا وقد تمت إزالة المانع الاول منها بوضع يد الروس على جميع الايالات السويدية وكاد يتم لها زوال الثانى بتولية ستانسلاس عشيق كاترينة ملكا على بولونيا فلم يبق منها سوى الدولة العثمانية فتنبهت الدولة لذلك وحضت خان القرم على قتال الروس فزحف بخيله ورجله وقاتلهم وانتصر عليهم عدة نصرات وخرب الكثير من أملاكهم وسار البرنس جالتسين بعساكر الروس إلى مدينة شوكزيم فحاصرها وضيق عليها فسير السلطان الصدر الاعظم محمد باشا البرشنجى لنجدتها فى عسكر عظيم فلم يفلح فاستعظم السلطان هذا الامر وأكبره وسير إلى الصدر المذكور من قتله وأتى برأسه إلى القسطنطينية وانهزمت العساكر السلطانية مرة ثانية عند نهر دينستر بسبب فيضان النهر المذكور عند عبور العساكر السلطانية له فأعمل فيهم الروس القتل والتغريق وتمكن البرنس جالتسين من الدخول إلى شوكزيم واحتل إيالتى الفلاخ والبغدان

وكانت المراكب السلطانية فى هذه الاثناء تجول فى عرض البحار فلاقتها مراكب الروس فى المضيق الواقع مابين جزيرة ساقص وساحل آسية فاقتتلوا قتالا عنيفا للغاية ثم افترقوا ودخلت المراكب السلطانية ميناجشمه فتبعهم حراقتان من مراكب الروس والتحما بالمراكب السلطانية وألقيا عليها النيران فاشتعل مابها من البارود واحترقت جميعها فكان المنظر مريعا للغاية والخطب عظيم جدا وطال الاخذ والرد بين الدولتين وطالت أيام الحرب والقتال برا وبحرا ثم تخابر الفريقان فى أمر الصلح فشطت الروسية فى الطلب واشترطت على الدولة شروطا مهينة مزرية فأبت الدولة إجابتها الى ذلك وعاد الفريقان الى ما كانا عليه من الحرب والقتال فخرجت من يد الدولة مدينة بندر وعدة من جزائر الارخبيل ودست الروس إلى اليونان والارنؤد فثارا وأشهرا الحرب وخرجا عن طاعة السلطان ونهض أيضا على بك الكبير أحد أصحاب الكلمة بديار مصر يريد الاستقلال بملك مصر والخروج عن طاعة السلطان وقام أيضا أحد مشايخ عربان الشام المسمى ظاهر العمر وتملك بعض مدن الشام وأخذ يتصرف فى أمورها تصرف المالك المطلق حتى اختل نظام المملكة وسقطت كلمة السلطان وذهبت هيبته أوكادت واستخف به على بك واستصغر شأنه وهم بالخروج وشق عصا الطاعة وجعل يتأهب لذلك * وبينما هو على هذا الحال من التأهب والاستعداد اذ ظهر الطاعون بمصر والقاهرة وكان ظهوره عقب أن أمطرت السماء مطرا

غزيرا جدا سالت منه السيول وامتلأت الأودية واشتد الطاعون شدة بالغة فكثر الموات وصارت الموتى تلقى فى الطرق والحارات لكثرتها وعدم وجود من يدفنها وكثرت الجيف واجتمعت حولها الكلاب تنهشها وطالت أيام الوباء فسمته العامة «قارب شيحة الذى يأخذ المليح والمليحة» واهتم الامراء عند ذلك بدفن الموتى وأعملوا الجهد حتى خف الموت فى أواخر رمضان من السنة ولكنه لم يرتفع تماما إلا فى أوائل سنة اثنتين وسبعين وجاءت الاخبار عقب ذلك بعزل على باشا حكيم أوغلى وولاية محمد باشا سعيد فدخل القاهرة فى أواخر رجب سنة إحدى وسبعين وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فلم يكن لقدومه رونق ولا بهجة بأسباب الطاعون واشتغال الناس بدفن موتاهم ولم يكن لولايته أثر يذكر عند على بك الكبير إذ كانت الكلمة والرياسة يومئذ له لاسيما بعد موت حسين بك القزداغلى على ماتقدم لك بيانه وكان لما ان بسط يده على جميع الامور وقبض على زمام الاحكام ودانت له الرغائب استقدم أصحابه الذين كانوا مبعدين وولاهم المناصب العالية فاتسعت من ذلك الحين كلمته وبعدت شهرته ولكنه كان فى شاغل من جانب عبد الرحمن بك كتخدا المتولى مشيخة البلد فكان لاينكف عن إعمال الحيلة فى قتله ولا تفتر له همة حتى اتفق مع بعض أعوانه على أن يقتلوه بعد قيامه هو بركب الحاج إلى المدينة وأن يولوا بعد قتله على مشيخة البلد خليل بك الدفتردار وبقى الامر مكتوما بينهم حتى قام بركب الحاج فجعل أصحابه يعملون على قتل عبد الرحمن بك فأحس عبد الرحمن بك بالمكيدة واستكشف السر وعلم بخفى أمرهم فأسرع هو إلى عمل الحيلة والتدبير فى تبعيدهم وأغرى بهم على بك بلاط فتمكن من تبعيد خليل جاويش المعروف بحيضان مصلى وأحمد جاويش إلى الاقطار الحجازية وحسن كتخدا الشعراوى وسليمان بك الشابورى إلى فارسكور فتمزق جمعهم وتفرقت كلمتهم * فلما نزل على بك بالعقبة وهو راجع بالحاج علم بما جرى لاصحابه فكتمه وأمر الجند بعمل بعض الاشكال الحربية ليوهم الناس أن الذى جاءه من القاهرة أخبره بخبر يسره ثم سار بركب الحاج إلى قاعة نخل فانحاز إلى القلعة وسلم الحاج والمحمل إلى بعض أمرائه وركب فى خاصته وسار إلى غزة ولبث بها زهاء ثلاثة أشهر وكاتب دار السلطنة ووشى لها فى حق الكثير من الامراء بالديار المصرية وبالغ فى الوقيعة بهم فجعل رجال الدولة يوعدونه ويعللون منه الآمال بنيل اغراضه ومازالوا حتى استصفوا ما معه من مال ومتاع ولم يتم له أمر فعاد الى القاهرة بوساطة صهره فلما دخل القاهرة لم يقم بها سوى ثمانية أيام ومات كمدا وقيل بل أطعمه بعض أصحابه سما فاطمأنت القلوب بموته فقد كان داهية قرما عنيدا كثير الصبر عظيم الجلد

مطلب عزل على باشا حكيم أوغلى وولاية محمد باشا سعيد

وجاءت الاخبار من دار السلطنة بعزل محمد باشا عن الولاية وتعيين مصطفى باشا الصدر الاعظم بدله فدخل القاهرة فى أواخر السنة وأقام يتصرف فى الامور الى سنة أربع وسبعين ومائة وألف هجرية ثم نزل الى القبة متوجها الى جدة ليقيم بها ولم يقع فى أيامه شئ يذكر

مطلب عزل محمد باشا وولاية مصطفى باشا الصدر الاعظم وعزله أيضا وولاية أحمد باشا سيلان

وحضر

وحضر بدله أحمد باشا كامل المعروف بسيلان ودخل القاهرة فى أواخر سنة أربع وسبعين فلما استقرت به الولاية صار يشدد فى الاحكام وينزل فى كل يوم لمعرفة أخبار الناس وأحوالهم ويكشف على أرزاق الامراء ومصادر أموال الخزينة السلطانية وغير ذلك وكان شهما شديد العناد فخافه الامراء وخشوا عاقبة أعماله فاجتمعوا وتشاوروا فى أمره فاتحدت كلمتهم على خلعه وصاروا يراقبون الفرص حتى دبروا أمرهم وركبوا عليه يوما فخلعوه وكان مصطفى باشا الوالى المعزول لم يزل بالقاهرة يتأهب للسفر الى جدة فساروا اليه وأصعدوه الى قلعة الجبل وسلموه زمام الامور وشكوا الى دار السلطنة ما وقع وسيروا بشكواهم الشيخ عبد الباسط السندوبى فلما وصلت شكواهم الى صدر الدولة وهو يومئذ محمد راغب باشا سير أحمد باشا المذكور الى ولاية كاندية وسير مصطفى باشا الى ولاية حلب ووجه بكير باشا والى حلب واليا على مصر فحضر الى القاهرة وصعد الى قلعة الجبل فلم يتصرف الازهاء شهرين ومات مبطونا سنة خمس وسبعين ومائة وألف ودفن بالقرافة فجاءت الاخبار بولاية حسن باشا وقدم الى القاهرة فى أواخر سنة ست وسبعين فكان محجورا عليه لا كلمة له والأمر يومئذ لعلى بيك بلاط فانه بعد موت على بيك الكبير وتشريد كار عصابته كما سبق ظهر شأن على بيك بلاط وارتفعت كلمته فجمع أصحابه وأعطاهم المناصب العالية وسلمهم زمام الأمور كغيره من الأمراء الذين تقبل عليهم الرياسة مسرعة وشاع ذكره وغما صيته فلما رأى عبد الرحمن بيك كتخدا الذى هو ابن أستاذ على بيك بلاط ماناله على بيك من الشهرة ورفعة القدر انطوى على عمالأته ومال الى مصادقته ليقوى به على أرباب الرياسة وكل منهما يريد تمام الأمر لنفسه وجعل على بيك من هذا الحين يمهد الأمور ويذلل العقبات ثم استكثر من شراء المماليك وبدأ فى مصادرة الناس وأعمل الحيلة على أخذ الأموال من أصحاب البيوتات والأعيان لأقل سبب * وكان يخشى جانب بعض من بيدهم الرياسة مثل عبد الرحمن كتخدا ابن أستاذه وعلى كتخدا الخربطلى وعمر جاويش الداودية ورضوان جربجى الرزاز وغيرهم فلما استتب قدمه فى المنصب وتمكن وقوى جأشه ركب يوما فى مماليكه وأتباعه وهجم بهم على أبواب القلعة وأجلوا عنها من كانوا بها من أصحاب وأتباع من ذكروا فامتلكوها واحتل قومه بها فخاف الأمراء عند ذلك وانكمشوا فلم يمكنهم من عمل شئ وقبض فى الحال على عبد الرحمن كتخدا وأبعده الى الأقطار الحجازية وأبعد باقيهم جميعا الى الأقاليم البحرية فأخاف الناس خروج عبد الرحمن بيك كتخدا الى منفاه فانه كان ذا هيبة ووقار وحرمة كبيرة وقد ارتفعت به كلمة الانكشارية وظهروا على طائفة العزب وكان له عز وأبهة ومماليك وأتباع وجند وغير ذلك من الاخلاط حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى ذلك اليوم فلم يحصل شئ من ذلك سوى مانزل بالناس من الدهشة والتعجب وأبعد بعد ذلك صالح بيك الى مدينة غزة فلم يقم بها الا أياما حتى أرسل اليه بعض الجنود فحملته من غزة الى رشيد فبقى فيها ثم رتب له ماينفقه بحسب

مطلب
عزل أحمد باشا كامل وولاية بكير باشا وموته وولاية حسن باشا

الحاجة فلبث برشيد مدة فلما جاء الخبر بعزل حسن باشا الوالى وتعيين حمزة باشا بدله أرسل على بيك جماعة من أتباعه ليحملوا صالح بيك المذكور من رشيد الى دمياط كى لا يجتمع بحمزة باشا اذا حضر الى رشيد فوصلت الى صالح بيك الاخبار بقيام أولئك الاتباع فأسرع وركب فى نفر قليل وأسرى ليلا الى جهة البحيرة فأقام بها ماشاء الله ثم ذهب من خلف جبل الفيوم الى الاقاليم القبلية فوصل الى منية ابن خصيب فأقام بها واجتمع عليه خلق كثير ممن شردهم على بيك بلاط فابتنى له أبنية وعمل متاريس ومحال للدفاع وكان له معرفة وصداقة مع شيخ عربان تلك النواحى وطوائف الهوارة وسكان أكثر البلاد الجارية فى اقطاعاته فاجتمع عليه الكثير منهم وقدموا اليه التقادم والذخيرة ومايحتاج اليه وتترس فى منية ابن خصيب وهو آمن مما يخشى فلم يجسر على بيك على قتاله ولم يناوشه الحرب خوفا من اتساع الخرق واستفحال الخطب

مطلب
عزل حسين باشا وولايه حمزة باشا

ودخل حمزة باشا الوالى الجديد القاهرة فى أخريات سنة تسع وسبعين ومائة وألف هجرية وصعد الى قلعة الجبل فنزل حسين باشا قاصدا السفر فكانت ولاية حسين باشا المذكور نحو ثلاث سنين * ولما استقر بحمزة باشا المنصب وأخذ يتصرف فى الامور بقدر الاستطاعة شكوا اليه أمر صالح بيك وتترسه فى منية ابن خصيب واضراره بالناس ومنعه لورود الغلال وأموال الخزينة السلطانية وبالغوا فى الشكوى وعظموا فى البلوى فرسم بقتاله فبعثوا له طائفة من الجنود مع أحد الأمراء المدعو حسين بيك كشكش وولوه أيضا الامارة على اقليم جرجا وسافر معه عدة أمراء أخر فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا شديدا فانهزم صالح بك وهرب الى شرقى أولاد يحيى فأقام حسين بيك كشكش بالمنية أياما يتأهب للمسير الى جرجا مركز امارته فبينما هو على أهبة الرحيل اذ ورد عليه مرسوم من على بيك بلاط بالتبعيد الى جهة قد عينها له فكاد حسين بيك يتميز غيظا وركب من فوره فى مماليكه وأتباعه وأمرائه وحضر الى القاهرة فوصلها ليلا فوجد الباب الموصل الى قناطر السباع مغلقا فطرقه فلم يفتحواله فكسره ودخل بمن معه وذهب الى بيته وبقى الأمر بينه وبين على بيك بلاط على المسالمة أياما * واتفق لحظ على بيك بلاط أن حسين بيك المذكور طلب فى غضون هذه الايام من عبد الله الحكيم طبيب الأمراء أن يصنع له معجونا صالحا للباه فأخبر الطبيب بذلك على بيك بلاط فأمره بأن يدس له فيه سما ففعل وذهب به الى حسين بيك وبالغ له فى فوائده فقال له لابأس به ولكنى أحب أن تأكل أنت منه أولا فتلجلج الطبيب واضطرب فأمر به حسين بك فقتلوه بين يديه وعلم أنها من عزيمة على بيك بلاط فتأكدت بينهما الوحشة وأضمر كل منهما لصاحبه السوء وتوافق على بيك مع أصحابه على الغدر بحسين بيك أو اخراجه فوافقوه ظاهرا واشتغل حسين بيك أيضا باخراج على بيك أوالغدر به وجمع الى كلمته كثيرا من قومه فلما كان ذات يوم ركب وركبوا ومعهم المدافع والبنادق وساروا الى بيت على بيك فصوبوا أفواه المدافع نحوه فأرسل على بيك لاصحابه يستنجدهم فلم يأته أحد وخذلوه

فشق

فشق عليه الأمر واستعظمه جدا وأرسل الى أصحاب حسين بيك يسألهم عن مرادهم فحضر اليه منهم من يأمره بالركوب والخروج من الديار حالا فقام لساعته وركب وخرج من بيته فسلموه الى من يوصله الى منفاه بالديار الشامية ومعه مماليكه وأتباعه وكان ذلك فى أواخر رمضان سنة تسع وسبعين فأنزلوه بالعادلية ثلاثة أيام حتى حاسبوه وحاسبوا أتباعه على ماهو عليهم وهم محاطون بالجند والسلاح والمدافع حتى فرغوا واستخلصوا مابقى وسافروا الى غزة

وكانت العادة فيمن ينفى من الامراء بديار مصر أنه اذا خرج من الديار لم يخلوا سبيله حتى يستصفوا ماعليه وسار صحبة على بيك المذكور جميع أصحابه وكبار قومه وعزلوا من لم يسافر منهم من منصبه * وما كادت تستقر الامور وتسكن الفتنة حتى جاء الخبر برجوع صالح بيك من شرق أولاد يحيى الى منية ابن خصيب واستقراره فيها وتحصينها فجيشوا لقتاله جيشا عظيما فبرز بعضه الى جهة البساتين وبينماهم على هذا الحال من تجييش الجيوش وإعداد آلات الحرب والاشتغال بأمر القتال مع صالح بيك اذ رجع على بيك بلاط وأصحابه من غزة فلم يشعر أحد برجوعهم ودخلوا القاهرة ليلا ونزل على بيك ببيت حسين بيك كشكش ونزل باقى من كانوا معه فى بيوت أخر فلما علم حسين بيك بقدومه على هذه الصورة جمع اليه أصحابه بجهة الآثار المعروفة بأثر النبي وشاورهم فى الامر فاختلفت كلمتهم وتباينت أغراضهم فنهم من أشار بتبعيده الى جدة ومن أشار بقتله ومن أشار بغير ذلك ثم عادوا فاتحدوا على أن يرسلوه الى جدة وأرسلوا اليه من يلزمه بالخروج والسفر فقال لا أخرج أبدا من بيت سيدى الا اذا كان الى الجهة البحرية فرضوا بذلك واتفقوا على أن يعطوه النوسات اقطاعا وأن يذهب اليها فرضى وذهب الى النوسات وأقام بها وأرسلوا أصحابه والذين كانوا معه الى أسيوط وجهاتها وكان بها خليل بيك الاسيوطى فتعرفوا به وتقربوا اليه وصادقوه فأعانهم ومدّ لهم يد المساعدة فتيسرت أمورهم وراجت أحوالهم ولبثوا هنالك ماشاء الله

وعاد حسين بيك بعد تبعيد على بيك وأصحابه الى تدبير أمر الجيش وارساله لقتال صالح بيك كما تقدم القول فسار الى منية ابن خصيب والتقى الجمعان واقتتلا فانهزمت العساكر وانفشلت فأرسلوا له جيشا آخر وأميره حسن بيك جوجو وكان حسن بيك المذكور ميالا فى الباطن الى خذلة حسين بيك وأصحابه فلم يقاتل الا بالأمر الخفيف ورجع بالعسكر كأنه مهزوم مذعور فأرسلوا جيشا آخر فكانت الحرب بينهم سجالا ثم رجعوا فلم يروا بدا من مصالحة صالح بيك فخابروه فى الصلح واستقرت القاعدة بينهم على أنه يذهب بمن معه الى بحرجا فتكون له التزاما ويقيم بها بشرط أن يدفع الاموال ويرسل الغلال فى حينها ويقوم بجميع المطاليب وكان ذلك فى شهر جمادى الاولى سنة ثمانين ومائة وألف * أما على بيك بلاط فانه لم يمض عليه بالنوسات الا القليل من الايام حتى تخيلوا أن حسن بيك الازبكاوى يراسله ويطلعه على عوراتهم فقاموا عليه فى ثانى شعبان من السنة وقتلوه بقصر العينى ورسموا بنفى أصحابه الى الاقاليم البحرية وخشوا عاقبة بقاء على بيك بلاط بالنوسات فأرسلوا اليه خليل بيك المعروف بالسكران فحمله

الى مدينة السويس ليسيره الى جدة من القلزم وأنزله باحدى السفن وسلمه الى ربانها فكانت الريح غير صالحة فبقيت السفينة تنتظر اعتدال الريح فرجع خليل بيك الى القاهرة

وجاءت أيام عيد الافطار فركب الامراء فى ثانى يوم شوّال الى قراميدان ليهنؤا حمزة باشا بالعيد وكان معتاد الرسوم فى مثل هذه الاعياد والمواسم أن كبار الامراء يركبون بعد الفجر من يوم العيد وكذلك أرباب العكاكيز فيصعدون الى قلعة الجبل ويسيرون أمام الباشا على الاقدام من باب السراى الى جامع الناصر بن قلاوون فيصلون صلاة العيد ويرجعون كذلك ثم يقبلون طرف ثيابه وينزلون الى بيوتهم فيهنى بعضهم بعضا على رسمهم واصطلاحهم وينزل الباشا ثانى يوم الى كشك بقراميدان وقد هيئت مجالسه بالفرش والمساند والستور والطنافس واستعد فراشو الباشا بالقهوة وأطباق الحلوى والقماقم والمباخر ورتبوا جميع الاحتياجات واللوازم من الليل واصطفت الخدم والجاويشية والسعاة والملازمون وجلس الباشا بذلك الكشك وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد ثم يأتى الدفتردار وأمير الحاج والامراء والصناجق والاختيارية وكتخدا الانكشارية والعزب أصحاب الوقت والمقادم والاودة باشية والجربجية ويعيدون عليه بالترتيب على قدر مراتبهم ثم ينصرفون * فلما حضروا فى ذلك اليوم وهنؤا الباشا وخرجوا الى دهليز القصر يريدون الانصراف الى بيوتهم برز لهم طائفة من الجند وسيوفهم بأيديهم مسلولة وآخرون يحملون البنادق واندفعوا عليهم وأطلقوا البنادق وأعملوا فيهم السيوف فأصيب عثمان بيك الجرجاوى بضربة سيف فى وجهه وأصيب حسين بيك كشكش بطلق نارى فى خاصرته وجرح كثيرون جراحا بليغة فعند ذلك ارتفعت الاصوات وعلت الجلبة وصاح الامراء بمماليكهم وأتباعهم لنجدتهم فاقتحموا الدهليز والسيوف بأيديهم وحالوا بينهم وبين المتؤامرين حتى تسلقوا من حائط البستان وركبوا خيولهم وهم لايصدقون بالنجاة وأركبوا عثمان بيك وهو يصيح الى باب العزب وقد قطع السيف وجهه وفمه فذهبوا به الى باب العزب وأنزلوه فلم يلبث الاهنيهة ومات فحملوه الى بيته وجهزوه ودفنوه ولم يمت ممن جرحوا أحد غيره وباتوا على ذلك وأصبحوا فاجتمعوا وصعدوا الى الابواب وأرسلوا الى حمزة باشا يأمرونه بالنزول من القلعة على عجل فنزل من ساعته الى بيت أحمد بيك كشك بقوصون ومر بباب العزب فوقف له حسين بيك كشكش وسبه سبا فاحشا وخاطبه بذى القول وفحش الكلام فلم يجبه بشئ ثم رتبوا أمورهم وسلموا بعض الوظائف المهمة لمن يعتمدون عليه واستكشفوا خفى هذه الحادثة فتبينوا أنها كانت باغراء من حمزة باشا وقيل بل هى خليقة على بيك بلاط فانه مابرح منذ تبعيده الى النوسات يراسل حسن بيك جوجو ويكاتبه سرا ومازالا على هذا الحال حتى تم التدبير لحسن بيك واستحضر طائفة من الجلفية وأطلعهم على مافى نفسه فوافقوه فأخفاهم فى بيته أياما كثيرة وقد دبروا أن يكون ايقاعهم بالامراء فى أول يوم العيد وذهبوا الى الكشك بقراميدان فى ذلك اليوم وكانوا نحو الاربعين فاختلفت عندئذ كلمتهم وانتقضوا ثم عادوا فاتفقوا على

أن يتموا الأمر فى ثانى يوم بدهليز بيت القاضى وتفرقوا على ذلك وقد انحلت رابطتهم الأربعة فانهم ثبتوا على هذا الاتفاق وساروا فى ثانى يوم الى الدهليز وضربوا من صادفوه بالسيوف والبنادق وبطل من هذا اليوم أمر العيد من قراميدان وتهدم القصر وخرب وكذلك البستان وذهبت نضارته وبعد وقوع هذا الحادث سيروا من يستكشف خبر على بيك بلاط وهل أقلعت به السفينة الى جدة فوجدوه بالسويس فردوه وأركبوه مع اتباعه ومماليكه الى القاهرة ومروا به من طريق الجبل وذهبوا الى جهة شرق اطفيح ثم الى أسيوط * فلما استقر به المقام اجتمع عليه المبعدون كافة وطوائف الهوارة وأخلاط أخر كثيرة فراسل صالح بيك بمنية ابن خصيب يريد الانضمام اليه بمن معه من هؤلاء الاخلاط فلم يرض صالح بيك ونفر منه فجعل يخادعه ويسايره وأرسل اليه خليل بيك الخربطلى أحد المبعدين يكلمه فى ذلك ومازال به حتى جنح لطلبه واجتمع به بكفالة شيخ العرب همام وتحالفا وتعاقدا وتعاهدا على الكتاب والسيف وكتبت بذلك حجة وكان العهد بينهما أنه اذا تم لهما الامر أخذ صالح بيك الاقاليم القبلية بتمامها قيد حياته وأرسلوا بما وقع الاتفاق عليه الى شيخ العرب همام قيل فسر بذلك ورضى به ارضاء لصالح بيك وأمدهما بالعطايا والمال والرجال واجتمع عليهم جميع المتشردين من الغز والاجناد والهوارة والابطال فصار لهم جيش عظيم فساروا الى منية ابن خصيب وكان بها خليل بيك السكران عاملا فلما علم بقدومهم رحل عنها وجاء القاهرة هاربا فاستقر على بيك بلاط وصالح بيك ومن معهما بالمنية وبنوا حولها الاسوار والابراج وركبوا عليها المدافع وقطعوا الطرق على المسافرين برا وبحرا وأرسل على بيك بلاط الى ذى الفقار بيك وكان مبعدا بالمنصورة ومعه جماعة من الكشاف يستقدمه الى المنية بمن معه فارتحل من المنصورة ليلا الى المنية فلما وردت الاخبار الى القاهرة بما فعله على بيك وصالح بيك وانهما فى عدة عظيمة جدا خافوا شرهما وخشوا عاقبة فعلهما فاجتمعوا جميعا وبينهم الشيخ الحفناوى شيخ الوقت يومئذ وتشاوروا فى الامر وطال بينهم الاخذ والرد ثم اتفقوا على أن يرسلوا لهما عسكرا لقتالهما فقام الشيخ الحفناوى وخطأ رأيهم واستنقصه وأطال الكلام على ما أصبحت فيه البلاد من الضنك والاضمحلال بأسباب توالى الفتن وتعاقب الحروب والمحن وقال ماذا عليكم لو أرجعتم على بيك وصالحتموه فيأتى ويقيم فى بيته آمنا مطمئنا فقالوا ان لم نذهب لقتاله أتى هو لقتالنا بخيله ورجله قال لاتأتوا شيأ حتى أكاتبه ويأتى منه الجواب وقام وكتب له يوبخه ويزجره تارة وينصحه أخرى وينهاه عن فعل مالا تحمد عاقبته وبعث اليه بالخطاب فلم يلبث الشيخ بعد ذلك الا أياما ومرض ورمى بالدم ومات فشاع يومئذ أنهم أعطوه سما لينالوا أغراضهم من قتال على بيك وصالح بيك ووردت فى هذه الاثناء الاخبار بعزل حمزة باشا وهو فى سجنه لا كلمة له كما تقدم القول وتولية محمد باشا راقم فقام اليه الملاقون ودخل القاهرة فى غرة ربيع الثانى سنة احدى وثمانين ومائة وألف هجرية فسافر حمزة باشا الى بلاد الروم فكان لبثه بمصر سنتين وشهرا

مطلب
عزل حمزة باشا وولاية محمد باشا راقم

وعاد الامراء بعد دخول محمد راقم باشا الى جمع الجموع وتجهيز معدات القتال للحمل على على بيك بلاط وصالح بيك وكلموا محمد باشا فى أمرهما وأعلموه بأسباب خروجهما وموّهوا عليه الحال وأخذوا منه مرسوما بالقتال وسيروا حسين بيك كشكش ومعه عسكر جرار فطلب حسين بيك النفقة فلم يجدوا فى الخزينة شيأ من الاموال فجعلوا يصادرون التجار ويستصفون أموالهم وطلبوا أمراء البهار المعروفين بالتواخيد وألزموهم بدفع مال البهار معجلا فادّعوا الاعسار فهددوهم وأخذوا جميع ماعندهم من مال ومتاع ثم سار حسين بيك بعسكره والتقى الفريقان بناحية بياضة تجاه بنى سويف فاقتتلا قتالا عنيفا فانهزمت عساكر حسين بيك شر هزيمة وانفشلوا وقتل كثير من أمراء العسكر ورجع المنهزمون الى القاهرة يوم السبت سابع عشرى الشهر وهم فى أسوا حال * وأصبح يوم الأحد فطلعوا الى أبواب القلعة وطلبوا من الباشا مرسوما باعادة القتال وبأخذ مائتى كيس من مال الخزينة السلطانية نفقة للجند فامتنع الباشا من ذلك فراجعوه فلم يرض وبينماهم يتنازعونه فى ذلك اذ جاء يوم الاثنين الخبر بوصول على بيك وصالح بيك ومن معهما الى ناحية غمازة وكان حسن بيك جوجو ومن معه من الامراء نازلين بخيامهم جهة البساتين فارتحلوا ليلا وهربوا وانزعج خليل بيك وحسين بيك ومن معهما من الجند والعسكر وتحققوا أن لاقبل لهم بقتال على بيك بلاط وأن لابدّ من زوال دولتهم * وأرسل الباشا الى أصحاب الوجاقات بملازمة كل وجاق لبابه فوصل على بيك وأصحابه الى البساتين فلم يروا فيها أحدا وتسلل خليل بيك وحسين بيك وأصحابهما وطلعوا الى الابواب فوجدوها مقفلة فرجعوا الى قراميدان وأقاموا بها ساعة ثم رجعوا على أعقابهم وقد خرج الكثير فى تلك الليلة من الامراء هاربين الى حيث على بيك وصالح بيك وفى مقدمتهم حسن بيك جوجو ومن انضم اليه من الامراء والاجناد وهرب خليل بيك شيخ البلد يومئذ وجميع أتباعه وأعوانه ومماليكه وحسين بيك كشكش وأتباعه وأعوانه وكانوا عدة كبيرة * وأصبح يوم الخميس فخرج الاعيان وغيرهم لملاقاة على بيك وصالح بيك ومن جاء معهما من الامراء فدخلا القاهرة فى ذلك اليوم ومعهما جميع الذين كانوا مبعدين ولبثا الى يوم الأحد ثم طلعا ومعهما باقى الامراء المبعدين والذين تخلفوا عن الذاهبين الى الديوان بقلعة الجبل فخلع الباشا على علىّ بيك خلعة الرضا وقرره شيخا للبلد وخلع على صناجقه خلع الاستمرار أيضا فى اماراتهم واستقر المنصب بعلى بيك فى امارة مصر ورياستها وظهر نبله وعلت كلمته حتى ساعدته الاقدار وملك الديار المصرية والاقطار الحجازية والبلاد الشامية كما سيأتى بيان هذا كله فى محله ان شاء الله تعالى

وتاقت نفسه «وان النفس لأمارة بالسوء» الى الانتقام من بعض الامراء وأعيان البلد وتبعيدهم فرأى أن لا قبل له بذلك خوفا من حسن بيك جوجو وأنه مادام حيا لايصفوله الحال فأخذ من هذا الحين يدبر على قتله وأطلع بعض خواصه على مافى سره فهوّنوا له الأمر وتعهدوا له بالعمل فلما كانت ليلة الثلاثاء ثامن رجب سنة احدى وثمانين ومائة وألف حضر

حسن بيك جوجو ومعه آخر اسمه على بيك جن وآخر اسمه محمد بيك أبو الذهب وأيوب بيك الى بيت على بيك بلاط لزيارته فلبثوا عنده برهة من الليل يتحادثون ثم قام حسن بيك ومعه على بيك جن وركبا ومعهما الامراء المذكورون ونفر من أصحاب على بيك يسايرونهم وهم المتكفلون بالقتل فلما صاروا فى الطريق التى عند بيت الشابورى خلف جامع قوصون جردوا سيوفهم وطعنوا حسن بيك فقتلوه وقتلوا معه على جن وتركوهما ورجعوا فاخبروا على بيك بلاط بما جرى فسرّ سرورا عظيما وبات وأصبح على بيك المذكور مالكا لجميع الابواب لاراد لكلمته ولا يد فوق يده فلما صفا له الوقت ودانت له الامور أبعد كثيرا من الامراء والاعيان والوجهاء وشرّدهم فى الاقاليم القبلية والبحرية وضيق على كل من كان يتوسم فيه سمة الانكار فخافه الناس وهابه الامراء وعمت شهرته واتسعت صولته وجعل يتصرف فى الامور كما يشاء * وبينما هو على هذا الحال من تتبع الخصوم وقطع دابر المخالفين اذ جاءه الخبر برجوع حسين بيك كشكش وخليل بيك من جهة غزة وهما فى جموع كثيرة للغاية وأخلاط من الجند والعسكر يريدون القتال والزحف على الديار المصرية فأكبر هذا الامر جدا وجيش لقتالهم جيشا ضخما للغاية فى البر والبحر واجتمع الفريقان عند الديرس والجراح من بلاد المنصورة وكان حسين بيك كشكش وأصحابه قد عرّجوا أولا الى دمياط فنهبوا وسلبوا شيأ كثيرا ثم حضروا الى المنصورة ففعلوا كذلك فلما التقى الجيشان واقتتلا انهزم أصحاب على بيك بلاط وانفشلوا وولوا راجعين وقتل منهم عدة كبيرة من الامراء والجاويشية ولم يزالوا فى هزيمتهم الى أن وصلوا دجوة فلما جاء الخبر بذلك اهتم له على بيك ونزل الباشا من قلعة الجبل وخرج الى قبة باب النصر خارج القاهرة وجمع أمراء العسكر كافة والعلماء وأرباب السجاجيد ورسم أن كل من كان من الجند وأصحاب الوجاقات يبادر بالتأهب للخروج أو يخرج بدلا عنه واحدا واهتم كذلك على بيك بجمع العسكر وإعداد معدّات الحرب فجمع جيشا عظيما وسلم لواءه الى محمد بيك أبى الذهب فسار أبو الذهب من فوره والتقى بمن بقى من العساكر المتشردين فضمهم الى عسكره وسار بهم فى طلب حسين بيك وخليل بيك وكانا قد نزلا باقليم الغربية وساروا سيرا حثيثا يريدون القاهرة ليدخلوها فلاقتهم جيوش أبى الذهب بمدينة طنتدا وهم معسكرون فيها فأحاط أبو الذهب وعسكره بالمدينة من كل جانب فوقع الحرب بين الفريقين ولم يزل القتال قائما حتى فرغ ماعندهم من الذخيرة وقلت الازواد فأرسلوا الى أبى الذهب يطلبون الامان فأمنهم وبطل القتال وكاتبهم أبو الذهب وخادعهم وتعهد لهم باسترضاء على بيك فانخدعوا وانحلت عزائمهم وتفرقت كلمتهم وباتوا ليلتهم تلك على بساط الطمان * فلما كان ثانى يوم أرسل أبو الذهب الى حسين بيك كشكش يستدعيه الى معسكره ليتكلم معه فى أمر الصلح فسار اليه وليس معه سوى خليل بيك السكران أحد أتباعه فلما وصلا ودخلا مجلسه لم يجداه فجلسا برهة لطيفة ينتظرانه واذا بجماعة من العسكر قد دخلت عليهما وضربتهما بالسيوف حتى

ماتا وجاء فى أثرهما حسن بيك شبكة ولم يعلم بما جرى لأستاذه حسين بيك فلما اقترب من العسكر داخله الخوف وشعر برجفة فأراد الرجوع فعاقه رجل سائس اسمه مرزوق وضربه بنبوت فوقع الى الارض فلحقه أحد الجند واحتز رأسه * وجاء الخبر الى خليل بيك الكبير ومن معه بما جرى على حسين بيك وأتباعه فخافوا خوفا عظيما وذهبوا الى ضريح السيد أحمد البدوى والتجؤا الى قبره وأيقنوا أنهم لاحقون باخوانهم وأرسل أبوالذهب الى على بيك بلاط يستشيره فى أمر خليل بيك ومن معه فرسم بتبعيده الى الاسكندرية فقبض عليه وبعث به اليها فلم يلبث بها الا أياما وقتلوه خنقا ورجع أبوالذهب ومن معه ودخلوا المدينة من باب النصر فى موكب عظيم وأمامهم رؤس القتلى محمولة فى صوان من الفضة والخدم أمامها يقولون « صلوا على محمد » وكانت عدة تلك الرؤس ستا وهى رأس حسين بيك وخليل بيك السكران وحسن بيك شبكة وحمزة بيك واسماعيل بيك أبومدفع وسليمان أغا الوالى وكان دخولهم على هذه الصورة فى يوم الجمعة سابع عشرى المحرم افتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية

واشتد على بيك بلاط على من بقى من الامراء المخالفين وأبعد منهم عدة كثيرة الى الصعيد الاعلى وأخرى الى الاقطار الحجازية وقبض على أولاد سعد خادم ضريح السيد أحمد البدوى وصادرهم وأخذ أموالهم وكانت كثيرة وأبعدهم عن طنطا وأرسل آخر بدلهم اسمه الحاج حسن عبد المعطى وشرع فى بناء الجامع والقبة والسبيل والقيسارية العظيمة وأبطل عنها مظالم أولاد الخادم والحمل والنشالين والحرامية والصيادين وضمان المومسات وغير ذلك من أنواع المغارم التى كانت مفروضة عليها وبلغ على بيك شهرة عظيمة وكبر اسمه فى دار السلطنة العثمانية فأرسل اليه السلطان هدية قفطانا وسيفا صحبة رسول مخصوص بمرسوم سلطانى فتقاطر الامراء لتهنئته ونزل الباشا الى بيته وتزاحمت على بابه أقدام المهنئين فداخل صالح بيك من ذلك بعض الحسد وآنس منه على بيك بعض الوحشة فأصر له على بيك السوء وعزم أن يعجل به قبل أن تستفحل الوحشة فيعجل هو به وكاشف بعض رجاله على ما يريده بصالح بيك فهوّن عليه الامر وتعهد له بالعمل فلما جاء صالح بيك الى بيت على بيك ليهنئه بهدية السلطان وقفل راجعا الى بيته ركب معه محمد بيك تابع على بيك وآخرون من الامراء أتباع على بيك وساروا فى ركابه وخلفهم بعض الجند والاتباع فلما صاروا فى مضيق الطريق عند المفارق بسويقة عصفور تأخر محمد بيك ومن معه قليلا عن صالح بيك وصاح محمد بيك بخادمه ونهره وسبه وجرد سيفه بسرعة غريبة كأنه يريد قتله وطعن به صالح بيك فاخترط بقية من كانوا معه سيوفهم وضربوه فسقط عن جواده الى الارض ميتا وتركوه وصعدوا من فورهم الى قلعة الجبل فلما استقر بهم المقام أخذتهم نشوة الظفر بصالح بيك فجعلوا يتحدثون فى أمر قتله ومافعله كل منهم وعابوا أحدهم أحمد بيك بشناق حيث لم يسرع فى اخراج سيفه وأحجم

عن الطعن والضرب كما فعلوا هم فقال انى ضربته كما فعلتم فكذبوه وقالوا أرنا سيفك ان كنت صادقا فلم يفعل وخاف أن يخبروا على بيك بلاط بما وقع منه فيقتله ثم انصرفوا وبات هو ليلته يدبر أمرا لخلاصه فلم ير له سبيلا غير الفرار الى أرض الله الواسعة وأصبح فأخبر زوجته بما عزم عليه وشدد عليها أن لاتخبر بخبره أحدا حتى يصل الى الاسكندرية ثم قام وتزيا بزى المغاربة وسار من ساعته وجدّ فى السير من ناحية شلقان فأتت السعاة وأخبرت على بيك بخبره فرسم لحاكم الاسكندرية بالقبض عليه فلم يتمكن من ذلك حيث كان قد نزل باحدى السفن القاصدة بلاد الروم وكان من أمره بعد ذلك ما كان مما سيذكر فى حينه وأحمد بيك هذا هو أحمد باشا الجزار الشهير الذى ملك عكا وتولى الشام وامارة الحاج الشامى وطار صيته فى الممالك شرقا وغربا فساء على بيك فراره وخشى عاقبة أمره

واتسعت كلة على بيك وكبرت هيبته فسقطت حرمة محمد باشا الوالى فى جانب حرمته وذهب اعتباره وصار مغلوبا على أمره ليس له من الولاية سوى الاسم فخاف على نفسه وأخذ يدبر على قتل على بيك وأعمل فى ذلك جهده وكاشف كتخداه عبدالله بيك بما فى خاطره فلم يكتم سره بل أعلم على بيك به وكشف عما ينويه له محمد باشا فلما علم على بيك بذلك أصبح فملك الابواب والرميلة وحوالى قلعة الجبل والمحجر وأرسل الى الباشا يلزمه بالنزول من القلعة فنزل من باب الميدان الى بيت أحمد بيك كشك ولبث فيه محجورا عليه تخفره العسكر وتولى على بيك النيابة وجعل يتصرف فكثرت مصادرته للناس فى أموالهم ومتاعهم بلا فرق ولاتمييز فكانت هذه السنة السيئة من مبتكراته من يوم نشأته ثم صارت سنة لمن يأتى بعده * وتاقت نفسه بعيد ذلك الى الولاية على الشام أيضا فعمل على ذلك وهيأ هدية نفيسة للغاية وخيولا مصرية جيادا وبعث بها الى السلطان وبعض رجال الدولة وكتب يشتكى من عثمان بيك ابن العظم والى الشام ويطلب من دار السلطنة عزله لقبوله المنفيين من أمراء مصر وانضمامهم اليه والاخذ بقولهم فى جميع أعماله وبالغ فى الشكوى واستفاض الخبر بذلك فى القاهرة ومصر وعلم محمد باشا الوالى به فكان يتحزن ويتوجع ولاقبل له على عمل شئ ومازال على هذا الحال من الحجر والضيق حتى مات فى المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف هجرية بقصر عبد الرحمن كتخدا بشاطئ النيل حيث كان مسجونا لم يخرج منه منذ أنزل من قلعة الجبل وقيل كان موته مسموما فدفن بالقرافة الصغرى عند مدفن الباشاوات بالقرب من الامام الشافعى ولم يحتفلوا بجنازته

واجتمع الامراء المبعدون الى الاقاليم القبلية على اختلاف درجاتهم بشيخ العرب همام لعله يعاونهم على العود الى ديارهم فأشار عليهم بالترفع الى أسيوط وأخذها عنوة وأن يقيموا بها ولم يسمح لهم بالمقام عنده خوفا من على بيك بلاط ووفاء بما بينهما من العهد فارتحلوا جميعا من عنده وترفعوا نحو أسيوط وكانوا عدة كبيرة واجتمع عليهم أيضا طوائف الهوارة وأخلاط من الناس ممن لاشاغل لهم وكان بمدينة أسيوط فى هذا الحين من قبل على

بيك بلاط عبد الرحمن كاشف وذو الفقار كاشف وقد رمموا أسوار البلد وحصنوها تحصينا عظيما فلما وصلوا اليها ووجدوها على هذه الحال من المنعة والتحصين جعلوا يتلصصون الى أن اتصل قوم منهم فى جنح الليل ببوابة البلد ومعهم خرق ملوثة بالقار والكبريت والزيت وأوقدوا فيها النيران فاشتعل الباب فهجموا على المدينة هجمة رجل واحد فلم يكن لهم بهم طاقة لكثرتهم وملكوا أسيوط وتحصنوا بها وهرب من كان فيها من العساكر والكشاف وجاءت الاخبار بذلك الى على بيك فهاله الامر واستعظمه وجيش لهم جيشا عظيما وسيره مع ابراهيم بيك بليفيه ومحمد بيك أبو شنب وعلى بيك الطنطاوى وبالغ فى ارسال الذخيرة والميرة وغيرها فلما صاروا على مقربة من أسيوط خيموا عند جزيرة منقباط وعلم من بأسيوط بحضورهم فخافوا وتشاوروا فى الامر فاتفقت كلمتهم على أن يركبوا ليلا ويدهموا عسكر على بيك فركبوا فى ساعة معلومة بينهم وسار بهم الدليل فى طوق الجبل فضل بهم وأسرى واياهم حتى تجاوزوا المكان المقصود بنحو الساعتين فخافوا وعلموا فوات الوقت وأن القوم متى علموا بخروجهم ملكوا المدينة من غير ممانع قبل رجوعهم فما وسعهم الا الذهاب الى المعسكر ومصادمتهم على أى حال كان فلم يصلوهم الا بعد طلوع الشمس وتيقظ القوم واستعدّوا لهم والتطموا معهم وهم قليلون فوقع القتال واشتد الجلاد وبذلوا جهدهم فى الطعن والضرب وبرز رجل منهم يريد محمد بيك أبو شنب فبرز له محمد بيك وهو يقول لبيك هاأنا هاأنا فقصده جماعة منهم وقاتلوه وقاتلهم حتى قتل وحمى الوطيس وكثر الصياح وارتفع الغبار وانكشف عن هزيمة أهل الثورة ونصرة أصحاب على بيك وكانت هذه الوقعة الهائلة عند جبانة مدينة أسيوط فتمزقوا وتفرقوا أيدى سبأ ثم عاد من بقى وانضم الى كبار الهوارة وملك أصحاب على بيك مدينة أسيوط واحتلوها ولبثوا بها أياما ثم ترفعوا لقتال شيخ العرب همام وكبار الهوارة ومن انضم اليهم من المهزومين فاتحد كبار الهوارة مع الامراء المهزومين واستعدوا للقاء عسكر على بيك فراسل محمد بك اسماعيل أبو عبد الله ابن عم همام واستماله ومناه ووعده برياسة الصعيد عوضا عن عمه همام ان هو خذل قومه وتخلى عن القتال معهم وما زال به حتى ركن لقوله وصدق تمويهاته وتثاقل عن القتال وخذل قومه ومن كان معهم من الامراء فانفشلوا وتمزقوا كل ممزق وخاف شيخ العرب همام شر العاقبة فارتحل عن فرشوط وانحدر على بعد ثلاثة أيام منها ثم مرض أياما قلائل ثم مات كمدا وحزنا على ماجرى وسار محمد بيك بالجند الى فرشوط فدخلها من غير ممانع ونهب مافيها وأخذوا جميع ما كان بدور همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال فزالت دولة همام المذكور من الاقاليم القبلية من ذلك الحين ثم سار محمد بيك بعد ذلك من فرشوط يريد القاهرة فحضر اليه درويش ولد همام بعد موت أبيه مستجيرا فأحضره معه الى القاهرة فلبث بها أياما حتى رضى عنه على بيك وأعاده الى فرشوط تحت عهود عاهدها له قبل السفر * أما محمد بيك أبو الذهب فانه لم يلبث بالقاهرة الا أياما قلائل بعد عوده ظافرا منصورا حتى وقعت بينه وبين

أستاذه على بيك وحشة فخرج منها مغضبا الى الاقاليم القبلية ولحق بدرويش بن همام وأقام عنده فخلت البلاد شرقا وغربا لعلى بيك ومماليكه واستتبت كلمته وعمت الآفاق شهرته وتفرغ لقطع شأفة المنفيين فى الثغور كدمياط ورشيد والاسكندرية والمنصورة وغيرها ووكل جماعة من قومه بذلك فكانوا يذهبون الى تلك الجهات واحدة فواحدة فيقيمون بها أياما ويقتلون من بها من أولئك المبعدين خنقا ثم ينتقلون لغيرها حتى أفنوهم ولم يبقوا منهم أحدا وخاف الناس على بيك خوفا عظيما فاتفق أنه دخل يصلى يوما بجامع الداودية فصعد خطيب الجامع وخطب ثم دعا للسلطان ولعلى بيك بالنصر والتأييد فلما انقضت الصلاة وقام على بيك يريد الانصراف استدعى الخطيب وقال له من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك انى سلطان وكان الخطيب يغلب عليه البله فقال نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر على بيك الغيظ وأمر به فضربوه بالعصى وتركوه فركب حمارا لشدة ما أصابه من الضرب وسار الى بيته وهو يصيح فى الطريق « بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ » وأكثر من الصياح على هذا الحال فتبعه العامة الى أن دخل بيته فلما علم على بيك بذلك خاف العاقبة فأرسل الى الشيخ كسوة سنية وبعض دنانير واستعطفه لما وقع منه * وبعد أيام جاء الخبر بولاية الوزير محمد باشا الاورفلى بدلا من محمد باشا راقم الذى مات كما تقدم القول فحضر على البر فى أبهة وكبكبة عظيمة وقصد الى قلعة الجبل وذلك فى أواخر سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف بقدر الاستطاعة الى سنة ثلاث وثمانين ثم عزل وتولى بعده الوزير أحمد باشا فأتى من الاقطار الحجازية الى السويس بالقلزم ودخل القاهرة فى موكب حافل وهو متوعك ولم يصعد قلعة الجبل وسكن بدرب الحجر أشهرا ثم اشتد به مرضه فمات فى السنة المذكورة

مطلب
ولاية محمد باشا الاورفلى ثم عزله وولاية الوزير أحمد باشا

واشتدت رغبة على بيك بلاط فى الغزو وفتح المدن والامصار لاسيما الديار الشامية والحجاز وقد تقدم القول انه كتب الى دار السلطنة يشتكى من ابن العظم ويرميه بالسوء فكانت رسله لاتنكف عن استطلاع اخبار الشام والحجاز وكان يتمنى لوأن الله ييسر له فتحهما فبينما هو على هذا الحال بين الرجاء والتمنى واستطلاع أخبار تلك الاصقاع اذ قدم الى القاهرة فى المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين ومائة وألف هجرية الشريف عبد الله من أشراف مكة وكان من أمره أنه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف أحمد أخى الشريف مساعد منازعة فى امارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد فتغلب على الشريف أحمد واستقل بالامارة وخرج الشريف عبد الله هاربا الى دار السلطنة مستنجدا فرسم السلطان الى على بيك بلاط بمساعدته واعادة الامارة اليه كما كانت فأنزله على بيك منزلا رحبا وأكرم وفادته وفرح فرحا عظيما ورتب له المرتبات من مأكول ومشروب وأمر بتجهيز الذخائر ومعدات الحرب وملأ بيوت الأمراء الذين قتلوا بالذخيرة وآلات القتال والمؤن واستعرض أصناف العسكر من ترك ومغاربة وشوام ومتاولة ودروز وحضارمة وعمانية وسودان وحبشان ودلاة وغير ذلك وأرسل معهم طوائف

فى المقدمات وأنزل المشاة منهم الى القلزم فى السفن وسار بقية الجند فى صفر من السنة بعد دخول الحاج فى تجمل زائد وكبكبة عظيمة ومعهم محمد بيك أبو الذهب وبعض كبار الامراء وسار معهم الشريف عبدالله وقد ودعه على بيك وطيب نفسه فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا على الينبع فانتصر المصريون على العرب نصرة مؤزرة وهزموهم شر هزيمة وقتلوا خلقا كثيرا من الاشراف وقتلوا وزير الينبع العامل عليها من قبل الشريف ثم سار محمد بيك بعسكره حتى اقتربوا من سواد مكة فخرج عليهم قوم الشريف أحمد وأصحابه فقاتلهم وانتصر عليهم ودخل مكة عنوة فخرج الشريف منها هاربا فأباحها ثلاثة أيام فنهبوا مافيها ونهبوا بيت الشريف وبيوت أصحابه وأخذوا شيأ كثيرا للغاية من متاع وأموال وجواهر وحلى ونفائس وغير ذلك وأجلس الشريف عبدالله فى منصب إمارة مكة وولى حسين بيك أحد الامراء المصريين على ولاية جدة عوضا عن واليها من قبل الدولة وأقام أبو الذهب أياما بمكة حتى استتب قدم الشريف عبدالله ثم سار بعسكره يريد القاهرة ووصلت الاخبار بذلك فخرج للافانه الملاقون بالعقبة فلما جاء الخبر بوصوله إليها خرج الأمراء الى بركة الحاج والدار الحمراء لانتظاره فدخل فى أوائل شهر رجب من السنة وقدم القاهرة فى ثامنه فى موكب عظيم للغاية وأتى اليه العلماء وأعيان البلاد وقصده الشعراء بالقصائد والتهانى فملئت شهرة على بيك بالاقطار الحجازية وطار صيته فى الآفاق * ولما تكامل ورود عسكره من غزوة الحجاز عزم على أن يوجه بهم لغزو الشام فبدأ بأن أرسل يمهد الطرق أمامهم وكان بغزة شيخ لعربانها اسمه طيط طاغية شديد المراس وكان يكره على بيك ويتمنى خذلانه وزوال دولته فسير اليه على بيك رجلا من أعوانه اسمه عبد الرحمن أغا ورسم له بقتله فسار الى غزة فى نفر من الجند ولم يزل يتحيل حتى ظفر به وقتله هو واخوته وأولاده وقد كان عقبة كبرى فى طريق الشام ثم استكثر على بيك من جمع طوائف الجند واعداد معدات القتال والمؤن والذخائر وجيش جيشا ضخما وسلمه الى اسمعيل بيك ومعه عدة من الامراء فبرزوا الى العادلية بالآلات والاحمال والخيام وأقاموا بها أياما ثم ارتحلوا الى الشام وسار خلفهم جيش آخر بحرا ومقدمه سليمان بيك والتقى الجمعان فقامت الحرب على ساقها بين الطرفين واشتدت وحمى وطيسها فتابع على بيك ارسال المدد من جند وسلاح ومؤن وذخيرة فى البر والبحر حتى نفد ماعنده والطلب متواصل فعمد الى مصادرة الناس وأخذ أموالهم بأرذل الطرق وأخس الوسائل وفرض على القرى أموالا وقرر على كل طائفة مائة ريال وثلاثة ريال حق الطريق فضج الناس وتعطلت أسباب الرزق وهاجر البعض وطلب من قبط مصر مائة ألف ريال ومن يهودها أربعين ألفا وضيق وشدد وهدد وبالغ فى الوعيد فأخذها جميعها

وسير بعد ذلك جيشا آخر كامل العدد والعدد الى يافا فحاصرها وضيق عليها وما زال منع الواصل اليها متتابعا حتى فتحت وأخذت عنوة ثم ركبوا على باقى المدن والقرى وقاتلوا من بها من النواب والولاة وهزموهم ففروا من وجوههم واستولى المصريون على جميع الديار

الشامية الى حلب وطار صيت على بيك وملأ الآفاق فداخله الغرور وتاقت نفسه الى الغزو والفتوح فأرسل الى محمد بيك أبى الذهب يأمره بتولية الامراء الذين معه المناصب والولايات على البلاد التى ملكوها وأن يستمر على الغزو والفتوح ويتجاوز الحدود ويستولى على كل ما يصادفه من الممالك والبلدان الى حيث شاء الله وهو يتابع ارسال المدد اليه من مال ورجال فجمع أبو الذهب من معه من الامراء والاقران وكبار الجند وشاورهم فى الامر وأخبرهم بما يريده على بيك فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وطال الجدال بينهم ثم اتفقوا على الرجوع بجميع العسكر الى مصر وتحالفوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد وساروا من يومهم فجاؤا القاهرة فى رجب من السنة ودخلوها على خلاف مارسم به على بيك فساءه فعلهم واستعظمه جدا وبقى الأمر على السكوت أياما ثم تكلم على بيك مع أبى الذهب فى أمر رجوعه الى الديار الشامية لفتح كل ما تيسر له فتحه من مدنها وأمصارها وشدد عليه فى ذلك فأظهر محمد بيك عين السخط وعدم الرضا وعارض فى الأمر كثيرا فصمم على بيك وقال لابد من السفر فبدأت بينهما الوحشة باطنا من هذا الحين وأخذت فى الازدياد يوما عن يوم وجعل كل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها * فلما كانت ليلة الرابع من شوال من السنة دس على بيك بلاط الى على بيك الطنطاوى وآخرين معه أن يغتالوا محمد بيك أبو الذهب ويقتلوه على كل حال فركبوا عليه فى تلك الليلة وأحاطوا بداره ووقفت العساكر بأسلحتها فى الطريق فلما أحس محمد بيك بحضورهم ركب من فوره وخرج من بينهم راكبا والسيف بيده وخلفه خواصه وبعض الاتباع وذهب الى البساتين ثم ارتحل منها الى الصعيد وعلم من بالأقاليم القبلية من الأمراء المبعدين بحضوره على هذا الحال فساروا اليه وقدموا له ماعندهم من مال ورجال وقدم له أيوب بيك أحد رفاقه هدايا من خيل وأقمشة وخيام وغيرها وقد وضع محمد بيك المذكور بالطريق عيونا وأرصادا لتأتى له باخبار القادمين عليه من مصر فأحضروا له يوما رجلا يحمل مكاتبة من على بيك بلاط الى أيوب بيك يأمره بها ويستحثه على سرعة قتل أبى الذهب على أى حال كان ويعده بامارته وبلاده وغير ذلك فلما قرأ المكاتبة أكرم الرجل وناوله اياها وقال له اذهب وائتنى بجوابه ولك عندى غاية الاكرام فذهب الرجل وغاب ثم عاد بالجواب وناوله الى محمد بيك فقرأه فاذا هو يذكر فيه أنه باذل ما فى الوسع وهو يراقب الفرص لينتهزها فتحقق محمد بيك خبث طوية أيوب بيك فجمع اليه خاصته وأمراءه وأعلمهم بالخبر وأمرهم بالاستعداد والتأهب وأنه اذا حضر أيوب بيك اليه أخذ الامراء نظراءهم من قوم أيوب بيك وتحفظوا عليهم * فلما حضر اليه أيوب بيك جلس معه فى خلوة فقال له أبو الذهب بدا لى أن أسألك هل نحن مقيمون على الاخاء والمصافاة والصداقة والعهد الذى تعاهدنا عليه بالشام قال نعم وزيادة قال ومن نكث وخان اليمين ونقض العهد قال يقطع لسانه الذى حلف به ويمينه التى وضعها على المصحف فقال له بلغنى أنه أتاك كتاب من عند أستاذنا على بيك فقال لا فقال لعل ذلك صحيح وقد كتبت له

الجواب أيضا قال لم يكن ذلك أبدا ولو أتانى منه خطاب لأطلعتك عليه ولا يصح أن أكتمه عنك أو أرد له جوابا فأخرج له الجواب واستحضر لذلك الرسول فسقط فى يده وأخذ يتنصل ببارد العذر فقال له أبو الذهب لايصح أن تكون من رفاقى فقم واذهب الى أستاذك واهنأ به فلما خرج قبضوا عليه وأنزلوه الى مركب وأحاطوا بوطاقه وأسبابه فتفرقت عنه جموعه ثم أمر محمد بيك أحد رجاله فذهبوا وقطعوا يده ثم وضعوا صنارة فى لسانه وجذبوه ليقطعوه كما حكم هو بذلك فأفلت منهم ورمى بنفسه الى الماء فغرق ومات فأخرجوه وغسلوه ودفنوه

ولما فاض الخبر بما وقع لايوب بك تحقق الناس استفحال الوحشة بين أبى الذهب وأستاذه على بيك وأقبل الامراء والاجناد المنفيون اليه ودخلوا تحت لوائه واجتمع اليه جميع اتباع القاسمية والهوارة الذين شرّدهم على بك وسلب نعمتهم فأكرمهم وأنعم عليهم وواساهم وقلدهم الخدم والمناصب فتقيدوا بخدمته وبذلوا جهدهم فى طاعته وأخلصوا له النية فلما وردت الاخبار بذلك الى القاهرة نزل بعلى بيك بلاط من القهر والغيظ المكظوم مالا يوصف وجعل يجيش الجيوش ويعد المعدات وسير اسمعيل بيك أحد اتباعه بجيش عظيم فى البر والبحر وذلك فى أواخر ذى القعدة من السنة فلما التقى الجمعان لم يقع بينهما من القتال الا شئ خفيف جدا ثم انضم اسمعيل بيك باكثر جنده الى جند محمد بيك وصاروا جميعا على قلب رجل واحد فاشتد الامر بعلى بيك ولاحت عليه لوائح الغم وكاد يموت قهرا وغما وعاد الى جمع العساكر والاكثار من السلاح ومعدات الحرب وسير سبعة من الصناجق قال أحد الكتاب وكلهم مزلقون أى مترفهون متنعمون وضم الى كل منهم عساكر وطوائف ومماليك وأتباعا وبرز بنفسه الى جهة البساتين ورسم بعمل المتاريس من النيل الى طريق الجبل ووضع عليها المدافع وسارت العساكر ومعها على بيك الطنطاوى وبقية الامراء فى منتصف المحرم افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف فالتقى الجمعان فى الطريق حيث كان أبو الذهب وقومه منحدرين الى القاهرة واقتتلا عند بياضة أمام بنى سويف ووقعت بينهما مقتلة عظيمة انجلت عن هزيمة عسكر على بيك فساق أبو الذهب خلفهم بأصحابه وهم يمانعون عن أنفسهم حتى عبروا النيل ووصلوا الى دير الطين وكان على بيك بلاط مقيما به فلما رأى أصحابه مقبلين على هذا الحال من الهزيمة والفشل اشتد قهره وتحير فى أمره ولكنه أظهر التجلد وأمر بالاستعداد وترتيب المدافع وأقام الى الغروب على هذا الحال وقد تفرقت عنه عساكره من المغاربة وغيرهم ووصل محمد بيك الى شاطئ النيل المقابل لدير الطين ونصب صيوانه وخيامه تجاه صيوان وخيام على بيك فنظر اليها على بيك وقلبه يحترق بنار الغيظ ثم ركب عند الغروب ودخل من باب القرافة وطلع الى باب العزب فلبث برهة من الليل ثم نزل الى بيته وقد عقد النية على الفرار فحمل أحماله وأمواله وعياله وخرج سائرا الى الشام وذلك فى ليلة خامس عشرى المحرم افتتاح سنة ست وثمانين وسار معه على بيك الطنطاوى

وجميع

وجميع صناجقه ومماليكه وأتباعه وطوائفه * وأصبح يوم الخميس سادس عشرينه فعلم محمد بيك ابو الذهب بخروج على بيك ومن معه فعبر محمد بيك النيل الى الجانب الشرقى وأمر فأوقدوا النار فى دير الطين ودمروه تدميرا بعد نهبه ثم دخل المدينة بلا ممانع ونادى أصحاب الشرطة على أتباع على بيك بلاط بان لايؤويهم أحد فكانت مدة غيبة محمد بك عن مصر سبعين يوما * فلما استقربه المنصب أرسل فقتل عبد الله كتخدا الباشا ونادى بابطال السكة التى كان ضربها على بيك باسمه وكانت قروشا وأنصاف قروش وكلها من النحاس قد صنعها المعلم رزق أحد قبط مصر وجعل يتصرف فى الامور وينظر فى مصالح البلاد ويعطى المناصب ويفرق الوظائف وغير ذلك * وبينما هو على هذا الحال من النقض والابرام اذ جاءه الخبر بخروج على بيك بلاط من الشام فى جيش عظيم يريد قتال محمد بيك فتهيأ محمد بيك للقائه وبرز بخيامه جهة العادلية ونصب صيوانه فأقام يومين حتى تكامل خروج العسكر وجاء الخبر بوصول على بيك بجنوده الى الصالحية فارتحل محمد بيك فى خامس صفر سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية فى جيش عظيم للغاية فالتقيا بالصالحية واقتتلا قتالا عنيفا جدا فكانت الدائرة على على بيك وأصحابه واصابته جراحة فى وجهه فسقط عن جواده فاحتاطوا به وحملوه الى مخيم محمد بيك فخرج اليه محمد بيك وتلقاه بأحسن لقاء وقبل يده وأخذ بيده حتى أجلسه بصيوانه وجلس بين يديه وكان القتلى فى هذه الموقعة كثيرين للغاية وقد قتل بينهم على بيك الطنطاوى وسليمان كتخدا وعمر جاويش وغيرهم من كبار جند على بيك بلاط وكانت هذه الموقعة فى يوم الجمعة ثامن شهر صفر من السنة ثم قفل محمد بيك راجعا بعسكره الى القاهرة ومعه أستاذه على بيك بلاط وأنزله فى بيته الكائن بالازبكية بدرب عبد الحق وحضر الاطباء لعلاجه فلم يلبث الا سبعة أيام ومات قيل انه سم فى جراحته ودفن عند أسلافه بالقرافة وزال وزالت دولته العظيمة * قال أصحاب الاخبار وكان شهما شجاعا مقداما فى الحروب داهية طاغية شديد البطش صعب المراس ثابت الجنان سريع الخاطر والانتقام فخلا الجو لمحمد بيك أبى الذهب واتسعت من هذا الحين شهرته وعلت كلمته واستتبت قدمه فى منصب الرياسة أو كادت * وجاء الخبر بعد هذا الحادث بقليل بولاية الوزير خليل باشا على ديار مصر فدخل القاهرة فى تاسع عشر ربيع من سنة سبع وثمانين (١) وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وكان وصوله من طريق دمياط فجلس فى ثانى يوم للناس فدخل عليه أرباب الديوان وأصحاب الوظائف فخلع عليهم الخلع المعتادة وجعل يتصرف فى الامور كما سيذكر مفصلا فى محله

مطلب
ولاية الوزير خليل باشا

(١) لم أجد فيما راجعته من مذكرات أصحاب التاريخ التى جمعت منها هذا المؤلف اسما لمن تولى مصر من الباشاوات بعد الوزير أحمد باشا الذى قدم من الحجاز فى سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف هجرية الى ولاية خليل باشا هذا التى هى سنة سبع وثمانين فصارت المدة الخالية زهاء خمس سنين والله أعلم اهـ مؤلفه

قال بعض أهل التاريخ واشتدت رغبة السلطان مصطفى فى رد ماأخذه المحاربون من المدن والامصار وجيش لذلك جيشا عظيما وعزم على الخروج به الى الدانوب فلم يتمكن لمرض أصابه ولازم الفراش فاشتدت به علته فلما أحس بقرب أجله استدعى اليه أخاه عبد الحميد وأوصاه بولده سليم وكان قاصرا ثم مات فى سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة تصرفه ست عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وكانت له عناية ومعرفة تامة بالعلوم الرياضية محبا لاهل العلم وله مؤلفات فى الرياضة تعرف باسمه وكان شهما حازما مهيبا أعماله مشهورة للغاية

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الاسكندرية بعد ان أقام ثمان عشرة سنة واشتد فى أيامه على بيك بلاط على النصارى شدة عظيمة وضيق عليهم جدا وصادر الكثير منهم ثم ضرب عليهم غرامة قدرها مائة ألف ريال كما تقدم القول فانبث أعوانه لجمعها وقد عاثوا وأفسدوا وفعلوا مالا خير فيه وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر والاحجار الكريمة بأبخس الاثمان وبموته أقيم بعده مرقس السادس بعد المائة وهو من رهبان ديرانبا بولا واسمه سمعان من بلدة قلوصنا وكان فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

ولما مات السلطان مصطفى تولى الملك بعده أخوه السلطان عبد الحميد بن السلطان أحمد

(الفصل العشرون)

(فى سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالامر بعد السلطان مصطفى أخوه السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد بويع له بالملك يوم موت أخيه سنة ثمان وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ خمسون سنة أمضى منها أربعا وأربعين فى السجن محجورا عليه لايجتمع عليه الا بعض الغلمان والاتباع ولايدرى من أحوال الدنيا شيأ فلم تكن فيه الاهلية لسياسة البلاد ولا القدرة على تدبير أمور المملكة فى ذلك الحين وقد كانت الاخطار تتهددها من كل جانب بسبب الحروب القائمة عليها من الداخل والخارج وكان السلطان مصطفى قبل موته قد جيش جيشا عظيما للزحف به على الروس واسترداد ماأخذ من أملاكه فاخترمته المنية قبل ذلك كما تقدم فلما تولى السلطنة السلطان عبد الحميد أمر بانفاذ جيش السلطان مصطفى وبالغ جدا فى تنظيمه وأعد له كل مايحتاجه من ذخيرة وميرة وأسلحة وكراع وكان زهاء أربعمائة ألف وسلم لواءه الى الصدر الاعظم فساروا والتقوا بجيوش الروس واقتتلوا فدب الفشل فى العساكر العثمانية وانحصروا فى مدينة شوملة لسوء تدبير الصدر

الاعظم وفساد رأيه فحاصرهم الروس وضيقوا عليهم جدا وكادوا يقتلونهم عن بكرة أبيهم فرأى الصدر أن يراسل قائد العساكر الروسية فى طلب الصلح فوافقه القائد على ذلك اذ كان كل من الطرفين يرى ان لاقبل له على اطالة زمن الحرب فعقدوا مجلسا فى مدينة بكرش وحرر المرخص العثمانى عهدا وأرسل صورته الى دار السلطنة وكان محصل مافى العهد المذكور اعطاء الحرية التامة للتتار وبقاء قلعة بكرش ويكى قلعة فى يد الروس وحرية سير السفن الروسية التجارية فى البحرين الابيض و الاسود فرضيت دولة الروس بشروط هذا العهد وتمسكت بها لاسيما ماجاء فيها من اعطاء التتار حرية فقد كان ذلك ماتتمناه وتسعى فى الحصول عليه وبناء على ذلك تساهلت هى أيضا للدولة العثمانية فى كثير من الامور ولكنها كانت طفيفة فى جانب مانالته هى * ولما شاع خبر هذا الصلح فى دار السلطنة هاج الناس وماجوا وخشى أكابر الدولة شر العاقبة وأنكروا قبول منح الحرية للقريم وسير السفن فى البحرين وقالوا الحرب والنار ولا هذا العار * قال بعض كتاب الاخبار وكان قصد الروس من منح الحرية للتتار انما هو ايقاد نار الفتنة فى القريم وبث روح التعصب والفساد كما فعلوا فى لهستان من قبل فاذا تم لهم ذلك سهل عليهم الاستيلاء عليها كما استولوا على ايالتى قزان وازدرهان قال ولم يمنعهم من العمل للمستقبل ماهو واقع من الخلل والارتباك الداخلى وعدم استقامة الاحوال فانه لما أخذت قيصرتهم كاترينة فى ادخال أولاد الناس فى صفوف الجند وأكثرت من المغارم والمكوس لنفقة الحروب أبغض الناس الحرب ونفرت قلوبهم منه وتولى الخراب على الكثير من مدنها وبلدانها وضج الناس وابتهلوا الى الله بزوال ملكها وأخذت من هذا الحين تذبل نضارة دولة آل عثمان وكادت تزول سلطتها من وراء الدانوب زوالا تاما فاشتد الامر على السلطان عبد الحميد وأعظمه جدا وكان منه ماسيذكر فى محله

مطلب عزل الوزير خليل باشا وولاية مصطفى باشا النابلسى

وجاء الامر عقب ولاية السلطان عبد الحميد بقليل بعزل الوزير خليل باشا من ولاية مصر وتوليته على جدة وقيام الوزير مصطفى باشا النابلسى من دار السلطنة ليتولى على مصر فحضر مصطفى باشا الى القاهرة فى أواخر جمادى الثانية من السنة وطلع الى قلعة الجبل وقيل انه سكن ببركة الفيل * والثانى أصح * وجعل يتصرف فى الامور فلم يقو على ذلك حيث كانت الكلمة والتصرف للامير الكبير محمد بيك أبى الذهب وأصحابه وكان وصول مصطفى باشا الى القاهرة والوقت فى هدو والحال فى سكون والقلوب مطمئنة والاقوات كثيرة والاسعار رخية ولكن كما قال الشاعر

وما الدهر فى حال السكون بساكن * ولكنه مستجمع لوثوب

ولما اطمأن قلب الامير محمد بيك بسكون الحال بعد موت استاذه على بيك بلاط تاقت نفسه الى غزو الشام واستخلاص مابيد الظاهر عمرو من المدن والبلدان فجيش لذلك عسكرا عظيما وبرز بخيامه الى العادلية وفرق الاموال على الامراء والعسكر وسيرهم فى البر والبحر وأنزل الذخيرة والميرة وأكثر من المدافع والقنابل الكبيرة وسار بنفسه مع هذا الجيش فى أوائل

المحرم افتتاح سنة تسع وثمانين ومائة وألف هجرية وسلم الامارة ونيابة الغيبة بمصر الى ابراهيم بيك أحد كبار مماليكه ثم ترك بقية الامراء ولم يصحبه منهم الا القليل فلما وصل مدينة غزة وشاع خبر وصوله خاف أهل البلاد ولم يظهروا امامه وتحصن أهل يافا وتحصن كذلك الظاهر عمرو بعكا فلما وصل محمد بيك الى يافا حاصرها وضيق عليها وشدد فامتنعوا عليه وحاربوه من وراء السور فحاربهم ورمى عليهم بالمدافع والمكاحل و واصل الرمى عدة أيام وليالى فكانوا يصعدون على الاسوار ويسبون المصريين وأميرهم سبا قبيحا فلم يزل المصريون يوالون الرمى بالقنابل حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل صوب وحدب وملكوها ونهبوها وقبضوا على أهلها وقيدوهم بالحبال والحديد وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ثم جمعوا الاسرى خارج البلد وذبحوهم ذبح الغنم ولم يميزوا بين صنوف الناس وبنوا من رؤس القتلى عدة صوامع و وجوهها بارزة والرياح تنسف عليها التراب ثم ارتحل عنها طالبا عكا فلما بلغ الظاهرعمرا ما وقع لاهل يافا اشتد خوفه وخرج من عكا هاربا وتركها وحصونها فوصل اليها محمد بك ودخلها من غير ممانع وأذعنت له باقى البلاد وأطاعته وهى صاغرة * فلما دانت له مصر والشام أرسل اسمعيل أغا الى دار الخلافة بهدايا وأموال عظيمة جدا ملتمسا امارة مصر والشام وكان السلطان يخشى استقلال محمد بيك بملك البلاد والخروج عن طاعته فأجابه على الفور الى ماطلب وأرسل اليه مع رسوله تقاليد الولاية والخلع والبيرق والداقم وجاءت له الاخبار بذلك وو ردت عليه البشائر بتمام الامر فوافاه ذلك يوم دخوله عكا فامتلأ فرحا فخم بدنه فى الحال فأقام محموما ثلاثة أيام ومات ليلة الاربعاء ثامن ربيع الثانى من السنة و وافى خبر موته دار السلطنة قبل قيام الرسول الذى كان يحمل التقاليد فانتقض الامر وردّت التقاليد وفرح السلطان بموته * وكان قد جمع اليه قبل موته الامراء ومقدمى الاجناد وأعلمهم بعزمه على السير الى الامام وفتح مايفتح الله به عليه من المدن والبلدان فشق الامر عليهم جدا اذ كانوا قد سئموا الحرب والابتعاد عن الاوطان فلم يجاوبوه بشئ خوفا منه * قال ناقل هذه الرواية وأقمنا على مانحن عليه من الغم والكمد الثلاثة الايام التى تمرض فيها وأ كثرنا لايعلم بمرضه ولا يدخل اليه الا بعض خواصه ولم يذكروا مرضه الا فى اليوم الثالث قالوا انه منحرف المزاج فلما كان فى صبح الليلة التى مات فيها نظرنا الى صيوانه وقد انهدم ركنه وأولاد الخزنة فى حركة ثم زاد الحال وجرد السيوف بعضهم على بعضهم بسبب المال وظهر أمر موته وارتبك العسكر وحضر مراد بيك فكفهم عماهم عليه وجمع كبراءهم فى الحال وشاورهم فاتفق رأيهم على الرحيل الى مصر فقاموا وقد غسلوا جثته وكفنوها ولفوها فى أقمشة ثخينة وحملوها على عربة وساروا طالبين الديار المصرية فدخلناها بعد ستة عشر يوما وكان دخولنا فى ليلة الاربعاء الرابع والعشرين من ربيع الثانى فارادوا دفن الجثة بالقرافة فحضر الشيخ الصعيدى وأشار بدفنه فى مدرسته تجاه الازهر فحفروا له قبرا بالليوان الصغير الشرقى و بنوه ليلا فلما

اصبحوا

أصبحوا خرجوا بجنازته من بيته الذى بقوصون ومشى امامه المشايخ والعلماء والامراء وجميع الاحزاب وأولاد المكاتب وامام نعشه مجامر العنبر والعود لاخفاء رائحة نتنه حتى واروه التراب اه واستقر أتباعه أمراء البلاد المشار اليهم فى الحل والعقد ومقدماهم ابراهيم بيك ومراد بيك وكانت عدتهم ستة عشر أميرا

مطلب
عزل مصطفى باشا وولاية الوزير ابراهيم باشا عرب كرلى وموته وولاية محمد باشا المعروف بالعزتلى الكبير

و وردت الاخبار بعزل مصطفى باشا النابلسى و ولاية الوزير ابراهيم باشا عرب كرلى فدخل القاهرة وسافر مصطفى باشا فى أواخر جمادى الثانية سنة تسع وثمانين ومائة وألف هجرية الى جدة ومات بالمدينة وكان وصول ابراهيم باشا المذكور الى القاهرة رابع شعبان سنة تسع وثمانين فنزل بامبابه وأقام بها ولم يكن له من الولاية سوى الاسم فقط والتصرف لابراهيم بيك ومراد بيك ومازال بامبابه حتى مرض ومات فدفن بالامام الشافعى وتولى بعده الوزير محمد باشا المعروف بالعزتلى الكبير فدخل القاهرة فى يوم الخميس سابع عشر ربيع الاول سنة تسعين فكان كمن سبقه محجورا عليه فى جميع أعماله ليس له من الولاية الا الاسم فقط والتوقيع على القصص والجلوس فى صدر الديوان * ولم تكن لتسكن الفتن بموت على بيك بلاط واسمعيل بيك الكبير حتى ظهرت فتنة أخرى بالجامع الازهر واشتدت نارها وارتفع لهيبها وكان سبب ذلك ان طائفة من المغاربة المجاورين بالازهر آل اليهم مكان موقوف فطلبوا استلامه واستغلاله فمانع واضع اليد وطعن فى الدعوى واستعان بالامير يوسف بيك من الامراء المقدمين ودافع عن المكان المذكور فرفع المغاربة أمره الى القاضى وترافعوا امامه فظهر الامر على خلاف مايشاء يوسف بيك فحنق لذلك ووسمهم بالغش وارتكاب الباطل وأرسل جماعة من أصحابه ليقبضوا على الشيخ عباس أحد المغاربة العاملين فى هذه القضية فطردهم المجاورون وسبوهم ولم يمكنوهم منه وأخبروا الشيخ الدردير بما جرى فكتب الشيخ الى يوسف بيك يمنعه من التعرض لاهل العلم ومعاندة الحكم الشرعى وأرسل المكاتبة صحبة اثنين من المشايخ فلما قرأ الرسالة غضب وأمر بالاثنين فقبضوا عليهما وأودعوهما السجن فوصل الخبر الى الشيخ الدردير وأهل الجامع فاجتمعوا فى صبح ثانى يوم وأبطلوا الدروس والاذان والصلوات وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة و صعد الصغار على المنارات يكثرون من الصياح والدعاء على الامراء وأصحابهم وأغلق أهل الاسواق القريبة الحوانيت وبلغ الامراء الخبر فأرسلوا الى يوسف بيك فأطلق المسجونين وأرسل ابراهيم بيك الى المشايخ بملازمة الهدو والسكون فلم يلتفتوا لقوله وسبوا رسوله فحضر الاغا الى الغورية ونادى بالامان وفتح الحوانيت فبلغ مجاورى المغاربة ذلك فذهب اليه جماعة منهم وتبعهم العامة والغوغاء وبأيديهم العصى والمساوق وضربوا أتباع الاغا ورجموا بالحجارة فركب الاغا عليهم وركبت مماليكه والسيوف بايديهم فقتل من مجاورى المغاربة ثلاثة وجرح منهم ومن العامة كذلك وبقى الهرج الى ثانى يوم فحضر اسمعيل بيك والشيخ السادات وعلى كتخدا الجاويشية وحسن أغا أغاة المتفرقان وغيرهم ونزلوا بالاشرفية وأرسلوا الى الجامع بانفضاض

الجمع وتمام المطلوب وكان ذلك عند الغروب فلم يرضوا وطلبوا الجامكى والمرتبات المتأخرة فرجعوا وأصبحوا والهرج فى ازدياد فعاد اسمعيل بيك ومعه الشيخ السادات وجلسا بالجامع المؤيد وأرسل الى المشايخ على يدى الشيخ ابراهيم السندوبى بان اسمعيل بيك المشار اليه قد تكفل بقضاء أشغال المشايخ وقضاء جميع حوائجهم وقبول فتواهم واعتبارها معمولا بها على كل حال مع صرف جامكيهم وجميع مرتباتهم المتأخرة وان الضامن له فى ذلك الشيخ السادات فلما وصل الشيخ السندوبى ومعه الكتاب قرأه الشيخ عبد الرحمن العريشى على رؤس الملا وهو قائم على الاقدام فلما سمعوه أكثروا الهرج والجلبة وعلت أصواتهم وقالوا لانقبل بذلك وترددت الرسل بين الفريقين بطول النهار ثم وقع الصلح وفتحت أبواب الجامع وعادت أموره الى ما كانت عليه وبعثوا لهم فى ثانى يوم مبلغا برسم الجامكى وقد اشترطوا عدم مرور الاغا والوالى والمحتسب من حارة الازهر وغير ذلك من الاشتراطات التى لم يتم منها شئ البتة * ولما سكنت الفتنة تتبع الاغا كل من كان له يد فيها من أولاد البلد فجعل يقبض عليهم واحدا فواحدا ويقتلهم خنقا وتغريقا ودفنا تحت التراب

ووقعت الوحشة بعد هذا الحادث بقليل بين اسمعيل بيك وبين مراد بيك الكبير لاسباب يطول شرحها فخرج اسمعيل بك مغضبا يريد العادلية مرتحلا عن مصر فخرج خلفه ابراهيم بيك الكبير وطيب خاطره وأرجعه فعاد وهو فى غيظ ولبث أياما والوحشة ضاربة أطنابها بينه وبين مراد بيك فعمد مراد بيك الى قتله واتفق مع جماعة من قومه على ان يركبوا عليه ويقتلوه فى بيته وعينوا لذلك يوما معلوما فعلم اسمعيل بيك بخفى سرهم وخاف على نفسه فحمل أثقاله وجمع متاعه وركب فى الصباح الى العادلية وجلس بالازبكية وركب مراد بيك ومر بمنزل اسمعيل بيك ليعرف خبره فوجده قد خرج الى الازبكية وكان ابراهيم بيك الكبير قد ذهب فى هذا اليوم الى قصر العينى فبلغه خبر خروج اسمعيل بيك فخشى عاقبة خروجه وشاع الخبر بذلك فخرج خلفه كثير من الامراء الناقين على مراد بيك وابراهيم بيك وكانت عدتهم خمسة أمراء ولحقوا به بالعادلية وعلم ابراهيم بيك ومراد بيك بذلك فركبا لساعتهما وركب معهما بعض الامراء من خواصهما وصعدوا الى قلعة الجبل وملكوا الابواب واستفاض الخبر فكثر الهرج وتوارد الامراء الى الرميلة واضطربت المدينة وأغلق الناس الدكاكين وأقفلت أبواب البيوت وانقطع الناس عن الخروج واستمروا على ذلك أربعة أيام بلياليها وخرج الكثير من أهل القلعة سرا ولحقوا بالامير اسمعيل بيك ويوسف بيك ومن معهما فأرسل لذلك أهل القلعة ابراهيم أغا الوالى فجلس بباب النصر لمنع خروج من يريد الالتحاق بأصحاب اسمعيل بيك وأغلق الباب ونزل الباشا الى باب العزب فحضر قاسم كتخدا أمين البحرين وعبد الرحمن أغا وهما من أصحاب الامير اسمعيل بيك ومعهما آخرون الى باب النصر وفتحوا الباب عنوة وطردوا الوالى ومن كان معه وملكوا الباب فأرسلوا لهما جماعة من العسكر المغاربة فاقتتل الفريقان وتفرق أصحاب اسمعيل بيك وجرح كثير من

المغاربة

المغاربة وانتشر أصحاب اسمعيل بيك حوالى القاهرة ومصر وسارت طائفة منهم الى بولاق القاهرة فصادفوا فريقا من العسكر يحمل علوفة الخيل التى بالمعسكر فهجموا عليهم وفرقوهم وأخذوا ما كان معهم من فول وتبن وتوجه فريق منهم أيضا الى المقطم فاشتدالحال وعظمت الفتنة وخاف الباشا شر العاقبة فسعى فى تدارك الامر قبل استفحال الخطب وأرسل الى اسمعيل بيك فى طلب الصلح فلم يقبل فراجعه وأرسل ولده اليه وكتخداه مرارا فلم يقبل

ودخل فى ثانى يوم عبد الرحمن أغا من باب النصر ومر من وسط المدينة وامامه المنادى ينادى على أصحاب الحوانيت برفع بضائعهم والتحذر فرفع الناس مابقى منها ولم يزل سائرا حتى وصل الى باب زويلة ونزل بجامع المؤيد ورتب عسكرا هناك على السقائف والاسبلة ثم سار من هناك فى جند كثير الى باب زويلة ومنه الى الدرب الاحمر الى جامع المردانى وزحفوا الى التبانة وعملوا متاريس بالقرب من المحجر ووضعوا بها عسكرا وكذلك فعلوا بناحية سويقة العزى فنزل اليهم بعض الجند الذين بالقلعة وأطلقوا عليهم النيران فدفعوهم برمى البنادق وقطعوا الطرق على من كانوا بالقلعة الى مابعد عصر اليوم فنزل اليهم بعض الفرسان المدرعة فحملوا عليهم وهزموهم أيضا وقتلوا منهم جماعة ورجع من بقى منهم الى القلعة على أعقابهم وما دخل غروب اليوم حتى انفصل عن القلعة جميع العسكر المغاربة وحملوا سلاحهم وانحدروا وانضموا الى من كانوا بالمحجر من أصحاب اسمعيل بيك ولاحت على أصحاب ابراهيم بيك ومراد بيك لوائح الخذلان وأصبحوا وقد دخل جماعة كثيرة من أصحاب اسمعيل بيك الى المدينة ورابطوا فى جميع الجهات حتى انحصر من بقلعة الجبل ولم يبق لخلاصهم سبيل وأخذوا ينقبون الاسوار فلما أحسوا بذلك وأيقنوا بالهزيمة انحدر ابراهيم بيك ومراد بيك وجماعة من الامراء ليلا من باب الميدان وذهبوا جهة البساتين الى الاقاليم القبلية وتخلف منهم جماعة فخرجوا الى اسمعيل بيك وخليل بيك وطلبوا الامان فلما شاع خبر هروب ابراهيم بيك ومراد بيك هجم المرابطون بالمحجر وسوق السلاح على الرميلة ونهبوا جميع خيامهم التى كانت بها وبالميدان ولم يتركوا شيأ حتى ولاجمال الباشا ودخل اسمعيل بيك ويوسف بيك بعد العصر من ذلك اليوم من باب النصر فى عدة من الجند والمماليك والاتباع وسارا الى بيوتهما وأصبح ثانى يوم فسار عبد الرحمن أغا فى الشوارع ونادى بالأمان والبيع والشراء فزال عن الناس بعض الخوف

* ولما كان يوم الأحد ثانى عشرى جمادى الثانية من السنة أى سنة احدى وتسعين صعد اسمعيل بيك ويوسف بيك الى الديوان فى كبكبة وزينة فخلع عليهما الباشا خلعتى سمور وولى اسمعيل بيك مشيخة البلد بدل ابراهيم بيك فتصرف وجعل يفرق المناصب العالية بين أصحابه وأصحاب يوسف بيك واتباعهما وقبضوا على الكثير من الامراء وأصحاب الوظائف على عهد ابراهيم بيك وأبعدوهم الى أقاصى البلاد ولم يلبث اسمعيل بيك ويوسف بيك طويلا على الاخاء والمودة حتى

قامت بينهما الشحناء وتبدل ودهما جفاء فجعل اسمعيل بيك يتدبر فى قتل يوسف بيك وما زال على هذا العزم حتى أرسل اليه جماعة من اتباعه الاخصاء ليقتلوه فى بيته فدخلوا عليه فوجدوه جالسا بالمقعد المطل على البركة فجلس أحدهم أمامه وجلس آخرون على شماله وجماعة بقوا واقفين يحادثونه ساعة لطيفة فى أمر من الامور وتناقشوا مع بعض بجدة فتأخر عنهم الواقفون من المماليك والاجناد فسحب أحدهم وهو عبد الرحمن بيك خنجرا وطعن به يوسف بيك فهم يوسف بيك ليدفع عن نفسه فداس على فروة من كان جالسا بجانبه فسقط على ظهره فقاموا عليه جميعا وضربوه بسيوفهم وأطلق أحدهم طبنجة على الواقفين من الخدم والاتباع ففروا من امامهم فنزلوا مسرعين من القيطون الموصل الى البركة وركبوا وذهبوا الى اسمعيل بيك وأخبروه بالخبر فركب فى الحال وصعد الى قلعة الجبل وأرسل الى الباشا وكان بقصر العينى يتنزه فركب من هناك وصعد الى القلعة وجلس بباب العزب مع اسمعيل بيك فلما بلغ أصحاب خليل بيك واتباعه خبر موت أستاذهم تلك الليلة ركبوا وخرجوا من المدينة يريدون الصعيد فاركب اسمعيل بيك خلفهم جماعة فلم يدركوهم فأرسل الى من تخلف منهم فاختفوا ثم خرجوا ولحقوا بمن فر * وجاءت الاخبار فى هذه الاثناء بعزل محمد باشا العزتلى وتولية الوزير اسمعيل باشا فدخل القاهرة فى يوم الاثنين سادس ذى القعدة من السنة وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل ودخل عليه اسمعيل بيك الكبير وباقى الامراء فخلع على اسمعيل بيك خلعة سمور وأقره على مشيخة البلد وتدبير الدولة والتصرف فى الامور فرسم اسمعيل بيك بعد ذلك بجمع العسكر والجنود لقتال من هرب من أصحاب يوسف بيك ومن انضم اليهم من الامراء الهاربين بالاقاليم القبلية واهتم بذلك وسلم قيادة هذه الحملة الى اسمعيل بيك الصغير وبرز العسكر الى البساتين ونصبوا خيامهم أياما ثم ساروا فى البر والبحر فالتقى الجمعان عند بياضة تجاه بنى سويف واقتتلا قتالا عنيفا انكشف عن هزيمة أصحاب اسمعيل بيك وتمزيق جمعهم فرجعوا الى القاهرة على الاعقاب ودخلوها فى أسوإ حال وأخذت جميع خيامهم وأسلحتهم ومراكبهم وكانت نيفا وخمسمائة وكان مقدم عسكر اسمعيل بيك فى حراقة صغيرة فلما انهزم العسكر انحدر الى القاهرة وكذلك بقية الامراء انحدروا فيما لحقوه من المراكب وكان اسمعيل بيك بالفسطاط فلما علم بخبر حضورهم على هذا الحال من الهزيمة حزن حزنا كبيرا وأحس بزوال دولته ونزل الباشا من قلعة الجبل وخرج الى الآثار ونادوا فى الناس بالنفير العام فخرج القاضى والمشايخ والتجار وأرباب الصنائع والمغاربة وأهل الحارات كافة وأغلقت الاسواق حتى ملؤا الفضاء فلما عاين ذلك اسمعيل بيك وعلم انهم يحتاجون الى المال والميرة فضلا عن الذخيرة اختار منهم طائفة المغاربة والترك وصرف من بقى من العامة وأرباب الحرف والمشايخ وأصحاب الاشاير والفقراء ووصل الامراء من الصعيد الى حلوان وتعلقت آمالهم بالاستيلاء على مصر والقاهرة بعد تلك النصرة العظيمة التى انتصروها فأرسل اليهم اسمعيل بيك جيشا عظيما من الترك والمغاربة

مطلب
عزل محمد باشا العزتلى وولاية الوزير اسمعيل باشا

ومعهم المدافع الكبيرة فنصبوا متاريسهم مابين التبين وحلوان تجاه العدو وركب فى ليلتها اسمعيل بيك وأمراؤه وأجناده وكان الباشا قد استحضر من ثغر دمياط مركبا حربيا يحمل خمساوعشرين مدفعا وكان ربانه ذا خبرة تامة بالحرب وفنونه اسمه حسن الغاوى فأقلع به ليلا تجاه المعسكر وارتفع حتى تجاوز مراكب العدو وأطلق المدافع على معسكرهم برا وعلى مراكبهم بحرا وساق بجميع المراكب بما فيها واشتد الجلاد بين الفريقين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها كثير من الامراء أعداء اسمعيل بيك وانهزموا شر هزيمة وهرب ابراهيم بيك الكبير ولم يظهر مراد بيك الكبير بسبب جراحته وهم أصحاب اسمعيل بيك على خيامهم ومعسكرهم فنهبوه بجميعه وفر من بقى منهم الى الاقاليم القبلية فساقوا خلفهم فلم يدركوهم ودخل اسمعيل بيك بعساكره القاهرة منصورا مؤيدا ولم تكن لهم هذه النصرة فى حساب فكان رجوعهم فى يوم الاربعاء غرة شعبان من السنة

واستوحش اسمعيل بيك الكبير من اسمعيل بيك الصغير بعد ذلك حيث ظهر عليه فى أحكامه وأوامره فكان كلما أصدر أمرا عارضه فيه ورده عنه بل عمل على خلافه حتى ظهرت كلمته وعلت وتزاحم الناس على بابه وأقبل اليه أصحاب الظلامات والدعاوى وانضم اليه الكثير من الكشاف والامراء وحدثته نفسه بالانفراد والاستقلال بحكم البلاد فآنس ذلك منه اسمعيل بيك الكبير فتركه وشأنه وأظهر انه رمد بعينيه وانقطع عن الخروج من أول شهر رمضان ثم خرج فى أواخره الى زيارة السيد أحمد البدوى ثم رجع وجمع اليه خواصه وشاورهم فى أمر قتل اسمعيل بيك الصغير وكاشفهم بما فى نفسه فاتفقوا على قتله ودبروا لذلك تدبيرا * فلما كان ليلة التاسع والعشرين من رمضان ركبوا فى آخر الليل ومعهم طائفة من العساكر والاجناد وأحاطوا ببيت اسمعيل بيك المذكور فأحس بهم وركب فى مماليكه وخرج فوجد الطرق كلها مزدحمة بالجند فدخل من عطفة الفرن يريد الفرار وخرج الى قنطرة عمر شاه فوجد الجند امامه وخلفه فصار يقاتلهم ويدفع عن نفسه من عطفة الى عطفة حتى وصل الى عطفة البيدق وقد أصيب بضربة سيف على كتفه وسقطت عمامته وصار حاسر الرأس والدم يسيل منه الى أن وصل تجاه درب عبد الحق بالازبكية فلقيه عثمان بيك أحد خواص اسمعيل بيك الكبير فرده وسقط عن فرسه فاحتاطوا به ونزل على دكان أحد السوقة وهو فى أسوإ حال فعصبوا رأسه بعمامة رجل جمال كان فى الطريق وحمله عثمان بيك الى بيته وتركه وذهب الى اسمعيل بيك فأخبره بخبره فخلع عليه فروة سمور وأعطاه فرسا مرختا وأمر الوالى فذهب اليه وقتله خنقا ثم وضعوه فى تابوت وأرسلوه الى بيت صغير كان له فبقى به الى الصباح فأخرجوه ودفنوه بغير احتفال بجنازته * ورسم اسمعيل بيك بالقبض على أشياع اسمعيل بيك المقتول وأنصاره وابعادهم الى أقاصى البلاد فأبعدوا منهم جماعة كثيرة وصادروهم وقتلوا منهم آخرين بعضهم ببولاق القاهرة وبعضهم بغيرها * ولم يطمئن قلب اسمعيل بيك الكبير بموت اسمعيل بيك الصغير وتشريد أنصاره حتى جاءه الخبر باشتداد ازر

الامراء الهاربين فى الاقليم القبلى واستفحال أمرهم وانهم تملكوا جميع البلاد التى من جرجا الى فوق وقبضوا الخراج ومنعوا ارسال الغلال فأخذ اسمعيل بيك فى تجييش الجيوش وإعداد المعدات وضرب لذلك المغارم على القرى فجعل على كل قرية منها ثلثمائة ريال وأمر جميع الامراء بالتأهب والاستعداد للخروج وخرج هو الى دير الطين يريد السفر وكذلك رسم الباشا لجميع الامراء وأرباب المناصب العسكرية فخرجوا جميعا ونصبوا خيامهم عند معادى الخبيرى ونزل الباشا من قلعة الجبل وجلس بقصر العينى وساروا وسار معهم اسمعيل بيك وقد ترك بالقاهرة جماعة من الامراء من خواصه الذين يعتمد عليهم ورسم لمقادم الابواب بأن يطوفوا فكانوا يطوفون بالاجناد فى الحارات ليلا ونهارا * فلما وصل اسمعيل بيك بعسكره الى منية ابن خصيب لم يجد للعدو بها أثرا وعلم انهم ساروا الى مدينة أسيوط ومعهم اسمعيل أبو على أحد كبار الهوارة فسار لقتالهم وبينما هو يجد السير الى أسيوط جاءه الخبر من القاهرة باتحاد جماعة من الامراء الذين تركهم بها لتدبير أمورها على الانضمام الى ابراهيم بيك ومراد بيك وكان زعيم هذه العصابة حسن بيك الجداوى ومعه جميع أصحابه ووافقهم على ذلك أيضا حسن بيك سوق السلاح وأحمد بيك شنن وأصحاب القلاع بأسرهم فلما تحقق ماوراء ذلك هاله الامر جدا وركب من ساعته بمن معه وانحدر يريد القاهرة وجدّ حتى دخلها فلم يشعروا الا وهو فى وسطهم وبات ليلته وأصبح فأمر بمنع المعادى من التعدية وصعد فى ثانى يوم الى قلعة الجبل وعقد الديوان بحضرة الباشا فاجتمع جميع الامراء وأرباب الوجاقات والمشايخ وتكلموا فى أمر قتال المحاربين وفيما ظهر من الفتنة بالقاهرة وطال الكلام بينهم فلم يتفقوا على أمر ما وتفرقوا وأخذوا فى توزيع متاعهم وقد اضطربت أحوالهم وأصبح اسمعيل بيك وقد جمع تجار البهار والمباشرين من الاقباط وطلب منهم مالا قرضة لنفقة الحرب وشدد فى الطلب وأرهب وتوعد * وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بوصول طلائع أصحاب ابراهيم بيك الكبير ومراد بيك الى البساتين وأن قد وصل بعضهم الى الجيزة فلما تحقق ذلك وقد كان على أهبة الفرار أمر اتباعه بحمل متاعه والخروج به خلفه وخرجوا تباعا من بعد العصر الى الساعة الرابعة من ليلة الثلاثاء رابع عشر المحرم من السنة أى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية ونزلوا بالعادلية وخرج معه جميع خواصه من الامراء والمماليك والاتباع وبات الناس تلك الليلة فى وجل ماعليه من مزيد وأصبحوا فعلموا بخروجهم فاندفعت عند ذلك العامة على بيوتهم ونهبوا ماوجدوه فيها أما هم فانهم ساروا فى صبح اليوم قاصدين الديار الشامية وزالت دولة اسمعيل بيك المذكور فكانت مدة تصرفه فى الامارة على مصر فى هذه المرة ستة أشهر وأياما لاغير

وعلم ابراهيم بيك الكبير ومراد بيك بخبر خروج اسمعيل بيك من القاهرة فعبر مراد بيك ومصطفى بيك وآخرون النيل فى ذلك اليوم الى مصر القديمة ومروا من وسط المدينة ونودى

بالامان

بالامان وأرسل ابراهيم بيك يطلب من الباشا الامر بدخولهم القاهرة فأرسله اليه صحبة ولده وكتخداه فدخل ابراهيم بيك و بات ليلته تلك بقصر العينى وكذلك بقية الامراء ثم ركب ابراهيم بيك الى بيته ومعه اسمعيل أبوعلى أحد كبار الهوارة وأصبحا وقد صعدا الى قلعة الجبل فقابلهما الباشا وخلع عليهما خلع القدوم ثم استدعى الباشا ابراهيم بيك ثانية وخلع عليه وأقامه فى منصب مشيخة البلد كما كان من قبل فلما استقرت بها سلم الوظائف العالية الى أصحابه وخواصه فانقسم من هذا اليوم الامراء بمصر الى قسمين الاول أصحاب حسن بيك الجداوى ومن كان معه من الامراء الذين نكثوا العهد مع اسمعيل بيك الكبير وانضموا الى عصابة ابراهيم بيك ومراد بيك كما تقدم وسمى هذا القسم بالعلوية والثانى أصحاب ابراهيم بيك ومراد بيك الاولين وسمى بالمحمدية فكان فريق العلوية شامخ الانف على المحمدية يرى المنة لنفسه والفضيلة لانه لولا مابدا منه من الانحراف وخذله اسمعيل بيك مادخل المحمدية قط الى مصر ولاعادت اليهم الامور فكان المحمدية لايتصرفون فى أمر من الامور الا باذن من العلوية وبرأيهم فكانوا مغلوبين على أمرهم محجورا على تصرفهم * واتفق ان حضر بعد قليل من الايام ابراهيم بيك أوده باشى وهو ممن كانوا هربوا الى غزة مع اسمعيل بيك الكبير وكان قد طلب الاجازة بالرجوع فأذنوا له فدخل بيته واعتزل عن الناس ولبث منكمشا أياما ثم لم يلبث بعدها الا قليلا حتى اتهمه رضوان بيك بالموالسة وانه انما هو جاسوس من قبل اسمعيل بيك وعمل على تبعيده فاستجار أوده باشى المذكور بمراد بيك والتجأ اليه فطمن خاطره وخفف عنه وهون عليه فحرك ذلك ساكنا فى قلوب العلوية وفشت الوحشة بينهم وبين المحمدية وأخذت تزداد يوما عن يوم الى أن خرج مراد بيك يوما ومعه بعض خواصه الى ضرب النشاب فجعل يكلمهم فى أمر العلوية وتصديهم لسائر الامور وتغلبهم عليها وغير ذلك ويظهر الغيظ والكمد فبينما هو على هذا الحال اذ أقبل عليه عبد الرحمن بيك وعلى بيك الحبشى وهما من العلوية وجلسا عنده برهة فلما أرادوا الانصراف أشار مراد بيك الى بعض أتباعه بأن اقتلهما فوثب عليهما وطعن عبد الرحمن بيك فقتله وهرب الحبشى واختفى فى بعض الاشجار ففروا به ولم ينظروه فركب مسرعا ودخل على حسن بيك الجداوى وأخبره بما جرى فجمع حسن بيك أصحابه وخواصه وجميع الامراء المتحدين معه وشاورهم فى الامر فاتفقت كلمتهم على القتال والترس فى بيت الجداوى فتترسوا به وعملوا متاريس أيضا بباب زويلة وناحية باب الخرق والسروجية والقنطرة الجديدة وجاء الخبر الى مراد بيك بما هم عليه من التأهب للقتال فجمع أصحابه وخواصه وكانوا عدة كبيرة وركب ابراهيم بيك الكبير من قبة العزب وصعد الى قلعة الجبل وملك الابواب وصوب المدافع نحو بيت الجداوى بالداودية وانتشبت الحرب بينهم طول النهار فأغلقت الاسواق وأقفلت كافة الدكاكين وباتوا على ذلك ليلة الاحد وأصبحوا واطلاق المدافع والبنادق متتابع وهم يزحفون على بعضهم تارة ويتقهقرون أخرى وينقبون البيوت على من يكون داخلها منهم

فسقطت بسبب ذلك عدة دور وتهدمت بأصحابها فمات خلق كثير تحت الردم وكثر النهب والحريق والقتل واختل النظام فتطاولت أيدى العامة الى أصحاب البيوت وقام الخصم على خصمه فقتله من غير مراقب ولا ممانع وتسلق جماعة من المحمدية من الخليج وصعدوا الى جامع الحين من بين المتاريس وفتحوا بيت عبد الرحمن أغا من خلف وملكوه ووضعوا عليه المدافع ورموا بها على بيت الجداوى تباعا فأيقن العلوية بالغلبة وأحسوا بالهزيمة فركبوا وخرجوا من باب زويلة الى باب النصر فركب خلفهم المحمدية وأعملوا فى أقفيتهم السيف فقتلوا منهم خلقا ومات أغلب كبارهم وهرب حسن بيك الجداوى ورضوان بيك وكان ذلك وقت القائلة من يوم الاحد وكان يوما شديد الحر ولم يمت أحد من المحمدية بجراحة سوى مصطفى بيك الكبير بعد أيام قلائل

وسار حسن بيك ورضوان بك فى طائفة قليلة على وجوههم هائمين فخرج عليهم جماعة من العربان وقاتلوهم قتالا شديدا ومزقوهم فتخلص رضوان بيك وذهب بخاصته الى شبين الكوم وتتبع العربان اثر حسن بيك الجداوى وضيقوا عليه المسالك حتى قبضوا عليه وأخذوا ما معه وجردوه وشدوا وثاقه ثم قادوه بينهم ماشيا على أقدامه وهو حاف وأرسلوا الى الامراء بمصر من يخبرهم بخبره فبعث اليه ابراهيم بيك بمن يستحضره فسار معه حتى دخل القاهرة ثم أفلت منه وسار الى بولاق ودخل الى بيت الشيخ أحمد الدمنهورى فرجع الرسول وأخبر بذلك فركبت طائفة من المحمدية وذهبوا الى دار الشيخ الدمنهورى وطلبوه فامتنع من تسليمه فلم يجسروا على أخذه قهرا واشتد به الخوف فصعد الى سطح البيت وتسلق الى سطح آخر ولم يزل حتى نزل بالقرب من وكالة الكتان فصادف بعض المماليك فضربه وأخذ حصانه وركبه وذهب مسرعا يريد النجاة فشاع خبر هربه فركبت الجند خلفه وسدّوا عليه المسالك وهو يدافع ولم ير للوصول الى الفضاء سبيلا فعاد الى المدينة ثانيا وذهب الى بيت ابراهيم بيك وكان جالسا مع مراد بيك فاستجار بابراهيم بيك فأجاره وأمنه ولبث فى بيته خمسة أيام وهو مفقود الشعور فلما أفاق وحسنت حاله رسموا له بالذهاب الى جدة وبعثوا به الى السويس فى محفة فلما نزل بالمركب وأقلعت به طلب من ربانها أن يذهب به الى القصير فامتنع الربان من ذلك فتهدده بالقتل فسار به وأنزله هنالك فترفع الى الصعيد واختفى خبره ثم أمر ابراهيم بيك ومراد بيك بتبعيد من بقى من العلوية فأبعدوهم الى رشيد ودمياط وشبين وغيرها ثم سيروا جماعة فقتلوهم جميعا ولم يبقوا على أحد منهم * ولم تكد تسكن الفتنة حتى أحس ابراهيم بيك الكبير بانحراف من الباشا وتدليس مع اسمعيل بيك الكبير فاجتمع بمراد بيك وكلمه فى ذلك فاتفقت كلمتهما على تنزيله من قلعة الجبل والحجر عليه فأرسلوا له أرباب الوجاقات يأمرونه بذلك وان يسكن فى بيت حسن بيك الجداوى بالداودية فامتنع فأمر ابراهيم بيك الجند بالركوب عليه فطلعوا الى حوش القلعة فلما علم الباشا بحضورهم خاف ونزل من ساعته الى الداودية فأنزلوا خلفه خدمه ومتاعه فى ذلك اليوم

وهو يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الثانية من السنة أى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية فكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر

مطلب
خلع الوزير اسمعيل باشا وولاية اسمعيل باشا الثانى

وجاء الخبر بولاية اسمعيل باشا (لعله اسمعيل باشا الثانى) فذهب اليه الملاقون وأرباب العكاكيز وأصحاب المناصب فحضر فى يوم السبت خامس المحرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين وبات بأمبابه ليلته تلك ثم أقام بالعادلية الى يوم الثلاثاء ودخل بالموكب من باب النصر ومر بالقاهرة وصعد الى القلعة فى الكبكبة المعتادة ولم تكن الاحوال على مايرام من الهدء والطمأنينة فلم يبرم أمرا ولم يأت عملا اذ كان مغلوبا على أمره والكلمة يومئذ لابراهيم بيك الكبير ومراد بيك ولم يستقر بالباشا المقام حتى جاء الخبر باستفحال أمر حسن بيك ورضوان بيك بالاقليم القبلى وانهما جمعا جموعا كبيرة وانحدروا الى جرجا وانضم لهم من العربان أولاد همام والجعافرة واسمعيل أبو على وانهم سينحدرون الى مصر فكلم الباشا ابراهيم بيك ومراد بيك فى ذلك فأعلماه بالخبر وجعلوا من هذا الحين يجيشون الجيوش ويعدون المعدات وسيروها مع أيوب بيك الصغير وسار خلفهم كذلك مراد بيك فلما وصلوا جرجا رجع حسن بيك بمن معه الى الوراء فأقام مراد بيك بالعسكر فى جرجا الى أوائل رجب من السنة وأخذ يعمل الحيلة حتى قبض على اسمعيل أبو على أحد مشايخ العرب وقتله ونهب ماله وعبيده ثم رجع الى القاهرة واختفى خبر حسن بيك وأصحابه بعد ذلك ولم يعلم لهم مستقر ووافق وصول مراد بيك الى القاهرة من هذه الغزوة الصغيرة أوان خروج الحاج فتولى الامارة عليه وأخذ يتأهب فكثرت الطلبات وجمع الاموال والاحتياج للجمال والبغال والحمير فكانوا يأخذون بغال الناس ومن وجدوه راكبا على بغلة أنزلوه عنها وأخذوها بلا ثمن وان كان من أصحاب المظهر دفعوا له ثمنا زهيدا فضج الناس وأخفوا دوابهم حتى سافر ركب الحاج وخرج مراد بيك فى كبكبة وزينة وخرج معه عدة كبيرة من الامراء والصناجق ومشوا فى ركابه وبعد خروج الحاج بأيام قليلة* جاء رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى بخلع اسمعيل باشا عن ولاية مصر وقيامه إلى جدة وتولية ابراهيم باشا والى جدة واليا على مصر فنزل اسمعيل باشا من يومه من قلعة الجبل وسكن بمصر القديمة شهرا ثم تحول الى العادلية ليسير منها الى السويس ويذهب الى جدة فقدر الله بموت ابراهيم باشا فى جدة فجاء الى اسمعيل باشا مرسوم السلطان ببقائه على ولاية مصر ففرح بذلك وقد كان لايود الخروج منها وركب فى موكبه وطلع الى القلعة فى كبكبة وابهة زائدة ودخل اليها من باب الجبل فلما استقر به المنصب تاقت نفسه الى التصرف والانفراد بالامر فنهاه ابراهيم بيك عن ذلك فأظهر الطاعة ولكنه كان يعمل على خلاف ذلك جهد الاستطاعة فنهاه ابراهيم بيك ثانية وثالثة فلم يرعو فأرسل يأمره بالنزول من قلعة الجبل فلم يربدا من الطاعة ونزل الى مصر القديمة ولبث بها وتولى ابراهيم بيك النيابة فكانت مدة ولايته الثانية ثمانية أشهر تنقص ثلاثة أيام وهو من أصحاب القلم وكبار الكتاب فى دار السلطنة قال بعض أهل التاريخ وكان مراد بيك الكبير من مماليكه

مطلب
ورود الامر السلطانى بعزل اسمعيل باشا ثم رجوعه الى الولاية ثانى

فباعه لبعض التجار معاوضة وحضر الى مصر ورافقته العناية والعناية صدف حتى صار أمير البلاد وكبيرها وحضر سيده هذا فى أيام امارته فلم يراع له حرمة وعزله من الولاية لاسباب لم تعلم ولكنه كان يتأدب معه كثيرا ويهابه ويذكر سيادته عليه وكان اسمعيل باشا هذا رئيسا عاقلا ذا رأى وتدبير * وجاء عقب ذلك بأيام مراد بيك ودخل بالحاج وهم فى أسوإ حال مما قاسوه بالطريق من العربان فقد فعلوا معهم مالا خير فيه وسدوا عليهم الطرق وأخذوا منهم كل ماوصلت اليه أيديهم من الدواب والمتاع وأعقب دخولهم ورود الاخبار بظهور حسن بيك ورضوان بيك ثانية واستفحال أمرهما وانضمام الكثير من الجند والعسكر والعرب وغيرهم من اتباع اسمعيل بيك الكبير الى جموعهم نخاف ابراهيم بيك ومراد بيك شر العاقبة وجمعا جيشا ضخما وسار به مراد بيك ومعه بعض الامراء من خواصه وطلبوا الاموال وصادروا الكثير من التجار وأصحاب المظاهر وجمعوا المراكب وبرزوا بخيامهم الى جهة البساتين فجاءهم الخبر بحضور اسمعيل بيك الكبير من الديار الرومية خفية الى الاقاليم القبلية فانزعج مراد بيك من هذا الخبر وأكبره وسار مسرعا بعسكره الى الصعيد فكان كلما اقترب من مقامهم رحلوا الى آخر واذا حل بعسكره فى محلة حلوا هم كذلك قباله ولبثوا على هذا الحال أشهرا ولم يقع بين الفريقين حرب ولا قتال ثم خابروه فى الصلح فرضى به وتقررت القاعدة بينهم على اعطاء اخميم لاسمعيل بيك الكبير مع جميع أعمالها وقناوقوص واعمالهما الى حسن بيك واسنا الى رضوان بيك فلما تم الصلح على هذه القاعدة أرسل اليهم الهدايا والتقادم ورجع بعسكره الى القاهرة ومعه ابراهيم بيك قشطة صهر اسمعيل بيك الكبير وسليم بيك أحد صناجقه رهنا على عدم التظاهر والخروج فكانت مدة غيبة اسمعيل بيك ثمانية أشهر وأياما

مطلب
عزل اسمعيل باشا وولاية محمد باشا

وبقى اسمعيل باشا الوالى معتقلا فى دار بمصر القديمة حتى جاء الخبر بولاية محمد باشا ملك فدخل محمد باشا القاهرة أواخر صفر سنة خمس وتسعين ومائة وألف وصعد الى قلعة الجبل وخرج اسمعيل باشا من حبسه وسار الى الديار الرومية فلم يكن لمحمد باشا من حظ الولاية أكثر مما لغيره اذ كان كلما هم بالنظر فى الامور والتصرف فى الولاية وأحوال الدولة رأى من ابراهيم بك خصما عنيدا ومانعا لايتحول فلازم الانكماش واتبع سنة أسلافه واقتصر على مابيده من التوقيع على المراسيم الديوانية بدون بحث ولا تنقيب *وأعلمه مراد بك بعزمه على الخروج الى بلاد الشرقية وقراها فأجاز له ذلك كارها فسار الى بلاد الشرقية وطافها وضرب على أهلها المغارم الثقيلة والاموال الكثيرة والكلف الباهظة وصادر الموسرين منهم وحول عليهم أصحاب الجباية وأعوان المغارم حتى ضج الناس واستغاثوا ورفعوا أصواتهم باللعن والسب ثم نزل الى الغربية وفعل بها كذلك ثم الى المنوفية ثم الى غيرها فكان تطوافه بالبلاد على هذا الحال أشد هولا من هول الطاعون وأصعب على أهل البلاد * وتمكن سليم بيك وابراهيم بيك قشطة صهر اسمعيل بيك الكبير فى غيبة

مراد

مراديك هذه من الاتفاق مع جماعة من الامراء الذين ضاقت بهم الاسباب واشتدت عليهم الخطوب على الفرار والهروب فخرجوا ليلا على الهجن وجرد الخيل وهم نحو الثمانين وساروا الى الصعيد وأصبح الخبر شائعا بذلك فارتبك ابراهيم بيك ونادى الاغا والوالى فى الناس بترك المشى بعد العشاء وملازمة الناس لبيوتها فخاف الناس وكثر اللغط وتنوعت الاقوال وكادت تتعطل أسباب الرزق وتتوقف المعاملات واشتد الخوف بالناس حتى انهم أغلقوا حوانيتهم نهارا ولم تسكن الخواطر حتى شاع خبر طلب محمد باشا ملك الى دار السلطنة ليتولى صدارة الدولة وكانه هو الباعث على هذا الخوف والاضطراب فنزل محمد باشا من قلعة الجبل فى موكب عظيم فى منتصف شعبان من السنة وأقام بقصر العينى بقية شعبان وسافر الى الاسكندرية فى غرة رمضان فكانت مدة ولايته ثلاثة عشر شهرا ونصفا وهاداه جميع الامراء بالهدايا النفيسة وكان من أفاضل العلماء متضلعا من الفنون والآداب وكان شيخا جليلا متواضعا لابأس به * وقدم على باشا القصاب واليا ودخل القاهرة فى أواسط رمضان أوفى عاشر شوال وصعد الى قلعة الجبل مارا من الصليبية خلافالعادة أسلافه فلما استقر به المقام تحجب عن الناس الا القليل ولم يتعرض لشئ من أمور الدولة وقد زاده تحجبا وامتناعا اللغط المستمر والاقوال الشائعة برجوع اسمعيل بيك الكبير ومن معه الى شق عصا الطاعة وتطواف الوالى كل قليل من الايام يكرر المناداة على الناس ويشدد بملازمة بيوتهم ليلا * وانحرفت خواطر الامراء والصناجق الذين بمصر على ابراهيم بيك ومراد بيك من فعالهما ولا سيما فعال مراد بيك وبدت منهم أمارات الوحشة فخرج منهم أيضا جماعة كثيرة ولحقوا باسمعيل بيك بالصعيد ولم يبالوا بوعيد مراد بيك ولا بتهديده فكبر خوفه مع ابراهيم بيك وأخذا فى جمع العساكر واعداد آلات الحرب وعزم مراد بيك على الخروج بهذه الجملة فطلب الاموال وقبض على مساتير الناس والتجار وحبسهم وصادرهم فى أموالهم وأخذ مابأيديهم فجمع من المال ماجاوز الحد وكانت مغارم القبطة فى هذه المرة شيأ كثيرا جدا ثم برز بخيامه فى منتصف ربيع الآخر من السنة أى سنة سبع وتسعين الى جهة البساتين وخرج معه جماعة من الامراء وساروا الى الصعيد فلما صاروا على مقربة من العدو فشل أصحاب اسمعيل بيك وانصرمت حزمتهم وتركهم رضوان بيك وجاء الى مراد بيك طائعا فقبله وأبقاه عنده وقد تشتتت بانفصاله عنهم عصابتهم وتمزق شملها وساروا الى الجهات القبلية فرجع مراد بيك الى القاهرة وسلم قيادة العسكر الى ثلاثة من الامراء وهم مصطفى بيك وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان بيك الاشقر فلم يستقر به المقام بالقاهرة حتى وقف على سر مؤامرة أخرى من بعض أمرائه وأمراء ابراهيم بيك ومماليكه ومماليك ابراهيم بيك فعاجلهم بالنفى والتشريد بعضهم الى المنصورة والمحلة وبعضهم الى السرو ورأس الخليج والبحيرة وغيرها وكان بينهم ابراهيم أغا الوالى

وجاء فى غضون هذا الحادث الخبر بخلع على باشا القصاب وولاية محمد باشا

مطلب
عزل محمد باشا ملك وولاية على باشا القصاب

مطلب
عزل على باشا القصاب وحضور محمد باشا السلحدار وقيل الصابونجى واليا

السلحدار وقبل محمد باشا الصابونجى فنزل على باشا من قلعة الجبل الى قصر العينى وأقام به ينتظر حضور محمد باشا فحضر كتخداه ومعه مرسوم بالنيابة الى ابراهيم بيك وخلعه فتولى ابراهيم بيك النيابة وجعل يتصرف فى جميع الامور ويوقع على القصص وغير ذلك ووصل الخبر بذلك الى جميع الامراء المنفيين بالمنصورة والمحلة ورأس الخليج وغيرها فاجتمعوا وساروا معا الى الاقليم القبلى يريدون اللحاق باسمعيل بيك ومن معه فأرسل عند ذلك ابراهيم بيك فرمانا الى عثمان بيك الشرقاوى باستقرارها كما على جرجا وقد كان تركه مراد بيك مع العسكر على ماتقدم بيانه وشدد عليه بمراقبته الاحوال ومنع تظاهر الامراء المذكورين فتكفل عثمان بيك بذلك وجعل يتصرف فى الامور أياما كانت فيها رسل اسمعيل بيك ومن معه لاينكفون عن الاجتماع به والتكلم معه فى أمر انضمامه الى عصابتهم وما زالوا به حتى انضم اليهم فتقوى جانبهم واجتمعت به كلمتهم فلما علم ابراهيم بيك بذلك هاله الامر واستعظمه للغاية وأرسل الى كبارهم يؤمنهم ويمنيهم بالامانى الكبيرة ويستميلهم الى عقد الصلح فامتنعوا فطلب ابراهيم بيك حضور عثمان بيك الشرقاوى ومصطفى بك فامتنعا أيضا وقالا لانحضر الااذا عاد اخواننا الى مناصبهم وعادت اليهم إقطاعاتهم وأرزاقهم والا دافعنا عنهم حتى يقضى الله بيننا فخشى ابراهيم بيك ومراد بيك العاقبة وجهزا لذلك عسكرا عظيما وجعلوا يفتشون بيوت جميع الامراء المبعدين ويأخذون كل مافيها فكان شيأ كثيرا من غلال ومتاع ثم برز ابراهيم بيك بخيامه مع العسكر يريد المسير لقتال الخوارج وجمعوا سائر مراكب النقل وأوقفوها وجمعوا جميع الملتزمين وأصحاب المزارع وأخذوا منهم أموالا جزيلة وسار ابراهيم بيك بالعسكر فى كبكبة وتجمل فلما اقترب من الاعداء راسلهم وطلبهم الى الصلح فأجابوه اليه وتقررت القاعدة بينهم على رجوعهم الى القاهرة واعادة اقطاعاتهم اليهم فحضروا جميعا فى سادس عشر ذى القعدة من السنة فساء هذا الصلح مراد بيك ولم يرض عنه ولكنه كظم غيظه وسار الى زيارة ابراهيم بيك ولم يزر أحدا منهم فسعى ابراهيم بيك فى اصلاح ذات البين فلم ينجح وكبر الامر على مراد بيك فأخذ فى جمع أرزاقه ومتاعه وأثقال بيته حتى تم له ذلك ثم خرج إلى جزيرة الذهب فتبعه كشافه وأتباعه ومماليكه وأرسل الى بولاق القاهرة وأخذ منها أرزا وغلالا وشعيرا وبقصماتا وغير ذلك فسير اليه ابراهيم بيك بعض أخصائه ليمنعوه عن الرحيل فلم يقبل وعبر النيل الى الشرق وسار الى الصعيد وتبعه أصحابه وأتباعه ومماليكه وأحماله فى البر والبحر فنزل فى فى منية ابن خصيب واتخذها له مقرا واتفق أن حضر فى هذه الاثناء محمد باشا الوالى الجديد فأنزلوه فى قصر عبد الرحمن كتخدا على النيل فأقام به يومين ثم صعد الى قلعة الجبل فى موكب وسافر على باشا القصاب الى دار السلطنة فلما استقر بالوالى المقام وعلم بما جرى مابين ابراهيم بيك ومراد بيك تكلم مع ابراهيم بيك فى شأن ذلك وحثه على ارجاع مراد بيك فنزل ابراهيم بيك من ساعته وجمع اليه الامراء فاتفقوا على أن يرسلوا اليه محمد أفندى البكرى والشيخ أبا الانوار والشيخ السادات والشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الازهر

يومئذ

ومشذ اسير جعوه عن عزمـه و يهونوا عليـه أمر الصلح فساروا اليـه واجتمعوا به وكلموه فاعتـذر وقال انه لم يخرج من القاهرة الا هاربا خوفا على حياته فان ضمنوا له عدم مسه بضرر عاد معهم بشرط أن يحلفوا له الأيمان فـلم يجيبوه الى اليمـين وقالوا نضمن الراحة لك ولهم عسى ان ترتاح العباد فصرفهـم على ذلك فرجعوا وأخـبروا بما جرى ولم يمض على رجوعهم الا أيام حتى انحـدر مراد بيك الى الجـيزة فى جموع كثيرة جـدا من الغز والاجناد والعربان والغوغاء فهال ابراهيم بيك أمر حضوره وجمع أصحابه وجميع الامراء وحضربهم الى ناحية معادى الخبيرى قبالة مراد بيك وأصحابه وأرسل اليه بعض الامراء فى حراقة ليكلموه فى الصلح ويسألوه عـن جميع طلباته فـلم يأذن لهـم بالدخول عليـه فرجعوا وكان الباشا قـد أرسـل كتخـداه أيضا مع اسمعيل أفنـدى الخلوتى فى حراقـة أخرى ليلحقا بمن ذهبوا الى مراد بيك ويهونا عليه الامر فـلم تصل بهـما الحراقة الى منتصف النهـر حتى صادفتهم الحراقـة الاولى راجعـة بمن فيها فتبعاها فأطلق عليهما أصحاب مراد بيك مدفعـا فاخطأهما فأسرعا بالرجوع وهما لايصدقان بالنجاة ورأى ذلك ابراهيم بيك فغضب جدا وأمر بالمدافـع فأطلقت على معسكر مراد بيك فأطلق كذلك مراد بيك مدافعه واستمر الطلق متتابعا بين الفريقـين ولم يعـبر فريق الى الآخر وحجزت المعادى جميعها فى الجانبـين واستمـر الحال عـلى ذلك عشرين يوما واشـتد الخطب وضج الناس وتعـطلت الاسـباب وقفلت الاسواق وتعطلت الطرق برا وبحرا وكثر تعـدى الاشقياء والمفسدين وتطاولت أيدى اللصوص وغلت الاسعار وقل وجود الغـلال وأفحش قوم مراد بيك فى النهب والسلب من بلاد الجيزة وأكلوا المزروعات فـلم يتركـوا على وجه الارض عودا أخضر وعين مراد بيك بعض الكشاف والاتباع يطوفون البـلاد ويجمعون الخـراج ويقضون الكلف والغـرامات من أصحاب المزارع واعتقد الناس تمام الظفر لمراد بيك وأصحابه واشتد خوف الامراء بمصر منه وتحدث الناس بعزم ابراهـيم بيك على الهروب فكبر خوف أهـل مصر والقاهـرة وكادوا يتفرقون أشتاتا فلما كان يوم الخميس أمر ابراهـيم بيك برمى المدافع تباعا فلبثوا اليوم بطوله يوالون الرمى بلا انقطاع فلما خيم الظلام أمر بالكف عن ذلك وعـبر خمسـة من أمرائه ليلا الى الجانب الثانى من النيل وساروا تحت جنح الظلام فقابلهم طائفة من عسكر مراد بيك فأطلق الامراء عليهـم بنادقهم فولوا منهزمين فملكوا مكانهـم واحتلوه وكان على مقـربة من بولاق التكرور وعبر آخرون ومعهم مدفعان وجعلوا يزحفون قليلا قليـلا حتى صاروا على مقربة من معسكر مراد بيك وأطلقوا عليـه المدافع ووالوا اطلاقها فلم يجبهم أحـد فباتوا على ذلك وهم فى تحذر وتتابع بهم عسكرهم وخيولهم فلما ظهر نور الصباح نظروا فلم يروا أحـدا فى معسكر مراد بيك وقد رحلوا وتركوا جميع أثقالهم ومـدافعهم فساروا اليـه واحتلوه وعبر رجال ابراهـيم بيك وساقوا خلف مراد بيك وأصحابه الى حـد الشمى فلم يدركوهم فأقاموا بأرض الجيزة أربعة أيام ثم رجعوا وجازوا بالقاهرة

ورأى ابراهيم بيك ان بقاء الحال على هذا الوصف مجلبة للدمار ووسيلة للبوار فأراد مصالحة مراد بيك فأرسل لذلك اثنين من كبار أصحابه قال بعض الكتاب وكان الحامل له على طلب الصلح واستمالة مراد بيك اليه ما رآه من تحزب عثمان بيك الشرقاوى وعدة من الامراء ضده وعقدهم النية على الانتقاض عليه وقد استخفوا به وقعدوا له بالمرصاد فأخذ الحذر منهم ثم حضر بعد أيام كتخدا مراد بيك واجتمع بابراهيم بيك ثم عاد فأرسل ابراهيم بيك معه ولده مرزوق بيك وهو طفل صغير قد حملته مرضعته فلما وصل الطفل الى مراد بيك جنح للصلح ومال اليه وقدم للطفل هدية سنية وتقادم جليلة منها بقرة ولابنتها رأسان وعاد مرزوق بيك مع مرضعته ومعه كتخدا مراد بيك ثم عاد الكتخدا وشاع الخبر بقرب قدوم مراد بيك فاجتمع الامراء عند ابراهيم بيك وخوفوه من حضور مراد بيك وعدم سكونه فخالفهم وعاهدهم أنه ان لم يعتدل يكون الجميع يدا واحدة عليه * فلما كان يوم الجمعة وصل مراد بيك الى عمارة فركب ابراهيم بيك وقت القائلة فى جماعة وخرج الى ناحية البساتين ثم رجع من الليل وصعد الى قلعة الجبل وملك الابواب ومدرسة السلطان حسن والرميلة والصليبة والتبانة وأرسل الى عثمان الشرقاوى وأيوب بيك ومصطفى بيك وسليمان بيك وابراهيم أغا الوالى بأن يخرجوا على الفور من مصر وعين لهم دمياط والمنصورة وفارسكور ليذهبوا اليها فامتنعوا وأظهروا العصيان وأخلدوا الى التترس والقتال فلم يروا لذلك سبيلا حيث ملك ابراهيم بيك القلعة وجميع المواقع الحصينة وقد بدأت جموع مراد بيك بالدخول الى القاهرة فلم يروا بدا من الخروج وساروا الى القليوبية ودخل مراد بيك فى كبكبة وسار الى زيارة الامام الشافعى فبلغه هنالك خبر تبعيد الشرقاوى ومن معه وقد كان يبغضه بغضا ماعليه من مزيد فأسرع وسار من فوره خلف قلعة الجبل ونزل الى الصحراء وحث السير حتى أدرك قناطر أبى المنجا ونزل عليها وأرسل خلف الشرقاوى ومن معه طائفة من العسكر فأدركوهم عند شبرا شهاب وناوشوهم القتال وأدركهم مراد بيك فالتطموا فكبا بمراد بيك فرسه وكاد يهلك فأدركه أصحابه ووقعت بين الفريقين مقاتلة خفيفة ثم رجع مراد بيك ومن معه الى القاهرة وسار الامراء الخمسة المذكورون وعبروا الى وردان وكان معهم رجل من كبار العرب اسمه طرهونة يدلهم على الطريق الموصلة الى الصعيد فسار بهم فى طريق مقفرة وعرة ليس فيها ماء ولا نبات يوما وليلة حتى كادوا يهلكون من العطش وانقطع عنهم جماعة ممن تبعهم وكانوا ينقطعون عنهم كلما اشتد بهم الظمأ حتى اقتربوا من سقاره ورأوا أنفسهم على مقربة من الاهرام فضاق خناقهم وأيقنوا بالوقوع فى مخالب العطب فطلبوا هجنا ليركبوها وتركوا أثقالهم ومن معهم فقام عليهم الاتباع ونهبوا الاثقال والاحمال وتفرقوا عنهم فتعطلوا وأناخوا مطاياهم وأسرع مملوك من مماليك الشرقاوى على فرس وحضر الى مراد بيك وكان بالروضة فأعلمه بخبرهم فأرسل لهم طائفة من الجند فلم تجدهم وقد كانوا رحلوا الى جهة أخرى خوفا من وقوعهم فى أيدى مراد بك واغتم الناس غما شديدا عند ماشاع خبر هروبهم الى الاقليم

القبلى

القبلى لما ينجم عن ذلك من تعطيل ورود الاقوات مع القحط والغلاء المستحوذ على البلد وبات الناس تلك الليلة وأصبحوا يوم الاربعاء حادى عشرى رجب سنة ثمان وتسعين وقد شاع الخبر بالقبض عليهم وكان من أمرهم أنهم لما وصلوا الى ناحية الاهرام ووجدوا أنفسهم على مقربة من مصر تواروا قليلا وطلبوا من الدليل أن ينظر لهم طريقا يسلكون منها فركب الدليل وانطلق الى مراد بيك وأعلمه بمكانهم فأرسل لهم جماعة ليقبضوا عليهم فأحسوا بهم فركبوا هجنا وتركوا أثقالهم وولوا هاربين وكان أصحاب مراد بيك قد أكمنوا لهم كمينا فلما مروا بالكمين خرج عليهم ومسك بزمام هجنهم من غير ضرب ولا قتال وحضروا بهم الى مراد بيك بجزيرة الذهب فباتوا عنده ليلتهم وأصبحوا فأنزلوهم بالمراكب كل بمفرده تخفرهم المماليك والاجناد وأبعدوهم الى الاقاليم البحرية فلبثوا بها زمانا يسيرا ثم راسل بعضهم بعضا واتفقوا على الهروب الى الصعيد فهرب بعضهم وقبض على بعضهم فشددوا فى تنكيلهم

واتفق بعد ذلك بقليل خروج الحاج الى الاقطار الحجازية فامّروا عليه الامير مصطفى بيك الكبير فخرج فى موكب حافل للغاية وبرز بخيامه الى بركة الحاج ينتظر مابقى من مال الصرة فطال عليه الانتظار فذهب الى ابراهيم بيك وطالبه بالمال فأحاله على مراد بيك فامتنع مراد بيك وأكثر أمير الحاج من الالحاح على مراد بيك فلم يسع مراد بيك الا الدفع وعلم أنها مكيدة من ابراهيم بيك فخرج الى قصره بالروضة مغضبا وأرسل فى الحال الى الامراء المنفيين والهاربين بالصعيد أن يتأهبوا فلما علم ابراهيم بيك بذلك أرسل يستعطفه وترددت الرسل بينهما ونظر ابراهيم بيك فلم يجد حوله أحدا من قومه ورفاقه وقد تركوه وذهبوا الى مراد بيك فساءه ذلك جدا وركب الى الرملة ووقف بها ساعة حتى سارت أحماله وأثقاله صحبة عثمان بيك الاشقر وعلى بيك أباظه يريد الصعيد وسار هو بعد ذلك من خلف الجبل وليس له من الاتباع سوى على أغا كتخدا الجاويشية وعلى أغا مستحفظان المحتسب وصناجقه الاربعة فلما بلغ مراد بيك خبر ركوبه على هذه الصورة ركب خلفه برهة من الليل ثم رجع وأصبح وهو منفرد بحكم البلاد فسر بذلك كثيرا وجعل يولى المناصب العالية لمن شاء من قومه واستقدم بعض الامراء المنفيين وقلدهم بعض المناصب ونادى مناديه بالامان وأخرج الغلال المخزونة لتباع على الناس وقد كان اشتد بهم الجوع وعظم أمر مراد بيك وعلت كلمته فلم يترك للوالى شيأ يتصرف فيه بل زاد فى الحجر عليه اذ كان يبغضه لميله الى ابراهيم بيك عليه واتفق أن قدم فى هذه الاثناء رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى بتقرير محمد باشا الوالى المذكور على ولاية مصر سنة أخرى فظن الباشا بلوغ الامل فطلب جميع الامراء الى الديوان ليقرأ عليهم ذلك المرسوم كالعادة فلم يجبه أحد منهم وأهمل ذلك مراد بيك ولم يلتفت اليه فكرر الباشا الطلب فلم يسمعوا قوله فساءه ذلك وأغضبه وأرسل الى مراد بيك يعاتبه ويسفه رأيه فأرسل اليه مراد بيك فى الحال يأمره

بالنزول من القلعة فامتنع فأرسل جماعة من أتباعه فأنزلوه قهرا الى قصر العينى محجورا عليه وتولى مراد بيك النيابة وعلق الاستار فكانت ولاية محمد باشا المذكور أحد عشر شهرا سوى الخمسة أشهر التى أقامها بثغر الاسكندرية وكانت أيامه كلها شدائد ومحنا وخطوبا وإحنا وجوعا وغلاء وزيادة ونقصا فى النيل وغير ذلك

ولما استقر المنصب بمراد بيك وتم له الامر أكثر من طلب الاموال وتفريد المغارم على البلاد فلما لم يبق فيها شئ حوّل الطلب على الملتزمين وبعث لهم المعينين فى البيوت فاحتاج الكثير منهم الى بيع متاعه ودوره ومواشيه بسبب ذلك ثم تطاولت أيدى عمال مراد بيك الى المواريث فكان اذا مات أحد أحاطوا بمتروكاته سواء كان له وارث أولا قال بعض كتاب الاخبار وصار بيت مال المسلمين من هذا الحين منصبا من المناصب الديوانية التى يتولاها الناس بجملة من المال فى كل شهر ولا يعارض فيما يفعل فحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلايا وانقطعت الطرق وكثرت عربدة الاشقياء والغوغاء ومنعت السبل الا بالخفارة ورحل الفلاحون من بلادهم لقصور النيل وشرق الارض والمظالم المتراكم بعضها فوق بعض وانتشروا فى جوف المدينة بأولادهم ونسائهم يضجون من الجوع ويأكلون مايتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره ثم اشتد بهم الحال فأكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال قال فكان إذا خرج من المدينة حمار ميت تزاحموا عليه وتضاربوا وقطعوه وأخذوه بل منهم من كان يأكل منه نيئا من شدة الجوع ومات كثير من فقراء المدينة أيضا جوعا وعز الدرهم والدينار فى أيدى الناس وقل التعامل فيما يؤكل اه ثم وردت الغلال من الديار الشامية والرومية فانفرجت الازمة بعد الشدة وبيع الاردب منها بألف وثلثمائة نصف فضة وأرسل شريف مكة إلى المشايخ والعلماء يتشكى من انقطاع ورود غلال الحرمين فلم يلتفتوا اليه ولا ردوا عليه جوابا فكانت جميع هذه البلايا والمحن ضربة شديدة على هامة مراد بيك وسببا فى عجزه عن القيام بتدبير البلاد وسياستها لاسيما وقد كان ابراهيم بيك الكبير له بالمرصاد فلما أحس بعجزه وأيقن أن لاقبل له على تولى أمور البلاد أرسل الى ابراهيم بيك الشيخ الدردير وآخرين معه ليكلموه فى أمر الصلح ورجوعه الى القاهرة على مايحب فساروا اليه وكلموه وبعد جدال قبل الصلح والعود الى القاهرة بشرط رجوعه الى مشيخة البلد ورجوع على أغا كتخدا الجاويشية الى منصبه فلما رجع الرسل وأخبروا بما يسأله ابراهيم بيك جمع مراد بيك الامراء وأصحاب المناصب العالية وقرأ عليهم شروط ابراهيم بيك فأذعنوا لها وأحلوها محل القبول وأعادوا الرسل بالاجابة فلما وصلوا اليه عاد فانتقض وطلب طلبات أخرى جديدة فعاد الشيخ الدردير ومن معه وأخبروا بانتقاض ابراهيم بيك فلم ير مراد بيك بدا من معاودته وأرسل اليه ثانيا أيوب بيك الكبير وأيوب بيك الصغير ليهوّنا عليه فلماوصلا الى بنى سويف أرسلا فاستقدما اليهما سليمان بيك الاغا وعثمان بيك الاشقر ثم ساروا جميعا الى ابراهيم بيك وتكلموا معه فى الصلح فأجابهم وساروا جميعا الى

منية

منية ابن خصيب ثم انحدروا منها الى مصر فدخلوها فى يوم الاثنين رابع ربيع الثانى سنة تسع وتسعين ومائة وألف وحطوا رحالهم عند معادى الخبيرى فعبر اليهم مراد بيك فى عدة كبيرة من الامراء والوجاقلية والمشايخ وعانق مراد بيك ابراهيم بيك وبكى ثم عبروا جميعا النيل الى مصر ودخل ابراهيم بيك بيته ودخل معه مراد بيك ولبثا معا حصة طويلة فأقام ثلاثة أيام ثم جاءه مرسوم الباشا بالاستقرار على مشيخة البلد ومع المرسوم خلعة الولاية فلبسها بحضرة مراد بيك والمشايخ فقام عند ذلك مراد بيك وقبل يده وكذلك بقية الامراء وردّت الوظائف الى أصحابها وأخذ ابراهيم بيك من يومه يتصرف فى الامور وينظر فى مصالح الرعية فتزاحم أرباب الخصومات على بابه ورفعت اليه القصص فأمر ونهى وأعطى ومنع وقسم المناصب بين ذويها

وأعقب رجوع ابراهيم بيك الى القاهرة حصول طاعون شديد فأخذ فى الاشتداد يوما عن يوم وكثر بسببه الموات فخرج الناس من مصر والقاهرة الى الضواحى والقرى فرارا منه فلحق بهم واشتد وسقط الناس فى الشوارع والطرقات واهتم ابراهيم بيك بدفن الموتى فشدد على الوالى وأعوانه فكانوا يطوفون فى النهار والليل ويحملون الموتى من الطرق على ظهور الدواب ويدفنونهم بغير غسل ولا كفن عشرات عشرات وطالت مدته فكانت ثقيلة للغاية حتى قدر الله فارتفع وعاد الناس الى القاهرة وتناسوا أمره وكان عدد من مات لايكاد يدخل تحت الحصر وأعقب زوال الطاعون* ورود الخبر من دار السلطنة بخلع محمد باشا وولاية آخر اسمه محمد يكن باشا فلما وصل الى الاسكندرية ومر بشوارعها يريد التفرج وقف له العامة بالطريق وصاحوا فى وجهه وسبوا حاكم الاسكندرية وقبحوا أعماله ونادوا عليه بالويل وكان قد وقع بينهم وبينه فتنة كبرى وذلك ان أحد أتباعه وقع بينه وبين أحد العامة مشاجرة أدت الى الملاكمة فتطاول تابع الحاكم وضرب الرجل فقتله فاجتمعت عند ذلك العامة وعلت الضوضاء وكثرت الغوغاء وحملوا المقتول على نعش الى مقر الحاكم وشكوا له ماوقع من تابعه فحوّل وجهه عنهم ولم يلتفت الى شكواهم فألحوا عليه فأمر أعوانه بطردهم فثاروا وقبضوا عليه وأنزلوه من ديوانه وأركبوه على حمار بالاكف عرضا وهو حاسر الرأس وعلا الصياح وطافوا به جميع شوارع المدينة على هذا الحال وهم يضربونه ويصفعونه بالنعال ويلطخون وجهه بالطين فكان يوما عبوسا أقفلت فيه جميع الدكاكين وسدت الابواب وانكمش الناس فى بيوتهم وتطاولت أيدى الحرافيش الى الخطف والسرقة وفعل مالا خير فيه وما زالوا على هذا الحال اليوم كله حتى سقط الحاكم بين أيديهم فتركوه وتفرقوا فجاء أتباعه وحملوه فلبث أياما كثيرة حتى تراجعت اليه صحته فلما كثر صياحهم فى وجه الباشا سأل عن السبب فحدثوه بخبر ماجرى للحاكم فانقبض وهوّن عليهم ووعدهم خيرا ثم نزل من يومه على إحدى السفن يريد القاهرة ووصل الى امبابه فبات ليلته وأصبح فذهب إليه الامراء وأصحاب الوظائف وعبروا معه النيل الى قصر العينى فلبث به

مطلب
عزل محمد باشا وولاية محمد يكن باشا

ثلاثة أيام ثم ركب فى موكبه وصعد الى قلعة الجبل فلما استقر به المنصب سأل مراد بيك عن مال الخزينة السلطانية وطلب منه سرعة ارساله فأظهر العناية بذلك وسار فى جماعة من كشافه ومماليكه وأتباعه الى الغربية وجعل يطالب أهلها بالاموال وقد فرض عليهم منها شيأ كثيرا فضلا عن الكلف الخارجية وغير ذلك فكان المعينون للطلب اذا استوفوا شيأ من ذلك طلبوا حق الطريق فان تأخرت قرية أو بلدة فى أداء شئ من ذلك قاموا عليها ونهبوها وربما قتلوا منها اناسا ولم يزل مراد بيك وأصحابه على هذا الحال حتى وصلوا الى رشيد فقرروا على أهلها جملة من المال وكذلك على التجار واشتد الطلب وعين على الاسكندرية أحد كشافه وضرب عليها كذلك مائة ألف ريال نقرة وقيد معه بعض الجباة فعاثوا وشددوا وضيقوا وأمرهم بهدم جميع كنائس الاسكندرية فهدموا منها عدة كنائس وهرب التجار وسافروا الى الديار الشامية والرومية وغيرهما فرارا من الطلبات المتتابعة ثم أقفل راجعا بمن معه الى الدقهلية ففعلوا بها مافعلوه برشيد والاسكندرية ثم إلى الشرقية وغيرها * وقد أفحش كشافه بمصر والقاهرة فى تعقب الناس وسلب أموالهم ومصادرة أصحاب البيوت * وهجموا يوما على بيت شخص اسمه أحمد سالم الجزار متولى رياسة دراويش الشيخ البيومى فنهبوه ولم يبقوا به شيأ البتة فثار لذلك أهل الحسينية وحضروا الى الجامع الازهر وهم فى ضجة وامامهم طبول ودفوف فاجتمع عليهم جماعة كثيرة من العامة والسوقة وبأيديهم المساوق والعصى وذهبوا الى الشيخ الدردير وشكوا إليه فشجعهم وحرضهم على التظاهر والخروج فساروا من الجامع وقد أقفلوا أبوابه وصعد منهم جماعة على المنارات وجعلوا يضجون ويضربون بالطبول ثم انتشروا فى الاسواق وهم فى صياح وجلبة وأغلقوا الحوانيت قال بعض كتاب الاخبار ومناهم الشيخ الدردير بالركوب معهم فى غد ومعه أهل الاطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة لنهب البيوت أو أن يموتوا شهداء فلما كان بعد المغرب جاء سليم أغا مستحفظان ومحمد كتخدا ابراهيم بيك وجلسوا فى الغورية ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وكلموه فى الامر وقد خافوا من تضاعف الخطب واستفحال الفتنة ووعدوه برد جميع ماأخذ من بيوت الحسينية واجراء مافيه المصلحة للعميان والمجاورين بالأزهر وبعد جدال تقررت القاعدة بينهم على ماذكر وسكنت الفتنة وعادت الامور الى سابق مجراها

ولما لم يرسلوا الى الخزينة السلطانية مالها من الاموال رغما عن كثرة الطلب أمر السلطان بتسيير بعض مراكب الحرب الى الاسكندرية ورسولا مخصوصا معه مرسوم سلطانى خطابا الى الامراء فى شأن ذلك فدخل الرسول القاهرة وسلم المرسوم الى ابراهيم بيك فجمع اليه مراد بيك وبقية الامراء وتكلموا فى الامر طويلا فلم يتفقوا على شئ وطال اجتماعهم أياما على غير جدوى فبينماهم على هذا الحال اذ جاءهم الخبر بحضور مراكب أخرى الى ثغر دمياط وعلى احدى تلك المراكب أحد كبار البحر المدعو حسن باشا فخاف الامراء وارتبكوا فى أمرهم وشاع الخبر فتحدث الناس به وكثر اللغط فركب سليم أغا مستحفظان

ونادى فى الاسواق على الروم والغليونجية والترك المقيمين بمصر بأن يرحلوا الى بلادهم بلا مهل ومن وجد منهم بعد ثلاثة أيام قتل بلا معاودة فأثر هذا النداء فى الناس وتزايد خوفهم وأرسل ابراهيم بيك اثنين من كبار أمرائه الى رشيد لخفارتها ولكى يتحالفا مع عرب الهنادى على أن يكونوا عونا لهم عند مسيس الحاجة ثم كتبوا قصة ليرفعوها الى دار السلطنة تتضمن أنه لم يكن من مانع يمنع ارسال أموال الخزينة السلطانية سوى كساد الحال وتعطيل أسباب التجارة والزراعة وانهم سيبذلون جهد الاستطاعة فى ارسالها فى العاجل القريب * فلما كانت ليلة الخميس عاشر رمضان سنة مائتين وألف هجرية ركب ابراهيم بيك ومعه مراد بيك وجماعة من الامراء ومشايخ الوقت ودخلوا على الباشا بمقره فأعلموه بصورة ماوقع الاتفاق عليه وطلبوا وساطته بينهم وبين الباب العالى وانهم من الآن يقومون بترتيب الامور وتنظيم الاحوال على ماتشاؤه الدولة فكان طورا ينيهم وأخرى يقبح فعالهم ثم بعد أخذ ورد وافقهم على ارسال قصتهم وسير بها كتخداه وانصرف الامراء وهم لايدرون ماستكون عاقبة حضور تلك السفن * وجاءهم الخبر بعد أيام قلائل من حاكم رشيد بأن قد نزل فريق من العساكر العثمانية المنظمة بالاسلحة وآلات الحرب الى البر ومعهم قائد من كبار القواد وانه لم يعرف شيأ من عزمهم فكبر خوف ابراهيم بيك ومراد بيك وهالهما حضور العساكر فشددا فى جمع غلال الحرمين وغلال الانبار وجمع أموال الخزينة السلطانية وبالغا فى التشديد وألزما المعلم ابراهيم الجوهرى عظيم القبط بمصر يومئذ بجمع ذلك وبعثوا سفراء الى حسن باشا أمير سفن الحرب من المشايخ والعلماء والوجاقلية ومعهم هدية مائة فرق من البن اليمنى ومائة قنطار سكر وعشر بقج ثياب هندية وتفاصيل كثيرة وعودا وعنبرا وغير ذلك فسافروا فى يوم الجمعة ثامن عشر رمضان من السنة فلم يكادوا يبلغون الاسكندرية حتى قدم الى القاهرة رسول من قبل تلك السفن واجتمع بابراهيم بيك قبل وعاتبه وقال كيف تبعثون بسفارة الى الامير فى طلب الصفح عما وقع والعفو عما فات وقد أخذتم أهبتكم للحرب والقتال وأكثرتم من جمع الاسلحة والكراع فقال ابراهيم بيك معاذ الله أن نحارب رجال دولتنا وأمناء سلطاننا على عساكره وجنوده وهب أنا فعلنا فقد تبنا وندمنا ورجعنا الى الحق فقال وكيف ذلك وقد بعثتم منذ أيام بقوم قد طافوا البلاد فضربوا على أهلها المغارم الثقيلة والمكوس الفادحة وجمعوا الغلال وضربوا على كل بلد اردبين من بن القوة وهذا الصنف غريب عن زراعة البلاد حتى ضج الناس وهربوا وتركوا البلاد خاوية على عروشها وهاهم يموتون جوعا وبردا على الجسور وسواحل الترع وقد أقلق القبطان صوت صراخهم فقال مراد بيوقد كان حاضرا ليس فى الامر شئ من ذلك وماهى الاوشاية من الاعداء يقصدون بها ابعادنا عن رحمة سلطاننا ورضائه وها أنت قد رأيت أن لامدافع عندنا ولابنادق ولاأثر للاستعداد ولله الحمد * قال بعض الكتاب ولم يكن القول من رسول أمير السفن بتطواف الامراء فى البلاد وأخذ الكلف والمغارم جزافا فانه لما سافر الامراء الاثنان اللذان بعث بهما

ابراهيم بيك لخفارة رشيد وسافر معهما أتباعهما وبعض الجند والمماليك مروا بالبلاد وطلبوا هذه الكلف والمغارم وحرقوا وردان لعدم اذعان أهلها للطلب فضج الناس وذهبوا الى المعسكر العثمانى وشكوا الى مقدم العسكر ما ألم بهم فهون عليهم وكتب لهم فرمانا برفع الخراج عنهم سنتين ثم سار مقدم العسكر المشار اليه من الاسكندرية الى رشيد فى أبهة وجلالة وكتب عدة فرامين بالعربية الى مشايخ البلاد وأعيانها ومشايخ العربان وأصحاب الكلمة من أهالى المدن يقول فيها ما نصه

صدر هذا الفرمان الشريف الواجب القبول والتشريف من ديوان حضرة الوزير المعظم والدستور المكرم عالى الهمم وناصر المظلوم على الظالم مولانا العزيز غازى حسن باشا سرعسكر السفر البحرى المنصور حالا ودونانمة همايون أيدت سيادته السنية وزادت رتبته العلية الى المشايخ وعمد البلاد ومشايخ العرب المقيمين بديار مصر وفقهم الله تعالى * نفهمكم أنه بلغ حضرة مولانا السلطان نصره الله ماهو واقع بالقطر المصرى من الجور والظلم للفقراء وكافة الناس وان سبب هذا خائنو الدين ابراهيم بيك ومراد بيك وأتباعهما فتعينا بخط شريف من حضرة مولانا السلطان أيده الله بعساكره المنصورة بحرا لرفع الظلم ولايقاع الانتقام من المذكورين وتعين عليهم عساكر منصورة برا بسارى عسكر عليهم من حضرة مولانا السلطان نصره الله وقد وصلنا الى ثغر الاسكندرية ثم الى رشيد فى سادس عشر رمضان سنة مائتين وألف فحررنا لكم هذا الفرمان لتحضروا وتقابلونا ثم ترجعوا الى أوطانكم مجبورين مسرورين ان شاء الله تعالى فحين وصوله اليكم تعملوا به وتعتمدوه والحذر ثم الحذر من المخالفة وقد عرفناكم اه

فلما علم ابراهيم بيك ومراد بيك بما جاء فى ذلك الفرمان من الوعيد والتهديد كبر خوفهما وكادا يسقطان فى أيديهما واجتمعوا بأصحابهما وتشاوروا فرأوا ان الخرق قد اتسع والوحشة قد استفحلت والقتال لابد منه فاستقر رأيهم على العصيان والخروج عن طاعة السلطان وكان النيل قد أخذ فى الزيادة فباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد بدؤا فى جمع العساكر وتجنيد الجند واعداد معدات الحرب واتفقوا على أن يسيروا هذا الجيش مع مراد بيك الى مدينة فوة فيمنعوا الطريق ثم يرسلوا الى حسن باشا المشار اليه خطابا يعلمونه بانهم شارعون فى عمل الحساب والقيام بغلاق المطلوب للدولة ويسألونه الرجوع الى دار السلطنة فان امتثل فيها والا فالحرب * وجمعوا السفن وعبوا الذخيرة ونقلوا متاعهم وأثاثهم ورياشهم الى بيوت أخرى صغيرة بجهة المشهد الحسينى والشنوانى والازهر وأمروا بغلق الاسواق ليلا والكف عن الختمات والقراآت فى ليالى رمضان فكثر عند ذلك اللغط وتزايد الهرج وخاف الناس سوء العاقبة وظهرت على مراد بيك وابراهيم بيك وأصحابهما لوائح الخذلان وبرز مراد بيك بعسكره الى ناحية بولاق وعبروا النيل ليلا الى انبابه ونصبوا معسكرهم وخرج مع مراد بيك مصطفى بيك الداودية ومحمد بيك الالفى وحسين بيك الشفت ويحيى بيك وعثمان بيك الأغا وعثمان بيك

الشرقاوى وعثمان بيك الاشقر فسايرهم ابراهيم بيك الكبير مودعا وعانق كلا منهم وعاد الى القاهرة وسار مراد بيك قاصدا فوة وأصبح ابراهيم بيك وقد عاد رسله الذين ساروا الى أمير سفن الحرب العثمانية وقالوا انهم اجتمعوا عليه ثلاث مرات الاولى عند وصولهم فقابلهم بالاعزاز وأكرم وفادتهم وأنزلهم بمكان ورتب لهم المأكل والمشرب فى الافطار والسحور ثم دعاهم فى ثانى يوم وكلمهم قليلا فى أمر البلاد ومايكابده أهلها من جور الحكام وظلم الولاة والحروب المستمرة وانه قدم ليعاقب الظالم قال راوى هذه الحكاية فقال الشيخ العروسى يامولانا رعية مصر ضعفاء و بيوت الامراء مختلطة ببيوت الاهالى وهذه طامة كبرى فقال لاتخشوا من شئ فان أول ماأوصانى مولانا أوصانى بالرعية وقال ان الرعية وديعة الله عندى وأنا استودعتك ماأودعنيه الله تعالى ثم قال كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران وترضونهم حكاما عليكم يسومونكم العذاب والظلم ولماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم من بينكم فأجابه اسمعيل افندى الخلوتى وقال هؤلاء يامولاى عصبة شديدة البأس وكلهم يد واحدة فغضب الامير من قوله ونهره وقال ويحك أترهبنى ببأسهم وشدتهم فاستدرك وقال أعنى بذلك يامولاى أنفسنا لانهم أضعفوا الرعية فحول وجهه عنهم ساعة ثم صرفهم قالوا والثالثة كانت فى يوم جمعة بعد الصلاة فاستأذنوه فى الانصراف فقال فى غد أكتب لكم مرسوما للرعية تقرؤنه جهارا فى الجامع الازهر فاعتذر الشيخ العروسى وقال تشتد الفتنة يامولاى فقبل عذره وقال يكفى الاستفاضة ثم عوقهم يومين آخرين ثم كتب لهم مكاتبات وسلمها الى أحدهم سليمان بيك الشابورى وسرحهم فودعوه ورجعوا وحدثوا بما جرى * أما رسول ابراهيم بيك الذى سار بالهدية الى مقدم العسكر الشاهانى والمكاتبة كما تقدم فانه لما وصل الى الاسكندرية قبض عليه مقدم العسكر المشار اليه وعوقه عن السفر الى دار السلطنة وأخذ منه المكاتبة ثم سرحه فعاد الى القاهرة وأخبر بما جرى له * ووزع مقدم العسكر المذكور عدة مراسيم على مشايخ البلاد وكبار القرى وقد كانت هذه المراسيم وردت اليه من دار السلطنة خطابا الى المشايخ والاعيان فشاع خبرها وتحدث الناس بها و بالغوا وهولوا وأرجفوا وقالوا لم يبق الا الحرب والقتال فركب ابراهيم بيك عندئذ واجتمع بالشيخ العروسى والشيخ الدردير والشيخ البكرى وكلمهم فى أمر العامة وأراجيفهم وحثهم على مراقبة أحوالهم ولزوم حضهم على ملازمة الهدء والسكينة وأبلغهم خبر انتصار عسكر مراد بيك على بعض العساكر العثمانية بعد قتال عسى أن تهدأ الخواطر وتطمئن القلوب مع أنه لم يحصل شئ من ذلك الى يومها * وجعل ابراهيم بيك يوالى ارسال المدد والمؤن والاسلحة الى مراد بيك فكانوا يمرون بها من وسط المدينة ليراها الناس و يعجبوا بها

و بينما هم على هذا الحال من المواربة واخفاء الحقائق اذ رست ببولاق مصر سفينة من السفن التى كانت تتبع عسكر مراد بيك فى النيل وفيها كثير من المرضى والجرحى من العسكر والمماليك والوجاقلية فتسابق الناس لاستطلاع أحوالهم ومعرفة حقيقة أخبارهم

فأخبروا بهزيمة مراديبك وعساكره وتفريق شملهم * وذلك انه لما وصل مراد بيك الى الرحمانية عبر سليمان بيك الاغا وعثمان بيك الشرقاوى والالفى النيل الى البر الشرقى وساروا فوقع بينهم نزاع أدى الى الخلف فراجع بعضهم بعضا فكان ذلك أول الفشل ثم تقدموا الى محلة العلويين وكان بها فريق من العساكر الشاهانية فاخلوا عنها فدخلوا اليها وملكوها وأرسلوا الى مراديبك فى طلب المدد فرسم الى بعض الامراء أن يعبروا النيل لامدادهم فامتنعوا فأكبر مراد بيك ذلك وأعظمه وسير بدلهم جماعة من العربان ثم أمر بالركوب فركب من ركب وتأخر من تأخر وسار العسكر جميعه يريدون فوة فصادفهم فى طريقهم فريق من العساكر الشاهانية وراء المتاريس فخافوا من التقدم الى الامام لوعر الطريق وضيقه وكثرة المساقى والمزارع وكان فى مقدمة العساكر المصرية سليمان بيك أحد كبار الجند فلما صاروا على مقربة من متاريس عسكر السلطان وجهت العساكر السلطانية أفواه بنادقهم نحو سليمان بيك المذكور ومن معه فانذعر ورجع مسرعا الى الوراء فكبا به فرسه وسقط فحصلت فى جموعه ضجة وظنوها هزيمة فرجعوا جميعا القهقرى فتبعهم العربان الذين كانوا معهم وأخذوا منهم ماقدروا على أخذه من متاع وسلاح فعبروا النيل وكان مراد بيك محتلا بمن معه فى مكان ضيق وعر المسالك فأشاروا عليه بتركه والارتحال الى غيره واجتمعوا وهم على يقين من الهزيمة فكانوا يتخيلون ان العساكر السلطانية سائرة خلفهم ومن أمامهم لتذيقهم مر العطب ومازالوا على هذا الحال من الخوف والطيرة حتى خيم الليل فساروا تحت جنح الظلام و رجعوا القهقرى وطارت الاخبار بذلك فى مصر والقاهرة فعم الخوف جميع الاهالى وصاروا يضطربون من كل شئ و يتطيرون من كل شئ فكان اذا صاح صبى بأماه ظنوا صياحه مقتلة واذا نادى مناد على شئ قالوا هى عربدة * واتفق أن مملوكا أراد الركوب على حمار أحد المكارية فازدحم عليه الحمارة على عادتهم وتراكضوا خلفه ناحية الصاغة فظن الناس أنها وقعة وان العدو على أبواب الصاغة فتراكضوا جماعة خلف جماعة وصاحت الصغار فاضطرب أصحاب الحوانيت وأسرعوا فى غلق حوانيتهم بالاشرافية والغورية والعقادين الى باب زويلة وغيره من الجهات القريبة ثم ظهر بعد ذلك أن لاشئ البتة فعاد الناس الى أشغالهم * ووصل فى غروب ذلك اليوم كثير من الجرحى والمرضى من عسكر مراديبك ومماليكه وطوائفه فزاد الارجاف واشتد القلق ونزل الباشا من القلعة الى باب العزب واستقربه وهم ابراهيم بيك بأخذ أبواب القلعة فلم يفلح وأرسل الباشا بطلب قاضى القضاة والمشايخ فى تلك الليلة فصعد اليه بعضهم وتأخر البعض الى الصباح فصعدوا جميعا وصعدت كذلك طوائف الوجاقلية ورفع الباشا البيرق على باب العزب ونزل جاويش مستحفظان وجاويش العزب وأمامهما المناداة على العساكر والاجناد والطائعين كافة لله تعالى وللسلطان أن يأتوا تحت البيرق فخرج جميع العساكر والاجناد والتجار وأهل خان الخليلى وعامة الناس على اختلافهم حتى امتلأت الرميلة وقراميدان من الخلائق

وارسل

وأرسل الباشا يستحث أمير السفن العثمانية فى القدوم وكان فى عزمه التربص الى خروج الحاج فيأتى الى القاهرة ومعه العساكر البرية أيضا فأخذ يتأهب للحضور و وردت الاخبار بذلك الى ابراهيم بيك

ولما رأى ابراهيم بيك تسابق الناس الى الطاعة واجتماعهم بقراميدان والرميلة وغيرهما أخذ فى نقل أمتعته من ثقيل وخفيف الى دوره الصغيرة واحتجب عن الناس الا القليل وتركه الامراء كافة وطلعوا الى الباشا يطلبون الامان فكان الرجل منهم يأتى الى باب العزب فيطرقه وينادى فلان يطلب الامان ويكرر النداء وينتظر واقفا على أقدامه برهة طويلة حتى يأتيه فرمان بالامان فيدخل بغير سلاح خاضعا ويبقى مع من بالقلعة أما الصغير منهم فانه بعدان كان يعطى له الامان ينحدر الى الرميلة أو قراميدان ويبقى مع من هم بها وكان الذين طلبوا الأمان من كبار الامراء جماعة كثيرة وكذلك من الغز والاجناد ولما تكامل حضور من حضر من المشايخ والعلماء الطائعين أبرز الباشا خطا سلطانيا وقرأه عليهم وهو يتضمن الحث على سرعة ارسال ابراهيم بيك ومراد بيك الى دار السلطنة وتأمين كل من يطلب الامان أو غير ذلك وبعد تلاوة ذلك المرسوم أقر بعض أصحاب الوظائف العالية فى مناصبهم وفرق بقية الوظائف بينهم ونزلوا الى المدينة ونادوا بالامان والبيع والشراء ونادوا كذلك فى الناس بالانصراف الى بيوتهم بشرط الاجابة عند الطلب ولم يبق الا المحافظون على الابواب وأصحاب الرتب * أما مراد بيك فانه حضر فى ثانى يوم هذا الحادث الى جهة انبابة وبات ليلته تلك وقام غلسا الى جزيرة الذهب و ركب ابراهيم بيك فى تلك الليلة وذهب أيضا الى الآثار ونادى المنادى فى ثانى يوم بصعود الناس الى قراميدان والرميلة فصعدوا أفواجا أفواجا وكثر زحامهم فنودى فيهم بالامان وملازمة الهدء والسكون * وتخييل الباشا من ابراهيم بيك أمير الحاج وقد كان ممن طلب الامان فرسم له عند ذلك بالنزول الى بيته فنزل من القلعة الى جامع السلطان حسن وأقام به فأرسل اليه الباشا بالذهاب الى بيته فذهب واجتمع ببعض الامراء فى تلك الليلة سرا وأصبحوا لخروج سليمان بيك وأيوب بيك الكبير والصغير وهم ممن طلبوا الامان أيضا فأجيبوا اليه وساروا الى مضرب النشاب و ركب ابراهيم بيك أمير الحاج وذهب الى بولاق ليأخذ جمال المناخ المعدة لخدمة الحاج فمنعه من أخذها عسكر المغاربة فرجع الى مضرب النشاب فلما جاء الخبر بذلك الى الباشا بعث اليهم رسولا ومعه مرسوم خطاب لهم بأن يرجعوا الى بيوتهم وأن لا يجتمعوا أبدا على هذه الصورة فمزقوا المرسوم وضربوا الرسول وأقاموا على هذا الحال أياما بالمصاطب فاجتمعت عليهم عند ذلك طوائفهم و ركبوا ولحقوا بمن خرج قبلهم فاضطربت البلد وظن الناس صعودهم الى المقطم بالمدافع ليطلقوها على المدينة والقلعة وأغلق الناس حوانيتهم فركب الباشا بعد صلاة الجمعة وركب كذلك قائدأغا ومعهما كثير من المماليك والعسكر يحملون البنادق والقرابين ووصلوا الى الرميلة ورموا بالبنادق على جماعة الامراء وأطلقوا

عليهم المدافع فانحدر المتحزبون الى الصليبة ثم الى باب زويلة ومروا بالغورية والاشرفيــة وبين القصرين وطلعوا من باب النصر وامامهم المنادى ينادى امان واطمئنان حكم ماريسم ابراهيم بيك ومراد بيك وحكم الباشا بطال فلما سمع الناس ذلك ورأوا اجتماع الامراء على هــذه الصورة انزعجوا وأغلقوا الدكاكـين وهاجوا وماجوا وعــلم الباشا بخروجهم على هــذه الصورة فأمر بحصنوا القلعة والمحمودية والسلطان حسن ونادى الاغا فى الجند والعسكر بالصعود الى قلعة الجبل فصعدوا وجعل كل فريق يتأهب للحرب والقتال وعم الخبر مصر والقاهرة فانتشر عند ذلك الاشقياء فى الطرق والحارات ينهبون المارة وتطاولت أيديهم الى القتل فى رابعة النهار وانقطعت الطرق حتى الى بولاق القاهرة ومصر القديمة وركب ابراهيم بيك وحسين بيك فى نفر وأتوا الى مناخ الجمال ليأخــذوا جمال الحاج فدفعهم المغاربة فعربدوا فى ذلك الصقع عربدة لاتوصف وطلعوا بعد العشاء وباتوا فى السبيل الذى على رأس الرميلة وشــدد الباشا فى طلب العسكر وأنفق عليهــم نفــقة عظيمة فكثر تواردهــم الى قلعة الجبــل وفى مواقع المتاريس والحصون واشتد الكرب بالناس وضاق خناقهم وكان الصياح لاينقطع فى كل يوم فى أطراف الحارات من قحة اللصوص وتسلط النشالين ودخولهم البيوت ليلا وقتالهم مع أصحابها نهارا وشاع فى هذه الاثناء خبر وصول بعض مراكب حرب الدولة الى شلقان ومجىء حسن باشا مقــدم العســكر السلطانى ففرح الناس وصــعدوا الى المنارات وأعالى الاسطحــة ينظرون الى النيل فلم يروا شيأ فى ذلك اليوم فاشتد الانتظار وزاغت الابصار فلما كان بعد عصر اليوم سمع صوت مــدافع على بعــد فأجابتها مدافع القلعــة ففرحوا واستبشروا وحصــل بعض الاطمئنان وصعدوا الى المنارات فرأوا عدة مراكب ونقاير رست على بولاق القاهرة فسروا سرورا ماعليه من مزيد وضجوا ضجيج الفرح فارتجت الارض من ضجيجهم وكان مراد بيك وجماعة من أمرائه قد ذهبوا الى بولاق وشرعوا فى عمل المتاريس جهة السبتية وأحضروا عدة مدافع وجمعوا أخشابا وشيأ كثيرا من حطب الذرة وزنابيل وغير ذلك فبينماهم يشتغلون فى إحكام تلك المتاريس اذ دهمتهم مراكب حسن باشا تجاه المتاريس فتركوها وولوا الادبار فضج الناس وصاح الصبيان صياح الهزء والفرح وخرجت النساء يزغــردن واحتطن بمدافع مراد بيك وكسرن أخشابها وأخذنها للحريق

واجتمع ابراهــيم بيك ومراد بيك وجميع الخــوارج وكتبوا الى قاضى القضاة والمشايخ يظهــرون التوبة والرجوع الى الطاعــة فقرئت كتابتهم بحضرة محمــد باشا يكن قال الراوى فقال سبحان الله كم يتوبون وكم يعودون فاكتبوا لهم جوابا معلقا على قــدوم قبطان باشا فكتبوا لهم بذلك ووصــل حسن باشا فى عشاء ليلة الاثنــين ثانى عشر شوال ســنة مائتين وألف فأطلقوا لقدومه المدافع من بولاق القاهرة وبات ليلته وأصبح فركب ودخل القاهرة من ناحية باب الخرق ونزل ببيت ابراهيم بيك الكبير بأتباعه وحاشيته وعسكره ووصل بعده الشيخ الاترم المغربى فى طائفة من المغاربة فنزل بهم ببيت يحى بيك فسكن الحال واطمأنت

قلوب

قلوب الرعية وفتحت أبواب قلعة الجبل ونزل من بها وشاع الخبر بذهاب ابراهيم بيك ورفاقه
الى الاقليم القبلى من خلف الجبل فسارت خلفهم طوائف العسكر على ظهور السفن لقتالهم
فقبضوا على عدة مراكب مشحونة بالذخيرة والمؤن وأنفذ حسن باشا أمير السفن رسلا الى
اسمعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى يطلبهما الى مصر وكانا مبعدين بالاقليم القبلى
كما تقدم وجمع محمد باشا يكن من بقى من أهل الخير من الامراء وقلدهم المناصب
العالية وسلمهم الوظائف ورتب أمور البلاد ترتيبا محكما وأباح على ماقيل للعساكر الشاهانية
نهب بيوت الامراء الفارين فدخلوا بعضها وأخذوا ماوجدوه من أمتعة وأثاث وتبعهم
العامة والحرافيش فبلغ ذلك مقدم العسكر فركب بنفسه وطاف المدينة وقبض على من
صادفه من العسكر وعلى من وجده فى تلك البيوت فقتل جماعة منهم ممن كانوا يحملون بعض
المنهوبات فانكفوا عن النهب ثم نزل من باب زويلة ومر بالغورية ودخل من عطفة الخياطين
على باب الازهر وذهب الى المشهد الحسينى فزاره وكان قد زاد اعجابه بنفسه أو وشى اليه
بعض الوشاة فأمر فنودى على النصارى بان لايركبوا الدواب المطهمة وأن لا يستخدموا
المسلمين ولا يشتروا الجوارى ولا العبيد ومن كان منهم عنده شئ من ذلك باعه أو اعتقه
وأن يلزموا زيهم الاصلى من شد الزنانير والزنوط فتسلط العامة عليهم وتتبعوهم بالايذاء ومن
وجدوه بغير زنار رجموه بالحجارة وحثوا التراب فى وجهه فانكمشوا وانكفوا عن الخروج أياما
وأرسل يطلب من قاضى القضاة احصاء ماأوقفه المعلم ابراهيم الجوهرى عظيم القبط بمصر
يومئذ على الكنائس والديارات من أطيان ورزق وأملاك وغير ذلك ثم أحس بما وراء ذلك
من الفشل وظهور الفتنة فخاف واستدعى اليه المعلم ابراهيم وكلمه فى الامر فصالحه المعلم
ابراهيم على مبلغ عظيم من المال فأمر فنودى فيهم بالامان وعدم التعرض لهم بمكروه فعادوا
الى ما كانوا عليه وكان مافعله بالقبط مشجعا للعساكر السلطانية على العود الى الخطف من
السوقة وأصحاب الحوانيت وكثر تعديهم على أهل الحرف مثل القهوجية والحمامية والمزينين
والخياطين وغيرهم فكان يأتى الرجل منهم الى الحمامى أو القهوجى أو الخياط ويخلع عنه
سلاحه ويعلقه على باب الحمام أو القهوة أو حانوت الخياط ويرسم رنكه فى ورقة أو على باب
دكان آخر وكأنه صار شريكه وفى حمايته ثم يذهب حيث شاء أو يجلس متى شاء ثم يأتى
فى آخر اليوم ويحاسبه ويقاسمه فى ربح يومه ذلك قيل وهذه عادتهم اذا ملكوا بلدا ذهب
كل ذى حرفة الى حرفته التى كان يحترفها فى بلده ويشارك ابن تلك البلد فيها فثقل على
أهل مصر هذا الفعل وشكوا للباشا واستغاثوا فنودى بابطال هذه المحنة ومن أتاه عسكرى
يشاركه أو يأخذ منه شيأ بغير حق قبض عليه وضرب وأتى به الى الحكام ثم طاف الوالى وقبض
على كل من وجده منهم بالحمامات والقهاوى وطردهم ونهرهم فلم ينكفوا الا بعد حين
ورسم حسن باشا أمير السفن فجمعت ودائع جميع الامراء وأموالهم المحفوظة عند
الناس واستحضرت زوجات ابراهيم بيك الكبير وأخذ ما كان عندهن من مال وحلى وغيره

وكذلك زوجات مراد بيك وقبضوا على خفراء الحارات ليدلوا على البيوت التى فيها تلك الودائع فلم يتركوا محلا الا فتشوه وأخذوا مافيه ونودى فى الاسواق بان من كان عنده وديعة أوشئ من متاع الامراء الخارجين ولم يظهره فى ثلاثة أيام أهدر دمه من غير معاودة وجروا على زوجات ابراهيم بيك ومراد بيك بيت كتخدا أياما كثيرة فشفع فيهن العلماء والمشايخ فلم يفرج عنهن واستحضر النخاسين والدلالين وأخرجوا جوارى ابراهيم بيك وباقى الامراء بيضا وسودا وأحباشا ونودى عليهن بالبيع والشراء فى حوش البيت فبيعوا بابخس الاثمان اشتراهن طوائف الضباط والعساكر السلطانية واشتد أمير السفن فى الغلظة وبالغ فى التهديد فأمر ببيع ولدى ابراهيم بيك الكبير وهما مرزوق بيك وعديلة هانم وضيق على زوجاته تضييقا عظيما فاجتمع المشايخ وصعدوا الى قلعة الجبل وكلموا الوالى فى ذلك وقالوا هذا أمر لاترضاه الشريعة ولايجوز قطعا بيع الاحرار وطلبوا منه أن يراجع أمير السفن فى ذلك فقال لا قدرة لى على رد كلمته فاذهبوا أنتم اليه وكلموه قالوا ولابد من ان تذهب معنا فذهبوا جميعا وكلمه الشيخ السادات وقال يامولانا قد بعثك السلطان لتذب عن الشريعة المطهرة وتقيم الحدود وتقطع عرق الفساد وتمنع الظالم عن المظلوم لالان تهدم معالم الدين وتبيع الاحرار فلما سمع كلام الشيخ السادات اغتاظ وأشار الى أحد الكتاب ان اكتب أسماء هؤلاء المشايخ كى ابعث بها الى السلطان واعلمه بحالهم وتوقفهم فى سبيل أعمالى ثم التفت اليهم وقال لا أجد الآن للاقامة بين ظهرانيكم سبيلا وقد عزمت على الرجوع فليرسل اليكم مولانا السلطان آخر فتروا ماذا يفعل بكم أوما كفاكم انى فى كل يوم أقتل من عسكرى طائفة على أيسر شئ دفعا لاذاهم عن البلاد وأهلها وارهابا لمن لم يعرف الحدود ولو كان قائد هذه الجموع غيرى لنظرتم كيف كانت تفعل بالبيوت والاسواق والناس فخاف المشايخ وسقطوا فى أيديهم وتلجلج فصيحهم وقالوا انما نحن يامولانا شفيعون والواجب علينا قول الحق ثم انصرفوا وهم على أشد مايكون من الخجل

ولما كان يوم السبت غرة القعدة من السنة قدمت الى القاهرة الجيوش البرية ومعهم أمير اسمه عابدى باشا وآخر اسمه درويش باشا وهما مقدما الجيش المذكور فلاقاهم حسن باشا بالعادلية وسار معهم حتى دخلوا المدينة فى أبهة وجلالة وعسكروا بها فلم يحصل منهم إيذاء ولاعربدة بل كانوا اذا اشترى أحدهم شيأ نقد صاحبه ثمنه حالا وباتوا تلك الليلة بخيامهم عند سبيل قاز وأصبحوا وقد ركب عابدى باشا ودرويش باشا وسارا امام العسكر الى البساتين فمروا بالصحراء وباب الوزير وأجروا عليهم الرواتب من الخبز واللحم والارز وكأنه لما استقربهم المقام تاقت نفوسهم الى استخدام الجوارى كما فعل عسكر حسن باشا بجوارى الامراء المصريين وجوارى قبطة مصر فقد نودى بعد أيام على المسيحيين من أهل البلاد كافة باحضار ماعندهم من الجوارى ثم نزل العساكر بعد النداء وهجموا على بيوت المسيحيين واستخرجوا مافيها من الجوارى والعبيد فكان شيأ كثيرا وأحضروهم الى حسن باشا فباعهم الى العسكر بابخس الاثمان ثم صاروا يبيعونهم بالمرابحة فاذا أراد أحد أن يشترى جارية ذهب الى بيت الباشا وطلب

ذلك فيعرض عليه الجوارى من مكان عند بيت النساء فاذا أعجبته جارية أو أكثرحضرصاحبها الذى اشتراها فيخبره برأس ماله ويقول له وأنا آخذ مكسبى كذا فلايزيد ولاينقص فان أعجبه الثمن دفعه والاتركها وذهب ثم وقع التشديد على ذلك وأحضروا الدلالين والنخاسين واستدلوا منهم على من عنده واحدة من الجوارى فكانوا يفتشون بيوتهم دفعات متوالية حتى اشتد الكرب وعم الخطب ولم يقف حسن باشا المذكور عند هذا الحد من الجور والعسف بل أمر بجمعوا المهندسين والبنائين ليدلوا على الخبايا والمطامير التى ربما يكونون قد أنشؤها للامراء والناس كافة فى بيوتهم فكان لايشعر صاحب البيت وهو بجانب عياله الاوقد هجم عليه جماعة من العسكر ودخلوا البيت وأخذوا ينقبون الحيطان وينبشون الارض ويدخلون الحال بلا حياء فيأخذون مايجدونه من فراش أونحاس أوغير ذلك ويخرجون وصاحب البيت فى دهشة وجمود لايدرى ماسبب حضورهم ولاما أخذوه وهكذا حتى ضج الناس وعم الخوف وراجت السعاية وظهر شأن أصحاب الدسائس والفتن وعمت الشدة جميع النصارى فضربت عليهم المغارم وطولبوا بخمسة وسبعين ألف ريال نقرة وأمر باحصاء جميع دورهم وملكهم فاحصيت فقرر عليها أجرة تدفع الى خزينة السلطان ثم ضرب عليهم غرامة أخرى قدرها خمسة آلاف كيس فضاقت عليهم الدنيا برحبها وباع الكثير منهم جميع ماعنده حتى ملابسه وملابس عياله وقرر على كل شخص منهم جزية جديدة قدرها دينار بلافرق وذلك خلاف الجزية الديوانية المقررة على كل واحد منهم وتتبع الديارات وأخذ كل ما وجده فيها من ودائع وقبض على المعلم واصف أحد عظماء القبط يومئذ ورئيس حسابات الديار المصرية وعليه جميع الايرادات والمصروفات فجلده وحبسه وطالبه بالاموال وكان المعلم واصف المشار اليه كاتبا حاسبا عاقلا حاد الذهن وقاد الذاكرة وكان يعرف التركية حق المعرفة وقبض أيضا على نساء المعلم ابراهيم الجوهرى وكن فى بيت حسن أغا كتخدا على بيك أمين الحساب وضيق عليهن فاعترفن ببعض الخبايا فأخرجوا منها أمتعة وأوانى ذهب وفضة وسروجا وغير ذلك فأخذها ولم يترك سراح النساء بل بقين تحت الحجر أياما كثيرة

وجاء الخبر بوصول ابراهيم بيك الكبير ومراد بيك ومن معهما الى أسيوط وان السفن الحاملة للعساكر السلطانية سائرة خلفهم فبعث حسن باشا بسفن أخرى وعليها بعض طوائف الجند فسارت ولحقت بالاولى فلما صاروا امام اسيوط أطلقوا عليها المدافع تباعا فأجابتهم مدافع ابراهيم بيك ثم ترفع ابراهيم بيك ومن معه الى الجبانة فلم تتمكن السفن من اطلاق المدافع عليهم وبعثوا الى حسن باشا بذلك فعقد الديوان وجمع الامراء وقلد قاسم بيك أبو سيف ولاية بجرجا وقيادة الاجناد والعساكر التى تقرر ارسالها مع عابدى باشا ودرويش باشا وعين معهم عدة كثيرة من الامراء ورسم بسرعة التجهيز والرحيل وصرف النفقة فأنفق هو على قومه فأعطى لكل أمير خمسة عشر ألف ريال والوجاقلية سبعة عشر ألف ريال وأنفق عابدى باشا فى عسكره فأعطى لكل نفر خمسة عشر قرشا فغضبت من ذلك طائفة الدلاة

واجتمعوا بأسرهم وخرجوا الى ناحية العادلية مغضبين يريدون الرجوع الى أوطانهم فانزعج الناس ولم يعرفوا ما الخبر فلما بلغ حسن باشا ما وقع ركب فى عسكره وسار الى العادلية يريد قتالهم فخرج معه بعض العساكر المصرية وركب كذلك عابدى باشا ولحق به عند قصر قايماز وكان هنالك أحمد باشا الجداوى فنزل اليه أيضا وأخذوا يستعطفونه ويسكنون غضبه وأرسلوا الى الدلاة فاسترضوهم وزادوا أعطيتهم وجعلوا لكل نفر أربعين قرشا فاذعنوا وأطاعوا وعادوا جميعا الى القاهرة * وخرج عابدى باشا ودرويش باشا بعسكريهما ونزلوا بالبساتين يومين ثم ارتحلوا الى الاقاليم القبليـة فخرجت طوائف الوجاقليـة أيضا ونزلوا بخيامهـم فى البساتين ولبثوا أياما قلائل حتى جاء أحد كبار العساكر السلطانية من الشام ومعه طائفة من العسكر فنزلوا بالعادليـة يوما ثم ساروا الى البساتين وقاموا منها الى الاقاليم القبليـة فقامت معهم طوائف الوجاقلية ونودى بان لايتخلف أحـد من العسكر ومن تثاقل قتـل من غير معاودة

ولم يكن تسيير الجنود و إعداد معدات الحرب ليشغل حسن باشا أمير السفن عن كشف عورات الناس ومصادرتهم فى متاعهم وأموالهم وأخذ كل ما وصلت اليه يده وتفتيش مساكن أصحاب البيوتات العالية واخراج مافيها وقد دلوه على مكان ببيت المعلم ابراهيم الجوهرى مرتفع مهـدوم الدرج وكان هـذا المكان لولده مات فى عنفوان شـبابه من نحو الستين سنة فلما مات هدمت والدته الدرج الذى يوصل اليه حزنا على ولدها وترك بما فيه فصعدوا اليه وأخرجوا منه شيأ كثيرا من فرش وأمتعة مزركشة وأوانى ذهبية وفضية وصينية وغير ذلك فاحضرت جميعهـا الى حسن باشا فباعها بالمزاد بين يديه فى عدة أيام و بالغ فى تفتيش البيوت والاصغاء لاهـل السعاية والوشـاة واشـتدت رغبته فى قطع دابر ابراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما ومحو آثارهم فاجهد النفس و بالغ فى اتخاذ الطرق والوسائل وأكثر من المدد لعساكره الذين ذهبوا لقتالهم وكان فى كل يوم يبعث بالرسل لتأتى له بالاخبار فلما كان يوم الاربعاء عاشر ذى الحجة من السنة الذى هو يوم عيد النحر وردت اليه الاخبار بوقوع موقعة عنيفة بين ابراهيم بيك والعساكر السلطانية لم يتم فيها الظفر لاحـد من الطرفين فاغتاظ من ذلك جدا اذ كان يرجو انقضاء الامر قبل دخول فصل الشتاء وهبوط النيل وتعذر انحدار سفن الحرب فأمر عند ذلك بعدم فتح الترع التى كانت تفتح عادة بعد عيد الصليب كبحر أبى المنجا وبحر مويس والقرينين خوفا من نقص الماء وأرسـل الى عابدى باشا ودرويش باشا ومن معهـما من كبار العسكر يستحثهم و يستنهض هممهم الى الفتك بابراهيم بيك ومراد بيك فرد عليـه عابدى باشا ردا حسنا وأرسل اليه أيضا بمكاتبة كانت وردت اليه من ابراهيم بيك ردا على خطاب كان بعث به عابدى باشا يقول فيه بعد كلام مانصه * كم تخاطبوننا بالكفرة والمشركين والظلمة والعصاة مع اننا بحمد الله تعالى موحدون واسـلامنا صحيح وحججنا بيت الله الحرام وتكفـير المؤمن كفر ولسنا عصاة ولامخالفين وماخرجنا من مصر عجـزا ولاجبنا عن الحرب الاطاعة للسلطان ولنائبـه فانه أمرنا بالخروج تسكينا للفتنـة وحقنا للـدماء وقـد وعدنا انه يسعى فى تقرير

قاعدة للصلح فخرجنا على هذا الشرط ولم نرض باشهار السلاح فى وجوهكم وتركنا بيوتنا وعيالنا فى عرض السلطان ففعلتم بهم مافعلتم ونهبتم أموالنا وهتكتم اعراضنا وبعتم أولادنا وأحرارنا وأمهات أولادنا وهذا الفعل ماسمعنا به حتى ولا فى بلاد الكفر وما كفاكم ذلك حتى أخرجتم خلفنا العساكر ليخرجونا من بلاد الله الواسعة ويهددونا بكثرتهم وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله وأما عساكر مصر فأمرها فى الحرب والشجاعة مشهور فى سائر الاقاليم والايام بيننا وكان الاولى لكم الاجتهاد والهمة فى استخلاص البلاد التى أخذها الكفار واستولوا عليها مثل القرم والورن واسمعيل لا ان تأتوا هنا على هذه الصورة المنكرة وكتب غير ذلك من اقوال اخرى ركيكة المبنى قد أضربنا عن ايرادها * فأجابهم عابدى باشا ونقض عليهم وزحف بعسكره فاشتبك بينهم القتال عند المنشية والتحم الفريقان فقتل منهم جملة كبيرة وابلى المصريون بلاء حسنا للغاية فتنحت عنهم العساكر السلطانية ناحية وهجم ابراهيم بيك وأصحابه وألقوا بأنفسهم فى نيران الحرب وطلب كل غريمه ثم اندفع العثمانيون وظهر من شجاعة عابدى باشا ماشهدت به الاعداء وأصابت اسمعيل بيك الكبير رصاصة فى فمه فخرجت من صدغه فولى منهزما وألقى بنفسه الى النيل وركب فى حراقة صغيرة وانحدر الى مصر وكان حسن باشا أكثر من استدعائه وهو يعده ويرجوه كتمان خبر طلبه فلما دخل القاهرة اجتمع بحسن باشا برهة ثم ذهب الى بيت مملوكه على بيك چركس وقد خلع عليه حسن باشا خلعة سمور وأصبح وقد شاع خبر حضوره على هذه الصورة فتحدث الناس فى أمره وكثر اللغط وأعقب ذلك أيضا الاشاعة بهزيمة العساكر السلطانية وأرسل حسن باشا فى طلب طوائف العسكر الذين بمدينة الاسكندرية وأرسل أيضا الى دار السلطنة يطلب المدد وحضر حسن بيك الجداوى ومعه بعض الجند وقد أصيب بجراحة عظيمة فثبت بحضوره خبر هزيمة العساكر السلطانية وكذلك حضر بقية الامراء وأكثرهم مصاب بجروح ثم وصل عابدى باشا أيضا ونزل بقصر العينى أياما وهو محتجب عن الناس الا القليل من قومه ولم يظهر الا لملاقاة الرسول الذى حضر من دار السلطنة بمرسوم ولايته على مصر وخلع محمد باشا يكن وتسييره الى ديار بكر بدلا من عابدى باشا وانتشر الخبر بذلك فى مصر والقاهرة وعم الآفاق وجعل عابدى باشا ينقل أمتعته الى بولاق القاهرة ويتأهب للصعود الى قلعة الجبل وذلك فى المحرم افتتاح سنة احدى ومائتين وألف هجرية وسافر محمد باشا يكن الى مركز ولايته الجديدة فكانت مدة تصرفه سنتين وبضعة أشهر وكان كريم الاخلاق عاقلا رزينا يكره الظلم ويبغض أهله فلذلك لم يكن ليرضى عن أعمال حسن باشا أمير السفن بل كان ناقما عليه كثير التوجع مما أصاب الرعية من عسفه وجوره * وصعد عابدى باشا الى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الامور ويدبر مع حسن باشا أمر الحرب مع الامراء المصريين فأكثر من ارسال المدد الى درويش باشا وبث العيون والارصاد حول ابراهيم بيك ومن معه فجاءه الخبر يوما بانحدار ابراهيم بيك وجموعه الى مصر واقتراب طلائعهم من بنى سويف وانه مات منهم عدة كبيرة من الامراء والكشاف

مطلب
عزل محمد باشا يكن وولاية عابدى باشا

ولكن مازالت نفوسهم قوية على الحرب وقد أحبوا الموت فأزعجه هذا الخبر واستعظمه ثم جاءه بعد قليل رسول من قبل مراد بيك ومعه مكاتبة تتضمن طلب الصلح والالحاح بالكف عن القتال حقنا للدماء وانهم قد تابوا ورجعوا عما كانوا عليه ثم قالوا *فان لم تجنحوا الى الصلح فليس بيننا وبينكم غير الحرب والقتال فلما وقف أمير السفن على مافى خطاب مراد بيك أسرع فى تسيير مابقى عنده من مراكب الحرب الى ناحية التبين فاصطفت هنالك وأمر فعملوا متاريس وحفروا خندقا ووضعوا من المدافع عدة كثيرة وخرج رضوان بيك بليفيا وسليمان بيك الشابورى وعبد الرحمن بيك عثمان وبرزوا بخيامهم ناحية البساتين ليسيروا منها الى الصعيد وأتت الجواسيس فأخبروا بتربص ابراهيم بيك وجوعه بناحية بنى سويف ومراقبتهم للفرص فانفق حسن باشا فى العسكر ثلث نفقة وطلب من التجار قرضة لينفقها فشكوا من كساد الحال فشدد فى الطلب فأغلقوا حوانيتهم فهجم الجنود على بيوتهم ونهبوا ماوجدوه فيها وفرض على الاهالى مبلغا عظيما من المال فجمعوه بشق الانفس وطلب الخيول والبغال والحمير والجمال فأخذوا دواب الناس بلا ثمن وجمال السقائين كافة والمكارية فضج الناس وعجوا الى الله تعالى ووقع الصياح فى العامة والبكاء من نساء السقائين والمكارية وغيرهن وكثرت ولولتهن وطفن حاسرات يندبن فلم يلتفت اليهن ولا رد شيأ مما أخذ ووردت مكاتبة أخرى من ابراهيم بيك بطلب الصلح وحقن دماء المسلمين فجمع حسن باشا الامراء كافة وقرأها عليهم فأبوا جميعا الا القتال وبعد كلام أشار حسن بيك الجداوى بصرف طائفة المحمدية من العساكر تخوفا وتخيلا منهم اذ هم ميالون الى ابراهيم بيك وأصحابه فأجابه حسن باشا الى ذلك وأمر فجمعت منهم خيولهم وسروجهم فكان لذلك أثر مهم وكادت جيوشه لذلك تفشل فهاله الامر ووقف فى وسط الجند وقال مخاطبا لكبار العسكر قد أمنتكم فلا تكونوا من الخائنين واياكم والخدعة والاخذ بالوجوه فتنحازون الى الاعداء بغضا فينا أو تزلفا اليهم وحرصا على الجنسية فافقهوا واعلموا انكم ان فعلتم شيأ من ذلك خربت البلاد سبع سنين عقابا وجعلت الدماء فيها الى لبب الخيل* ثم نادى المنادى بالتأهب وعدم تخلف أحد وطاف الأغا على العساكر والاجناد يخرجهم من أماكنهم ويقف على الخانات ويسأل عمن بها منهم ويحثهم على سرعة الخروج والالتحاق بالعسكر *وعادت رسل ابراهيم بيك الى معاودة حسن باشا فى أمر الصلح وأحضروا معهم ابن أخ عابدى باشا وكان قد أسر مع بعض العساكر السلطانية فى الوقعة الاخيرة وأرسلوا معه منهوبات عابدى باشا وجميع الجواريح وقد أنفقوا على كل واحد منهم دينارا فلم يجبهم حسن باشا إلى الصلح الا بشرط خروجهم من الديار المصرية بعيا لهم ونسائهم الى بلد يختارونها والا فالحرب والقتال فلما عادت الرسل بهذا البلاغ اتفقوا جميعا على الانحدار الى مصر واصلاء نار الحرب حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فانحدروا ووصلت طلائعهم الى أرض الجيزة وصاروا بين الرقق والجيزة وفرضوا الكلف

والمغارم

والمغارم ومؤنة العساكر على أهالى الجيزة فبرز عند ذلك اسمعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى بخيامهما الى ناحية طرا ومنعوا السفن والمعادى كافة وأرسوهم بالجانب الشرقى من النيل كى لايتمكن جموع ابراهيم بيك من العبور الى مصر ونودى على جميع طوائف المحمدية بالخروج والاجتماع تحت لواء اسمعيل بيك ومن تأخر عوقب وقبضوا على عدة كبيرة منهم ونهبوا بيوتهم وسجنوهم بقلعة الجبل فخرجوا جميعا من عساكر ومماليك واتباع وطلب اسمعيل بيك من تجار المدينة قرضا للنفقة فاعتذروا فادعى على تجار البن بمبلغ من المال قال هو باقى حساب له يوم كان قابضا على زمام مشيخة البلد فصالحوه على مبلغ أربعة آلاف ريال وجاء رسول من قبل ابراهيم بيك الى حسن باشا ينذره بالحرب والقتال ويعلمه بخروج جموع ابراهيم بيك وانحدارهم الى مصر فتعجب حسن باشا من ذلك ولم يعوّق الرسول بل سرحه ونادى فى عسكره بالتأهب وخرج هو واسمعيل بيك وحسن بيك الجداوى وجميع الامراء وساروا الى نواحى البساتين ثم اجتاز بعض العساكر البحرية النيل الى انبابة وعملوا هنالك متاريس وخنادق وانحاز ابراهيم بيك ومراد بيك وجموعهما الى ناحية الاهرام باحمالهم وجعلوا يتربصون الفرص ويتبينون انتفاعها وقدسئمت نفوسهم الحياة على هذا الحال واتفق انه دخل المحمل والحاج القاهرة فى هذه الايام بعد أمور وقعت للحجاج فى الطريق يطول شرحها فسار حسن باشا وبعض الامراء لملاقاته وتحقق ماجرى على الحجاج فلما علم ابراهيم بيك بتغيب حسن باشا عن القاهرة زحف ليلا بجموعه على المتاريس التى بانبابة وهجموا عليها هجمة رجل واحد فصدهم أصحاب المتاريس وأطلقوا عليهم المدافع من البحر والبر وتابعوا الرمى من الفجر الى طلوع الشمس فرجع ابراهيم بيك وأصحابه الى مواقعهم من غير طائل ثم عادوا بعد ظهر اليوم فردوا على أعقابهم وارتحلوا الى دهشور وأقاموا بها أياما فساءت جموعهم وداخلهم الفشل وانسلخ منهم جماعة كثيرة وانحازوا الى العساكر البحرية فخاف ابراهيم بيك شر العاقبة وجنح الى اعادة الكلام فى أمر الصلح وكتب يطلب ان تعطى لهم بعض الجهات بالصعيد ليقيموا بها ويتعيشوا منها وينكفوا عن القتال فأجابه حسن باشا الى ذلك بشرط ان لايسمح بذلك الا لجماعة قليلة منهم ويحضر باقى الامراء والعسكر الى القاهرة ويقيموا بها فلم يرض ابراهيم بيك بذلك وترفعوا الى ناحية بنى سويف واستقروا بها فرجعت عنهم عند ذلك عرب الهنادى الذين كانوا معهم وفارقوهم وأخذت أحوالهم فى التأخر وشدد حسن باشا فى تسيير العساكر الى الصعيد فساروا فى خيل ومدافع وكثير من المعدات وسار خلفهم عابدى باشا ومعه لفيف الامراء وجاء الى حسن باشا المدد من عساكر السلطان من قبرس والقرمان وغيرهما فعسكروا فى البساتين ورسم حسن باشا فصنعوا ابراجا نقالة ومتاريس على اشكال مختلفة وسيرها خلف العساكر ثم وردت الاخبار بعد أيام بارتحال ابراهيم بيك ومن معه من بنى سويف الى أسيوط وان قد تخلف عنهم كثير من المماليك والاتباع فى نواحى منية ابن

خصيب وغيرها وجاء منهم جماعة الى القاهرة وحدثوا بأخبارهم وقد انضم جماعة من الامراء الى معسكر عابدى باشا طائعين فأمنهم واستبقاهم ولما وصلت العساكر السلطانية الى أسيوط ترفع ابراهيم بيك وجموعه الى طحطا وتترسوا بها وتأهبوا للقتال فسارت العساكر خلفهم ثم انقطعت بعد ذلك الاخبار حينا فخاف حسن باشا وتابع ارسال الرسل لاستطلاع الاخبار ومعرفة ماحل بالعسكر فلم يرجع منهم من يخبر بالخبر وبقى الحال هكذا أياما ثم قدم رسول ومعه مكتوب من عابدى باشا يخبر بوقوع الحرب فى يوم الجمعة ثامن عشرى ربيع الآخر سنة احدى ومائتين ناحية الامير ضرار فكانت الهزيمة على ابراهيم بيك وجموعه بعد ان أبلوا بلاء حسنا جدا وهزموا العساكر السلطانية هزيمتين وهجموا على الحصون والمتاريس والابراج النقالة هجوم الاسود الضوارى فقتل منهم عدة كبيرة من الامراء والاجناد والمماليك قال الراوى وكانت الحرب بينهما نحو ست ساعات مات فيها من العساكر السلطانية عدة وافرة فلما علم حسن باشا بما ذكر سكن روعه وأمر فأطلقت المدافع من قلعة الجبل نهارا والحراقات والالعاب النارية ليلا وطاف المبشرون على بيوت المشايخ والاعيان يبشرونهم بنصر العساكر السلطانية فأتوا وهنؤا حسن باشا بهذا النصر وترفع ابراهيم بيك ومن بقى من جموعه الى عقبة الهو ثم ساروا منها الى ابريم والعساكر فى اثرهم تتخطفهم من خلف ثم عادت العساكر الى اسنا ونزلت بها وكتب عابدى باشا يسأل البقاء بمن معه من العسكر والامراء باسنا أو الانحدار الى مصر فكتب له حسن باشا بالانحدار ومعه اسمعيل بيك الكبير وباقى الامراء وترك حسن بيك ومحمد بيك المبدول ويحيي بيك باسنا مع سائر العسكر فانحدر عابدى باشا والامراء المذكورون الى مصر فدخلوها فى يوم الاحد حادى عشر رجب وصعد عابدى باشا الى قلعة الجبل من غير ابهة ولا كبكبة فلم يستقر به المقام حتى جاءت الاخبار منبئة بزحف ابراهيم بيك وجموعه الى أسوان وانهم عبروا النيل الى اسنا فأجلوا عنها من كان بها من العساكر واحتلوها وانحدروا الى جرجا فارتحل عنها من بها من العساكر أيضا ورجعوا القهقرى فادهش حسن باشا هذا الخبر وجمع اليه الامراء وأرباب المناصب وشاورهم فى الامر فاختلفت كلمتهم وتباينت أهواؤهم ثم استقر رأيهم على ان يخابروهم فى الصلح بشرط انهم يقيمون فى البلاد التى كانت بيد اسمعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى وأن يرسلوا الى مصر أيوب بيك الكبير وايوب بيك الصغير وعثمان بيك الاشقر وعثمان بيك المرادى ليقيموا بها رهائن وكتبوا بذلك مكاتبات وأرسلوها صحبة الشيخ سليمان الفيومى وبعض الامراء فقبل ابراهيم بيك ومراد بيك هذا الصلح وجنحوا لشروطه فأرسلوا أيوب بيك الكبير رهينة عن المماليك المحمدية وعثمان بيك الطنبرجى عن مراد بيك وعبد الرحمن بيك عن ابراهيم بيك الكبير فلما تمثل هؤلاء بين يدى حسن باشا سأل الامراء فى أمرهم فقالوا لم يحضر ممن طلب سوى ايوب بيك الكبير ولا سبيل للصلح الا بتنفيذ شروطه فكتب حسن باشا بذلك ثانيا الى ابراهيم بيك ومراد بيك وأرسل اليهما

كتخداه فقبلوا بشرط اعطائهما بلادا زيادة حيث ان ماأعطى اليهما لم يكفهما فزادهم حسن باشا خمسة بلاد أخر فلما استقرت القاعدة بينهم على ماذكر جاء الطلب الى حسن باشا بسرعة الرجوع الى دار السلطنة حيث انتشب القتال بين الدولة العلية والروس وقامت الحرب على ساقها فجمع المشايخ وسائر الامراء وعابدى باشا فى مقره وقرأ عليهم مرسوم السلطان بالطلب وطرف من أخبار الحرب مع الروس وتولى الروس على مابقى من بلاد القرم وشنهم الغارة على كثير من أملاك السلطنة ثم ابرز مرسوما آخر يتضمن العفو عن ابراهيم بيك ومراد بيك من القتل وبقاء ابراهيم بيك بقنا ومراد بيك باسنا وعدم التصريح لهما بالعود الى مصر أبدا ثم أظهر عزمه على الركوب والسفر فى يوم الجمعة بعد صلاة الظهر ثانى عشر ذى الحجة من السنة

فلما كان اليوم المذكور ركب جميع الامراء وسائر أرباب المناصب لوداعه فلما تكامل حضورهم فى مقره أمر فقبضوا على جميع الامراء الرهائن وسلمهم الى اسمعيل بيك وأمر فسلموا له أيضا عدة مدافع وكثيرا من آلات الحرب وقليونا صغيرا ورتب له جماعة من العساكر السلطانية عددهم ألف وخمسمائة يقيمون بمصر ثم رحل الى الديار الرومية وأخذ معه الامراء الرهائن ففرح الناس بارتحاله اذ لم يروا على يديه خيرا وقد ضاقت نفوسهم مما ذاقوه من جوره وعسفه فانفرد اسمعيل بيك بامارة البلاد وعلت كلمته ونفذت اشارته وهابه الامراء فوزع المناصب العالية بين قومه وأتباعه ومماليكه واستوزر محمد أغا البارودى فأعانه على فعل مافى نفسه فتعقب زلات الناس وآخذ على صغائر الامور وكبائرها وشدد وهدد فى طلب المغارم وفرضها على الناس على اختلاف أجناسهم فضجوا واستغاثوا واجتمعوا وذهبوا الى الازهر وصاحوا من جور هذا النازل وحضر الشيخ العروسى فقاموا فى وجهه وهموا بقفل أبواب الجامع فمنعهم من ذلك فصاحوا عليه وسبوه وسحبوه بينهم الى جهة رواق الشوام فمنع عنه المجاورون وأدخلوه فى الرواق ودفعوا عنه الناس وأغلقوا عليه الباب ومعه طائفة المتعممين وكتبوا كتابة بذلك الى اسمعيل بيك وأرسلوها اليه صحبة الشيخ الفيومى فبعث جوابا بالعفو والامان وعدم المطالبة بتلك النوازل وانها انما هى قرض من القادرين على دفعه فلما قرأ عليهم الجواب صاحوا هذه خدعة لانرضى بها أبدا فركب الشيخ العروسى وحوله هذا الجمع العظيم والغوغاء والمجاورون ولا سيما العميان منهم وطائفة من المجاورين تدفع الناس عن العروسى والعامة يصيحون عليه ويسبونه ويخاطبونه بفحش القول الى أن وصل الى باب زويلة فنزل بجامع المؤيد وأرسل الى إسمعيل بيك يخبره بهذا الحال فحنق اسمعيل بيك وظن انها مكيدة من الشيخ وانهم انما فعلوا ذلك باغراء منه فأجابه الرسول وحلف له ان الشيخ برىء من ذلك ولا قصد له سوى الخلاص فأرسل لهم بالامان ومعافاتهم من تلك المطالب فبلغهم الشيخ ذلك وأشار عليهم بالانصراف فأطاعوا وانصرفوا ومضى على ذلك يومان ثم أمر اسمعيل بيك فاطلق المطالبون الى أهل الصاغة

والجواهر جيدة والنحاسين وطالبوهم بالمقرر عليهم فقاموا بوفائه صاغرين ثم طالبوا وكلاء الجلابة وتطرقوا الى مطالبة بقية الاهالى وأرباب الحرف كافة فكانت اثنتين وسبعين حرفة

ولم تكن لتستقر الراحة باسمعيل بيك بعد تلك الخطوب حتى جاءه الخبر بانتقاض ابراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما من الامراء وانهم زحفوا من أسيوط على منفلوط فهرب من كان بها من الجند والكشاف وجاؤا الى مصر وأخبروا بذلك فلما تحقق الخبر صعد اسمعيل بيك فى صبح اليوم الى قلعة الجبل وجمع الامراء وكبار الوجاقات والمشايخ وقص عليهم الخبر وقال هل يجوز قتالهم الآن فقال المشايخ يجوز قال حيث جاز قتالهم فقد وجبت النفقة من الخزينة السلطانية وحيث لاخزينة للسلطان فى هذه الديار فقد وجبت عليكم جميعا فضاقوا عند سماعهم هذا الكلام واعتذروا وأظهروا العجز وكساد الحال وضيق ذات اليد فلم يقبل منهم وشدد فى الطلب وهدد وبالغ فى الوعيد فطلبوا مهلة وعادوا الى الكلام فى هذا الموضوع فاتفقوا على أن يبلغوا دار السلطنة خبر انتقاضهم ورجوعهم الى العصيان وأن يكتبوا لهم أيضا انذارا وتحذيرا فان زحفوا على مصر قبل أن يأتى جواب الباب العالى قوتلوا والا تربصوا حتى يأتى الجواب* واتفق فى هذه الاثناء حضور والٍ الى جدة اسمه محمد باشا بعسكر جرار ونزل بالسويس يريد ركوب السفن بعسكره الى جدة فكتبوا اليه أن يحضر بعسكره الى القاهرة وأمر اسمعيل بيك بغلق جميع أبواب المدينة الا باب النصر ووضع على الابواب طوائف الحراس وضربت المغارم على البلاد من أجل نفقة العسكر فجعلوا على كل بلد مائة دينار نقرة وعشرة عدا مايتبع ذلك من الكلف وقيدوا بتحصيلها قوما وجمعوا جميع مماليك واتباع الامراء الذين مع ابراهيم بيك وهم الذين تخلفوا بمصر والقاهرة فأخذوا ماوجدوه معهم من خيل وسلاح وأنزلوهم فى سفن الى الاسكندرية وحبسوهم فى برج هناك وشرع اسمعيل بيك فى اعداد معدات الحرب وجمع الذخيرة والمؤن واجتهد فى سبك القنابل واتقان المدافع وكان يباشر ذلك بنفسه فى كل يوم وبينما هو على هذا الحال اذ قدم رسول من قبل ابراهيم بيك ومعه مكتوب للامراء والمشايخ بمصر يكذب فيه ماعزى اليهم من نقض العهد والخروج ويقول ان الذى انتقض وعمل على خلاف العهد هو حسن باشا القبطان حيث أخذ معه الرهائن وأذاق الذرارى والنساء مضض الضيق فكتبوا له يلاطفونه ويهوّنون عليه حتى يتمكنوا من جمع العساكر والتأهب للقتال ولم يكتبوا له بما وقع الاتفاق عليه حتى جاءت منه مكاتبة أخرى بعزمه هو ومن معه على القتال ومبارزة الاعداء وجها لوجه فجمع الباشا المشايخ والعلماء والامراء فى ديوانه وقرأ عليهم مكاتبة ابراهيم بيك فوقع فيهم الهرج وكثر القال والقيل فابرز لهم الباشا فتوى موقعا عليها من شيخ اسلام دار السلطنة أجاز فيها قتال ابراهيم بيك وجموعه ومحاربتهم ثم طلب منهم أن يفتوه هم كذلك بجواز الحرب والقتال ليدفع

أذاهم عن البلاد وأهلها فنزل المشايخ فى الحال من قلعة الجبل الى الجامع الازهر واجتمعوا جميعا ونظموا هذا السؤال

ماقولكم دام فضلكم فى جماعة أمراء وكشاف تغلبوا على البلاد المصرية وحصل منهم الفساد والافساد ومنعوا خراج السلطان وأكلوا حقوق الفقراء والحرمين ومنعوا زيارة النبى عليه الصلاة والسلام وقطعوا علوفات الفقراء وجماكى المستخدمين والانبار وأرسل لهم السلطان يأمرهم وينهاهم فلم يطيعوا ولم يمتثلوا وكرر عليهم أوامره فلم ينتهوا فعين عليهم عساكره وأخرجهم من البلاد ثم ان نائبه صالحهم وفرض لهم أماكن وعاهدهم على أن لايتعدوها حقنا للدماء وقطعا للنزاع وتسكينا للفتن وأخذ منهم رهائن على ذلك ورجع لمخدومه فعند ذلك تحركوا ثانيا وزحفوا على البلاد وسعوا فى ايقاع الفساد وقطعوا الطرق ونقضوا العهود فهل يجوز لنائب السلطان دفعهم وقتالهم بشرط عدم ازالة الضرر بالضرر أم كيف الحال* ثم كتبوا الجواب يجوز قتالهم ودفعهم وانه يجب على كل مسلم المساعدة *ورفعوا هذه الفتوى الى الباشا فكتب الباشا فرمانا بالقتال ونزل أغاة مستحفظان ونادى فى المدينة بقتال ابراهيم بيك ومن معه ونادى على أصحاب الوجاقات بملازمة أبوابهم وعلى العساكر والاجناد بالتأهب للرحيل الى الصعيد وانفق اسمعيل بيك على العسكر وكتب الباشا الى ابراهيم بيك يلزمه الرجوع الى مقره والخلود الى السكون وعدم نقض العهد ودفع الاموال المقررة على اقطاعاته واقطاعات بقية الامراء والا وجب قتالهم فلم يصل اليه هذا الكلام الا وقد زحف من طمطا الى منية ابن خصيب وقسم مراد بيك جميع البلاد التى مابين منية ابن خصيب ومصر على اتباعه ومماليكه والامراء الذين معه وصمم على الانحدار وإصلاء نار الحرب فلما علم الباشا بذلك فترت همته وضعفت عزيمته وقل اجتهاده فى جمع العساكر وترتيب الاجناد ثم بعثا الى الباشا ثانيا يقولان قد تركنا مصر وما فيها ولم نقصد الرجوع اليها واننا قد اتخذنا هذا الاقليم لنا مقرا فان قاتلتمونا عليه قاتلناكم الى النفس الاخير وان تركتمونا تركناكم ومصر ترتعون فيها وعقدنا معكم صلحا لايتخلل فان قبلتم ذلك فأرسلوا لنا بعض المشايخ والاختيارية نتفق معهم على مايحسن السكوت عليه فعقد الباشا الديوان وجمع جميع الامراء والمشايخ وأرباب الوجاقات وتشاوروا فى الامر فاتحدت كلمتهم على أن يكتبوا لهما بقبول جميع طلباتهما بحيث انهما يبعثان من قبلهما أميرين كبيرين فيهما الكفاية لفض النزاع ثم يعودان ومعهما من يلزم من المشايخ والاختيارية فقبل ابراهيم بيك ومراد بيك بذلك بشرط أن يكون لهما من البلاد من أسيوط وما فوق وطلبا ارسال المشايخ فارسلوا لهما الشيخ محمد الامير واسمعيل أفندى الخلوتى ولم يرتحل الشيخ ومن معه عن مصر حتى جاء الارصاد فأخبروا بزحف ابراهيم بيك فى جموعه الى طمطا وانحداره منها الى بنى سويف وتأكد الخبر فخاف اسمعيل بيك الكبير وهاله الامر وأمر بخروج العسكر فاخرجوا الخيام والمدافع الى ناحية البساتين وعملوا المتاريس ناحية طرا

والمعصرة والجيزة وجمعوا البنائين والفعلة وحفروا الخنادق وبنوا أبراجا من الحجر وأسوارا لوضع المدافع والمتاريس على جانبي النيل شرقا وغربا وكبر خوف بعض الكشاف والعسكر من أصحاب اسمعيل بيك وهربوا الى حيث مراد بيك فأحاط اسمعيل بيك بدورهم ونهب مافيها وأخرج نساءهم حاسرات حفايا تشفيا وانتقاما وعاد الشيخ الأمير ومن معه وأخبروا بانحدار ابراهيم بيك فى أربعين من أصحابه الى ناحية بنى سويف ولبثه بها وانه عدل عن الاقامة بالصعيد ويرغب الرجوع الى مصر فيعيش مع أصحابه ومن هم بها عيشة راضية هادئة وعفا الله عما سلف والا فالحرب والقتال فانزعج المشايخ عند سماع هذا الخبر واجتمعوا وصعدوا الى قلعة الجبل ودخلوا على الباشا فادرك اسمعيل بيك ماوراء ذلك من الفشل والخيبة * قال بعض الكتاب * فزور مرسوما من السلطان بالحث على الخروج وقتال ابراهيم بيك وجموعه فلما استقر بالمشايخ المقام كلموا الباشا فى أمر مجيء ابراهيم بيك فدخل عليهم اسمعيل بيك وأخبرهم بوصول المرسوم السلطانى فأمر به الباشا فقرئ فاختلفت عند ذلك كلمتهم وتفرقت أغراضهم وكادوا يفترقون على غير طائل ثم عادوا فاتفقوا على القتال فنودى فى الحال على العسكر بالخروج وملازمة المتاريس ونودى فى الاجناد كذلك بعد أخذهم النفقة فخرجت طوائفهم وملأت الحصون والمتاريس واشتد الامر على الناس فتعطلت الاسواق وارتفع الأمن وكثرت مخاوف الطرق خصوصا خارج أبواب مصر والقاهرة وتعطلت الاسفار وقل الوارد برا وبحرا واستقدم اسمعيل بيك عرب الهنادى فقدموا فى جموع كثيرة وأخلاط عظيمة وانتشروا فى الجهة الغربية من رشيد الى الجيزة فجعلوا ينهبون البلاد ويأكلون المزروعات ويوقفون السفن فى النيل فيقتلون من بها ويأخذون أحمالها قيل انهم قتلوا فى يوم واحد من بلدة النحيلة نيفا وثلثمائة انسان وكذلك كانت فعال عرب الشرق والجزيرة ببلاد الجانب الشرقى وجاء المدد من الشام بناء على طلب الباشا فحضر فريق من الارنؤد وكبيرهم اسمه اسمعيل باشا فخرج اسمعيل بيك للقائهم فدخلوا من باب النصر الى بولاق واستقروا بها فقدمت لكبيرهم التقادم والهدايا النفيسة من جميع الامراء ولبثوا على هذا الحال من الوقوف خلف المتاريس أياما حتى سئمت نفوسهم وانسحب الكثير منهم الى بيوتهم وكاد يتمزق جمعهم وقد وصل فى هذه الاثناء طائفة من جموع ابراهيم بيك على مقربة من متاريس ناحية طرا وعزموا على ان يدهموا من بالمتاريس فى الثالثة من الليل فسبق العين وأخبر اسمعيل بيك بذلك فانزعج وركب الامراء كافة وخرجوا الى المتاريس وركب الوالى والاغاة وصاروا يفتحون الدروب والحارات ويخرجون الجند من بيوتهم الى الحصون والابراج وباتوا ليلتهم فى هرج واضطراب وأصبحوا والمناداة متتابعة على الاهالى والعساكر والجند بالخروج فلما كان آخر النهار تحقق الخبر بأن ابراهيم بيك وقومه ترفعوا الى بياضة ثم الى الصعيد

وجاء فى هذه الاثناء سفير من قبل قيصر الروس برسالة سرية الى ابراهيم بيك ومراد بيك

ونزل بالاسكندرية فأقام بها أياما وقد علم اسمعيل بيك بخبره فاستقدمه الى مصر بحيلة لطيفة وأولم له وليمة فاخرة فى قصر العينى ثم قبض عليه فى صباح تلك الليلة وصعد به الى قلعة الجبل وحبسه ومنع من الوصول اليه* قال بعض أصحاب التاريخ وكان سبب قدوم ذلك السفير انه لما كثر عبث الامراء المصريين بالبلاد وخرجوا عن طاعة السلطان رغب السلطان فى قطع شأفتهم ومحو أثرهم ولكنه كان فى شاغل عنهم بشن الروس الغارة على بلاده وحدود مملكته فكان كلما هم بارسال فريق من عسكره مددا لمن بمصر منهم قامت الروس وشنت الغارة على أملاكه فيحجم عن تسيير العسكر الى مصر ويوجههم الى رد الروس وهكذا حتى أعياه الحال وكادت تضعف منه الآمال غير انه عزم عزما ثابتا على ان لايبقى لهم أثرا وأمر فجيشوا لذلك جيشا ضخما للغاية فلما علم قيصر الروس بذلك وكان من مصلحته ان تضطرم نارا لحرب بين الفريقين وتطول أيامها أرسل القيصر المشار اليه رسوله الى ابراهيم بيك ومراد بيك يخبرهما بقصد السلطان ويحثهما على جمع الكلمة والتكاتف وتحصين الحصون ومنع حسن باشا أمير السفن من النزول بعسكره الى مدينة الاسكندرية أوغيرها من بقية الثغور واجتمع قنصل الروس بابراهيم بيك قبل حضور أمير سفن السلطان وأخبره بخبره فلم يلتفت ابراهيم بيك يومئذ الى قوله فجاء أمير السفن المذكور فى عسكره وكان من أمره وما فعله ما مر بيانه وكان لما اشتد الضيق بابراهيم بيك ومراد بيك وأصحابهما أرسلا الى القنصل يطلبانه فسار اليهما سرا فسألاه المدد فوعدهما ورجع الى الاسكندرية كما حضر وكاتب دولة الروس فى ذلك فأجابته الى ماسأل وأرسلت اليه عسكرا جرارا وبعض سفن حربية وقدم ذلك السفير ومعه كتاب القيصر الى الامراء وكان قد شاع خبر رجوعهم الى القاهرة فلما وصل السفير بالكتاب وجد الحال على عكس ما سمع فكاتب القيصر بصورة مارأى وانه وان كان الحكم فى البلاد الآن للدولة العثمانية الا أن بمصر من الامراء الذين هم على شاكلة ابراهيم بيك ومراد بيك عدة كثيرة وهم قاهرون للدولة غالبون على أمرها فاذا أمدهم القيصر بعسكره قاموا على الدولة وأخرجوها من البلاد وأذهبوا سلطتها فكتب القيصر الى الامراء بمصر يقول مانصه* أيها الامراء قد بلغنا ان عبد الحميد الملك الغادر الخائن يريد بكم شرا ويسعى فى ايقاع الفتن بينكم رجاء ان يقتل بعضكم بعضا ثم لايبقى على من بقى منكم ويملك بلادكم ويفعل بها مافعل بغيرها من البلاد التى دمرها بظلمه وجوره فتيقظوا لانفسكم واطرحوا عنكم الخلاف واطردوا من يأتى اليكم من الترك وارفعوا على حصونكم وقلاعكم رايتنا واختاروا لكم رؤساء منكم وحصنوا ثغوركم وامنعوا من يصل اليكم من هذه الامة الا من أتى للرزق ولاتهابوه فنحن نكفيكم مؤنته وقلدوا من قبلكم ولاة وعمالا بالديار الشامية كما فعل ملوك مصر من قبلكم ويكون لنا الأمر ببلاد الساحل والواصل لكم كذا وكذا سفينة بها كذا وكذا من العسكر والمقاتلين وعندنا من المال والرجال ماتطلبون وزيادة على ماتظنون اه وجاء السفير بالخطاب ونزل بالاسكندرية وقيل بدمياط

وأنفذ الخبر سرا بوصوله وطلب الحضور الى القاهرة بنفسه فأعلم اسمعيل بيك الباشا بخبره سرا وأرسلوا اليه بالحضور فلما وصل الى شلقان خرج اليه اسمعيل بيك فى تطريدة كأنه لم يشعر بقدمه وكأنه على العهد معه وأعد له منزلا ببولاق وأنزله به ليلا ثم اجتمع به ومعه على بيك وحسن بيك ورضوان بيك وكأنهم هم زعماء العصابة وقرؤا المكاتبة بينهم ولم يتموا قراءتها حتى جاءهم جماعة من اتباع الباشا فى طلب السفير وكان ذلك باشارة خفية بينهم وبين الباشا فركبوا معه الى القصر العينى وأرسل الباشا فى تلك الليلة الامر بحضور أهل الديوان فى صبحها فلما تكامل حضورهم أخرج الباشا تلك المكاتبة فقرئت عليهم قال الراوى لهذه الحكاية فشخصت عند ذلك الابصار ومدت الاعناق وتفرقت الاقوال وتباينت الاغراض ثم عادوا واتفقوا على أن يبعثوا بها الى دار السلطنة ففعلوا ووضعوا السفير المذكور بمكان فى قلعة الجبل وأسرعوا فى تسيير بعض سفن الحرب الى الصعيد للتشديد فى قتال ابراهيم بيك ومن معه * وكانت دولة الروس لا تنكف عن قتال الدولة العثمانية وتحريض جميع الايالات التابعة لها على الخروج وشق عصا الطاعة فانها بعد أن سيرت سفنها الى مصر وكتبت الى ابراهيم بيك ومراد بيك بما كتبته جعلت تدس الدسائس وتلقى الفتن فى بلاد القرم لتتمكن من احتلالها ووضع اليد عليها بحجة منع القلاقل والاضطرابات منها وما زالت على هذا الحال والدولة فى شاغل عنها حتى قام فريق من أهل القرم على أميرهم دولتكراى وخلعوه وأقاموا مكانه شاهين كراى فخالفهم فى ذلك الفريق الثانى وأبوا تعيينه فاشتد الخلاف بين الفريقين وقامت الفتنة وكانت كاترينة قيصرة الروس قد أقامت على حدود القرم زهاء سبعين ألف جندى وجعلتهم على قدم الاهبة والاستعداد فلما بدأت الوحشة تقع بين الحزبين أوعزت الى مقدم ذلك الجيش فدخل بلاد القرم بلا مانع ولا معارض فتم لدولة الروس وقيصرتها ما كانت تتمناه وأصبحت وهى مالكة لجميع سواحل البحر الاسود من الجهة الشمالية فاستعظم السلطان هذا الامر وأكبره وهم بالحرب وعمد الى اعداد معدات القتال وأكثر من تجنيد الجند وتجهيز سفن الحرب فأشار عليه ملك الفرنسيس يومئذ بالتربص وعدم الاندفاع الى حرب لا تحمد عاقبتها وأعلمه بأن بين كاترينة وامبراطور النمسا معاهدة سرية على قتاله وتخريب مملكته ومحو أثرها من البسيطة فنظر السلطان فلم يرله قبلا على فتح أبواب هذه الحرب فجنح الى مشورة ملك الفرنسيس وغض الطرف عما فعلته الروس بالقرم بل واعترف لكاترينة بتملكها على تلك الايالات العظيمة فلم ترض كاترينه من السلطان بهذا الاذعان والسكوت وقد تحققت عجزه وتقاعده عن الحرب فعمدت هى ويوسف الثانى امبراطور النمسا الى ايقاد نار الفتنة فى ايالتى الفلاخ والبغدان وبلاد اليونان وتوغير صدور مسيحى تلك الايالات على الدولة فأحس السلطان بما وراء ذلك وعلم انهما انما يريدان الحرب على كل حال فعاجلهما بها وسير الى سفير الروس فى دار السلطنة يطلب منه تقرير أمور لا ترضاها كاترينه منها جعل الحق لمأمورى السلطان فى تفتيش جميع سفن الروس

التجارية

التجارية التى تمر من بوغاز القسطنطينية فلم يقبل السفير شيأ من ذلك البتة فأمر السلطان عند ذلك فقبضوا عليه وسجنوه وساق العسكر فانتشبت الحرب بين الفريقين وخاف إمبراطور النمسا من ظفر العساكر السلطانية بالروس فسير الى مدينة بلغراد جيشا عظيما للاستيلاء عليها وارباك العساكر السلطانية فلم يفلح وعادت عساكره خاسرة وانتصرت عليهم العساكر السلطانية نصرة عظيمة وأدركت السلطان عبد الحميد منيته وهو على قدم القتال ثانى عشرى رجب سنة اثنتين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته زهاء ست عشرة سنة وأشهرا فتولى السلطنة بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن مصطفى

(الفصل الحادى والعشرون)

﴿فى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى﴾

ثم قام بالامر بعد السلطان عبد الحميد ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه السلطان عبد الحميد ثانى عشرى رجب سنة اثنتين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية فتولى السلطنة وهى محفوفة بصنوف المكاره والعدو يتهددها بتمزيق شملها ويعمل على ابادتها من عالم الوجود فاشتدت لذلك عزيمة السلطان وجعل يعبى الجيوش ويعد المعدات ويكثر من المؤن والذخائر ويستحث العساكر على القتال ودفع العدو عن البلاد وكانت العساكر قد ملت وكرهت الحرب فساقها فالتقوا مع الروس وعساكر النمسا معا واقتتلوا قتالا عنيفا للغاية دام زهاء ستين يوما ثم انكشف عن هزيمة العساكر السلطانية واستيلاء الروس على أكثر مدن الفلاخ والبغدان وبسارابيا واحتلوا مدينة بندر الشهيرة واحتل النمساويون بلغراد وفتحوا بلاد الصرب وغيرها ثم سارت بعد ذلك العساكر الروسية الى مدينة اسمعيل ونزلوا عليها وقاتلوها وكان بها الغازى حسن باشا بعسكر عظيم فقاتلوا عنها واشتد القتال بين الفريقين حتى فتحها الروس عنوة وأباحها قائدهم فاعمل فيها العسكر الذبح والنهب وأفحشوا فى ذلك جدا وجاء الخبر بما وقع فى المدينة المذكورة الى دار السلطنة فهاج الناس وماجوا وقاموا على ساق وقدم ونادوا بالويل والثبور على الغازى حسن باشا وطلبوا قتله أخذا بثار تلك النفوس البريئة فقتل واشتدت الحال على السلطان شدة بالغة وهاله اتحاد الروس مع النمساويين على قتاله وتحقق ان بقاء الحال على ذلك يدعو الى تمزيق مملكته وتمكن العدو منها فبالغ فى حشد الجيوش وإعداد معدات الحرب واستنهاض همم كبار الجند وأمناء الحرب وبقى الحال على ذلك أياما حتى أتاح الله من الاسباب ما أوقف رحى القتال وشغل النمساويين بموت امبراطورهم فتوسطت عند ذلك دولتا الانكليز وبروسيا بين المتحاربين فى أمر الصلح فتم على قاعدة تقررت

لذلك بعد أخذ ورد قد أضربنا عن ايراد تفصيلهما خوف الاطالة * وزاد اجتهاد اسمعيل بيك الكبير بعد القبض على سفير الروس وسجنه فى قلعة الجبل فى جمع العسكر ومعدات الحرب وأنشأ فى طرا قلعة على ضفة النيل وجعل بها مساكن عديدة ومخازن وحواصل وعمل الابراج والمتاريس والابنية ممتدة من قلعة الجبل الى سفحه وأخرج اليها المهمات والادوات وغير ذلك وأرسل الى دار السلطنة يطلب المدد * وارتحل اسمعيل باشا مقدم العساكر السلطانية بعسكره من بولاق الى الصعيد فتربص ابراهيم بيك وجوعه فى بلدة صول وعملوا بها سبعة متاريس فلما وصلت سفن عسكر السلطان الى المتراس الاول رست قباله وأطلقت مدافعها تباعا فلم تصل الى من بالمتاريس فأطلقت عليها المتاريس ووالت الرمى بالقنابل فأحرقت بعضها حتى كادت تغرق بمن بقى فيها فخرج فريق من العساكر الذين بالسفن يريدون الهجوم على ذلك المتراس فدهمهم كمين من أصحاب ابراهيم بيك وأعمل فيهم القتل فقتل منهم خلق كثير وهرب من بقى الى السفن فأخذ أصحاب ابراهيم بيك رؤس القتلى ورفعوها على الرماح ليراها من بالسفن ومع ذلك فانهم أرسلوا الى الباشا فى طلب الصلح فلما جنح اليه الباشا ومن معه من الامراء عادوا فتعللوا ولم يعطوا الرهائن فكبر هذا الامر على الباشا وشدد على مقدم الجيوش السلطانية بسرعة القتال وقطع شأفة هؤلاء الخوارج فمال القائد المذكور بعسكره الى ناحية صول وأخذ من فى السفن مما بقى من العسكر وحملوا على ابراهيم بيك وجوعه فى يوم الجمعة ثامن صفر من السنة أى سنة ثلاث ومائتين حملة رجل واحد فأجلوهم عن بعض المتاريس وقيل بل هم الذين أخلوا لهم فلما صارت العساكر السلطانية خلف ما أخذوه من تلك المتاريس خرج عليهم كمين من الخلف وأعمل السيف فى أقفيتهم فقتل منهم مقتلة عظيمة فتحصنت العساكر واشتبك القتال بين الفريقين يومى السبت والاحد وإطلاق المدافع متتابع ليلا ونهارا فكانت الحرب بينهم سجالا وكان كل من الفريقين يعمل الحيل وينصب الشباك ويكمن ليلا فيجدون الارصاد والعيون التى لا تغفل وكثر الموات فى الفريقين وانفصلوا على غير طائل وقدم المصابون الى القاهرة فانزعج لقدومهم الناس وخافوا عاقبة الهزيمة وتمكن ابراهيم بيك وأصحابه من مستقرهم وتربصوا مراقبة الاحوال * واحتاجت العساكر السلطانية الى النفقة فطلبوها من اسمعيل بيك فقررها على البلاد وضيق على أهلها فى جبايتها وعمل لها ديوانا فى بيت على بيك الدفتردار فضج الناس واستغاثوا بمشايخ الجامع الازهر ولا محيص فلما علم ابراهيم بيك بالحاح العساكر السلطانية فى طلب النفقة واشتغال اسمعيل بيك بجمعها أرسل من قبله رسولا الى الباشا يكلمه فى أمر الصلح وقد أعيا عابدى باشا هذا الحال فعقد لذلك الديوان وجمع فيه جميع الامراء والمشايخ واستحضر بينهم رسول ابراهيم بيك وسأله عما يطلبه ابراهيم بيك وأصحابه فقال انهم يطلبون أن يكون لهم من أسيوط الى الصعيد الاعلى شرقا وغربا بشرط أن يقوموا بدفع الاموال الاميرية والغلال وأن يطلقوا سراح السفن والمسافرين بالغلال والاسباب وأنتم لا تمنعون عنهم الواردين بالاحتياجات الا ما كان من آلات

الحرب أومعدات القتال وبعد أن يتقرر الصلح على هذه القاعدة يعرض منكم ومنهم الى الدولة وتنتظرون مايكون فان جاء الجواب بالعفو والقبول أوتعيين مكان آخر لاقامتهم فلا يجادلوا ولاينقضوا بشرط أن يطلعوا على ذات الامر الذى يرد بذلك فوافق الجميع على هذه الطلبات وكتبوا بها جوابا وسيروا به الرسول وآخرين معه * ووردت الاخبار فى هذه الاثناء بخلع عابدى باشا عن ولاية مصر وتولية اسمعيل بيك كتخدا حسن باشا أمير سفن البحر وفاض الخبر بذلك فى مصر والقاهرة وسائر المدن فلما وصل المبعوثون الى ابراهيم بيك ومعهم المكاتبة على قاعدة ما وقع الاتفاق عليه إقرارا للصلح انتقض وقال لسنا على ثقة من نجاحنا مع عابدى باشا والاعتماد على صلحه وقد بلغنا عزله عن ولاية البلاد فلانتقدم الى عقد الصلح معه الا اذا أتاه فرمان من السلطان بتأييد ولايته أوانا نتربص حتى يتولى الامر غيره ثم كتب جوابا بذلك وسلمه لمن جاءه من قبل عابدى باشا فغضب عابدى باشا وكاد يتميز من الغيظ وجمع اليه المشايخ والعلماء وقاضى القضاة والامراء وأطلعهم على الجواب فتحيروا فى أمرهم وقالوا لابد من استمرار القتال حتى يرجعوا أويموتوا عن آخرهم * فقال الباشا قد عيل صبرى وفرغ تدبيرى فلم يبق عندى الا أن أقبض على جميع نسائهم وأسكنهم فى الوكائل وآخذ جميع مافى بيوتهم وأبيعه وأنفقه على العسكر وأكتب لهم بذلك وتوقعوا جميعكم على ما أكتبه فان خالفتمونى فأنا تارك لكم البلاد وما فيها وأرحل الى دار السلطنة فأعيش فيها هادئا مطمئنا ثم أخذته رجفة فقالوا جميعا لانخالف لك كلمة فافعل ما أنت فاعل فكتبوا الى ابراهيم بيك بذلك ووقع الباشا والعلماء والمشايخ والامراء كافة على الكتابة ونادى الوالى والاغا بمصر والقاهرة بان من كان عنده وديعة لاحد من اتباع ابراهيم بيك أوجميع من هم معه وأتباعهم ولم يردها لاصحابها عاجلا قتل من غير معاودة وكان ابراهيم بيك قد عمل جسرا من السفن ممتدا من الجانب الشرقى من النيل الى الجانب الغربى وعبروا جميعا عليه الى الجانب الغربى فلما وصل اليه الجواب بما ذكر خشى العاقبة وعلم ماسيلحق بالنساء والذرارى فأرسل رسله الى الباشا بارتحاله مع من هم معه الى الصعيد الاعلى وعدم انحدارهم البتة الى مصر وانهم لايأنفون من عقد الصلح على ما رسم به عابدى باشا والمشايخ فعاد الباشا وعقد لذلك ديوانه فأبلغت الرسل أرباب الديوان رسالتهم فرضوا بها وضمن الباشا عائلة ابراهيم بيك وأصحابه وضمن المشايخ عائلة اسمعيل بيك الكبير وحرروا محضرا بذلك ووقعوا عليه جميعا وأرسلوه صحبة مقدم الاختيارية وظهرت علامات الطاعة من ابراهيم بيك ومن معه اذ كسروا ذلك الجسر وسرحوا للسفن بالانحدار فكثر توارد الغلال وغيرها وهبطت الاسعار وزال الغلاء واطمأن الفقراء * وقدم فى هذه الاثناء رسول من القسطنطينية يحمل ثلاثة كتب سلطانية فاصعده الباشا الى قلعة الجبل وأمر فعقدوا الديوان وحضره المشايخ والعلماء والامراء والوجهاء وقرئت تلك الكتب فكان الاول منها بتقرير عابدى باشا واليا على مصر سنة ثلاث ومائتين والثانى بلزوم مقاتلة ابراهيم بيك ومراد بيك حتى يرجعا الى الطاعة أويموتا

والثالث بطلب تسيير سفير الروس الذى كان مسجونا بقلعة الجبل الى دار السلطنة فلما أتموا قراءة تلك الكتب اطلقت المدافع من قصر العينى وقلعة الجبل ومراكب البحر ببولاق وذاع الخبر بذلك شرقا وغربا وأصبح وقد طلع الباشا الى القلعة واستقر بها فجاء اليه المهنئون وأنزل سفير الروس وسيره الى الديار الرومية وبالغ فى التأهب والاستعداد لقتال ابراهيم بيك ومراد بيك حتى يرجعا الى الطاعة أوانهما ومن معهما يموتون عن آخرهم فلم يتم له بعض الاستعداد حتى جاءه الامر بالعزل وولاية اسمعيل بيك ووصل رسول دار السلطنة فى العاشر من جمادى الآخرة عن طريق دمياط فنزل عابدى باشا من يومه الى قصر العينى ولبث به أياما ثم برز بخيامه الى بركة الحاج وسار منها الى ديار بكر وسار معه اسمعيل باشا مقدم العساكر السلطانية التى كانت فى قتال ابراهيم بيك

مطلب عزل عابدى باشا وولاية اسمعيل باشا

ولما استقر باسمعيل باشا الوالى الجديد منصب الولاية أرسل الى ابراهيم بيك يطلب الغلال والمال حكم قاعدة الاتفاق فلم يرد عليه جوابا ولم يرسل شيأ من ذلك فخاف اسمعيل بيك الكبير من انتقاض ابراهيم بيك ونزوله الى القاهرة بخيله ورجاله وهى خالية من العسكر والمرابطين فأرسل الى دار السلطنة فى طلب المدد فلم يكن بأسرع من ان أرسلوا اليه أخلاطا من الارنؤد وأهل الاناضول ممن لا كسب له وتراكم حضورهم فى هيآت مختلفة وأشكال متباينة فأنزلهم فى طرا ومصر القديمة والجيزة وبولاق وأجرى عليهم النفقات وجلب له النخاسون المماليك فاشترى منهم عدة كبيرة وخصهم بالغربية كل ذلك للحرص على مقاومة عدوه وتابع ارسال الهدايا النفيسة والاموال والتحف والخيول العربية وأنواع الاقمشة الفاخرة وغير ذلك الى دار السلطنة قصد استمالة جانب الدولة اليه وتقربا من رجال الحل والعقد بها وتحريضا اهم على بغض ابراهيم بيك ومن معه ومع ذلك فلم يكن ابراهيم لينكف عن بث العيون والارصاد حول اسمعيل بيك ومن معه ودس الدسائس واستمالة كل من يقدر على استمالته ومازال حتى تمكن بواسطة المعلم يوسف كساب الشامى معلم الجمارك يومئذ من الاتفاق مع أغاة جماعة الارنؤد المدعو صالح أغا على ان صالحا المذكور يسلم الى ابراهيم بيك جميع السفن السلطانية والقلاع التى بناحية طرا والجيزه نظير مبلغ من المال التزم به المعلم يوسف وكتب على نفسه تمسكا به فعلم اسمعيل بيك بخبر ذلك فقبض على المعلم يوسف وسأله فاعترف فأمر به فألقوه فى النيل فمات غرقا وأبعد صالح أغا عن ديار مصر وقيل بل قتله خفية فخابت بذلك مساعى ابراهيم بيك ورأى وجوب الترفع ومراقبة الفرص وان لاشئ أنجح من المطاولة كى تتفرق جموع اسمعيل بيك واخلاطه الذين جاء بهم من البلاد الرومية فلما طال لبث أولئك الأخلاط على هذا الحال بطروا وزاد عسفهم بأهالى بولاق ومصر القديمة والجيزة فضج الناس وملت نفوسهم وضجروا * وكان الاغا الوالى يخشى من اخلاد أهل الحسينية الى الفتنة والخروج عند أقل اشارة فكان يكثر التعدى عليهم بالضرب والحبس وأخذ الاموال ونهب البيوت لأقل سبب

اخضاعا

انضاعا لهـم وتذليلا واتفق انه قبض يوما على شيخ طائفة البيومية وكان له حرمة وافرة بين
أهل هـذه الخطة فثار طوائفـه على اتباع الوالى ومنعوه منهم وتجمعوا واجتمع عليهم خلق
كثير من تلك النواحى وساروا وهم فى ضجة عظيمة وأمامهـم جماعة يضربون بالطبول الى ان
وصلوا الى الجامع الازهر وقد أغلقوا الاسواق والدكاكين وصـعد جماعة منهم على المنارات
يضجون ويسـبون اسمعيل بيك ومن معـه وهيجوا من بالجامع من المدرسـين فقام معهم
العميان وهموا بالخروج ليفسدوا فى الشوارع والاسواق فمنعهم المشايخ وركب الشيخ العروسى
واجتمع باسمعيل بيـك وأخـبره بخـبر العامة وما يفعله الوالى بهم فاعتذر وقال لو كان الوالى
من اتباعى لخلعتـه الساعة ارضاء للعامة ولكنه تابع حسن بيك الجداوى وأرسل الى حسن
بيك يخبره بما وقع ويطلب خلع الوالى فلم يرض الجداوى وقال ان كان مراده الرفق بالرعيـة
فليخلع أولا الاغا تابعه ويخلع رضوان كتخدا الجنون من قلعة الجبل ويخرج مصطفى كاشف
من قلعة طرا ويصرف العساكر القليونجية والارنؤد الذين عاثوا فى الارض وملؤها فسادا
قال ذلك وخرج الى العادلية مغضبا وكان الوالى المـذكور يركب فى كل يوم ويمر فى شوارع
المدينة بالقاهرة ومصر ليرى العامة أنه أكبر من أن يخشاهم فوقف له العامة بالطرق واجتمع
منهم خلق كثير ووقعت بينهم وبينـه مقتلة قتل وجرح فيها كثير واشتد الهرج وكثر اجتماع
العامـة جماعات يحملون القرابين والعصى والمساوق وامام كل جماعـة منهـم الطبول فركب
المشايخ كافة وساروا الى بيت البكرى فحضر اليهم اسمعيل بيك وطيب خاطرهم والتزم لهم بعزل
الوالى ومر الوالى فى ذلك الوقت على بيت البـكرى فمنعه العامة وصاحوا فى وجهه وكادوا
يبطشون به فاستل سيفه وهجم عليهم وشق من وسطهم وذهب فى طريقه فزاد الحال بالعامة
وكثرت غوغاء الناس وعلت الضوضاء وسار جماعة منهم يأمرون الناس بغلق الحوانيت واجتمع
آخرون منهـم بالازهر يضجون وينادون بالويل والثبور على الوالى وبقى الحال على ذلك ثلاثة
أيام فاجتمع اسمعيل بيك ببقية الامراء وشاورهم فى أمر العامة فاتفقوا على خلع الوالى والأغا
معا ونادوا فى الناس بذلك فهلل العامة وانصرفوا وانقضت الفتنة * وعقب هذا الحادث بيومين
غامت السماء غيما عظيما مطبقا وسحت الامطار كأفواه القـرب مع رعـد شـديد الصوت
وبرق هائل متتابع متصل يخطف الابصار واستمر ذلك ليلة الجمعة ويوم الجمعة والامطار لا تنقطع
حتى سقطت الدور القديمة فى عدة جهات ومات من كان بها من السكان وانحـدر السيل من
الجبل شديدا حتى ملأ الصحراء وخارج باب النصر فهدمت المقابر وخسفت وانحدر السيل من
باب النصر فدخل المدينة وامتلأت الوكائل بالمياه وكذلك جامع الحاكم وسقطت عدة بيوت
من الحسينية وكان ذلك أمرا مريعا جدا فظن الناس انها تنقيل ونقمة من قبل الله سبحانه
وتعالى وانذار للامراء على ما فعله الوالى بشيخ البيومية وما يفعلونه فى كل يوم بخلق الله وتكلموا
كثيرا فى هذا الامر حتى كاد الامراء يعتقدونه ولم تكد تجف الارض من مياه ذلك السـيل
حتى ظهر الطاعون واشـتد وكثر الموات فى الامراء والصناجق وأرباب الوجاقات والمماليـك

فصار الظن عند الناس يقينا واشتد الطاعون شدة لم يسبق لها مثيل وكثر الموات كثرة بالغة فمات ما لا يكاد يدخل تحت الحصر من الاطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والاجناد ومن امراء الالوف نحو الاثنى عشر أميرا ومات اسمعيل بيك الكبير شيخ البلد المشار اليه فكان لموته ضجة ورجة ووقع الموات أيضا فى طوائف العسكر الذين ببولاق ومصر القديمة والجيزة وعلى الخصوص منهم القليونجية والارنؤد فكانوا يحفرون الحفر بجانب أبى هريرة ويلقون الاموات فيها بلا غسل ولا كفن وكان يخرج من البيوتات الكبيرة فى جنازة واحدة الخمسة أو الستة نعوش معا لكثرة الموات وقيل العشرة أيضا وكثر تزاحم الناس على الحوانيت لاخذ المغسلين والمغسلات والنعوش لنقل الاموات واشتد الخوف بالناس شدة عظيمة وندر جدا من كان يصاب بالطاعون ولا يموت وندر ظهور الطعن فى الابدان ولم يكن يحم المصاب كما هى عادة الطاعون بل يكون الانسان جالسا فيرتعش ويبرد فيدثر فلا يفيق الا مخلطا ويموت من نهاره أو ثانى يوم وربما زاد أو نقص واستمر الحال هكذا شهرين الى أوائل رمضان سنة خمس ومائة وألف ثم ارتفع ولم يقع بعد ذلك الا قليلا نادرا وكان ختام انفضاضه موت الاغا والوالى فولوا غيرهما فماتا بعد ثلاثة أيام فولوا خلافهما فماتا أيضا فكان ذلك من غريب الاتفاق وأعجب ماسمع به

ولما مات اسمعيل بيك الكبير تنازع الرياسة حسن بيك الجداوى وعلى بيك الدفتر دار ووقع بينهما نزاع طويل الاهداب واشتد بينهما الخلاف ثم عادا فاتفقا بعد كلام طويل على تعيين عثمان بيك طبل تابع اسمعيل بيك المذكور فى مشيخة البلد واعطائه دار سيده ففعلوا ذلك قال بعض كتاب الاخبار وكأنهم تابوا عن ايذاء الرعية وكفوا عن احداث المغارم والكلف وقصرت أيديهم عن نهب البيوتات العامرة بعد الذى رأوه من فعل الطاعون بهم وفتكه فيهم فنادوا بابطال جميع ذلك وطاف المنادون أياما متوالية فاطمأنت قلوب الرعية قليلا وقالوا أفلح إن صدق * وورد الخبر عقب ذلك بقليل بخلع اسمعيل باشا الوالى عن مصر وتولية محمد عزت باشا الذى كان واليا على جدة فنزل اسمعيل باشا من قلعة الجبل الى قصر العينى وأنزل جميع أمتعته وتأهب للسفر الى موره حيث تقلد منصب ولا يتها فنعه الامراء من ذلك حتى يحضر محمد باشا عزت ويرى فيما له وما عليه للخزينة فأبى اسمعيل باشا الا السفر فحجروا عليه بقصر العينى ووقف الحراس على أبوابه أياما حتى حضر محمد باشا عزت الى القاهرة فى شوّال من السنة أى سنة خمس ومائتين ورست سفينته على بولاق فنزل لاستقباله الامراء كافة وركب معهم الى قصر العينى ثم ركب فى يوم الاثنين رابع الشهر وصعد الى قلعة الجبل فلما استقر به المنصب نظر فى حساب اسمعيل باشا واستخلاص ما كان فى ذمته ثم انزل متاعه بالسفن ولم تقلع من ساحل بولاق حتى ورد الخبر باعادة محاسبته على مال الخزينة واستخلاص ماأخذه منها فعوّقوه واوقفوا سفنه حتى استصفوا ماعليه وسافر بعد ذلك بأيام قليلة * ولم يتمكن محمد عزت باشا من التصرف حتى جاءه

مطلب
عزل اسمعيل باشا وولاية محمد عزت باشا

الخبر بتحرك ابراهيم بيك الكبير ومراد بيك للقتال وعقدهما النية على الانحدار بمن معهما الى مصر ودخولها إن طوعا وإن كرها وقد تحقق الامر اذ انحدر مراد بيك من الصعيد الى منية ابن خصيب وانتشرت جموعه فى المقدمة وعبر بعضهم النيل الى الشرق ووصلت طلائعهم الى العياط وتربص ابراهيم بيك بمنفلوط ينتظر ارتحال الحاج من القاهرة فينحدر اليها عاجلا بجموعه ومن معه من الامراء فأخذ محمد عزت باشا والامراء بمصر يتأهبون للقتال وأرسلوا على بيك الى طرا وآخر الى الجيزة وأخذوا فى الاهتمام وحفروا خندقا من النيل الى المتاريس وبالغوا فى التأهب وأكثروا من الحيطة فبينماهم على هذا الحال من الاهتمام والارصاد تنقل لهم أخبار مراد بيك وأصحابه اذ جاء عمر أفندى مكرم الاسيوطى بكتاب من ابراهيم بيك خطابا الى شيخ البلد والمشايخ والباشا فعقد الباشا ديوانه وقرئ الكتاب فكان حاصل ما فيه رغبتهم فى العودة الى مصر بعد هذه الغربة الطويلة والوعد منهم بملازمة الهدء والسكينة وعدم الخروج عن حد الطاعة وان قد جاءهم مرسوم من دار السلطنة على يد رسول مخصوص بالعفو عما سلف وان المشايخ يضمنون حسن سيرهم واستقامة أحوالهم فلما أتموا قراءة الكتاب سأل الباشا المشايخ ماذا تقولون فى هذا الطلب فقال الشيخ العروسى أصلح الله الامير ان كان التفاقم بينهم وبين أمرائنا المصريين الموجودين بين ظهرانينا فاننا نترجى عندهم وان كان ذلك بينهم وبين السلطان فالأمر لنائب مولانا السلطان فبعد جدال وقيل وقال اتفقوا جميعا على ان يكتبوا جوابا محصله * ان طالب الصلح لابد أن يقدم الرسالة بذلك قبل أن يتحرك من مكانه وذكرتم انكم تائبون وقد تقدم منكم القول بالتوبة فلم نر لها أثرا على ان شرط التوبة رد المظالم وعدم اضرار خلق الله تعالى وأنتم لم تفعلوا ذلك ولم تدفعوا ما عليكم من مال الميرى فى هذه السنة فان كانت نواياكم ثابتة على الصلح وجب ان ترجعوا الى أماكنكم وترسلوا المال والغلال وسنطلب لكم من مولانا السلطان العفو فان عفا عدتم الى دياركم والا فلا * ووقع جميع من حضر على هذا الجواب وبعثوا به على يد السيد عمر ثم قرروا بعد ذلك نفى وتبعيد جميع اتباع ابراهيم بيك ومراد بيك الذين بالقاهرة ومصر فأبعدوهم ووضعوا على أبواب المدينة الحراس والمرابطين ونادوا على العساكر والاجناد بالخروج الى طرا وملازمة المتاريس والخنادق وأشار الامراء على الباشا بالنزول من القلعة الى طرا وملازمة المتاريس فنزل وخرج اليها وخرج أيضا جميع الامراء وطاف الاغا والوالى وهما يناديان على الجند بأن لايتخلفوا وتسلم المرابطون بقلعة الجبل أبوابها وشددوا المراقبة وأتى الجواسيس فأخبروا ان مراد بيك وأصحابه على عزم الانحدار إلى العادلية من خلف المقطم فأرسل الباشا بعض الامراء الى العادلية فعسكروا بها وأرسل أيضا الى عرب العائد فجاؤا الى العادلية ونزلوا بها فلما كان الليل تحول الباشا وجميع الامراء الى ناحية العادلية وأخذوا بعض المدافع وآلات الحرب والمؤنة وعملوا فيها المتاريس والخنادق فلم يكادوا يفرغون من عملهم حتى شاهدوا ابراهيم بيك ومراد بيك وأصحابهما منحدرين من الجبل الى العادلية فى أسوإ حال فهم الامراء المصريون

بالهجوم عليهم وأخذهم فى حالة التعب فمنعهم عثمان بيك أبو طبل من ذلك وثبط هممهم وقد كان على عهد مع ابراهيم بيك ومراد بيك بحضورهم فى هذا الحين ثم أمر فرجعت جميع آلات الحرب والذخيرة الى القاهرة ولبثوا واقفين على ظهور الخيل من غير ان يبدوا حراكا فقنع ابراهيم بيك وقومه وترفعوا عن مواقع المتاريس ونزلوا عند سبيل علام للراحة حتى يتكامل حضورهم ثم نصبوا خيامهم واستراحوا الى عصر اليوم كل ذلك وعثمان بيك والباشا ومن معهما لايبدون اشارة وركب ممن كانوا مع الباشا مصطفى كاشف كتخدا على بيك الذى هو مملوك محمد بيك الالفى وهوأحد الذين كانوا مع ابراهيم بيك الكبير وأخذ معه خمسة مماليك وانحاز الى أستاذه بعسكر ابراهيم بيك وركب محمد بيك المبدول أيضا وانحاز باتباعه الى أستاذه ابراهيم بيك وكذلك فعل قاسم بيك فانحاز الى مراد بيك الكبير وكذلك مصطفى كاشف الغزاوى الذى هو أخو عثمان بيك طبل شيخ البلد واستوثق لاخيه فكتب اليه ابراهيم بيك بالحضور فلم يتمكن من الذهاب اليه الابعد العشاء الاخيرة حتى انفرد عن علىّ بيك وحسن بيك الجداوى فلما فعل ذلك وفارقهما علما حقيقة الخبر وأحسا بانهما قد وقعا فى مخالب العطب فأغمى على علىّ بيك ثم أفاق وركب مع حسن بيك الجداوى وأتباعهما وعدتهم ستة وبعض المماليك والخدم وذهبوا جميعا من خلف القلعة الى الاقاليم القبلية حيث كانت أخصامهما * فسبحان مقلب الاحوال وهادم بناء صروح تلك الآمال انه الواحد القهار * ولما التقى عثمان بيك بابراهيم بيك الكبير أجله كثيرا وأرسله مع ابنه مرزوق بيك الى مقر مراد بيك فسلم عليه وقد حضر أصحاب الوجاقات والاختيارية وأرباب المناصب للسلام وبدأ أتباعهم بالدخول الى القاهرة طول ليلة السبت حادى عشرى القعدة سنة خمس ومائتين وألف هجرية وأصبحوا فدخلت الاحمال والجمال والدواب فكانت شيأ كثيرا جدا ثم دخل ابراهيم بيك ومر بالمدينة ومعه امراؤه ومماليكه وأكثرهم لابسون الدروع ثم دخل بعده سليمان بيك الاغا وأخوه ابراهيم بيك الوالى ثم بقية الامراء ودخل مراد بيك من طريق الصحراء ونزل على الرميلة ومعه عثمان بيك الاسماعيلى الذى هو عثمان بيك أبوطبل شيخ البلد وجميع أمرائه ومماليكه واتباعه ودخلوا بيوتهم وكان فى أكثرها عائلات الامراء الذين هلكوا بالطاعون وبقى بها نساؤهم ومات أغلب نساء الذين كانوا بالاقاليم القبلية من الامراء فلما رجعوا وجدوها آهلة بالنساء والجوارى والخدم فتزوجوهن وجددوا فراشهم وعملوا أعراسهم ومن لم يكن له منهم بيت دخل ما أحب من البيوت وأخذه بما فيه من غير ممانع وكأن الله سبحانه قد أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأزواجهم وهى عبرة وتذكرة

وركب الاغا فى ثانى يوم ونادى على طوائف القليونجية والارنؤد والشوام بالرحيل عن مصر عاجلا وكل من وجد منهم بعد ثلاثة أيام قتل بغير معاودة وتتبعهم المماليك والجند فكانوا اذا رأوا أحدا منهم قبضوا عليه وأخذوا ما معه من السلاح وأشبعوه ضربا وكانت العامة تسخر بهم ثم صعد ابراهيم بيك ومراد بيك ومن معهم من الامراء الى

الباشا

الباشا بقلعة الجبل فقابلهم بالترحاب وخلع عليهم الخلع وكتب الى دار السلطنة يومئذ بكل ماجرى ولم تكد تستقر بهم الراحة بعد تلك الخطوب المداهمة حتى جاء الخبر بان حسن بيك الجداوى وعلى بيك اللذين فرا الى الصعيد قد ضبطا المراكب المنحدرة الى مصر باموال ومتاع ابراهيم بيك وأخذا مافيها ومنعا من نزول الغلال وعبثا بالبلاد فاهتم ابراهيم بيك لذلك وجيش جيشا وسلم قيادته الى ابراهيم بيك الوالى وقلد عثمان بيك المرادى ولاية الصعيد وسيرهما للقبض على حسن بيك وعلى بيك المذكورين وبينماهم على هذا الحال قدم رسول من دار السلطنة يحمل فرمانا بالعفو عن ابراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما من الامراء والجند والاذن لهم بالرجوع الى مصر والبقاء فيها وكان ذلك بالتماس من محمد باشا عزت حيث كتب الى الباب العالى يبالغ فيما ينجم عن بقائهم خارج مصر وفيما هم عليه من المنعة والقوة وفى عجز الامراء الذين بمصر عن ردهم فعقدوا لذلك الديوان بقلعة الجبل فلما قرئ الفرمان أطلقت المدافع وخلع عليهم الباشا خلع الرضا ونزلوا فزارهم العلماء والمشايخ والامراء وقدمت لهم التقادم والهدايا واستقرت بابراهيم بيك ومراد بيك المناصب وبث ابراهيم بيك العيون لتأتى له بخبر حسن بيك الجداوى وعلى بيك فجاؤا وأخبروا بانفصال حسن بيك عن على بيك وذهابه الى جدة عن طريق القصير فاطمأن قلبه وسكن روعه وأخذ فى تقسيم المناصب بين أتباعه وأتباع مراد بيك فعزل وولى وأحكم الامور وفتح أبواب المغارم القديمة والفرض والضرائب الفادحة وقلد أرباب الجباية وأصحاب المكوس وسيرهم الى القرى والارياف فضلا عن المدن هذا والغلاء منشب أظفاره فى جوف البلاد لتقصير النيل فى عامه وعدم وجود الغلال وقد تولد عن ذلك اختصاص الامراء بما وجد من الغلال فى بعض القرى فنقلوه لانفسهم ووقع القحط فى البلاد فهام أهلها ودخلوا مصر والقاهرة طلبا للقوت فكانوا يطوفون فى الازقة والحارات والشوارع طائفة خلف طائفة يضجون و يبكون من الجوع وكانوا يلقون باطفالهم فى جوانب الجدران أمواتا من الجوع وكذلك كان يقع من أهالى مصر والقاهرة ويموت منهم فى كل يوم خلق كثير وكان اذا وجد الاردب القمح بيع بثمانية عشر ريالا والشعير بخمسة عشر والفول بثلاثة عشر ريالا وكانت الاوقية الخبز بنصف فضة واشتد القحط وكثر الصياح والعويل ليلا ونهارا فكانت لاتكاد تقع الارجل الا على خلائق مطروحة بالازقة وكانوا اذا مات حمار أو فرس أخذوه وأكلوه نيئا ولو كان منتنا ثم زاد الحال شدة فصاروا يختطفون الاطفال من أحضان امهاتهم ويأكلونهم فانكف الناس عن الخروج بأطفالهم وطال الحال على ذلك أياما حتى جاءت الغلال من الديار الرومية وتتابع ورودها فكثرت وارتفع القحط فأكل الناس وشبعوا ووافق ورود هذه الغلال حصاد الذرة فعاد الناس الى بلادهم ،وعمرت بعض القرى بعد خرابها فكانت شدة عظيمة للغاية وعلا النيل ووفا فانحطت الاسعار وبورك فى ربى الغلال فكان الفدان الواحد ينتج غلة خمسة افدنة وبلغ النيل زيادته المتوسطة وعم الماء غالب الارض فأحياها بعد الموات

ووصل فى هذا الحين الى ثغر الاسكندرية يوسف باشا صدر الدولة العثمانية يريد الاقطار الحجازية فاهتم ابراهيم بيك بشأنه جدا وأرسلوا اليه الملاقين وقدموا التعابى والتقادم الثمينة وهيؤا لمقامه قصر العينى وزينوه بأنواع البسط والفرش الفاخرة وأنزلوه به وتمثلوا بين يديه فخلع على ابراهيم بيك ومراد بيك خلعة سنية وقدم لهما حصانين مسرجين مرخصين وتخوف ابراهيم بيك من حضوره فى هذا الحين وترامت ظنونه الى المرمى البعيد فأعمل الحيلة ووضع لخفارته عبد الرحمن بيك الابراهيمى ومعه فريق من الجند فصعد الصدر المشار اليه بعد أيام الى قلعة الجبل باستدعاء من محمد باشا عزت ثم نزل الى مقره وأخذ ابراهيم بيك فى اعداد مايلزم لسفر الصدر المذكور من غلال وأرز وتعابى هندية وغير ذلك من الهدايا والنفائس خوفا من طول لبثه بمصر وافساد أمورهم وأعدوا له السفن بالسويس فركب فى أواسط جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان ومائتين والف هجرية فزالت مخاوف ابراهيم بيك ومراد بيك وعادا الى ما كانا عليه من إعمال الجهد فى تحصيل المغارم وتقرير المكوس والضرائب وغير ذلك وأكثروا من أعوان الجباية وبثوهم فى البلاد والقرى لايسايرون غنيا ولا يرحمون فقيرا * وجاء الخبر بتوجيه مسند الصدارة الى الوزير محمد باشا عزت والى مصر وتولية صالح باشا بدله فنزل محمد باشا من القلعة وسافر الى الاسكندرية فى صفر من السنة أى سنة تسع ومائتين وألف وأقام بالاسكندرية أياما حتى قدم صالح باشا فى العشرين من ربيع الاول ووصل تقليد الصدارة الى محمد باشا عزت وهو بالاسكندرية فنزل من فوره وسافر الى دار السلطنة وحضر صالح باشا الى القاهرة وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وصعد الامراء والمشايخ للسلام عليه فقابلهم وأكرم لقاءهم وأراد التصرف فى الامور والنظر فى مصالح الخلق فلم تمكن لتغلب ابراهيم بيك ومراد بيك واستقلالهما بالامر فالتزم التحجب والانكماش وبقى على هذا الحال عشرة أشهر حتى جاء الخبر بخلعه وتولية السيد أبى بكر باشا وذلك فى ذى الحجة من سنة عشر ومائتين وألف فنزل من قلعة الجبل الى قصر العينى وتأهب للرحيل وأقام به أياما قلائل ثم سار الى الاسكندرية فكانت مدة ولايته زهاء عشرة أشهر * وحضر السيد أبوبكر باشا من الاسكندرية الى القاهرة وركب فى الموكب المعتاد الى القلعة فى الخامس والعشرين من ربيع الاول سنة احدى عشرة ومائتين وألف هجرية فلم يكن له من حظ الولاية الا ما كان لغيره من الولاة فكان مغلوبا على أمره والكلمة لابراهيم بيك ومراد بيك والناس فى غم من الضرائب الفادحة والمغارم المتوالية والمكوس المتراكمة وضجيجهم مستمر وابتهالهم الى الله تعالى متواصل بزوال دولة الظالمين ومحو آثار القوم المفسدين وقد بلغت منهم الروح الحلقوم والعظم السكين فأرسل الله سبحانه على زمرة المماليك بونابارته قائد جيوش الفرنسيس فى عسكر عظيم فقهرهم وأباد سلطانهم حينا كما سيأتى بيان ذلك فى محله ان شاء الله

مطلب
عزل محمد عزت باشا وولاية صالح باشا

مطلب
عزل صالح باشا وولاية أبى بكر باشا

فصل

(فصـــــل)

في

(نزول نابوليون بونابارته بجيوشه على مصر وماجرى بعد ذلك من الحوادث والمحن)

لما عظمت دولة الفرنسيس وكبر سلطانها بما عاناته من الغزو وتدويخ الممالك على يدي قائد عسكرها العظيم بونابارته الكبير واتسعت كلمتها وعمت هيبتها مشرق الارض ومغربها بعد قتل لويس السادس عشر ملكها وقيام الحكومة الادارية فيها لم يبق من معاند لها ولا واقف في وجهها كما قاله أصحاب الاخبار سوى دولة الانجليز فانها كانت لا تنضن أبدا ببذل كل مرتخص وغال في سبيل اذهاب تلك السلطة ومحو تلك الهيبة وقطع شأفة ما استقر منها في قلوب كبار الممالك والدول الذين علا هامتهم سيف بونابارته العظيم فأذلهم وأخضعهم وكان كلما عاهدت دولة الفرنسيس دولة بعد الغلبة عليها حقنا للدماء أو حفظا لحرمة الجوار حركها الانجليز ودفعوا بها الى نكث العهود ونقض الوعود وأمدوها بما تحتاجه لذلك من المال ومعدات القتال أو نازكت دولة أخرى أنهضها الانجليز الى القتال قبل انقضاء الاجل وحسنوا لها القبيح من هذا العمل فكان بونابارته من ذلك في كمد دائم وحزن ملازم لا ينكف عن تدبير الحيل وتعليل الامل بكسر شوكة هذا العدو الألد وسحق سلطانه من أدنى الاقطار الى أقصاها فكان مما دبره يومئذ نزع المملكة الهندية من يد الانجليز وبذل النفس والنفيس في سبيل ذلك وكأنه رأى أن هذا الامر لا يتم الا بنزوله بجيش عرمرم على مصر واستخلاصها من أيدي المماليك وجعلها رباطا لحركاته الحربية ومقرا لمناوشاته السياسية فجعل يفكر ويتدبر وهو قلق البال مضطرب الاحوال حتى اجتمع برجال الحكومة الافرنسية وهم المعروفون في ذلك الوقت برجال الادارة وكاشفهم على ما في نفسه وبالغ في الشكوى وأراهم أنه لا سبيل الى الخلاص من مخالب هذا الاسد الرابض الا بارهابه وتذليله ومناهضته في أرض الهند الواسعة ففكر رجال الادارة في ذلك حينا وأحلوه محلا عظيما فكانوا فيه بين إقدام وإحجام وخوف ورجاء فأنس منهم بونابارته ذلك فجعل يشجعهم ويستميلهم وكتب اليهم كتابا يقول ما محصل ترجمته

لستم تنكرون أيها السادة أن مصر أكثر المدن خصوبة وأكبرها عمرانا وانها انما كانت اهراء لاهل رومية وفي هذا الأوان لاهل القسطنطينية فان أرضها تنبت القمح والفول والارز وسائر أنواع البقول فضلا عن القطن وقصب السكر والكتان والنيلة والقنب والخيار شنبر والسنامكي والنطرون وفيها من الماشية أشكال ومن الطيور الداجنة ألوان فضلا عما فيها من الحمر والابل التي لا مثيل لها في أقطار الارض ومصر كما لا يخفاكم مركز متوسط بين قارتي آسية وأفريقية تؤمه القوافل من جزائر العرب والشام وسواحل الغرب

وبلاد الحبشة وربما جاءته من رأس الرجاء الصالح والنغال بأنواع المتاجر من الزيت والخشب والفحم والبن ومن الجوار والعبيد والصمغ والتبر والريش وسن الفيل والشالات والعطريات والاطياب وسائر صنوف المتاجر والمحصولات الهندية وقد كانت هذه المحصولات والارزاق العظيمة تأتى الى بلادنا قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح من طريق مصر فهى منذ القدم الطريق المأمون والسبيل الميمون مابين قارتى آسية وأوروبا وكانت تلك الارزاق والمحاصيل العظيمة تحط أحمالها قبلا عند مدينة برنيس على ساحل القلزم ثم تنقل منها حملا على ظهور الابل الى مدينة طيبة زهاء أربع وعشرين مرحلة ثم تسير منها فى النيل الى قارة أوروبا وكانت فى بعض الاحيان تنقل بحرا الى القصير ثم الى مدينة السويس ومنها على ظهور الابل الى منف فتأتينا كما هى وليعلم السادة رجال الادارة أننا لو فتحنا هذه الديار وأحسنا سياسة أهلها ودبرنا شؤنهم على ماتقتضيه مصلحتهم خمسين عاما فقط لعمرت البلاد وسعدت وزاد عدد أهلها أضعاف أضعاف ماهم عليه الآن وراجت محاصيل بلادنا فيها وفيما جاورها من الامصار وأغنتنا عن أمريكا وكفتنا مؤنة التعاقد معها وليعلم أيضا السادة رجال الادارة أنه اذا قدر الله ركوز قدمنا فى تلك الديار ووفقنا الى حسن ادارتها قصرت أيام الانجليز فى بلاد الهند وصار جلاؤهم عنها أمرا خفيفا فاننا نقيم الجند المرابطين على سواحل القلزم وننشئ المعاقل والحصون المنيعة وندخر فيها مانشاء من محاصيل تلك البلاد وتحول التجارة الهندية اليها على أهون مايكون واذا فرضنا بقاء الانجليز فى رأس الرجاء الصالح وقلنا باستحالة رحيلهم عنها فانه يكون من السهل علينا أن نباريهم ونفتح بين النيل والقلزم ترعة تذلل لنا المصاعب وتذهب عنا تلك المتاعب ونكون قد غلبنا الانجليز وقهرناهم وقبضنا على زمام تجارتهم بيد من حديد وعندى أن فتح هاته الترعة ليس بالامر الصعب فقد كانت جارية من قبل وآثارها باقية الى الآن * وفى فتح مصر وبسط يدنا عليها الطامة الكبرى على الانجليز والداهية الدهياء التى لابد وان تذهب بهم الى حضيض الذل والدمار اه

فلما وقف رجال الادارة على مافى خطابه هذا من البراهين الدامغة والحجج القوية حاروا فى أمرهم وخشوا شر العاقبة وقد كانوا يرون فى دولة الانجليز أمة قادرة غنية تضرب بحسام غناها ذات اليمين وذات الشمال كما كانوا يرون فى بونابارته هماما مقداما حسن السياسة والتدبير كبير المعرفة باحوال الممالك والامم فلما كان الخامس من شهر مارس سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية أى سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية اتفق رجال الادارة مع بونابارته على تسيير حملة يقودها هو مع من يصطفيهم لنفسه من رجال الحرب ففرح بونابارته فرحا لايوصف وبقى السر مكتوما بينهم لايعلم به أحد البتة ثم جعل من هذا الحين يجيش الجيوش ويعد المعدات فاجتمع له أربعون ألفا من المقاتلين وأربعون قائدا من نخبة القواد أهل النجدة ومائة من المهندسين ومثلهم من أهل العلم بتخطيط الارض وأصحاب الكيميا والطبيعة ونحوها ومعهم مطبعة عربية وجماعة من الكتاب

والمترجمين

والمترجمين والاطباء والجراحين والكحالين ومثلهم من الصناع وأصحاب العمل والحفر والنقش وهيأ عمارة عظيمة لم ينقصها شئ ما من آلات الحرب والقتال وأميرها برويس أحد كبار أمراء البحار وهى مؤلفة من مائة سفينة بين كبيرة وصغيرة و بينها سفينة عظيمة للغاية اسمها الشرق تحمل مائة مدفع وعشرين مدفعا وممن صحب بونابارته فى هذه الحملة من كبار القواد كلابير وديزيه المشهوران ورينير وبون وينو للشاة والقائد مورات للفرسان ودومارتين لاصحاب المدافع وكافرالى للمهندسين وخرجت سفن الحرب بما عليها من المقاتلين البحرية وهم زهاء عشرة آلاف من أربع جهات متباعد بعضها عن بعض حتى لايعلم بخبرها أحد من عيون الانجليز وخرجت معها السفن والشوانى التى كانت تحمل جيوش الحملة فكانت جملتها زهاء سبعمائة سفينة وسار معها بونابارته وحاشيته فى التاسع من مايو من السنة تمخر بهم السفن فى عرض البحر فأنفذ رجال الادارة الى دار السلطنة العثمانية «(آلاتاليران)» أحد كبار السياسة سفيرا من قبلهم ليكلم السلطان فى أمر حملة بونابارته هذه والاقرار عليها فسافر الى القسطنطينية ولم يعلم بخبره أحد البتة

ولما فاض الخبر بقيام تلك الجيوش العظيمة والمعدات الهائلة كثر تحدث الناس بها وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد فمن قائل انها لقتال الانجليز وإبادة سلطانها ومن قائل بل انها لفتح المدن والامصار فى آسية وأفريقية ومن قائل غير ذلك وطارت الاخبار بذلك الى الآفاق فخاف الانجليز شر العاقبة وجعلوا يتدبرون فى الامر ويبالغون فى البحث والتجسس فلم يقفوا لهذه الحملة على جلية خبر فكبر عليهم هذا الامر وأعظموه وأنفذوا الامير نلسون أحد كبار البحر عندهم فى أسطول عظيم وعهدوا اليه أن يتتبع سفن بونابارته أينما حلت وأن لايمكنها من عمل شئ البتة فسار نلسون بسفنه يمخر فى عرض البحار وقد ظن ان بونابارته انما خرج بجيوشه يريد مصر أوالشام فسار قاصدا مدينة الاسكندرية فأدركها يوم الخميس ثامن المحرم افتتاح سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية وسفنه أمامها وكان العامل عليها السيد محمد كريم أحد عظماء البلد ثم أنزل نلسون نفرا من عسكره فى زورق فطلعوا الى البر وطلبوا لقاء السيد محمد كريم فادخلوهم عليه ومعه بعض أعيان المدينة فسألهم عن حالهم وسبب حضورهم بتلك السفن الكثيرة فى ذلك الوقت فقالوا أتينا نبحث عن طوائف من الفرنسيس خرجوا فى عمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولا ندرى اين يقصدون فربما دهموكم فلا تقدرون على ردهم ولا تتمكنون من منعهم ولذلك رأينا ان نرسو ههنا بمراكبنا لنحافظ على المدينة ومن فيها ولا نسألكم شيأ من المدد سوى الماء والزاد بثمنه فظن السيد محمد كريم انها خدعة وحيلة فقال هذه بلاد السلطان فليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فعادت رسل الانكليز بغير طائل وأقلعوا ليمتاروا فسير السيد محمد كريم الى كاشف البحيرة من يخبره بخبر تلك السفن ويأذنه بجمع العربان والاتيان بهم الى الاسكندرية للمحافظة عليها فلما شاعت هذه الاخبار بالقاهرة

ومصر خاف الناس وتحدثوا فى الامر كثيرا وأصحاب الحل والعقد فى شاغل عنه كأنهم فى مأمن من العاقبة أو أنهم على ثقة من الظفر والغلبة فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر المحرم وصلت العمارة الفرنسوية مياه الاسكندرية امام المدينة وأرسلت جماعة منهم يطلبون قنصل الفرنسيس وبعض أهل المدينة فذهبوا اليها فمنعوهم من العودة ولما جن الليل تحول من تلك العمارة بعض السفن الى ناحية العجمى وأبى قير وأنزلوا من بها من العسكر الى البر وكان برويس أمير السفن يعارض بونابارته فى ذلك ويمنع من نزول العساكر فى تلك الليلة خوفا من حادث يحدث فلم يلتفت بونابارته الى كلامه وقال لابد من نزول جميع العسكر فنزلوا ليلا وساروا نحو الاسكندرية فلم يصبح أهل المدينة الا والعساكر منتشرون حول المدينة انتشار الجراد فخرج الناس ومن انضم اليهم من الانكشارية والعربان وكاشف البحيرة ليقاتلوهم فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم وانهزم الكاشف ومن معه من طوائف العربان ورجع الاهالى الى التترس فى البيوت وخلف الحيطان ودخل الفرنسيس المدينة وانبث فيها الكثير من ذلك العدد فأيقن أهل الاسكندرية انهم مأخوذون على كل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الابراج من معدات الحرب فضلا عن المقاتلين مع كثرة العدو وغلبته فطلبوا الامان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال ونودى فى المدينة بالامان ورفعت الاعلام الافرنسية على مابالمدينة من القلاع والحصون والابراج وأرسل بونابارته فى طلب أعيان الثغر والسيد محمد كريم فحضروا وهم فزعون وجلون وتمثلوا بين يديه فلاطفهم وكلم السيد محمد كريم لحظة لطيفة ثم ألزمهم بجمع مابيد الاهالى من الاسلحة ومعدات القتال واحضاره اليه وأن يضعوا على صدورهم علامة هى على شكل زهرة مستديرة ذات ثلاثة ألوان احمر واسود وابيض وهى ألوان الراية الافرنسية وتسمى هذه العلامة عندهم جوكار ففعلوا وجعلت طوائف العسكر تطوف فى شوارع المدينة وبأيديهم البنادق والحراب وأخذ جماعة منهم يصلحون ماتهدم من الحصون ويرممون ماتخرب من الابراج وزحفت بقية الجيوش الى رشيد ودمنهور فهاجر أهلهما ونزحوا عنهما الى فوه ونواحيها فرسم بونابارته بتحرير منشور للاهالى كافة يؤمنهم فيه على اعراضهم وأموالهم ويطمن قلوبهم ويسكن روعهم فكان نص مافى ذلك المنشور

بسم الله الرحمن الرحيم لااله الا الله لاولد له ولا شريك له فى ملكه من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السرعسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالى مصر جميعهم انه من زمان مديد والصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنسوية ويظلمون تجارها بانواع الايذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الاباظة والشراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لايوجد فى كرة الارض كلها فاما رب العالمين القادر على كل شئ فانه قد حكم بانقضاء دولتهم * ياأيها

المصريون قد قيل لكم انى مانزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالتكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين انى ماقدمت اليكم الا لتخليص حقكم من يد الظالمين وانى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم * وقولوا أيضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم و بين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم و يختصوا بكل شئ حسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤف وعادل وحليم و بعونه تعالى من الآن فصاعدا لاييأس أحد من اهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ومن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم يدبرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها * وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك * أيها المشايخ والقضاة والائمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم ان الفرنسوية هم أيضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنسوية فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى واعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك فان المماليك امتنعوا من الطاعة للسلطان غير ممتثلين لامره فما أطاعوا أصلا الا لطمع انفسهم طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم وطوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا للخلاص ولا يبقى منهم اثر

(المادة الاولى) جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواقع التى يمر بها عسكر الفرنسوية فواجب عليها ان ترسل للسرعسكر من عندها وكيلا كيما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنسوية الذى هو أبيض وكحلى واحمر

(المادة الثانية) كل قرية تقوم على العسكر الفرنسوية تحرق بالنار

(المادة الثالثة) كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى تنصب صنجق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه

(المادة الرابعة) المشايخ فى كل بلدة يختمون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شئ منها

(المادة الخامسة) الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والائمة انهم يلازمون وظائفهم

وعلى كل واحـد من أهالى البلدان ان يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصـلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى على انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثمانى أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك واصلح حال الامة المصرية

تحريرا بمعسكر اسكندرية فى ١٢ شهر سيدود سنة ١٢١٢ من اقامة الجمهورية الفرنساوية يعنى فى آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية انتهى بنصه

وسارت جيوش بونابارته سيرا حثيثا جدا فدخل فريق منهم الى فوه وآخر الى الرحمانية وعسكروا فيهـما وفاض الخـبر بذلك فى القاهرة ومصر فانزعج الناس انزعاجا شـديدا وعوّل أكثرهم على الفرار وجمع ابراهيم بيك ومراد بيك جميع الامراء بقصر العينى وكذلك العلماء والمشايخ وقاضى القضاة ونزل الباشا من قلعـة الجبـل وتكلموا فى هذا الامر وطال الاخذ والرد ثم اتفقوا على ان يكتبوا بخبر هذا الحادث الى دار السلطنة العثمانية وان يتجهز مراد بيك بالعسكر ويخرج للقتال وصـد هـذا العدو فكتبوا الى دار السلطنة وسـيروا الكتاب مع مخصوص على البر وأخذوا فى الاستعداد وجمع آلات الحرب ومعدات القتال وجعـلوا يصادرون الناس ويأخـذون مايحتاجون اليـه بغـير ثمن ثم ارتحل مراد بيك عن القاهرة وبرز بخيامه الى الجسر الاسود فأقام به يومين حتى تكامل خروج العسكر وخرج معه على باشا الطرابلسى وآخر اسمـه ناصف باشا وقد كانا مقيمين معـه بالجيزة وخصيصين به وأخذ عـدة كبيرة من المدافع وشيأ كثيرا من الذخيرة وسار برا فى الفرسان وسافرت العساكر المشاة بحرا بسفن الحرب الصغيرة وقد كانوا أخـلاطا من القليونجية والاروام والمغاربة وحمل معه سلسلة عظيمة لوضعها على البوغاز عنـد برج مغيزل لتمنع سفن الفرنسيس من الدخول الى النيـل وظن ان الفرنسيس يطاولونه الحرب وهو يطاولهم كـذلك حتى تأتيـه النجـدة من جانب الدولة فكان الامر عـلى خلاف ماظنـه فانه لما دخل بونابارته مدينة الاسكندرية ورتب أموره فيهـا على مارأى فيه المصلحة سار بجيوشـه على الجانب الغربى من النيل سيرا حثيثا من غـير ممانع يطلب القاهرة وبث أمامه العيون والارصاد لتأتى اليه بخبر مراد بيك ومن معـه وكانوا اذا نزلوا على قرية أو بلد أو مدينـة رأوا من أهلها الطاعة والاخلاد الى السكينة وقـد بدأت الوحشـة بين سكان مصر والقاهرة وكـثر الهرج والارجاف وانقطعت الطـرق وأخـذت اللصوص فى كل ليـلة تطرق المـدينـة وانكف الناس عـن الخروج الى الاسواق بعـد الغروب فنادى الاغا والوالى بفتح الحوانيت ليلا وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين لاذهـاب الوحشـة من القـلوب والاستئناس وكشـف خـبر الدخيـل على البلد اذا دخـل ولم يكن الا أيام قلائل من خروج عساكر بونابارته من مدينة الاسـكندرية حتى التقوا بجيـوش مراد بيـك فى يوم الجمعـة تاسع عشرى المحرم عند منيـة سلامة فاقتتل الفريقان فـلم تكن الا ساعـة حتى انهزم مراد بيـك بمن معـه وكان القتال هينا جـدا

ثم أطلق الفرنسيس مدافعهم على سفن مراد بيك فأحرقتها بما فيها من البارود وآلات الحرب والمؤن والذخيرة والعساكر فأزعج هذا المنظر المريع مراد بيك وهاله جدا فولى الفرار وتبعه عسكره ونزل المشاة منهم فيما بقى من السفن وأقلعوا بها الى بولاق ووصل بعضهم الى القاهرة وهم فى أسوإ حال فانزعج الناس واشتد الخوف وركب ابراهيم بيك الى ساحل بولاق وتبعه الباشا والعلماء والمشايخ والاعيان فتشاوروا فى عمل متاريس من شبرا الى بولاق وان يتولى الاقامة فيها ابراهيم بيك وأتباعه ومماليكه فأجابهم ابراهيم بيك الى ذلك واهتم له جدا وأحضر السفن الكبيرة والغلايين التى أنشأها حديثا وأوقفها على ساحل انبابه وشحنها بالعساكر والمدافع فكان جانبا النيل شرقا وغربا مشحونين بالعساكر والاجناد والمدافع وآلات الحرب والمتاريس * قال بعض كتاب الاخبار وكان العلماء من يوم خروج مراد بيك بجيوشه يجتمعون بالجامع الأزهر كل يوم يقرؤن البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ فقراء الاحمدية والرفاعية والابراهيمية والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الاشاير ويعملون الاذكار بالازهر وكذلك أطفال المكاتب كانوا يضجون فى كل يوم بياللطيف وكان الامراء فى وجل ماعليه من مزيد فكانوا ينقلون فى هذه المهلة أمتعتهم من بيوتهم وقصورهم الرحبة الى بيوت حقيرة غير معلومة وأرسلوا بعضها الى الارياف وتأهبوا للرحيل وكاد يتبعهم فى ذلك أكثر الاغنياء وأصحاب المقامات العالية ووقع النداء بالنفير العام فخرج الناس الى المتاريس وكرروا النداء فى كل يوم فأغلق الناس الحوانيت والاسواق وخرج الجميع الى بولاق القاهرة فكانت رجال كل طائفة من أرباب الصنائع يجتمعون وينصبون لهم خياما أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له مما جمعوه من بعضهم من المال وكان البعض يتطوع بالانفاق على الآخرين ومنهم من جهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والذخيرة وغير ذلك واجتهد الناس اجتهادا عظيما وخرج الفقراء بالطبول والزمور والاعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة وصعد السيد عمر افندى نقيب الاشراف الى قلعة الجبل فأنزل منها بيرقا كبيرا سمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من قلعة الجبل الى بولاق القاهرة وأمامه وحوله الألوف المؤلفة من العامة وبأيديهم النبابيت والعصى والمساوق وهم يضربون بالطبول ويهللون ويكبرون وكانت شوارع القاهرة فى غاية الوحشة اذ كنت لاترى فيها أحدا سوى من فى بيوتها من النساء والاطفال وضعفاء الرجال وكانت الدكاكين كلها مقفلة نهارا وليلا وجلس العلماء والمشايخ بزاوية على بيك ببولاق القاهرة يدعون ويبتهلون الى الله بالنصر وأرسل ابراهيم بيك الى العربان المجاورين لمصر ورسم لهم بأن يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرا وما والاها واجتمع له أيضا كثير من عرب البحيرة والصعيد والجيزة والقيعان وأولاد على والهنادى وغيرهم فكان الجمع يزداد فى كل يوم ويعظم الهول ويشتد الضيق بالفقراء لتعطل الاسباب واجتماع الناس فى صعيد واحد وانقطعت الطرق

وتعـدى الناس بعضهم عـلى بعض وجمع ابراهيم بيك جميع الفرنجة الذين بمصر والقاهرة فحبس بعضهم بقلعة الجبل وبعضهم ببيوت الامراء وفتشوا بيوتهم لعلهم يجدون فيها شيأ من السـلاح أو آلات الحـرب وكذلك فتشوا جميع بيوت الشـوام والقبط والروم وجميع الكنائس والديارات والعامـة لاترضى الا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهـم قال صاحب عجائب الآثار ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة وقت الفتنة اهـ

ولما كان يوم الجمعة سادس صفر وصل بونابارته بجيوشه الى الجسر الاسود فباتوا ليلتهم وأصبحوا فساروا الى أم دينار فوصلوها فى يومهم وقد كان الظن بهم ان يأتوا من جانبى النيل شرقا وغربا فـلم يأتوا الا من الجانب الغـربى ونظر بونابارته الى صـفوف العـدو على عين موقفه وهرم الجيزة الكبير على يساره فخاطب جنوده وقال أيها الابطال البواسل ان أرواح أناس قد مضى عليها خمسون قرنا تنظر اليكم من قة هـذا الهرم العظـيم وترقب حركاتكم فى قتال هؤلاء المماليك فافطنوا ثم رسم الى الجـنرال ديزه ان يسير بعسكره نحو اليمين و بقية العساكر نحو اليسار وكان الوقت وقت القائلة وقـد خرج جماعـة من عسكر ابراهيم بيك وقـدموا نحو بشتيل فتـلاقوا مع مقـدم عسكر الجنرال ديزه فكروا عليهم بالخيول فرماهم الفرنسيس بالبنادق رميا متتابعـا وأبلى الفريقان بلاء حسنا فقتل جماعة كثيرة من كشاف محمد بيك الالفى ومماليكه وتعقبتهـم عساكر الجنرال ديزه فلما اقتربوا من متاريس مراد بيك ترامى الفريقان بالمـدافع وكان قد حضر من دمياط فريق من عسكر البحر الارنؤد فقاموا بالقتال من خلف المتاريس وحاربوا مع العساكر البرية فلما احتدم القتال وارتفعت أصوات المدافع ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح فى الجانب الشرقى من النيل ورفعوا أصواتهـم بيارب ويالطيف ويارجال الله وغير ذلك وشرع فريق من العسكر الذين بالجانب الشرقى فى العبور غربا فلم يتم عبورهم حتى تمت الهزيمة على المصريين وكانت الريح شديدة وأمواج النيـل تتلاطم وفى قوة اضـطرابها والرمال يرتفع غبارها وتنسفها الريح فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد ان يفتح عينيه لشدتها وانقسم الفريق المقاتل من الفرنسيس الى شـطرين بشـكل مخصوص واقترب من متاريس مراد بيك فصارت المتاريس فى القلب والفرنسيس من الامام ومن الخلف ودقوا طبولهـم ورموا بالبنادق والمدافع تباعا وقد اشتد هبوب الريح وانعـقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الأسماع من أصـوات المـدافع وبقى الحال هكذا نحو ثلاثة أرباع السـاعـة وانكشف عن هزيـمـة المصريين وغرق العـدد العديد من فرسانهـم فى النيـل لاحاطة العـدو بهم وظلام الوقت وأسر منهم خلق وملك الفرنسيس المتاريس جميعها وفر مراد بيـك ومن معـه هـاربين الى الجيزة ثم جاء منزله فى حالة رديئة وقضى أشغاله وسار من فوره الى الصعيد الاعلى

ولما تمت هزيمـة من كانوا يقاتلون بالجانب الغربى من النيـل حول الفـرنسيس أفواه مـدافعهـم الى الجانب الشرقى وتابعـوا الرمى بها مع الرمى بالبنادق أيضا فتحقق من كان

بالجانب الشرقى من الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة وكثر صياح العامة وتساقط بعضهم فوق بعض وداستهم سنابك خيل الفارين من الامراء والمماليك وفر ابراهيم بيك والباشا والامراء وجميع العسكر والاهالى كافة وتركوا جميع الاثقال والخيام ولم يأخذوا منها شيأ وذهب ابراهيم بيك والباشا الى العادلية ودخل الناس قبيل الغروب المدينة وهم يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون الى الله من شرّ هذا اليوم العصيب فصارت النساء عند ذلك يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت ويولولن فلما جن الظلام خرج الكثير من الناس خارج أبواب المدينة بنسائهم وأولادهم وخرج بعضهم هائما على وجهه لايرى للسلامة سبيلا غير مبال بترك الزوجة والولد واستمر الحال على هذا المنوال طول تلك الليلة وأصبحوا وقد أحاط بهم العربان من كل جانب فسلبوا ما كان معهم من متاع ولباس وأحمال فلم يتركوا لمن وقع فى أيديهم ما يستر به عورته أو يسد جوعه وعاد من الهاربين من لم يبعد عن أبواب المدينة فدخلوا عرايا نساء ورجالا حتى الاطفال والصبيان والبنات فكانت ليلة وصباحها من أشنع مارأته أعين المصريين جرى فيها من القتل والنهب وفضيحة النساء على اختلاف درجاتهن مالم يسمع بما يشابه بعضه فى تواريخ المتقدمين وأصبحوا وقد اجتمع العلماء والمشايخ بالجامع الازهر واتفقوا على ان يبعثوا بكتاب الى بونابارته بمعسكره فى انبابه يسألونه فيه عن مراده وعما يسأله من الطلبات فكتبوا الكتاب وأرسلوه مع أحد المشايخ المغاربة فلما وصل الرسول وتمثل بين يدى بونابارته بش فى وجهه ولاطفه وقرأ الخطاب ثم التفت الى الرسول وقال وأين عظماء البلد ومشايخها ولم تأخروا عن الحضور لنرتب واياهم مايكون فيه الراحة لهم ولاهل بلادهم فقال نريد أمانكم فقال قد أمناكم وبعثنا لكم به قبل الآن قال الرسول ولكن لتطمئن الناس أيضا فأمر بونابارته فكتب جوابا من معسكر الجيزة خطابا لاهل مصر اننا أرسلنا لكم قبل الآن كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم اننا ماحضرنا الا بقصد اذهاب دولة المماليك الذين أهانوا الفرنسيس وساموهم الخسف وقد تطاولت أيديهم الى سلب التجار ومال السلطان فلما حضرنا الى الجانب الغربى من النيل خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا البعض ونحن فى طلبهم حتى لايبقى أحد منهم بالديار المصرية وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات وكامل الرعية فيكونون مطمئنين ساكنى الخواطر لاخوف عليهم اه ثم التفت الى الرسول وقال لترجمانه قل له انه لابد من حضور المشايخ والاعيان الينا لنرتب ديوانا ننتخبه من سبعة من عقلاء الناس يدبرون الامور وينظرون فى مصالح الخلق * فعاد الرسول وأخبر بجميع ماجرى فاطمأن الناس وسكنت خواطرهم وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى ولم يبق من كبار المشايخ يومئذ غيرهم لفرارهم مع بعض الامراء وعبروا الى الجيزة فتلقاهم بونابارته وبش فى وجوههم وسألهم أأنتم كبار المشايخ فقالوا لا وانما كبار المشايخ قد هربوا فقال لأى سبب يهربون اكتبوا لهم بالحضور وسنعمل لكم ديوانا ينظر فى مصالح الرعية ويقضى أمورها ويقوم بما تقتضيه الشريعة ثم أمر فكتبوا

عدة مكاتيب للمشايخ بالامان وسرعة العودة ثم قام الشيخ الصاوى ومن معه وعبروا الى مصر
بعد العشاء الأخيرة فاطمأن الناس برجوعهم وأصبحوا فأرسلوا خطاب بونابارته للمشايخ
فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى وبقية المشايخ ومن تبعهم من الاهالى الفارين من
ناحية المطرية فتقوت قلوب الرعية برجوعهم ودخل معهم أيضا جماعة كبيرة من الحرافيش
والاوباش الذين كانوا يقتفون الهاربين من الامراء والاهالى وقصدوا بيتى ابراهيم بيك الكبير
ومراد بيك اللذين بخطة قوصون ونهبوا ما بهما وأحرقوهما بغير ممانع ونهبوا عدة بيوت
أخرى من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من متاع وغيره وكانوا يبيعون ذلك فى
الاسواق جهارا

ولما كان يوم الثلاثاء عاشر صفر عبر بونابارته النيل الى مصر فى فريق من عساكره ونزل
فى بيت محمد بيك الالفى بخط الساكت الذى أنشأه وزخرفه وفرشه بأنواع البسط والفرش الثمينة ولم
يسكن به الا أياما قلائل ثم رحل عنه عند وصول الاخبار بدخول الفرنسيس مدينة الاسكندرية
فاحتله بونابارته وكأنه قد بنى وفرش له ولم يدرج فى المدينة من عسكر الفرنسيس الانفر ومشوا
بالاسواق من غير سلاح ومع غاية الحشمة والوقار فكانوا يبشون فى وجوه الناس ويضاحكونهم
ويشترون مايحتاجون اليه بأغلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها
ريالا ويأخذ البيضة بنصف فضة فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم
وخرجوا اليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وصاروا
يبيعون عليهم بما أحبوا من الاسعار وفتح أكثر السوقة الحوانيت والقهاوى * وأرسل بونابارته
يطلب المشايخ والاعيان فذهبوا اليه فلما استقر بهم المقام كلمهم فى إقامة عشرة من المشايخ
للديوان وفصل الخصومات وقضاء مصالح الرعية فوقع اتفاقهم على الشيخ عبد الله الشرقاوى
والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ مصطفى الصاوى
والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى والشيخ يوسف الشبرخيتى
والشيخ محمد الدواخلى وانتظم فى عداد هذا المجلس أيضا محمد كتخدا أبو بكر باشا عامل السلطان
على مصر وقاضى القضاة وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغاة مستحفظان وعلى أغا الشعراوى
والى الشرطة وحسن أغا محرم أمين احتساب وقد ألح المشايخ باعطاء هذه المناصب لمن ذكروا
من المماليك خلافا لما أشار به بونابارته من تبعيد طوائف المماليك وعدم ادخالهم فى الوظائف
العالية وأعلموا بونابارته بان سوقة مصر لايخافون الا من الترك ولايحكمهم سواهم * قال صاحب
عجائب الآثار وأقاموا ذا الفقار كتخدا محمد بيك كتخدا بونابارته والخواجه موسى كاتوا وكيلا
عن الفرنسيس المقيمين بمصر والخواجه حنا بنتو عن أرباب المجلس * فلما استقر بأرباب هذا
المجلس المقام رسم بونابارته فنادى الاغا والوالى فى شوارع مصر والقاهرة بالامان فلم تكن
العامة لتكترث بهذا النداء وبقيت أكثر الدكاكين مقفلة والناس فى ريب من سكون الحال
وكانوا لاجل أن يأمنوا شر الطارق من عسكر الفرنسيس يعلقون على أبوابهم الراية الافرنسية

أو يأخذون من معسكر الفرنسيس ورقة مكتوبة بالافرنسية يلصقونها على الباب ثم أمر بونابارته بتقليد الوظائف لمن يرون فيه الاهلية لذلك فقلدوا برتلمين النصرانى الرومى كتخدا مستحفظان قال وهو الذى كانت تسميه العامة فرط الرمان فركب بموكبه المعتاد من بيت بونابارته وأمامه عدة من طوائف الجند مشاة بين يديه وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون وهو لابس فروة وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة وقد رتب الاربطة فى مراكز أخطاط مصر والقاهرة وسكن ببيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين وأخذه بما فيه من فرش ومتاع فيل وجوار وغير ذلك وكان برتلمين هذا من أصحاب المدافع عند محمد بيك الالفى وقلدوا أحد الفرنجة أمانة البحرين وآخر أغاة الرسالة وجعلوا الديوان ببيت قائد أغا بالازبكية قرب الرويعى وسكن به رئيس الديوان وسكن قائمقام مصر ببيت ابراهيم بيك الوالى المطل على بركة الفيل وسكن شيخ البلد ببيت ابراهيم بيك الكبير وآخر ببيت مراد بيك على رصيف الخشاب وسكن بوسليك مدير الحدود ببيت الشيخ البكرى القديم فكان يطلب الكتاب من القبط فى كل يوم ويسألهم عن دفاتر البلاد وحسابها ومربعاتها وغير ذلك * وأفرج بونابارته عن الاسرى من المماليك والاجناد المصرية بشفاعة أرباب الديوان فدخل الكثير منهم بالجامع الازهر وهم فى أسوإ حال وعليهم الثياب الزرق الرثة فمكثوا يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين ويتكففون المارين وفى ذلك عبرة وتذكرة لقوم يعقلون * وجمعوا جميع الاسلحة وآلات الحرب وتتبعوا من كان عنده شئ من ذلك وأخرجوا الدفائن والودائع ودلهم طوائف الخدم على ودائع الامراء وأمتعتهم فأخرجوها وأخذوها الى بيت القائمقام فكانت شيأ كثيرا جدا وطلبوا قرضة من التجار المسلمين والقبط والشوام والفرنجة قدرها خمسمائة ألف ريال فطلبوا التخفيف فلم يرض بونابارته فقاموا بدفعها ودخلت العساكر الى المدينة فملؤا شوارعها وحاراتها وهم فى غاية الحشمة والوقار وكانوا يعاملون الناس بالرفق ويخاطبونهم باللين فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر واسرع السوقة الى فتح دكاكينهم وزال عنهم الخوف

وجاء الخبر بوصول الحاج الى العقبة وقرب دخولهم الى مصر فذهب أرباب الديوان الى بونابارته وأخبروه بوصول أمير الحاج ومن معه من العساكر والاجناد وطلبوا منه اذنا له بالدخول هو ومن معه فامتنع ولم يسمح الا بدخوله فى قلة وان لاتدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر فكتب المشايخ الى أمير الحاج بأن يحضر الى الدار الحمراء ويتربص هنالك حتى ينظر فى دخوله الى مصر فلم تصل اليه مكاتبة المشايخ حتى كاتبه ابراهيم بيك الكبير وحبب اليه الحضور الى بلبيس بمن معه من العسكر فساروا جميعا الى بلبيس وأقاموا بها أياما وكان ابراهيم بيك عند هروبه من مصر قد ذهب الى بلبيس وأقام بها وبعث النساء والذرارى الى القرين باقليم الشرقية فلما قدم عليه أمير الحاج بمن معه سار بهم الى المنصورة وقد تفرق جميع الحاج الى بلادهم وعلم بونابارته بذلك فخرج فى جيش عظيم الى العادلية وسار الى أن وصلت طلائعه الخانكة وأبا زعبل وطلبوا كلفة من أبى زعبل فامتنع أهلها

فقاتلوهم وهزموهم ونهبوا البلد وأحرقوها وارتحلوا الى بلبيس فملكوها بغير قتال ووصل الخبر بذلك الى ابراهيم بيك الكبير ومن معه من الامراء وبعض الاعيان فركب ليلا بمن معه وترفع الى القرين فتبعه بونابارته بجيوشه فسار ابراهيم بيك الى الصالحيــة وأنزل النساء والذرارى فيها ومعهم متاعه وأقام عليهم طائفة من العرب تحرسهم فجاء أحد العربان وأخبر بونابارته بموضع النساء والامتعة فسير بونابارته فريقا من الفرسان لاخذها فوقف ابراهيم بيك وأصحابه فى طريق أولئـك الفرسان واشتبك القتال بين الفريقـين ساعة كادت تنهزم فيها الفرنسيس لقلتهم واذا بالخبر جاء الى ابراهيم بيك بأن العرب على وشك أن يأخذوا الامتعة وجميع الاحمال ففر وفر من كان معه على أثره وتركوا قتال الفرنسيس ولحقوا بالاحمال وأجلوا عنها العرب وقتلوا منهم جماعة وساروا مسرعـين الى قطيا فلم تدركهـم الفرنسيس بعـد ذلك وما زالوا سائرين الى أن استقربهم المقام بغزة فعاد بونا بارته بجيوشه الى مصر وجعل ينظر فى الامور ويرتب أحوال البلد وأكثر من طلب الكلف والمصالحات للنفقة على جيوشه الكثيرة ﴿وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بقـدوم عمارة الانكليز الى ناحية أبى قير مع نلسون أحد أمراء البحر وأنها أحرقت جميع مراكبه وما فيها من آلات الحرب والذخيرة وغيره عند السد وتحرير الخـبر أنه لما خرج بونا بارته بمراكبـه يريد الاسـكندرية لم يسر بها فى درب البحر المعـلوم خوفا من أن تلحقه مراكب الانكليز فسار خلفـه ربان السفن الانجليزية ولحق بالاسكندرية ليمنعه من النزول بها فكان من أمر حضوره وعـدم ملاقاته بسفن بونا بارته ماتقـدم بيانه فرجع بمراكبـه يمخر فى البحر لعله يعثر على سفن بونا بارته فيقاتلها أو يتبعها حيثما سارت فدخلت مراكب بونا بارته الى أبى قير على يسار مدينة الاسكندرية عند غروب الشمس وقيـل بعـد غروبها وألقت مرساها وكانت الريح على وشـك الخروج والبحر كثير الامواج فقـال بونا بارته لربانه فلتنزل الجنـد حالا الى البر فقال كيف يامولاى والبحر فى هياج والامواج فى شـدّة وماذا علينا ان بقينا الى الصباح فقال بونابارته لابد من خروج العسكر بلامهل فأخرجت وأصبحوا فلم يبق فى المراكب الا ملاحوها فقط وسار بونا بارته من فوة الى الاسكندرية ومنها الى رشيد ودمنهور والرحمانية قاصدا القاهرة كما تقدم لك ﴿أما سفن الانجليز فانه بعـد أن أقلع بها نلسون من مياه الاسكندرية وسارت تمخر فى عرض البحار تبحث عن بونا بارته وسفنه عادت مسرعة الى أبى قير فرأت سفن بونابارته راسية هنالك فظنت أن بونابارته وعسكره بها فأطلقت عليها المـدافع وكانت السفن الفرنساوية راسية على خط واحد ممتدة من الشمال الغربى الى الجنوب الغربى من أبى قـير وربانها الاميرال برويس وكان برويس قد أنزل من كل مركب منها فى ذلك اليوم خمسة عشر رجلا الى البر لحفر الفعلة الذين أتوا بهم لحفر الآبار للاستقاء فلما شاهد الاميرال برويس سفن الانجليز قادمة استدعى عساكره الذين بالبر وعقـد مجلسا من ضباطه وتناجوا فى أمر القتال مع المراكب الانكليزية فأشاروا عليه بالخروج الى ظهر البحر وملاقاتها بعيدا عن أبى قير دفعا للخطر فلم يذعن لمشورتهم وأبقى سفنه

فى

فى مرساها وكان نلسون أمير السفن الانجليزية فى كمد دائم وحزن ملازم بسبب عدم اهتدائه الى مقر السفن الفرنساوية فلما شاهدها عند أبى قير فرح وأخذ يدبر أمر قتالها قيل فسير بعض مراكبه الى التحرش فى مراكب الفرنسيس والدخول بينهم حتى يصلوا بالبر وأتى بما بقى من مراكبه أمام مراكب الفرنسيس وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وأطلق مدافعه على سفن الفرنسيس فاجابته مدافع الفرنسيس واشتبك القتال بين الفريقين وتتابع الرمى بالقنابل وعلا الدخان وقد دخل الليل فازداد الجو ظلاما على ظلامه وتحطم بعض المراكب الفرنسوية وأسر البعض الآخر فى قليل من الزمن وكان أميرال السفن الفرنسوية على ظهر أكبر مراكبه المسماة الشرق وبها نحو ألف من الملاحين وكان نلسون على ظهر إحدى بوارجه فأصابته رصاصة فى جبهته فحملوه الى غرفته وكذلك أصاب أميرال المراكب الفرنسوية شظية من قنبلة قطعته نصفين فحملوه لينزلوا به الى غرفته فأبى وأشار لهم ان أبقونى حتى أموت فى موقفى هذا واشتد القتال وعلت أصوات المدافع الى عنان السماء فلما كان بعد العشاء الاخيرة أصابت النار مخازن بارود مركب الفرنسيس الكبرى المسماة الشرق فأشعلتها فارتفعت بما فيها من الرجال والاموال والذخيرة والمدافع وآلات الحرب أذرعا كثيرة عن وجه الماء ثم هبطت الى قاع البحر وقد تمزقت كل ممزق ولم يبق لها من أثر ورأى حريقها أهل الاسكندرية ورشيد وغيرهما وبطل عندئذ القتال نحو ساعة ثم عاد نلسون يرمى بالقنابل تباعا على مابقى من سفن الفرنسيس الى نحو ظهر اليوم الثانى حتى دمرها تدميرا وكان الجنرال كليبر فى هذا الحين محتلا بجيشه الاسكندرية فشاهد نيران الحريق وعلم بما جرى على السفن الفرنسوية من الحريق والدمار فهاله الامر وأزعجه جدّا فبات هو ومن معه من العسكر على قدم الاستعداد فلم يغمض لهم جفن ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاء الخبر بما جرى وأقلعت سفن العمارة الانجليزية تمخر فى عرض البحار لايعلم أحد اين يكون مرساها بعد هذا النصر العظيم

واغتم بونابارته غما شديدا مما حل بالعمارة الفرنسوية وكادت تفتر همته وتخمد عزيمته وأصبح وهو بين منتطح عنزين فقد رجع الانجليز بسفنهم الى مياه الاسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيس ويمنعون عنهم المدد وأطلقوا قنابل مدافعهم على سد ابى قير ليجرى فيه الماء الملح على أراضى البحيرة جميعها لتغرق جيوش بونابارته التى كانت منتشرة يومئذ فى تلك الاطراف فلم تلحق بهم ضررا وقيل بل ألحقت ببعضهم وقيل غير ذلك وكاتب بونابارته أحمد باشا الجزار عامل السلطان سليم يومئذ على الشام يستميله الى الخروج وشق عصا طاعة مولاه وتسليم البلاد لبونابارته وجعل يمنيه بالامانى الطويلة وسير اليه الرسل بذلك من نصارى الشوام ومسلميهم وهوّن عليه الامر وسار مع هؤلاء الرسل أحد الفرنسيس بهيئة متنكرة وزى التجار فلما قدم على عكا أمر الجزار بذلك الفرنسوى فنقلوه الى احدى السفن العائدة الى دمياط ولم يقابله وأمره بالرحيل حالا ولم يأخذ منه

الكتاب وعجز من كانوا معه فعاد ليومه ولم تنجح سفارته وجعل الجزار يكاتب من هذا الحين بعض التجار والمشايخ بمصر والقاهرة ويراسلهم سرا فكان بونابارته لذلك على حذر دائم من المشايخ والعلماء والاعيان كثير التطير منهم فكان يقلب عليهم أنواع التجارب ليعرف ماستكن فى صدورهم فكان تارة يلزمهم بلبس الچوكار وأخرى بتركه وطورا بلبس الفرجيات وأخرى بتغيير شكلها الى شكل آخر وأرسل الى أهل الديوان منهم يوما لحضروا نخاطبهم بواسطة ترجمانه ساعة ثم نهض من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان وكل طيلسان ثلاث شقات ابيض واحمر وكحلى فوضع منها واحدة بيده على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى بها الشيخ الى الارض وتغير لونه ثم استعفى من لبسها فقال بونابارته لترجمانه قل لحضرات المشايخ انهم صاروا أحبابنا وانى لذلك ارغب فى تعظيمهم بزى رايتى وعلامتى فان تزيوا بها احترمتهم الجند وعظمتهم العساكر فقال المشايخ ولكن يضيع قدرنا عند الله واخواننا المسلمين فدمدم بونابارته واغتاظ لذلك وقال لايصلح الشيخ الشرقاوى للرئاسة فلاطفوه وألانوا له الكلام فكان لاينكف عن تجربتهم كل قليل بمثل هذه الامور وغيرها* وعلم بونابارته بترفع مراد بيك الكبير الى الفيوم بعد فراره من وقعة انبابه فسير اليه فريقا من الجند فترفع وفارقه عثمان بيك الاشقر وعبر الى الجانب الشرقى من النيل وسار من خلف الجبل ولحق باستاذه ابراهيم بيك بغزة وكان السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية قد أقره بونابارته فى منصبه كما تقدم فأرسل الى مراد بيك مكاتبة يمنيه فيها بتسليم الاسكندرية اليه ان هو حضر بعسكره ومماليكه واتباعه فعلم بونابارته بتلك المكاتبة واتت اليه بها الجواسيس فاستقدم السيد محمد كريم وسأله فأنكر فابرز له تلك المكاتبة فتلجلج فحكم عليه بغرامة من المال عظيمة للغاية فان لم يقم بدفعها قتل بغير معاودة فلم يدفع وشفع فيه المشايخ والعلماء فلم تقبل شفاعتهم وأمر به بونابارته فقتلوه واحتزوا رأسه وطافوا بها شوارع المدينة والمناداة أمامها هذا جزاء الخائن وأخبر بونابارته الجواسيس أيضا بورود مكاتبات أخرى من ابراهيم بيك الكبير الى بعض المشايخ خطابا لهم وللرعية فأرسل فى الحال يطلبها فخاف المشايخ خوفا عظيما وأرسلوها اليه فجمع أرباب الديوان وأمر ترجمانه فقرأ المكاتبات المذكورة فكانت تتضمن الحث لهم على الاتحاد واليقظة والمحافظة على الرعية وان السلطان بعث اليه بجيش وانه على عزم الحضور به الى الديار فتبسم بونابارته وقال هى فرية لاأنزل الله بها من سلطان ثم سرح المشايخ فانصرفوا* واتفق ان جاء فى هذه الاثناء أغا من خصيان دار السلطنة وكان تحجروا عليه بالاسكندرية فمر من المدينة يريد المشهد الحسينى فرآه الناس واستغربوا هيأته وقالوا هذا رسول الحى جاء من عند السلطان بمرسوم يأمر الفرنسيس فيه بالجلاء عن البلاد وكثرت أقوالهم فى هذا الشأن وتباينت أخبارهم واجتمعوا بالمشهد الحسينى وتبع بعضهم بعضا وتزاحموا فبلغ بونابارته ماتشيعه العامة وما تتناقله الناس من

بورود

وورد مرسوم من السلطان خطابا للمشايخ وقد أخفوه عن بونابارته فركب من فوره وحضر الى بيت الشيخ السادات بالمشهد الحسينى وكان الوقت بعد الظهر فدخل على حين غفلة ولم يكن تقدم له مجيء وهو فى كبكبة وخيول كثيرة وعسكر فانزعج الشيخ ونزل اليه وهو لايعرف السبب فى مجيئه فى مثل هذا الوقت على هذه الصورة فلما رآه بونابارته سأله عن ذلك المرسوم فقال لاعلم لى بذلك ولم يكن بلغه الخبر فجلس بونابارته مقدار ساعة ثم ركب ومر بعسكره من باب المشهد والناس قد كثر ازدحامهم بالجامع والخطة وهم فى هرج فلما نظروه وشاهد هو جمعهم داخله أمر من ذلك فصاحوا جميعا بصوت واحد وقالوا الفاتحة فسأل عن سبب الصياح والحامل عليه فقالوا انهم يدعون لك بخير وأصبح وقد سير جيشا عظيما الى حيث مراد بيك وآخر الى الشرقية لمراقبة أحوال ابراهيم بيك الكبير واستطلاع أخباره وقد انحط عنده شأن أرباب الديوان فأهمل أمره أياما ثم شرع فى ترتيب ديوان آخر سماه محكمة القضايا ورتب له أصولا وقواعد ترجع أموره اليها وعين له اثنى عشر عضوا ورئيسا ستة من القبط وستة من تجار المسلمين وجعل رئيسه المعلم ملطى القبطى وفوض اليهم الفصل فى أمور التجارة والعامة والمواريث والدعاوى وجعل لذلك الديوان قواعد وأركانا وكتبوا منها نسخا كثيرة أرسلوا منها الى الاعيان وغيرهم وأمر فانزل من كان بقلعة الجبل من الاهالى الساكنين فى دورها ودربها وأصعدوا اليها عدة كبيرة من المدافع ووضعوها فى عدة مواقع وهدموا بها أبنية كثيرة ورمموا بعض الاسوار بها وما تهدم منها وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحوا محاسن أولئك الملوك والسلاطين ورفعوا ما كان بباب العزب من الاسلحة والدرق والبلط والحراب الهندية وغير ذلك واستقدم مشايخ البلاد وأعيان البنادر والثغور الى القاهرة فحضروا واجتمعوا ببيت قائد أغا بالازبكية وجمع من قدم أيضا من الثغور والبنادر معهم وكذلك أعيان التجار ونصارى القبط والشوام ومدبرو الديوان من الفرنسيس وغيرهم جمعا موفورا فلما استقربهم الجلوس برز المعلم ملطى كبير محكمة القضايا وقرأ مرسوم شروط وقاعدة أعمال المحكمة المذكورة فلما تمت قراءته أبرز كبير المدبرين قرطاسا كبيرا وناوله لترجمانه فنشره وقرأه فكان محصله شرح حال الديار المصرية وما كانت عليه فى القدم من رفعة الشأن والغنى والثروة واتساع نطاق الزراعة والتجارة وتقدم الصنائع وبلوغ المعارف والعلوم الى أقصى الدرجات وانها كانت محط الآمال ومنبت عظماء الرجال ولذلك قد أحدقت بها الابصار ومدت اليها الاعناق وتطاولت اليها الايدى فملكها أهل بابل واليونانيون والعرب والترك وغيرهم الا أن الدولة التركية بالغت فى تخريبها اذ من طبعها أنها اذا حصلت الثمرة قطعت عروق الشجرة فلذلك لم تبق الترك بأيدى الناس شيأ الا النزر اليسير وصار الناس لاجل ذلك مستترين تحت حجاب الفقر وقاية لارواحهم من الفتك ولاعراضهم من الهتك ثم إن طائفة الفرنسيس بعد أن تمهد أمرها وبعد صيتها وفتحت البلاد وقبضت على أزمة الممالك العظيمة تاقت نفسها لاستخلاص مصر مما هى فيه من المذلة والضنك

واراحة أهلها من عناء هـذه المظالم وانتشالها من وهـدة هذه الدولة المفعمة جهـلا وغباوة فقـدمت وأتاح الله لها النصر فبددت شمل المماليك ومزقتهم تمزيقا ومع هذا الانتصار فانها لم تعامل الرعيـة بالقسوة ولم تتعرض لشئ من أمورهـم الذاتية بمكروه وقـد وضعت دولة الفرنسيس فى مقدمات أعمالها الخطيرة فى هـذه الديار اصلاح الطرق وتأمين السـبل وحفر الخلجان والترع وتقريب المواصلات بين البلاد وبعضها وتوسيع نطاق التجارة وتعمير ماتخرب من البلاد ومنع القوى من ظلم الضعيف وغير ذلك استجلابا لخواطر أهل البلاد وابقاء للذكر الحسن فعلى أهل البلد ترك الشغب والاخلاد الى السكون واخلاص المودة والاقلاع عن فعل مالا تحمد عاقبته ولم يكن المراد من استقدام من استقدموا من أهل البلاد وعمدها فى هذا اليوم الا ابلاغهم نوايا دولة الفرنسيس نحو بلادهـم وأهلها وهى على يقين من أنهم يمدون لذلك يد المعونة ويبلغون سر عسكر الدولة الافرنسية بونابارته بما تحتاجه بلادهم من الاعمال الخطـيرة والمنافع الضرورية إلى أن قال وإنا نريد منكم الآن يامشايخ أن تختاروا من بينكم واحدا يكون كبيركم وعليكم طاعته والاخلاد لاشارته ۞ فقال بعض الحاضرين نختار الشيخ الشرقاوى فقيل لهم وانما يكون ذلك بالقرعة فاقترعوا فظهرت القرعة للشيخ عبد الله الشرقاوى وما تم هذا الامر حتى غربت الشمس فأذنوا لهم بالانصراف وأن يعودوا فى غد وذهبوا فى ثانى يوم وانتخبوا بقية من وقع الاختيار عليهـم لديوان مصر من أهالى البـلاد والمشايخ والقبط والشوام وتجار المسلمين ثم أخذ أعضاء هذا الديوان فى ترتيب أمور الحوادث والنظر فى المقررات على العقار والاملاك ورتبوا لذلك ترتيبا بأن جعلوا على الاعلى منها ثمانية فرانسة فى كل سنة وعلى الاوسط ستة وعلى الادنى ثلاثة وما كانت أجرته أقل من ريال فى الشهر فلا شئ عليه وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ماجعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك أوراقا وألصقوها بالطرق والمفارق وأرسـلوا نسخا للاعيان وعينوا جماعة المهنـدسين ومعهم أشخاص لتقـدير أجرة كل ملك وعقار وشرعوا فى الاحصاء وطافوا بعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أصحابها فلما شاع خبر هذا العمل بين الناس استعظموه وانتبذ جماعة منهم وتناجوا فى ذلك ووافقهم عليه بعض المتعممين فاجتمع عند ذلك الكثير من الغوغاء من غـير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الاحد وهـم فى جمع عظيم وأظهروا ما كانوا قد أخفوه من الآلات والاسلحة وخرج رجل اسمه السيد بدر ومعه حرافيش خطة الحسينية وزمر الحارات الخارجة عن القاهرة وهـم فى صياح وضجيج عظيمين وينادون بأعلى أصواتهم نصر الله دين الاسـلام وساروا الى بيت قاضى القضاة فخشى العاقبة وخاف هذا الامر فأمر فاغلق خدامه الابواب ووقفوا امامها يمنعون هـذه اللوم من الدنو منها فرجموا بيت القاضى بالحجارة واجتمع كذلك بالجامع الازهر عدد عـديد من أوائك السوقة والغوغاء ووصل الخبر الى الجنرال بون حاكم البلد فركب على الفور فى عـدة من الفـرسان ومر بشارع الغـورية وعطف عـلى خط

الصنادقية وذهب الى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام العظيم فهاله أمره وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وكانت جميع هذه الخطط مزدحمة باخلاط الاهالى فبادروا اليه وضربوه وأثخنوه جراحا وقتلوا بعض فرسانه ثم أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون وضبطوا عدة أماكن بالقاهرة مثل باب الفتوح وباب النصر والبرقية الى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وماحاذاها وهدموا مصاطب الدكاكين وجعلوا أحجارها متاريس ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس واقتصر هذا الحادث على من بقلب القاهرة ولم يشاركهم فى هذا الخروج أحد من أهالى مصر القديمة ولا أهل بولاق ولا غيرهم من الاطراف فسار اليهم طائفة من الفرنسيس وظهروا من ناحية المناخلية وأطلقوا بنادقهم على المتاريس الكائنة بناحية الشوايين وقد كان بها طائفة من تجار ناحية الفحامين المغاربة فقاتلتهم المغاربة قتالا شديدا وأجلوهم عن المناخلية وعند ذلك زاد الحال وكثر الزحف والزلزال وخرجت العامة الخروج التام وبالغوا فى الافساد وتطاولت أيديهم الى النهب وهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الروم والشوام وما جاورها من بيوت المسلمين وسلبوا النساء والبنات وكذلك نهبوا خان الملايات وباتوا تلك الليلة على ماهم عليه من النهب والخطف وأصبح الفرنسيس وقد رتبوا مدافعهم على تلال البرقية وقلعة الجبل ووقفوا ينتظرون اشارة بونابارته وكان بونابارته قد أرسل الى المشايخ خطابا يسألهم فيه رد العامة بالتى هى أحسن حقنا لدمائهم واستبقاء لارواحهم فلم تجبه المشايخ بشئ فأطال الانتظار فلم يردوا عليه وقد كثر رمى العامة بالبنادق وعبثهم بالمدينة وأفحشوا فى النهب والخطف وما زالوا على هذا الحال الى مابعد الظهر فلما أعياه الانتظار أمر أصحاب المدافع فجعلوا يطلقون مدافعهم تباعا على البيوت والحارات وعلى الخصوص الجامع الازهر وما جاوره من المساكن فكانت القنابل تخرج من أفواهها كالمطر وقد دمرت تلك النواحى وخربتها تخريبا فخرج الناس والمجاورون على وجوههم وهم يضجون بأعلى أصواتهم ﴿ياخفى الالطاف نجنا مما نخاف﴾ وخرجت النساء حاسرات وأولادهن فى أحضانهن وهن مولولات وتتابع الرمى بالقنابل من قلعة الجبل وتلال البرقية حتى تزعزعت أركان المدينة وكادت البلد تندك عن آخرها فلما اشتد الخطب وعظم الهول والكرب ركب المشايخ الى بونابارته واستغاثوا فعاتبهم واتهمهم بالخدعة والتقصير فاعتذروا وتلطفوا فى القول واستنهضوا مروأته فقبل عذرهم وأمر بالكف عن اطلاق المدافع فقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان وتسامع الناس بذلك فاطمأنت قلوبهم وسكنت خواطرهم وكان قد أقبل الليل

أما أهل الحسينية ومن معهم من أهالى الاطراف فانهم لبثوا وراء المتاريس يتابعون الرمى حتى فرغ منهم البارود فانكفوا عن القتال وقد مات منهم العدد العديد بنيران الفرنسيس التى كانت تتساقط عليهم من كل جانب ثم انكف عنهم الفرنسيس وتركوهم وبعد هزيع من الليل دخلت العساكر الافرنسيه الى المدينة مشاة وفرسانا ومروا بالازقة والشوارع فلم يعثروا على أحد فهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة منهم باب

البرقية وساروا الى الغورية ثم كروا ورجعوا وتراسلوا أرسالا ركبانا ورجالا ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم على ظهور الخيل وبينهم المشاة وعاثوا بالاروقة وكسروا ماوجدوه من القناديل والمصابيح وأصبحوا وقد اصطف منهم فريق بباب الجامع وتفرقت طوائف منهم بتلك النواحي واتخذوا السعي والتطواف بها منهاجا فخرج سكان تلك الخطة يهرعون وهم في أسوإ حال وكان الفرنسيس يسيرون بالشوارع ويفتشون كل من يمر بهم فمن امتنع قتلوه ثم أخذوا يحملون القتلى من المسلمين والفرنسيس فكانوا كثيرين ومات في هذه الثورة الجنرال بون بجراحاته التي أصابته وهدموا مابقي من المتاريس ورفعوا ترابها وأحجارها وقيدوا برتلمان بالعسس والبحث عن الاسلحة المخبأة فبث اعوانه في أطراف المدينة وأكثر من الاساءة وبالغ في تنكيل المسلمين فملأ منهم الحبوس وكذلك فعل الاغا وأصبح يوم الاربعاء فركب المشايخ كافة وذهبوا الى بونابارته وخاطبوه بالعفو ولاطفوه فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويف وطالبهم بأن يدلوه على المتعممين الذين أضرموا نار هذه الفتنة فغالطوه وأكثروا من المواربة فقال ان لم تذكروهم لي الساعة فاني لاأعفو أبدا فالتمسوا منه اخراج العسكر من الجامع فأجابهم الى ذلك وأمر فاخرجوا ولم يبق سوى سبعين جعلوهم رباطا وبالغ بونابارته في البحث عن مثيري هذه الفتنة من المتعممين فكانوا الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوي والشيخ عبد الوهاب الشبراوي والشيخ يوسف المصيلحي والشيخ اسمعيل البراوي فأمر بونابارته فقبضوا عليهم وسجنوهم ببيت الشيخ البكري ولم يعثروا على السيد بدر المقدسي الذي جمع لموم الحسينية حيث فر هاربا الى الشام فخاف بقية المشايخ خوفا ما عليه من مزيد وأكثروا من الذهاب الى بونابارته والتخشع اليه وطلب فك سجن أولئك المشايخ فغولطوا وقد اتهم أيضا ابراهيم افندي كاتب البهار بانه جمع جمعا لاثارة هذه الفتنة من المماليك المختفين عنده وقد أعطاهم شيأ كثيرا من الاسلحة والمساوق والعصي وغيرها فقبضوا عليه وسجنوه ببيت الاغا ثم قبضوا على آخرين وسجنوهم بقلعة الجبل واشتد البحث وتتبع المشاركين في هذا الحادث فاشتد قلق المشايخ وركب الشيخ السادات وبقية المشايخ الى بونابارته وتشفعوا وتخضعوا فلم يقبل واستمر القبض على الناس بأدنى شبهة ورد بعضهم ما كان نهبه من بيوت النصارى والشوام وغيرهم أيام الثورة فكان شيأ كثيرا وتطاير شرر هذه الفتنة الى جوف البلاد أيضا فقام بعض أهالي القرى والبلدان على كتائب الفرنسيس المرابطين بها فقتلوهم وأظهروا الخروج والعصيان فاهتم بونابارته لذلك واستخدم جماعة من المغاربة في الجندية وسلم أمرهم لكبير اسمه عمر القلفجي من مغاربة الفحامين وسيرهم الى تلك النواحي فقهروا الاهالي وظفروا بهم وساموهم الخسف وأسكنوا الفتنة وضربوا بلدة عشما وقتلوا شيخها ونهبوا داره وأحضروا جميع أولاده واخوته فقتلوا جميعهم ولم يبق منهم سوى ولد صغير قد أقاموه شيخا عوضا عن أبيه وسار برتلمان الى ناحية الشرقية في طلب من فر من أصحاب الفتنة فلم يدرك أحدا منهم فعاد الى سرياقوس بعسكره ثم رجع الى القاهرة وقد دخل بعده رسول على هجين قادما من الديار الشامية ومعه

مكاتبات على شكل فرمان من أحمد باشا الجزار والى الشام وآخر من أبى بكر باشا الذى كان
عامل مصر قبـل دخول جيوش الفرنسيس وقد هرب الى الديار الشامية خطابا الى مصطفى
أغا كتخدائه وخطابا آخر من ابراهيم بيك الكبير الى المشايخ حاصـل مافيها بعـد الاستهلال
وذكر بعض الآيات القرآنية والاحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد ولعن طائفة الفرنجة والحط
عليهـم وذكر عقائدهم وكذبهـم وتحيلهم الحض على قتالهم والتخلص منهـم وكذلك بقيـة
المكاتبات فأخذها الكتخدا المذكور وذهب بها الى بونابارته فلما عـلم مافيها قال هى أحبولة
من حبائل ابراهـيم بيك بقصـد ايقاع الفتنـة واضرام نار الوحشة فاحذروا وانظروا فى
عواقب الامور

وأخـذ الفرنسيس من هذا الحين يشيدون الحصون ويرتبون المعاقل ويعدون الابراج
العظيمة على التلال والآكام المحيطة بالبلد ووضعوا عليها المدافع وهدموا أماكن كثيرة بالجيزة
وحصنوها تحصينا عظيما وكذلك مصر القديمة وشبرا وقد هدموا منها عدة جوامع منها الجوامع
المجاورة لقنطرة انبابه ومسجد المقس المعـروف الآن بأولاد عنان على الخليج الناصرى بباب
البحر وقطعوا نخيل جهة الحلى و بولاق وخربوا دورا كثيرة وأخذوا مافيها من الاخشاب ثم ذهبت
منهم طائفة بعد أيام الى منزل الشيخ البكرى فى نحو نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين فخرجوا
واذاهم فى وسط فريق من الجنـد وقد قبضوا عليهم وذهبوا بهم الى بيت حاكم المدينة بدرب
الجماميز ثم عروهم من ثيابهم وصعدوا بهم الى قلعة الجبل وسجنوهم فلما أصبحوا أخرجوهم
وقتلوهم برمى البنادق وألقوهم من السور خلف القلعة وخفى خبرهم عن أكثر الناس وركب
فى ذلك اليوم بعض المشايخ الى مصطفى بيـك كتخـدا الباشا ليتشفعوا واياه لاولئـك المشايخ
فذهبوا الى بيت بونابارته وهم لايعلمون بموتهم فقابلهم ترجمانه بعين غامضة ثم تركهم فانصرفوا
وأمر بونابارته فكتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها الى البلاد وأرسلوا منها صورا
الى المشايخ وهى نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر المحروسـة وفيها * نعوذ بالله من الفـتن
ماظهر منها وما بطن ونتبرأ الى الله من الساعين فى الارض فسادا نعرف أهـل مصر قاطبـة
أنه حصل بعض الخلل فى المحروسة من بعض الجعيدية وأشرار النـاس فحركوا الشرور بين
الرعية وبين العساكر الفرنسوية بعد ما كانوا أصحابا وأحبابا بالسوية وترتب على ذلك قتـل
جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ولكن حصلت ألطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب
شفاعتنا عنـد أمير الجيوش بونابارته وارتفعت هذه البلية لانه رجل كامل العقل عنده رحمة
وشفـقة على المسلمين ومحبـة للفـقراء والمساكين ولولاه لكان العساكر أحرقوا جميع المدينة
ونهبوا جميع الاموال وقتـلوا كامل أهل مصر فعليكم أن لاتحركوا الفتنـة ولاتطيعوا أمر
المفسدين ولاتسمعوا كلام المنافقين ولاتتبعوا الاشرار ولاتكونوا من الخاسرين سفهاء العقول
الذين لايقرؤن العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم فان الله
سبحانه وتعالى يؤتى ملكه من يشاء ويحكم مايريد ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هـذه

الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذى عليكم والدين النصيحة والسلام اه بنصه

ولما طار الخبر فى الآفاق بورود مكاتبات ابراهيم بيك والجزار وتكلم فى أمرها أهل البلاد وأكثروا اللغط بها خاف المشايخ من رجوع الحال الى ما كان عليه وقيام الفتنة فعمدوا الى تحرير منشور وأرسلوا عدة صور منه الى المدن والبلدان يقولون فيه * نصيحة من علماء الاسلام بمصر نخبركم يا أهل المدائن والامصار من المؤمنين ويا سكان الارياف من العربان والفلاحين أن ابراهيم بيك ومراد بيك وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة من المكاتبات والمخاطبات الى سائر الاقاليم المصرية لاجل تحريك الفتنة بين المخلوقات وادعوا انها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان وبسبب ذلك انه حصل لهم الغم الشديد والكرب الزائد واغتاظوا غيظا شديدا من العلماء والرعايا حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وأن يتركوا عيالهم وأوطانهم فارادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ولو كانوا فى هذه الاوراق صادقين بأنها من حضرة سلطان السلاطين لارسلها جهارا مع أغوات معينين ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائما يحبون المسلمين وملتهم ويبغضون المشركين وطبيعتهم وهم أصحاب لمولانا السلطان قائمون بنصرته وأصدقاء ملازمون لمودته وعشرته ومعونته يحبون من والاه ويبغضون من عاداه ولذلك بين الفرنساويين والموسكو غاية العداوة الشديدة ومن أجل هذا يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكوب ان شاء الله ولا يبقون منهم بقية فننصحكم يا أهل الاقاليم المصرية أن لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العساكر الفرنسوية بشئ من أنواع الاذية فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية ولا تسمعوا كلام المفسدين ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون والا فتصبحوا على ما فعلتم نادمين وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا فى أوطانكم سالمين وعلى عيالكم وأموالكم آمنين مطمئنين لان حضرة صارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابارته اتفق معنا على انه لا ينازع أحدا فى دين الاسلام ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثته الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم بابراهيم ومراد وارجعوا الى مولاكم مالك الممالك وخالق العباد فقد قال نبيه ورسوله الاكرم الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الامم عليه أفضل الصلاة والسلام ختام اه ولصقوا نسخا من هذا المنشور بشوارع القاهرة وأرسلوا منها فى سائر البلاد * وشدد بونابارته فى اليقظة والالتفات وأكثر من العيون والجواسيس وأقام الجنرال استنك واليا على القاهرة بدل الجنرال بون واليها الذى قتل فى الفتنة كما تقدم القول فاطمأن الناس بعد ذلك وسكنت الاحوال وعادت

الامور

الامور الى سابق مجراها وأمر بونابارته فجعلوا يمهدون الطرق والعقبات ويسهلون المواصلات داخل المدينة وقد كانت معرقلة بالتلال الكبيرة والوديان العميقة والاشجار الكثيرة فردموا جميع الجهات التى حوالى بركة الازبكية وهدموا الاماكن المقابلة لبيت بونابارته حتى جعلوها رحبة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الاخرى وردموا مكانها بالاتربة الممهدة على خط معتدل من الجهتين مبتدئا من بيت بونابارته الى قنطرة المغربى وفعلوا بعدها كذلك على الوضع والنسق بحيث صار جسرا عظيما ممتدا ممهدا مستويا على خط مستقيم من الازبكية الى بولاق وينقسم بقرب بولاق الى قسمين قسم الى طريق أبى العلاء وقسم يذهب الى جهة التبانه وساحل النيل وبطريقه الطريق المسلوكة الواصلة من طريق أبى العلاء وجامع الخطيرى الى ناحية المدابغ وحفروا فى جانبى ذلك الجسر جميعه خندقين وغرسوا بجانبه الاشجار العظيمة واحدثوا طريقا أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب حيث معمل الفواخير وردموا جسرا ممتدا ممهدا مستطيلا يبتدئ من الحد المذكور وينتهى الى جهة المذبح خارج الحسينية وأزالوا ما يتخلل ذلك من الابنية والغيطان والاشجار والتلال وقطعوا جانبا كبيرا من التل الكبير المجاور لقنطرة الحاجد وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار المقابل لجسر بركة الرطلى وأشجار الجسر أيضا والابنية التى بين باب الحديد والرحبة التى بظاهر جامع المقس وساروا على المنخفض بحيث صارت طريقا ممتدا من الازبكية الى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العادلية على خط مستقيم من الجانبين وقيدوا بذلك ناسا منهم يتعهدون تلك الطرق وأنشؤا مطاحن هواء ومطاحن ماء وجعلوا فى الروضة مستشفى يسع خمسمائة مريض ومثله فى الاسكندرية ورشيد ودمياط وأنشؤا مدرسة بالقاهرة لابناء الفرنسيس المولودين بمصر وجريدتين بالافرنسية احداهما تسمى دكاد اجبسيان والثانية تسمى كوريه دى اجبت ومعامل للاقفال والاسلحة والمدافع وآلات الحرب وصناعة الورق والاقمشة وسائر ما يلزم للبلاد وفعلوا جميع هذه الاعمال العظيمة فى مدة يسيرة جدا مع همة غريبة وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج باب الحسينية قلعة ومنارته برجا ووضعوا على أسواره المدافع العظيمة وأسكنوا به عدة من العسكر وبنوا فى داخله عدة مساكن وكان هذا الجامع معطل الشعائر من مدة وقد باع نظاره منه انقاضا وعمدا كثيرة وعملوا عدة أبراج على تل العقارب بالناصرية ووضعوا فيها عدة آلات حربية وأفردوا لجماعة المديرين والفلكيين منهم وأصحاب العلوم الرياضية كالفلك والهندسة والهيئة والنقوشات والكتاب والحساب وغيرهم من أرباب القلم حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت وجعلوا بيت حسن كاشف جركس فى تلك الخطة مكتبة للمطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم فى أوقات معينة من النهار وكان اذا دخلها أحد المصريين فرحوا به وأحسنوا لقاءه واذا أراد التفرج أطلعوه على ما أراد أو أراد المطالعة أعطوه ما أراد من الكتب ولا سيما الكتب التى تبهج البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة وفى

جلتها رسم صاحب الشريعة المحمدية ورسوم أخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم وكانوا يطلقون
فى كل يوم عند الزوال مدفعا

ولم ينكف بونابارته عن البحث عمن كان له يد فى الفتنة من عمد البلاد واعيانها فقبض
على شيخ العرب سليمان الشواربى شيخ قليوب حيث عثروا على خطاب منه الى أهالى
سرياقوس يحضهم على القيام والتأهب للفتك بالفرنسيس عند خروجهم من القاهرة مقهورين
فسجنوه بقلعة الجبل وسار بونا بارته على اثر ذلك ومعه طائفة من الجند والسيد أحمد المحروقى
وابراهيم أفندى كاتب البهار وبعض المديرين والمهندسين والمعلم جرجس الجوهرى والمعلم أنطون
أبو طقية وغيرهم قاصدا مدينة السويس لامر لم يعلم سره فلما شاع بين أهل السويس خبر
مقدمه هربوا كافة وتركوا البيوت قائمة على عروشها فنهبها العسكر وأخذوا ماوجدوه فيها من
متاع وفرش فأبلغ بونا بارته بعض من كانوا معه مافعله العسكر فرد جميع ماأخذوه ووعد
برد مافقد أو دفع ثمنه وكان مدة لبثه بالسويس يركب فى كل يوم ويطوف فى حارات
وشوارع المدينة وجهات الساحل ليلا ونهارا قيل وكان معه من الادم فى هذه السفرة
ثلاث دجاجات مقلية ملفوفة فى ورقة وقليل من الخبز قال صاحب عجائب الآثار وليس
معه طباخ ولا فراش ولا خيمة وكل شخص من عسكره معه رغيف كبير مرشوق فى طرف
حربته يتزود منه ويشرب من سقاء لطيف من صفيح معلق فى عنقه اه * ثم سار من السويس
الى الشرقية ودخل مدينة بلبيس وقبض على عدة كثيرة من عربان الشرقية وأولادهم
من ذكور وإناث وبعث بهم الى القاهرة مع جماعة من العسكر وقام من بلبيس قاصدا
القاهرة فمر بأبى زعبل فضرب أهلها وضرب كذلك أهل المنير وأمر فأخذت جميع مواشيهما
ودخل القاهرة ليلا فلما كان الصباح أنزلوا شيخ العرب سليمان الشواربى ومعه ثلاثة عربان
آخرون الى الرميلة ومعهم الأغا فقتلوهم ذبحا ثم سلموا جثة الشواربى ورأسه لقومه فحملوه فى
نعش وساروا به الى قليوب وفاض الخبر بذلك فى مصر والقاهرة فخاف الناس وانكف أصحاب
الفتنة وشدد بونا بارته فى تتبع خطوات مراد بيك الكبير وتسيير الجند خلفه اينما سار
فكان مراد بيك كلما لحقت به عساكر بونا بارته ترفع الى الصعيد حتى وصل بمن معه الى عقبة
الهواء وقد داخلهم من لقاء الفرنسيس هيبة ورهبة فلم يقابلوهم وبونا بارته يشدد فى
أمر قتالهم وقطع شأفتهم وقبض على كثير من التجار الترك والقليونجية المقيمين بالقاهرة ومصر
بدلالة الأغا وسجنهم بقلعة الجبل وأخذوا ما كان لهم بوكالة ذى الفقار بالجمالية من متاع
وغيره وجعلوا يفتشون على من بقى منهم بالقاهرة ومصر وبولاق وخصوصا من كان منهم فى
خدمة مراد بيك الكبير وجمعوا جميع الكريديين الذين كانوا فى الخدمة العسكرية عند
ابراهيم بيك ومراد بيك وأدخلوهم فى صفوف العساكر الفرنساوية وزيوهم بزيهم وسير منهم
طائفة خلف مراد بيك فلما تزايدت الشدة بمراد بيك ومن معه وضاقت عليهم الدنيا برحبها
تخلى عنه على باشا ونصوح باشا وسارا مع بعض اتباع ابراهيم بيك الكبير من خلف الجبل

الى

الى الشام فأمر بونا بارته بتحصين تلك الأطراف فسار قوم من الفرنسيس وبنوا فى قطية بعض الابراج والحصون ومهدوا فيها بعض العقبات وأكثروا من الاسلحة والذخيرة ومعدات القتال وأمر بونابارته بعد ذلك فقتلوا جميع من كان مسجونا من المماليك والاجناد التركية بقلعة الجبل وكانوا كثيرين وأخذوا فى إعداد دواب النقل من جمال وبغال وحمير والتأهب غزو الشام وقتال أحمد باشا الجزار واليها

ولما شاع بين أهل الحجاز خبر تملك الفرنسيس على ديار مصر وتصرفهم فى أمور المسلمين هالهم هذا الامر واستعظموه جدا وقام فيهم مغربى اسمه الكيلانى من مجاورى مكة والمدينة وجعل يحض الناس على الجهاد واستخلاص البلاد من ايدى الفرنسيس فانزعج الناس وضجوا بالحرب وعجوا الى الله وجردوا الكعبة من استارها وجعل الكيلانى يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا فى معنى ذلك فاستنهض بعض الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم وكانوا زهاء السمائة وركبوا البحر الى القصير مع من انضم اليهم من أهل ينبع ونزلوا بالصعيد فانضم اليهم العدد العديد من أهله وبعض الترك والمغاربة الذين كانوا مع مراد بيك والكشاف والغز الذين هربوا بعد مقتلة انبابه وزحفوا على جرجا وكان بها الجنرال دوزه بجيوشه يطارد مراد بيك ومن معه فلاقت جيوشه تلك الجموع واقتتل الفريقان فلم تثبت الترك والغز كعادتهم وانهزموا فتبعهم هوارة الصعيد واللوم المجتمعة من القرى وثبت الحجازيون برهة ثم اشتدت عليهم نيران الفرنسيس فتقهقروا ثم ولوا الادبار وترفع من هرب من الترك والمماليك الى اسنا ومعهم حسن بيك الجداوى وعثمان بيك تابعه وجاء الخبر بذلك الى بونابارته بما وقع فتأخر عن الخروج بعسكره الى غزو الشام وتربص حتى يرى ماسيكون من أمر الحجازيين وما زال الحجازيون يعاودون الكرة على الجنرال دوزه وعساكره والحرب بينهم سجال حتى تمكن منهم وبدد جموعهم وأعمل فيهم القتل والتشريد ومزقهم فى شهر رجب سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وانقطع خبرهم ولم يظهر بعد ذلك منهم أحد * ووردت البشائر بما أصابهم الى بونا بارته فجعل يتأهب للخروج بجيشه وخرج فى مستهل رمضان من السنة قاصدا الشام وسارت طوائفه طائفة بعد أخرى فى أحمال ومهمات وكراع زائدة للغاية وعقد بونابارته قبل خروجه ديوانا جمع فيه العلماء والمشايخ والاعيان من النصارى والمسلمين وحدثهم بأمر خروجه بعسكره الى الشام ليقطع شأفة ابراهيم بيك الكبير ومن معه كما فعلت عساكره بمراد بيك ومن معه وأنه سيمهد الطرق ويجعلها فى أمن ويفتح باب التجارة بين مصر والشام ترويجا لارزاق مصر وتوسيعا لنطاق ثروتها قال بونا بارته ولا أغيب عنكم سوى شهر ثم أعود فابذل الجهد فى تحسين أحوال البلاد وترتيب جميع أمورها على النحو المرغوب بعون الله ولا أطالبكم الا بالخلود الى السكينة وملازمة الهدو ومراقبة أحوال العامة وحضهم على ملازمة السكون وعدم الاختلاط بالجند المقيمين بمصر والقاهرة وهذه وصيتى اليكم فاحفظوها فتعهدوا له بذلك * وقد سلم زمام القاهرة الى الجنرال دوغا والصعيد الى الجنرال دوزه

والاسكندرية الى الجنرال هرمون وخرج الى العادلية فى يوم الاحد خامس رمضان من السنة ومعه طوائف الجند وقاضى القضاة ومصطفى بيك كتخدا الباشا وبعض المشايخ والمديرين والمترجين وغيرهم من أصحاب الوظائف العالية وترك عدة من العساكر بالقلاع والابراج التى أنشأها فلما وصل الى قلعة العريش قاتله من بها من العساكر وعدتهم نحو الالف بين مغاربة وارنؤد فحاصر القلعة وضيق على من بها فأرسلوا يطلبون المدد من غزة فجاء اليهم قاسم بيك أمير البحرين ومعه طائفة كبيرة فلم يتمكن من الوصول الى القلعة حيث هاجمه عساكر الفرنسيس وحالوا بينهم وبينها ثم كبسوا عليهم ليلا فقتل قاسم بيك وقتل معه خلق كثير وفر من بقى وهم النزر اليسير واشتد بونابارته فى حصار القلعة وضيق عليها من كل جانب فاستأمن من بقى فيها فأمنهم وأنزلهم من القلعة وأدخل منهم بجيوشه من رام الدخول والانتظام فى سلكهم وصرف من لم يقبل الى مصر تخفرهم طائفة من الفرنسيس ثم ارتحل الى العريش واحتلها وكتب كتابا الى أهل الشام ونصه

فرمان عام موجه من أمير الجيوش الى أهل الشام قاطبة بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين*من طرف بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية الى حضرة المفتين والعلماء وكافة أهالى نواحى غزة والرملة ويافا حفظهم الله تعالى*بعد السلام نعرفكم اننا حررنا لكم هذه السطور نعلمكم اننا حضرنا فى هذا الطرف لقصد طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم والى أى سبب حضور عسكر الجزار وتعديه على بلاد يافا وغزة التى ما كانت من حكمه والى أى سبب أيضا أرسل عساكره الى قلعة العريش وبذلك هجم على أراضى مصر فلا شك كان مراده اجراء الحروب معنا ونحن حضرنا لمحاربته فأما أنتم ياأهالى الاطراف المشار اليها فلم نقصد لكم أذية ولا أدنى ضرر فأنتم استمروا فى محلكم ووطنكم مطمئنين ومرتاحين وأخبروا من كان خارجا عن محله ووطنه أن يرجع ويقيم فى محله ووطنه ومن قبلنا عليكم ثم عليكم الأمان الكافى والحماية التامة ولا احد يتعرض لكم فى مالكم ولا ما تملكه يدكم وقصدنا أن القضاة يلازمون خدمهم ووظائفهم على ما كانوا عليه وعلى الخصوص أن دين الاسلام لم يزل معززا ومعتبرا والجوامع عامرة بالصلاة وزيادة المؤمنين* ان كل خير يأتى من الله تعالى وهو يعطى النصر لمن يشاء ولا يخفاكم أن جميع ما تأمر به الناس ضدنا فبغدر باطل ولا نفع لهم به ولان كل ما نضع فيه يدنا لابد من تمامه بالخير والذى يتظاهر لنا بالحب يفلح والذى يتظاهر بالغدر يهلك ومن كل ما حصل تفهمون جيدا اننا نقمع أعداءنا ونعضد من يحبنا وعلى الخصوص لكوننا متصفين بالرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين

وسار بجيوشه الى غزة فوصل فى ليلة التاسع عشر من رمضان الى خان يونس فباتوا ليلتهم وعند الفجر ساروا الى غزة فشاهدوا قبل الظهر بقليل عساكر المماليك والجزار معسكرين أمامها فهاجموهم فلم تدافع عساكر المماليك الا بالامر الهين ثم ولوا جميعا الفرار فتبعهم الفرنسيس وقاتلوا مؤخرتهم قتالا يسيرا وبينما كانت العساكر الافرنسية تطارد جند

المماليك

المماليك انعطف الجنرال كليبر بجيوشه الى غزة فملكها واحتلها وأخذ مافيها من الذخائر والشعير والبقسماط وزهاء الاربعمائة قنطار بارود واثنى عشر مدفعا وعددا عظيما جدا من الخيام وغير ذلك من معدات الحرب وبعث الى القاهرة ببعض الرايات التى غنموها من قلعة العريش وغزة صحبة طائفة من الجند فدخلوا القاهرة فى كبكبة عظيمة وبأيدى بعضهم تلك الرايات ومروا من وسط المدينة الى الجامع الازهر فاصطفوا رجالا وركبانا بباب الجامع وضربوا طبولهم وأبواقهم ثم طلبوا شيخ الجامع فسلموه تلك الرايات وأمروه برفعها على منارات الجامع فنصبوا رايتين منها على المنارة الكبيرة وواحدة على منارة أخرى فلما رفعت تلك الرايات أطلقوا لها عدة مدافع من قلعة الجبل وكان ذلك ليلة عيد الفطر فلما كان عند الغروب أطلقوا عدة مدافع أيضا اعلاما بالعيد وطاف بعد العشاء أصحاب الشرطة ينادون بالأمان وخروج الناس على عادتهم لزيارة القبور بالقرافتين والاجتماع لصلاة العيد وأن يفعلوا جميع عوائدهم فى ذلك اليوم ۞ وسارت جيوش بونابارته من غزة فى الثالث والعشرين من رمضان فوصلوا الى الرملة فى الخامس والعشرين منه فانجلت عنها عساكر الجزار وولوا هاربين فدخلها فريق من الفرنسيس وملكوا مافيها من الذخائر وآلات الحرب ثم قصدوا يافا فوصلت طلائع الجيش اليها فى الثامن والعشرين من رمضان ثم حاصروها شرقا وغربا فتم حصارها وشددوا عليها وسير بونابارته جيشا آخر الى عكا ليناوشها القتال حتى يأتى اليها بجميع عساكره وخندق حول يافا وعمل المتاريس و وضعوا عليها المدافع العظيمة فخرج عساكر الجزار للقتال وهجموا على متاريس الفرنسيس هجمة شديدة للغاية فلاقاهم عسكر الفرنسيس وصدموهم صدمة قوية فكروا راجعين الى المدينة وامتنعوا فى قلعتها فعند ذلك أرسل بونابارته خطابا الى والى يافا يعلمه بان الغرض من حضوره الى يافا انما هو قهر عسكر الجزار واخراجهم وأنه ان جنح الى التسليم بالرضا كان ذلك فيه مصلحة للبلد وأهلها وحقن للدماء وان أبى الا الحرب فلا يمضى الا قليل من الساعات حتى ينسف أسوار المدينة نسفا ويعمل السيف فى رقاب أهلها حتى لايبقى بها أحد فلما علم الوالى بما فى الخطاب قبض على رسول بونابارته ووضعه فى السجن ولم يجب بونابارته بشئ فلما غاب الرسول وانقطع الامل من رجوعه أمر بونابارته فأطلقوا المدافع وتابعوا الرمى على المدينة بالقنابل وحمى الوطيس وارتفع الدخان الى عنان السماء واشتد الرمى فلم يمض قليل من الزمن حتى تعطلت مدافع حصون يافا وتواصل الرمى من متاريس الفرنسيس وما زالوا حتى تهدم بعض السور وحمل الفرنسيس حملة رجل واحد على السور فملكوا الابراج ودخلوا المدينة عنوة وأعملوا السيف فى أهلها واشتد الامر ونهب العسكر المدينة وأخذوا جميع ماصادفوه فكان يوم وليلة يشيب من هولهما الرضيع ثم أمر بونابارته بالكف عن القتل والنهب فكان الموتى لايكادون يدخلون تحت حصر * وكان بمدينة يافا عدد كبير من أهالى مصر ودمشق الشام وحلب وغيرها فرسم بونابارته برجوع كل فريق منهم الى وطنه سواء كان من المحاربين أوغير المحاربين

وجمع الغنائم فكانت شيأ كثيرا من الاموال والمتاع والسلاح والكراع وغير ذلك فأرسل بعضها الى مصر مع بعض رايات عسكر الجزار وعددها ثلاث عشرة راية فرفعت على منارات الجامع الازهر وأنزلوا ما كان عليها من رايات قلعة العريش وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل ثم سار بونابارته بعساكره الى حيفا ففتحها وغنم مافيها فكان شيأ كثيرا جدا وانتقل الى عكا فحاصرها فتمنعت عليه فشدد فى حصارها وضيق وهى لاتزداد الا منعة قد طال حصارها

وبينما كان بونابارته يقاتل أهل الشام ويفتح مدنها وبلدانها كان عساكره بمصر يقاتلون أيضا الهاربين من الامراء المصريين ويبددون شملهم بالصعيد والشرقية ودمنهور ويتبعون خطوات الالفى أينما سار فلما ضاق بالالفى رحب الصعيد نزل فى قلة من أصحابه من خلف الجبل ولحق بالشرقية وراسل قبائل العربان ومن بقى من المماليك فانضم اليه منهم جماعة كثيرة وتأهبوا لقتال الفرنسيس فسارت لقتالهم طائفة من العسكر وسارت أخرى أيضا الى دمنهور لقتال أهلها حيث خرجوا على العمال وجباة الاموال وشقوا عصا الطاعة وتبعوا رجلا مغربيا نزل على دمنهور وادعى المهدوية وصار يدعو الناس ويحرضهم على القتال والجهاد فاجتمع اليه كثير من أهل البحيرة وغيرهم وجاؤا الى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيس وطردوا العمال واستمروا على ذلك أياما كثيرة وجعل ذلك المغربى يكاتب البلاد ويحض أهلها على القتال فلما وصلت اليها العساكر الفرنساوية قاتلتها وأعملت فيها السيف وأفحشت فى القتل والنهب وأراقت فيها من الدماء شيأ كثيرا جدا ونهبت ماوجدته فكان شيأ لايكاد يدخل تحت حصر وقتل فى هذه الوقعة ذلك المغربى وكثير من أخصائه وكبار دعوته * وجاء الخبر بذلك الى بونابارته وهو على حصار عكا ففرح وبالغ فى الحصار واجهد النفس وتابع الرمى بالقنابل عليها فلم ينل منها مناله وامتنعت عليه فصمم على تركها والعود الى مصر وكتب الى قائده بمصر يقول*اعلم أيها الصديق انه ماحملنى على ترك حصار عكا والعود اليكم إلا خمسة عشر سببا الاول قيام عسكرنا امام أسوارها ستة أيام بدون حرب حتى وصل اليها بعض ضباط الانجليز فحصنوها تحصينا هندسيا قد زاد فى منعتها الثانى أخذ الانجليز لمراكبنا الكبيرة الستة بما فيها من المدافع عند يافا الثالث كثرة الموات فى عسكرنا بالطاعون واشتداده الرابع عدم حصول عسكرنا على الاقوات الكافية باسباب خراب البلاد المجاورة لعكا الخامس اضطراب ضباطنا من حوادث الصعيد وعصيان مراد بيك الكبير وموت طائفة كبيرة من الجنود الفرنساوية فى تلك الاصقاع السادس خروج الحجازيين مع الكيلانى الى الصعيد السابع خروج المغربى المدعو محمد ومن خرج معه من أهالى البلاد الثامن ضبط مراكب الانجليز لبوغاز الاسكندرية ودمياط التاسع وقوف عمارة الروس امام رودس العاشر ورود الخبر بنقض الصلح بين امتنا والامة النمساوية بتحريض الانجليز الحادى عشر موت تيبو أحد ملوك الهند أعداء الانجليز وقد كان بينى وبينه عهد قبل

نزولى بعكا الثانى عشر موت كفرللى الذى قد عملت المتاريس برأيه واشارته وعجزى عن تعيين آخر مكانه لايلبث ان يغير هيئة تلك المتاريس فيحوجنا الى عطلة لابد منها وكفرللى هذاهو المعروف بأبى خشبة وهو من فحول أركان حرب بونابارته * الثالث عشر نزول مصطفى باشا من القسطنطينية بمراكب الانكليز وسيره الى مياه الاسكندرية الرابع عشر وقوف مراكب الانكليز امام عكا الخامس عشر ما رأيناه من وجوب اطالة الحصار الى أربعة أشهر على الاقل مع ماوراء ذلك من الارتباك والاخطار التى ذكرناها فهذه ياصديقى هى الاسباب الحاملة لى على ترك الحصار والعود اليكم اه

وكان الانجليز قد هيجوا على بونابارته الخواطر وحزبوا عليه سائر أهالى الشام من المسلمين والنصارى وأرسل سفيرهم المقيم فى دار السلطنة منشورات الى لبنان يحض فيها مشايخ وأمراء تلك الاصقاع على الخروج على بونابارته وجيوشه ومد يد المساعدة للدولة العثمانية وأرسل الى كبار النصارى منهم صورة منشور كان أصدره بونابارته يقول فيه انه هدم أركان الديانة النصرانية وقوض بنيانها فكان لنشر هذا المنشور بينهم أثر مؤلم جدا فتحزبوا عليه ومنعوا من اعطائه الدقيق والخمر والمؤنة للعسكر ولا سيما البارود وكانت السفن الانكليزية تمخر فى البحار طولا وعرضا وتضرب كل ماتصادفه من مراكب الفرنسيس وتدمرها تدميرا ورست امام أسوار عكا بحرا وجعلت تتابع رمى القنابل على معسكر بونابارته ليلا ونهارا حتى عرقلت مساعيه وأضعفت أمانيه وبلغت منه الروح التراقى فارتحل عن عكا فى الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة أربع عشرة ومائتين وألف يريد مصر بجميع جيوشه وأركب الجرحى والمرضى منهم على دواب الحمل وخيول الفرسان وسار الجيش يطوى تلك الصحارى طيا لعله يدرك القاهرة فقاسوا الشدائد والاهوال وأعمل فيهم الظمأ وتفشى فيهم الوباء وكانت مراكب الانجليز تتعقبهم فى البحر وترمى عليهم القنابل كلما اقتربوا فى طريقهم من ساحل البحر والعربان تتبعهم من خلف تشن الغارة على مؤخرتهم كل قليل وكذلك كانت الجيوش العثمانية تزحف خلفهم مرحلة بعد مرحلة فكانوا لذلك يخربون كل بلد أو مدينة يمرون بها كى لاتتمكن خصومهم من الاستيلاء عليها فلما جاؤا العريش أمر بونابارته فبالغوا فى تحصينها ومنعتها ولبثوا بها أياما ولا ماء عندهم وكان القيظ شديدا جدا فكانوا يأتون بالماء من بعض المستنقعات الآجنة فيشربونه وهو مشحون بالديدان والعلق فكان العلق يلصق بأفواههم ويمتص دماءهم ثم رحلوا عن العريش فوصلت مقدماتهم ضواحى القاهرة فى يوم الثلاثاء سابع المحرم سنة أربع عشرة ومائتين وألف هجرية وأخبروا بوصول بونابارته الى الصالحية فلما كانت ليلة الجمعة عاشره أرسلوا الى المشايخ والاعيان للخروج لملاقاته فاجتمعوا بالازبكية عند الفجر بالمشاعل ودقت الطبول فركبوا وركب جميع أرباب الوظائف العالية والمدبرون ونائب بونابارته مع كبار العسكر وساروا الى العادلية وقابلوا بونابارته وسار معهم فى خواصه ودخلوا الى القاهرة من باب النصر فى موكب حافل

للغاية وامامهم الطبول وخلفهم المركبات والاحمال وساروا على هذا الحال الى أن دخل بونابارته داره بالازبكية وأطلقوا عدة مدافع ﴿ فلم تكد تستقر ببونابارته وجيوشه الراحة من غزوة الشام وقيظ تلك الصحارى حتى جاء الخبر بانحدار مراد بيك وأصحابه فرارا من الفرنسيس ونزوله بدهشور أياما ثم ارتحاله منها الى نجع الطرانة ثم الى البحيرة من خلف الجبل فأغضبه هذا الخبر وعبر النيل من فوره فى عسكره ونزل على نجع الطرانة ودهشور وضربهما وأهلك منهما خلقا كثيرا جدا فعلم بعد ذلك ان مراد بيك عاد ثانيا الى الاقاليم القبلية وان عثمان بيك الشرقاوى وسليمان أغا الوالى وآخرين مروا من خلف الجبل الى ناحية الشرق فسير بونابارته لقتالهم برتلمان الرومى فى عسكر عظيم من أخلاط الروم والمماليك والقبط والفرنجة فأدركوهم على مقربة من مدينة بلبيس وأتوهم من خلف الطريق المسلوك فأخذوهم غيلة وكان فى هذا الحين عثمان بيك يغتسل فلما أحسوا به بادروا جميعا الى الفرار وركبوا وركب عثمان بيك بقميص واحد وطاقية على رأسه وهربوا وتركوا ثيابهم ومتاعهم وذخرتهم وجميع ما كان معهم حتى قدور الطعام على النار ووجدوا على فراش عثمان بيك مكاتيب من ابراهيم بيك الكبير يستدعيهم الى الحضور اليه بالشام * وشاع الخبر عقب ذلك بأيام بحضور مراكب كثيرة امام مدينة الاسكندرية وأبى قير وان بها كثيرا من الجنود العثمانية فكثر لغط الناس وتحدثهم بهذا الامر وتحقق الخبر بخروج طوائف الفرنسيس وعبورهم النيل الى الجيزة واهتمامهم باعداد مهمات الحرب وآلات القتال ثم خروج بونابارته أيضا ومعه المعلم ابراهيم الجوهرى واهتم حنا بنتو متولى ساحل بولاق بجمع المراكب وشحنها بالمعدات والذخيرة وغيرها وأقام بونابارته فى مخيمه بجانب الاهرام حتى تكامل الجيش وسير المقدمة وركب هو فى ثانى يوم وهو الثلاثاء ثانى عشرى صفر سنة أربع عشرة ومائتين قاصدا الاسكندرية فلم يكد يصل بجميع جيوشه الى البحيرة حتى جاءته الاخبار بنزول فريق عظيم من العساكر العثمانية على أرض أبى قير فجد فى السير يريد الوصول على عجل * قال صاحب عجائب الآثار وكتب بونابارته الى أرباب الديوان بمصر خطابا يقول فيه * لااله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى محفل الديوان بمصر المنتخب من أحسن الناس وأكملهم بالعقل والتدبير عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الاشواق الزائدة اليكم نخبركم يا أهل الديوان المكرمين العظام بهذا المكتوب اننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطرانة وبعد ذلك سرنا الى اقليم البحيرة لاجل ماترد راحة الرعايا المساكين ونقتص من أعدائنا المحاربين وقد وصلنا بالسلامة الى الرحمانية وعفونا عفوا عموميا عن كامل أهل البحيرة حتى صار أهل الاقليم فى راحة تامة ونعمة عامة وفى هذا التاريخ نخبركم أنه وصل ثمانون مركبا صغارا وكبارا حتى ظهروا بثغر الاسكندرية وقصدوا أن يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة البنب والمكاحل النازلة عليهم فرحلوا عنها وتوجهوا يرسون بناحية أبى قير وابتدؤا ينزلون فى البر وانا الآن تاركهم وقصدى

أن يتكامل الجميع فى البر وأنزل عليهم اقتل من لايطيع وأخلى بالحياة الطائعين وآتيكم بهم محبوسين تحت السيف لاجل ان يكون فى ذلك شأن عظيم فى مدينة مصر والسبب فى مجىء هذه العمارة الى هذا القطر العشم بالاجتماع على المماليك والعربان لاجل نهب البلاد وخراب القطر المصرى وفى هذه العمارة خلق كثير من الموسكو الافرنج الذين كراهتهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله وعداوتهم واضحة لمن كان يعبدالله ويؤمن برسول الله يكرهون الاسلام ولا يحترمون القرآن وهم نظرا لكرههم فى معتقدكم يجعلون الآلهة ثلاثة وان الله ثالث تلك الثلاثة تعالى الله عن الشركاء ولكن عن قريب يظهر لهم ان الثلاثة لاتعطى القوة وان كثرة الآلهة لاتنفع بل انه باطل لان الله تعالى هو الواحد الذى يعطى النصرة لمن يوحده هو الرحمن الرحيم الساعد المعين المقوى للعادلين الموحدين الماحق رأى المفسدين المشركين وقد سبق فى علمه القديم وقضائه العظيم انه أعطانى هذا الاقليم وقدّر وحكم بحضورى عندكم لاجل تغيير الامور الفاسدة وأنواع الظلم وتبديل ذلك بالعدل والراحة مع صلاح الحكم وبرهان قدرته العظيمة ووحدانيته المستقيمة انه لم يقدر الذين يعتقدون ان الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا فلم يقدروا أن يعملوا الذى عملناه ونحن المعتقدون وحدانية الاله ونعرف انه العزيز القادر القوى القاهر المدبر للكائنات والمحيط علما بالارضين والسموات القائم بأمر المخلوقات هذا مافى الآيات والكتب المنزلات ونخبركم بأن المسلمين ان كانوا بصحبتهم يكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم وصية النبى عليه أفضل الصلاة والسلام بسبب اتفاقهم مع الكافرين الفجرة اللئام لان أعداء الاسلام لاينصرون الاسلام وياويل من كانت نصرته باعداء الله وحاشا الله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيدا أو يكون مسلما ساقتهم المقادير للهلاك والتدبير مع الثقالة والرذالة وكيف لمسلم أن ينزل فى مركب تحت بيرق الصليب ويسمع فى حق الواحد الاحد والفرد الصمد من الكفار كل يوم تحريفا واحتقارا لاشك ان هذا المسلم فى هذا الحال أقبح من الكافر الاصلى فى الضلال نريد منكم يأهل الديوان ان تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين والامصار لاجل ان يمتنع أهل الفساد من الفتنة بين الرعية فى سائر الاقاليم والبلاد لان البلد الذى يحصل فيه الشر يحصل لهم مزيد الضرر والقصاص انصحوهم يحفظوا أنفسهم من الهلاك خوفا عليهم ان نفعل فيهم مثل مافعلنا بأهل دمنهور وغيرها من بلاد الشرور بسبب سلوكهم المسالك القبيحة فاصناهم والسلام تحريرا فى الرحمانية يوم الاحد خامس عشر صفر سنة أربع عشرة ومائتين وألف هجرية انتهى بنصه ۞قلت وفى هذا الخطاب ان كان صحيحا من النقد على بونابارته والتعييب ورميه بالغش والخديعة مايزرى ويحط بعظمته ويذهب بشهرته

وسار بونابارته بجيوشه حتى نزل على أبى قير واقتتل مع الجيوش العثمانية التى كانت بالقلاع قتالا عنيفا وما زال حتى قهرها واسترد منها ما أخذته من القلاع والحصون وأخذ مصطفى باشا أمير الجيوش العثمانية أسيرا وكذلك عثمان خجا الذى كان عاملا على رشيد على عهد

ابراهيم بك الكبير وقتل من العساكر العثمانية خلقا كثيرا وغنم الفرنسيس من آلات الحرب والذخيرة والمؤن وغير ذلك مالا يكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل بونابارته راجعا بجيوشه ورايات النصر تخفق على رؤسهم فدخل القاهرة ليلة الاحد التاسع من ربيع الأول من السنة ومعه عدة كثيرة من أسرى المسلمين وشاع الخبر بحضوره فى تلك الليلة فلم تصدق الناس ذلك وذهب جماعة ليتحققوا الخبر على جليته فشاهدوا الاسرى وقوفا فى وسط بركة الازبكية وبقوا كذلك الى ظهر اليوم ثم أرسلوا بعضهم الى جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية وأصعدوا باقيهم الى قلعة الجبل وبعثوا بمصطفى باشا الى الجيزة وسيروا عثمان تخا الى اسكندرية فكان لهذا الحادث أثر مؤلم فى خواطر المصريين فقد كانوا يتمنون الخلاص على يدى أولئك المقاتلين فخابت منهم الآمال * ولما استقر بونابارته المقام أمر بعثمان تخا فنقل من الاسكندرية الى رشيد وادخلوه اليها فى طائفة من العسكر مكشوف الرأس حافى الاقدام وطافوا به حول البلد وهو على هذا الحال ثم ساروا به الى بيته الذى كان يسكنه قبل فراره الى القسطنطينية وأوقفوه امام بابه واحتزوا رأسه وعلقوها على إحدى نوافذ الدور الأعلى ليراها الناس كافة * وعاتب بونابارته أرباب الديوان بمصر على عدم ولائهم وإخلاصهم للفرنسيس وخص بشديد العتاب الشيخ المهدى والشيخ الصاوى فلا طفاه وسايراه حتى أزالا عنه ما كانا يخشيانه ولبث بونابارته يدبر الامور على مايشاء الى ان كان يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاول من السنة ركب من القاهرة وخرج خروج المسافر فى قلة من خواصه وسار الى الاسكندرية فلما نزل بها استقدم الجنرال منو وولاه قيادة الاسكندرية وولى الجنرال كلابير نيابة الغيبة بمصر وكتب له بذلك مرسوما ثم أعلم الاميرال جانتوم بعزمه فأعد له دارعتين عند العجمى فلما رتب أموره على ماأراد ركب ليلا فى قلة من خواصه ونزل باحدى الدارعتين وبات ليلته تلك وأقلع صباحا وقد تركوا خيولهم على البر ولم يعلم أحد بخبر قيامه الى عاصمة الفرنسيس حتى جاء كتابه الى الجنرال دوجيه بمصر فتلاه على أرباب المجلس فكان مضمونه قيام بونابارته من الاسكندرية الى باريز ليمهد لعمارته البحرية المسالك والعقبات التى أحدثتها سفن الانجليز فى سبيلها وانه لايتغيب عن مصر أكثر من ثلاثة أشهر وأنه أقام على مصر الجنرال كلابير نائب الغيبة فلما قرئ هذا الخطاب أخذ العجب من أرباب المجلس مأخذه وكادوا لايصدقونه لملازمة مراكب الانجليز مياه الاسكندرية صيفا وشتاء ومنعها جميع المواصلات بالاسكندرية فكرروا على الامير دوجيه السؤال فأكد لهم سفر بونابارته فى يوم الجمعة حادى عشرى ربيع الاول من السنة وحضر الامير كلابير من معسكره بدمياط الى القاهرة ونزل فى مكان بونابارته ببيت الالفى بالازبكية فذهب المشايخ والاعيان وأرباب الديوان لزيارته فلم يروا منه صدرا رحبا ولا وجها باشا كما كانوا يرون من بونابارته وركب فى ثانى يوم فى موكب حافل للغاية وصعد الى قلعة الجبل وامامه طائفة كبيرة من القواصة بالعصى يأمرون الناس بالقيام اجلالا له وخلفه عدة كثيرة من الفرسان

والمشاة وطوائف الاجناد والوالى والاغا وغيرهما ولبث بالقلعة ساعة ثم رجع الى مقعده وكان رجلا حازما واسع التأمل كبيرالفكر عظيم الخبرة بفنون السياسة والحرب فلما استقربه المنصب كتب الى أرباب الحل والعقد بباريز عاصمة الفرنسيس يقول ماترجمته

قد رحل بونابارته عن مصر الى باريز ولم يعلم بخبره أحد ولم أكن لأعلم بذلك الا بعد ان أتانى خطابه وقد علمت أنه أرسل بكتاب أيضا الى صدر الدولة العثمانية بعد علمه بوصول الصدر المشار اليه الى دمشق الشام ولا يخفا كم أنه لم يكن لنا عدو سوى المماليك فقط أما الآن فقد أصبح أعداؤنا غير المماليك وهم كل من دولة الانجليز والدولة العثمانية ودولة الروس وقدصارت جنودنا فى نصف العدد الذى احتلت به ديار مصر وهم مع ذلك متفرقون فى جوف البلاد من العريش والاسكندرية الى جزيرة اسوان وليس لديهم من معدات الحرب مايكفيهم لتعطيل معامل الاسلحة والبارود وكذلك ليس عندهم من الثياب مايقيهم من أمراض البلاد ولا مال عندنا بقدر الكفاية اذ نحسرت الخزينة زهاء اثنى عشر ألف ألف من الفرنكات هذا وان كنا قد ضربنا المماليك فرقنا جمعهم ولكن مابرح مراد بيك الكبير يقاتلنا فى الاقاليم القبلية فى عدة وافرة من الرجال وأخلاط الناس ولا سبيل الى التغلب عليه الا بعد أيام كثيرة وقد جاء صدر الدولة العثمانية من القسطنطينية الى دمشق الشام من أجل الزحف علينا وقتالنا فلا نعلم ماسيكون من وراء ذلك أما حصوننا وقلاعنا فلا تزيد فى قوتنا شيأ ومنها حصن العريش فانه لايدفع مهاجما وما الاسكندرية الا شبه معسكر تحيطه زربية فلذلك أرى ان أنجح الوسائل وأفلحها أن تفتح المخابرة مع الدولة العثمانية عسى نتفق على مايكون فيه المصلحة فقد علمت اليوم أن عمارة عثمانية عظيمة رست أمام حصون دمياط اه

وجاء الخبر بانحدار مراد بيك الكبير الى الفيوم وعبثه بالبلاد وتكليف أهاليها بالمغارم والكلف فأرسل لقتاله عسكرا فساروا والتقوا معه ووقعت بينهم وقائع عدة ثم ترددت بين مراد بيك وبين الامير كلابير الرسل والمراسلات وتكلموا فى أمر الصلح فاتفقوا على شروط منها تقليد مراد بيك امارة الصعيد من قبل دولة الفرنسيس فوقعت بينهما هدنة على ذلك وكادت تتم لمراد بيك الامارة وتفرغ الامير كلابير الى غير ذلك فحصن الصالحية والقرين وبلبيس وأكثر فيهامن الاسلحة والذخيرة ورتب الاربطة وهيأ الحصون وحصن الابراج وبالغ فى ترتيبها فكانت الاخبار تزداد ورودا بتجمع العساكر السلطانية فى الديار الشامية وقرب حلولها بمصر لاخراج الفرنسيس منها واجلائهم عنها وكان لما سافر بونابارته الى باريز وترك الأمر فى مصر الى الامير كلابير طمعت الدولة العثمانية فى استخلاص البلد من أيدى الفرنسيس وزادها رغبة فى ذلك السير سدنى سمث أمير السفن الانجليزية فرسم السلطان الى يوسف باشا الصدر الاعظم يومئذ بالذهاب الى الشام ليجمع منها الجند والعسكر ويسير بهم برا الى مصر وسير جيشا آخر على ظهر العمارة الانجليزية ومعه كثير من ضباط الانجليز

وكبار الحرب فسارت العمارة بمن فيها حتى أتت دمياط ونزل من كان بها من العسكر
فى قلعة متخربة شرقى البوغاز فخرج الفرنسيس لقتالهم فحاصروهم وضربوهم حتى أجلوهم
عنها وقد مات منهم خلق كثير ولم ينالوا من الفرنسيس أما يوسف باشا فانه لما نزل بالشام
ومن معه من كبار السلطنة قيل انهم عسفوا فى البلاد وضربوا على أهلها الضرائب
الفادحة وجبوا الاموال كرها وعاثوا فى الارض مفسدين فكانت شدة عظيمة على أهل
الشام وما زالوا على هذا الحال حتى رحلوا عنها وجاؤا الى غزة فى منتصف رجب من السنة
ثم العريش وحاصروا من بها من الفرنسيس وقاتلوهم حتى ملكوا قلعتها فى التاسع عشر من
رجب المذكور وغنموا جميع ما كان بها من الذخيرة وآلات الحرب ودخل قائد الجيوش
السلطانية وجماعة كبيرة من عسكره وبعض الامراء المصريين الى القلعة بعد انسحاب
الفرنسيس منها ورفعوا عليها أعلامهم وضربوا طبولهم وأبواقهم فرحا بأخذها من أيدى
الفرنسيس وكان الفرنسيس قد تركوا فيها جنديا عند مخازن البارود مختفيا فلما صاروا جميعا
داخل القلعة ألهب البارود وكان شيأ كثيرا للغاية فزلزلت الارض فى الحال زلزالها وتطايرت
أبنية القلعة بمن فيها كافة فرقتهم عن آخرهم وتطايرت أشلاؤهم الى عنان السماء ومات
كثير من العساكر الذين كانوا خارجا عنها بما سقط عليهم من النيران والاحجار المتطايرة
ولم يبق الا نفر قليل فكان حادثا مريعا جدا ومنظرا تقشعر منه الابدان وقد تغطى وجه
الارض بالاشلاء والعظام والمشامش المتفتتة وجاءت الاخبار الى الامير كلابير فخرج بعسكره
من القاهرة وسار مسرعا الى الصالحية وضم اليه من بقى من عسكر قلعة العريش وكان قبل
دخول العساكر السلطانية الى قلعة العريش قد ترددت الرسل بين الفرنسيس والعثمانيين
على يد أمير الدوارع الانجليزية بشأن تقرير الصلح على قاعدة صالحة للفريقين وجاءت مكاتبة
من يوسف باشا الى مقدم الفرنسيس باستدعاء رجلين ليتشاور معهما على أمر يكون فيه
المصلحة للفريقين فوجهوا اليه رئيس الكتاب بوسليك والامير ديزه أمير جيوش الصعيد
فسارا بحرا وغابا أياما افتتح فى خلالها العثمانيون قلعة غزة والعريش وجاؤا الى الصالحية فى
الثانى والعشرين من شعبان من السنة ومعهم رئيس كتاب الدولة والدفتردار ثم حضروا جميعا
الى القاهرة لتقرير الصلح وقد جنح الفريقان اليه حقنا للدماء وأظهر الفرنسيس من المسارة
ما أؤمن معه جانبهم وزال عن رجال الدولة الخوف من مكرهم فحصل الاتفاق على مصالحة
تضمنت اثنين وعشرين شرطا وهى معربة

قد صار الاتفاق مابين كل من الجنرال ديزه والجنرال بوسليك مدير الحدود العام النائبين
عن الجنرال كلابير قائد عموم جيوش الفرنسيس بمصر من جهة وما بين سامى المقام مصطفى
رشيد أفندى الدفتردار ومصطفى راسيه افندى رئيس الكتاب المفوضين بكمال التفويض من
قبل حضرة الوزير يوسف باشا من جهة أخرى على ماهو آت

حقنا للدماء واستبقاء للنوع الانسانى من غوائل الحروب وتوالى الخطوب قد رغب

ديوان الجمهورية الفرنساوية فى عقد هذا العهد باخلاء الديار المصرية من جميع الجيوش الفرنساوية رجاء أن تذهب الوحشة الموجودة الآن مابين المشيخة الفرنساوية والدولة العثمانية وتتوطد به أيضا دعائم السلام فى انحاء المغرب ولذلك قد صار التوقيع ممن ذكروا على الشروط الآتية عهدا وميثاقا كافلين باخلاء الديار المذكورة من جميع جيوش المشيخة المشار اليها

الشرط الاول ۞ تنسحب العساكر والاجناد الفرنساوية بجميع أسلحتها ومهماتها وآلات حربها وذخيرتها الى ثغور الاسكندرية ورشيد وأبى قير ليسيروا منها على ظهور السفن التى ترد من جانب المشيخة وان لم توجد فمن طرف الدولة العثمانية بقدر الكفاية وقد تعين لذلك مدة شهر واحد وبعد مضى هذه الوعدة التى تبتدئ من تاريخ التوقيع على هذه الشروط يحتل بقلعة الاسكندرية نائب من قبل الباب العالى ومعه خمسون شخصا

الثانى ۞ تحصل المهادنة مدة ثلاثة أشهر لايحصل فيها حرب بكامل الديار المصرية اعتبارا من تاريخ التوقيع على هذا العقد واذا انقضت هذه المدة قبل أن ترد السفن من طرف الدولة العثمانية اللازمة لنقل جميع العساكر جاز تمديدها لاجل تتمكن معه الدولة المشار اليها من اعداد السفن اللازمة لذلك ووجب محافظة كل من الفريقين على مابيده من المواقع والحصون والقلاع منعا لما عساه ان يحدث من الفتن بأسباب دخول العساكر العثمانية أو من خروج الأهالى عن الطاعة

الثالث ۞ انسحاب الجيوش الفرنساوية وتسييرها يكون بأوامر وتعليمات كل من يعينه لذلك الباب العالى والامير كلابير أمير الجيوش المشار اليها واذا وقع خلاف بين الوكيلين المذكورين يكون فض هذا الخلاف والحكم فيه موكولا لعهدة السير سدنى سمث أمير الدوارع الانجليزية ويجب ان يتبع فى فضه الأصول المقررة فى القوانين البحرية المرعية بالدولة الانجليزية

الرابع ۞ اخلاء كل من قطية والصالحية من جميع الجيوش الفرنساوية يكون فى بحر ثمانية أيام بالاقل وعشرة أيام بالاكثر من تاريخ التوقيع على هذا العهد أما المنصورة فمن بعد خمسة عشر يوما وأما دمياط وبلبيس فمن بعد عشرين يوما والسويس تخلى كذلك قبل اخلاء مصر والقاهرة بستة أيام ولا تخلى البلدان والمحال الواقعة فى الجهة الشرقية من النيل الا فى اليوم العاشر من اخلاء مصر والقاهرة وكذلك مصر السفلى لاتخلى بأجمعها الا بعد خمسة عشر يوما من التاريخ المذكور أما الجهة الغربية ومايتبعها فانها تبقى بيد الفرنسيس الى أن يتم جلاء جميع العساكر من الصعيد ومصر والقاهرة ويجب ان تسلم كل جهة من جميع الجهات التى كانت مقاما للجيوش الفرنساوية بالحالة التى هى عليها

الخامس ۞ يصير اخلاء مصر والقاهرة بعدمضى أربعين يوما على الاقل وخمسة وأربعين على الاكثر اعتبارا من تاريخ التوقيع على هذا العهد ان أمكن ذلك

السادس ﴿ يتعهد الباب العالى ان لايحصل للعساكر والاجناد الفرنساوية لدى انسحابهم من الجهات الغربية أدنى اهانة ولا أن يمسوا باقل ضرر بحيث يخرجون بكامل أسلحتهم وأمتعتهم وذخيرتهم بدون ان يلحق بأحد منهم اهانة لامن افراد الاهالى ولا من افراد العساكر العثمانية

السابع ﴿ قياما بهذا الشرط ومنعا لما ربما ان يحدث يجب حتما تبعيد مواقع العساكر الاسلامية عن مواقع العساكر الفرنساوية بقدر الاستطاعة

الثامن ﴿ اعتبارا من تاريخ التوقيع على هذا العهد يطلق سراح جميع المسجونين من تبعة الدولة العثمانية على اختلاف أجناسهم فى جميع انحاء القطر ما عدا من هم ببلاد الفرنسيس وكذلك يخلى سبيل جميع التبعة الفرنساوية المسجونين بكامل المدن والاساكل والبنادر العثمانية ويعفى عن جميع من دخل فى خدمة مراسلات وقناصل المشيخة الفرنساوية

التاسع ﴿ اعادة املاك وأموال كل من رعايا الباب العالى ورعايا المشيخة الفرنساوية يناط برجال تنتخبهم حكومة الدولتين لذلك بالاستانة بحيث يحصل الشروع فى اجراء ذلك عقب اخلاء مصر والقاهرة من العساكر الفرنساوية

العاشر ﴿ يعفى عمن كان له علاقة أيا كانت مع الجنود الفرنساوية من أهالى مصر على اختلاف مذاهبهم

الحادى عشر ﴿ يعطى حتما للجنود الفرنساوية تذاكر المرور اللازمة إما من قبل الدولة العثمانية أومن قبل الدولتين المتحدتين معها وهما دولة الروس والدولة الانجليزية وكذلك لجميع السفن التى تحمل أولئك الجنود الى أوطانهم ببلاد الفرنسيس

الثانى عشر ﴿ يتعهد الباب العالى والدولتان المتحدتان معه بأن لايحصل للجنود الفرنساوية مايكدر صفو راحتهم وكذلك يتعهد الجنرال كلابير أمير الجيوش الفرنساوية بأن لايحصل من قبل عساكره مالا يرضاه الباب العالى لا للسفن الحاملة لهم ولا للاساكل والثغور الخاصة بالباب العالى أو بالدولتين المتعاهدتين معه كما انه لايجوز للسفن المذكورة ان تعطف الى أى أسكلة غير الاساكل الفرنساوية الاعند الضرورة

الثالث عشر ﴿ تنفيذا لهذا العهد وملاحظة لاخلاء الاقطار المصرية من جميع العساكر والاجناد الفرنساوية فى بحر المدة التى وقع الاتفاق عليها قد اتفق الباب العالى والدولتان المتحدتان معه على انه اذا قدم الى مصر فى خلال المدة المقررة للجلاء عنها سفن فرنساوية على غير علم من سفن الدولتين المتعاهدتين مع الباب العالى وجب قيامها على الفور بعد تزويدها بالماء والزاد ولزم رجوعها الى الموانى الفرنساوية بلا مهل بناء على تذاكر المرور التى تعطى اليها من جانب الدولتين المتعاهدتين مع الباب العالى واذا تبين ان احدى تلك السفن تحتاج الى ترميم أو تصليح فى بعض آلاتها وجب مكثها حتى يتم تصليحها ثم تقوم الى الموانى الفرنساوية بمجرد موافقة الرياح لسيرها

الرابع عشر ۞ يتعهد الجنرال كلابير أمير الجيوش الفرنساوية أن يبلغ ما وقع الاتفاق عليه الى أرباب الحل والعقد بفرانسا بحيث تعطى لمن يتعين لتوصيل هذه الاجناد تذكرة المرور المطلقة تسهيلا لوصول الخبر فى أمد قريب

الخامس عشر ۞ حيث يلزم للجنود الفرنساوية الحصول على المؤن يوميا بعدة الثلاثة أشهر المعينة لجلائها عن البلاد وكذلك بعدة الثلاثة أشهر التى تبتدئ من يوم نزولهم بالمراكب الى يوم وصولهم فقد تعهد الباب العالى بأن يقدم لهم جميع ما يلزم من قمح ولحم وأرز وشعير وتبن بمقتضى القوائم التى تتقدم من أمراء العساكر المكلفين بذلك وما يكون قد أخذ من ذلك بعد التوقيع على عهد الجلاء يستبعد من مجموع تلك القوائم

السادس عشر ۞ لا يجوز لامراء الجيوش الفرنساوية بعد التوقيع على عهدة الجلاء أن يضربوا على البلاد ضرائب أو يفرضوا عليها فروضا أيما كانت أو يحدثوا احداثات بل يكون للباب العالى دون غيره الحق فى جميع الضرائب والفرض المقررة اعتبارا من تاريخ التوقيع على العهد وكل ما تركته الجنود الفرنساوية بعد الجلاء من جمال أو هجن أو مدافع أو ذخيرة أو غير ذلك وكذلك الغلال التى تبقى بالاشوان من أصل الأموال المفروضة لغاية تاريخ التوقيع على عهد الجلاء فهذه كلها يصير تقديرها بمعرفة معينين من قبل الباب العالى على يد أمين البحر الانجليزى ومن يعينه الجنرال كلابير من قبله ويتعين ثمنها بحيث لا ينقص عن ثلاثة آلاف كيس وهو ماروى كفايته لنفقة الجند الى أن تصل الى أوطانها وفى حالة عدم بلوغ أثمان تلك الاشياء الى هذا القدر يجب على الباب العالى دفع العجز من طرفه بصفة قرضة وعلى حكومة الفرنسيس وفاء هذه القرضة اعتمادا على سندات الاستلام التى تكون قد اعطيت من الامير كلابير أمير الجيوش الى الباب العالى

السابع عشر ۞ يدفع مبلغ الثلاثة آلاف كيس المذكور على الوجه الآتى بعد وهو خمسمائة كيس تدفع بعد مضى خمسة عشر يوما اعتبارا من تاريخ التوقيع على عقد الاتفاق بذلك وخمسمائة كيس أخرى تدفع بعد انقضاء ثلاثين يوما وبتمام الاربعين يوما ثلثمائة كيس أخرى وخمسمائة كيس عند تمام تسعين يوما وعند تمام ستين يوما ثلثمائة كيس ويدفع أيضا عند تمام سبعين يوما ثلثمائة كيس وعند تمام ثمانين يوما ثلثمائة كيس أخرى وخمسمائة كيس عند تمام تسعين يوما ويكون اعتبار مبلغ كل كيس من هذه الاكياس خمسمائة قرش عثمانى وعلى الباب العالى بعد التوقيع على نسختى هذا العقد أن يوجه من قبله الى مصر المحروسة وكافة المدن والبنادر التى تحتلها الآن الجيوش الفرنساية مأمورين مخصوصين لاجل تسهيل أسباب الجلاء فى أمد مناسب بحيث اذا رؤى عدم كفاية مبلغ الثلاثة آلاف كيس لنقل الجند على الوجه المرغوب وجب على الباب العالى القيام بصرف ما يرى لزوم صرفه أيضا

الثامن عشر ۞ جميع الاموال والضرائب التى تكون رجال الفرنسيس قد تحصلت عليها من

البلاد قبل العلم بالتوقيع على عهد الجلاء تقدر وتخصم من مبلغ الثلاثة آلاف كيس المتقدمة الذكر

التاسع عشر ۞ تسهيلا لاسباب الجلاء فى الاجل المضروب لابأس من نقل الجند بالسفن الفرنساوية الراسية الآن بأساكل النيل من والى الاسكندرية ورشيد ودمياط

العشرون ۞ حفظا لسلامة الممالك الغربية ومنعا لنقل الوباء بالطاعون اليها بواسطة المرضى من الجنود الفرنساوية لاينقل أحد ممن يكون مصابا منهم بهذا المرض أو بغيره من الامراض الاخرى التى لايصح معها السفر بالبحار بل يبقون جميعا فى بيوت المرضى المعدة لهم تحت أمان الوزير الاعظم ومعالجة اطباء الفرنسيس فاذا شفوا من أمراضهم عوملوا فى الحل والترحال بما عوملت به بقية الجنود من قبل كما جاء فى أحكام الشرطين الحادى عشر والثانى عشر من هذا الاتفاق وعلى أمير الجيوش الفرنساوية أنه عند ركوبهم المراكب للعود الى أوطانهم أن يشدد على ضباطهم غاية التشديد بأن لايسمحوا لهم بالنزول فى أى أسكلة من الاساكل التى هى فى طريقهم الا ماتجيز لهم الاطباء النزول فيها لقضاء مدة الحجر الصحى

الحادى والعشرون ۞ كل خلاف يحدث بعد عقد هذا الاتفاق ولم ينص عنه شئ بهذا الاتفاق يصير فضه بالطرق الحبية بين المأمورين الذين يعينهم الوزير الاعظم والجنرال كلابير أمير الجيوش لهذا الغرض على وجه السرعة قياما بالجلاء فى الاجل المضروب

الثانى والعشرون ۞ لايعتبر هذا العهد نافذ المفعول الا بعد مضى ثمانية أيام من تاريخ التوقيع عليه من الفريقين بحيث بعد التوقيع عليه يجب مراعاته والعمل به

ورجع كلابير أمير الجيوش الفرنساوية بعد ذلك من الصالحية الى العادلية ومعه رجل من رجال الدولة العثمانية اسمه محمد اغا فبعث بمحمد اغا المذكور الى القاهرة وأرسل الى المحتسب يأمره بأن يتلقاه ويكرم مثواه فلما كان بعد العشاء دخل محمد أغا الى القاهرة فى موكب فحصل فى الناس ضجة عظيمة وتزاحموا لمشاهدته وارتفعت أصواتهم وعلا ضجيجهم وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقائف* قال صاحب عجائب الآثار وانطلقت النساء بالزغاريت من الطاقات واختلفت آراء الناس فى ذلك ولم يعلموا ماهو فدخل من باب النصر وشق القاهرة ولم يزل سائرا حتى وصل الى بيت حسن أغا بسويقة اللالا فأنزل هنالك فلما استقر به الجلوس ازدحم الناس والاعيان للسلام عليه ولمشاهدته بالمشاعل والفوانيس قال فلما كان صبح تلك الليلة عمل ديوانا وجمع العلماء والوجاقلية وأعيان الناس وكبار النصارى من الاقباط والشوام فلما تكاملوا أبرز لهم فرمانا من الوزير فقرئ عليهم بالمجلس فدل مضمونه على انه أغات الجمارك أى المكوس بمصر وبولاق ومصر القديمة وفيه التحكير على جميع الواردات من أصناف الاقوات فيشتريها بالثمن الذى يقدره هو بمعرفة المحتسب ويودعه فى المخازن قال وأبرز فرمانا آخر قرئ بالمجلس مضمونه أن الوزير أقام مصطفى باشا الذى كان أسيرا بأبى قير وكيلا عنه

وقائمقامه بمصر الى حين حضوره وأن السيد أحمد المحروقى كبير التجار ملزوم ومقيد بتحصيل الثلاثة آلاف كيس المعينة لترحيل الفرنساوية وانفض المجلس على ذلك وأخذ السيد أحمد المحروقى فى تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الاسواق والحرف وشرعوا فى تحكير الاقوات فغلت أسعارها وضاقت مؤن الناس قال ودهى الناس من أول أحكامهم بهاتين الداهيتين وكان أول قادم فيهم أمير المكوسات ومحكر الاقوات وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم قال واجتهد السيد أحمد المحروقى فى توزيع ذلك وجمعه فى أيام قليلة فكان كل من توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد فى تحصيله واخراجه عن طيب نفس وانشراح وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية ويقول سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة قال كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس ومسمعهم وهم يحقدون ذلك عليهم اه

وجاء مصطفى أغا من الجيزة وسكن ببيت عبد الرحمن كتخدا بحارة عابدين وأرسل الوزير الفرمانات الى البلاد وعين المعينين والمباشرين لطلب الاموال والغلال والكلف من الاقاليم وأرسل الى البنادر وجعل فى كل بندر أميرا ووكيلا لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة ووضعها بالحواصل * وجعل العامة وبسطاء العقول من أهالى القاهرة ومصر ينظرون الى الفرنسيس كافة بعين السخط والسخرية وتطاولوا عليهم بالسب والتحقير وصار فقهاء المكاتب وعلى الخصوص العميان منهم يجمعون الاطفال ويطوفون بهم فرقا وهم يجهرون للنصارى بالسباب وفحش القول وهذر الكلام ولم يملكوا أنفسهم صبرا حتى يتم الجلاء وينقضى الاجل المضروب فنقم الفرنسيس عليهم ذلك وأبغضوهم جدا وصاروا ينظرون الى جميع أهل البلاد بعين القلى ثم أخذوا فى أهبة الرحيل وشرعوا فى بيع أمتعتهم وما فضل من سلاحهم ودوابهم وسلموا أكثر الثغور والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس وتدرج العساكر العثمانية فى الدخول الى القاهرة وصار فى كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة وجعلوا يشاركون الناس فى حرفهم وصنائعهم كالحامية والقهوجية والخياطين والحلاقين وغيرهم فشق الأمر على أصحاب تلك الحرف والصنائع فاجتمعوا وذهبوا الى مصطفى باشا النائب عن الصدر الاعظم وشكوا من فعال العساكر العثمانية فلم يلتفت لشكواهم ثم قدم الوزير يوسف باشا الى مدينة بلبيس ونزل بها ومعه الامراء المصريون وأرسلوا الى مراد بيك الكبير بالحضور الى المعسكر العثمانى فاعتذر حيث كان يومئذ بالصعيد فلم يقبلوا عذره وشددوا عليه فى الحضور قيل فسأل فى ذلك كبير الفرنسيس سرا فأذن له وكان سفيره فى ذلك عثمان بيك البرديسى فحضر مع ابراهيم بيك الكبير واجتمع بالوزير يوسف باشا فخلع عليهما وعاد مراد بيك فخيم بجهة العادلية وحضر حسن أغا نزل أمين أحد رجال الدولة ودخل القاهرة فاخلى الفرنسيس عند حضوره قلعة الجبل وبقية القلاع والحصون التى أحدثوها ونزلوا منها فلم يحتلها أحد من العساكر العثمانية وأعرضوا عن

المحاذرة استخفافا بالأمر ودخل الكثير من الامراء والعساكر المصرية الذين كانوا فروا عند
دخول الفرنسيس وأرسل ابراهيم بيك الى السيد أحمد المحروقى يطلب بعض الثياب لمماليكه
فاخرجت لهم الخيام والتراتيب وهيأت نساء الامراء والجند احتياجاتهم ولازم الخدم
والفراشون الغدو والرواح الى مضارب ساداتهم وهم راكبون البغال والحمير الفارهة
وفى حجورهم تعابى الثياب والبقج المزركشة بالذهب والفضة وكذلك الخدم الذين يحملون
الخوانات والاسمطة وهم يتغنون برفع أصواتهم ويتجاوبون بكلام وسخريات ولعن للنصارى
من أهل البلاد والفرنسيس بمرأى منهم ومسمع *ولما استقر المقام بالوزير يوسف باشا فى مدينة
بلبيس وذلك فى أخريات رمضان من السنة بعث بنصوح باشا والامراء المصريين الى القاهرة
فوصلوا الى الخانكاه ثم الى المطرية وقدم درويش باشا الذى كان والى الصعيد على عهد
حسن باشا أمير البحر ونزل بالشيخ قمر أياما ثم سار الى الصعيد ومعه طائفة من الجند وكذلك
سارت طائفة أخرى الى السويس وأخرى الى المنصورة ودمياط وانبثوا فى البلاد شرقا وغربا
ودخلوا القاهرة جماعات صغيرة وجعلوا يطوفون بالشوارع وانبثت عساكرهم فى الازقة والحارات
يعبثون فيها ويشوشون على النساء والصبيان فلما كان فى اليوم السابع من شوال من السنة
أى سنة أربع عشرة ومائتين حدث أن تشاجر بعضهم مع بعض الجنود الفرنساوية فأدت
هذه المشاجرة الى الملاكمة والقبض بالاطواق ثم الى الضرب واشتد تألب العساكر السلطانية
وأفحشوا فى الضرب فقتل بينهم أحد الفرنسيس وفاض الخبر بذلك فى القاهرة فوقعت فى الناس
زعجة وأغلقوا الحوانيت وخاف العساكر السلطانية شر العاقبة فاسرعوا وتترسوا ناحية
الجمالية وما والاها واجتمعوا جميعا فى تلك الانحاء خلف المتاريس التى أقاموها ووصل الخبر
بما وقع الى مقدم الجيوش الفرنساوية فجاءهم جماعة من الفرنسيس ووقع القتال
بينهم بالبنادق واشتد فقتل من الفريقين وباتوا ليلتهم وهم على أهبة الحرب والقتال فأصبحوا
وقد تداخل كبراؤهم فى الامر وأزالوا المتاريس وانكف الفريقان عن القتال وشدد مصطفى
باشا فى البحث على مشيرى هذه الفتنة فكانوا ستة فقبض عليهم وأمر بهم فقتلوا جهارا
وأرسل رؤسهم الى أمير الجيوش الفرنساوية فلم يطب خاطره وطلب سرعة خروج جميع
من دخل القاهرة ومصر من العساكر العثمانية حتى ينقضى الأجل المفروض واذا دخل
منهم أحد الى المدينة فبغير سلاحه فلم يسع مصطفى باشا الا الاذعان وأمر فنادوا على جميع
من كان فى مصر والقاهرة من الجنود العثمانية فخرجوا على الفور ووقف جماعة من العساكر
الفرنساوية خارج باب النصر رباطا فكان اذا أراد أحد من العساكر أو الاعيان من
العثمانيين الدخول الى المدينة ترجل عن دابته عند قربه منهم ونزع عنه جميع سلاحه ثم
يتركه عندهم ويدخل ومعه شخص أو شخصان موكلان به يمشيان أمامه حتى يقضى حاجته
و يرجع فاذا وصل الى العسكر المرابطين أعطوه سلاحه وظل الحال هكذا أياما *وسافر فريق
من الجند الفرنساوية الى الاسكندرية بمتاعهم وأثقالهم وفيهم الامير دورجيه النائب العام
والامير ديزه سر عساكر الصعيد والامير رئيس الكتاب ومدير الحدود ولبثوا بالاسكندرية

أياما قد تأهبوا فى خلالها الى ركوب السفن الى أوطانهم قيل فلما صاروا على ظهور السفن بدت لهم من سفن الانجليز اشارات الوحشة وعلامات الانتقام فاحجموا عن السير وبعثوا الى الامير كلابير يعلمونه بالخبر فأرسل الى الصدر الاعظم يعلمه بنوايا الانجليز نحو الجنود الفرنساوية ومخالفتهم لاحكام العهد فاجابه بجواب لم يرضه وأصبح زاحفا الى سطح الخانكاه وكان ذلك فى آخر المهلة المتفق عليها فى دخول الصدر الاعظم الى القاهرة وجلاء الفرنسيس عنها فلما رأى الامير كلابير ذلك طلب ثمانية أيام أخرى آجلة زيادة على أيام المهلة المقررة فأجيب الى ذلك ووصل الامراء المصريون وجيوش نصوح باشا وكثير من العساكر العثمانية الى ناحية المطرية وعسكروا هنالك وكان من الفرنسيس أن جعلوا الثمانية أيام التى طلبوها ظرفا لجمع عساكرهم وطوائفهم من البلاد القبلية والبحرية ونصبوا معسكرهم على ساحل النيل متصلا باطراف المدينة ممتدا من مصر القديمة الى شبرا وترددوا الى نواحى القلاع التى كانوا أنشؤها داخل البلد فلم يكن بها أحد من العساكر العثمانية فأخذوا فى رد آلات حربهم وذخيرتهم من بارود وقنابل ومدافع وغيره الى تلك القلاع ليلا ونهارا والناس يتعجبون من ذلك ومصطفى باشا نائب الصدر الاعظم ومن معه يشاهدون ذلك وهم فى شاغل عنه قيل وكان السبب فى ذلك هو ماظهر من سوء نوايا أمير العمارة الانجليزية بسفن الفرنسيس الحاملة لعسكرهم وان بعض أصدقاء الفرنسيس من جماعة الانجليز أبلغوهم أن الصدر الاعظم اتفق مع أمير العمارة الانجليزية على الاحاطة بسفن الفرنسيس اذا صارت على ظهر البحر فلما وقع ماسبقت الاشارة اليه تحقق الامير كلابير صحة الخبر وأرسل الى يوسف باشا الوزير فلم يجبه بجواب شاف بل أسرع فى الرحيل والقدوم الى مصر كما تقدم القول

وكان الفرنسيس عند ماتراسلوا وترددوا على معسكر يوسف باشا عرفوا عدد جنوده وأحوالهم وما هم عليه من القوة والضعف وتحققوا ضعفهم عن المقاومة وقد ردوا أدوات حربهم وجميع آلاتهم الى القلاع وحصنوا الجهات وأبقوا جماعة وقيدوا بتلك القلاع والحصون عدة من عسكرهم واستوثقوا من ذلك جيدا ثم خرج من بقى وهم السواد الاعظم الى ظاهر القاهرة عند قبة النصر وانتشروا فى تلك النواحى ولم يبق فى المدينة منهم الا من كان بداخل القلاع ونفر ببيت الالفى بالازبكية وبعض بيوت أخرى من الجهة المذكورة ولبثوا الى العشرين من شوال من السنة ثم أرسل كلابير فى طلب مصطفى باشا وحسن أغا نزل امين فلما تمثلا بين يديه أمر فقبض عليهما وأرسلوهما الى الجيزة وسجنوهما بها فلما كان ثالث عشرى الشهر المذكور ركب الامير كلابير قبل طلوع الفجر وسار بعسكره ومدافعه وقد قسم العسكر الى قسمين قسم سار الى معسكر الوزير يوسف باشا وقسم سار الى من هم بالمطرية من الامراء المصريين والجند الذين معهم فلما صاروا على مقربة منهم رموهم بالبنادق وتابعوا الرمى بقنابل المدافع وأحدقوا بهم واشتدوا فى الرمى شدة بالغة فولوا الفرار منهزمين وتركوا خيامهم وجميع آلات حربهم وركب نصوح باشا ومن معه

من الامراء المصريين وطلبوا جهة القاهرة فتركهم كلابير ولم يلتفت لصدهم عنها وسار خلف الفارين الى الخانكاه وهو يعمل السيف فى أقفيتهم وقد نهبوا جميع مافى معسكرهم وأتلفوا المدافع وأخذوا جميع ماوجدوه من متاع وغيره ولحقوا بمعسكر الصدر الاعظم فأرسل اليه كلابير يأمره بالرحيل فى مدة لاتتجاوز اربعا وعشرين ساعة فلم يسعه المخالفة وسار فسار خلفه كلابير بجيوشه وكان أكثر عساكر الصدر الاعظم متفرقة فى هذا اليوم فى انحاء القرى والبلدان لجمع المال ومفردات الفرض والتشديد على الرعية والتضييق عليهم فسمع أهالى القاهرة ومصر أصوات المدافع والبنادق فهاجوا وماجوا وتراكضوا الى أطراف البلد فصادفوا فى طريقهم بعض رعايا الفرنسيس فقتلوهم وذهبت جماعة منهم الى بركة الازبكية فنهبوا ماوجدوه فيها حيث كان معسكر الفرنسيس وجعلوا يكثرون من الجلبة والصياح وهم لايعرفون السبب الحامل لهم على ذلك سوى ماسمعوه من أصوات المدافع والبنادق وخرج السيد عمر نقيب الاشراف والسيد أحمد المحروقى قال صاحب عجائب الآثار وانضم اليهما أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر وكذلك حسين أغا شنن واخوه أيوب بيك الصغير وتبعهم كثير من عامة الناس وتجمعوا على التلال خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل منهم السلاح وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والاوباش وجعلوا يطوفون بالازقة وأطراف البلد ولهم صياح وضجيج وتجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم وقاموا على ساق وخرج الكثير منهم الى خارج البلد على تلك الصورة فلما ارتفع النهار حضر بعض الاجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم بشئ لجهلهم أيضا حقيقة الحال قال ثم لم يزل الحال كذلك الى أن دخل وقت العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلدة ولهم صياح وجلبة على الشرح المتقدم ذكره وخلفهم ابراهيم بيك الكبير ثم أخرى وخلفهم سليم أغا ثم أخرى وخلفهم عثمان كتخدا الدولة ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من عساكرهم وصحبتهم السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقى وحسن بيك الجداوى وعثمان بيك المرادى وعثمان بيك الاشقر وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان أغا الخازندار وابراهيم كتخدا مراد بيك المعروف بالسنارى ومعهم مماليكهم وأتباعهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا الى وكالة ذى الفقار فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم فعند ماسمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم فذهبت طائفة الى حارة النصارى وبيوتهم التى بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكى فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين فتخوف النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ماقدر عليه من العساكر الفرنساوية والروم وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الاسلحة

والبارود والقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمي بالبنادق والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون الدور ويتسورون عليها وبات نصوح باشا وكتخدا الدولة وابراهيم بيك وبعض من صناجق مصر والكشاف والأتباع وطوائف من العسكر بخط الجمالية بوكالة ذي الفقار فلما أصبح الصباح أرسلوا الى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة الفالية فعالجوها حتى فتحوها وقام ناصيف باشا وشمر عن ساعديه وشد وسطه ومشى وصحبته الامراء المصرية على أقدامهم وجروا امامهم الثلاثة مدافع وسحبوها الى الازبكية وضربوا بها على بيت الالفى وكان به بعض المرابطين من عساكر الفرنساوية فضربوهم أيضا بالمدافع والبنادق واستمرت الحرب بين الفريقين الى آخر النهار ثم انكفت وباتوا ينادون بالسهر له

وفى هذا اليوم وضع أهل القاهرة ومصر والعساكر المتاريس باطراف المدينة كلها وبجهة الازبكية وشرعوا فى بناء وترميم بعض جهات سور المدينة وبالغوا فى تحصينها جهد الاستطاعة وبات الناس فى تلك الليلة خلف المتاريس فلما أظلم الليل عمد الفرنسيس الى اطلاق مدافعهم على المدينة وراسلوا اطلاق القنابل من القلاع وتابعوا الرمى على خط الجمالية لاجتماع الامراء والجند به وشددوا فامتلأ الجو بدخان البارود وتهدم الكثير من الوكائل والبيوت وكثر الصراخ من كل صوب وحدب وخرج الناس على وجوههم هائمين وعجز الامراء عن الدفاع واسكات مدافع الفرنسيس ثم أجمع رأى الكبراء والرؤساء منهم على الخروج من المدينة فى تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم وجود آلات الحرب وغير ذلك من وسائل الدفاع وفاض الخبر بذلك بين الناس فركب بعضهم بعضا وازدحمت تلك النواحى بالحمير والبغال والخيول والجمال المحملة بالاثقال وباتوا على تلك الصورة المحزنة ووصلت الاخبار بخروج الناس الى أهل خان الخليلى وبعض مغاربة الفحامين والغورية فجاؤا الى الجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وعضدهم طائفة الانكشارية وعمدوا الى خيول الأمراء فحبسوها ببيت القاضى والوكائل وأغلقوا باب النصر وبات فى تلك الليلة أكثر الناس على مصاطب الحوانيت وبعض الاعيان فى بيوت أصحابهم بخط الجمالية وفى الازقة والحارات وكلهم على أهبة الخروج الى ظاهر المدينة وأصبح يوم السبت فتهيأ كبار الجند والجند كافة والكثير من سكان القاهرة ومصر ممن لاقدرة له على الحرب وساروا الى الازبكية فأقام بعضهم فى البيوت الخالية التى بها وأقام جماعة أخرى خلف المتاريس واستحضروا عدة مدافع مما كان مدفونا فى بيوت الأمراء قال صاحب عجائب الآثار واستحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التى يزنون بها البضائع من حديد وأحجار يرمون بها على العدو بدل القنابل وجعلوا يرمون بها على بيت الامير كلابير بالازبكية ولبث عثمان كتخدا بوكالة ذى الفقار فكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنسوى أخذه وذهب به الى الجمالية عند عثمان بيك المذكور ويأخذ عليه البخشيش فيحبس البعض حتى يتحرى

عن أمره ويقتل البعض ظلما وربما تقتل العامة من تقتله وتأتى برأسه لتأخذ البخشيش وكذلك كل من قطع رأسا من رؤس الفرنسيس يذهب بها اما الى نصوح باشا بالازبكية واما الى عثمان بيك بالجمالية وبعد أيام أغلقوا باب القرافة وباب البرقية وبقية الابواب التى باطراف البلد وزاد الناس فى عمل المتاريس وفى الاحتراس والتحذر وجلس عثمان بيك الاشقر عند متاريس باب اللوق وناحية المدابغ وعثمان بيك طبل عند متاريس المحجر ومحمد بيك المبدول عند الشيخ ريحان ومحمد كاشف أيوب وأصحاب أيوب بيك الكبير وأيوب بيك الصغير عند الناصرية ومصطفى بيك الكبير بقناطر السباع وسليمان كاشف الجزاوى عند سوق السلاح وأولاد القرافة والعامة وزعر الحسينية والعطوف عند باب النصر مع طائفة من الانكشارية وباب الحديد وباب القرافة وطائفة خان الخليلى والجمالية عند باب البرقية المعروف الآن بالغريب ولم يبق أحد من أهل البلد الا وانضم الى من يقرب اليه من طوائف العسكر بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة باطراف البلد عند الابواب والمتاريس والاسوار وأقام بعض العساكر العثمانية ومعهم جماعة من الاهالى بالاسلحة عند الجمالية حتى اذا جاء صارخ من جهة من الجهات أمدوه بفريق منهم ولم ينم أحد فى بيته الا الضعيف وكان ناصف باشا وابراهيم بيك الكبير ومن معهما من الانكشارية والارنؤد والدلاة وغيرهم مرابطين جهة الازبكية وناحية باب الهواء والرحبة الواسعة عند جامع أزبك والعتبة الزرقاء وأنشأ عثمان بيك كتخدا معملا للبارود ببيت قائد أغا بخط الخرنفش وأحضر الحدادين والنجارين والسباكين لسبك المدافع والقنابل واصلاح المدافع التى وجدت فى بيوت الامراء وعمل العجلات وما يلزم للقتال واهتم لذلك اهتماما عظيما وأرسلوا فاستحضروا بقية المدافع التى كانت بعسكر المطرية وقد عطلتها عساكر الفرنسيس فكانوا كلما أدخلوا مدفعا أدخلوه بجمع عظيم من الاوباش والحرافيش والاطفال ولهم صياح ونباح وتجاوب بكليمات من مثل قولهم الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان وغير ذلك اه

واشتدت عزيمة الامراء المصريين وبدا منهم غاية الهمة والاقدام وثابروا على القتال من خلف المتاريس وظهر رجل مغربى قيل انه الذى كان يقاتل الفرنسيس بالبحيرة واجتمع اليه طائفة من المغاربة ممن كان قدم مع الجيلانى الذى سبق الكلام عنه ففعل المغربى المذكور ما لا خير فيه من النهب والقتل والسبى وكان يتجسس على البيوت التى بها الفرنسيس والنصارى فيكبسها ومعه جمع من العوام وأسافل الناس والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ماعليهن من الحلى والثياب وكانوا يقطعون رؤس الاطفال وبعض البنات طمعا فيما عليهن من الحلى وتتبع الناس عورات بعضهم وما دعتهم اليه النفس الامارة بالسوء واتهم الشيخ خليل البكرى بانه يسالم الفرنسيس ويرسل اليهم الاطعمة وغير ذلك فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض الاوباش من العامة ونهبوا داره

وأخذوه مع أولاده ونسائه وأحضروه الى الجمالية وهو ماش على أقدامه حاسر الرأس فكان العامة يخاطبونه بفحش القول ويكثرون من سبه ولعنه فلما مثلوه بين يدى عثمان كتخدا هاله أمره وطيب خاطره وسيره بنسائه الى دار بعض الاعيان وطلبت العساكر النفقة فبادر السيد أحمد المحروقى وبقية التجار وأصحاب المظاهر من الناس بالنفقة على الجند والامراء والمقاتلين من مأكل ومشرب وكذلك فعل جميع أهل القاهرة ومصر ۞ أما الفرنسيس فانهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالمدينة وبيت الالفى وما والاه من البيوت الخاصة بهم كل ذلك ولا يعلم أحد حقيقة الحال ولا ماجرى بالفرنسيس الذين ساروا مع كلابير خلف عسكر الصدر الاعظم يطاردونهم من بلد الى آخر واختلفت فى شأنهم الاقوال وكان الصدر الاعظم قد ترك ببلبيس فريقا من عسكره أوهم تخلفوا عنه بعد أن مزقت شملهم العساكر الفرنساوية فسارت اليهم طائفة من الفرنسيس وحاصرتهم وشددت عليهم وضيقت فاستأمنوا فأخرجوهم بغير سلاح وصرفوهم حيث شاؤا فذهبوا أشتاتا بالازياف يتكففون الناس ويأوون الى المساجد الخربة فمات أكثرهم من العرى والجوع ولحق بعض الامراء المصريين بالصدر الاعظم عند الصالحية فعابوا عليه فعله وقبحوه وبالغوا فى سوء تدبيره وخاطبوه ببذئ الكلام وفحش القول فاعتذر وقال إنه لم يكن عليه أهبة القتال لترك الاسلحة والكراع بقلعة العريش اعتمادا على ماتقرر بينه وبين مقدم الجيوش الفرنساوية من الصلح وانه لم يكن ليعتقد يقظة الفرنسيس الى حد كشف مادبره عليهم مع أمير السفن الانجليزية عند ركوبهم السفن فطلب منه عثمان بيك أن يأمر بجمع الجنود الهائمة على وجهها كالابل وهو يسير بهم لقتال العدو فاجابه الى ذلك وخاطب العسكر وبذل لهم الرغائب فامتنعوا ولم يمتثل منهم الا المطيع وهم لايبلغون الالف وعادوا على إثرهم وجمعوا اليهم المتشردين منهم ورجعوا يريدون قتال الفرنسيس فنزلوا بوهدة على مقربة من القرين حيث كان الفرنسيس فى قلة يستكشفون مواقع العدو فقاموا عليهم بالنبابيت والحجارة فأصابوا ترجمان الامير كلابير وسقط على الارض وتسامع المسلمون فركبوا لنجدتهم واستصرخ الفرنسيس عسكرهم فلحقوا بهم ووقع القتال بين الفريقين حتى حال بينهم الليل والفرنسيس يطاولونهم ثم انكف الفريقان وانحاز كل فريق الى ناحية فلما دخل الليل واشتد الظلام أحاط الفرنسيس بعسكر المسلمين فأصبح المسلمون وقد رأوا احاطة العسكر بهم من كل جانب فركب الفرسان وتبعهم المشاة وقاتلوا حتى اخترقوا صفوف العدو ونجا من نجا وهم قليلون وقتل خلق كثير ورجعوا الى الصالحية على إثرهم فلما رأى الصدر الأعظم ماحل بهؤلاء أيضا وقد كان يعلل الامل بفوزهم رحل الى الشام فيمن بقى أما مراديبك الكبير فانه لما رأى هجوم الفرنسيس على من كانوا بالمطرية مع نصوح باشا وكان هو على مقربة من المقطم ركب من ساعته هو ومن معه ومروا بسفح الجبل وساروا الى دير الطين وعسكروا فيها لينظروا مايحل بعساكر السلطان وأقام مطمئنا على نفسه واعتزل الفريقين وحافظ على عهده وولائه للفرنسيس واشتد الخوف والفزع بنصوح

باشا ومن معه من الامراء المصريين لما علموا بما أصاب الصدر الاعظم وجنوده وخارت منهم العزائم وذهب الصبر والجلد ولكنهم خافوا أيضا عاقبة صرف من اجتمع عليهم من العامة والحرافيش وأهل العطوف وأخلاط العسكر فكانوا يذيعون بينهم أخبارا ملفقة لا أصل لها ويعنون الناس بقرب حضور الصدر الاعظم بجيوشه المظفرة وتابعوا المناداة بالتركى والعربى بالتحريض والاجتهاد والحرص على الصبر والقتال وملاقاة العدو ﴿ وبينما الناس على هذا الحال وتعلق الآمال بقرب عودة الصدر الاعظم وجيوشه اذ حضر فريق من الفرنسيس نجدة لاخوانهم الذين بالحصون والقلاع التى بداخل البلد ووقفت طائفة منهم خارج باب النصر وباب الحسينية ونهبوا زاوية الدمرداش وما حولها كقبة الغورى والمنيل وعسكروا على بعض التلول ورجع فى هذه الاثناء طائفة قليلة من عسكر الدولة وهم الذين كانوا بالقرى والارياف يقبضون الكلف والفرض بأمر الصدر الاعظم فلما صاروا عند أبواب المدينة دفعتهم طوائف الفرنسيس فدافعوا عن أنفسهم حتى تمكنوا من دخول المدينة ففرح الناس بقدومهم وتقوت نفوسهم فكانوا يقولون للناس انهم حاضرون مددا وأن سيأتى على اثرهم عشرة آلاف مقاتل من جيوش الصدر الاعظم لقطع شأفة العدو * وقام ببولاق رجل اسمه الحاج مصطفى البشتيلى وجمع اليه طوائف السوقة وحرافيش السبتية فكانوا عدة وافرة وساروا نحو معسكر الفرنسيس الذى كان بساحل بولاق وهجموا على من كان به من المرابطين فقتلوا منهم من أدركوه ونهبوا جميع مافيه من خيام ومتاع وغيره ورجعوا الى المدينة وهم يتراجحون وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى لجيوش بونابارته وأخذوا منها ما قدروا على حمله وتترسوا حول بولاق واستطالوا على من كان بها من القبط والشوام فأوقعوا فيهم القتل والنهب وفعلوا مالا خير فيه فكان البلاء عاما والخطب شديدا جدّا

ولما استوثق الامير كلابير من هزيمة الوزير يوسف باشا وعجزه عن الرجوع وهروبه الى الديار الشامية وضع بالصالحية رباطا من الفرنسيس وكذلك بالقرين وبلبيس وسار الى القاهرة وقد بلغه خبر دخول نصوح باشا اليها وماجرى على يديه من قتل ونهب وتخريب وتعييب وغير ذلك فوصلها بعد ثمانية أيام من ظهور الفتنة ودخل الى داره بالازبكية من غير ممانع اذ لم يقف فى طريقه أحد من الجند ولا من العامة وأمر فأحاط جنده بالقاهرة وبولاق من الخارج وشددوا فى الحصار فصار لايدخل اليها أحد ولايخرج منها أحد ومنعوا عنهما الوارد من الاطعمة ثم جعلوا يطلقون عليهما المدافع ويرسلون القنابل من أعلى التلال والقلاع ليلا ونهارا واشتدوا فى ذلك شدة بالغة وقد عدمت الاقوات وعز وجود الخبز وصار العساكر السلطانية الذين بالقاهرة يخطفون مايجدونه بأيدى الناس من المأكل وغلا سعر الماء المأخوذ من الآبار والاسبلة حتى بلغ سعر القربة نيفا وستين نصفا اذ تعذر الوصول الى النيل * قال صاحب عجائب الآثار وتكفل التجار ومساتير الناس والاعيان بكلف العساكر المقيمين بالمتاريس المجاورة لهم فألزموا الشيخ السادات بكلف الذين عند قناطر

الشباع وأما أكابر القبط مثل جرجس الجوهرى وفلتاؤس وملطى فانهم طلبوا الامان من المتكلمين من المسلمين لكونهم انحصروا فى دورهم وهم فى وسطهم وخافوا من نهب دورهم اذا خرجوا فارين فأرسلوا اليهم الأمان فحضروا وقابلوا الباشا والكتخدا والامراء وأعانوهم بالمال واللوازم وأما يعقوب فانه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعدادا كثيرا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الاولى فكان معظم حرب حسن بيك الجداوى معه هذا والمناداة فى كل يوم بالعربية والتركية على الناس بالجهاد والمحافظة على المتاريس قال واتهم مصطفى أغا مستحفظان بموالاة الفرنساوية وان فى بيته جماعة من الفرنسيس فهجم العساكر على داره بدرب الحجر فوجدوا أنفارا قليلة من الفرنسيس فقاتلوا ودافعوا عن أنفسهم وقتل منهم البعض وهرب البعض على حمية حتى خلصوا الى الناصرية وأما الاغا فانهم قبضوا عليه وأحضروه بين يدى عثمان كتخدا ثم تسلمه الانكشارية وخنقوه ليلا بالوكالة التى عند باب النصر ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد واستقر عوضه جاهين كاشف الساكن بالخرنفش فاجتهد وشدد على الناس وكرر المناداة ومنعهم من دخول الدور وكل من وجده داخل داره مقته وضربه فكان الناس يبيتون بالازقة والأسواق حتى الامراء والاعيان وهلكت البهائم من الجوع لعدم وجود العلف من التبن والفول والشعير والادريس بحيث صار ينادى على الحمار أو البغل المعدد الذى قيمته ثلاثون ريالا وأكثر بمائة نصف فضة أو ريال واحد أو أقل ولا يوجد من يشتريه وفى كل يوم يتضاعف الحال ويعظم الهول اه

وزحف المسلمون على رصيف الخشاب وترامى الفريقان بالمدافع والنيران حتى احترق ما بينهم من الدور وكان اسمعيل كاشف الالفى قد تحصن ببيت أحمد أغا شويكار فى نفر من العسكر وقد كان الفرنسيس قبل الجلاء عنه عملوا به لغما بالبارود المدفون فلما استقروا به أشعل الفرنسيس اللغم فارتفع مافوقه من الابنية والناس الى عنان السماء واحترقوا جميعا ومات بينهم الالفى وانهدم ما كان حوله من البناء والدور والوكائل والمبانى العظيمة والقصور المطلة على بركة الازبكية واحترقت جميع البيوت الى رصيف الخشاب والخطة المعروفة بالساكت بأجمعها الى الرحبة المقابلة لبيت الالفى مقر الأمير كلابير وكذلك جميع خطة الفوالة وخطة الرويعى بالسباطين العظيمين ومافى ضمن ذلك من البيوت الى حد حارة النصارى فصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن فضعفت عند ذلك عزيمة نصوح باشا والامراء المصريين وكادوا يفشلون وأرسلوا الى مراد بيك الكبير يسألونه الاسراع فى نجدتهم بمن معه وألحوا عليه فأرسل يعتذر ويقول انه محافظ على الجهة التى هو فيها فأرسلوا اليه ليكشف لهم خبر الصدر الاعظم وما جرى عليه فأرسل يقول لهم اعلموا أن الفرنسيس اذا ظفروا بأحد من المسلمين فلا يقتلونه ولا يضربونه فاذا أحسنتم فافعلوا أنتم كذلك وخابروهم فى الصلح فهو خير لكم وأبقى وانجلوا عن البلاد سالمين فحنق حسن بيك

الجداوى وعثمان بيك الاشقر وغيرهم من المسلمين عند سماعهم هـذا الكلام وسفهوا رأيه وقبحوا قوله و رموه بالموالاة للفرنسيس فأشار ابراهيم بيك الكبير بذهاب البرديسى اليه ومعه عثمان بيك الاشـقر ليبينا له خلطه وشططه فذهبا ورجع عثمان بيك وقد تبـدلت أحواله وتغيرت أفكاره وذهبت عنـه تلك الحدة التى كانت تزعجه وجنح لرأى مراد بيك فداخلهم من ذلك الفتور وكاد يتولاهم الملل وقد اشتد الخطب وعظم البلاء وعم الكرب وتوالى سقوط القنابل عـلى الدور والمساكن من القلاع وكثر صياح النساء فى البيوت وبكاء الصـغار من الخوف والهلع والجوع ومات الكثـير من النساء والاطفال والشيوخ والحيوانات والطيور وغير ذلك تحت ردم الدور والمساكن التى سقطت وكان مقام الرجال بالازقة والاسواق ليـلا ونهـارا ومقام النساء والصبيان بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الابنية الى غير ذلك وكان المشايخ والسيد أحمد المحروقى والسيد عمـر نقيب الاشراف يمـرون فى كل وقت ويأمرون الناس بالقتال ويحضونهم على الجهاد وبقى الحال على هـذا الوصـف عشرة أيام كوامل وترددت الرسل من أصحاب مراد بيك الكبير بين الفرنسيس والامراء المصريين بشأن الصـلح وجلاء جميع العساكر السلطانيـة عن البلاد فلم يتفقوا عـلى أمر ما فلما كان اليوم الثانى عشر أمر كلابير فأقاموا ببركة الازبكيـة فسطاطا لطيفا ورفعوا عليـه علما وانكفوا عن الرمى فى تلك الليلة وأرسل كلابير يطلب المشايخ ليتكلم معهم فيما فيـه المصلحة فأمرهم نصوح باشا بالذهـاب فسار اليـه جماعة منهـم فلما استقر بهم المقام مع الامير كلابير عاتبهم على ماوقع ثم أمن جميع الرعيـة وعفا عما سلف بشرط خروج نصوح باشا وجلاء جميع العساكر السلطانية وارتحالهم الى حيث الصدر الاعظم وعلى الفرنسيس النفقة عليهم بقـدر الكفاية وأما الجنود المصرية الذين أتوا معهـم فن شاء منهم الجلاء فله مالهـم ومن شاء البقاء بقى معـززا وان الجـرحى والمرضى من العساكر العثمانيـة ينزعون عنهـم أسلحتهم و يعالجون فن تم برؤه منهم وشاء الاقامة فعزز أو الرحيل فله ما كان لاصحابه من الكلفة حتى يصـل الى وطنه فجنح المشايخ الى هـذا الصلح وتقررت القاعدة بينهم على ذلك ورجعوا فلما كان الغد شاع أمر الموادعة واستفاض أمر الصلح وعلم الانكشارية بخبره فقاموا على ساق وقدم وقالوا لايكون هذا أبدا وخرجوا وخرج العامة معهم وسبوا المشايخ وقبضوا على اثنين منهـم وأوسعوهـما ضربا ورموا عمائمهما * قال صاحب عجائب الآثار وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وانهم أخذوا دراهم من الفرنسيس وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هـذا الفضول وشدد فى ذلك الرجل المغربى الملتف عليـه اخـلاط العالم ونادى من عنـد نفسه الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنـه ضرب عنقه قال وكان السادات ببيت الصاوى فتحير واحتال بأن يخرج وامامه شخص ينادى بقوله الزموا المتاريس ليبقى بذلك نفسه من العامة وكان قصد المغربى المذكور دوام الفتنة ليتوصل بها الى مايريده من النهب والسلب والتصور بصورة الامارة باجتماع الاوغاد عليـه وتكفـل

الناس له بالمأ كل والمشرب هو ومن انضم اليه واشتطاطه فى المأ كل مع فقد الناس لأدنى مايؤكل حتى انه كان اذا نزل جهة من جهات المدينة لاظهار أنه يريد المعونة أو الحرس فيقدمون له بالطعام فيقول لا آكل الا الفراخ ويظهر انه صائم فيكلف أهل تلك الجهة أنواع المشقات والتكلفات بتعنته فى هذه الشدة بطلب أخل المأكولات وما هو مفقود قال ثم هو مع ذلك لايغنى شيأ بل اذا دهم العدو تلك الجهة التى هو فيها فارقها وانتقل لغيرها وهكذا كان ديدنه وسجه اه

ولما وقع من الانكشارية والعامة هذا التظاهر ومانعوا فى امضاء الصلح لم ترد العلماء على الامير كلابير جوابا وأطلقوا مدافعهم على معسكر كلابير وأكثروا من اطلاق البنادق اعلانا بأنهم مازالوا على قدم الدفاع فأرسل كلابير يطلب الجواب فأجابه الباشا والكتخدا إن العسكر يرفضون كل صلح وهم يقولون لانرجع عن حرب الفرنسيس حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا فأرسل عند ذلك كلابير مكاتبة يقول فيها قد عجبنا من قولكم ان العساكر لم ترض بالصلح فكأن الامر بيدهم وكيف يكون الامير أميرا على جيش ولاينفذ أمره فيهم ثم أرسل كلابير رسولا الى أهل بولاق أيضا يطلبهم للصلح وترك الحرب ويحذرهم العاقبة فلم يذعنوا فكرر عليهم الطلب فكانوا لايزدادون الاعنادا فأرسل كلابير أحد فرسانه فطاف ينادى بالامان فقام عليه العامة وأنزلوه عن فرسه وقتلوه وظن الناس بالقاهرة ومصر وبولاق أن الفرنسيس انما يطلبون الصلح لعجزهم وعدم قدرتهم على استمرار القتال فلما علم كلابير بما فعلوه برسوله غضب وأمر فأطلقت عساكره المدافع على المدينة ووالوا الرمى بالقنابل من جميع الحصون والقلاع وراسلوا نيران البنادق واستمروا على هذا الحال الشديد الى يوم الخميس ثانى عشرى شوال من السنة فلما كان ضحوة هذا اليوم غامت السماء وأرعدت وأبرقت ثم أمطرت مدرارا وطالت وأظلمت الدنيا واشتد المطر وانفتحت أبواب السماء فانهمل السيل انهمالا عظيما لم يسبق له مثال وكثرت الاوحال وتعطلت الطرق بالقاهرة ومصر وبولاق فاشتغل الناس والعساكر بنزح المياه من بعض الطرق وحمل الاوحال تخفيفا لها فانتهز الفرنسيس هذه الفرصة المناسبة وهجموا على القاهرة وبولاق من كل ناحية وكبسوا من ناحية باب الحديد وكوم أبى الريش وجهة بركة الرطل وقنطرة الحاجب وجهة الحسينية والرميلة وكانوا يرمون القنابل من قلعة جامع الظاهر وقلعة قنطرة الليمون ويزحفون وأمامهم المدافع وخلفهم المشاة بالبنادق يتابعون رميها وطائفة أخرى بأيديهم فتائل مغمسة بالنفوط والزيت والقطران وكعكات مدبرة تلتهب عند نزول الماء عليها فكانوا يلقونها ملتهبة بالسقائف وأبواب الحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة والمسلمون يقاتلون قتال الابطال وانتقل الاغا وأغلب العامة الى تلك الجهات وزلزلوا فى ذلك اليوم زلزالا شديدا وهاج العامة وأكثر النساء من الصياح والولولة وتركن البيوت وخرجن حاسرات عن وجوههن فكانت النيران تأخذ كل من صادفته ثم هجموا هجمة رجل واحد على مدينة

بولاق من ناحيتى النيل وبوابة أبى العلا فقاتل أهل بولاق وبذلوا الجهد حتى أحاطت بهم الفرنسيس احاطة السوار بالمعصم وأخذوهم من كل جانب وأعملوا فيهم السيف والتحريق فقتلوا فى هذا اليوم مالا يكاد يدخل تحت الحصر وملكوا بولاق عنوة وفعلوا بأهلها ماتشيب من هوله النواصى وصارت القتلى مطروحة تدوسها سنابك الخيل وأقدام الناس فى الازقة والطرقات واحترق أكثر المدينة من الدور والقصور المطلة على النيل وخرج الناس على وجوههم هائمين الى الصعيد ثم أحاط الفرنسيس بالبلد ومنعوا من يخرج منها واستولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع وملكوا الدور ومافيها من متاع وأموال ونهبوا جميع ماعثروا عليه وصنعوا بكبارها وتجارها مالاخيرفيه وكان ذلك اليوم يوم الجمعة ثالث عشرى شوال واختفى البشتيلى زعيم عصابة بولاق ففتشوا عليه وقبضوا عليه وعلى وكيله وجميع أنصاره وكبار العصابة كافة وسجنوهم وضيقوا عليهم عدة أيام ثم أطلقوهم ماعدا البشتيلى وكبار عصابته وكان البشتيلى هذا قد بعث فى أيام الفتنة بخطاب الى عثمان كتخدا يقول فيه ان الكلب دعانا للصلح يريد كلابير فأبينا منه وأرسل الخطاب مع رجل ليوصله الى الكتخدا فوقع فى يد الامير كلابير فيل حركه ذلك الى فعل مافعله ببولاق ثم سلم البشتيلى الى أهل عصابته ووكلهم بقتله جزاء مافعل مما كان سببا لما حل بهم فأركبوه حمارا وطافوا به جميع انحاء بولاق ثم قتلوه بضرب النبابيت وألزم كلابير أهل بولاق بغرامة قدرها مائتا ألف ريال فأدوها وهم صاغرون

❁ أما أهالى القاهرة ومن فيها من العساكر العثمانية والامراء المصريين فانهم جعلوا يقاتلون ويدافعون جيوش الفرنسيس الى السادس والعشرين من شوال حتى ضاق خناقهم وكادوا يهلكون من الجوع فضلا عن نيران العدو فهجم الفرنسيس على المدينة فى ذلك اليوم من ناحية باب الحديد وناحية كوم أبى الريش وقنطرة الحاجب وغيرها ودخلوا البلد وهم يحرقون بالفتائل والنيران الموقدة ويجلون العساكر السلطانية عن المتاريس واحدا فواحدا الى أن وصلوا الى ناحية قنطرة الخروبى وناحية باب الحديد الى قرب الشعرية وزحفوا على المتاريس التى بها فوقعت الهزيمة على من كانوا بها من الامراء المصريين والجند فولوا الادبار وتبعهم العامة بالصياح والولولة وملك الفرنسيس كوم أبى الريش وصعدوا الى أعلاه وصوبوا أفواه المدافع ناحية المسلمين والمسلمون من أسفل الكوم فعملت فيهم نيران المدافع مالا يمكن وصفه وقتلت مالا يكاد يدخل تحت الحصر وكان البرديسى ومصطفى كاشف الاشقر أصحاب مراد بيك يسعون بين نصوح باشا والامير كلابير فى المهادنة والكف عن القتال ويكثرون من التراداد بين الفريقين فلما شاهد نصوح باشا ماحل بعسكره من الفشل والموات جنح الى جميع مايطلبه الامير كلابير وألح فى طلب كف القتال وتقررت القاعدة بين الفريقين على ان الفرنسيس يمهلون نصوح باشا وجميع من معه من العثمانيين والامراء المصريين ثلاثة أيام حتى يتأهبوا للجلاء عن البلاد وجعلوا الخليج بالقاهرة حدا بين مقام الفريقين فى خلال

ايام

أيام الهدنة وتركوا الحرب وأخمدوا النيران وأخذ العساكر السلطانية والمصرية والامراء من الفريقين فى التأهب والاستعداد للجلاء وزودهم الامير كلابير بما لزم من مال وميرة ودواب للحمل وكتبوا بعقد الصلح دستورا من شروطه أن الفرنسيس يبقون عندهم عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الاشقر رهينة ويرسلون ثلاثة من كبار الفرنسيس يكونون مع الكتخدا حتى يصل بمن معه الى الصالحية وأن يرافقهم ثلثمائة من جند كلابير ثم يعودوا ومعهم الرهائن وأن من شاء الخروج من أهل مصر فلا حرج عليه ماعدا عثمان بيك الاشقر فانه متى رجعت الرهائن يذهب هو والبرديسى ويلحقان بمراد بيك فى الاقليم القبلى * وأمر كلابير بالرهائن من الفرنسيس فذهبوا الى وكالة ذى الفقار وأجلسوهم بجامع الجمالى بالجمالية مع نصوح باشا فلما رآهم العامة هاجوا وماجوا وأرادوا البطش بهم وهموا بقتل عثمان كتخدا فأغلق دونهم الباب ومنع نصوح باشا من دنو العامة من المسجد وركب المغربى الذى تقدم الكلام عنه وسار الى الحسينية وهو ينادى بالجهاد وقتل الكفار فحضر الى عثمان كتخدا من أهل الحسينية من سأله فى ذلك فنهاهم وحذرهم وأمرهم بمنع ذلك المغربى وركب كذلك المحروقى وأمامه بعض العامة ينادون بأن لاصلح ولا اتفاق ولازموا المتاريس ومر على هذه الصورة بسوق الخشاب فقام عليه نزله أمين وأوقفه عن التطواف ومنعه من المناداة وفتح فى الحال باب خان ذى الفقار فخرج منه طائفة من الجند وبأيديهم العصى فزقوا شمل العامة وفرقوا جمعهم وضربوهم بالعصى فانكمشوا وسكن الحال وكان نصوح باشا والامراء المصريون لما دخلوا القاهرة وضربوا على أهل البلاد المغارم وزادوا فى المكوس والمظالم وشددوا فى تحصيلها حتى من المشايخ وأرباب الطرق طالبوا أيضا الشيخ أبا الانوار السادات بمبلغ من المال وجاءه السيد أحمد المحروقى بخطاب من كتخدا الدولة بشأن ذلك فاعتذر الشيخ وطلب المعافاة فلم يقبل المحروقى وأبى الا أخذ المقرر فشق الامر على الشيخ وأحزنه جدا * قال صاحب عجائب الآثار فكتب له الشيخ تذكرة وصورتها حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وماهو من الظالمين ببعيد

وظننت انك عدتى أسطو بها * ويدى اذا اشتد الزمان وساعدى

فرميت منك بغير ماأملته * والمرء يشرق بالزلال البارد

أما بعد فقد نقضت عهدى * وتركت مودة آل بيت جدى * وأطعت الظلمة السفلة وامتثلت أمر المارقين الثقلة * فاعنتهم على البغى والجور * وساعدت فى تجهيز مرامهم الفاسد على الفور * من الزامك الكبير والصغير * والغنى والفقير * اطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات * وبالغ فى النهب والفساد غاية الغايات * فكان جهادكم فى أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى * فاستحكم الدمار والخراب * ومنعت الاقوات وانقطعت الاسباب * فبذلك كان عسكركم مخذولا * وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا * كيف لا وأكابركم أضمرت السوء للمرتزقة فى تضييق معاشهم وأخذ مرتباتهم * واتلاف

مابأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم * وقد أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها ثم فررتم فرار الفيران من السنورورتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الامور * فواغوثاه واغوثاه أغثنا ياغياث المستغيثين واحكم بعدلك ياأرحم الراحمين اه

فلما وقع ما وقع لنصوح باشا وقومه من الامير كلابير فرح الشيخ بخذلتهم وفرح معه أيضا جماعة من المشايخ لخلاصهم من ظلم الجنود العثمانية وأمرائهم وخرجوا جميعا وخرج معهم ابراهيم بيك الكبير وأمراؤه ومماليكه والالفى وأصحابه ومعه السيد عمر مكرم النقيب والسيد أحمد المحروقى وكثيرون من أهل مصر والقاهرة وساروا الى الصالحية وسار معهم حسن بيك الجداوى وأصحابه ودخل الفرنسيس الى المدينة واستولوا على ما كان أعده العثمانيون من المدافع والقنابل والبارود وآلات الحرب وركب المشايخ والاعيان عصر ذلك اليوم الى مقر الامير كلابير فلما استقر بهم المقام أبرز لهم ورقة مكتوبا فيها مانصه النصرة لله الذى أمر من آتاه النصر باستعمال الشفقة مع الناس وبناء على ذلك فان أمير الجيوش الفرنساوية لايبخل بالعفو عن جميع الاهالى ولو أنهم شاركوا العثمانيين فيما ارتكبوه من جرائم القتل واراقة الدماء فعليهم اذن أن يشتغلوا بأمر معاشهم * ثم التفت الى المشايخ وقال لترجمانه قل لهم أن يأتوا الينا فى غد عند قبة النصر فقاموا من عنده مطمئنين وطافوا بالاسواق وبين أيديهم أرباب المناداة ينادون بالامان العام وباتوا وأصبحوا فركبوا جميعا وذهبوا الى خارج باب النصر وخرج أرباب المناصب وكبراء القبط والشوام فلما تكامل حضورهم رتبوا موكبا وساروا ودخلوا من باب النصر وأمامهم القواصة يأمرون الناس بالقيام ثم عدد عظيم من الفرسان ثم المشاة وأمامهم الطبول والابواق ثم الاعيان والمشايخ والعلماء والامراء والوجاقلية وأتباعهم ثم الامير كلابير وخلفه الامير عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الاشقر وخلفهم طوائف الفرسان وبعد انقضاء الموكب زينت البلد ثلاثة أيام ثم أدب الجنرال كلابير ودعا جميع المشايخ والعلماء والامراء فلما فرغوا من الطعام خلع على الشيخ البكرى خلعة عظيمة وقلد محمد أغا الطنانى أغاة مستحفظان ثم انصرفوا ونادى الاغا بالامان فى تلك الليلة وأصبحوا وقد دعا مراد بيك الكبير الامير كلابير وبطانته ومن معه من المقاتلين الى وليمة أعدها لهم بجزيرة الذهب فذهبوا اليه فبالغ مراد بيك فى اكرام الامير كلابير وقدم له تقادم وهدايا نفيسة وكذلك لكل واحد من أركان حرب كلابير وقدم اليه أربعة آلاف رأس من الضأن وعجول البقر وفحول الجاموس وكان قد بعث بها درويش باشا الذى كان بالاقاليم القبلية اعانة الى نصوح باشا ومن معه من الامراء المصريين فسر الجنرال كلابير سرورا عظيما فى ذلك اليوم وانشرح صدره وقلد مراد بيك إمارة الصعيد من جرجا الى اسنا ثم عاد راجعا الى داره بالازبكية

ولما كان فى صبح يوم الجمعة ثامن الحجة من السنة أى سنة أربع عشرة ومائتين وألف حضر المشايخ والعلماء فى زيهم وزينتهم الى بيت الامير كلابير باستدعاء من أجل ترتيب

الامور وتقسيم الوظائف والمناصب العالية فذهب كل وهو يؤمل بلوغه مايتمنى فلما دخلوا أجلسوهم فى مكان برهة طويلة ولم يحضر اليهم أحد وأهملوا ثم طلبوا الى مكان آخر فدخلوا وجلسوا وأهملوا حصة ثانية أطول من الاولى ثم خرج بعد ذلك الامير كلابير فى أصحابه ومعه ترجمانه فجلس وأصحابه حوله وكلم ترجمانه ثم بعد أن فرغ التفت الترجمان الى المشايخ والعلماء وقال يقول الجنرال انما قد استحضرتم اليوم الى هنا من أجل أن تدفعوا الى خزينة الجيش الفرنسوى عشرة آلاف ألف ألف فرنك عبارة عن ألف ألف فرانسة منها خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألف فرانسة على الشيخ السادات خاصة وخمسون ألفا على الشيخ محمد بن الجوهرى وخمسون ألفا على أخيه الشيخ فتوح وخمسون ألفا على الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ العنانى ومائتان وخمسون ألفا نقتطعها من ذلك نظير نهب دور الفارين مع العساكر العثمانية مثل المحروقى والسيد عمر مكرم وحسين أغا شنن ومابقى من المبلغ توزعونه على التجار والاهالى كل بلد ومايناسب حاله ويبقى منكم هنا خمسة عشر رجلا رهينة فاختاروا من يبقى * ثم قام كلابير من فوره ودخل مع أصحابه الى داخل وأغلق بينه وبينهم الباب فاستلم فريق من الحراس الابواب ووقفوا دونها بالبنادق يمنعون من يخرج من الجالسين فبهت الجماعة وانتقعت وجوههم ونظر بعضهم الى بعض وهم فى دهشة وحيرة ولم يعاف من هذه الغرامة سوى الشيخ المهدى والشيخ البكرى واشتد بالمشايخ الامر ولم يزالوا على ذلك الى قريب العصر فأفرجوا عمن دخل معهم من خاملى الذكر وأخذ أرباب الديوان فى توزيع المطلوب وتدبيره وترتيبه فى قوائم حتى وزعوه على الملتزمين وأرباب الحرف الدنيئة وجميع صنوف التجار وقضاة المحاكم وقد وضعوا الشيخ الصاوى والشيخ فتوح بن الجوهرى فى السجن وهرب الشيخ العنانى وكانت داره احترقت فضافوا غرامته على الشيخ السادات ووكلوا بالتحصيل المعلم يعقوب والقائمقام مع الخزنه دار لقبض المتحصل وتدبير الامور والرهونات وركب كلابير مع أصحابه وذهب الى الجيزة ونزل الشيخ السادات يريد الذهاب الى داره فسار معه عشرة من الفرنسيس وجلسوا على بابه الى نصف الليل فحضر اليه عشرة آخرون فأنزلوه من بيته وصعدوا به الى قلعة الجبل وسجنوه فى مكان فهاله هذا الامر وأزعجه جدا فأرسل الى عثمان بيك البرديسى مستغيثا به فركب الى الامير كلابير وكلمه فى أمره فقال كلابير أما القتل فلا نقتله لشفاعتك وأما المال فلابد منه ان طوعا وان كرها ثم أنزلوه من قلعة الجبل وسجنوه فى بيت القائمقام يومين ثم أصعدوه ثانيا الى القلعة وشددوا عليه وضيقوا فلما اشتد به الخطب طلب أن ينزلوه الى بيته ليسعى فى سداد المفروض فأنزل فباع متاعه وأثاث داره وماعنده من المال دفعة فلم يبلغ سوى أحد وعشرين ألف فرانسه لاغير ففتشوا جميع بيته ونبشوا أرضه فلم يعثروا فيه على شئ وكان قد نقل نساءه وولده الى مكان آخر وضيقوا على بقية المشايخ فى تحصيل المفروض فهرب البعض فنهبوا داره واسترحم البعض فخففوا عنه وأضافوا ماخففوه على الغرامة العامة وانبث الاعوان يطالبون الناس ويقبضون على من لم يدفع

ماعليه فاشتد بالناس هذا البلاء وعم الخوف والذل الحقير والعظيم وذهب الدرهم والدينار وعز وجدانهما فصاروا يأخذون المصوغات والامتعة بأبخس الاثمان حتى نفدت أيضا فأخذوا الدواب وخرج الناس من المدينة وأجلوا عنها الى القرى والارياف فرارا فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار

(مطلب)

(مقتل الجنرال كلابير قائد الجيوش الفرنساوية وما جرى بعد قتله)

لما خرج نصوح باشا من مصر بعد عقد الصلح مع الامير كلابير والجلى عن البلاد بمن كان معه من العساكر السلطانية والامراء والصناجق المصريين ولحقوا جميعا بيوسف باشاصدر الدولة كبر هذا الامر عليهم واستعظموه فجعلوا ينظرون فى أمر الخلاص من شر الامير كلابير ويتدبرون فى أمر قتله فأرسل أغاة الانكشارية الى حلب يطلب رجلا قادرا مقداما يجسر على قتل كلابير ومناه بالعطايا الجزيلة والمناصب السامية والتحف الجليلة فحضر اليهم رجل اسمه سليمان الحلبى لم يبلغ من العمر سوى أربع وعشرين سنة فقربه الأغا ومناه بالعطايا إن هو قتل كلابير فأقسم أنه يقتله وأخذ لذلك خنجرا وسار الى القاهرة ونزل بالجامع الازهر برواق الشوام عند جماعة من مجاورى الشوام له بهم سابق المعرفة ولبث ثلاثين يوما متتبع خطوات كلابير أينما سار ثم كاشف ثلاثة من المجاورين بما عزم عليه من قتل كلابير أحدهم اسمه السيد محمد المغربى والثانى اسمه السيد أحمد الوالى والثالث الشيخ عبد الله المغربى وكاشف آخر غيرهم أيضا اسمه السيد عبدالقادر الغزى قيل فمنعوه من ذلك ونهوه فلم ينته فلما كان سادس المحرم افتتاح سنة خمس عشرة ومائتين وألف عبر الحلبى النيل الى الجيزة واجتمع بنفر من بحارة زورق كلابير فسألهم عن كلابير وعن محل وجوده واقامته وغير ذلك وأراهم أنه رجل غريب يريد الاجتماع به لأمر يهم كلابير فأعلموه بأن عادته أن يتجول فى بستان داره فى كل يوم حصة مقررة فتركهم ورجع الى مقره بالازهر وبات ليلته تلك وأصبح يوم سابع المحرم قاصدا الفتك بكلابير وأعلم السيد محمد الغزى ومن معه بانه سيقتله فى ذلك اليوم وتأبط خنجره وخرج من الجامع وسار الى بيت كلابير فعلم بخروجه الى الروضة فسار نحوها فصادفه عائدا الى داره بالازبكية فتبعه حتى وصل الى الدار فدخل كلابير ولبث الحلبى يراقب الفرص حتى علم بنزول كلابير الى بستانه على عادته فى كل يوم فتمكن من الدخول الى البستان من غير أن يشعر به أحد من الحراس فوجد كلابير يتمشى ومعه المسيو بروتين كبير مهندسى الجيش فسار الحلبى نحوهما فوقف كلابير وأشار اليه بيده أن ارجع فلم يرجع فقال له بالعربية مافيش وكررها فلم يرجع وأوهم أن له حاجة عند الجنرال فلما اقترب منه مد يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فمد اليه الجنرال يده فقبض عليها وضربه بخنجره

أربع ضربات متوالية فخرق بطنه وظهرت أمعاؤه وسقط الى الارض صارخا فصاح كبير المهندسين على الحرس فأسرع الحلبي نحوه وعاجله بضربة فضربه كبير المهندسين عدة ضربات بعصا كانت فى يده فهرب الحلبي واختفى فى مكان خرب بقرب سقاية هنالك فسمع الحراس الصياح فدخلوا مسرعين فوجدوا الأمير كلابير مطروحا وبه بعض الرمق وكبير المهندسين ملقى بجانبه ولم يجدوا للقاتل أثرا فاضطربوا وهاجوا وماجوا ونفخوا فى البوق فاجتمع كثير منهم بين فرسان وركبان وذهب فريق الى القلاع وصوبوا أفواه المدافع نحو المدينة يريدون تدميرها وهلاك جميع من فيها وبحث الفرنسيس عن القاتل فوجدوه منزويا فى ناحية من البستان المجاور لبيت كلابير وقيل بل إن جارية سوداء كانت تنظر الى ما وقع من شباك بمنزل سيدها المطل على بستان بيت كلابير وقد رأت القاتل عند ما اختفى فى ذلك المكان فصاحت على الجند الذين كانوا يفتشون عليه ودلتهم على مكانه فقبضوا عليه وأمسكوا معه خنجره ملوثا بالدم ووجدوا بجانب جثة كلابير قطعة قماش مصبوغة باللون الاخضر هى من لباس القاتل قيل ولو لم تدل تلك السوداء على مكان القاتل لتهدمت المدينة باسرها وقتل جميع من فيها بحد السيف ولما قبضوا عليه سألوه فى الحال عن اسمه وعمره وصنعته وبلده ومحل اقامته فاتضح انه حلبي واسمه سليمان ومهنته كاتب وقد جاء الى مصر يريد الاستخدام بطرف أحد التجار وهو يأوى بالجامع الازهر وأنكر قتل الامير كلابير ودخوله الى البستان فشددوا عليه وضربوه فاعترف بارتكابه جناية القتل وبأن الذى ساقه الى ذلك أغاة الانكشارية حيث أطمعه فى العطايا الجزيلة والمناصب العالية إن هو فعل ذلك فاستحضروا كبار المشايخ وأخبروهم بخبر هذا الحادث وعوقوهم عندهم الى نصف الليل وألزموهم باحضار الاربعة مشايخ الذين يعلمون بعزم القاتل على فعل القتل فأحضروا ثلاثة وغاب عنهم رابعهم ونقلوا جثة الامير كلابير فكان بها أربعة جروح أهمها فى الجنب الايمن وكانت جثة المسيو بروتاين كبير المهندسين مطعونة ست طعنات أهمها بين ضلوع الجنب الايسر ثم عقدوا مجلسا لمحاكمة القاتل بعد تحقيق وتدقيق أضربنا عن ايرادهما صفحا فحكم عليه بقطع يده اليمنى ثم رفعه على خزوق بالتل المعروف بتل العقارب ويبقى كذلك حتى تأكل الطيور لحمه وأن ينفذ عليه هذا الحكم بعد دفن جثة كلابير بحيث يراه جميع من يمشى فى جنازة كلابير وحكم كذلك بقتل السيد عبد القادر الغزى وأخذ جميع ما يمتلكه لخزينة الجيش ورفع رأسه على بيته كى يرى للناظرين وبجانبه ورقة الحكم وحكموا على محمد الغزى وعبد الله الغزى وأحمد الوالى بقطع رؤسهم ورفعها على خشب وحرق جثثهم بالنار على تل العقارب بمرأى من سليمان الحلبي ۞ ولما فرغوا من تحقيق مقتل الجنرال كلابير والحكم على قاتله وشركائه أخذوا يشتغلون بأمر دفن كلابير وكان ذلك بعد موته بثلاثة أيام وأقاموا بدله الجنرال جاك منو ونادوا ليلة الاربعاء خامس عشرى المحرم بتنظيف الطرق والشوارع وأصبحوا فاجتمع عسكرهم وأكابرهم وخرجوا بجنازة كلابير ركبانا ومشاة وقد وضعوا جثته فى تابوت

من رصاص ووضعوا التابوت على عربة يجرها أربعة أفراس وعلى التابوت قبعة الامير وسيفه والخنجر الذى قتل به وهو ملوث بدمه ورفعوا على العربة أربعة أعلام والموسيقى تصدح بأصوات الحزن والبنادق منكسة الى أسفل فلما خرج النعش من بيته أطلقوا له عدة مدافع وبنادق وساروا من بيت الازبكية على باب الخرق الى درب الجاميز الى جهة النصرية فلما وصلوا الى تل العقارب حيث القلعة التى أنشؤها هنالك أطلقوا عدة مدافع وكانوا قد أحضروا سليمان الحلبي وشركاءه فى الجناية وأوقفوهم عند القلعة تحرسهم الجند ليشاهدوا مشهد قتيلهم ثم ساروا بالجثة الى أن وصلوا باب قصر العينى فحملوا التابوت ووضعوه على ربوة صغيرة داخل تقفيصة كانوا أعدوها لذلك وعليها كساء أبيض ووقف عند بابها نفر من الجند بالبنادق ملازمين ليلا ونهارا ثم عاد الجمع فأوقف عند قلعة تل العقارب ونفذ الحكم على سليمان الحلبي وأصحابه على الوجه المتقدم فكان النظر مريعا فظيعا للغاية وعند مادنا الجلاد من سليمان ليقد يده اضطرب للغاية وجعل يلتفت يمنة ويسرة كأنه يطلب النجاة فلما رفعوه على الخشبة صاح واستغاث وجعل يكرر كلمات لامعنى لها ثم انصرف الناس وبقى جماعة من الجند حول الخازوق ولما كان ثانى يوم سار القائمقام والأغا الى الجامع الازهر وفتشوا جهاته وأروقته وزواياه بحضرة المشايخ ثم خرجا عن معهما من الجند ثم عاد الجنرال ومعه القائمقام والأغا بعد أيام وطافوا به ودققوا فى تفتيشه وأمر الجنرال فنبشوا أرضه لاستخراج ماهو مدفون فيها من الاسلحة والودائع فأخذ المجاورون عند ذلك فى نقل أمتعتهم منه وكتبهم واخلاء الاروقة وأحصى الاغا المجاورين وكتب أسماءهم ورسم بأن لايبيت عندهم غريب ولا يؤوا اليهم أحدا مطلقا وأخرجوا منه المجاورين من طوائف الترك فتقدم الشيخ الشرقاوى ومن معه الى الجنرال حالك فى قفل أبواب الجامع منعا للريبة ودفعا للظنون فأذن بذلك فقفلت ثم جمعوا أرباب الوجاقات وألزموهم بجمع ماعندهم من الاسلحة فجمعوها فكانت شيأ كثيرا جدا وجعلوا من هذا الحين يؤاخذون العامة بأقل سبب ويضيقون ويهددون ويبالغون فى النكاية تشفيا وانتقاما فأخذ بعض الناس يهاجرون الى القرى والارياف ومالوا الى الجلاء عن المدينة تخلصا مما يخشون فأمر عند ذلك الجنرال منو فطاف الاغا ينادى بعدم جلاء الناس ورجوع جميع من سافروا بعد خمسة عشر يوما والا نهبت بيوتهم من غير معاودة فرجعوا على أعقابهم صاغرين فضربوا عليهم غرامة أخرى قدرها أربعة آلاف ألف (لعلها فرنكات) فقرروا منها على العقار والدور مائتى ألف فرانسة على الملتزمين مائة وستين ألفا وعلى التجار مائتى ألف وعلى أرباب الحرف المستورين ستين ألفا وقسموا المدينة الى ثمانية أخطاط وجعلوا على كل خطة منها خمسة وعشرين ألف ريال ووكلوا مشايخ الحارات بقبض ذلك مع الامير الساكن فى تلك الخطة فضاق خناق الناس واشتد بهم الكرب وعجزوا عن السداد فتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة واحتجب الجنرال منو عن الناس وامتنع عن الاجتماع بالمسلمين وكذلك عظماء القواد واستوحشوا وزادوا فى تحصين القلاع

وجددوا منها عدة كثيرة و بنوا بها المخازن والمساكن وصهاريج الماء فى جميع انحاء القطر حتى فى الصعيد وهدموا كثيرا من اخطاط الحسينية وخارج باب النصر وباب الفتوح من الحارات والدور وغيرها وزادوا فى التنكيل بالأهالى وفى تذليلهم جزاء ما فعلوه

وبينماهم على هذا الحال من التحذر والتعجب اذ قدم على أبى قير والاسكندرية عمارة عظيمة من السفن الانجليزية وجعلت تغدو وتروح أياما وكان بها أيضا جماعة من العساكر العثمانية فلما علم الفرنسيس بخبرها خرج فريق منهم يريد البحيرة والناس لاتعلم ما هنالك واستحضر الوالى والمحتسب مشايخ الحارات والاخطاط وشددا فى التنبيه عليهم بمراقبة السوقة وملاحظة أحوال العامة والتأكيد عليهم بالخلود الى السكينة وعدم التظاهر بمظاهر الدين الموجبة لتوغير الصدور وظهور كامن الضغائن وبالغا فى النصيحة للغاية وأعلماهم بأنهم هم المؤاخذون بذنوب العامة المسؤلون عنها * وبينما كانت العمارة الانجليزية تغدو وتروح فى عرض البحر بين أبى قير والاسكندرية وتمنع الوارد عنهما كانت العساكر العثمانية تنحدر من الشام قاصدة ديار مصر ومعهم يوسف باشا صدر الدولة وما زالوا يجدون السير حتى نزلوا على العريش وعسكروا بها أياما فسار للقائهم طائفة من الفرنسيس ومعهم آلات الحرب الكثيرة ونزلوا بالصالحية وأقاموا بها أياما وخرج كذلك الجنرال منو فى نفر من أركان حربه وطائفة من الجند الى البحيرة فلم يستقربها حتى جاءه الخبر بنزول طائفة عظيمة من عسكر سفن الحرب الانجليزية الى أرض أبى قير وقد كان لايظن ذلك فسار بمن معه من الجنود من البحيرة الى انبابه وساروا منها الى مدينة الاسكندرية مسرعين ولحقت بهم طائفة أخرى ممن هم بالقاهرة ومصر وبرح الخفاء وصارت الحرب أدنى من قاب قوسين وتحقق زحف بعض مقدمات الجيوش السلطانية الى مقربة من العريش ووردت الاخبار بذلك الى الجنرال فوريه نائب الغيبة فجمع اليه المشايخ وأرباب الديوان وأعلمهم بخبر وصول السفن الانجليزية الى أبى قير والاسكندرية وزحف يوسف باشا الصدر الاعظم بعساكره الى العريش ووجوب أخذ بعض المشايخ رهينة ما دامت الحرب قائمة بينهم وبين العدو فلم يروا بدا من قبول ذلك بالطاعة و وقع الاختيار على أخذ الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى والشيخ الصاوى والشيخ الفيومى فأصعدوهم الى قلعة الجبل فى الساعة الرابعة من الليل وأنزلوهم بجامع سارية ونقلوا اليهم أيضا الشيخ السادات وأمروا من بقى من أرباب الديوان وهم أربعة مشايخ بأن يلازموا شيخ البلد ويداوموا على حض الرعية بالخلود الى السكون وملازمة الطاعة واستحضروا كثيرا من الاعيان وأصحاب المناصب القديمة على عهد المماليك وأصعدوهم الى قلعة الجبل رهائن وأكثروا من نقل الذخيرة والامتعة والصناديق والفرش والاسلحة الى قلعة الجبل ليلا ونهارا ۞ وكان الجنرال منو لما تولى الرياسة لم يحسن التدبير ولم يفلح فى سياسته لعدم خبرته بالتدابير العسكرية وتجرده عن الهيبة الشخصية فأبغضه كبار الفرنسيس وقواد الجنود ومقتوه وكان منو قد أسلم ودعا نفسه عبد الله منو وتزوج احدى

بنات المسلمين وولدت له ولدا فسماه سليمان وسكن بخطة سيدنا الحسين وجعل يخالط العامة والسوقة بتلك الخطة ليستميلهم الى محبته وكان ديوان القاهرة الى ذلك الحين مؤلفا من المسلمين والنصارى كما رتبه بونابارته وكلابير من بعده فأخرج منهم النصارى وسلم الاحكام لمن بقى من المسلمين ومال الى جانبهم وبالغ فى استرضائهم وأخذ جباية الاموال من يد الاقباط وسلمها الى المسلمين وقد كانت بيد القبط من عهد عمرو بن العاص الى ذلك الحين ثم خلط وخبط وقلب نظام الهيئة الحاكمة وأفسد منها ما أصلحه الامير كلابير وعمل غير ذلك أيضا قال بعض أصحاب التاريخ وقد كان اسلام منو هذا خدعة من مكايد الفرنسيس وتغريرهم بالمسلمين * قلت وقد اطلعت على صورة عقد زواج منو المذكور بمجلة الموسوعات منقولة بالنور الشمسى من سجل محكمة رشيد الشرعية فآثرت نقله هنا تتميما للفائدة التاريخية وهى ﴿ بحضر كل من مولانا العلامة السيد أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الاشراف حالا والامير محمد بدوى جوربجى سردار مستحفظان وأحمد أبو جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج محمود اللومى المغربى وابراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بربيره والحاج بدوى الشناوى واوذن اسمعيل السلانكلى وعلى جاويش كتخدا البيك دام كمالهم

بعد أن أقر واعترف مينو باشا صارى عسكر القطر المصرى حالا بصريح لفظه وفصيح نطقه بكلمتى الشهادتين وهما * أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله عارفا معتقدا معناهما ومصدقا لمضمونهما تاركا لدين النصرانية والاديان الرديئة على الترتيب والولاء واعادة التشهد واستيفاء الشروط المعتبرة فيهما شرعا طائعا مختارا من غير اكراه ولا اجبار بمقتضى ذلك صار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وظهر منه الرغبة والحب للمسلمين والميل اليهم وسمى نفسه عبدالله باشا وأشهد على نفسه الجماعة المذكورين بجميع ذلك اشهادا شرعيا ثم بعد ذلك رغب عبدالله باشا المذكور فى تزوجه بامرأة مسلمة فخطبها خطبة شرعية وأجيب لذلك بعد ابرازه افتيا شرعية لفظ سؤالها

ماقولكم دام فضلكم فى رجل أحب الاسلام وأهله ورغب فيهما تاركا لدين النصرانية ناطقا بكلمتى الشهادتين مصدقا على الوجه الاكمل ثم أراد أن يتزوج امرأة مسلمة على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم فهل يجوز له حينئذ التزوج بها والعقد عليها بشروطه الشرعية أفيدوا الجواب * وبأدناه * الحمد لله حيث كان الحال ماشرح فى السؤال فيجوز للرجل المسلم المذكور خطبة المرأة المسلمة والعقد عليها بشروطه الشرعية والله أعلم *

كتبه الفقير أحمد الخضرى الشافعى لطف الله به

وبأدناه * الحمد لله حيث أقر الرجل المذكور بالشهادتين بشروطهما الشرعية فيجوز له أن يعقد على المرأة المسلمة عقدا شرعيا مستوفيا لشرائطه الشرعية والله أعلم ﴿

كتبه الفقير محمد صديق الحنبلى عفى عنه

وبأدناه ۞ الحمد لله حيث رغب الرجل المذكور فى الاسلام ونطق بكلمتى التوحيد جاز له أن يتزوج المرأة المسلمة وأن يعقد عليها العقد الشرعى بشروطه الشرعية والله أعلم ۞

كتبه الفقير محمد غرا المالكى غفر له الله وعفا عنه

فبمحضر كل ممن ذكروا أعلاه تزوج عبد الله باشا المذكور بمخطوبته زبيدة المرأة بنت محمد البواب التى كانت زوجا لسليم أغا نعمة الله وطلقها وانقضت عدتها منه شرعا على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصداق جملته ألفا ريال اثنان معاملة ومائة دينار ذهبا محبوبا فالحالّ لها من ذلك المائة دينار المذكورة أقبضها لوكيلها الحاج حسين ابن السيد محمد الموقت فقبض منه ذلك عددا بالمجلس بمعاينة من ذكر أعلاه وعليه الخروج من عهدة ذلك لها شرعا والباقى الالفا ريال الاثنان يحلان لها عليه بموت أو فراق زوجها له ذلك * وعقد نكاحها عليه وكيلها الحاج حسين الموقت المرقوم باذنها له فى ذلك بشهادة كل من أخيها لأمها السيد على الحامى ابن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد ابراهيم المكلف كل منهما ابنى السيد سليمان النقرزان تزوجا شرعيا قبله للزوج المرقوم وكيله الحاج أحمد شهاب حسبما وكله صريحا بالمجلس بشهادة شهوده المذكورين وعلى عبدالله باشا الزوج المذكور القيام لزوجته المذكورة فى كل سنة تمضى من تاريخه أدناه بعمل كسوة أقمشة شتاء وصيفا لائقين بحالهما وثبت ذلك لدى مولانا أفندى بعد ان ثبت لديه معرفة زبيدة المذكورة المعرفة الشرعية التى لاجهالة معها شرعا بشهادة كل من شهود توكيلها المذكورين ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه حكما شرعيا فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف انتهى بنصه

وبعد أن تم عقد الزوجية بين الجنرال منو المذكور وزبيدة بنت محمد البواب على الوجه المتقدم حصل التعاقد بينهما أيضا على شروط وعهود يعيشان على مقتضاها معا وقد تسجلت بالطريقة الشرعية بسجل محكمة رشيد بعد تسجيل عقد الزوجية ونصه ۞ بحضرة كل من مولانا الشيخ أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الاشراف والامير محمد بدوى چوربجى سردار مستحفظان وأحمد أبو جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج محمد اللومى المغربى وابراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بربيره والحاج محمد الشناوى وأوزن اسمعيل السلانكلى وعلى جاويش كتخدا البيك ولوى چوسف ويكتور جوليان صارى عسكر حاكم ولاية الثغر ولوى چوست دروى رئيس طائفة عسكرية وكتخدا صارى عسكر الآتى ذكره فيه وجان فرنسواه لوى لويكه مهندس وميقاتى الجيش الفرنساوى ولويزى وانولى باش حكيم الفورنتينه دام كمالهم * صار التوافق والتراضى بين الحاج حسين ابن السيد محمد الميقاتى الوكيل الشرعى عن زبيدة المرأة بنت السيد محمد البواب الثابت معرفته وتوكيله عنها فيما

يذكر فيه بشهادة كل من اخيها لامها السيد على الحامى ابن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد ابراهيم ابنى السيد سليمان النقرزان الثبوت الشرعى وبين الحاج أحمد شهاب الحاضر معه بالمجلس القائم فى ذلك بوكالته الشرعية عن عبد الله باشا منو صارى عسكر القطر المصرى حالا الثابتة صريحا بالمجلس وبتصديقه على ذلك التصديق الشرعى وهو زوج زبيدة الموكلة بموجب كتاب الزوجية المسطر بمحكمة الثغر المؤرخ بخامس عشرى شهر تاريخه أدناه على شروط تكون وتوجد بين عبد الله باشا منو وبين زوجته زبيدة باقرار الوكيلين المذكورين

الشرط الاول ۞ ان زبيدة الزوجة أقامت وأذنت زوجها المذكور وكيلا عنها فى سائر ماتملكه يدها الآن وفيما يوجد لها من المال يتصرف لها فى ذلك بحسن نظره السديد

الثانى ۞ أن عبد الله باشا منو الزوج المذكور أقر بأن كامل ماهو تحت يدها من متاع ومصاغ وحلى فهو ملك لها بمفردها

الثالث ۞ عبد الله باشا منو الزوج المرقوم أعطى لوكيله الحاج أحمد شهاب المذكور مائة محبوب كل واحد منها بمائة وثمانين نصفا فضة فى نظير صداق زوجته المذكورة وان الحاج أحمد شهاب سلم بجميع ذلك ليد وكيلها الحاج حسين المذكور فسلم له ذلك عددا بالمجلس وذلك على حسب عادة عقودات المسلمين

الرابع ۞ ان الزوج المذكور شرط على نفسه انه ان حصل بينه و بين زوجته فراق يدفع لها ألفى ريال اثنين معاملة فى نظير فراقه لها وكل ما كان تحت يدها وقت ذلك يكون جميعه ملكا لها حسب عادة دفع مؤخر صداق المسلمين

الخامس ۞ ان زبيدة الزوجة المذكورة ان كانت تطلب طلاقها من زوجها المذكور بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الالفين ريال المذكورة ولا نصف فضه ما عدا ما تحت يدها من مصاغ وغيره فهو لها

السادس ۞ زبيدة لم تزل وارثة فى كل ما كانت ترثه شرعا

السابع ۞ ان زبيدة أقرت بنفسها انه اذا مات زوجها المذكور وهى فى عصمته تأخذ من ماله الالفين ريال المذكورة وليس لها موارثة ولا طلب فى تركته وذلك فى نظير ارثها الشرعى حسب رضاها بذلك

الثامن ۞ أنه ان مات الزوج المذكور وخلف أولادا من زوجته المذكورة وهم قصر يقام عليهم رجلان ناظران ووصيان واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان فى أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين

التاسع ۞ ان الزوجة المذكورة ان ماتت وخلفت أولادا من زوجها المذكور فى حياته يكون أبوهم هو الوكيل الشرعى على أولاده وعلى مالهم

العاشر

العاشر ۞ الناظر الوصى الفرنساوى المذكور فى الشرط الثامن يقام من طرف حكام الفرنساوية الموجودين فى بر مصر وقت ذاك والناظر الوصى الثانى يقام بحسب عادة المسلمين وان حصل تداع بسبب اختلاف تقام الدعوى على يد الحاكم الشرعى ان كان ببر مصر أو ببر الفرنساوية

الحادى عشر ۞ عبد الله باشا منو وزوجته ان ماتا جميعا وخلفا أولادا تكون أولادهما تحت حماية جمهور الفرنساوية والزوجين المذكورين يقصد أفضل الحكام الخمسة التى ببلاد فرنسا يكونوا نظراء على أولادهما وان الزوج والزوجة أقرا واعترفا برضاهما على هذه الشروط المذكورة على يد وكيلهما الاقرار والاعتراف الشرعيين الصادرين منهما بالمجلس بحضرة من ذكر أعلاه وأنهما التزما بهذه الشروط يفعلانها وقت الاحتياج اليها من غير اكراه ولا اجبار التزاما مرضيا وثبت ذلك لدى مولانا أفندى ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه فى سابع عشرى رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف * انتهى بنصه

وبقيت زبيدة فى عصمة الجنرال منو ولم تفارق رشيد مسقط رأسها وسكنها حتى أخذت رشيد من الفرنسيس وانجلوا عنها فسارت منها بالبحر فى المحرم افتتاح سنة ست عشرة ومائتين وألف مع أخيها السيد على الرشيدى أحد أعضاء الديون بثغر رشيد الى الرحمانية ولبثت امامها أياما حتى نزل على الرحمانية القادمون من العساكر السلطانية والعساكر الانجليزية واحتلوا قلعتها فسار السيد على باخته زبيدة الى مصر ونزل بها ببيت الألفى بالازبكية أياما قلائل ثم صعد بها الى قلعة الجبل فأقامت بها وورد كتاب الجنرال منو على أعضاء الديوان بالقاهرة يوصيهم خيرا بها وبولده منها سليمان مراد ۞ قال القائمقام توماس واسن الانجليزى فى كتابه المسمى البعثة الانجليزية بمصر ماتعريبه * ولما كان سابع عشر يونيه سنة احدى وثمانمائة وألف ميلادية سلم الفرنسيس قلعة القاهرة بعد ان وقعوا على شروط الجلاء عن ديار مصر وخرج من بقى منهم وخرجت امرأة الجنرال منو تريد اللحاق بزوجها فعارض جماعة الترك فى ذلك وشددوا فى منعها وبالغوا فى التشديد فقام فى وجههم القائد بيارد وقال لابد من ذهابها وانا الكفيل بها والضامن لراحتها فخرجت مع من خرجوا اهـ وكان تزوج الفرنسيس على اختلاف درجاتهم بالمسلمات قد فشا وعم سائر المدن والقرى وكان حكام الاخطاط من الفرنسيس يلبسون نساءهم من المسلمات الازياء الفرنجية ويمشون معهن فى الاخطاط للنظر فى أمور الرعية والاحكام فكن يأمرن وينهين كأنهن الحكام وكانت تمشى المرأة منهن بنفسها أو معها بعض اترابها واضيافها على مثل زيها وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس كما يفعلون عند مرور كبار الحكام بالطرق والشوارع وكن كثيرا مايأمرن أيضا وينهين فى الاحكام وكادت هذه المحنة تعم سائر البلاد لولا جلاء الفرنسيس عنها بقدوم العساكر السلطانية والعساكر الانجليزية ۞ وبينما كان الفرنسيس يعدون المعدات ويسيرون العساكر الى أبى قير والاسكندرية ودمنهور

والرحمانية وغيرها لمنع تقدم الانجليز ظهر الطاعون بالقاهرة ومصر واشتد شدة عظيمة فكثر الموات وتزايد يوما عن يوم وصار ينتقل من بلد الى آخر حتى بلغ الصعيد الاعلى وفتك باهله فتكا عظيما ومات به مراد بيك الكبير رابع الحجة سنة خمس عشرة ومائتين وألف وجاء الخبر بذلك الى القاهرة فأقام الفرنسيس بدله عثمان بيك الجوخدار المعروف بالطنبرجي وأقروه على إمرة الصعيد الاعلى ومات كثير ممن كان بقلعة الجبل من الامراء والاعيان الرهائن وكان مع اشتداد الطاعون وكثرة الموات لم ينكف الفرنسيس عن تعبئة الجنود وارسال المعدات وبذل الجهد فى منع جيوش الانجليز من التمكن من الاسكندرية وكان السير رلف أمبركرومبى أمير العمارة الانجليزية قد تمكن من انزال جنوده خارج الاسكندرية وعملوا بعض المتاريس فكانت غاية فى المنعة والتحصين والتقت العساكر الفرنساوية بالعساكر الانجليزية وانتشبت الحرب بين الفريقين واقتتلا قتالا عنيفا اليوم بطوله فلم يظهر أحد منهما على الآخر ومع ضعف رأى الجنرال منو وقلة تدبيره وجهله بفنون الحرب وترتيب الصفوف فقد كانت خسائر الفرنسيس فى ذلك اليوم خمسمائة رجل وخسائر الانجليز مائة وألفا ورجع الفرنسيس الى الاسكندرية وأرسل الجنرال منو الى بونابارته يطلب المدد وكان قد وصل حسين باشا بجيوشه فأنزلهم بأبى قير فضعفت نفوس الفرنسيس وكادت تفتر عزائمهم ولكنهم تابعوا إرسال النجدات الى الاسكندرية وأبى قير وصار يخرج فى كل يوم طائفة من كبارهم وقوادهم الى الاسكندرية وخرج معهم المعلم ابراهيم الجوهرى وآخرون من عظماء القبط وكأنهم رهينة وزادوا فى تحصين مصر والقاهرة وعملوا خندقا عظيما بباب البرقية وأصبحوا بين عدوين ألدين وخصمين عنيدين جنود الاعداء المتحالفين والطاعون الذابح لرجالهم بغير سكين ولكنهم ثابروا على القتال بقلوب مائتة وعادوا لقتال الانجليز والانجليز من خلف المتاريس وأشار ضباط الفرنسيس على الجنرال منو بمهاجمة الانجليز من ناحية حصنهم الايمن اذ كان هو أقوى حصونهم وأمنعها فتردد فى الأمر ولم يقدم عليه الا فى ليل ذلك اليوم فلم يفلح ورجع بغير طائل فلما أصبحوا أعادوا الكرة على المتاريس وهجموا عليها ميمنة وميسرة وقيل بل هجموا عليها فجر اليوم الثانى وكانوا يودون أخذ الانجليز على حين غفلة ولكن الانجليز كانوا على أهبة واستعداد فانتشبت الحرب بين الفريقين وتتابعت أصوات المدافع وتراسل الرمى بالقنابل وزلزلوا وزاد الجو ظلاما على ظلامه ثم تقهقر الفرنسيس مجانبة فأدرك السير رلف أمبركرومبى أمير السفن الانجليزية قصدهم من ذلك وخاف العاقبة فعزز ميمنة معسكره فعاد القتال بين الفريقين واشتد وحمى الوطيس وزلزلت الارض من أصوات المدافع وتساقط القنابل وجرح السير أمبركرومبى بجراحة عظيمة ألقته على الارض ومازالت الحرب على ساقها الى ثانى يوم قبيل الظهر علا صوت بوق الفرنسيس بالكف عن القتال فعاد الفرنسيس الى معسكرهم وقد قتل منهم فى هذه الواقعة زهاء الالفين وأقام الانجليز وراء المتاريس وقد مات منهم زهاء المائتين وأربعين وجرح نحو

الف

ألف ومائتين وخمسين ومات السير رلف أمبر كرومبي بجراحته بعد أيام قليلة فأقاموا الجنرال هتشنسون أميرا على سفن العمارة الانجليزية وتقدّم حسين باشا قبطان بمن معه من الجيوش السلطانية فأخذ منهم الجنرال هتشنسون أربعة آلاف مقاتل وضم اليهم فرقتين من الجنود الانجليزية وثمانية من المدافع وسيرهم مع الكولونيل سبنسر لاخذ مدينة رشيد وكان برشيد حامية قليلة من الفرنسيس فأرسل الجنرال منو يستطلع عدد هؤلاء الجنود فأعلم بانها أقل عددا مما هي فاستخف منو بها ولم ينجد حامية رشيد فسار اليها الكولونيل سبنسر ودخلها بغير قتال ثم حول مدافعه على حصن هناك يسمى حصن جوليان وفيه نفر من الفرنسيس فضيق الانجليز عليهم وشددوا حتى استسلموا فأمنوهم وأخرجوهم من الحصن ولما جاءت الاخبار بذلك الى من كان بالرحمانية من الفرنسيس أرسلوا يطلبون المدد من الجنرال بيار قائد حامية القاهرة فاعتذر فكاتبوا فى ذلك منو فأمدهم بنفر قليل وملك الانجليز والعثمانيون مدينة رشيد ودمياط والمنصورة وما جاورها من القرى والبلدان فقويت عند ذلك عزائمهم وتابعوا القتال ووالوا الزحف ومنعوا من وصول مراكب الفرنسيس الى الشطوط المصرية وأطلقوا مياه البحر الملح على الاراضى المجاورة للاسكندرية فأغرقتها وصارت لجة عظيمة الى يومنا هذا ومانعا من خروج عساكر الفرنسيس من الاسكندرية فلم يبق لهم من سبيل الامن ناحية العجمى الى البرية وقد وقف لهم فيه الانجليز ثم رجعوا الى الرحمانية فملكوها وأجلوا من كان بقلاعها من الفرنسيس وأخذوها وأخذوا جميع الحصون القريبة منها بجهة العطف وغيرها وذلك فى الخامس والعشرين من الحجة سنة ست عشرة

وبينما كان الانجليز يقاتلون عساكر الجنرال منو وغيرهم من بقية العساكر الفرنسوية كان يوسف باشا الصدر الأعظم ينتقل بجيوشه على طريق الفرنسيس من قرية الى أخرى ومن بلد الى آخر وهو لايدفع الا بالأمر الخفيف حتى احتل الشرقية وتربص بها أياما لجمع الكلف والمغارم فأبق الناس وحضر الكثير منهم فارين الى القاهرة وأخبروا بوصولهم فخرج الجنرال بيار لقتالهم وخرج معه القائمقام فقاتلهم العثمانيون فلم يثبت الفرنسيس أمامهم لقلتهم وكثرة عدد العثمانيين فقد كانوا ثلاثين ألفا وعساكر بيار لاتجاوز الخمسة آلاف ورجع الفرنسيس مسرعين الى القاهرة وكتموا الأمر عن الناس ومنعت العساكر السلطانية دخول المأكولات الى المدينة فعزت الاقوات واجتهد الفرنسيس فى عمل الخنادق والمتاريس خارج المدينة وجهة القرافة وألقوا الاحجار العظيمة والمراكب الكبيرة فى مجرى النيل لتعطيل سفن العدو وكانت أوائل متاريسهم من باب الحديد ممتدة الى قنطرة الليمون الى قصر أفرنج أحمد الى السبتية الى مجرى النيل ووصلت طلائع الجيوش الانجليزية والعثمانية الى بلدة نادر عند رأس ترعة الفرعونية على الجانب الغربى من النيل ووصلت طلائع جيوش حسين قبطان باشا من الجانب الشرقى الى بنها العسل وطحلا بساحل النيل ونزل يوسف باشا صدر الدولة ناحية دجوه وما زال حتى وصل الى شلقان ووصل العساكر الانجليزية أيضا الى الوراريق

وزحفوا حتى جاؤا ناحية انبابه وعسكروا بها وسار العساكر العثمانيـة على الجانب الشرقى من النيل ومراكب الذخيرة والمؤنة بين الفريقين حتى وصلوا الى منية السيرج ❊ ولما كان يوم الاحد الثانى من صفر من السنة أى سنة ست عشرة أطلق الانجليز المخيمون باراضى انبابه مدافعهم تباعا كأنهم يدعون الفرنسيس الى النزال فردت عليهم مدافع الفرنسيس من جميع القـلاع والحصون وخرج فى ثانى يوم بعض الفرسان من الفرنسيس وقاتلوا فريقى الانجليز والعثمـانيين وقد شغلوا ساحلى النيـل شرقا وغربا وبينهـما فى النيل الذخيرة والمؤنة وظلت الفرسان تناوشهم القتال اليوم بطوله ثم انفصلوا بعد حصة من الليل ورجع كل الى مأمنه واستمروا على هذا الحال الى اليوم السادس من صفر فزحفت العساكر العثمانية حتى قربوا من قبـة النصر وكان فى مقـدمتهم ابراهيم بيك الكبير فنزل بزاوية الشيخ دمرداش وأشرف بعض الجنود العثمانية على الجزارين الذين كانوا يومئـذ بالمذبح من حائط المـذبح وكان به ثلاثة من العساكر الفرنساوية فوقع بينهم مضاربة أصيب فيها أحـد الثلاثة الفرنسيس فى ساقه ومات جزار يهودى فلما أحس من بقلعة الظاهر من الفرنسيس بذلك أطلقوا المدافع على معسكر العثمـانيين وكذلك فعل من بقلعة نجم الدين والتل فاضروا بمقدمات العثمـانيين ضررا عظيما وقتلت نيران المدافع منهم خلقا كثيرا وظل اطلاق المدافع متراسلا الى ما بعد عصر ذلك اليوم ثم انكف الفريقان وأصبحوا فاقتتلوا بالبنادق والمدافع اليوم كله ولم يتعد أحد الفريقين موقفه وأغلق الفرنسيس فى ذلك اليوم باب النصر وباب العدوى وشددوا فى التجسس وأكثر العسس من التطواف ليلا والآغا والوالى نهارا فكان الناس من الخوف سكارى وماهم بسكارى وزحف الانكليز أيضا من انبابه الى أن وصلوا ناحية الجيزة ومعهم كثير من الامراء المصريين وانتشروا فى الجهات القبلية من الجـيزة ومنعوا المعادى من العبور الى البر الشرقى وانكف الفريقـان عن القتال أياما تناجوا فيهـا على عقـد شروط الصلح على قاعـدة حافظة لحقوق الفريقين وكان الساعون فى ذلك حسين باشا القبطان وهتشنسون مقدم الجيوش الانجليزية وأفرجوا عمن كان أسـيرا من العثمـانيين بقلعـة الجبل وأرسلوهـم الى معسكر يوسف باشا وأفرجوا عن المشايخ وغيرهم الذين كانوا رهائن بالقلعة وأخذوا فى نقل أمتعتهم وبيع خيولهم وأنزلوا عدة مدافع من قلعة الجبل وقلعة البرقية وسار عثمان بيك البرديسى الى الصعيد ومعه مرسوم من صـدر الدولة خطابا لأهالى الصـعيد بالامان ووجوب ملازمة السكون والخلود الى الطاعـة ونزل يوسف باشا الى شبرا ومعه فريق من العساكر السلطانية فسار تجاههـم من انبابه فـريق من الانجليز ونصـبوا هنالك جسرا وعـبر الفريقان لزيارة بعضهما وتقررت قاعدة الصلح فى ثلاث عشرة مادة حاصل مافيها سرعة الجلاء عن مصر والقاهرة وجميع القلاع والحصون التى بهما فى مدة أقلها خمسون يوما وقيام عساكر الفرنسيس برا بجميع متاعهم وأثقالهم وكراعهم الى رشـيد وعلى مقدم الانجليز النفقة من مؤنة ودواب للحمل ومراكب للنقل وسفن لحمل العساكر بالبحر الابيض وعلوفة الخيول ودواب الحمل التى تؤخذ من القاهرة

بحيث لاتدخل تلك السفن من الموانى الا ما كان منها للفرنسيس واذا أراد أحد المصريين على اختلاف مذاهبهم الخروج مع الجيوش الفرنساوية فلا مانع يمنعه مع المحافظة على ماله وعياله ولا جناح على من خدم الفرنسيس أو أشار على أحد بخدمتهم وان المرضى والجرحى منهم يبقون بمصر تحت العلاج بمعرفة أطباء الفرنسيس المعينين لذلك مع الاعتناء بأمرهم والقيام بجميع احتياجاتهم وان يبعث بكبيرين من كبراء الانجليز والعثمانيين الى مدينة طولون لعرض عقد الصلح وعلى كل من الفرنسيس والعثمانيين تسليم من عنده من الاسرى وابقاء رهائن من أكابر الفريقين حتى يتم الجلاء

ودخل بعض أكابر الانجليز الى القاهرة ومعهم بعض أكابر الفرنسيس لمشاهدة مافيها من الآثار والابنية وكذلك دخل بعض أكابر العثمانيين فزاروا تربة الامام الشافعى والمشهد الحسينى والشيخ عبد الوهاب الشعرانى فكان كبراء الفرنسيس ينتظرونهم على الابواب مع التخشع والأدب وأصبحوا وقد انسحب من الفرنسيس السواد الاعظم ونودى فى الاسواق بأن ستطلق المدافع فى غد من جميع القلاع والحصون إجلالا لخروج جثة الامير كلابير من أرض مصر فأطلقت فى ثانى يوم من جميع الابراج والحصون تباعا وحملوا نعشه من قصر العينى وساروا به فى كبكبة وأبهة عظيمة جدا وأخلوا قلعة الجبل فى ليلة الجمعة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ست عشرة وكذلك بقية القلاع والحصون وأجلوا عنها تماما وذهبوا الى الجيزة والروضة وقصر العينى ولم يبق منهم أحد بالمدينة وبولاق ومصر القديمة والازبكية وتكاثر دخول العساكر السلطانية الى القاهرة ﴿قال صاحب عجائب الآثار ففرح الناس كعادتهم بالقادمين وظنوا فيهم الخير وصاروا يستقبلونهم بالسلام ويباركون لقدومهم والنساء يلقلقن بالسنتهن من الطيقان وفى الاسواق وقام للناس جلبة وصياح وتجمع الصغار والاطفال كعادتهم ورفعوا أصواتهم بقولهم نصر الله السلطان ونحو ذلك وهؤلاء الداخلون دخلوا من نقب الغريب المنقوب فى السور وتسلقوا أيضا من ناحية العطوف والقرافة وأما باب النصر والعدوى فهما على حالهما مغلقان لم يأذنوا بفتحهما خوفا من تزاحم العسكر ودخولهم المدينة دفعة واحدة فيقع منهم القتل والضرر بالناس وباب الفتوح مسدود بالبناء فلما أضحى النهار حضر فى قول وفتح باب النصر والعدوى وأجلس بهما جماعة من الانكشارية فدخل كثير من العساكر مشاة وركبانا أجناسا مختلفة ودخلت بلوكات الانكشارية وطافوا بالاسواق ووضعوا نشاناتهم وربكهم على القهاوى والحوانيت والحمامات فامتعض أهل الاسواق من ذلك وكثر الخبز واللحم والسمن والشيرج بالاسواق وتواجدت البضائع وانحطت الاسعار وكثرت الفاكهة مثل العنب والخوخ والبطيخ وتعاطى بيع غالبها الاتراك والارنؤد فكانوا يتلقون من يجلبها من الفلاحين بالبر والبحر ويشترونها منهم بالاسعار الرخيصة ويبيعونها على أهل المدينة وبولاق بأغلى الاثمان ووصلت مراكب من جهة بحرى وفيها

البضائع الرومية والبميش من البندق واللوز والجوز والزبيب والتين والزيتون الرومى قال فلما كان قبل صلاة الجمعة واذابجاويشية وأغوات وعساكر وتلا ذلك حضرة يوسف باشا الصدر فشق من وسط المدينة وتوجه الى المسجد الحسينى فصلى فيه الجمعة وزار المشهد الحسينى ودعاه حضرة الشيخ السادات الى داره المجاورة للمشهد فأجابه فدخل معه وجلس هنيهة ثم ذهب الى الجامع الازهر فتفرج عليه وطاف بمقصورته وأروقته وجلس ساعة لطيفة وأنعم على الكناسين والخدمة بدراهم وكذلك خدمة المشهد الحسينى ثم ركب راجعا الى وطاقه بناحية الحلى بشاطئ النيل وعملوا فى ذلك الوقت شنكا وضربوا مدافع كثيرة من العرضى والقلعة ودخل قلقات الانكشارية وجلسوا برؤس العطف والحارات وكل طائفة عندها بيرق ونادوا بالامان والبيع والشراء وطلب أولئك القلقات من أهل الاخطاط المآكل والمشارب والقهوات وألزموهم بذلك وانحاز الفرنساوية الى قصر العينى والروضة والجيزة الى حد قلعة الناصرية وفم الخليج وعليها بنديراتهم ووقف حرسهم عند حدهم يمنعون من يأوى الى جهتهم من العثمانية فلا يمر العثمانى الا الى الجهة الموصلة الى بولاق وأما اذا كان من أهل البلد فيمر حيث أراد وفى مدة اقامة المشار اليه بساحل الحلى ببولاق خرب عساكره ما قرب منهم من الابنية والسواقى والمتريز الذى صنعه الفرنساوية من حد باب الحديد الى البحر وأخذوا مابذلك من الافلاق الكثيرة المتهندمة والاخشاب المنجرة المرصوصة فوق المتريز وتحته فى الخندق فخربوا ذلك جميعه فى هذه المدة القليلة وذلك لاجل وقود النار والمطابخ اه

وتتابع دخول العساكر العثمانية الى المدينة وانتشروا فى أنحاء مصر والقاهرة واحتل بعضهم القلاع والحصون والطوابى التى كان بها جنود الفرنسيس ورفعوا عليها أعلامهم ماخلا الحصون والقلاع التى انحازت اليها طوائف الفرنسيس وهى من قصر العينى الى جهة النصرية كما تقدم القول وعاث فريق الانكشارية فى المدينة يزاحمون أرباب الحرف والصنائع فى أرزاقهم ووضعوا أسلحتهم على أبواب الحوانيت كافة إشعارا لاصحابها من الحلاقين والخياطين والقهوجية بانهم شركاؤهم فى كسبهم اليومى فامتعض السوقة وأصحاب الحوانيت وشكوا من ذلك فدخل أغاة الانكشارية ومر من وسط المدينة وخلفه بعض الصناجق المصريين وأمر باسلحة الانكشارية فرفعوها عن أبواب الحوانيت كافة الا القهاوى فشكا أصحابها فلم يلتفت اليهم ودخل أيضا فى ذلك اليوم كثير من الجند والعسكر المصرى ومعهم محمد باشا المعروف بأبى مرق وهو المترشح للولاية على مصر من جانب السلطنة وسكن ببيت الهيام بالقرب من مشهد الحنفى * واتفق فى يوم دخوله ان أحد العساكر السلطانية من الارنؤد كان بالجمالية فربه عرقسوسى فشرب منه قدحا ولم يعطه ثمنه فكلم العرقسوسى فى ذلك مقدم قلق الانكشارية المرابطين بالجمالية فأحضر ذلك الجندى وأمره بدفع ثمن

ماشربه فامتنع فنهره وأراد ضربه فأخرج الجندى غدارته وأطلقها على مقدم القلق فقتله وهرب الى حارة الجوانية ودخل الى إحدى الدور وامتنع فيها وصار يطلق غدارته على كل من يقصده فقتل خمسة من الجند واتفق أن مر اثنان من الارنؤد بتلك الخطة فقام عليهما نفر من الانكشارية وقتلوهما انتقاما ولما أعياهم أمر ذلك القاتل وتعذر عليهم ضبطه أحرقوا عليه الدار التى امتنع فيها فخرج هاربا من النار فقبضوا عليه وقتلوه شر قتلة واشتد الخوف باهل تلك الخطة فترك أكثرهم دورهم بما فيها وخرجوا على وجوههم ولم تكد تسكن الخواطر بسكون هذا الحادث حتى وقع آخر على مقربة من الخطة المذكورة فاشتد خوف الناس وتبدل فرحهم بخروج الفرنسيس حزنا وأسفا

مطلب
جلاء الجيوش الفرنساوية عن مصر والقاهرة وسائر الديار المصرية

وخرج طوائف الفرنسيس فى يوم الاربعاء رابع ربيع الاول من السنة أى سنة ست عشرة ومائتين وألف هجرية وأخلوا قصر العينى والروضة والجيزة وانحدروا الى الشمال من الوراريق وارتحل معهم أمير السفن العثمانية وعدد من الانجليز وجماعة كثيرة من الارنؤد وعثمان بيك الاشقر ومراد بيك الصغير وأحمد بيك الكيلارجى وأحمد بيك حسن من الامراء المصريين يريدون الاسكندرية لعرض الصلح أيضا على الجنرال منو قائد الجيوش الفرنساوية فلما وصلوا الى الاسكندرية كلموه فى أمر الصلح وعرضوا عليه شروطه التى وقع الاتفاق عليها فلم يقبل بها وأبى الا القتال فقاتلوه وحاصروا الاسكندرية وشددوا فى حصارها فكان العربان يدخلون الى الفرنسيس بالمؤن وغيرها من طريق مجهول واشتد القتال بين الفريقين وتراسل رمى القنابل وكان الانجليز والعثمانيون يهجمون فى كل يوم فلم ينالوا من الفرنسيس وطال الحرب وسئمت أنفس المقاتلين فخاف الانجليز والعثمانيون سوء العاقبة فصمموا على الهجوم وهجموا على متاريس الفرنسيس هجمة رجل واحد فقتل العدد العديد من جيوش حسين باشا أمير السفن العثمانية وكذلك قتل من الانجليز جماعة كثيرة وانجلت الواقعة عن جلاء الفرنسيس عن بعض متاريس ناحية العجمى فملكها الانجليز وعساكر المسلمين وقتل من الفرنسيس عدد ليس بقليل وكذلك من الامراء والصناجق المصريين وما زالوا على هذا الحال والحرب قائمة والقتال لاينفك حتى جاءت الى الجنرال منو رسل بونابارته بالاذعان الى الصلح والجلاء عن الاسكندرية فأجلوا عنها بشروط غاية فى الفخر وعزة النفس ونزلوا على ظهور السفن التى أتى لهم بها أمير الدوارع الانجليزية وساروا الى أوطانهم فى العشرة الأواخر من جمادى الاولى من السنة أى سنة ست عشرة ومائتين وألف هجرية فكانت مدة لبث الجنرال منو بمدينة الاسكندرية فى الحصار والقتال بعد خروج الفرنسيس جميعا ونزولهم بأبى قير وقيامهم الى أوطانهم شهرين وبضعة أيام ولم يعتبر جماعة الكتاب هذه المدة فى مدة تصرفهم فى البلاد بل عدتها أيام حصر وقتال ليس الا وقالوا ان مدة اقامتهم وتسلطهم لغاية جلائهم وخروجهم من القلاع هى ثلاث سنوات واحد عشر

يوما حيث نزلوا على انبابه والجيزة وغلبوا طوائف المماليك فى يوم السبت تاسع صفر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية وكان انتقالهم وخروجهم من القلاع وجلاؤهم عن المدينة وانخلاعهم عن التصرف والحكم ليلة الجمعة الحادى والعشرين من صفر سنة ست عشر ومائتين وألف هجرية فسبحان من بيده الملك يؤتيه من يشاء من عباده

(فصــــل)

(فى بقية مدة سلطنة السلطان سليم و ما فيها من الحوادث والاخبار)

لما تم جلاء الفرنسيس عن القاهرة ومصر دخل الوزير يوسف باشا الى القاهرة يوم الخميس خامس ربيع الاول فى موكب حافل للغاية وكان دخوله من باب النصر ومر من وسط المدينة وأمامه الجند المختلف من أرنؤد وانكشارية وشامية والامراء المصريين والمغاربة والقليونجية وطاهر باشا أمير العسكر الارنؤد وابراهيم باشا والى حلب ومحمد باشا أبو مرق والى مصر والكتبة ورئيس الكتاب وكتخدا الدولة وغيرهم من الخدم والحشم والاتباع وقاضى القضاة والنواب والعلماء المصريين ومشايخ التكايا والدراويش وامامه الملازمون بالبراقع والجاويشية والسعاة والجوخدارية وخلفه اثنان على يمينه ويساره ينثرون دراهم الفضة على رؤس الناس بالطريق ثم النوبة التركية وبعض المدافع وعربات الذخيرة وكانت الحصون والقلاع جميعها تطلق المدافع تباعا وما زال حتى نزل ببيت رشوان بيك بحارة عابدين* فلما استقر به المقام جعل يتصرف فى الامور ورسم بأن لاتدفع الاموال والعشور للملتزمين الا بمرسوم منه واهتم بترتيب ديوان الاعشار والمكوس و بالغ فى ذلك فانقبض الناس وأخذتهم الطيرة من فعاله ولم يلبث حتى طلب قرضة من التجار قدرها مائة كيس وعشرة أكياس فاعتذروا فلم يقبل فاجتمع أصاغرهم عند بيته وصاحوا واستغاثوا ونادوا ارحمنا يرحمك الله فرسم برفعها عنهم وتكليف أهل الميسرة منهم بها فدفعوها وهم صاغرون وشدد فى تحصيل العشور فبلغ ماتحصل منه فى بضعة أيام ستة عشر ألف كيس ولم يكن بأسرع من ان عمد العسكر على اختلاف أجناسهم الى العسف والجور والاختلاط بالسوقة* قال صاحب عجائب الآثار وكثر اشتغال طائفة العسكر بالبيع والشراء فى أصناف المأكولات وتسلطوا على الناس بطلب الكلف ورتبوا على السوقة وأرباب الحوانيت دراهم يأخذونها منهم فى كل يوم و يأخذون من الخباز الخبز بغير ثمن وكذلك يشربون القهوة من القهاوى و يحتكرون

مايريدون من الاصناف ويبيعونها بأغلى الاثمان ولا يسرى عليهم حكم المحتسب وكذلك تسلطوا على الناس بالايذاء لادنى سبب وتعرضوا للسكان فى منازلهم فيأتى منهم أناس ويدخلون الدار ويأمرون أهلها بالخروج منها ليسكنوها فان لاطفهم الساكن وأعطاهم دراهم ذهبوا عنه وتركوه وان عاند سبوه وضربوه ولو عظيما وان شكا الى كبيرهم قوبل بالتبكيت ويقال له ألا تفسحون لاخوانكم المجاهدين الذين حاربوا عنكم وأنقذوكم من الكفار الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ويأخذون أموالكم ويفجرون بنسائكم وينهبون بيوتكم وهم ضيوفكم أياما قليلة قال فما يسع المسكين الا أن يكلفهم بما قدر عليه وان أسعفته العناية وانصرفوا عنه بأى وجه فيأتى اليه خلافهم وان سكنوا دارا أخربوها قال وأما القلقات والانكشارية الذين تقيدوا بحارات النصارى فانهم كلفوهم أضعاف ما كلفوا به المسلمين فكانوا يطلبون منهم بعد كلف المأكل واللوازم مصروف الجيب وأجرة الحمام وغير ذلك وتسلط عليهم المسلمون بالدعاوى والشكاوى على أيدى أولئك القلقات فكانوا يتخلصون منهم بما لزمهم بادنى شبهة ولا يعطون المدعى الا القليل من ذلك والمدعى يكتفى بما حصل له من التشفى والظفر بعدوه قال واذا تداعى شخص على شخص أو امرأة على زوجها ذهب معهم أتباع القلق الى المحكمة ان كانت الدعوة شرعية فاذا تمت الدعوة وأخذ القاضى محصوله يأخذ مثله أتباع القلق على قدر تحمل الدعوة قال وعاد يوسف باشا فأطلق للملتزمين التصرف فى سنة خمس عشرة ليقضوا مالهم وما عليهم من البواقى ومال الميرى والمضاف ويدفعوا جميع ذلك الى الخزينة باوراق مختومة من ابراهيم بيك وعثمان بيك والقصد من ذلك اطمئنانهم بالجباية والرجاء بالتصرف فى المستقبل ووعدهم بذلك سنة تاريخه بعد دفعهم الحلوان مع ان الفرنساوية لما استقر أمرهم بمصر ونظروا فى الاموال الميرية والخراج وجدوا ولاة الامور يقبضون سنة معجلة ونظروا فى الدفاتر القديمة واطلعوا على العوائد السالفة ورأوا ان ذلك كان يقبض أثلاثا مع المراعاة فى رى الاراضى وعدمه فاختاروا الاصلح فى أسباب العمار وقالوا ليس من الانصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بسنة وأهملوا وتركوا سنة خمس عشرة فلم يطالبوا الملتزمين بالاموال الاميرية ولا الفلاحين بالخراج فتنفس الفلاحون وتراجعت أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المغارم والكلف وحق طرق المعينين ونحو ذلك * انتهى

وأخذ يوسف باشا الصدر الاعظم فى تدبير الامور كما يشاء فقسم الوظائف العالية والرتب السامية على من كان يتوسم فيهم سمة الطاعة والاخلاص وخلع محمد باشا أبو مرق عامل الدولة على مصر وولى مكانه محمد خسرو باشا وهو كتخدا حسين باشا أمير السفن الذى كان حضر لقتال مراد بيك وابراهيم بيك الكبير قبل قدوم الفرنسيس لمصر فكانت ولاية أبى مرق المذكور قصيرة جدا ولم يكن له فيها من الحكم سوى الاسم فقط وجعل يعمل الحيلة

على الفتك بجميع الامراء المصريين وقطع شأفتهم من مصر وعمل ديوانا وجمع اليه جميع أولئك الامراء والصناجق والاعيان على اختلافهم وأوهم أنه انما يريد المفاوضة معهم فى شؤن البلاد ومصالح الرعية فلما تكاملوا أمر فقبضوا فى الحال على ابراهيم بيك الكبير وبقية الامراء والصناجق وأصعدوهم الى قلعة الجبل ووضعوهم بسجن هنالك فانزعج من حضر بالديوان وتفرقوا وهم لايصدقون بالنجاة وسير خلف محمد بيك الالفى بالصعيد طائفة من الجند ليقتلوه وكان قد عاث وعبث بالصعيد وأهلك الحرث والنسل وصادر الاغنياء والفقراء حتى المشايخ والعلماء وأخذ مافى بيت المال والاوقاف وكل ما وصلت اليه يده وسير جماعة آخرين للقبض على سليم أبى دياب وكان مقيما بالمنيل فلما علم بالخبر طلب الفرار وترك متاعه وأثقاله ووصل اليه الجند فلم يجدوه فنهبوا القرية وأخذوا جميع ما كان له فيها وتبعوه فلحقوا به ناحية طرا فقاتلهم وقاتلوه ومات خلق كثير من الفريقين ثم هرب فى نفر قليل جدا الى الصعيد من طريق الجبل وأقام طوائف الارنؤد بالاخطاط وخارج المدينة يقبضون على من يصادفونه من المماليك والاجناد ونودى فى ذلك اليوم على الرعية بالامان وملازمة السكون وأحاط العسكر بالامراء المعتقلين واختفى من بقى منهم فنادوا بالتوعد لمن أخفاهم أو آواهم وكان لم يزل بالجيزة فريق من العساكر الانجليزية مخيم بها فذهب اليهم سليم بيك أبو دياب واستغاث بمقدمهم هتشنسون فأغاثه وأمنه وكلم يوسف باشا فى أمره ۞ وبينما كان يوسف باشا يعمل على ابادة من بقى من المماليك والصناجق الذين بمصر والقاهرة وغيرهما من البلدان كان حسين باشا أمير السفن يدبر الحيلة أيضا للقبض على من كان عنده بأبى قير من أولئك القوم فأحسوا بذلك وأوجسوا منه خيفة فكانوا لايذهبون اليه اذا دعاهم الا وهم حاملون أسلحتهم ومعهم العدد الكثير من المماليك والاتباع تخفرهم فكان يبش عند لقائهم ويظهر لهم الرفق والملاطفة ويستميلهم بزخرف القول الى أن دعاهم يوما الى ظهر سفينته لمأدبة أعدها لهم فذهبوا اليه بسلاحهم ومماليكهم على عادتهم فقابلهم بالترحاب وبالغ فى تعظيمهم فلما تكامل عددهم جاء اليه أحد أتباعه وأخبره بورود ساع من مصر ومعه مكاتيب من الصدر الاعظم فقام ليرى ذلك فما هو الا أن حضر الى المجلس أحد مقدمى عسكر السفينة وأعلمهم بأنه قد ورد مرسوم سلطانى فى تلك الساعة باستدعائهم الى دار السلطنة ثم أمرهم بنزع سلاحهم عنهم فقام فى الحال محمد بيك المنفوخ وسل سيفه وضربه فقتله فما وسع بقية الامراء الا أنهم فعلوا كذلك فقام عليهم من بالسفينة من العسكر واشتبك القتال بين الفريقين فقتل أكثر الامراء المصريين وقبضوا على من بقى منهم وأنزلوهم الى بعض السفن الا من فروا مجروحين وهم فى أسوإ حال وذهبوا الى معسكر الانجليز ملتجئين وكانوا لما أحسوا بعزم حسين باشا على اغتيالهم شكوا ذلك الى مقدم الجيوش الانجليزية ورغبوا اليه أن يذب عنهم ويقوم لنصرتهم فأمنهم

ووعـدهم وطيب خواطرهـم فلما ذهب اليه من نجا منهـم من القتل وأخبروه بما فعـل حسين باشا غضب جـدا وانحاز بعسكره الى مـدينة الاسكندرية وطـردوا من كانوا بها من العثمانيين وأغلقوا أبواب الابراج وأحاط منهـم طائفة كبيرة بالبنادق والمـدافع بمحسن باشا برا وبحرا وطلب الانجليز بروزه بعسكره لحربهـم فلم يرض وقال لم يكن قط بيننا مايدعو الى ذلك فحضر اليـه قائد الانجليز وتكلم معـه طويلا وصمم على أخـذ من بقى من الامراء المعتقلين فأطلقهم فأخذهم قائد الانجليز وأخـذ جثث الاموات منهـم ونقل مرضاهم الى الاسكندرية وبات وأصبح فاخرج الاموات فى مشهد حافل وسارت أمامهم طوائف الانجليز فى ابهة عظيمة وأرسل الى قائد جيوش الجيزة يعلمه بما وقع ويطلب منه إلزام يوسف باشا بتسليم من عنده من الامراء المعتقلين فطالب القائد يوسف باشا بمن عنده من الامراء وألح فى الطلب فطاول وراوغ واستعمل الخداع واستدعاه اليـه وخلع عليه خلعـة سمور عظيمة وشالنج من الجوهر يوضع على مقدمة الرأس ثم حمل المعتقلين كافة على تحرير كتاب الى القائد المذكور يقولون فيه انهـم أتباع السلطان وتحت طاعتـه ان شاء أبقاهم فى اماراتهـم وان شاء قلدهم المناصب العاليـة فى ولايات مملكته السلطانية وان شاء طلبهم يذهبون اليـه ولا دخل للانجليز فيما جرى عليهم من خير أو شر فأرسل القائد الى يوسف باشا يقول لاعـبرة بهـذا الخطاب فان القوم مسجونون محجور عليهـم فى جميع تصرفاتهـم لايعملون الا ماشاء الوزير وأعوانه فأرسلوهـم الينا لنخاطبهم ونعلم مافى خواطرهـم فلما كانت ليلة الاثنـين تاسع رجب أحضر الصـدر ابراهيم بيك ولاطفـه وسايره وكلمه مع بقية الامراء المعتقلين وأعلمـه بأن سيرسله مع من هم معه الى قائد الجيوش الانجليزية بالجيزة فيقضوا يومهم هنالك ويخبروا القائد بأنهم فى راحة وأنهم طائعون لسلطانهم وخاضعون لكلمته وان الخطاب الذى بعثوا به هو عن طيب خاطر منهم ولا اكراه لهم على تحريره فأظهر ابراهيم بيك عـدم الرغبة فى الذهاب وبالغ فى التمنع وقال كيف نتوجه اليهم وهم أعداء لنا ولديننا وكيف نذهب اليهـم على هـذه الصورة فألح عليه الوزير وحالفه وحالف بقية الامراء على سرعة العودة ومناهـم بالامانى الطويلة فلما كان صبح يوم الاثنين نزلوا جميعهم من قلعـة الجبل وعـبروا النيل الى الجيزة فتبعهم مماليكهم وأتباعهم وأخصاؤهـم وأقاموا بالجـيزة ولم يعودوا الى الوزير فلبث الوزير ينتظرهم خمسة أيام وأرسل اليهم يدعوهم الى الرجوع حسب عهدهم فامتنعوا وجاهر ابراهيم بيك بالعداوة ورمى الوزير بسوء النية وخبث الطوية فلما لم يرجعوا أمر الوزير فانعقد الديوان ببيت الشيخ السادات واجتمع فيه جميع المشايخ والوجهاء وأصحاب المناصب العالية وتكلموا فيما جرى من ابراهيم بيك ومخالفتـه للعهد وإصراره على عدم الرجوع وكتبوا له خطابا بذلك وضمنوه النصيحة ووجوب الطاعـة فأجاب هو ومن معه بانهم مطيعون وانهم لم يجنحوا للبقاء عنـد الانجليز الا خوفا مما يحل بهم كما حل باخوانهم بالاسكندرية وهم الآن

فى حى أحب الدول للخليفة الاعظم وأقربهم لمودته ثم لبثوا بالجيزة أياما وخرجوا بعد ذلك الى جزيرة الذهب ونصبوا بها خيامهم أياما أيضا وأخذوا ماقدروا عليه من سلاح وكراع وركبوا ليلا وترفعوا الى الصعيد من جانب النيل الغربى وتخلف عنهم بعضهم فلما علم الصدر بخبر مسيرهم الى الصعيد اغتم غما شديدا وأمر فنودى بالامان على من بقى منهم أو تخلف عنهم ان هم أتوا الى باب الوزير فلم يذهب اليه الا بعض المماليك والاتباع الذين لا كسب لهم ولا عيش وانقطع خبرهم عن الناس فصرفهم*ولما كان يوم السبت ثالث شوال سنة ست عشرة ومائتين وألف خرجت خيام الصدر الاعظم وأمتعته الى قبة النصر وقد جاءه الامر بالرجوع الى دار السلطنة بمن معه من العساكر والاجناد ونادوا بخروج جميع العساكر وجلائهم عن مصر والقاهرة وبقية المدن والقرى والارياف فى مدة ثلاثة أيام آخرها يوم الاثنين فأخذوا فى الجلاء بأحمالهم وأثقالهم ودوابهم وفى يوم الاثنين خامس شوّال المذكور خرج يوسف باشا الى قبة النصر وتتابع خروج الاثقال والعساكر وطوائف الجند فجعلوا عند خروجهم يعربدون ويخطفون أشياء الباعة فى الاسواق وكتب الوزير فى يوم خروجه أوراقا تتضمن كف الناس عن الشر والخلود الى السكينة ورفع قصصهم الى باب محمد باشا عامل السلطان على البلاد وأن يحافظوا على زيهم وقوانينهم القديمة ويلازموا على الصلوات بالجماعة فى المساجد ويوقدون القناديل ليلا على البيوت والمساجد والوكائل والخانات التى بالشوارع ولا يمر أحد من الجند والعسكر بعد الغروب وكذلك الاهالى الا من كان معه فانوس أو سراج ويبيعون ويشترون بلا قيد ولا تقييد وأن لايخفى أحد عنده عسكرا من العثمانيين وأن لايبقى منهم بعد جلاء الوزير أحد بمصر والقاهرة ومن وجد منهم متخلفا بغير مرسوم فى يده عوقب بأشد العقاب وأن تبطل جميع القهاوى المحدثة ولا يبقى منها الا ما كان قديم العهد ولايبيت أحد من العساكر فى قهوة ولا يبيعون المسكرات وغير ذلك من الاوامر والنواهى ثم ركب الصدر من قبة النصر فى يوم السبت عاشر شوال وقد سلم مقاليد الامور الى محمد باشا الوالى وسار الى الخانكاه وسار معه جميع العساكر فوصلوا الى بلبيس وأقاموا بها أياما قلائل ثم ساروا منها الى طريق الشام

واستقر بمحمد باشا منصب الولاية فجعل يتصرف فى الامور وبالغ فى التدبير وضيق وشدد وأرهب وأخذ بالشبهات وأكثر من العيون والارصاد فتزاحم على بابه أهل السعاية وتقرب اليه أهل الوشاية فأكثر من القتل والصلب والتحريق وزاد فى المغارم والمكوس وأحدث الاحداثات والبدع فخافه الناس جدا وانكمش من كان يظنه فى بادئ الامر شيأ هينا وقد تتبع الاعيان وأصحاب المظاهر بالمدن والبلدان فأفنى منهم خلقا وطلب الامراء والمماليك بمصر والقاهرة فاختفوا وتفرقوا فى الجهات وسير طائفة كبيرة من العسكر خلف ابراهيم بيك الكبير ومن معه للقبض عليهم وأكثر من التخفى والتجسس والتطواف بغير زيه لكشف

العورات

العورات وأقام على الاسكندرية حاكما اسمه خورشيد بيك وقيده بأخذ قلاعها وحصونها من جماعة الانجليز النازلين بها فسار اليهم وكلم مقدم الانجليز فى ذلك فجعل يماطل ويكثر من التسويف والتعليل أياما كثيرة حتى جاءهم الامر من كبير السياسة الانجليزية بلندن عاصمة بلادهم بالجلاء عن مصر فعبر مقدمهم وبعض قوادهم من انبابه الى مصر القديمة فتهيأ الباشا لملاقاتهم واصطف الجند عند بيته ووصل الانجليز الى الازبكية فقابلهم الباشا وأحسن لقاءهم وخلع عليهم وقدم لهم خيلا وهدايا نفيسة وأطلقوا عند ذلك مدافع كثيرة فلما كان يوم الاثنين ثامن المحرم افتتاح سنة سبع عشرة اخلى الانجليز القلاع التى بالاسكندرية والحصون وعبر محمد باشا النيل الى انبابه ومعه طاهر باشا مقدم الجند الارنؤد ونحو الخمسين من أتباعه فقابله مقدم الجيوش الانجليزية بأحسن استقبال وقدم له بعض التقادم والهدايا ثم أخذ الانجليز فى الجلاء فعبر فريق منهم الى القاهرة وخيم بجزيرة بدران أياما ثم ساروا منها الى مدينة السويس وسار فريق آخر الى القصير على السفن العظيمة وخلت الجيزة منهم فى يوم الاثنين ثانى عشرى المحرم من السنة فتسلمها منهم نائب أمير السفن العثمانية ونزل بالقصر وأنزلوا بها بعض العساكر والاجناد المصرية وبقى بالاسكندرية طائفة من الانجليز بغير أجل محدود

وجاءت الاخبار بلقاء الجنود السلطانية الذين سيرهم محمد باشا الى الصعيد الاعلى بعساكر ابراهيم بيك الكبير فوقع بين الفريقين قتال شديد للغاية أياما ثم انجلى عن هزيمة العساكر السلطانية وانخذالهم فقتل منهم جماعة كثيرة وتقوى المصريون بهذه النصرة العظيمة واشتدت ظهورهم وكان مقدم المصريين فى هذه الوقعة الالفى وقد لحق بهم جماعة من الفرنسيس ممن تخلفوا بمصر واجتمع اليهم أيضا عدة كبيرة من العساكر العثمانية طمعا فى بذلهم فاشتد الخطب على العثمانيين وأرسلوا يطلبون المدد فاهتم بذلك محمد باشا ورسم بخروج طاهر باشا بعسكره فبرز الى البساتين وعبر النيل وعسكر بالجانب الغربى من النيل وتبعته العساكر والاجناد بالذخيرة وآلات الحرب وكثرت عربدة الامراء المصريين بالصعيد واجتمع اليهم العدد العديد من الهوارة وغوغاء الحرف والعربان وزحفوا حتى وصلوا الى غربى اسيوط وخافهم العساكر العثمانية وداخلهم الرعب منهم وتحصن كل فريق فى مقره ولم تفعل خمرة النصر بابراهيم بيك والالفى وأصحابهما مافعله بجهلاء المحاربين ولم تقعدهما عن استعمال الحيلة فى طلب الصلح فكتبوا الى محمد باشا خطابا يشكون فيه مما أصابهم ويتوجعون مما لحقهم من الضيق وأنهم فى طاعة الله وطاعة السلطان ولم يكونوا ليتوقعوا هذا التبعيد والتشريد والقتل وماهم فيه من سوء المعاملة وقد خاطروا بارواحهم فى خدمة الدولة وقاتلوا مع العثمانيين وأبلوا مع الفرنسيس بلاء حسنا وماهم الا انهم يرغبون فى احدى خصال ثلاث إما أن يعطى لهم بلاد يقيمون بها بعيدين عن كل مظنة وريبة و إما أن ترسل اليهم نساؤهم ويبعث اليهم بعض السفن ليركبوها من القصير الى جدة فيقيمون بها أو يقيمون

بالحجاز وإما ان تعين لهم نقطة يتربصون بها قدر خمسة أشهر حتى يرفعوا أمرهم الى دار السلطنة ويأتيهم الجواب فلما جاء هذا الخطاب الى محمد باشا جمع العلماء والمشايخ وبعض الوجهاء وتشاوروا فى الأمر فاتحدت كلمتهم على أن يكتبوا بتأمين جميع الامراء والصناجق الذين بالصعيد و يأذنوا لهم بالرجوع الى القاهرة ولهم مالاخوانهم وأقرانهم وعليهم ماعليهم ماعدا ابراهيم بيك والألفى والبرديسى وأبى دياب فانهم يبقون تحت الحجر حتى يخابروا فى شأنهم الباب العالى ويأتى الجواب وأرسلوا بذلك الى ابراهيم بيك والالفى فلم يقبلوا بانفصال أصحابهم عنهم وترفعوا الى الصعيد الاعلى وانتظروا ما سيكون ۞ ولبث طاهر باشا مخيما بعسكره فى الجانب الغربى من النيل لايبدى حراكا وطال لبثه وثقل عليه مكثه وداخل جنده الملل وكاد يتولاهم الفشل ومحمد باشا فى شاغل عنهم بمصادرة الناس وأخذ أموال أهل الميسرة وتتبع أصحاب المظاهر باضعف الشبهات فكان الرجل منهم لايمضى عليه بياض يومه الا وهو فى حساب ما سيكون فى سواد ليله ولا فرق بين القبطى والمسلم اذ كانوا عنده كلهم فريسة واحدة وأمر فقبضوا على ثلاثة من عظماء القبط وهم المعلم انطون أبوطقية والمعلم ابراهيم زيدان والمعلم عبدالله بركات معلم الديوان فقتلهم وأرسل الدفتردار فختم على دورهم وأملاكهم ونقلوا مافيها الى بيت الدفتردار ليباع فى المزاد فكان شيأ عظيما للغاية من أوانى الذهب والفضة والاقمشة الهندية النفيسة وغير ذلك مما يجل عن الوصف غير الجوارى والعبيد قيل واستمر سوق المزاد فى ذلك عدة أيام ولما طال الحال على طاهر باشا و جنوده رجع الى القاهرة وسرح بعض الجند واختفى الخبر القائل بتسيير طاهر باشاوجنوده لقتال ابراهيم بيك ومن معه ۞ وبينما كان محمد باشا يسوم أهل مصر والقاهرة الخسف ويذيقهم مر العذاب كان نائبه على الاسكندرية يكثر من الاحداثات والمظالم والمكوس والمغارم ويضرب على أهلها الضرائب الفادحة وكانت عساكره تفسد فى الارض وتهلك الحرث والنسل وتتعرض للناس على ماقيل فى اعراضهم فعظم الخلل واستفحل أمره وشكى الناس حالهم لمقدم الانجليز النازلين بالاسكندرية واستغاثوا به فكلم خورشيد بيك فى أمرهم وقبح مايفعله الجند بالرعية وحذره سوء العاقبة وطاوله أياما فاتفق ان جماعة من أولئك العسكر هموا بالقبض على امرأة فاستغاثت بنفر من الانجليز فى طريقها فمنعوها منهم فتضاربوا وانتصر كل فريق لصاحبه واشتد القتال بينهم فقتل اثنان من الانجليز وهرب العثمانيون فنزل فى الحال مقدم الجيوش الانجليزية و جمع عساكره وزحف بهم الى القلعة وأرسل الى خورشيد بيك بان اخرج من القلعة الى خارج البلد للقتال فامتنع من ذلك فأمره بترك القلعة والتخلى عنها فلا طفه وماطله فأنزله قهرا وأسكنه فى داره فى البلد ومنع العساكر السلطانية من حمل السلاح وشدد فى مراقبتهم والحجر عليهم وتتبعهم أينما ساروا فسكنت خواطر الرعية واطمأنت قلوبهم بعد الخوف ومالوا الى محبة الانجليز وتمنوا لو أنهم يملكون البلاد وأظهروا للعثمانيين عين المقت والقلى وزالت هيبة خورشيد اوكادت

وكان

وكان محمد باشا منذولى الولاية على مصر مولعا بجمع عسكر وترتيبهم على نظام عسكر الفرنسيس فجمع خلقا كثيرا ممن جاء الى مصر من الاكراد يريد الخروج مع الحج وألبسهم ألبسة الجوخ الاحمر الضيقة القصيرة وأزناطا قصيرة من الجوخ الازرق وطراطير من صوف أحمر على أشكال ملابس الفرنسيس وقيد بتنظيمهم وتعليمهم نفرا من كبار الفرنسيس الذين تخلفوا عن الجلاء وكذلك ألبس عدة وافرة من العبيد السود الذين اغتصبهم من ساداتهم وجمع جميع المماليك الذين للامراء بمصر والقاهرة وبعض البلدان وألبسهم الملابس الفاخرة وأركبهم جياد الخيل وقيد بهم من الفرنسيس من يعلمهم الفروسية واستعمال السلاح وسماهم بالنظام الجديد واهتم بأمرهم اهتماما زائدا وشرع فى انشاء عمارة عظيمة على مقربة من مقره لسكنى أولئك العسكر سماها قشلاق النظام واهتم بهذا القشلاق اهتماما عظيما فكان يجلس بنفسه لملاحظة البنائين والنجارين وأصحاب الصنائع وقد ضرب خيمة لجلوسه فى كل يوم من الصباح الى غروب الشمس ﴿قال صاحب عجائب الآثار وضرب الباشا خيمة عند بيته بقرب الهدم يجلس فيها حصة كل يوم لمباشرة العمل وربما باشره بنفسه ونقل بعض الانقاض فلما عاينه الاغاوات والجوخدارية بادروا الى الشيل ونقل التراب بالغلقان فلما أشيع ذلك حضر طاهر باشا وأعيان العساكر فنقلوا أيضا وطلبوا المساعدة وحضر طائفة من ناحية الرميلة وعرب اليسار ومعهم طبول وزمور فسأل عن ذلك فقال له المحتسب ان هؤلاء من طوائفى حضروا للمساعدة فشكرهم على ذلك وأمرهم بالذهاب فبقى منهم طائفة وأخذوا فى شيل التراب بالاغلاق ساعة والطبول تضرب لهم فانسر الباشا من ذلك وحسن القرناء للباشا المساعدة وان الناس تحب ذلك فرتبوا ذلك وأحضروا قوائم أرباب الحرف التى كتبت أيام فرض الفرنسيس ونبهوا عليهم بالحضور قال فأول ما بدؤا بالنصارى الاقباط فحضروا ويقدمهم رؤساؤهم جرجس الجوهرى وواصف وفلتاؤس ومعهم طبول وزمور وأحضر لهم أيضا مهتار باشا النوبة التركية وأنواع الآلات والمغنين حتى البرامكة بالرباب فاشتغلوا نحو ثلاث ساعات وفى ثانى يوم حضر منهم أيضا كذلك طائفة قال ولما انقضت طوائف الاقباط حضر النصارى الشوام والاروام ثم طلبوا أرباب الحرف من المسلمين فكان يجتمع الطائفتان والثلاثة ويحضرون معهم عدة من الفعلة يستأجرونهم ويحضرون الى العمل ويتقدمهم الطبول والزمور والجرية وذلك خلاف ما رتبه مهتار باشا فيصير بذلك ضجة عظيمة مختلفة من نوبات تركية وطبول شامية ونقافير كشوفية ودبادب حربية وآلات موسيقية وطبلات بلدية وربابات برمكية قال كل ذلك فى الشمس والغبار والعفار وزادوا فى الطنبور نغمة وهى أنهم بعد أن يفرغوا من الشغل ويأذنوا لهم فى الذهاب يلزمونهم بدراهم يقبضها مهتار باشا برسم البقشيش الى أولئك الطبالين والزمارين فيعطيهم النزر اليسير ويأخذ لنفسه الباقى وذلك بحسب رسمه واختياره فيأتى على الطائفة المائة قرش والخمسون قرشا ونحو ذلك فيركب فى ثانى يوم ويذهب الى خطتهم ويلزمهم باحضار الذى

قرره عليهم فيجمعونه من بعضهم ويدفعونه قال واذا حضرت طائفة ولم تقدم بين يديها هدية أو جعالة طولوا عليهم المدة وأتعبوهم ونهروهم واستحثوهم فى الشغل ولو كانوا من ذوى الحرف المعتبرة كما وقع لتجار الغورية والحريرية واذا قدموا بين أيديهم شيأ خففوا عليهم وأكرموهم ومنعوا أعيانهم وشيوخهم من الشغل وأجلسوهم بخيمة مهتار باشا وأحضر لهم الآلات والمغانى فضربت بين أيديهم كما وقع ذلك لليهود قال واستمر العمل بقية الشهر الماضى الى وقتنا هذا فاجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذالة وهى السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل ومهنة العمل وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الاعداء من النصارى وتعطيل معاشهم وعاشرها أجرة الحمام * انتهى

واستفحل أمر الامراء المصريين بالصعيد الأعلى وكبرت عصابتهم وظهرت كلمتهم واجتمعت اليهم طوائف كثيرة من الهوارة وأهالى الحوف الشرقى والغربى وقبائل العربان وقد تحصنوا عند الهو بسفح الجبل ولبثوا على هذا الحال أياما فبرز رجل من العثمانيين موصوف بالشجاعة والاقدام اسمه أجدر وأخذ معه ألفا من العساكر الموصوفة وسار اليهم يريد اغتيالهم فسبق العين الى الأمراء وأخبرهم بخبر الاجدر فلما توسط الاجدر وأصحابه سطح الجبل نظروا واذا بالمصريين قد أقبلوا فى ثلاث فرق وأحاطوا بهم فأطلق العثمانيون بنادقهم طلقة واحدة ونظروا واذا بهم فى وسطهم وتحت سيوف المصريين ففتكوا فيهم ولم ينج منهم الا القليل وأخذ الاجدر أسيرا فلما أحضروا الاجدر بين يدى الالفى قال له ولأى شئ سميت بالاجدر فقال هو اسم للافعى العظيمة وقد صرت الآن تحت ظل جمالك فافعل ماأنت أهله قال بلى ولكنى أرى اسمك قد زاد الى حد يوجب خلع أسنانك ثم أمر به فخلعوا أسنانه جميعها ثم قتلوه وزحف المصريون من الهو الى بنى علىّ ونزلوا عليها فنهبوا غلالها ومواشيها وقبضوا أموالها وكذلك الحوارشة وما جاور ذلك من البلاد فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وأخذ فى إعداد المدد من الرجال والذخيرة وآلات الحرب وسيرها الى الصعيد مع أحد الامراء (وهو محمد على سرچشمه) أحد مقدمى العساكر السلطانية وأرسل الى ابراهيم بيك الكبير مكاتبة بالامان والعود الى القاهرة والمقام بها لهم مالاخوانهم وعليهم ماعليهم فلما وصل رسول الباشا بالمكاتبة أحسنوا لقاءه وفض الالفى المكاتبة وقرأها ثم التفت الى الرسول فقال أما قولكم نذهب الى دار الخلافة ونقابل السلطان كى ينعم علينا فهذا لاوجه له ولانرضاه أبدا فانه على تقدير أن فى نيته الاحسان فلم لايحسن ونحن هنا فى بلاده واحسانه لايتقيد بحضورنا لديه أما طلب اخواننا الى مصر فهم وشأنهم ان شاؤا أقاموا معنا على الرحب والسعة وان شاؤا رجعوا الى القاهرة وهم فى حل منا وأما قولكم انكم تعطوننا أقطاعا نعيش منه باسنا فهذا الاقطاع لايكفينا فان شاء أعطانا من أسيوط الى الصعيد الأعلى وعلينا أن نقوم بخراجها والا فالارض لله ونحن خلق الله نذهب حيث شئنا ونأكل من رزق الله مايكفينا ومن أتى الينا حاربناه حتى يكون من أمرنا وأمركم

مايكون فلما رجع الرسول بالجواب اغتم الباشا غما شديدا وركب من ساعته وأسرع فى تجهيز الجند وتسييرهم فعبروا النيل من الآثار الى الجانب الغربى فى عدة عظيمة وذخيرة وافرة وكان بعد انحدار رسول الباشا من معسكر المصريين أمر الألفى فكسروا قنطرة اللاهون وخيموا على مقربة منها وشرعوا فى قبض الاموال من بلاد الفيوم ومنع الوارد منها الى مصر فخاف أهل الفيوم ورحل الكثير منها الى القاهرة فكانوا ينامون بالازقة والحارات رجالا ونساء وأطفالا ولا يجدون مايقتاتون به فانزعج الباشا من هذا الحال واستعظمه وكان كلما سأل أحدا من الامراء المصريين القيام مع الجند المسافرين اعتذر وطلب العفو أو أظهر عدم الطاعة وخرج بعضهم خفية ولحق بالمصريين فلما تحقق الباشا ذلك زاد به القلق ورسم لطوائف العسكر أن يقيم منهم فريق بالقلاع التى على التلال ففعلوا ورفعوا عليها الاعلام العثمانية وأوقفوا الحراس على أبواب المدينة يمنعون من يخرج منها من الغز والكشاف أو من له علاقة مع المحاربين فكان من خرج من بولاق أوغيرها لايخرج الا بمرسوم من كتخدا الباشا وأمر الباشا بنهب بيوت المحاربين التى بالقاهرة ومصر فنهبوا مافيها من فرش ومتاع وغيره وحملوه الى بيته وتمكن ابراهيم بيك والالفى ومن معهما من جميع بلاد الفيوم فكانوا اذا دخلوا بلدة منها ورأوا من أهلها مقاومة أو عصيانا ركبوا عليها وقتلوا من فيها بحد السيف وأحرقوا دورها وسبوا نساءها فخضعت لهم جميع البلدان والقرى وأدوا لهم المغارم والفرض وأباحوا لهم أخذ الغلال والماشية وهم صاغرون*وكان بمدينة الفيوم طائفة من الجنود السلطانية فلما رأوا من كثرة المصريين وفعالهم بأهل البلد تترسوا فى مواقعهم وأقاموا ينتظرون المدد وزحفت طلائع المصريين الى الجيزة وأخذوا منها الاموال والمغارم ووصلوا الى وردان وسار منهم جماعة الى ناحية الشرقية والمنصورة ومروا بحاكم الشرقية فلم يمنعهم وقد كانوا عدة قليلة فعلم الباشا بذلك وحقد عليه واستقدمه فحضر فأمر به فقتلوه ونهبوا داره وسبوا نساءه وعبر كتخدا الباشا النيل الى انبابه وعبر معه طوائف كثيرة من الجند ونصبوا خيامهم وجاء الخبر بوصول ابراهيم بيك ومن معه الى الجسر الاسود فأقاموا به أياما ثم ترفعوا الى المنصورية وبشتيل فخرج طاهر باشا وعبر النيل أيضا وعسكر بجنوده على مقربة من الوراريق ثم ساروا طائفة بعد طائفة وكان الامراء المصريون قد نزلوا على مقربة من دمنهور فلاقتهم العساكر السلطانية وناوشتهم القتال وهم فى قلة والعثمانيون فى كثرة زائدة وكان مع جماعة المصريين بعض كبار جند الانجليز جاؤا اليهم من الاسكندرية فلم يتأخر المصريون عن القتال وهجموا على فرسان العثمانيين هجمة الاسود وكان الانجليز ينظرون اليهم نظرة المتعجب فهزموهم وولوا الادبار وتركوا المشاة خلفهم فكر المصريون على المشاة أيضا فألقوا أسلحتهم وطلبوا الأمان فساقوهم وأخذوا مامعهم من أسلحة ومدافع وذخيرة وغير ذلك وقد تمزق شمل من بقى من العساكر السلطانية وتفرقوا أشتاتا وجاء الخبر بذلك الى محمد باشا فانزعج وقد كانت وردت عليه أوامر دار

السلطنة بسرعة اخراج ابراهيم بيك وأصحابه من الديار المصرية والا لحق به العطب فعمد الى تجييش جيش آخر وبالغ فى اتقانه وتنظيمه وعبر به النيل الى انبابه وانتقل طاهر باشا من انبابه بعساكره الى الجيزة وتترس بها ووصلت المجاريح والمرضى من العثمانيين وأكثر الباشا من تحذير أعيان ومشايخ البلاد من مسالمة الامراء المصريين أو التقرب اليهم وترفع فريق من الامراء المذكورين راجعا الى الصعيد وذهب جماعة منهم أيضا الى دار السلطنة فى احدى سفن الانجليز لطلب عفو السلطان ونزل محمد بيك الألفى مع طوائف الانجليز الذين كانوا بالاسكندرية يريد لندن عاصمة بلادهم اذ جاءهم الأمر بالجلاء تماما عن الاسكندرية فرحلوا عنها فى يوم السبت حادى عشر ذى القعدة من السنة أى سنة سبع عشرة ومائتين وألف هجرية ورجعت جميع العساكر السلطانية الذين كانوا بالبحيرة الى القاهرة ومصر وانتشروا فيها يطوفون فى الشوارع والحارات وطالبوا الباشا بجماكيهم المتأخرة وقد كان قطع عنهم رواتبهم وعلوفاتهم لفراغ الخزينة وبغضه لهم لجبنهم وهزيمتهم فى الحروب فصار كبارهم يطالبون الباشا والدفتردار وهما يماطلان ويطاولان فاجتمع العساكر حول بيت الدفتردار وصاحوا عليه وتهددوه وشاع قيامهم لنهب أمتعة الناس فنقل أهل الغورية وغيرهم بضائعهم من الحوانيت وقفلوها أياما كثيرة وخافهم الناس وامتنعوا من الخروج الى الاسواق بعد الغروب فكانوا اذا انفردوا بأحد عروه من ثيابه فان مانعهم قتلوه وأكثروا من خطف النساء والغلمان ﴿ قال صاحب عجائب الآثار ومر أربعة أشخاص من العساكر وأخذوا غلاما لرجل حلاق بخط بين السورين عند القنطرة الجديدة فعارضهم الأوسطى الحلاق فى أخذ الغلام فضربوا الحلاق وقتلوه ثم ذهبوا بالغلام الى دارهم بالخطة فقامت فى الناس ضجة وكرشة وحضر أغاة التبديل فطلبهم فكرنكوا بالدار وضربوا عليه البنادق من الطيقان فقتلوا من أتباعه ثمانية أنفار ولم يزالوا على ذلك الى ثانى يوم فركب الباشا فى التبديل ومر من هنالك وأمر بالقبض عليهم فنقبوا عليهم من خلف الدار وقبضوا عليهم بعد ما قتلوا وجرحوا آخرين فقتلوهم شنقا ووجدوا بالدار مكانا خرابا أخرجوا منه زيادة عن ستين امرأة مقتولة وبينهن من وجدوها وطفلها مذبوحا معها فى حضنها اهـ

واختل النظام من توالى هجمات الأمراء المصريين على البلاد وعيث الجنود السلطانية فيها وتجاوزهم الحدود فى القتل والنهب والتخريب والتعييب والفحش وغير ذلك فتطاولت أيدى العربان أيضا الى السلب ووقف كثير منهم فى طرق المارة يسلبون ما معهم ويقتلون من يمانعهم حتى زال الأمن وعم الخوف وانقطعت الطرق حتى فى نواحى المدينة وطريق بولاق القاهرة وغيرها وعجز محمد باشا وظهر ضعفه ثم جهز طائفة من الوجاقلية وسيرهم لقتال العربان فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا انجلى عن هزيمة الوجاقلية وتمزيق شملهم ثم ترفع العربان بعد هذه النصرة الى البحيرة وعاد من بقى من الوجاقلية وحموا بجهة العادلية وجاء من كانوا بالبحيرة من الامراء المصريين الى منية ابن خصيب وأرسلوا الى حاكمها بأن يعبر

النيل هو ومن معه من العساكر العثمانية الى الجانب الشرقى لينزلوا بالمنية أياما يقضون فيها أشغالهم ثم يرحلون عنها فأبى عليهم ذلك وأمر فحصنوا البلد وزادوا فى عمل المتاريس وأكثروا من المدافع وبينما هم على همتهم من التمنع والتحصين اذ أحاط بهم المصريون وقاتلوهم قتالا عنيفا أربعة أيام ليلا ونهارا حتى غلبوهم ودخلوا البلد عنوة وأعملوا فيها السيف وأحرقوا وخربوا وقتلوا خلقا كثيرا جدا من أهلها وجميع من كان بها من العثمانيين وتركوا النار تعمل فيها حتى صارت رمادا وأخذوا ما فيها من الأموال والمتاع والماشية وغيرذلك وأتوا بحاكمها الى ابراهيم بيك الكبير وقد كان من مماليك ابراهيم بيك وانفصل عنه ودخل فى خدمة الباشا فلما مثل بين يدى أستاذه وبخه وبناء على أمره ضربوه بالنبابيت ثم كبلوه فى الحديد وألقوه فى صومعة ورحل ابراهيم بيك وأصحابه عن منية ابن خصيب الى الصعيد الاعلى وجاءت الاخبار الى محمد باشا بما جرى فزاد به القلق وضاقت الدنيا فى وجهه وأرسل الى محمد على سرچشمه يستحثه على قتال المصريين قبل ان يلحقوا بمدينة أسيوط فيفعلوا بها مافعلوه بمنية ابن خصيب فاعتذر بخروج الجند عن طاعته بأسباب تأخير صرف جماكيهم وتهديدهم اياه بالقتل فألح عليه محمد باشا فبالغ فى الاعتذار وقد كان على عهد مع ابراهيم بيك وأصحابه * فلما كان يوم الجمعة سابع المحرم افتتاح سنة ثمان عشرة ثار الجنود جميعا وحضروا الى بيت الدفتردار فاجتمع جماعة منهم بحوش الدار وقفلوا أبواب القيطون وأخرجوا من كان به من العسكر التابعين للدفتردار وصعد طائفة منهم فوقفوا بفسحة المكان الذى كان به الدفتردار ودخل عليه منهم أربعة فكلموه فى أمر صرف جماكيهم ورد جميع مرتباتهم فلاطفهم وقال انه لم يجتمع عنده من المال سوى ستين ألف قرش فاما ان يأخذوها وإما أن يصبروا أياما حتى يكمل لهم المطلوب فقالوا لابد من الصرف فكتب فى الحال الى محمد باشا يطلب منه قرضة فأبى عليه ذلك وأرسل يقول لا أريد هؤلاء الاوباش الهمج فى بلاد قد توليت حكمها فلا بد من خروجهم وارتحالهم عنها والا أعملت فيهم السيف وأفنيتهم عن آخرهم فأعاد اليه الرسول يقول أغثنى فان الدار ملئت بالعساكر أعلى وأسفل فلما أخبره الرسول بذلك غضب وأمر بالمدافع فأخذوا يطلقونها من قلعة الجبل على بيت الدفتردار وراسلوا الرمى بالقنابل فتساقطت على الدار تساقط المطر واشتعلت الدار بما فيها وتهدم أكثرها والعساكر لاينفكون عنها واختفى الدفتردار تلك الليلة تحت درج البيت الى الصباح ونهب العساكر مافى الخزينة من الاموال ومافى الدار من فرش وبسط ومتاع ومر الوالى بالاسواق والشوارع ينادى فى الناس برفع متاعهم والمحافظة على أنفسهم والتحذر فخاف الناس وأغلقوا الحوانيت والدروب وزاد تطيرهم وتخيلوا هجوم العساكر ونهب المدينة وجميع الدور ونادى المنادى معاشر الناس وأولاد البلدكل من عنده سلاح فليتقلده ويحمله واجتمعوا على شيخ مشايخ الحارات ليذهب بكم الى بيت الباشا وجاء الطلب بذلك أيضا الى تجار الغورية وتجار خان الخليلى وأهل طولون وشددوا فى الطلب وحذروا من التخلف فسار بعض

الناس فقيدوهم بخفارة بيت الباشا وبيت ابن المحروقي المجاور له فباتوا ليلتهم تلك وحضر الوالي عشاء تلك الليلة وطاف على الناس يحضهم على القيام لنصرة الباشا على الخوارج من الجند والعسكر فاجتمع بعض الاوباش والغوغاء بالعصى والمساوق وتحزبوا أحزابا وعملوا متاريس عند رأس الوراقين وجهة العقادين والمشهد الحسيني فلما دخل الليل بطل رمى القنابل من قلعة الجبل وأصبحوا وقد شرعوا في الرمى فأطلق العسكر كذلك مدافعهم ووالوا الرمى على القلعة وتترسوا بجامع أزبك وبيت الدفتردار وبيت محمد على سرچشمة وكوم الشيخ سلامه وداخل الناس خوف عظيم من هذه الحادثة وبقي الحال على هذا الوصف ثلاثة أيام فلما كان يوم السبت رتب الباشا عساكره على طريقة الفرنسيس وخرجوا مشاة وركبانا ومروا حوالي البركة وانقسموا فرقتين فرقة أتت على رصيف الخشاب وفرقة على جهة باب الهواء ليأخذوا الارنؤد بينهم فلما وصلت فرقة ناحية رصيف الخشاب قاتلوا الارنؤد قتالا شديدا فانهزم الارنؤد من تلك الجهة وانحصروا جهة جامع أزبك فاشتبكوا في القتال مع الفرقة الثانية وتحققوا الهزيمة والخذلان وكادوا يسقطون في أيديهم فلما وصلت عساكر الباشا الى بيت الدفتردار والمحروقي وبيت نساء الباشا اشتغلوا بالنهب واخراج النساء وتركوا القتال وتقاسموا المنهوبات ففترت همة الفرقة الثانية من عساكر الباشا وانضموا في الحال الى النهابين من إخوانهم فتقوت بذلك عزائم الارنؤد وكروا على من بقي من عسكر الباشا فهزموهم وأخذوا مراكزهم وأجلوهم عنها وظهر طاهر باشا وركب الى الرميلة وتقدم الى باب العزب فوجده مغلقا فعالج الطاقات الصغار التي في حائط باب العزب القريبة من الارض المعدودة لرمى المدافع من أسفل ففتح بعضها ودخل منها بعض عسكره فتلاقوا مع الارنؤد المحافظين داخل الباب فتحالفوا واتفقوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد ثم صعدوا الى القلعة فاتفقوا مع من بها من الارنؤد ودخلوا على الخزندار وطلبوا منه مفاتيح القلعة فمانعهم فشددوا عليه وهموا بقتله فسلمهم المفاتيح ففتحوا الابواب لطاهر باشا واعتقلوا الخزندار وأنزلوا من القلعة بعض المدافع والذخيرة الى الازبكية وتسلم القلعة طائفة منهم وتقيدت بخدمة المدافع فلم يشعر محمد باشا الوالى الا والقنابل تتساقط على بيته من قلعة الجبل فهاله الأمر وأزعجه جدا وعلم بما جرى فسقط في يده ونزل طاهر باشا من قلعة الجبل ومر من وسط المدينة وهو يقول بنفسه مع المنادي أمان واطمئنان افتحوا دكاكينكم وبيعوا واشتروا وما عليكم بأس وطاف يزور الاضرحة والمشايخ ورفع الناس المتاريس من الطرق وانكفوا عن التعرض للجند وأكثر الوالي من التطواف والنداء بالأمان والبيع والشراء فاطمأن الناس واستمر الحرب بين الفريقين يوم السبت واشتد ليلة الاحد طول الليل فما أصبح النهار حتى زحف الارنؤد على جامع عثمان كتخدا وحارة النصارى وصعدوا التلال التي بناحية بولاق القاهرة وملكوا بولاق وهجموا على مناخ الجمال فقتلوا من به من العسكر وسارت طائفة منهم الى قصر العيني وقبضوا على من به من عبيد الباشا ونهبوا

بيت السيد أحمد المحروقى وأخرجوا منه النساء حاسرات وكذلك نهبوا بيت الباشا الملاصق له ونهبوا بيت المعلم جرجس الجوهرى وأخذوا مافيه من النفائس والامتعة الثمينة وأشعلوا النار ببيت الباشا فالتهمت الاخشاب والاسقف وسرت الى جميع المساكن فركب الباشا فى مماليكه وخدمه ومعهم النساء والذرارى وخرج الى جزيرة بدران وكان خروجه قبيل أذان العصر من يوم الاحد تاسع المحرم افتتاح سنة ثمان عشرة فخرج خلفه جماعة من الارنؤد يريدون القبض عليه فكر عليهم وهزمهم مرتين أو ثلاثا

مطلب
طرد محمد باشا من الولاية وتولية طاهر باشا

وسكنت الفتنة بخروج محمد باشا وجلائه عن القاهرة الى العادلية وطاف الوالى والمحتسب وأغاة الانكشارية ينادون بالامان وفتح الدكاكين والعود الى البيع والشراء فكانت مدة ولاية محمد باشا المذكور على مصر سنة وثلاثة أشهر وأحدا وعشرين يوما * وكان سيئ التدبير لايحسن التصرف سفاكا للدماء جافى الطبع قليل التروى يضع الامور فى غير موضعها فيحسن على من لايستحق الاحسان ويبخل على من فى حاجة الى القوت وكان نخورا مختالا سهل الانقياد لقرناء السوء كثير المظالم ولم يزل فى طريقه الى أن نزل بقرب قليوب فى غروب يومه فاستراح وأسرى ليلا الى دجوة وأنزل الذرارى والمتاع فى بعض السفن الى بنها العسل وقد تخلف عنه أكثر قومه واجتمع الأغا والوجاقلية ببيت القاضى وتشاوروا فى اقامة طاهر باشا نائبا عن الدولة حتى تأتيه الولاية أو يأتى وال آخر جديد فاتفقوا على ذلك وذهبوا الى بيت طاهر باشا وألبسوه خلعة النيابة وحرروا محضرا بما وقع ورفعوه الى دار السلطنة فلما استقر به المنصب وتصرف فى الأمور قبض على الكثير من الامراء والاعيان وصادرهم ثم اعتقلهم وكاتب ابراهيم بيك الكبير وأصحابه وسألهم الاقتراب من مصر حتى يدبر لهم الأمر فى رجوعهم وسير طائفة من الجند لقتال محمد باشا الوالى المخلوع فساروا خلفه وهو ينتقل من ناحية الى أخرى حتى نزل بالمنصورة فجبى خراجها وضرب على أهلها المغارم وقبض على من كان بها من أصحاب الجباية وأخذ الأموال منهم وكذلك فعل ببلاد الغربية ثم سار الى دمياط وقد تخلف عنه جميع أعوانه فلم يبق معه الا بعض الاتباع والنساء والذرارى وبسط طاهر باشا يده على جميع الأمور وضيق على أصحاب الميسرة من الوجاقلية والقبط وضرب على القبط غرامة قدرها خمسمائة كيس وخص بهذه الغرامة جماعة الكتاب ثم اعتقل جماعة منهم وكذلك فعل باليهود وقتل من أعاظم القبط والشوام خلقا ونهب دورا كثيرة وبالغ فى استرضاء الارنؤد والتزلف اليهم فصرف لهم جماكيهم وأطلق علوفاتهم ورد عليهم الارزاق اليومية وقرب اليه كبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وكان بقلعة الظاهر بيبرس طائفة من الانكشارية جاؤا باسلحتهم وآلات حربهم من دار السلطنة يريدون الاقطار الحجازية لقتال الوهابيين ومن معهم من الخوارج من أهل مكة والمدينة ونزلوا بالقلعة المذكورة على عهد محمد باشا المخلوع حتى تتم معداتهم فيرحلون عن طريق القلزم والقصير فحدثت الفتنة وظهر أمر طاهر باشا وأصحابه وانقطعت عنهم العلوفات وقلت المؤن وضاق عليهم الحال وكان معهم

أحمد باشا والى المدينة فكلموه فى ذلك فطاولهم فذهب جماعة منهم الى طاهر باشا وطالبوه بالجماكى والعلوفات فأبى عليهم ذلك فراجعوه فلم يلتفت اليهم فأضمروا له السوء ۞ فلما كان يوم الاربعاء رابع صفر من السنة ركب جماعة منهم بعددهم وأسلحتهم وخلفهم بعض كبرائهم وذهبوا الى طاهر باشا وسألوه صرف الجماكى فأعرض عنهم وقال ليس لكم عندى منها شئ الا ما كان من يوم قبضى على زمام البلاد فقالوا حاشا أن يكون كذلك فقال اذهبوا الى محمد باشا وطالبوه بما كان فى أيامه فألحوا عليه فنهرهم وصاح بقومه ليخرجوهم فابتدره أحمد الانكشارية بضربة بسيفه اطاح رأسه فسقط من شباك المكان الى صحن الدار وجردوا جميعهم سيوفهم وأقبلوا على أتباعه وخدمه ومن كانوا فى البيت من الارنؤد فقتلوا منهم خلقا كثيرين واشتعلت النار بالبارود الذى كان بمخادع أتباعه ومماليكه فوقع الحريق والنهب فى الدور المجاورة وخرج الانكشارية وبأيديهم السيوف مسلولة ومعهم مانهبوه من المتاع وغيره فانزعج الناس وأغلقوا الدكاكين وأبواب الدور وهم لايعلمون بالخبر ثم طاف الآغا والوالى بعد ساعة ونادايا بالأمان واجتماع جميع الانكشارية عند أحمد باشا والى المدينة المنورة لقتال الارنؤد وإخراجهم من البلاد فلما سمع الارنؤد بالمناداة تحزبوا واجتمعت طوائفهم عند الازبكية فكان الانكشارية اذا ظفروا بأحد من الارنؤد أخذوا مامعه من سلاح وقماش وربما قتلوه وكذلك كانت تفعل الارنؤد بالانكشارية وقد نهب الانكشارية جميع ماوجدوه فى بيت طاهر باشا من فرش وبسط وملبوس وغير ذلك وبقيت جثته ملقاة لايجسر أحد من أتباعه على الاقتراب منها وحملها وزالت دولته فكانت أيامه ستة وعشرين يوما ۞ قال صاحب عجائب الآثار وكان أسمر اللون نحيف البدن أسود اللحية قليل الكلام فيه هوس وانسلاب يميل للمسلوبين والمجاذيب وأصحاب الشعوذة وقد عمل له خلوة بالشيخونية يبيت فيها كثيرا ويصعد على سطحها مع شيخه ويذكر معه اه ثم جمع أحمد باشا المشايخ والعلماء والوجهاء فى داره وكلمهم فيما وقع من طاهر باشا وأصحابه وانتدب جماعة منهم فساروا الى محمد على سرچشمه يسألونه الطاعة والخلود الى السكينة كى لايعرض نفسه ومن معه للبوار فقال لست أعرف لاحمد باشا سلطة على البلاد وما هو الاضيف ثم يرتحل ولم أكن لاولى طاهر باشا وأجلسه على منصة الملك الا لأنه مبعوث من الدولة للمحافظة على الديار المصرية والجواب عندى ان أحمد باشا يرتحل عنا على الفور بعسكره وجنوده وله علينا المعاونة والمدد من مؤنة ودواب للحمل وسفن للسفر فأخبر المشايخ أحمد باشا بمقالة محمد على فأضمر له السوء وبدأ من هذا الحين يظهر محمد على وتعلو كلمته والانكشارية يقتلون وينهبون كل ماقدروا عليه من دور الناس والأمراء وتتبع الارنؤد وفتك بهم وعملوا بعض المتاريس ونادوا على الناس بالسهر والتحفظ وفتح الحوانيت ليلا والاكثار من الانوار وبات الناس على تخوفهم فلما أصبح يوم الخميس أرسل أحمد باشا يستدعى المشايخ والعلماء فذهبوا اليه فكلمهم فى جمع سائر الناس ونحو وجههم على طوائف الارنؤد فأجابوه الى ذلك وأرادوا الانصراف

مطلب
قتل طاهر باشا وتصرف أحمد باشا والى المدينة المنوره

فنعهم

فنعهم وقال حتى تأمروا العامة فقالوا هذا لايكون الا ونحن بالجامع الازهر ومازالوا به حتى خرجوا ولم يفعلوا شيأ مما أمر به فجمع اليه جميع الامراء العثمانيين وتشاوروا فى أمر الظفر بمحمد على أيضا ومن بقى معه من الارنؤد وكان محمد على قد استقر بمن معه بقلعة الجبل وأحكموا أمورهم وكاتب محمد على الامراء المصريين وكانوا على مقربة من الجيزة وانبابه فحضر الى القاهرة بعض أتباعهم وطائفة قليلة من عسكرهم وشاع خبر وصولهم الى الجيزة فعبر اليهم مماليكهم وبعض الكشاف من أصحابهم ثم قدم منهم جماعة فنزلوا بباب النصر وآخرون بباب الفتوح وأرسل ابراهيم بيك الكبير خطابا الى أحمد باشا يقول فيه ﴿ حيث قد علمنا بموت طاهر باشا وأنت اليوم بين ظهرانينا فضم اليك من بقى من طوائف الارنؤد واياك أن تقرب اليك أحدا من الانكشارية * فلما كان صباح ثانى يوم ذهب جماعة من الانكشارية الى الرميلة يريدون قتال عسكر محمد على فأطلق عليهم أصحاب محمد على المدافع وتابعوا الرمى فولى الانكشارية الادبار ورجعوا مسرعين الى بيت أحمد باشا فحول أصحاب القلعة رمى القنابل على البيت رميا متراسلا فخاف الانكشارية وانحلت عزائمهم وتفرقوا عن أحمد باشا وجاء الخبر بما جرى الى ابراهيم بيك فتقوت عزيمته وأرسل الى أحمد باشا يطلب منه قاتلى طاهر باشا ويلزمه الخروج من القاهرة فى برهة لاتتجاوز الساعة الحادية عشرة من النهار ولا يقيم بها الى الليل فلم يجد بدا من الامتثال وطلب دواب للعمل فلم يجد فركب فى عصر اليوم وسار وتفرق عنه من كان معه من أعيان العثمانيين وذهبوا الى محمد على والتجؤا اليه فأحسن لقاءهم وأنزلهم منزلا رحبا وخرج أحمد باشا وأتباعه مشاة بين يديه ومعه نفر قليل من الانكشارية فوجد عند باب الفتوح من زحام عسكر الامراء المصريين والعربان والهوارة ماأخافه فدخل بمن معه الى قلعة الظاهر بيبرس وأغلقوا أبوابها فتبعه جماعة من الارنؤد ودخل داره جماعة فنهبوا مافيها من متاع وأثاث وأحاط بقلعة الظاهر آخرون ليلتهم تلك وأصبحوا فضيقوا على أحمد باشا ومن معه وجعلوا يرمون على المحاصرين من السور وهم كذلك يرمون عليهم من أسفل وجمعوا شيأ كثيرا من التراب وعملوا منها أكمة وصعدوا عليها وصاروا يرمون عليهم من الخارج بالبنادق بقية النهار وطول الليل فلما أصبحوا أنزلوا مدفعا من قلعة الجبل وجعلوا يطلقونه على قلعة الظاهر فأخربت قنابله وهدمت بعض جدران القلعة فطلب الانكشارية الامان فأمنوهم ففتحوا الابواب وخرج أحمد باشا ومعه اثنان من الانكشارية وهما قاتلا طاهر باشا فأخذوهم وعبروا بهم الى الجيزة ولبث من بقى من الانكشارية داخل القلعة وحولهم الجند والعسكر ثم سجنوا أحمد باشا بقصر العينى وأبقوا قاتلى طاهر باشا بقصر الجيزة فتم بسجن أحمد باشا زوال دولته فكانت ولايته بعد موت طاهر باشا يوما وليلة لاغير

مطلب
طرد أحمد باشا والى المدينة وتصرف ابراهيم بيك الكبير

واشتدت عزائم طوائف الارنؤد بهذا الظفر فكثر فسادهم فى الارض وقتلوا من الترك وأصحاب خان الخليلى خلقا كثيرا وتتبعوا الناس وأخذوا بالشبهات وظهر نجم محمد على والتجأ

اليـه الامراء والاعيان فرارا من ايذاء طوائف الارنؤد وأتوا يوما بقاتلى طاهر باشا من قصر العينى الى الناصرية وضربوا أعناقهـما فى وسط النهار وحملوا الرأسـين الى زوجة طاهر باشا بالشيخونيـة ثم الى أخيه بقلعـة الجبـل وأخرجوا طوائف الانكشارية الذين كانوا بقلعـة الظاهر وأخـذوا جميع ما كان معهم من سـلاح وكراع و بعثوا بهم الى الصالحيـة مع نفر من الارنؤد والعربان فمات أكـثرهم جوعا وتمزق من بقى وتشردوا فى الجهات ۞ ولما كان يوم الاحـد خامس عشرى صـفر سـنة ثمان عشرة نزل ابن أخى طاهر باشا من قلعة الجبل ونزل من كان معـه من كبار الارنؤد وأعيانهم وعسـكرهـم ومتاعهـم وما جمعوه من المنهوبات وكان شيأ كثيرا جدا وسلموا القلعة الى ابراهيم بيك الكبير وأصحابه ولم يبق بها من الارنؤد الا طائفة قليلة ومعها أحد كبارهم المدعو حسين قبطان وأخرجوا أحمـد باشا والى المدينة من معقله بقصر العينى وسيروه الى الديار الروميـة فى نفر من الانكشارية فلما استقر بابراهيم بيك المقام قسم الوظائف والمناصب العالية بين قومه وذويه باشارة محمد على ورتب الامور على ماأراد محمـد على فأحكم ترتيبها فمال الامراء المصريون الى محمـد عـلى وأحبه العساكر وعمل بمشورته العمال فى جميع البلاد وتقرب اليه الاعيان وتزلف اليه أرباب المناصب وتقرب منـه المشايخ والعلماء * وجاء الخـبر الى ابراهيم بيك الكبير بنزول محمـد باشا الوالى المعزول عـلى مدينـة دمياط وتغلبه على ماحولها من البـلاد والقرى واعطاء الوظائف الى مماليكه وانضمام الكثير من الانكشارية الذين خرجوا من مصر والقاهـرة الى لومه مع الغوغاء وحرافيش البلاد والعربان فسير لقتاله البرديسى فى طائفة عظيمة من العساكر فوجده ممتنعا وقد عمل المتاريس والخنادق حول المـدينة وضرب على الاهالى المغارم والفرض وبث المعينـين لجمع الاموال من البلاد ونقـل الغلال فهجم عليـه البرديسى بخيله ورجله واقتتل الفريقان قتالا عنيفا فانهـزم البرديسى وأصحابه عنـد القنطرة البيضاء من ضـواحى دمياط وأجلوهم عن مواقفهم ثم عاد البرديسى وقد رتب عسكره وهجم على عساكر محمد باشا فانهـزموا وانتصر البرديسى نصرة عظيمـة وانخذلت عسـاكر محمـد باشا ومال بعضهم مع البرديسى وأشاروا عليه بالزحف على دمياط فزحف وراسل بعض كبار عسكر الباشا فأطمعوه فى الاستيلاء على المدينـة بغير عناء فدبر عسكره وهجم على المدينة وقاتلها حتى دخلها عنوة وفتك فى عسكر الباشا بالقتل وتتبعوا خواصه وأتباعه فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا من خرج معه من أصحاب الوظائف ونهبوا المدينة وأسروا النساء والاطفال وافتضوا الابكار واستأسروا من شاؤا وفعلوا من القسوة ماتشيب لهوله الولدان ونهبوا الخانات والبيوت والوكائل وجميع أمتعـة التجار الـتى كانت بها والتجأ محمـد باشا الى بلدة القـرية فأحاطوا به من كل جانب فطلب الامان فأمنوه فنزل من القرية وحضر الى البرديسى فقام عليه بعض الجند وخطفوا عمامته وهو فى الطريق وكادوا يفتكون به فلما رآه البرديسى ترجل عن جواده وتلقاه بالاعزاز والاكرام وألبسه عمامة وأنزله فى خيمة بجانب خيمته وسير الاخبار بما حصل الى ابراهيم بيك

ففرح

ففرح بذلك وفرح أصحابه فلما كان يوم الاثنين تاسع عشرى ربيع الاول أحضروا محمد باشا الى القاهرة ومعه المحافظون من الارنؤد والعساكر المصرية وليس معه من أتباعه سوى ستة مماليك فقط وقد تفرق باقيهم عنه فنزل بساحل بولاق وكان ابراهيم بيك قد حضر فى ذلك اليوم الى بولاق فلم يقابل محمد باشا وتشاغل عنه ثم حضر الى الباشا أحد الكشاف وأركبه وساربه الى بيت ابراهيم بيك بحارة عابدين فلم يقابله فى ذلك اليوم أيضا فأخذوه الى بيت البرديسى فبات ليلته وأصبح فركب ابراهيم بيك الى قصر العينى وطلب محمد باشا فسار اليه وقابله وقد حضر الالفى وبقية الامراء المصريين ثم ركب ورجع الى بيت البرديسى وبقى محجورا عليه أياما ۞ فلما كان يوم السبت خامس عشرى ربيع الاول طلب محمد باشا من سليم كاشف المحرجى المتولى حراسته أن يأذن له بالخروج الى الناصرية للرياضة فأرسل سليم كاشف الى ابراهيم بيك يسأله فى ذلك فأذن له فاركبه سليم كاشف بمماليكه وعدة أخرى من مماليك المحرجى فلما خرج الى خارج النصرية أطلق جواده وتبعه مماليكه من خلفه فظن مماليك المحرجى أنهم يتسابقون فلما غابوا عن أبصارهم ساقوا خلفهم وما زالوا كذلك وقد استل محمد باشا سيفه الى أن وصلوا الى الازبكية فقصد بيت أحمد بيك الارنؤدى فلما اقترب منه أطلق أحد الجند غدارته على جواده فسقط الجواد وسقط محمد باشا امام الباب ودخل مسرعا على أحمد بيك ومن كان معه فلما رآه أحمد بيك على هذا الحال وبخه وقبض عليه وفتشوه فوجدوا معه من المال ما قدره ألف وخمسمائة دينار وكذلك أخذ ما كان مع مماليكه وقد كانوا أعدوا هذا المال ليكون لهم عونا على الهرب وجاء الخبر الى سليم كاشف المتولى حراسته فركب على مثل ذلك بباقى أتباعه واتصل الخبر بابراهيم بيك فأمر جميع الكشاف بالرجوع وأصعد طائفة منهم قلعة الجبل وتحفظ على أطراف المدينة وجاء سليم كاشف بمحمد باشا الى ابراهيم بيك بقصر العينى ومعهما أحمد بيك فخلع ابراهيم بيك على أحمد بيك فروة سمور وقدم له حصانا مسرجا ووكل بمحمد باشا من يخفره فى معقله

مطلب
منع تصرف ابراهيم بيك
وولاية على باشا الطرابلسى

وجاءت الاخبار بولاية على باشا الطرابلسى ووصوله الى مدينة الاسكندرية فاستقربها ولم يقدم الى القاهرة وأرسل الى ابراهيم بيك ومن معه يقبح مافعلوه من رجوعهم الى القاهرة وتصرفهم فى الامور بغير اذن السلطان لاسيما خروج الارنؤد وقتل طاهر باشا بخروج الانكشارية واخراج أحمد باشا وغير ذلك من الحوادث التى كانوا هم علة وقوعها فأرسلوا اليه يعتذرون ويظهرون الطاعة والولاء للسلطان وأن حضورهم لم يكن الا عن رضا الاهالى واستدعاء المشايخ والعلماء وتخوف ابراهيم بيك وأصحابه من على باشا المذكور وتحذروا وأقاموا ينتظرون ماسيكون من حضوره الى القاهرة ۞ وكان البرديسى فى غضون ذلك قد سار بعسكره من دمياط بعد أسر محمد باشا الى رشيد لقتال الحاج على باشا قبطان ومن معه من العساكر العثمانية وكان الارنؤد لما قاموا وخرجوا على محمد باشا جاء على

باشا قبطان المذكور فى نفر من العثمانيين ونزلوا على رشيد من البحر وتحصنوا بها حتى صاروا فى منعة زائدة وجعل على باشا مقره ببرج مغيزل يراقب الفرص ليزحف على القاهرة و يفتك بمن بها من أصحاب ابراهيم بيك وطوائف الارنؤد فوصل اليه البرديسى بعسكره وقاتله قتالا شديدا نيفا وعشرين يوما وما زال حتى انتصر عليه وفتح البرج عنوة وقبض على على باشا وعدة كبيرة من عسكره وأخرجوهم الى جهة الشرقية ليسيروا منها الى الشام وو ردت الاخبار بذلك الى القاهرة فلما علم على باشا الطرابلسى وهو بالاسكندرية مافعله البرديسى برشيد وكيف آخذ على باشا قبطان أسيرا خاف أن يعرج البرديسى وأصحابه الى الاسكندرية فيفعلوا بها ما فعلوه برشيد فأمر بسد أبى قير فكسروه لجرى الماء الملح الى الاراضى التى كانت جفت عنها منذ عهد قريب فى ذلك الحين وأغرقت القرى وأفسدت المسالك على الاسكندرية واشتد الحال على أهلها وضاق بهم الكسب فرحلوا عنها الى جزائر المحيط كجريت وقبرس ورودس وغيرها ولم يبق فيها الا الفقراء والعجائز ﴿قلت وكان هذا السد من أهم العمائر وأحكمها وأكبرها شهرة ولذلك كانت تتفقده الدول على مر الايام وتتعهده بالعمارة واحكام الوضع وتخشى من تهدمه فلما اختلت الاحوال وكثر توالى القلاقل والاحن واستولت الفوضى على البلاد وأهملت أسباب العمارات كافة انهار من هذا السد بعض بنيانه فسال منه الماء الملح على المزارع والقرى الواقعة بين رشيد والاسكندرية فلم يتدارك أولو الحل والعقد أمره لاستفحال الخلل فاستمر على هذا الحال والخرق يتسع حتى كادت تنقطع الطرق بسبب الماء المنهمر منه واستمر على ذلك الى دخول الجيوش الفرنساوية مصر فلما جاءت خلفهم سفن الانجليز أراد أميرها تعويق الفرنسيس عن الوصول الى القاهرة بعد نزولهم بأبى قير فأطلق قنابل مدافعه على السد المذكور فكسر بعض بنيانه واتسع خرقه فانهمر الماء على الاراضى حتى كاد يصل الى دمنهور واختلط بخليج الاشرفية فغطى جميع وجه تلك الاراضى وأخرب القرى والبلاد وأتلف المزارع وانقطعت الطرق حول مدينة الاسكندرية وامتنع دخول ماء النيل الى أهلها فلم يصل اليهم الا ما يصلهم من جهة البحر فى السفن والنقائر أو ما خزنوه من مياه الامطار بالصهاريج وبعض العيون المستعذبة ثم جاء رجل من مهندسى دار السلطنة اسمه صالح أفندى ومعه بعض السفن تحمل الاخشاب العظيمة والآلات الضخمة برسم بناء السد المذكور فاستمر العمل فى ذلك عاما ونصف عام حتى قارب التمام ففرح الناس بذلك واستبشر أهل القرى والنواحى فما هو الا وقد وقعت هذه الحوادث واحتل على باشا قبطان ثغر رشيد وسار البرديسى لقتاله وخاف على باشا الطرابلسى من حضور البرديسى وفعله بالاسكندرية ما فعله برشيد فأمر فكسروا السد فانغمر وجه تلك الاراضى بالماء الملح فنزح أهل الاسكندرية وتبدل عمارها خرابا

ووصل الحاج على باشا الى القاهرة أسيرا فأكرموا نزله ورتبوا له المرتبات من مأكول

ومشروب وأرسل البرديسي يطلب المدد فامدوه فسار من رشيد الى دمنهور بعد مارتب أمورها وحصن قلاعها وأبراجها ونهب ما فى بيوت الراحلين عنها واستقر بدمنهور أياما يدبر أمر الهجوم على الاسكندرية وكيفية الوصول اليها وطالت أيام مكثه فداخل جنوده الملل واعترى أمورهم الفتور والكسل فطالبوا البرديسي بجماكيهم وعلوفاتهم ولم يكن عنده منها شئ فخشى العاقبة ورجع الى القاهرة وقد مات منهم خلق كثير باسباب الجوع والحرب ودخل الجيزة فى السادس من جمادى الثانية فخرج الامراء والاعيان لملاقاته فلما أصبح يوم السبت سابعه عبر ❁محمد على❁سر چشمة النيل الى الجيزة وعبر معه طوائف الارنؤد الى مصر وكذلك البرديسي فخرج عليهم الفقراء وبأيديهم المقاطف والغلقان وصاحوا بمحمد على والبرديسي واستغاثوا وبكوا من الجوع فلا طفهم البرديسي وأصبح وقد بعث بمحمد على وخازنداره الى بولاق ومصر القديمة وأخرجوا جميع مافيها من الغلال الى السواحل فاجتمع العالم الكثير من الرجال والنساء فامتاروا بحسب الحاجة واطمأن الناس واشترى الخبازون وفتحوا المخابز وكثر الخير وشبع الفقراء فمالت قلوب الرعية الى البرديسي وأحبوه * وأخذ البرديسي فى بناء الحصون والقلاع بجهة الناصرية وعند داره المعروفة بدار حسن كاشف شركس وأنشأ البوابات الكبيرة بجهة قنطرة السباع والمزار المعروف بكعب الاحبار فداخل الناس من ذلك الشكوك وخالجتهم الظنون فعمدوا الى تعمير الدور التى خربتها الحوادث المتراكمة والخطوب المتتابعة وضيقوا الشوارع عما كانت عليه من السعة والرحب وقد كانت الى ذلك الحين غاية فى السعة والانتظام وتناسب البناء وحسن وضعه كما هى الآن باكبر شوارع القاهرة ومصر وأحدثوا فيها الدروب الكثيرة والدعامات البارزة والسباطات وغير ذلك مما أذهب رونقها وجعل أغلبها ظلاما حتى فى رابعة النهار وزاد الحال وقلد أهل الاخطاط فعال بعضهم واهتموا لذلك اهتماما عظيما ونقل البرديسي جميع المدافع التى كانت بالازبكية ببيت الباشا الى تلك الحصون والابراج وعززها بالذخيرة الكثيرة والمهمات وآلات الحرب كل هذا وعلى باشا الطرابلسى العامل على مصر من قبل دار السلطنة لايتحرك من الاسكندرية ولا يأتى الى القاهرة وكانت كتبه لاتنقطع عن ابراهيم بيك والبرديسي مشحونة بالوعيد والتهديد ان لم يتركوا القاهرة ويرحلوا عنها الى الصعيد الاعلى حتى تأتى رسل دار السلطنة ويأمر السلطان بما يراه فلم يسمعا له كلمة ولا تبعا له اشارة وجعلوا يتصرفون فى البلاد تصرف المالك المطلق❁فلما كان يوم الاربعاء أول شعبان سنة ثمان عشرة قدم الى مصر كاتب ديوان على باشا الطرابلسى ومعه مرسوم السلطان بالعفو عن جميع الامراء المصريين اجابة لطلب صدر الدولة وعلى باشا الطرابلسى وأن يقيموا بمصر والقاهرة ولكل أمير منهم فايظ خمسة عشر كيسا وحلوان المحلول ثمان سنوات وان الاوسية والمضاف والبرانى يضم الى جانب الخزينة وأن لايكون التصرف فى جميع الامور والاحكام الا لعلى باشا والروزنامجى وأما الجمارك

والمقاطعات فالكامة فيها للدفتردار الذى يعين لذلك من قبل الدولة فلما قرئ هذا المرسوم بحضرة المشايخ والعلماء والوجهاء أظهروا البشر والسرور وأطلق لذلك عدة مدافع وكتبوا الى على باشا يشكرونه ويطلبون منه الحضور الى القاهرة ليتولى أمور البلاد ويدبر أمر خروج الحاج قبل فواته فسار على باشا من الاسكندرية برا الى القاهرة وعبر الالفى بعسكره وكذلك بعض الامراء المصريين النيل الى انبابه وساروا منها الى مقربة من شلقان ونزلوا بها فلما كان الباشا على مقربة منها أيضا نزل ببعض المزارع هو ومن معه من طوائف الانكشارية وكانوا عدة كثيرة ممن خرج هاربا من مصر والقاهرة وكان يتبعه بالبحر نحو ستين سفينة تحمل أثقاله ومتاعه وأتباعه وبعض العسكر فخرج اليه الالفى بعسكره ومحمد على سرچشمه وأحمد بيك وأتباعه ونصبوا خيامهم وأنزلوا أثقالهم على مقربة من معسكر الباشا فتكدر الباشا من ذلك وأرسل الى الالفى يقول كيف تقدمون على ان تعسكروا بجندكم قبالة عسكرى وأنتم أتباع السلطان وأنا نائبه على هذه البلاد فأجابه الالفى هذه منزلتنا ومحط عسكرنا ولم نفعل الا ما وجب فاشتد غيظ الباشا وتقهقر بعسكره الى الوراء فانتقل محمد على وأحمد بيك بعسكرهما الى ناحية النيل وعسكروا هناك وأظهر الألفى سوء النية والجفاء للباشا حتى قتلوا بعض أتباعه بمشهد منه مما كاد يقتله ثم قال بعض كتاب الاخبار وكان الحامل على ذلك أنه لما طال مكث على باشا بمدينة الاسكندرية وقد أعيته الحيل فى رد جماح الامراء المصريين واكراههم على الجلاء عن مصر الى الصعيد الاعلى ورأى ان لابد من المسير الى القاهرة والالتقاء بهم ووقوع مالا تحمد عواقبه كاتب محمد على سرچشمه وكبار الارنؤد وغيرهم من قبائل العرب ومشايخ البلاد يستميلهم ويعدهم ويمنيهم ان قاموا بذلك ويحذرهم من الانضمام الى أولئك الأمراء فنقل الارنؤد ذلك الى ابراهيم بيك والبرديسى وأطلعوهما على رسائل الباشا واتفقوا على ان يردوا عليه من كبار الارنؤد بالطاعة والرضوخ لأمره والقيام لنصرته اذا حضر الى القاهرة حتى اذا خرج الأمراء للسلام عليه يكبسون عليهم هم وعسكره فيستأصلونهم والموعد بشلقان وقد سهلوا له الامر وهونوا عليه الصعب فراجت عليه حيلتهم وسار من الاسكندرية فى عدة وافرة من العسكر وحضر الى الرحمانية وأعاد مخابرتهم واستوثق منهم لخضوه على سرعة الحضور الى شلقان فسار اليها فرحا فلما صار على مقربة منها أمر فرتبوا المراكب التى كانت تسير معه بالنيل ووضعوا عليها المدافع وعملوا المتاريس وحصنوا موقعهم فخرج اليه الالفى كما تقدم بمن معه ونزل بخيامه أمام خيام الباشا وأرسل اليه بأن يتقهقر بعسكره الى الوراء حتى تستقر القاعدة بينهما على أمر من الأمور فلم يجد الباشا بدا من ذلك وطلب الارنؤد والعربان الذين عاهدهم فلم يجد منهم أحدا فاكبر هذا الأمر وتأخر الى زفيتة ونزل بها وبينما هو على هذا الحال من الحركة والانتقال اذ انحدر حسين بيك الفرنجى أحد الأمراء المصريين بعسكره فى بعض السفن بالنيل حتى صاروا خلف سفن الباشا وأحاطوا

بهم وأطلقوا عليهم القنابل والبنادق وساقوهم الى القاهرة واستأسروهم ثم ذهبوا بهم الى الجيزة وقد أعملوا السيف فيمن كان بها من الجند وقبضوا على مقدمهم المدعو مصطفى باشا وأخذوه أسيرا وأحاطوا بمعسكر على باشا بناحية زفيته ومنعوا عنهم الواصل وكانوا اذا خرج أحد من عسكره يريد الذهاب الى جهة قبضوا عليه وقتلوه فاشتد حزن الباشا واضطرابه وأرسل الى الالفى من يكلمه فى ذلك فأرسل اليه الالفى يقول لم نكن لنعلم بخبر هذه الجيوش المخيمة حولك وبسبب اجتماعها الا من أحب الناس اليك وأطوعهم لكلمتك فلما رأينا من كثرة قومك وأسلحتك ومهماتك وآلات حربك قابلنا عملك بمثله وما عهدنا بالولاة اذا حضروا الينا الا أن يكون حضورهم فى قلة من الاتباع لا أن يأتوا فى جيش جرار وقد قيل لك ذلك لما صرت على نية المسير الينا فان شئت مسالمتنا فاصرف عنك هذه الاقوام وأتنا فى بطانتك لا غير على الرحب والسعة فقال لم يكن من أمر هذه الجيوش سوى الخروج الى الاقطار الحجازية مددا لشريف مكة وعونا له على قتال الوهابيين فاذا وصلنا بهم الى قلعة الجبل واستراحوا جهزناهم بما يلزم وسيرنا بهم الى الشريف فقيل له لم يبق فى القلعة من الابنية بعد تخريب الفرنسيس لها ماهو أهل لسكناك ولذلك فقد أعددنا قصر العينى مقرا لك ولأتباعك وحاشيتك واصرف عنك العسكر فيسيرون الى بركة الحاج ويلبثون هناك حتى تتم احتياجاتهم ويسيرون الى الاقطار الحجازية *وترددت الرسل بينه وبين الالفى أياما ثم حضر من قبل الباشا عابدى بيك مقدم الانكشارية واجتمع بالالفى وكلمه فاستماله الالفى لجانبهم ومناه بالامانى الطويلة وعاهده على الخذلان بالباشا والانضمام اليهم بمن معه من الجند وتحالفا على ذلك وتعاقدا فانصرف عابدى بيك ودبر أمره مع أصحابه فحلفوا له يمين الطاعة وترك الباشا وشأنه فلما استوثق الالفى من عابدى بيك وأصحابه أرسل يقول للباشا قد طال القال والقيل بيننا ولم نهتد الى أمر من الامور فاما أن تأتى الينا فى بطانتك وحاشيتك على الرحب والسعة واما أن تبرز لقتالنا وضربوا للجواب موعدا فلما لم يأت الجواب زحف الالفى بعسكره و زحف بقية الأمراء بعساكرهم على معسكر الباشا وأحدقوا به من كل جانب فطلب الباشا عسكره ونادى فيهم بالخروج فلم يتحركوا وتثاقلوا فلما تحقق خذلانهم له ركب فى خاصته وذهب الى الألفى وترك خيامه وأثقاله فعند ذلك استقبله جميع الامراء بالاعزاز وأنزلوه فى خيمة أعدوها له على مقربة من خيمة البرديسى وحضر اليه جميع أرباب الديوان ونقلوا جميع متاعه وأثقاله الى قصر العينى وسيروا من كان معه من الجنود الى شرقية بلبيس ليسيروا منها الى الصالحية ثم انتقل جميع الأمراء المصريين مع الباشا الى منية السيرج وباتوا بها ليلتهم فلما كان منتصف الليل والناس جميعا نيام خرج من خيام الباشا فارس على فرس يعدو بسرعة فصهلت عند خروجه الخيل واضطرب من فى المعسكر فركب جماعة من العسكر وتراكضوا خلفه فلم يلحقوه فسألوا الباشا عنه فأنكر معرفته وقال لعله لص فتخوفوا منه وأخذتهم الطيرة فأجلسوا حول مضربه فى تلك

الليلة عدة من المماليك بالاسلحة وأصبحوا وقد قبضوا على رجل على ظهر هجين من ناحية البساتين زعموا أنهم وجدوا معه كتابا من الباشا خطابا الى عثمان بيك حسن المقيم بجرجا يستقدمه الى القاهرة ليكون له عونا على الامراء المصريين ويمنيه بالأماني الواسعة ويعده بتولية ادارة البلاد فلما كان يوم الاربعاء ثاني عشر شوال من السنة أى سنة ثمان عشرة بجمعة الباشا دخل على رضوان أغا كتخدا البرديسي ومعه آخرون وجلسوا عنده فسألهم عن سبب حضورهم فقالوا أتينا لنسألك فيما اذا كنا على صلح تام مع الامير اليوم أم لا قال بلى فقال كتخدا البرديسي هلا كتبت الى أحد قبل ذلك كتابة قال لا فقال لعلك كتبت الى الصعيد شيأ قبل الآن قال لم يكن ذلك أبدا فأخرج له عند ذلك مكتوبا وناوله اياه فلما رآه قال نعم هذا مما كتبناه بالاسكندرية قبل الصلح فقالوا انا وجدناه بالامس مع رسولك وتاريخه يدل على تحريره فتلجلج فقاموا وقالوا له قم فقال الى أين قالوا الى غزة حيث لا أمان لنا معك بعد ذلك ولم يمهلوه لكلام يقوله أو لعذر يبديه وقدموا له فرسا وأركبوه عليه فرأى حوله عدة من الامراء على أهبة الذهاب معه فاضطرب جدا وقال ان صحبني هؤلاء فليكونوا على بعد منى فى الحل والترحال فأجابوه الى ذلك وركب أتباعه على دواب الحمل وساروا وهم فى أسوإ حال وقد حجز البرديسي جميع أثقاله ومتاعه وذخيرته وأصبح يوم الخميس ثالث عشره فدخل الامراء والجند والعسكر من الارنؤد ومحمد على سر جشمه وجميع كبارهم وخلفهم الطبول والزمور أما الألفى فانه ركب على زفيته فضرب أهلها وأحرق البلد وعرج على أجهور فضربها كذلك وشرد من فيها وذهب الى نزلة عرب بلى بالجيزة فطرقهم بغتة وقتل منهم أناسا ونهب مواشيهم وخرب منازلهم وفعل كذلك بعدة بلاد أخرى لتحالفهم مع علىّ باشا على قتال المصريين وتأهبهم لنصرته وسار المعينون مع علىّ باشا فلم يصلوا على مقربة من القرين حتى مات حتف أنفه على ماقيل وقيل بل خنقوه*قال بعض الكتاب وكان علىّ باشا المذكور سيئ الخلق طاغية عنيدا جبارا نخورا معجبا بنفسه كثير المظالم مستبدا برأيه فعل بأهل الاسكندرية من الجور والظلم والمصادرة مالا يكاد يدخل تحت الحصر وكان يقول لعسكره انى ان فتحت مصر ووطئت قدمى أرضها أبحتها لكم ثلاثا تفعلون بها ما تحبون*وعاد الالفى الصغير من قتاله لعرب الجيزة ومعه كثير من الغنائم ونزل بقصره الذى أنشأه بالجيزة وتفرقت عنه عساكره ولم يبق معه الا القليل مع أمير المدافع ثم جاء الخبر من حاكم مدينة رشيد بوصول الالفى الكبير الذى كان قد سافر الى لندن عاصمة الانجليز كما سبقت الاشارة الى ذلك فلما علم ابراهيم بيك والبرديسي بخبر وصوله خافا منه وأيقنا بخيبة الامل لما له من الشهرة ونفوذ الكلمة فأضمرا له السوء ودبرا أمورهما وكتماها وكتب البرديسي الى مملوكه يحيى بيك حاكم رشيد يأمره بقتل الالفى بكل ماوصلت اليه حيلته وعبر هو النيل وعبر كذلك عدة من الامراء الى الجيزة وباتوا ليلتهم تلك بخيامهم وأظهروا أنهم يتأهبون للسفر فى آخر الليل مع الالفى الصغير للقاء الالفى الكبير وعبر أيضا حسين بيك الوشاش الالفى ونصب خيامه على مقربة من النيل فلما كان خامس ساعة

من تلك الليلة أرسلوا الى حسين بيك يطلبونه لحضر مع مماليكه وكانوا قد رتبوا جماعة منهم تأتى بخيـل ومصابيح ومشاعـل من طريق القصر الذى يسكنه الالفى الصـغير فقالوا له أين خيلك فانا على أهبة الاسراء ليلا فى هـذا الوقت الى لقاء أخينا الالفى وها هو أخوك الالفى الصغير قد ركب وهو مقبل الينا فنظر فرأى المشاعل والخيل فلم يشك فى صحة ذلك ولم يخطر بباله غدرهم له فأمر مماليكه أن يذهبوا ويأتوا بالخيـل وبقى هو وحده ينتظر فرسـه فخرج عليـه نفر من الخباء وقتلوه بينهـم وأرسـلوا الى البرديسى بالخـبر وكان محمد علىّ سرچشمه وأحمد بيك وبقيـة كبار الارنؤط قد عبروا الى الشاطئ الثانى من النيـل وترفعوا ليلا وكمنوا ينتظرون الاشارة فلما علموا بالخبر زحفوا على قصر الالفى الصغير وأحاطوا به وقد ضموا اليهم مقـدم أصحاب مدافع الالفى وأمير عسكره فعطل المدافع وأخـذ محمـد علىّ سرچشمه يدبر أمر احاطة القصر بطوائف الارنؤط الى آخر الليل فجاء الى الالفى من أيقظه من نومه وأعلمه بخبر قتل حسـين بيك واحاطتهم بالقصر فتأهب للقتال وطلب أمير مدافعه فلم يجده وأعلموه بما فعـل بالمدافع فركب فرسـه وخرج وخرجت معه أتباعه ببعض المتاع والأموال فركب محمـد علىّ سرچشمه وأحمـد بيك ونفر من الارنؤط خلفـه فلم يدركوه وقد اشـتغل بقيـة العسكر بنهب القصر وأخذ جميع ما فيه من أثاث ومتاع وهجموا على بيت كاتبه المعلم غالى ونهبوه وكذلك نهبوا جميع دور اتباعه ومماليكه وأخذوا ما كان عند كاتبه المذكـور من الاموال ثم نهبوا جميع دور الجيزة وفعلوا بها ما فعلوه بدمياط من سـبى النساء وفض الابكار وأصبح الناس فى القاهرة وهم لايعرفون شـيأ مما وقع الا ماعلموه من صياح نساء وجوارى حسـين بيك فى داره ۞ أما الالفى الكبير فانه لما وصل الى رشيد قابله حاكمها بغاية الابهة والاحتفال ولم يكن معه الا خاصة مماليكه وجوخداره تتمة ستة عشر ولم يقم برشـيد سوى ليلة ضيفا عند أحد التجار وأنزل أمتعته فى سفن أربعة صغيرة وانتقل فى آخر الليل الى دار قنصل الانجليز وأصبح فأهدى اليه القنصل حراقة لطيفة فنزل بها وسار الى مصر فعانده الريح وكان لما جاء الخبر بوصوله الى مدينة رشـيد سير الالفى الصغير لحضوره ذهابية فانحدرت من بولاق الى رشـيد فلاقوه عند بلدة نادر بعد نصف الليـل فلما أصبح نزل بالذهابية وسار الى منوف العلا فأقام بها يوما ثم سار والريح تعاكسه الى وقت الظهيرة فلاقاه عدة من الارنؤط المرسلين لقتاله فى أربع من السفن الصغيرة فى مضيق الترعة فسلم عليهم فردوا عليه السلام فسألهم بعض أتباعه الى أين ذاهبون قالوا نريد الالفى وقد تناجى الملاحون فعرف ملاحوا مركب الالفى ماجرى بمصر فأخـبروا الالفى بالخبر فكذبه وقال هـذا شئ لايكون أبدا وقد تغربت وركبت الاخطار وقضيت سـنة بين ظهرانى الانجليز أعمل على تعزيز جانبهم واعلاء كلمتهـم رغما عن مكايد رجال السلطنة ويعاملوننى بهذا القبيح فلعلها حادثة وقعت بينهم وبين طوائف العسكر ولم تمض الا ساعة أو نحوها حتى قيـل له ان طائفـة من الارنؤط أدركوا الحراقة خلف ونهبوا ما بها من أثقال ومتاع فكاد يسقط فى يده وتحقق الغـدر وأنه مأخوذ

لامحالة فنزل باحدى السفن الصغيرة ونزل معه مماليكه كافة وأخذوا بالمجاذيف وهو يستحثهم حتى خرجوا من تلك الترعة الى ظهر النيل ولم يسر الا قليلا حتى لاقته طائفة أخرى فى سفينتين ومعهم أحد أتباع البرديسى فلم ينظروا سفينة الالفى أو نظروها ولم يعرفوه فجعل يجد فى السير حتى وصل الى شبرى الشهابية فنظر واذا بساع مقبل من مصر فطلبه وسأله فأعلمه أنه مرسل الى بيت سليمان كاشف البواب ليخبر بما جرى فعند ذلك تحقق الخبر ونزل الى البر وأمر بالسفينة فأغرقوها وسار فى مماليكه على أقدامهم ولم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا الى ناحية قرانفيل ودخل الى نجع عرب الحويطات والتجأ الى امرأة منهم فأجارته ولبت دعوته وأركبته فرسا وسيرت معه اثنين على الهجن الى ناحية الجبل فساروا الى الخانكاه ليلا ومماليكه خلفهم مشاة فلاقتهم طائفة من العربان فأحاطوا بهم فاشتغل المماليك بقتالهم فتركهم الالفى وسار مع أصحاب الهجن ومضى وقد سمع الجند القريبون منهم وفيهم البرديسى أصوات البنادق فأسرعوا اليهم وسألهم عن أستاذهم فقالوا قد كان معنا ثم تركنا وسار الى الجبل فأمر البرديسى جميع من كان معه من الجنود بأن يتفرقوا ويضبطوا جميع المسالك والطرقات ومن أدركه منهم يقتله فى الحال فذهبوا خلفه وتفرقوا فى كل صوب وناحية فلم يعثر به أحد ولحق به جماعة العربان الذين قاتلوا مماليكه وأرادوا القبض عليه فنثر عليهم ما كان معه من الذهب والجواهر وألقى عنه فروته السمور فاشتغلوا عنه فتركهم وسار وغاب أمره فجعلوا يبحثون عليه وانتشرت طوائفهم فى الجهات شرقا وغربا وتتبعوا أقاربه وأتباعه ففر من فر وقبض على من قبض عليه وأدرك جماعة الارنؤد سفينته التى كانت تحمل متاعه وأثقاله وكان شيأ يجل عن الوصف من أموال وطرائف الانجليز وجوخ وأسلحة وجواهر أهداها له ملك الانجليز وأكابر دولته ومبلغا من المال لمشترى غلال لذمة ملك الانجليز ثم أغرقوا تلك السفن فى النيل ۞ أما الالفى الصغير فانه سار من فوره الى الصعيد وفرد على البلاد الفرد والكلف وطالبهم بها وشدد فى الطلب فكان كل من عصاه أو توانى فى الدفع نهبه وأحرق داره وشرد عياله فكتب ابراهيم بيك والبرديسى لكافة الامراء والحكام بالاقاليم بالاهتمام فى القبض عليه وفى البحث والتفتيش على الالفى الكبير فأخذوا الناس بالشبهات وكثر الوشاة على أبوابهم فقتلوا بسبب الهاربين خلقا كثيرا وأخرجوا جماعة كثيرة على ظهور الخيل والهجن يتتبعون أثر الالفى الكبير وكلهم من أصحاب البرديسى وخواصه الذين عليهم معتمده وأصبح البرديسى ولم يبق حوله من أصحابه الا النزر اليسير

(مطلب)

(فتنة الارنؤط وظهور كلمة محمد على سرچشمة)

ولم تكن هذه الحوادث المتراكمة والاحن المتوالية لتشغل جماعة الارنؤد عن طلب جماكيهم

المتأخرة

المتأخرة وعلوفاتهم الموقوفة ولم يحل عندهم محلها مانهبوه من متاع وأموال وغيره فى خلال تلك الحوادث فضلا عما كانوا يخطفونه فى كل يوم من المارة وأبناء السبيل فاجتمعوا يوما وذهبوا الى كبارهم فى طلب الجامكى فوجهوا بهم الى الامراء المصريين وطالبوهم ففرضوا لهم مائتى ألف ريال على اقباط مصر منها خمسون ألفا على المعلم غالى كاتب الالفى وثلاثون ألفا على تركة المعلم بقطر المحاسب كاتب البرديسى والمائة والعشرون موزعة عليهم فلم يكتفوا بذلك وتحزبوا فرقا وطافوا فى الشوارع والطرقات يخطفون مابأيدى الناس ويغتصبون النساء بلا تحاش ولاخوف وقصدوا الصعود الى قلعة الجبل ليملكوها لكى يدمروا المدينة فلم يتمكنوا من ذلك واشتدت حركتهم وكثر تطوافهم فقتلوا ونهبوا وفعلوا مالاخير فيه يوما وليلة وأصبحوا فركب محمد علىّ سرجشمه ونادى بالامان وجمع اليه كبار العسكر وأعلمهم بأن الامراء مهتمون بصرف الجامكى بواسطة تقرير فردة على الاهالى فأسكنوا هياج العسكر وقام المحروقى بجمع هذه الفردة وشرعوا فى الاحصاء وفرضوها على العقار والاملاك أجرة سنة يقوم بدفع نصفها المستأجر والنصف الثانى يدفعه صاحب الملك وطاف لذلك الكتاب والمهندسون ومع كل طائفة منهم نفر من الجند فنزل بالناس ما لايوصف من الغم مع ماهم فيه من القحط والغلاء فضجوا واستغاثوا وذهب جماعة من أصحاب الجباية الى باب الشعرية ودخلوا درب مصطفى فخرج اليهم الفقراء وصاحوا فى وجوههم وسبوا ورجموا بالاحجار وخرج النساء جماعات يصرخن ويولولن وبأيديهن دفوف وطبول يضربن عليها وينددن ويتغنين ويقلن كلاما على الامراء مرتبا ويجاهرن بقولهن «ايش تأخذ من تفليسى يابرديسى» وصبغن أيديهن بالنيلة فاقتدى بهن غيرهن وخرج الرجال ومعهم الطبول والبيارق وأغلقوا الاسواق والوكائل وحضر الجمع الكثير الى الجامع الازهر فركب المشايخ معهم الى حيث الامراء وكلموهم فى الامر ثم رجعوا وأمامهم المناداة بابطال تلك الفردة فسكن الحال وخمدت نار هذه الفتنة * قال صاحب عجائب الآثار وكانت هذه الفعلة من جملة الدسائس الشيطانية فان محمد علىّ لما حرش العساكر على محمد باشا خسرو وأزال دولته وأوقع به ماأوقع بمعونة طاهر باشا والارنؤوط ثم بالاتراك عليه حتى أوقع به أيضا وظهر أمر أحمد باشا وعرف أنه ان تم له الامر وقويت شوكة الاتراك لايبقون عليه فعاجله وأزاله بمعونة الامراء المصريين واستقر معهم حتى أوقع باشتراكهم قتل الدفتردار والكتخدا ثم محاربة محمد باشا بدمياط حتى أخذوه أسيرا ثم التحيل على علىّ باشا الطرابلسى حتى أوقعه فى فخهم وأزالوه وقتلوه ونهبوه كل ذلك وهو يظهر المصافاة والمصادقة للمصريين وخصوصا للبرديسى فانه تآخى معه وجرح كل منهما نفسه ولحس من دم الآخر قال واغتر به البرديسى وراجت سوقه عليه وصدّقه وتعضد به واصطفاه دون خشداشينه وتحصن بعساكره وأقامهم حوله فى الابراج وفعل بمعونتهم ما فعله بالالفى واتباعه وشردهم وقص جناحه بيده وشرد البواقى وفرقهم فى النواحى فى طلبهم فعند ذلك استقلوهم فى أعينهم وزالت هيبتهم من قلوبهم وعلموا

خيانتهم وسفهوا رأيهم واستضعفوا جانبهم وشمخوا عليهم وفتحوا باب الشر بطلب العلوفة مع الاحجام خوفا من قيام أهل البلد معهم ولعلمهم بميلهم الباطنى اليهم فاضطروهم الى عمل هذه الفردة ونسب فعلها الى البرديسى فثارت العامة وحصل ماحصل وعند ذلك تبرأ محمد علىّ من ذلك وساعدوهم فى دفعهم عنهم فمالت قلوبهم اليهم ونسوا قبائحهم وابتهلوا الى الله فى ازالة الامراء وكرهوهم وجهروا بالدعاء عليهم وتحقق العسكر منهم ذلك قال وانحرف الامراء على الرعية باطنا بل أظهر البرديسى الغيظ والانحراف من أهل مصر وخرج من بيته مغضبا الى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول لابد من تقريرها عليهم ثلاث سنوات وأفعل بهم وأفعل حيث لم يمتثلوا لاوامرنا اه

ورأى البرديسى من خروج أهل البلد والتهاب نار الفتنة ما أذهله وأخافه ومن عبث الارنؤوط وتطاول أيديهم الى النهب والسلب وخطف النساء والصبيان والمطالبة بالجماكى المتأخرة وعدم الوقوف عندحد مع الاستخفاف بأمره ماأذهب صبره وضاق معه صدره فاجتمع بالامراء واشتوروا ثم أخذوا يدبرون على العسكر فأرسلوا الى أصحابهم المتفرقين فى الجهات القبلية والبحرية يطلبونهم للحضور فأرسلوا الى حسين بيك الوالى ورستم بيك من الشرقية واسماعيل بيك ومحمد بيك المنفوخ ليأتيا من شرق اطفيح وقد كانوا جميعا يرصدون الالفى وينتظرونه واستقدموا حاكم الصعيد بمن حوله من الكشاف والامراء وحاكم رشيد وحاكم دمياط وأصعدوا محمد باشا المسجون الذى سبق الكلام عنه الى قلعة الجبل فأحس جماعة الارنؤوط بما وراء ذلك فبادروا واجتمعوا بالازبكية فى يوم الاحد ثامن عشرينه ثم ذهب جمع منهم الى ابراهيم بيك واحتاطوا ببيته بالداودية وكذلك بيت البرديسى بالناصرية وتفرقوا حول بيوت باقى الامراء والكشاف وغيرهم وكان ذلك وقت العصر فلما علم البرديسى باحاطة الارنؤوط لداره رتب أموره وأخذ معه أمواله وركب فى خاصته على الهجن وذهب الى ناحية مصر القديمة وكان الارنؤوط قد نقبوا نقبا من حائط الجنينة التى خلف داره ودخلوا منه الى الدار فوجدوا البرديسى قد خرج بمن معه من المماليك وبعض الجند والاتباع فقاتلوا من وجدوه ونهبوا مافى الدار من فرش ومتاع وخرجوا فعاثوا وأفسدوا وقتلوا وسبوا وتطاولت أيديهم أيضا الى بيوت الناس على اختلاف طبقاتهم واشتدت الفتنة وكثر صياح النساء وبكاء الاطفال فتحصن الناس فى البيوت ورموا بالاحجار من الشبابيك الى أن خيم ظلام الليل * فلما كانت الساعة السابعة من الليل أرسل محمد علىّ سرچشمه طائفة من الارنؤوط الى قاضى القضاة ومعهم مرسوم السلطان بولاية أحمد خورشيد باشا حاكم الاسكندرية على ديار مصر ورسم للقاضى أن يجمع المشايخ والعلماء فى الصباح ليتلى عليهم ذلك المرسوم فاستغرب القاضى ذلك وامتنع من جمع العلماء والمشايخ نظرا لاشتداد الفتنة وتطواف جماعة الارنؤط بالشوارع والطرقات وقتلهم لكل من وقع فى أيديهم وأصبحوا وقد اشتدت الحركة وكثر الرمى بالبنادق على بيوت الامراء فهرب الكثير منهم

وخرجوا على وجوههم وعلم ابراهيم بيك الكبير بخروج البرديسى فى مماليكه وأتباعه فخرج هو كذلك فيمن بقى من مماليكه وأتباعه ولم يزل سائرا حتى خرج الى الرميلة وقدهدم فى طريقه أربعة متاريس وأصيب بعض مماليكه وخيله وأتباعه وأصيب كذلك كتخداه فمات عند باب العزب * وكان بعض الامراء المصريين قد تعوقوا بقلعة الجبل فتحصنوا بها ووجهوا أفواه المدافع نحو مواقع وبيوت الارنؤوط وتابعوا الرمى بالقنابل عليها وعلى ناحية الازبكية وظلوا على هذا الحال الى الضحوة الكبرى فجاءهم الخبر بفرار ابراهيم بيك والبرديسى ومن أمكنه الفرار من بقية الامراء فركنوا هم كذلك الى الفرار وهموا بأخذ محمد باشا وعلىّ قبطان باشا وابراهيم باشا الذين كانوا فى حبوس القلعة السابق الكلام عليهم فلم تمكنهم العساكر المغاربة من ذلك فلما نزلوا من باب الجبل قام المغاربة ونهبوا مافى دار الضرب وعاثوا فى القلعة فأخذوا ما فى المخازن السلطانية وغيرها ثم صعد محمد علىّ سرچشمه اليها فى نفر من الارنؤوط وتسلمها من غير ممانع ولبث بها برهة ثم نزل منها وقد أنزل معه محمد خسرو باشا الذى كان معتقلا وأمامهم المناداة بالامان والاطمئنان وشاع خبر خروج محمد باشا خسرو من معقله ورجوعه الى مسند الولاية على مصر فخرج الاعيان والمشايخ للقائه وذهبوا الى بيت محمد علىّ سرچشمه ليهنؤه فقابلهم ولاطفهم فكانت مدة حبسه ثمانية أشهر كاملة حيث جاء الى مصر بعد أسره فى دمياط فى آخر ربيع الاول وكان خروجه على يدى محمد علىّ سرچشمه فى آخر يوم من ذى القعدة وظن محمد خسرو باشا أن قد أقبلت عليه السعادة بعد ادبارها فجعل يتصرف فى الامور ويعمل على تسكين خواطر الارنؤوط ويشير على محمد علىّ بعمل مايشاء عمله وهو فرح مسرور * فلما كانت ليلة الاربعاء ثانى المحرم افتتاح سنة تسع عشرة لم يشعر محمد خسرو باشا الاوقد دخل عليه جماعة من الارنؤوط وقبضوا عليه وقبض جماعة أخرى على ابراهيم باشا ونزلوا بهما الى بولاق القاهرة وأنزلوهما فى احدى السفن وأحاطوهما بالسيوف والبنادق فانزعج خسرو باشا وقال الى أين ياقوم وقد صرت فى ذمة محمد على وأمانه فقالوا الى حيث يشاء الله فسقط فى يده وكانت ولايته فى هذه المرة أشبه بولاية أحمد باشا الذى تولى بعد موت طاهر باشا يوما ونصف يوم * قال بعض الكتاب وكان السبب فى تبعيد خسرو باشا على هذه الصورة بغض اخوة طاهر باشا اليه وحقدهم عليه فخشى محمد على عاقبة بقائه وأسرع فى تبعيده عن الديار المصرية فسكنت بتبعيده الفتنة وعادت الامور الى سابق مجراها وصعد عابدى بيك أخو طاهر باشا الى قلعة الجبل واستقر بها فى جمع كثير من الارنؤوط ووردت الاخبار بقدوم أحمد خورشيد باشا وولايته على مصر فتأهب محمد على للقائه وبالغ فى ذلك حتى وصل الى القاهرة ودخل فى الموكب المعتاد ونزل بالدار التى أعدت له بالداودية فلم يقم بها سوى يومين وانتقل منها الى دار محمد على بالازبكية ولم يكد يستقر به المنصب حتى شاع الخبر بظهور الالفى الكبير وقد كان مختفيا بشرقية بلبيس برأس الوادى عند شخص من العربان اسمه عشيبة فلم يزل عنده حتى زالت دولة البرديسى وتلاشت

مطلب
اخراج محمد خسرو باشا من معقله وتوليته الامارة على مصر بمعونة محمد على سرچشمه

مطلب
تبعيد محمد خسرو باشا وولاية أحمد خورشيد باشا

كلتـه وتفرق أصحابه وانجلت الطرق من العيون والارصاد التى كانت تتبع الالفى فركب فى عدة من الهجانة ومروا من خلف الجبل وسار الى شرق اطفيح ونزل عنـد قبيلة المعازه فلما علم محمد على بخبره خافه وتطير منـه وسير خلفه طائفة من الارنؤوط وعلم جميع الامراء الهاربين بظهور الالفى فجاؤا اليه واجتمعوا عليه عندالجيزة واجتمع اليهم العدد الكثير من عربان الهنادى والمماليك وقاتلوا من خرج اليهـم من الارنؤوط فهزموهم شرهزيمة وكاد يستفحل أمرهـم فركب عليهم محمـد على فى جماعة كثيرة وقاتلهم وأجـلاهم عن الجـيزة وقتل من العربان خلقا وشرّد من بقى منهـم وقد قتل وجرح كذلك من عسكر محمـد على فترفع الامراء الى الصعيد وعاد محمد على ظافرا فلم تكن الا أيام حتى عادوا الى الجيزة وعاثوا فيها وأهلكوا الحرث والنسل وانتشروا بها انتشار الجراد ونزلوا على انبابة وضربوا أهلها ونهبوا ماعندهـم فخرجوا هائمين على وجوههـم وعـبروا النيل الى مصر والقاهرة فأخـذ محمـد على فى جمع عساكره وعبروا النيل الى انبابة وعسكروا على مقربة منها وعملوا خندقا ومتاريس فزحف عليهـم الامراء والعـربان وهجموا على المتاريس هجمات متتابعـة ووقعت بين الفريقـين مقتـلة عظيمـة أبلى فيها الفـريقان نحو نصف النهار ثم انجلت الحرب بينهـم وترفع الامراء والعربان ولم يبلغوا من العساكر وقد قتـل من الامراء عـدة كثيرة ولم تكن الا أيام قليـلة حتى عادوا ووصـل فريق منهـم الى قبـة باب النصر والعادليـة من خلف الجبل وجعلوا يغـدون ويروحون خلف باب النصر من خارج و باب الفتـوح والشيخ قمر والدمرداش ونهبوا الوايلى وجميع ماجاوره ودخـلوا الدور وأخذوا مافيها فخرج أهـل تلك الجهات على وجوههـم ودخـلوا الى القاهـرة فرسم الباشا الى محمـد على بالخـروج فى عسكره فخرجوا من باب النصر وعـلوا المتاريس عنـد البـاب المذكور فتفرق العربان والأمراء فى اقلـيم الشرقية والقليوبيـة وسار منهـم طائفة الى بلبيس فحاصروا بها كاشف الشرقية يومين ثم دخلوها عنوة وقتلوا ونهبوا وقبضوا على الكاشف واثنين من كبار العسكر ثم حاصروا كاشف القليوبية وأخذوا أحماله ومتاعه وتركوه بعد قتال فهرب بمن بقى معه الى القاهرة وطلبوا مشايخ البـلاد وألزموهم بالكلف وفرّدوا على القرى الفرد الشاقة وقيـدوا بطلبها جماعة العربان فكان كل من استعظم الأمر أوعصى حاربوا قريته ونهبوها وسبوا نساءها وقتلوا أهلها وأحرقوا أجرانها فاشتدّ الكرب وعظم الخطب وسار محمد على بعسكره خلفهم فوقعت بينه وبينهم وقائع وحروب مات فيها خلق من الفريقـين ونزل من بقلعة الجبل من الارنؤط للقتال فصعد اليها أحمد خورشيد باشا الوالى وسكن فيها بخدمه وأتباعه وأخذ يتصرف فى الأمور ويقرر الكلف والأموال على البـلاد فضرب على أهل مصر والقاهرة خمسـة آلاف كيس نقرة منها على أعيان القبط وعظمائهـم ألف وخمسمائة وجملة أخرى على الملتزمين وثمانمائة كيس على بقية نساء الامراء المصريين الأحياء منهم والاموات فضج الناس وطلبوا التخفيف فلم ينالوه وطاف المعينون على بيوت نساء الأمراء يجمعون المقرر فكان اذا تأخرت احداهن أوطلبت المهلة أياما لازموا بابها وطالبوها عما يأكلون وعما يشربون وما يفرشون لجلوسهم

وقومهم فلا يسعها الا السعى والخلاص على أى حال كان ومع ماجمعه أحمد باشا من هذه الأموال الطائلة والمغارم الفادحة فانه لم يلتفت لشكوى طوائف الأرنؤط من تأخير صرف جماكيهم ولم يعطهم منها شيأ فذهب فريق منهم الى محمد على وأحمد بيك وكبارهم وشكوا اليهم فكلم محمد على أحمد باشا فى أمرهم فلم يصغ لقوله وطال الحال عليهم وهم لاينكفون عن الشكوى فلما كان أحد الايام جاء منهم جماعة الى القاهرة يطالبون بما لهم وتربص آخرون بنواحى بهتيم وبلقس ومسطرد بعد أن أخرجوا أهلها منها ونهبوا مافيها من ماشية وغلال وغيرها وتترسوا فيها ونصبوا خيامهم على أسطحة دورها وعملوا بعض المتاريس خارجها ونصبوا عليها ما كان معهم من المدافع وكان اذا مر أحد رموا عليه بالبنادق فلم يجسر أحد من العسكر على الدنو منهم وسعت بينهم وبين أحمد باشا رسل الصلح فوعدهم بصرف جميع ماتأخر لهم فقالوا لاننفك عما نحن فيه حتى تأتونا بالمال هنا فأصبحوا وقد أرسل الباشا أوراقا الى أرباب الحرف والصنائع سموها تشابيه بطلب غرامة قدرها خمسمائة كيس وطاف المكلفون بجمعها فى الاخطاط فضج الناس وتحزبوا وصاحوا فى وجوه أصحاب الجباية واجتمع الجمع الكثير منهم وساروا الى الجامع الازهر فتبعتهم الغوغاء والصبيان وهم فى ضجة عظيمة وأمامهم الطبول وشكوا أمرهم للمشايخ وقالوا قد بلغت الروح التراقى فلاطفهم المشايخ فلم ينكفوا عما هم عليه وصعد جماعة على منارات المساجد وصاروا يصرخون ويسبون وينادون بالويل والثبور على الباشا وأعوانه * قال صاحب عجائب الآثار وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويضرعون ويضجون «ياالطيف» وأغلقوا جميع الاسواق والحوانيت ووصل الخبر الى الباشا وسمع صياحهم وضجيجهم من قلعة الجبل فأرسل يقول الى السيد عمر النقيب قد رفعنا الفردة عن الفقراء فبلغهم ذلك فأرسل يقول ان الجميع فقراء أوما كفى ماهم فيه من القحط والغلاء والوباء وعدم الامن على الاعراض والارواح حتى تطالبوهم بجوامك عسكركم فأمر الباشا الأغا فنزل ومعه عدة من العسكر وجلس بالغورية وهو يأمر الناس بفتح الحوانيت ويتوعد من يتخلف فلم يلتفتوا لقوله وكان كلما شدد معهم فى القول صاحوا فى وجهه وضجوا وابتهلوا الى الله وما زالوا على هذا الحال حتى جاء رسول من عند الباشا ومعه مرسوم بابطال تلك الفردة وكف المعينين عن طلبها فسكنت عند ذلك الفتنة وتفرقت تلك الاحزاب وأصبحوا وقد فتحوا الحوانيت فعاد طوائف الأرنؤط الى المطالبة بجماكيهم وأكثروا من العبث فى المدينة وقطع من كان منهم مخيما ببلقس الطرق على المارة ومنعوا السفن فسير الباشا جماعة من العساكر المصرية لقتالهم فلم يبلغوا منهم مأربا وانحاز المصريون الى ناحية شلقان عن معهم من الجرحى والموتى فكانوا كثيرين جدا وأخرج فى هذه الوقعة عابدى بيك أخى طاهر باشا اه

وبينما كانت طوائف الأرنؤط تطالب بالمتأخر من جماكيها وعلوفاتها كان الأمراء المصريون ومن معهم يحاولون الدنو من مصر والقاهرة ويقبضون على من يصادفونه من الجند

والرعيـة ويسـلبون المارة و وصـلت بعض طلائعهـم من عربان ومماليك الى خارج باب
النصر وظاهر الحسـينية وناحيـة الزاوية الحمراء وجزيرة بدران جهـة الحلى وعاثوا فى تلك
النواحى وحالوا بين من خرج من عسكر الباشا لقتال الأرنوط و بين معسكرهـم وظفروا بهم
ونالوا منهم وأخذوا جميع ما كان معهم من مؤنة وسلاح وذخـيرة وجاء الخبر بذلك الى الباشا
فنزل من قلعـة الجبل ومعـه الجمع الكثير من الجند وسار الى بولاق ثم الى الزاوية الحمراء
وأمر بأبواب المدينة فأغلقت وقاتل من وجده منهم فلم يظفر فرجع على غير طائل وقد ترفع
المصريون الى مشـتهر وبنها العسل ومعهم المنهوبات من متاع وماشـية وغـير ذلك وخرج
خلفهـم محمـد علىّ سرجشمه وحسـن بيك حتى وصلوا الى قليوب فلم يظفروا بهم ورجعوا
على أعقابهـم الى القاهرة وأرسل فى هذا الحين الألفى الكبير الى الباشا يطلب منه الاجازة
بحضوره الى مصر وأنه على ما يعهده فيه من الاخلاص والولاء فأبى عليـه ذلك وأرسل اليه
يقول ان كنت على ما عهدناه فيك من الولاء فالزم مقرك بجرجا التى قد أقطعناها اليك ولا
تقدم الى القاهرة فى هذا الحين حتى نستقدمك عند الحاجة فلم يذعن الألفى لقوله وزحف هو
وعثمان بيك حسن ومن معهما من المماليك والاتباع وبعض الجند والكشاف فوصل الالفى
الى بنى سويف ووصـل عثمان بيك قبالته بالجانب الشرقى من النيل وأرسل الألفى عنـد
وصوله خطابا الى المشايخ يقول قد حافظنا على ولائنا واستمسكنا بعـروة الاخـلاص الوثقى
ولازمنا ماأقطعنا اياه الباشا من البـلاد ولم نتعـدّها الى الآن أما وقـد مس نساءنا الضر
وأصبحت ذرارينا عرضة للتشريد بما ضرب عليهم من المغارم والكلف فلم نر بدّا من الانحدار
الى القاهـرة رغما عن كل ممانع حـتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فلما وصـل الخطاب الى
المشايخ خافوا من كتمانه وأطلعوا الباشا عليـه وسألوه الاجازة للالفى فأباها عليه وقال قدكان
نساؤهم بين ظهرانينا كما كانوا بين ظهرانى الفرنسيس وقد صادروهن وهم أعداء الدين واليوم
هن معنا فى قرار مكين لاخوف عليهن ولا تضييق فان عاد الألفى ومن معه الى مقرهم سعينا
فى اصلاح شأنهم وأرجعناهم الى عيالهم والاشردناهم وعملنا على قطع شأفتهم فانصرف المشايخ
وأمر الباشا محمـد علىّ سرجشمـة فخرج بعسكره الى ناحيـة الامام الليث وحفروا هنالك
خندقا وعملوا متاريس وبالغوا فى إحكامها وترتيبها وأكثروا من اخراج الاسلحه وآلات الحرب
وكان العـدو أمامهم وقد سدّ على مصر والقـاهرة من الجانبين القبلى والبحرى فكان أصحاب
ابراهيم بيك والبرديسى وطوائف الارنؤط يعيثون فى البلاد من شلقان الى جوف الشرقيـة
والغربيـة والمنوفيـة وجماعة الالفى يعيثون فيها من الصـعيد الأعلى الى الجيزة وما جاورها
فعمت الفوضى وارتفع الأمن وخيفت المسالك وكثر القتل والنهب فى الليـل والنهار وانضم
الجمع الكثير من طوائف الارنؤط الى الامراء المصريين فتقوّت بهم عزائمهم وتطاولت أيديهم
الى كل فساد وشر و وصـل أيضا الالفى الصغير بطوائفـه الى انبابه وأراد الزحف على المدينة
فأطلق عساكر محمد علىّ عليهم المدافع من بولاق القاهرة ومراكب البحر ومنعتهـم من الدنو

من المدينة واشتدت الأزمة واستحكمت على من بمصر والقاهرة حلقاتها وكثر تطير الباشا وأخذه للناس بالشبهات فأكثر من الحبس والقتل بأضعف الاسباب حتى كادت تزول هيبته وتضعف كلمته وانتقل محمد علىّ بعسكره الى بلدة طنط جهة براشيم التين وخلفه ببولاق حسن بيك وعسكره فوقع بين محمد علىّ والامراء المصريين مقتلة عظيمة انجلت عن هزيمة المصريين فترفعوا بعد الهزيمة عن براشيم التين فتبعهم بعساكره فترفعوا فعسكر تجاه البراشيم ولبث أياما ثم انحدر منها الى القرافة بمصر ونزل على مقام عقبة بن عامر الجهنى وقاتل من كان بتلك الجهة من أصحاب الالفى الكبير والصغير وأجلاهم عنها فساروا الى طرا وتحصنوا بها وكانوا قد أخذوا برجها وتمكنوا مما حوله فكاتبهم محمد علىّ وطلب صلحهم وخدعهم وأظهر لهم عجزه عن قتالهم فاغتروا وأبوا الا القتال فأتى محمد علىّ ليلا الى الباشا وأخذ منه قدرا من المال ورجع الى أصحابه فأنفق عليهم فتقوت عزيمتهم فلما كانت الساعة الخامسة من تلك الليلة ركب محمد علىّ فى نحو أربعة آلاف ما بين فارس وراجل وساروا حتى اقتربوا من حرس العدو فى آخر السادسة فترجلوا وقسموا أنفسهم الى ثلاث طوائف طائفة سارت نحو الدير وطائفة سارت نحو المتاريس والثالثة نحو الخيل وقد كان صالح بيك الالفى الصغير ومن معه فى سنة من النوم فلم يشعروا إلا وقد صدموهم صدمة شديدة فاستيقظ القوم وبادروا الى الهرب والنجاة فأخذ أصحاب محمد علىّ الدير وملكوا الابراج وكان بها العساكر العثمانية وقد أشرفوا على الاستئمان والتسليم وغنموا ما وجدوه من أسلحة وخيل وهجن ومتاع وكان شيأ كثيرا وعاد محمد علىّ عند بزوغ الفجر بعساكره ومعه خمس رؤس وصعد الى قلعة الجبل بالرؤس فخلع عليه الباشا فروة سمور وعلقوا تلك الرؤس على سبيل الرميلة فلم تمكن الأيام حتى عاد الالفى يشن الغارة على طرا وأبراجها وكذلك عاد ابراهيم بيك والبرديسى وعسكرهما يشنون الغارة على قليوب وبنها وضواحى القاهرة جميعها ۞ فلما كان يوم الاحد عاشر ربيع الثانى خرج محمد علىّ بعسكره وكذلك خرج عابدى بيك وحسن بيك الى شبرا وقاتلوا حسين بيك المعروف بالافرنجى قتالا عنيفا وثابروا على رمى القنابل الى ضحوة النهار ثم التحم الفريقان واشتد الجلاد بينهما الى ما بعد نصف النهار وصبر الفريقان وقتل بينهما خلق كثير من الارنؤط وطوائف المماليك وأكابر العسكر ثم انحاز كل الى معسكره وبعد هجعة من الليل اجتمع العسكر من طوائف الانكشارية والارنؤط وغيرهم وزحفوا على متاريس حسين بيك الافرنجى وكبسوها وكان بها حسين بيك وعلى بيك أيوب وعدد كثير من الجند والمماليك ولم يمهلوهم حتى زحفوا على بقية المتاريس فملكوا منها متاريس شلقان وبسوس وانهزم المصريون وارتحلوا الى الخانكاه وأبى زعبل ثم عادوا فجمعوا من تشرد منهم وساروا من خلف المقطم الى الصعيد

وبعد أيام من وقوع هذه الحوادث سافر أخو طاهر باشا الى الديار الرومية وشاع الخبر بارتحال محمد علىّ سر جشمه كذلك فتطير الناس من ذلك وأعقب هذه الاشاعة عبث العسكر

بالاهالى وتطوافهم فى الاسواق يخطفون مايشاؤن من السوقة وأصحاب الحوانيت فضلا عن النساء وغيرهم فلما كان ثانى يوم مرّ محمد علىّ وخلفه عدة كبيرة من العسكر وهو ماش على أقدامه وأمامه المناداة بالأمان وعود الأمور الى سابق مجراها فلم تطمئن قلوب الرعية بل زادوا فى التحذر وكذلك تحذر طوائف الانكشارية لتعدى جماعة الارنؤط عليهم وقتل بعضهم البعض فى الطرق والشوارع وفى وسط الاسواق جهارا ثم برز محمد علىّ بعد أيام بعسكره الى ناحية البساتين ولبث بها أياما والمناداة فى كل يوم فى جميع العسكر بالخروج والاستعداد لقتال الامراء المصريين * فلما كان يوم السبت رابع عشر شعبان سار محمد علىّ بعسكره الى الصعيد وسار آخرون أيضا الى الاقاليم البحرية فالتقى محمد علىّ بالالفى الكبير ولمومه عند منية ابن خصيب فوقع بينهما القتال وانتشبت الحرب وطالت أيامها فى البر والبحر وطلب محمد علىّ المدد من الباشا فأمدّه وسير اليه كثيرا من الاسلحة ومعدّات القتال والمؤنة وانتشرت عساكر الامراء المصريين حتى وصلت الى زاوية المصلوب وحاصروا من كانوا فى بوش والفشن وبنى سويف وكذلك من بالفيوم ووصلت مقدّماتهم الى ناحية الجيزة وطلبوا من أهالى تلك البلاد الكلف وضربوا عليهم المغارم كعادتهم وجبوها وأخذوا ماوجدوه فيها من غلال وغيره فعبر كتخدا الباشا النيل الى الجيزة وحصن حدودها وعمل فيها المتاريس والخنادق ورتب بها الجند المرابطين وبعد قتال عنيف بين الالفى ومحمد علىّ أياما كثيرة ارتحل الالفى عن منية ابن خصيب وترفع فدخلها محمد علىّ بعسكره فلم يجد فيها شيأ لامن الذخيرة ولا من المؤنة فاستقربها حتى يأتيه أمر الباشا وطال القتال وقوتلت مصر والقاهرة من جميع الجهات واشتد الكرب وعم الهول والخطب فشكا الباشا أمره الى الباب العالى وطلب منه المدد فأمدّه بطائفة من الدلاة فدخلت الى القاهرة من العادلية فى سابع عشرى ذى الحجة ختام سنة تسع عشرة ومائتين وألف وهم فى عدة وافرة ومعهم مقدم اسمه ابن كور عبد الله فأنزلوهم ناحية الفسطاط والآثار وناحية البساتين واهتم الباشا بأمرهم فرتب لهم الجماكى الكثيرة والعلوفات الزائدة وبالغ فى تنظيم أمورهم وأكثر لهم من الاسلحة والكراع وجعل ينظر لكل طائفة من الارنؤط والانكشارية وغيرهم دونهم فى الاهمية والاهتمام فلما علم محمد علىّ وحسن باشا وهما فى منية ابن خصيب بخبر حضور أولئك الدلاة الى القاهرة واهتمام الباشا بأمرهم وركونه اليهم دون بقية الجند وتقرب كبيرهم منه ووثوقه به تطيرا من ذلك وأدركا ما خفى من نوايا الباشا وخشيا العاقبة فانسحبا بعسكرهما من منية ابن خصيب ورجعا الى القاهرة فأغضب الباشا رجوعهما وجمع اليه المشايخ والوجاقلية وأرباب الديوان وكلمهم فى أمر رجوع محمد علىّ وحسن باشا بغير اذن وتركهما القتال وقال انهما لم يرجعا الالامر ينويان فعله فاما أن يرجعا لقتال الاعداء وإما أن يرحلا الى بلادهما قال وقد أتانى كتاب بخط السلطان يفوض الىّ فيه أن أولى من أشاء وأعزل من أشاء وأعطى وأمنع من أشاء فالمصلحة فى أن تبقوا عندى مع كبار الوجاقلية حتى نرى مايكون من وراء ذلك ثم رسم

بخروج العسكر الدلاة المذكورين فخرجوا الى طرا والجيزة ومعهم بعض الانكشارية والارنؤط ومعهم المدافع وآلات الحرب والذخيرة والمؤنة فلم يكن بأسرع من أن نزل محمد علىّ وحسن باشا بعسكرهما الى طرا فلم يجسر الدلاة على ردّهم ولبثوا بطرا أياما ثم صاروا يدخلون المدينة خفية حتى تكامل دخولهم ودخل كذلك محمد علىّ وحسن باشا ونزلا فى بيوتهما فازعج دخولهما الباشا وأغضبه جدا ومنع المشايخ والوجاقلية من الذهاب الى محمد على فقامت من هذا الحين الوحشة بين الباشا ومحمد على وظهرت على كل منهما دلائل الانقباض وتحذر كل من صاحبه فأخذ محمد على فى التدبير على أحمد باشا وخلعه من الولاية وكذلك بدأت الوحشة بين جماعة الارنؤط والدلاة والانكشارية فكانوا على طرفى نقيض وكانت لاتمر ساعة من النهار الا ويقع التشاحن بين أفرادهم فى الحوارى والطرقات وزاد بهم الحال الى حد القتل وتعدّى فعلهم هذا الى المارة وأبناء السبيل وازدحمت طرق مصر والقاهرة باخلاطهم وعاث الدلاة بمصر القديمة فأخرجوا أهلها من دورهم وسكنوها بما فيها من أثاث ومتاع فخرج أهل مصر رجالا ونساء وجاؤا الى الازهر وصاحوا على المشايخ واستغاثوا فكلم المشايخ الباشا فى ذلك فرسم بخروج الدلاة على الفور وكتب مرسوما بذلك فلم يسمعوا قوله ولاأعاروه جانب الاعتبار فخوطب الباشا ثانيا فلم يأت شيأ فاجتمع العدد العديد من الصبيان الصغار وطافوا يصيحون فى الاسواق ويأمرون الناس بغلق الحوانيت ويستصرخونهم فقام الناس على ساق وقدم ووصل الخبر بقيامهم الى الباشا فأرسل كتخداه الى الجامع الازهر فلم يجد به أحدا من المشايخ فسار الى بيت الشيخ الشرقاوى فرأى من تزاحم العامة وتطوافهم بالشوارع والطرقات ماأزعجه فرجع فرجمه الصبيان بالاحجار وسبوه ولعنوه وبقيت الحال كذلك الى يوم الجمعة عاشر صفر

(مطلب)

﴿ولاية محمد على على جدة وتوجيه رتبة الباشوية اليه وماجرى بسبب ذلك من الحوادث والمحن﴾

واتفق أن قدم فى هذا الحين قاصد من دار السلطنة ومعه تقليد لمحمد علىّ بولاية جدة فاستدعى الى قلعة الجبل ليتسلم التقليد فأبى وتأخر فترددت الرسل بينه وبين الباشا ومحمد على يشدّد فى الامتناع وكأنه كان يخشى صعوده الى قلعة الجبل أوهو يكره الولاية على جدّة ولايرضاها وبعد أخذ وردّ وقع الاتفاق على أن ينزل أحمد باشا من القلعة الى بيت سعيد أغا ويخلع على محمد علىّ خلعة التقليد هناك فكان نزوله فى ذلك اليوم الذى قام فيه العامة فلما مر بين صفوف الغوغاء وزحام العامة صاحوا فى وجهه وقالوا «مايحل لك ياباشا» فهاله أمرهم وأسرع بالدخول الى بيت سعيد أغا وحضر محمد علىّ وحسن باشا وعابدى بيك فقرئ عليهم فرمان التقليد وقد خوطب فيه «بمحمد علىّ باشا» ثم قام أحمد

باشا وخلع عليه خلعة التقليد وهى فروة وقاووق فلبسهما وركب يريد الانصراف فثار عليه العساكر وطالبوه بالجامكى والعلوفة فأحالهما على أحمد باشا وسار الى داره بالازبكية وخلفه بعض خواصه وجماعة من أتباعه فكان ينثر قطع الذهب ودراهم الفضة بطول الطريق ووقف العسكر لأحمد باشا ومنعوه من الركوب فلاطفهم حسن باشا ومناهم ولم يتمكن أحمد باشا من الصعود الى قلعة الجبل الابعد منتصف الليل وظلت الحوانيت والاسواق مقفلة والصبيان لاينكفون عن الصياح فى الشوارع والطرقات والاستغاثة والنداء «يالطيف» فلما كان يوم الأحد ثانى عشره ركب المشايخ الى بيت القاضى واجتمع به جماعة من المتعممين والعامة والصبيان وجعلوا يصرخون ويصيحون «شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم» قال بعض كتاب الاخبار مع أنه لم يكن كاسلافه كثير الظلم والجور والعسف ولاسفاكا للدماء ومع ذلك فقد كثر الصياح وعلا الضجيج فكان منهم من يقول يالطيف ومنهم من يقول يارب يامتجلى أهلك طائفة العثمانلى ومنهم من يقول حسبنا الله ونعم الوكيل وغير ذلك وطلبوا من القاضى أن يرسم باحضار أصحاب الحل والعقد من بطانة أحمد باشا لمجلس الشرع فاستحضروا وجلسوا بالمجلس الشرعى ووقع الجدال فاتفقوا على تحرير ورقة بجميع طلبات الرعية ففعلوا ذلك وذكروا فيها تعدى طوائف العسكر والايذاء منهم للناس واخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد وقبض الخراج معجلا وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك وأخذوا هذه الورقة معهم ووعدوا القاضى بالجواب فى غد فأرسل الباشا فى تلك الليلة الى القاضى والمشايخ يستقدمهم اليه بقلعة الجبل فاشتوروا فى أمر ذهابهم فعلم محمد على باشا بذلك وخاف أن يكون بذهابهم الى الباشا خمود نار الفتنة وتفريق تلك الجموع * قال أصحاب الاخبار وهذا لايوافق مصلحته * فأرسل الى القاضى والمشايخ من يعلمهم بأن الباشا يريد الفتك بهم ان صعدوا الى قلعة الجبل فخافوا ولم يصعدوا اليه فى تلك الليلة فلما كان يوم الاثنين اجتمعوا ببيت القاضى وكذلك اجتمع العدد العديد من الغوغاء والعامة فمنعوهم من الدخول وأقفلوا الابواب وحضر بعض الامراء فركبوا جميعا وساروا الى محمد على باشا بمقره وخلفهم العامة والصبيان فى صياح وضجيج فدخلوا عليه وقد كان على علم بما هم فاعلوه وقالوا له إنا لانريد أن يكون أحمد باشا واليا علينا وقد اجتمعنا اليوم لخلعه فان أطاع نجا وان خالف عاملناه بما كسبت يداه * فقال ومن تريدون * قالوا قد اخترناك بدلا منه بشروط * قيل فامتنع فألحوا عليه وأكثروا من الالحاح فرضى فأحضروا فروة سمور وقفطانا وكان السيد عمر النقيب قد أعدّهما فألبسه اياهما هو والشيخ الشرقاوى وذلك عند عصر يوم الاربعاء سادس صفر سنة عشرين ومائتين وألف هجرية ثم طاف المنادون ينادون بذلك تلك الليلة فى جميع أزقة وحارات وشوارع القاهرة ومصر وأصبحوا وقد سيروا الى أحمد باشا يخبرونه بذلك ويطلبون منه أن ينزل من قلعة الجبل فلم يهمه الامر ولم يكترث به وركب المشايخ فى الصباح ومعهم الجم الغفير من العامة وبأيديهم القرابين والعصى والمساوق وساروا الى بركة

مطلب
مافعله العامة والشيخ الشرقاوى والسيد عمر النقيب مع محمد على باشا

الازبكية

الازبكية حيث بيت محمد على باشا وضجوا وصاحوا ونادوا بالويل على أحمد باشا وزادوا فى سبه ولعنه والسيد عمر النقيب يحرض الناس ويشجعهم على ماهم عليه من الجلبة فتحصن الباشا بقلعة الجبل وشحنها بالذخيرة والمؤنة والاسلحة الكثيرة وانضم اليه عمر بيك الارنؤدى وصالح أغا قوش بعساكرهما وأقاموا معه بقلعة الجبل فأرسل محمد على باشا الى عمر بيك وصالح أغا جماعة يذكرون لهما ما اجتمع عليه رأى الجمهور من عزل أحمد باشا وخلع طاعته من أعناقهم ويحذرهما من فعل شئ ينجم عنه خروج الرعية وفعل ما الاخير فيه فأرسلا يقولان أرونا سندا شرعيا نرتكن عليه فى التخلى عنه فاجتمع المشايخ وجميع العلماء فى يوم الخميس سادس عشر صفر ببيت القاضى ونظموا سؤالا وكتب عليه المفتون بالعزل وأرسلوه اليهما فلم يقبلاه واستمرا على الخلاف فلم يلبثا طويلا حتى انحل عن الباشا طوائف الانكشارية وزاد هياج الرعية وأكثروا من التطواف ليلا ونهارا وهم ينادون بتنزيل أحمد باشا من قلعة الجبل واستفحلت الفتنة وتطاير شررها الى القرى والارياف فجاء الجمع الكثير من أهلها ودخلوا الى القاهرة واختلطوا بالعامة وقيل استقدمهم الشيخ الشرقاوى والسيد عمر النقيب لتعميم الفتنة وتعظيم أمرها ولازموا التطواف مع العامة والصياح والجلبة

وقدم فى هذه الاثناء محمد بيك الالفى ومن معه من الامراء والعسكر والعربان وانتشروا جهة الجيزة واستقر الالفى بالمنصورية على مقربة من الاهرام وانتشرت أتباعه جهة الجسر الاسود وأرسل مكاتبة الى السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى ومحمد على باشا يطلب أن يقرروا له جهة يتخذها مقرا له هو وأتباعه فكتبوا له أن يختار من البلاد مايشاء ويتأنى حتى تسكن الفتنة القائمة بمصر وشددوا على أحمد باشا الطلب فلم يلتفت الى قولهم فجعل السيد عمر يحض العامة على الاجتماع والتطواف وركب هو والمشايخ الى بيت محمد على باشا ومعهم أرباب الاشاير ومشايخ الطرق والعامة والملتزمون وبأيديهم الاسلحة والعصى والمساوق والنبابيت ولازموا التطواف ليلا فى الشوارع والحارات أحزابا وطوائف ومعهم المشاعل وهم فى ضجيج هائل ثم رسم محمد على باشا بمحاصرة قلعة الجبل وفرق عساكره فى جهات الرميلة والحطابة والطرق النافذة مثل باب القرافة والحصرية وطريق الصليبة وجلست طائفة منهم بالمحمودية والسلطان حسن وأنشؤا المتاريس فى تلك الجهات ومنعوا من يصعد أو ينزل من قلعة الجبل فأغلق عند ذلك أهل القلعة الابواب ووقفوا على الاسوار يسب بعضهم بعضا ويترامون بالبنادق وصعد جماعة من عسكر محمد على باشا على منارة جامع السلطان حسن وصاروا يرمون منها الى القلعة رميا متتابعا ومازالوا على هذا الحال الى ثانى عشرى صفر فركب السيد عمر النقيب والمشايخ ومعهم الجمع الكثير وساروا الى الازبكية ودخل المشايخ بيت محمد على باشا ووقف الجمع أمام البيت فلحق بهم العامة والعصب وطوائف الجند والملتزمين وعصب خارج المدينة وأهل الحسينية والعطوف والقرافة والرميلة والحطابة والصليبة ومعهم الطبول والبيارق فوقفوا ساعة ثم رجعوا الى الجامع الازهر ثم عادوا الى الازبكية وهم فى

صياح وضجيج والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى يحضانهم على الهياج والصياح ثم خرج المشايخ من بيت محمد على باشا وذهبوا الى بيت حسن باشا أخى طاهر باشا ثم رجعوا واستمر الحال على هذا الوصف الى ليلة الجمعة ۞ فلما كان بعد الغروب بقليل نزل جماعة من العسكر الذين بالقلعة من ناحية الرميلة وهجموا على المتاريس فصدهم أصحابها وتابعوا عليهم الرمى بالقنابل والبنادق وهكذا الى مابعد العشاء الاخيرة وخرج الاهالى بما معهم من الاسلحة والعصى فقاتلوا مع أصحاب المتاريس حتى أجلوا أصحاب القلعة عن المتاريس فلما كان يوم الجمعة رابع عشرى صفر المذكور صعد عابدى بيك الى قلعة الجبل وغاب ساعة ثم فتحت أبوابها ونزل منها عمر بيك وأمروا بالمتاريس فرفعت وتفرق من كان بها من المقاتلين وشاع خبر نزول أحمد باشا وابثوا ثلاثا وهو لاينزل وقد كانت خدعة منهم اذ كانوا قد أشرفوا على الاستئمان لفراغ ماعندهم من الذخيرة ونفاد ما كان معهم من الزاد ففعلوا مافعلوه بوساطة عابدى بيك حتى تمكنوا من نقل المؤن والذخيرة وغيرها فى بحر هذه الهدنة وأنزلوا عابدى بيك أو هو نزل بنفسه وعادوا الى الخلاف وامتنعوا من ترك القلعة وأغلقوا الابواب فزاد بالناس القلق والغم وعادوا الى التطواف وقيل بل أعادهم السيد عمر النقيب الى ما كانوا عليه من الهرج والصياح والاستغاثة واستقدم السيد عمر الجمع الكثير من قبائل عربان الشرق والغرب وأخذ محمد على باشا فى حصار القلعة من بعد عشاء ليلة الثلاثاء وكثر الاهتمام فى صبحها بذلك وجمعوا الفعلة وأصعدوا جماعة من الجند والعربان وغيرهم الى المقطم وأصعدوا بعض المدافع ورتبوا لهم عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء وظنوا الظفر بأحمد باشا ومن معه وبينماهم على هذا الحال من الاهتمام فى أمر الحصار والتضييق على أصحاب القلعة اذ تحرك العسكر وطالبوا محمد على باشا بالعلوفة والجامكى المتأخرة فطاولهم حتى ينزل أحمد باشا من القلعة فأبوا الا أخذ مالهم فمناهم فتركوا المتاريس التى كانوا بها حوالى القلعة وتفرقوا فذهب جماعة من العامة وأهل العطوف فتترسوا فى مواضعهم ورسم السيد عمر النقيب فانحاز أهالى كل خطة الى خطتهم وعملوا المتاريس على رؤس الحارات والشوارع ولازموا التطواف نهارا والقيام باخطاطهم ليلا فتقوى أصحاب قلعة الجبل وتراسلوا الرمى بالقنابل على المتاريس ففعلت بالمدينة والخطة القريبة منها فعلا رديأ جدا ونزح أهلها الى الاطراف فرارا * وكما كان جوف مصر والقاهرة يلتهب بنار الفتنة ويزداد فى كل يوم ضراما كانت البلاد فى ضيق ماعليه من مزيد بسبب فعال الالفى الكبير ومن معه من لموم العربان فقد أفحشوا فى القتل والنهب والتخريب بما لم يسمع له مثيل ولا وقع له نظير فنزح الناس عن البلاد وهرعوا الى مصر والقاهرة وهم فى أسوإ حال فامتلأت بهم الازقة فكانوا لايجدون ما يأكلون ولا ما يشربون ومات منهم العدد العديد جوعا وعريا تحت أقدام الثائرين من العسكر والاهالى وكان المنظر فظيعا والخطب عميما وخاف محمد على باشا من سوء العاقبة فأرسل الى كبار عسكر الدلاة المعسكرين بقليوب يستقدمهم فحضروا اليه فكلمهم فى أمر الانضمام اليه فوافقوه فخلع

عليهم الخلع السنية وأنفق عليهم وسيرهم لقتال الالفى فارتحلوا الى قليوب خلف الالفى فصاروا كلما نزلوا ببلدة طلبوا من أهلها الكلف والمغارم وساموهم الخسف وعملوا معهم ما لم تعمله لموم الالفى فكانوا أشدّ هولا وأقوى نكالا وتقاعسوا فلم يلحقوا بالالفى

واشتدّ الخطب على من بمصر والقاهرة وطالت أيام الفتنة وتمنع الباشا وأصحابه بقلعة الجبل وأبوا التسليم وأهل البلد فى هياج وصياح وجلبة وكان بجهة الفسطاط من مقدمى عسكر الارنؤط مقدّم اسمه على باشا السلحدار قد خرج بعسكره عن مخالفة محمد على باشا بأسباب الجماكى والعلوفة فعمل على باشا المذكور على الوصول بأحمد باشا الوالى بقلعة الجبل وما زال حتى تمكن من نقب سور القلعة من ناحية عرب اليسار وسعت بينه وبين أحمد باشا الرسل وصار يمدّ أحمد باشا وأصحابه بالذخيرة والمؤنة من الميرة والاغنام وقرب الماء وكل مايحتاجون اليه ولبث على هذا الحال أياما ثم دبر هو وأحمد باشا على الهجوم على المتاريس ليلا من ناحية الصليبة وان أصحاب القلعة يوالون فى وقت الهجوم اطلاق القنابل على المتاريس من ناحية الازبكية وجامع الازهر وجوف المدينة وقدتم الامر بينهما على ذلك فأصبحوا وقد أرسلوا الى السيد عمر النقيب يخادعونه ويطلبون السعى فى اطفاء نار الفتنة وعمل مافيه المصلحة للاهالى والجند قبل وأرادوا بذلك تثبيط همم أصحاب المتاريس وإشغالهم بأمر الصلح عن الدفاع فسبق من أعلمهم بسرهم وما عقدوا النية عليه فأرسل السيد عمر الى أصحاب المتاريس من الاهالى والجند وكذلك أصحاب الاربطة وحثهم واستنهض هممهم وحذرهم فاستعدّوا وراقبوا فرأوا الجمال التى تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا الى القلعة ومعها بعض الخدم والاتباع ونفر من الجند فخرج عليهم حجاج الخضرى زعيم عصابة الرميلة بمن معه من سكان الرميلة فقاتلوهم وظفروا بهم وأخذوا منهم تلك الجمال وقتلوا اثنين وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم الى بيت السيد عمر النقيب فبعث بهم الى محمد على باشا فأمر بهم فقطعوا رقابهم فلما علم من بقلعة الجبل ماحل بأصحابهم رموا فى الحال بالقنابل على المدينة وبيت محمد على باشا وبيت حسن باشا وناحية الازهر ووالوا الرمى ولم يزالوا على هذا الحال من أول النهار الى ما بعد الظهر ثم عادوا ورموا من العشاء الى سادس ساعة من الليل فلم يجبهم أحد من أصحاب المتاريس ولا المرابطين بالمقطم وأصبحوا يوم الاحد وهم يتابعون الرمى طول النهار وكذلك ليلة الاثنين ويوم الاثنين الى يوم الخميس بطل الرمى ثم عادوا اليه فى يوم السبت وقدتهدم العدد العديد من الدور والرباع بخط الازهر وعلى مقربة من الازبكية فنزح أهل خطة الازهر الى بولاق القاهرة والحسينية فرارا من النيران المتراسلة على دورهم ۞ واتفق أن حضر من الاسكندرية فى هذه الاثناء طائفة من عسكر الانجليز ونزلوا ضيوفا عند قنصل دولتهم فكانوا يجتمعون كثيرا بمحمد على باشا ولبثوا على هذا الحال أياما ثم طافوا يوما مع عسكر محمد على باشا بالمدينة والفسطاط وحول الاسوار وقلعة الجبل وكان بناحية قلعة الفرنسيس التى بقنطرة الليمون مدفع كبير فرسم محمد على باشا بنقله فنقلوه الى باب الوزير

حيث مجرى السيل وقيدوا به جماعة من أولئك الانجليز فرموا به على برج القلعة وكذلك رمى المرابطون بالجبل وتتابع الرمى وتراسلت القنابل فخربت وأحرقت وأبادت وأهلكت وفعلت بالناس والمبانى مالا يمكن وصفه واشتدّ الكرب بالناس وعم الويل والبلاء الرفيع والوضيع فنزح الناس الى القرى والكفور وأكثر المشايخ والعلماء والوجهاء من الاجتماع بمحمد على باشا والعامة وقوف بأبواب المشايخ يضجون من قفل الاسواق وامتناع باعة الخبز من فتح دكاكينهم والمشايخ يلاطفونهم والسيد عمر النقيب لاينكف عن تحريضهم خوفا من سكون الفتنة واخماد نارها قبل بلوغ محمد على باشا ما يتمناه من الولاية على الديار المصرية وكان لما اجتمع المشايخ والعلماء والوجهاء ونادوا بولاية محمد على باشا وألبسوه القاووق والقفطان كتبوا بذلك محضرا وأرسلوه الى الباب العالى وتقدموا الى السلطان فى تولية محمد على باشا على ولاية مصر وألحوا فى الطلب وبالغوا فى الشكوى من فساد الامور وما تقاسيه الرعية بأسباب مظالم الولاة وتصرفهم بالعسف والفجور وقبحوا مسالك أحمد باشا الوالى وطلبوا خلعه

فلما كان يوم الاثنين رابع ربيع الآخر سنة عشرين ومائتين وألف هجرية قدم رسول من دار السلطنة بفرمان الولاية الى محمد على باشا وشاع خبر وصوله الى بولاق فهرع المشايخ والعلماء وأصحاب الوظائف للقائه وتسابق العامة وكثرت الغوغاء فى الشوارع والطرقات وبأيديهم السيوف والمساوق والعصى وهم فى ضجيج هائل وصياح متتابع فركب رسول السلطان وركب خلفه المشايخ وأرباب الوظائف وساروا فسار العامة أمامهم وهم يضربون الطبول والزمور ويضجون بكلماتهم التى تعودوا على الضجيج بها وما زالوا حتى أتوا الازبكية فنزل رسول السلطان ببيت محمد على باشا وأقام برهة لطيفة ثم أمر فانتظم المجلس وحضر المشايخ والعلماء كافة والوجهاء وأرباب المناصب العالية والوجاقلية وكثر الجمع فقرئ الفرمان فكان يتضمن الامر بخلع أحمد باشا من منصب الولاية وتوجيهه الى محمد على باشا اعتبارا من اليوم العشرين من ربيع الاول سنة عشرين ومائتين وألف هجرية اجابة لطلب المشايخ والعلماء والاعيان وان أحمد باشا الوالى يخلى عاجلا عن القاهرة الى مدينة الاسكندرية ويبقى بها حتى يأتيه أمر السلطان فما أتم القارئ كلامه حتى ضج الناس بالدعاء للسلطان وعلت أصواتهم واشتدت بينهم الجلبة وابثوا على هذا الحال ساعة ثم انصرفوا وباتوا وأصبحوا ورمى القنابل من قلعة الجبل متتابع وكذلك من الابراج والمعاقل والمتاريس ثم بطل الرمى بعد ظهر اليوم وبقى المحاصرون لاينفكون عن حصارها ومنع الواصل اليها وأرسلوا الى أحمد باشا صورة ماورد من السلطان من أمر خلعه وتولية محمد على باشا وطلبوا منه أن ينزل من قلعة الجبل ويرحل الى الاسكندرية فامتنع وطلب الاجتماع برسول السلطان فلم يرض الرسول وأبى الاجتماع به فاجتمع المشايخ والعلماء والوجهاء وذهبوا الى محمد على باشا وقالوا له ما بالك لاتدع عن الرعية حمل السلاح وقد توليت الامر فاعمل بتدبيرك على اخراج أحمد باشا من

مطلب خلع احمد باشا وولاية محمد على باشا

القلعة واقبض على زمام الامور فنحن من اليوم رعيتك وقد تركنا لك الحل والعقد فتصرّف ۞ وأصبحوا وقد فتحوا أبواب الازهر بعد غلقها أياما وطاف الوالى ومعه جماعة من المتعممين ينادون بالامان وإلقاء السلاح وعود العامة الى أشغالهم وملازمة أصحاب الحوانيت حوانيتهم فخاف الناس من ذلك وتطيروا وظنوا فتك العسكر بهم ان هم ألقوا عنهم السلاح فامتنعوا وتترسوا فى الازقة والحارات ورجموا بعض أصحاب الوالى بالاحجار وصاحوا فى وجوههم فشدد الوالى فى المناداة ورجوع الناس الى أشغالهم نهارا ومراقبة الحوادث ليلا وجاءت الاخبار فى هذه الاثناء بقدوم الامراء المطرودين من الاقاليم القبلية الى جهة طرا والبساتين وأنهم على أهبة القتال فركب محمد على باشا فى نفر من الجند ومعه حسن باشا وأخوه عابدى بيك وساروا الى جهة البساتين والتقوا بالامراء المصريين وقاتلوهم فتقهقر الامراء وترفعوا ثانيا الى الصعيد فوقف محمد على باشا بمن معه من الجند أمامهم أياما ثم عاد الى القاهرة كل هذا وأحمد باشا المعزول متترس بقلعة الجبل لاينزل منها ولا يعترف بولاية محمد على باشا وكلما سألوه فى أن ينزل زاد فى التحذر وتقوّى فى التترس فلما كان اليوم خامس عشرى ربيع الثانى من السنة أى سنة عشرين حضر رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم الى أحمد باشا بترك قلعة الجبل والجلاء الى مدينة الاسكندرية حتى يرد عليه أمر السلطان فأرسلوا الى أحمد باشا ذلك المرسوم فأبى النزول وقال حتى يأتى الىّ رسول أمير المؤمنين ويشافهنى فى الامر فصعد اليه الرسول وما زال الحال هكذا أياما والناس فى خوف من انتشاب الحرب الى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الاولى نزل أحمد باشا من باب الجبل الى بيت مصطفى أغا الوكيل ونزل من كان معه من الجند ثم خرج الى جهة باب النصر ومر من خارجه الى جهة الخروبى وذهب الى بولاق وأقام بمنزل السيد عمر النقيب وتسلم أصحاب محمد على باشا قلعة الجبل وأقام أحمد باشا ببولاق أياما ثم رحل عنها الى الاسكندرية باتباعه ومتاعه وعياله فكانت مدة تصرفه سنة ونحوا من ثلاثة أشهر

الى هنا تم الجزء الثالث من تاريخنا الكافى ويليه ان شاء الله تعالى

الجزء الرابع وأوله ترجمة حال محمد على باشا ثم أخبار ولايته

وأخبار من تولاها بعده من ذريته الى وفاة

ساكن الجنان المرحوم

محمد توفيق باشا

الاول

م



(استلفات)

قد وقع خطأ فى نقل ترجمة حال ومدة ولاية بعض بطاركة المتأصلين فى هـذا الجزء من أيام يوحنا سادس تسعيهم الى أيام مرقس السادس بعـد المائة لتكرار أسمائهم وتشابهها وخطأ ترتيب الاوراق التى نقلنا عنها فـرأينا أن ننبـه الى ذلك ونعيـد هنا ترتيب أسماء وأيام هـذا العدد منهم على الوجه الاصح اعتبارا من سلطنة السلطان سليمان الثانى تاركين ماجاء منها على ترتيبه الاول أى من سلطنة السلطان سليمان المشار اليه الى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى بدون مساس فانه لم يؤثر بشئ على ترتيب أيام وحوادث وأخبار الملوك والولاة والحكام الذين تجمعهـم صحائف هـذا الجزء ولا على ترتيب حوادث وأيام ما سبقه من الاجزاء ولله المنة والحمد ﷺ وعلى كل حال فهو خطأ أرجو أولى الفضل والادب أن يسبلوا عليه ذيل المغفرة ويتنازلوا بقبول ما أبديه من المعذرة فقد كانت عودتى الى خدمة وطنى العزيز وتوالى أسفارى وعدم استقرارى خصوصا فى الوقت الذى تناولت فيه أيدى الطباعـين ملازم هـذا الجزء حائلا دون اسـتعادة تلاوة بعض ملازمـه التى قد اعتورها هـذا السهو فكانت عثرة فى أسـلوب ترتيب أسماء هؤلاء الناس الذى وفقناه على قاعدة مامر بيانه الى أيام يوحنا هذا سادس تسعيهم والعصمة لله وحده

سلطنة السلطان سليمان خان الثانى	ومات فى أيام السلطان سليمان خان الثانى غبريال بطرك المتأصلين بعد أن قام ثلاثا وأربعين سنة وقد عمر فى أيامه دير انبا انطانيوس ودير انبابولا بالجبل الشرقى من النيل باقليم بنى سويف والبهنسا واشتد عليـه الولاة والعمال فانكمش حينا وكان راهبا من دير السريان واسمه روفائيل فأقيم بعـده يوحنا وهو سادس تسعيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله
سلطنة السلطان مصـطفى الثانى ابن محمد الرابع	ومات فى أيام السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام خمس عشرة سنة وكانت أيامـه كلها شدائد ألزمـه العمال وأصحاب جباية الاموال بجمع الجزية من الاقباط فجمعها كارها حزينا واشتدوا عليه بسببها فكانت محنـة كبرى قاسى الناس فى أثنائها من الجور والعسف اشكالا وبموته قام بعده غبريال وهو سابع تسعيهم واسمه شنوده من بلدة بسين وكان راهبا بدير انبا بشوى ووقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

سلطنة السلطان أحمد بن السلطان محمد

ومات فى سلطنة السلطان أحمد بن السلطان محمد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن قام احدى عشرة سنة وكانت أيامه كلها هدؤا وسكينة ولم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده مرقس ثامن تسعيهم وأصله من بلدة البياضية وكان عالما ورعا تقيا محبا للخير صبورا على المكاره اشتد العمال فى أيامه على القبط شدة عظيمة فكان يكثر من التطواف بين الناس ويحضهم على الصبر والسكون حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ومات بعد أن قام احدى عشرة سنة. فأقيم بعده يوحنا تاسع تسعيهم وأصله من بلدة ملوى بصعيد مصر وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

سلطنة السلطان محمود خان الاول

ومات فى سلطنة السلطان محمود خان الاول يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشر سنوات لم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده متاوس المتمم للمائة وأصله من بلدة طوخ فلبث خمس سنوات أو ستا لم يقع فيها شئ يذكر ومات فاقيم بعده مرقس الحادى بعد المائة وأصله من بلدة بهجورة بالاقاليم الوسطى من صعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله

سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان

ومات فى سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشر سنوات وكان حازما شديد البأس صبورا على المكاره قوى الحجة لم يقع فى أيامه شئ يذكر فأقيم بعده متاوس وهو الثانى بعد المائة وأصله من بلدة مير واسمه جرجس وكان راهبا بدير البراموس وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد

ومات فى سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد متاوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربع عشرة سنة وفى أيامه نقل دار البطركية من حارة زويلة الى حارة الروم بالقاهرة وسكن بها وكان تقيا ورعا عالما فأقيم بعده يوحنا الثالث بعد المائة واسمه ابراهيم من رهبان دير أنطونيوس وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد

ومات فى سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان عالما فاضلا تقيا ورعا أعاد فى أيامه عمارة دير انبا بولا ورمم مبانى بعض الديارات الأخرى وكانت أكثر أيامه شدائد وخطوب متراكمة بعضها فوق بعض كادت بسببها تتعطل شعائر الدين لولا لطف الله فأقيم بعد موته بطرس الرابع بعد المائة واسمه مرجان من رهبان دير انبا بولا فأقام سبع سنين ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده يوحنا الخامس بعد المائة واسمه عبد السيد من رهبان دير انبا بولا ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى

ومات فى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان عشرة سنة واشتد فى أيامه على بك بلاط على المسيحيين شدّة بالغة وضيق عليهم جدا وصادر الكثير منهم ثم ضرب عليهم غرامة قدرها مائة ألف ريال فانبثت أعوانه لجمعها وقد عاثوا وأفسدوا وفعلوا مالا خير فيه وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر والاحجار الكريمة بأبخس الاثمان وبموته أقيم بعده مرقس السادس بعد المائة واسمه سمعان من دير انبا بولا وأصله من بلدة قلوصنه وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

الى هنا قد تم تصويب ما قد وجد ساقطا سهوا من أسماء وأخبار أيام أولئك البطاركة فى هذا الجزء والله سبحانه الهادى الى الصواب

تصويب
الجزء الثالث

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٣	٦	اكتسحوا	اكتسحوا
١٠	٢٣	..	على
١٥	٢٥	..	ميلادية
١٧	١	بحت	تحت
٢٠	٢٣	وسقط	وسقطوا
٣٩	١	الممالك	والممالك
٥٢	١٢	حطبة	حظية
٥٩	٩	من	..
٦١	٢٧	للثائرين	للثائرين
٦٥	٤	الفسا	النساء
٧٤	٦	حسنة	حسنة
٩٤	١٤	رلما	لما
٩٥	١٢	تثاقلوا	تثاقلوا
٩٨	١٣	غايته	عنايته
٩٨	١٤	حق	حتى
٩٨	١٩	يتم	تتم
٩٨	٣٠	ولما	وهم
١٠٠	٦	غموا	عمّوا
١٠٢	٦	كان	وكان
١٠٦	٧	..	باشا
١٠٨	١٥	اتحاد	اتحاد
١١٠	٣٠	وكانت	وكان
١١٤	٥	جربجى	جوربجي
١١٤	٢٢	طزيق	طريق
١٢٠	٦	اعلا	اعلاه
١٢٠	١٨	وصرح له	وسرحه

تابع تصـــويب

الجـــزء الثـالث

صحيفة	سطر	خطــــأ	صــواب
١٢٢	٣	يفحصر	يفحص
١٢٧	٩	لجهروا	لجهزوا
١٢٧	٢٢	باكر	باكير
١٣١	٥	عليه	..
١٣٢	٩	تنوبها	تنويها
١٣٧	٢٧	ثلاثاء	ثلاث
١٣٩	١٢	بتصرف	يتصرف
١٤١	١	جاء	جاه
١٤٥	٢٢	الداوريه	الداودية
١٥٤	٢٢	ختل	خذل
١٥٥	١٥	وقصد	وصعد
١٥٥	٣١	معهم	منهم
١٧٤	٣١	والشيخ	شيخ
١٨٥	٢٠	وتخييل	وتخيل
١٩١	١٨	بندينة	بمدينة
١٩١	٣١	غدة	عدة
١٩٩	١٣	ققصل	قنصل
٢١٢	١	النفال	السنفال
٢١٩	٢٨	غيرهم	غيرهما
٢٢٨	٦	الثور	الثورة
٢٣٣	٥	غزو	لغزو
٢٣٦	٦	فلم	ولم
٢٣٨	١٠	به	بهم
٢٥٣	١٣	يبدى	بيدى
٢٥٣	١٤	عليه	على
٢٥٣	٢٢	انخاذ	انحاز

تابع تصويب

الجزء الثالث

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٥٦	١	غيرهم	غيرهما
٢٦٤	١٠	النظر	المنظر
٢٦٩	١٤	الديون	الديوان
٢٧٣	٢٤	فى	فى
٢٧٦	١٠	المصريين	المصريين
٢٨٠	٢٠	يبيغون	يبيعون
٢٩٠	٢٨	وقتك	والفتك
٢٩٨	٥	بخيمة الباشا دخل	دخل بخيمة الباشا
٣١٥	١٢	اليوم	٠٠

